لن تعرف ابدا حقيقة اعمـــال البطولة التى دارت وراء متـــاريس بودابست ، الا بعد ان تقرأ هذه المأساة الصادقة ، التى كتبها بدمائهم الذين ماتوا ورواها الذين قاتلوا . انها سجل من نار ، وعبرة للعالم كله .

كتاب الشهر

جسر أنداو

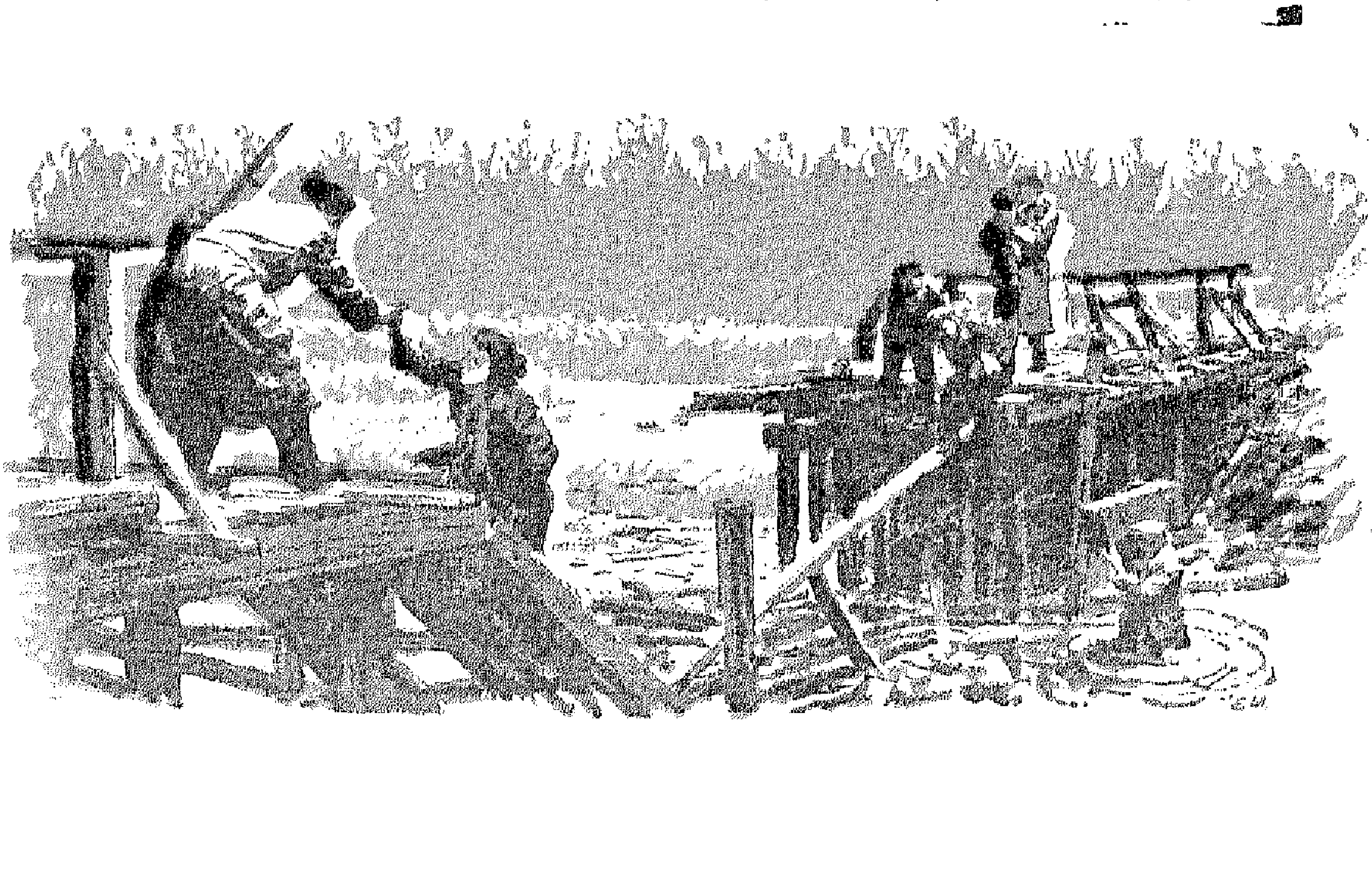
خلاصة كتاب الفه جيمس متشنر

THE BRIDGE AT ANDAU

فى نفس اليوم الذى كان يوسف توت يقوم بمغامرته الكبرى ، كان جيمس متشنر الذى فاز بجـائزة بولتزر الادبية فى مطار روما ، عائدا من جولته الواسعة فى آسيا .

وكان متشنر يتوقع أن يعود الى نيويورك فى بضعة أيام . ولكنه سـافر الى فيينا ، وهناك استغرقته نفس الحوادث الكبرى التى أمسكت بحياة يوسف توت والملايين من أبناء وطنه

ولكى يعـد جيمس متشنر هذا الكتاب ، أمضى أياما وليالى عديدة على الحدود المجرية . تحدث الى مئات من الرجال والنساء والاطفال الذين حاربوا فى مدينة بودابست المحاصرة . وقد عاونه المترجمون فى كتابة هذه القصـة وفى تسجيل كثير من الوثائق التى وقعت فى يديه . وكل كلمة من هذا الكتاب تنطبق على الواقع ، الا اسماء الابطال الذين وردت هنا ، فلاسـباب تتعلق بأمنهم وسـلامتهم أخفيت حقيقتهم .



جسر عند أنداو

١ ـ يوسف توت

كان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وهو يوم لن ينساه العالم كله . ففى هذا اليوم دخل شاب فى الثامنة عشرة مكتب رئيسه فى مصنع القاطرات ببودابست عاصمة المجر . ولم يكد رئيسه يراه حتى هدده فى عنف قائلا : يجب أن تحضر حلقات البحث الشيوعية .

وكان يوسف توت شابا ، ولذلك كان يناقش رئيسه . ولكن النظرة المخيفة فى عينى رئيسه جعلته يقبل هذا التحذير .

وكان يوسف توت شابا لطيفا ممشوق القوام ، أزرق العينين ، ولكنه لايملك سوى ملابس قليلة قديمة وأجره قليل جدا ، رغم أنه يعمل منذ أربع سنوات .

وليست له أم . فقد توفيت منذ سنتين ، وفى ظروف غامضة . ولم يكن موتها مأساة عائلية فحسب ، بل كان مأساة اقتصادية ايضا . هكذا حدثت . فقد كانت أمه سيدة مرحة ثرثارة ولا تستطيع أن تقاوم النكتة اذا عنت لها .

وذات يوم كانت هذه الام تجلس فى بيتها مع بعض الجيران ولم تستطع أن تغالب النكتة التى حضرتها فقالت : أينما توجه الانسان لايجد الا علما روسيا . اننى أحن الى العلم المجرى القديم .

وفى اليوم التالى جاءت سيارة ووقفت امام باب آل توت . ونزل منها اثنان من رجال البوليس السرى واصطحبا معهما هذه السيدة . ولم يرها احد بعد ذلك ستة اشهر كاملة .

ولما خرج يوسف توت من مكتب رئيسه جعل يتدبر أمره . ولم يكن يعرف رجال البوليس السرى الذين انبثوا وسط عمال المصنع الذى يعمل به . ولكنه على يقين من أن بين العمال عددا من رجال البوليس السرى . ولقد استمع مرة الى احد العمال يقول : ان هذا المفتاح اللين ، لابد انه صنع فى روسيا . ومن أجل هذه العبارة ، طرد هذا العامل وضرب ضربا موجعا ثم أعيد الى العمل بعد ذلك .

وهذا ما جعل يوسف الصغير حذرا فى كل اقواله وافعاله ، بل فى افكاره

أيضا . وفى تلك الليلة الخالدة ذهب فتناول معطفه وخرج من باب المصنع . وفى طريقه الى الاتوبيس الذى يقله عبر المدينة ، الى حيث يعمل أبوه ، قرر فى نفسه أن يذهب غدا الى حلقة البحث الشيوعية . أما الكراهية والمرارة فقد استبقاهما لنفسه . لقد خشى أن يكون رئيسه هذا هو رجل البوليس السرى فى هذا المصنع .

ولم يكد يخطو خطوة واحدة فى هذا الليل حتى فوجىء بعدد من الشبان يصرخون فى وجهه قائلين : ان كنت مجريا حقا ، فاذهب معنا .

ولم يكن يعرف حقيقة أمر هؤلاء الشبان . فهم جميعا دون الخامسة والعشرين من العمر . ولكن المفاجأة جعلته يلحق بهم . ومضى هو أيضا يردد صراخهم فى وجه العمال الآخرين : ان كنت مجريا حقا .. فهيا بنا .

وكان يوسف يعلم معنى ذلك بوضوح . وتدافعوا جميعا فى صخب هائل الى مركز البوليس السرى ، وحاول الضباط الثائرون حفظ النظام . ولكن الشبان رفعوا اصواتهم قائلين : « ألقوا هذا السلاح » . وذهل توت عندما وجد نفسه يهتف فى وجه ضابط احمر الوجه وهو يقول : وأنت أعطنى سلاحك !

ولما سأله أحد رجال البوليس : ولماذا ؟ نظر اليه توت ولم يجب بشىء . ولكن طالبا آخر أجاب قائلا : سنقضى على البوليس السرى .

وحنى الجندى رأسه ، ولكن توت فتش جيوبه واستولى على مسدسه وسبقه الى هذا المسدس شاب أكبر سنا من توت . وفى الحال استولى هؤلاء الشبان على معقل البوليس . وبعد ذلك عادوا الى الشارع .

وفى هذه اللحظة تقدمت دبابة روسية يقودها بعض الجنود المجريين ويرشدها اثنان من البوليس السرى الى الشارع الضيق حيث كان يقف توت . وكان شيئا فريدا فى نوعه أن تقف مثل هذه الدبابة فى مواجهة شبان لا يحملون الا المسدسات .

وفى ثورة الانتقام ألقى الشبان أنفسهم على هذه الدبابة . أما الذين كانوا يحملون مسدسات منهم ، فقد صوبوها الى برج الدبابة . والذين بلا سلاح رموها بالطوب والحجارة والزجاجات الفارغة وكانوا يضعونها فى حصيرة الدبابة . واستطاع اثنان دون السادسة عشرة ، وفى جرأة ، أن يضعا الطوب فى حلقات الحصيرة . واخيرا افلحوا فى وقف

الدبابة بينما كان مدفعها يرش نيرانه فوق رؤوسهم ، ولكن بلا جدوى .

ولم يكن يوسف توت يدرك ، اية مغامرة كبرى تلك التى قام بها عندما عاون على تعطيل دبابة . وظلت الدبابة خامدة محطمة دامية فى قلب بودابست وازدادت حماسة الجماهير ، واغراهم هذا النصر بتحقيق نصر أكبر فاندفعوا الى محطة الاذاعة البغيضة اليهم .

وفى الساعة التاسعة ، بينما كان الناس يحومون حول مبنى الاذاعة ، تقدم عدد من طلبة الجامعة وحاولوا اقتحام الحواجز الخشبية وطالبوا بان يذيعوا على الشعب المجرى رغبتهم فى اجراء بعض التعديلات فى سياسة الحكومة ، ولكن رجال البوليس السرى سخروا منهم ، واقفلوا الحواجز الخشبية فى وجوههم .

ورأت الجماهير هذه الهزيمة ، فانضمت الى الطلبة وحاولت اقتحام هذه الحواجز الثقيلة . وكان رجال البوليس السرى على أتم استعداد لمثل هذا الامر ، فألقوا القنابل المسيلة للدموع بين صفوف الجماهير التى تراجعت فورا .

وفى تلك الليلة اشتعلت الحماسة من اجل الحرية ، الى اقصى درجاتها . وتزاحم الناس على الابواب الثقيلة وقابلهم رجال البوليس السرى بالقنابل المسيلة للدموع . وانسحب الناس مرة أخرى . واشترك فى هذه المعركة سلاح جديد . فمن سقف الاذاعة سلطت انوار كاشفة ، لكى يتمكن رجال البوليس السرى واعوانهم من الجواسيس من معرفة المتظاهرين ومثيرى الفتن وتسجيل أسمائهم .

وتولى الناس صمت مخيف ، وهم يتطلعون الى رجل عسكرى يخاطر بحياته فى وجه الاضواء الكاشفة ويصرخ : ايها الخنازير . اوقفوا النيران !

وانطلقت النيران نحوه . وسقط الضابط ميتا . وكان أول جندى فى المجر الشيوعية ، يسقط وهو يدافع عن الحرية .

وفى هذه اللحظة حدث شىء جسيم فى معركة بودابست ، بل وفى تاريخ العالم الحديث كله .

وكان القتال الحقيقى من اجل محطة الاذاعة على وشك ان يبدأ ، لولا أن يوسف توت الذى شهد أول المعركة ، لم يكن نصيبه أن يشهد نهاية هذا القتال . فمن اعلى الاذاعة طاشت رصاصة فاصابت توت فى ساقه اليسرى . وكانت ضربة اليمة مزقت ساقه وفجرت منها الدم ،

فسقط فى الشارع ، وآخر شيء رآه هو أن بعض رجال البوليس السرى ، كانوا يحاولون الهرب فى اضطراب شديد . وسمع من الناحية الاخرى للشارع صيحات الجماهير عندما أصابت احدى القنابل اليدوية الحواجز الخشبية .

وعلا صوت آخر يقول : ان الحواجز الخشبية تنهار ..

وفقد يوسف توث وعيه ..

٢ - المثقفون

أما حقيقة الثورة المجرية فترجع الى أن الشبان الذين حابتهم الشيوعية أكثر من غيرهم ، هم الذين انقلبوا عليها . انهم النخبة الشيوعية الممتازة التى قادت الثورة على الشيوعية .

وأحب أن أروى هنا كيف تصرف اثنان من الشبان المجريين عندما اختارهما الحزب لاحسن مراكزه ، وكيف خيرهما الحزب بين الوطنية والشيوعية .

أول الشابين هو «استيفان بالدج» فقد ارتفع الى القمة فى الحزب ، لانه يحب الكتب والقراءة . انه ابن احد العمال ، ولذلك ففى وسعه أن يتعلم الى ما بعد المرحلة الثانوية . وكان يوما مشهودا لاسرته عندما أعلن عضو كبير فى الحزب الشيوعى : لقد راقبنا استيفان طويلا ، فوجدناه ذكيا . اننا نريد شبابا يحب الكتب . كم عمره ؟

واجاب استيفان : ١٦ عاما .

وعندما بلغ الثانية والعشرين كان نحيلا ، مقوس الظهر بعض الشيء ، مسترسل الشعر وله عينان سوداوان فيهما حماسة وايمان، وله قدرة هائلة على العمل . وكان عضوا فى الحزب الشيوعى ، ويقدره الكثيرون من زملائه . وقد اعتبروه كفئا للالتحاق بمدرسة القانون بجامعة بودابست . وهناك نظروا اليه نظرة خاصة . وادرك أساتذته أن هذا الشاب مهيأ لمركز هام فى الحكومة . وبدأ يتعلم اللغة الروسية ، وكان فى طريقه الى أن يكون محاميا وزعيما شيوعيا عندما اختلط بحلقات البحث التى غيرت مجرى حياته .

وبدأت الاجتماعات سهلة بسيطة فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٥٦ عندما احتشدت جماعات من الطلبة بصفة غير رسمية ليعلنوا تضامنهم مع الطلبة الثائرين فى « بودا » وفى « بست » ضد السادة الروس . واشترك استيفان فى هذه الاجتماعات ولفت سلوكه احد زملائه من الذين يدرسون القانون . وفى ٢١ اكتوبر اختاروه مندوبا عنهم فى كل المحادثات التى

يقوم بها طلبة المدارس العالية فى بودابست. وكان هؤلاء الطلبة معنيين بمشكلات بالغة الخطورة :

١ــ اخراج الروس من المجر .

٢ــ رفع مستوى المعيشة .

٣ــ امداد البلاد بسلع اقتصادية أكثر .

٤ــ وقف التعليم الاجبارى للغة الروسية .

وفى ٢٢ أكتوبر ذهب استيفان عبر الدانوب الى المدرسة الفنية العليا حيث اجتمع بعدد من الطلبة النابهين الشيوعيين فى مدينة بودا . ولم يكن يدرى أنه سيعمل على شن ثورة كبرى ضد الشيوعية. ومضى معهم مقررين وضع قائمة كبيرة عن المظالم والشكايات ثم أعلنوا أن اجتماعا آخر سيعقد فى الثالثة بعد الظهر . وذهل استيفان عندما وجد مئات من الطلبة ، منهم عمال شيبل يصفقون للعمل الذى قامت به اللجنة التى يرأسها .

وفى المساء وقف شخص لم يعرفه احد حتى الآن ، من الصفوف الخلفية وقال بشجاعة وجرأة : أريد أن أعرف بأي حق تحتل قوات الروس أرضنا .

وكأن قنبلة انفجرت فى الاجتماع ودوت الهتافات : ليخرج الروس ! لتخرج روسيا من بلادنا !

وفى اليوم التالى اجتاح هذا الشيوعى المخلص دوار من الحماسة الشعبية . فقد تجمع فى الميدان أكثر من خمسين ألفا من الوطنيين . وكانت حماسة الجماهير مثيرة ، فوجد استيفان نفسه يصرخ ويهتف ويقول : ان الروس يجب أن يخرجوا .

وفى تلك الليلة حدث شيء . فقد كان واحدا من جمهور أكبر احتشد أمام البرلمان . وهنا وفى ميدان فسيح وأمام أجمل أبنية أوروبا على نهر الدانوب ، وقف أكثر من ٨٠ ألف مجرى ، اجتمعوا جميعا يطلبون العدالة السياسية . ومما لاحظه استيفان أن هنالك مئات من الاعلام الحديثة ، أما الاعلام الروسية الحمراء ، فقد اختفت. ورأى أناسا قد ألهبتهم الحماسة الوطنية وسمع النساء يهتفن : ليسقط زعماؤنا . لتحى الحرية ! نريد ايرى ناجى !

واستمع استيفان الى هذا النداء الاخير ، وكله أمل . فقد كان ايرى ناجي شيوعيا مخلصا ، وعرف الحكم منذ وقت طويل . ولكنه نحى عن منصبه منذ سنين عديدة لانه كان متحررا . وكان من الممكن فى ظل ايرى ناجي أن تكون المجر أكثر حرية

وتظل مع ذلك بلدا شيوعيا طيبا .

وتملكته الدهشة عندما وجد ايمرى ناجى يظهر فى شرفة البرلمان ويخطب فى الجماهير قائلا : أيها الرفاق الأعزاء .

وضجت الجماهير بالاحتجاج قائلين : لسنا رفاقا . لاتستخدم هذه الكلمة .

وتراجع ايمرى ناجى وقال : أيها الاصدقاء الأعزاء .

وسرت بين الناس أبيات من نشيد حماسى قديم يقول : اليوم والا فلا . وأثناء هذا النشيد كان ناجى يرفع يديه طالبا الى الجماهير أن تسكت . وفرحت الجماهير عندما أخذ ناجى بصوت متهدج يردد معهم النشيد المجرى القديم الذى منعته الحكومة ثم يقول معهم : حفظ الله المجر !

وبدأت الحشود تذرع شوارع بودابست وسرت فيهم جميعا أنباء تقول ان النيران تنطلق عند محطة الاذاعة . واعتقد استيفان انه يحتمل ان يكون البوليس السرى قد قضى على الثوار . ولكن انباء كثيرة تناهت اليه تقول : ان الطلبة والعمال يقاومون البوليس السرى .

واندفع الوطنيون فى حماسة جنونية الى مبنى الاذاعة وآخرون من بينهم استيفان ، شقوا طريقهم الى أكبر مكان احتشد فيه الوطنيون ، الى ميدان ستالين ، على الحافة الجنوبية للمتنزه الكبير فى مدينة بست . وفى وهج المشاعل واضواء السيارات ، وجد استيفان نفسه بين ألوف من الشعب يتغنون بهتافات ضد روسيا .

ورأى استيفان شابين يأتيان عملا جريئا . انهما يصعدان تمثال ستالين وكانا يعلقان الحبال فى رأس التمثال . وتلفتت الجماهير تعرب عن رضاها عن هذا العمل ، وعندما نزل الشابان من أعلى التمثال ، تجمع العمال وراحوا يجذبون الحبال . أما بقية الجماهير ، فكانت ترقب ذلك باهتمام .

وكان لابد أن تفشل هذه المحاولة فقد صنع الروس التمثال سميكا بحيث لايمكن معها تحطيمه بهذه السهولة . وبدأت النساء يضربن التمثال بأيديهن ، الى أن تقدم ثلاثة من العمال الشبان وكانت معهم شعل من مادة الاستيلن . واخذ العمال يجذبون التمثال بقوة وبدأ التمثال ينحنى ساقطا على وجهه .

وعند ملتقى الشارع الكبير الذى يلف مدينة بودابست ، بشارع راكوزى ، اجتمع عدد من الطلبة المجريين

وكانوا يطلون من الشرف الحديدية لمبنى صحيفة الدعاية الشيوعية المسماة «الشعب الحر» . وفى هذه الاثناء قامت مظاهرة من الشبان يهاجمون هذه الصحيفة الكبيرة . أما



استيفان ذلك الشيوعى الطيب الذى اختاره الحزب لأسمى مناصبه فقد انضم بكل اخلاص الى بنى وطنه فى كفاحهم ضد المظالم . والى جوار هذه الصحيفة كانت توجد نوافذ الغرفة التجارية لبيع كتب الدعاية الشيوعية وهنا تقدم كثير من طلبة الجامعة وحطموا هذه النوافذ وألقوا ما بها من كتب ونشرات فى عرض الطريق .

ان استيفان لم يكن بطلا وانما هو وطنى يكافح من أجل حرية المجر .

واذا أنت استمعت اليه وهو يروى لك قصته ، فانك تحس أن الحظ السيىء هو الذى أفقدالروس مثل هذا الطالب الموهوب استيفان .

ولكن هذا الشاب الثانى « بيتر شجيتى » لا شأن للحظ به . انه شاب رقيق مثقف فى السابعة والعشرين من عمره وهو يقول : «منذ السادسة عشرة من عمرى وأناشيوعى مخلص . وكانابواى فلاحين يتضوران جوعا . وفى يوم وقعت يدى على مؤلفات كارل ماركس . وكانت افكار ماركس كالسياط القوية التى جعلت كل شىء أمامى واضحا »

وكانت حياة هذا الشاب ممتعة حقا : فقد منحوه مصاريف الانتقال وأذنوا له أن يقرأ كتبا أجنبية ، وأطلعوه على كل ما يحدث فى العالم وأعدوا له مكانا نظيفا للسكنى . وعلى الرغم من هذا ، فانه عندما اندلعت الثورة ضد الشيوعية لم يكتف

بالانضمام اليها وانما تزعمها • أما كيف حدث ذلك فأمر يصعب تفسيره وفى ذلك يقول : أعتقد أنها بدأت عندما ادركت الهوة الهائلة بين وعود الشيوعيين التى بذلوها وهم يحاولون الوصول الى الحكم وبين ما حققوه بالفعل • وكل النداءات والامانى الشيوعية تبدأ طيبة مقنعة عندما يحاول هؤلاء الحمر السيطرة على الشعب • ولكن سرعان ما يتكشف الامر •

وعندما سمع بمظاهرات يوم ٢٣ اكتوبر لم تبلغ حماسته مداها • وانما توقع بعض المتاعب يوم ٢٥ اكتوبر عندما كان بين الجماهير الهائلة التى تهتف باسم الحرية أمام مبنى البرلمان • وكان يرى أن الشعب فى هذه المرة لن يبرح هذا المكان دون أن تعده الحكومة بشىء • وامضى صبيحة ذلك اليوم يتأمل الميدان الفسيح الذى لم ير فيه واحداً من الرسميين ، وانما كان على حد قوله لايرى الا رجال البوليس السرى وكانت فى أيديهم المدافع الرشاشة متراصين على سطح البرلمان ومدافع أخرى اصطفت فوق مبنى المحكمة العليا وفوق وزارة الزراعة • وكذلك كانت الدبابات الروسية القوية ترابط حول مبنى البرلمان • وكانت الدهشة لا تزال ظاهرة على وجوه الضباط الروس

وعلى الرغم من هذه المدافع التى تهدد الجماهير بدأوا يهتفون من اجل « امرى ناجى » • ولكن احد رجال البوليس السرى الواقفين فى اعلى المحكمة العليا نفد صبره فأطلق رصاصة على الجماهير • وشاء سوء الطالع ان تصيب هذه الرصاصة طفلا على صدر أمه فترديه صريعا على الارض • وتنهض الأم ترفع طفلها بذراعيها وتندفع نحو دبابة سوفييتية قائلة : قتلتم ولدى • اقتلونى معه •

وكان عليهم أن يصوبوا نيرانهم الى ما فوق رأس « شجيتى » مباشرة حتى لقد كان يسمع الرصاص وهو يمزق الهواء فوقه • وفى تلك اللحظات الرهيبة سقط أكثر من ٦٠٠ من المدنيين • وأيقن كل انسان بعد ذلك أن قتال رجال البوليس السرى مع أبناء بودابست لن يعرف هدنة أبدا • وبعد ذلك جاءت الادلة قاطعة عندما اتجهت احدى سيارات الاسعاف تقل الاطباء لانقاذ الجرحى الذين تناثروا فى الميدان ، فلم يكد الاطباء يتجهون الى الجرحى محاولين اسعافهم حتى أوقفهم رصاص البوليس السرى • وهذا الشاب شجيتى الذى كان الفتى

المفضل عند الشيوعيين المجريين منذ سنة ١٩٤٦والذى رشحته الشيوعية لأسمى مناصبهـــا ، قد رأى بعينى رأسه مذبحة الاطباء • وبلغ منـــه الاستياء أقصىدرجاته•ولم يملكأعصابه وانما صرخ فىرجال البوليس السرى قائلا : سفاحون ! كلاب ! خنازير !

٣ ـ رؤية خاطفة

وهــذا القسم الاول من معــركة بودابست الذى بدأ فى ٢٣ اكتوبر ، وانتهى فى ٢٩ اكتوبر ، واحس فيه الروس بتهديد لم يكن متوقعـــا ، واضــطرهم الى الانسحــاب ، لكى يعيدوا تنظيم قواتهم ، قد أدى الى أن تقع المدينة كلها فى أيدى المدافعــين عن الحرية •

وظلت بودابست خمســـة أيام ، وهى تتوهم أن المجر قــد تحــررت أخيرا من السيطرة الروســية ، وأن تعديلا جديداً للشيوعية ، سـيحل محل البوليس السرى •

ولعل من أقوى الادلة على الحرية التى حققتها هذه المدينة ظهور عــدد كبـــير من الصحف المختلفـــة فى شوارعها • وكأنما حدث ذلك بفعل ســاحر • وكانت هنـــاك صحف اشــتراكية ، وصحف للفــلاحين والنقابات والهيئات المختلفة معلنين للنـــاس عن الطريق الســليم نحو تحقيق الامانى الوطنيـــة • وجاءت الاذاعة دليلا آخر على هــذه الحرية • ففى يوم عيد جميع القديسين أعلن المذيع أنه من أجل هؤلاء الشجعان الذين ماتوا من الرجال والنســاء فى سبيل حرية المجر تذيع المحطـــات مقطوعات موسيقية لم يسمعها احد فى المجر منذ ســـنوات • وأذاعت على الفور الموسيقى الذهبية لموزار •

وأخذت الشـــائعات تنتشر فى المدينة ، ولكن أكثرها ايلاما للنفس تلك التى قالت ان الامــم المتحـــدة ستتدخل فى هــــذا الموقف الى جوار المجر • كما أن هؤلاء الذين استمعوا بصورة منتظمة وسرا الى راديو لندن وراديو أوربا الحرة الذى يذيع أنباء امريكا من ميونخ قد اقتنعوا بأنه لن تكون الامم المتحــدة ، وحــدها هى التى ستتــدخل ، ولــكن الولايات المتحدة أيضا ستنزل بقوات المظلات فى بودابست وتتبعهـــا الدبابات وامدادات أخرى كثيرة •

وعنــدما أثبتت الايام أن هـــذه الشائعات ، كانت أضغاث أحلام ، غمــر المدينـــة احســاس بالعزلة والوحدة • وسرعان ما تبــدد هــذا الاحساس بالوحدة والأسى ، بكثير

من النوادر التى تداولها المجريون الذين لم يقهرهم أحد • فمثلا تمثال ستالين المنهار فى حديقة ستالين ، كان مادة للفكاهة ، وهاك مثالا مما كان يقال : ان احدا لم يوقع هذا التمثال على الارض ، وانما مر أمامه أحد المجريين وألقى بساعة يده أمام التمثال ، فلم يملك ستالين ، ككل الروس ، الا أن ينحنى ويلتقطها ••

وبهذه الروح المرحة أفلح المجريون فى تحقيق تغييرات جوهرية فى حياة المجر كلها • فكلمة «الرفيق» أزيلت رسميا • وأصبح مما يؤذى شعور الناس أن تناديهم بهذا الاسم •

وأصبح يوم ٢٣ أكتوبر عيدا قوميا • وألغيت اللغة الروسية من المدارس ، بعد أن كانت مادة إجبارية • وشىء أهم من ذلك هو أن الاحزاب السياسية بدأت تعمل • وأخذ الناس يتحدثون فى كل مكان عن استطاعتهم التصويت من أجل الذين يحبون •

ثم جاءت اخبار مفزعة من شرق مدينة بودابست ، فقد أقبل شاب صغير يعلن أن مئات من الدبابات الروسية تتحرك عند المطار •وتأكد الناس من هذه الانباء اللعينة •

وحينئذ هبت من الشرق رياح باردة ، جاءت عبر مراعى الاستبس الروسية •

٤ ــ الفزع

فى الساعة الرابعة من صباح يوم الاحد ٤ نوفمبر عاد الروس الى بودابست ، واستولوا على منطقة صخرية ارتفاعها ٢٣٠ مترا تشرف على المدينة ، وتنحدر سفوحها الى الضفة الغربية لنهر الدانوب • وفى قمة هذا المرتفع نصب الروس مدافعهم الميكانيكية وكميات ضخمة من الذخيرة • ومن هذا المرتفع تشرف المدافع على المدينة وتتحكم فى الكبارى الثابتة التى قامت على نهر الدانوب ، وتتحكم فى مبانى الجامعة ومحطات السكك الحديدية ، وستوديوهات الاذاعة ومصانع « شيبل » وتلك البقعة التى أثارت غضب الروس لمقاومتها المستمرة ، أعنى ثكنات كيليان • وكان فى استطاعة هذه المدافع وحدها أن تحطم مدينة بودابست•ولكن القائد السوفيتى أضاف اليها ١٤٠ ألفا من مشاة الجيش الروسى ، وكان هناك ٦٠ ألفا من الجنود فى منطقة مجاورة على استعداد للزحف على بودابست اذا ما استدعيت لذلك • واستمرت

المقاومة فى بودابست وكل جندى من الجنود الروس مزود بمدفع رشاش ومؤن كثيرة ولا ينتظر الا سماع كلمة واحدة : هى : اطلق النار !

وبعد ذلك أتى الروس بألفين من الدبابات • وكانت دبابات منيعة ، وليست كتلك الدبابات القديمة من طراز ت٣٤ فهى واطئة البرج سريعة مدرعة ومزودة بالمدافع الرشاشة ومن طراز ت ٥٤ وسرعتها ٦٥ كيلو مترا فى الساعة • وفى استطاعتها أن تدوس سيارة ، وأن تحطم بمدفعها بيتا قائما • وكان فى متناول القائد الروسى طائرات نفاثة وقنابل موجهة

أما المجريون فقد وقفوا يواجهون هذه الحشود القوية وفى أيديهم قنابل الجازولين التى صنعوها ، وعلى الرغم من هذا كله ، فان الروس الشجعان لم يستغلوا هذه الفرصة • ولكن قبل أن تقع هذه المعركة حاولوا اغراء الكولونيل ماليتر بالوعود • وقد كان الكولونيل فى ذلك الوقت قد أصبح برتبة قائمقام لقدرته الفائقة فى الدفاع عن بودابست • وحاول الروس أن يجتمعوا به لمناقشة انسحاب القوات السوفيتية من المجر • وكان ماليتر راضيا تمام الرضا بهذه الوعود فذهب لملاقاتهم وبذلوا من الوعود مايكاد يعد انتصارا كاملا للمجر بينما كانوا فى الحقيقة يحاولون كسب الوقت ، لتثبيت قواعد مدفعيتهم • وفى أثناء هذه الهدنة التى اتفقوا عليها ، دعم الروس هذا المعقل الذى احتلوه • وعندما عاود ماليتر الاجتماع بهم ، وقد رفرف على سيارته علم الهدنة ، مزق الروس العلم ، واعتقلوا بطل بودابست ، وألقوا به فى غياهب السجون • وربما فى سيبريا •

أما الجنود الروس فقد أمضوا يوم الأحد ، يمطرون المدينة بوابل من مدافعهم • وكانوا بين كل غارة وأخرى يبعثون بدباباتهم الى المدينة لتمشط شوارعها • واحتفظ الروس باحتياطى من المشاة وكانت خطتهم هى ارهاب المجريين بالاسلحة الضخمة لكي يتم القضاء النهائى على كل مقاومة يوم الاثنين • وخاب فألهم ! فقد لزم المجريون بيوتهم فى أثناء ضرب المدينة بالمدافع • وظل الكثير منهم يعد أسلحته المتواضعة • أما فى مدينة بست ، فقد أقام هؤلاء الشجعان المدافعون عن الحرية المتاريس فى الشوارع • وتكونت منهم جماعات تضم الفتيان والفتيات يهاجمون بقنابل الجازولين الدبابات الروسية الزاحفة ببطء نحو المدينة • وفى ميدان موريتس

شيجمون بمدينة بودا ، قال طالب جامعي أرغمه الشيوعيون على دراسة الفنون العسكرية : أعتقد أنه اذا احتفظنا بهذا الميدان فسنوقف الروس . فلنضع فيه المتاريس اذن . وتولى هو القيادة وأقام استحكاما دفاعيا ممتازا . وقبل أن يفرغ من هذا العمل صاح فيه أحد الصبية : لقد جاءت ثلاث سيارات من الجنود .

فأصدر الشاب أوامره لزملائه الذين كانوا معتصمين بأعالي البيوت المجاورة . وعندما مرت سيارات الاستكشاف عبر هذا الميدان الذى نصبت المتاريس فى جانب منه ، اصدر اشارة لهم ، فاستهدفت السيارات لنيران حامية . وقتل ٦٧ روسيا . وارتدت السيارات الثلاث الى المرتفع الذى يعسكر فوقه الروس . وقبل الهجوم الروسى التالى وجه هذا الشاب كل قواه الى استدراج السيارات الى جهة المتاريس . وتلقى الشبان منحة غير متوقعة من بعض الجنود المجريين الذين افلحوا فى أسر دبابتين روسيتين أتوا بهما فأصبحتا خط الدفاع الاول فى هذا الميدان .

ولم يتأخر انتقام السوفيت طويلا . فتقدمت سبع دبابات روسية تزمجر من أعلى المرتفع ، وكانت مدافعها الرشاشة تثير زوابع من الرصاص فى كل مكان . وحاصرت هذه الدبابات ٢٠ من الشبان ورمتهم بقوة هائلة من الرصاص فأبادتهم جميعا . وبعد أن أكملت هذه الدبابات الـ ٧ أول عمل من أعمال الانتقام، اندفعت الى



الميدان . وكان المدافعون عن الميدان قد اختفوا فى خنادقهم مزودين بالسلاح ولا تنقصهم الجرأة . فأبادوا هذه الدبابات جميعا . وجاء ذلك اليوم من آحاد شهر نوفمبر ، ليشهد معركة بشعة بين دبابات تتزايد لحظة بعد أخرى، وبين شبان يطلقون النيران من قلب ميدان خلا من المواقع والاستحكامات . وفى هذا الميدان وفى مواجهة هؤلاء الشبان تعلم الروس أن خطتهم الكبيرة لاذلال سريع لمدينة بودابست ، غير مجدية . وكان عليهم أن ينازلوا أبناء المجر واحدا واحدا . ومن بين هؤلاء المكافحين من أجل الحرية فى هذا الميدان شاب فى العشرين من عمره يهيم بقصص البطولة . اسم هذا الشاب هو : ايمرى جيجر . وكان لا يخفى أسفه العظيم ، من انه ابان هذه الثورة كلها لم يحمل سلاحا أكبر من بندقية صغيرة وكان يشعر أنه لو تمكن من الاستيلاء على مدفع رشاش لتغير وجه المعركة . وفى هذه الاثناء ، أظلته هو والثوار سحب من نيران تطلقها الدبابات والمدافع التى صوبت جميعها نحو أبنية الميدان . كما أن مدافع المورتار أخذت تطلق قنابل مضيئة فى كل منطقة القتال .

واستطاع الشاب المجرى أن يصمد أمام هذا الهجوم الشامل ساعتين ، ولم ينسحب الا عندما لم يبق هناك ميدان للدفاع عنه . وعندما زحف الروس وجدوا الشوارع قد سدت معظمها العربات المحطمة والدبابات المحترقة والسيارات المخربة والمنازل المنهارة . أما « ايمرى جيجر » فقد انفلت ليقاتل فى مركز أكثر أهمية .

وفى الشمال من المرتفع الذى عسكر فيه الروس توجد منطقة أخرى بها شوارع ترجع الى العصور الوسطى . ومعظم هذه الشوارع منحدرة ولها منحنيات رهيبة . وهناك عدد من الوطنيين وقفوا يتفانون فى الدفاع عن مدينة بودا حتى النهاية .

وكان لا بد أن يتحرك الروس . وتحركوا بحذر لينهوا مشكلة هذه المنطقة الحية بالمقاومة، كأنهم يواجهون جيشا قويا منظما ، لا حفنة من الشبان . فبدأوا بتركيز مدافعهم ساعة كاملة ، يلقون فيها بالقنابل شديدة الانفجار على هذه المنطقة . وكان من أكثر الاشياء احتمالا الا يعيش كائن حى بعد هذا التدمير الشامل . غير أن القائد الروسى لكى يضمن القضاء على كل مقاومة من الشباب

المجرى ، أرسل دبابات فى طليعة هذا الهجوم ، على أن تعززها بعد ذلك قوات المشاة حملة المدافع الرشاشة وتكون مهمتها تصفية الباقين من المدنيين بعد هذه المعركة . ولكن الجنود لم يتوجهوا الى هناك ، ذلك أنهم عندما انتهى الضرب المتواصل بدأ الشبان والشابات يظهرون من مخابئهم وبدأوا يتحركون من أجل الدفاع عن هذا الحى الذى يعد صفحة لا تنسى فى تاريخ الحروب .

ومن بين المجندين لحماية هذا الحى الشاب «ايمرى جيجر» الذى لايزال يحمل بندقيته متلهفا على القتال . ولم يخف فرحته حين قال : لدينا مشكلة بسيطة . هى كيف نحطم الدبابات ؟ فليس امامنا الا طريقان الاول استدراج الدبابة الى شارع جانبى وتحطيمها ، وقد أفلح فى ذلك عندما كانت الدبابات تصعد أعلى المرتفع . وكانت الفتيات يلقين الصابون السائل فى الشوارع مما يؤدى الى انزلاق حصيرة الدبابة أو ربما أدى ذلك الى اصطدام الدبابة بأحد المبانى ، وحينئذ ينقض عليها الوطنيون .

ولكن السوفيت كانوا على استعداد دائما ليلقوا نيران مدافعهم الثقيلة على أى مجرى ، اذا كان هذا يؤدى الى منعه من القاء قنابل الجازولين على احدى دباباتهم . وكان شباب هذه المنطقة التى نتحدث عنها ، قد أعد نفسه لملاقاة الروس فاكتشفوا طرائق عديدة للاجهاز على الدبابة المعطلة . وقام أحد العمال بملء حفرة من الجازولين وتركها واختبأ فى بيت قريب الى أن جاءت دبابة وخاضت فى قلب هذه الحفرة فألقى عليها قنبلة يدوية أشعلت النار فى الدبابة

وانتهى القتال باستيلاء الروس على هذه المنطقة بعد أن أخرتهم المقاومة يومين كاملين .

وتقدمت قواة المشاة وفقا للخطة الموضوعة وقضت على كل مقاومة .

وعندما دخل الروس الى قلب هذا الحى ، آخر معاقل المجريين لم يخرج تحت علم التسليم الابيض سوى ثلاثين شابا مجريا هم الذين بقوا على قيد الحياة ،وظلوا صامدين ثلاثة أيام فى وجه الاحتشادات السوفيتية الرهيبة وقاوموا مقاومة الابطال .

ولم يسلم مكان واحد فى بودابست من الدبابات ، وكان أى قائد روسى يسمع طلقة واحدة ، يوقف دبابته ويدير مدافعه ، الى حيث سمع الطلق النارى فيصوب نيرانه ليقضى

على أى فرد من أفراد القناصة . وبالاضافة الى الدبابات استخدم الروس الصواريخ التى وجهوها ضد كل مبنى يقاومهم . وصاروخ واحـد يكفى لانهيار مبنى وقتل كل من فيه من السكان .

ولكن عند ما عم الدمار ، وعند ما قضى على الشبان والشابات ، لم يبق سوى مركز واحد للقتال هو الذى لا بد أنه أغضب الروس ، فلم يعودوا قادرين على الصبر أو الاحتمال . ومن أجل هذا كله حمل الشاب « ايمرى جيجر » بندقيته ووضع سيجارته فى فمه وذهب لملاقاة الروس ..

الى الجنوب من هـذه المدينـة ببضعة كيلو مترات ، وعلى مبعدة ربع ساعة بالقطار السريع كانت تقـع جزيرة شيبل . انها مصـانع شيبل الحمراء حيث تركزت كل الصناعات الثقيلة . لقد كانت قلب الشيوعية ، والمركز الذى يقفز منه السوفييت للاستيلاء على المجر .

ولم يحـدث ان اخطأت الفلسفة الشيوعية وفلسفة الزعماء الشيوعيين فى امر كما حدث بالنسبة لشيبل . ذلك أن ساكنيها من عمال المصـانع الثقيلة ، لم يرفضـوا فحسب ان يقاتلوا من أجل الشيوعية وانما قاتلوا حتى آخر رجل فيهم ضدها .. وفى تلك اللحظة بدأت المدافع الضـخمة فوق تلك الربوة العالية تدق المدينة بقنابلها وكان أحب الاهداف اليهـا شيبل ، ففيها أسقطوا أطنانا عديدة من القنابل شديدة الانفجار ، أسقطوها على الورش والمصانع كما ان الطائرات النفاثة الروسية قد وجهت صواريخها الى المنطقة كلها . ولكنها لم تفلح فى القضاء على العمال الثائرين ولا فى اذلال طلبة الجامعـة ، ولذلك عمد السوفييت الى مواجهة الموقف بالزحف بالدبابات والمشاة الى قلب الجزيرة ..

وكانت نتائج المعركة هكذا :

حطم الروس ٨٠٠٠ بيت وحطموا ٦٠ ٪ من نوافذ المدينة وقتـلوا وجرحوا ٣٠ ألفا من أبناء المجر يضاف اليهم ١٠ آلاف دفنوا احيـاء تحت الانقاض وأصر كثيرون من أبناء المجر على أن الاصابات قد بلغت ما يقرب من ٨٠ الفا وفقـد الروس ما يزيد على ٨٠٠٠ رجل و ٣٢٠ دبابة .

٥ - كوبرى أنداو

كان هناك كوبرى عند أنداو ، اذا بلغه الانسان أصبح حرا ، ولم يكن هذا الكوبرى مألوفا فهو أضيق من أن يتسع لعربة أو موتوسيكل ، فهو جسر للمشاة عليه سور يحول دون سقوط الاطفال الصغار .. وكان هذا



الجسر معلقا على نهر لا أهمية له ..
وهو قائم على القنـاة الاولى التي بنتها أجيال مضت لتفصل بين النمسا والمجر لتصفية المستنقعات فى كلا البلدين ، ولم تكن هنـاك طرق تفضى الى هـذا الجسر ولا سكك حديدية ، انما أقيم لراحة الفلاحين الذين يجمعون الاعشاب الطويلة التى قامت على جوانب المستنقعات ..
وفى وسعك أن ترى أن هـذا الجسر لم يقم هناك الا بمحض الصدفة التاريخية ، ولكنه خلال الاسابيع الملتهبة من الخريف الماضى أصبح أهم جسر فى التاريخ ، أو من أهم الجسور فى العالم ، ذلك أنه كان معبرا لآلاف كثيرة من اللاجئين قدموا من جميع انحاء المجر هاربين من الروس وفى يد كل منهم حقيبة ، أو ليس فى يديه شىء .. اتجهوا جميعا الى هذا الجسر التافه يبتغون النجاة ..

ويقف على الحـدود بين المجر والنمسا اثنان من الحراس المجريين وعلى مبعـدة كيـلو متر يقف مدفع رشاش يديره رجال البوليس السرى من فوق قلعة عالية وعلى مسـافة بضع مئات من هذا البرج يقوم جسر انداو ..

وعلى الرغم من كل هذه العقبات كانت هنالك .. أيام عسيرة بالنسبة لهؤلاء الفارين من وجه الارهاب فى المجر . وقد كان يحدث فى كثير من الاحيان أن يتغيب الحراس عن أبراج المراقبـة ويظـل الجسر مفتوحا والمستنقعات متجمـدة ، ويتغيب القناصة الروس كذلك وحينئذ يصبح سهلا على اللاجئين أن يسيروا برباطة جأش عبر هذه القناة ، وهناك فى هذا الركن كان من نصيبى أن أشـهد

أغرب التجارب التى مرت فى حياتى وقد شاهدت من قبل الكثير من أنواع الهجرة .. رأيت الهنود يهاجرون من الباكستان ، رأيت نساء كالموتى يجرون أذيالهن من كوريا الشمالية ، ورأيت سكانا من جزائر الباسفيك يفرون من الغزو اليابانى . ولكننى لم أشهد فى حياتى مثل هذا الخروج .. خروج المجريين من المجر . والحقيقة الصارخة فى هذا الخروج هى ان الذين خرجوا من المجر كانوا شبانا يافعين .. وكان من العسير ايضا ان تجد بينهم رجعيين أو باكين أو دعاة هزيمة ، يتطلعون الى الماضى . بينما كان الشيوعيون فى العالم يحاولون ان يقنعوا انفسهم بان الفاشيين والرأسماليين والجواسيس الامريكيين والقساوسة الكاثوليك والرجعيين هم وحدهم الذين فروا من المجر .. وكنت أتمنى لو انهم سألوا واحدا منا ونحن الذين رحبنا باللاجئين ، أى نوع من الناس هؤلاء الذين أفلتوا من مذهبهم ، لقد كانوا من خيرة أبناء المجر . كان فيهم طلبة ومدرسون وراقصات باليه وموسيقيون ممتازون وميكانيكيون مهرة ومهندسون وكتاب وأزواج شبان يحملون أطفالهم

وقد حدث أن تقدم أطباء ذوو شجاعة خارقة وأعطوا اللاجئين حبوبا مسكنة للاطفال حتى يناموا ولا يسمع لهم صوت وهم يحاولون الافلات من الحراس الروس .

واذا قيل عن انسان أنه بطل ، فهو مهندس سكة حديدية ، اسمه ميهاى كوفاكس . فى الايام الاولى لاحتلال الروس لبودابست صدرت اليه الاوامر بقيادة قطار يجر وراءه عددا كبيرا من العربات المقفلة الى روسيا ولكنه استطاع أن يتكهن بما تحتويه هذه العربات المقفلة ، وبعد أن وصل الى روسيا كان على يقين مما تحمله هذه العربات ، فقد كانت تضم مئات من خيرة الثوار المجريين فى طريقهم الى سيبريا ، ثم قام بعمل مذهل للغاية ، فقد اتفق مع رسام أن يرسم له علامة كبيرة بحروف سوداء ثم استدار بالقطار الى خط حديدى جانبى قلما يستخدمه أحد وارتد عائدا بالقطار من روسيا الى المجر ، ولما بلغ بودابست مضى أيضا فى طريقه لان العلامة شجعت الحراس الروس على ان يفسحوا له الطريق وانتقل القطار واندفع كوفاكس بالعربات المقفلة الى الحدود النمسوية وأوقف القطار وفتح العربات وصرخ : «هذه هى النمسا أمامكم وسأقودكم اليها»

ونزل هو وهؤلاء المرحلون وترك وراءه قطارا عليه علامة كبيرة كتبت هكذا : « طعـــام للمجـــر من روســـيا السوفييتية » .

فمن هـــذه الاعشاب الطويلة ومن هذه الاحراش ومن هذا الوحل وهذا الحمأ وهذه المستنقعات ، عبر القناة وعبر الجسر عشرات أول الامر ومئات بعد ذلك ثم ألوف من مواكب الهاربين من المجر .

ولم يكن لدى من عمل أقوم به عند جسر أنداو ، ولكن الدراما القوية لهذا الخروج ، أمسكت بى فظللت أذهب ليلة بعد ليلة آخذ بيد هؤلاء الهاربين . ومعظم هذه القصص التى أرويها هنا قد جرت حوادثها عند أنداو ، وكثير من المجريين الذين أتحدث عنهم هنا قابلتهم ليلا عند هذا الجسر . فهذا الشاب « يوسف توت » الذى سقط جريحا عند الهجوم على محطة الاذاعة قد عاونه اصدقاؤه وبعثوا به خارج المجر .

ثم جاءت ليلة فى أنداو ، عنـــدما تكـــون من المســـتنقعات الجـــامدة والاعشاب الجافة منظر رائع لم أر له مثيلا فى الطبيعـــة .. لم يكن ذلك رأيى وحدى ، وانما رأى خمسة من الصحفيين الآخرين ، رأوا ذلك رأى العين .. فقد كانت ليـــلة مشحونة بالعواطف ، ممـــا لايستطيع تحمـــله أحد .

فبعد الظهر نسف الروس جسر أنداو ، وكنا نعلم أن الوفا من اللاجئين لابد انهـــم يخوضـــــون الاوحال والمســـتنقعات المجرية ، وأنهـــم على مسافة أمتار من النجاة ، وهم يضربون يائســـــين فى تلك الارض ليعـــبروا الحاجز النهـــائى ، ولكن الجسر كان قد تحطم .

وظللنا نرقب ذلك عدة ساعات فى أسى ، فطريق الهرب ظل خاليا وسيل البشرية الهائل قد انقطع ، وليس فى وسعى أن أعبر عن مدى الالم الذى أحسست به فى تلك الليلة الغريبة . فالطرق خالية وكان القمر ســـاطعا ، والسماء غنية بالنجوم ، وكان الليل باردا مريرا ، والجليد يغطى الاعشاب والمستنقعات . ولكن الذى لاينســـاه أحد ، هو الصمت الحزين . فبعـــد أن كانت هنالك ضحكات المئات المثيرة من النـــاس وقد وجدت الامان من الخطـــر ، لم يبق الا الصمت . وفى هذه اللحظة قرر ثلاثة من الشبـــان من طلبة الجامعة النمسويين أن شيئا يجب أن يعمل ، فوضـــعوا اعمـــدة خشبية فى أرض عبر القناة واصلحوا

الجسر الذى نسف .. لم يصلحوه تماما ولكن جعلـوه كافيا بحيث تستطيـع اقدام حـذرة ان تتخطاه ، وبذلك أنقذوا أكثر من الفين من المجريين فى تلك الليلة وحدها . وفى ذلك الوقت قابلت مصورا شجاعا جريئا عاونت صوره التى التقطها على أن تروى للعالم قصة الفرار الشامل من المجر الى النمسا وغيرها ،وقد كان يتجول فى كل مكان . وفى الليالى التالية بدأنا نرتاد الحدود معا ، نعاون المئات من المجريين على الدخول الى النمسا، وكثيرا ما نفذنا الى المجر وكلنا آذان تستمع الى الهمسات التى ملأت الليل .. همسات خافتة ونداءات مكتومة من الرجال والنساء ينشدون العزاء .. وظللنا نرقب ذلك حتى كان فجر احدى الليالى عندما استمعنا الى أصوات غريبة تجىء عبر هذا الجسر المحطم، فدنونا بالقرب من الجسر ورأينا منظرا مثيرا .. رأينا الحراس الروسيين وقد لعبت الخمر برؤوسهم،يتحركون بأرجلهم عبر الجسر لكى ينعموا بشىء من الدفء . وحينئـذ ونحن ندنو لنراهم وجدنا مأساة لن ينساها أحد .. رأينا ثلاثين من اللاجئين يقودهم رجل على رأسه قبعة من الفراء متجهين جميعا من المستنقعات ناحية الحراس المخمورين ، ولم يعرف هؤلاء المساكين انه لم يعد طريقا للهرب وكنا عاجزين عن وقفهم ، وسرعان ما سدد الحراس بنادقهم الى هؤلاء اللاجئين قبل أن يبلغوا الجسر وطوقوهم وقادوهم الى السجن .. لقد سار هؤلاء الناس كل هذا الطريق الطويل عبر المجر واصبحوا على قيد ١٥ مترا من النجاة ..

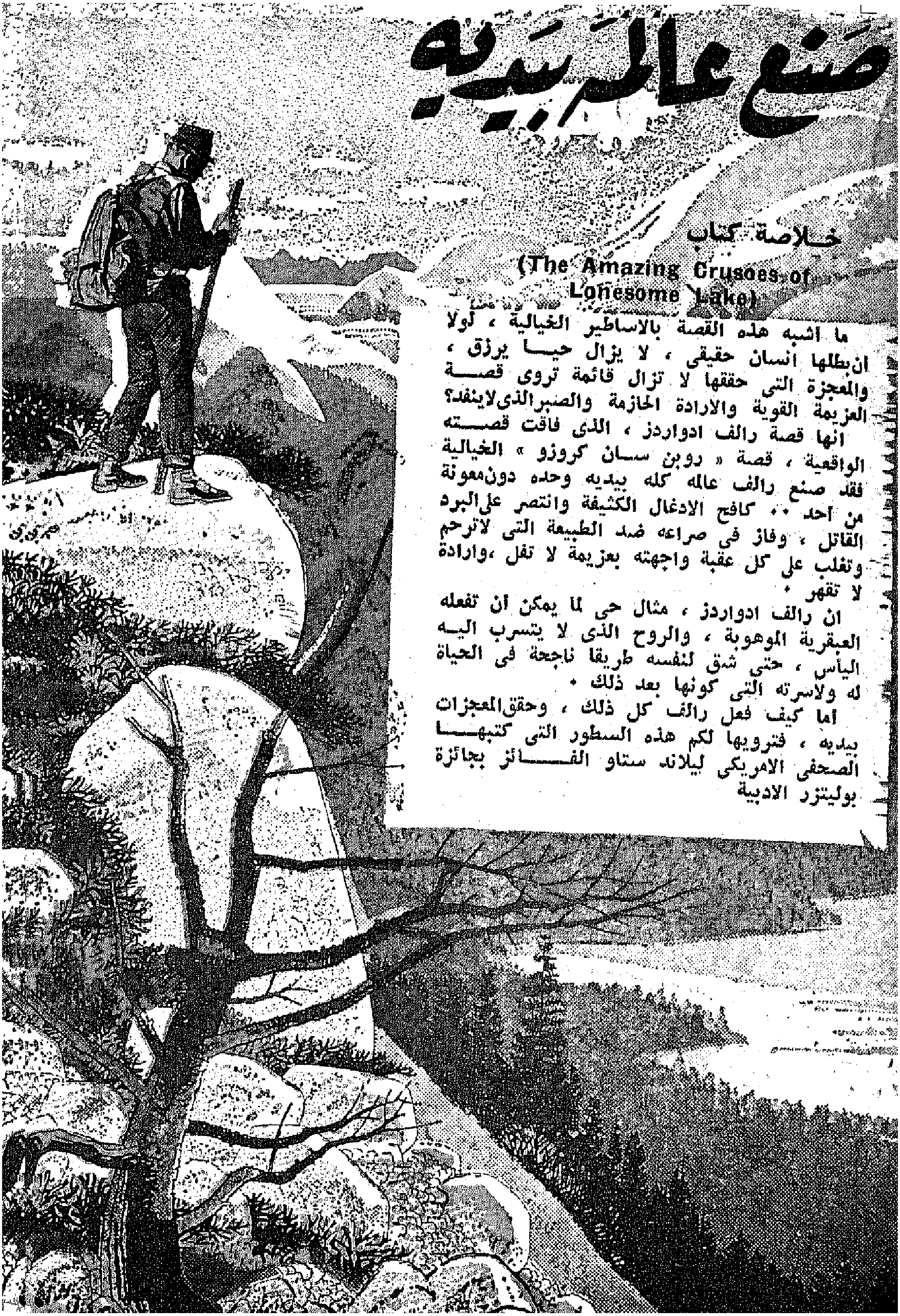
ابن جدير بابيه !

قص على الرئيس الامريكى السابق كولدج هذه القصة عن ولده كالفن :

كان كالفن يعمل فى حقل لزراعة الدخان ،فى نفس اليوم الذى وليت فيه منصب رئيس الجمهورية . وقال بعض الغلمان له : لو كان ابى هو الذى صار رئيسا ، لما كنت اعمل اليوم فى زراعـة الدخان بواد فى ولاية كونيكتيكت .. واذ ذاك رد كالفن قائلا : لو كان ابى هو أبوك لما كنت فعلت غير ذلك ..

(وليام الن هوايت)

صنع عالمه بيديه



خلاصة كتاب
(The Amazing Crusoes of Lonesome Lake)

ما أشبه هذه القصة بالاساطير الخيالية ، لولا ان بطلها انسان حقيقى ، لا يزال حيا يرزق ، والمعجزة التى حققها لا تزال قائمة تروى قصة العزيمة القوية والارادة الحازمة والصبر الذى لاينفد؟

انها قصة رالف ادواردز ، الذى فاقت قصته الواقعية ، قصة « روبن سان كروزو » الخيالية فقد صنع رالف عالمه كله بيديه وحده دون معونة من احد .. كافح الادغال الكثيفة وانتصر على البرد القاتل ، وفاز فى صراعه ضد الطبيعة التى لاترحم وتغلب على كل عقبة واجهته بعزيمة لا تفل ، وارادة لا تقهر .

ان رالف ادواردز ، مثال حى لما يمكن ان تفعله العبقرية الموهوبة ، والروح الذى لا يتسرب اليه اليأس ، حتى شق لنفسه طريقا ناجحة فى الحياة له ولاسرته التى كونها بعد ذلك .

اما كيف فعل رالف كل ذلك ، وحقق المعجزات بيديه ، فترويها لكم هذه السطور التى كتبها الصحفى الامريكى ليلاند ستاو الفائز بجائزة بولينتزر الادبية

صنع عالمه بيديه

كان طوال الرحلة التى بدأها من ڤانكوفر ليقطع خلالها ٣٠٠ ميل ، يحدق امامه على طول الشاطىء البعيد ، كأنما يحاول ان يستشف ذلك العالم الذى يكمن وراء جبال كولومبيا البريطانية . ولم يكن هناك ما يثير الاهتمام فى هذا الشاب ، فيما عدا شعره الاحمر المجعد الذى يختفى تحت قبعته،وحجمه الضئيل .

ولم يكن هناك من يتصور فى ذلك اليوم من ايام اغسطس ١٩١٢ ، ان هذا الشاب الصغير قد كرس نفسه ، ليكافح وحده ادغالا لم تطأها من قبل قدم أى مخلوق ابيض .

لقد غادر رالف ادواردز مسقط رأسه فى كاليفورنيا ، ليحصل على المزرعة التى ظل يحلم بها امدا طويلا .

وما كادت السفينة تلقى به فى ميناء (بيلا كولا) الصغيرة ، حتى انطلق فى طريقه الى الداخل ، وبلغ محلة (اتنارکو) ، بعد ان قطع على قدميه حوالى خمسة وستين كيلو مترا .

وكانت هذه المبانى الخشبية التى لا يزيد عددها على ستة ، هى الموقع الاخير الذى توجد فيه الحياة البشرية فى تلك الادغال الموحشة .

وزامله فى رحلته التالية التى بدأها فى يوم من ايام اكتوبر الدافئة ، صياد يدعى فرانك راتكليف ، حدثه عن بحيرة جميلة ترقد فى احضان الجبال فى منطقة وادى « اتنارکو » ، وبعد مسيرة يومين ، اخترقا خلالهما أرضا لم يتسلل اليها أحد من قبل ، وصلا الى ربوة مرتفعة ، وقف فوقها راتكليف ، وأشار بيده ناحية الشمال، حيث ترقد بحيرة « لوتسام » فى أحضان غابة لاتزال بكرا لم يمسها بشر ، وتحيط بها سلسلة ضخمة من الجبال التى تكلل الثلوج هاماتها .

واخذ رالف ادواردز يطوف ببصره فى ارجاء الوادى فى نظرات سريعة خاطفة .

كان اول ما اجتذب نظره ، ذلك الجمال الطبيعى الرائع الذى يشمل المنظر الذى يحيط به ، واسراب الطيور البرية التى يزخر بها المكان .

وفى تلك الليلة ، بات الاثنان على ضفاف البحيرة الصافية

كان ضوء القمر الفضى الساطع يغمر المكان حولهما ، ويحيل سطح البحيرة الساكن الى بساط متوهج براق . وفى تلك الليلة أحس رالف

بسكون الادغال يزداد عمقا من حوله ، وكأنه يقف وحيدا فى معبد مقدس هائل البنيان خال من كل انسان !

وعلى الرغم مما فى هذا الشعور من روعة ورهبة ، فقد احس بالسلام والراحة يتسللان الى حياته .

واستأنفا سيرهما فى الصباح التالى، حيث انطلقا يشقان طريقهما وسط تلك البقاع ذات التربة السوداء الخصبة ، وقد تعالت حولهما الاشجار الباسقة التى يزيد ارتفاعها على مائة قدم . واستقر رأى رالف على ان يبدأ جهاده فى تلك المنطقة الساحرة .

ان امتلاك ١٦٠ فدانا فى مثل تلك البقعة الجميلة الغنية ، اشبه بالعثور على الفردوس المفقود على سطح الارض .

***

من هو هذا الشاب «رالف ادواردز» الذى كرس نفسه ـ وهو فى الحادية والعشرين ـ لينتزع بيديه ارضا لمزرعته وسط تلك الغابة البدائية ، ويواجه من المشاق ما لم يواجه مثله احد منذ الرواد الاوائل لامريكا ؟

كان رالف يعمل اجيرا فى مزرعة بكاليفورنيا ، منذ بلغ السابعة عشرة . كان يعمل ١٢ ساعة فى كل يوم طوال الاسبوع ، ليحصل على لقمة يزدردها وسقفا يأويه . وما كاد يطرق اسماعه نبأ يقول ان هنـاك اراضى حرة فى كولومبيا البريطانية يمكن لمن يشاء تملكها ، حتى ملأت الفكرة رأسه ، وراح ينفق كل ساعة من ساعات يقظته طوال السنوات الاربع التالية ، فى الاستعداد لتحقيق هدفه العظيم ، فابتاع الكتب التى كان ابن مخدومه يتلقى فيها دراساته فى كلية الزراعة ، وشرع يدرس فيها بنفسه دون ان يستعين بأحد .

كان يواصل دراساته ليلة بعد ليلة، ويقتصد كل مليم يصل الى يده ليزيد من رأس ماله الضئيل .

وهكذا عندما انطلق اخيرا الى ساحل كندا الباسيفيكى ، كان قد استعد تماما ليبدأ مشروعه الذى سيطر على احلامه .

وكانت اسعد لحظة فى حياته ، عندما وافقت مصلحة الاراضى بكولومبيا فى يناير ١٩١٣ على منحه مساحة قدرها ١٦٠ فدانا فى البرارى المتجمدة بوادى اتناركو . ولا شك ان اى انسان آخر غيره كان حريا بأن ينتظر مقدم الربيع قبل ان يشرع فى العمل ، ولكن رالف لم يستطع الانتظار بل شرع على الفور مع زميله الصياد « راتكليف » فى جمع المؤن اللازمة

لهما ، وحملا كل شيء على ظهورهما من آخر منطقة لا تقوى الخيول على السير فوقها بسبب الجليد ، وراحا يشقان طريقهما بين الصخور وفوق المنحدرات خطوة بعد خطوة ، وظلا يكرران هذه الرحلة الشاقة القاتلة ، حتى جمعا على شاطىء البحيرة مؤنا تزن حوالى ٢٧٠ كيلو مترا .

كانت كل خطـوة تعنى كفاحا فى سبيل البقاء فوق سطح الارض التى كساها الجليد ، وسط حرارة تقـل عن ٢٣ درجة تحت الصفر .

وشرع الاثناء فى بناء كوخ صغير ، فأخذا يسقطان بعض اشجار الارز الصغيرة ، ويحولانها الى كتل والواح خشبية . وبعد ثلاثة ايام فقط ، اتم الاثناء بنـاء الكوخ ، وامضيا ليلتهما الاولى تحت سقف فى تلك الاصقاع .

وفى اليوم التـالى ، ودع راتكليف صديقه رالف ، وعاد ليواصـل عمله الاصلى كصياد ينشر الشباك للحيوان وسط الادغال والبرارى .

وهكذا واجه رالف مصيره وحيدا ، وبدأ يكافح الغابة ، ينتزع منها بيديه وحده الارض التى قرر ان ينشىء عليها مزرعة الاحلام ! .

***

لم تكن للمغامر الصغير دراية سابقة بفن النجـارة ، ومع ذلك فقد راح يواصل عمله كالفأر الصغير ، يقرض الاشجار الضخمة التى تبدو كالابراج العالية ، وتهاوت الصروح الشـامخة التى ظلت متربعة على عروشها قرونا طويلة تناطح السحاب .

كان يعمل بحماسة لا تكل ، يدفعه الى ذلك هدف بعيـد لرجل اصبح كيانه كله فى كفة القدر

وراح يفتح ثغرة تتكشف من خلالها السماء الزرقاء وسط الادغال الكثيفة . وشبرا بعد شبر ، اخذت الثغرة تتسع يوما بعد يوم ، لتضيف امتارا قلائل الى الارض التى يكسبها فى معركته مع الغابة العملاقة .

ومع انه لم يكن خبيرا فى فن الطهى ، فقد كان يعد طعامه كل ليلة بنفسـه على نار يوقدها فى العراء ، وعنـدما صاد اول غزال فى حياته ، استطاع ان يعد لنفسه من لحمه وجبات شهية .

وامضى الرائد الصـغير طوال ذلك الشتاء القارس البرد ، وحيدا وسط هذه الاصقاع التى تمتد الى مالانهاية

كان الصمت المؤلم يخيم على كوخه الصغير كل مساء ، حتى ليتمنى لو انه سمع عواء الذئاب ، تردده اصـداء الغابة من بعيد .

واستعان رالف على مقاومة هـذا

الشـعور بالوحدة بالعمل الشـاق المتواصل يوما بعد يوم . كان يرهق نفسه طوال اليوم ، حتى ينام فى الليل، فلا يحس بطول ساعاته . وكان يجهد عقله كل ليلة فى التفكير فى القدر الذى يأمل ان يفوز به من ارض الغابة .

وهكذا علمته الحاجة ان يعيش مع نفسه فقط ، اذا اراد ان يحقق اطماحه الكبيرة .

وما كاد الربيع يحـل ، وتذوب الثلوج ، حتى كان رالف قد طهر جزءا لا بأس به من ارض الغابة العذراء على مقربة من القناة الصغيرة المتشعبة ، التى اطلق عليها اسم « هوم كريك »

ولكى يبعـد الدببة والغزلان عن ارضه العزيزة ، اقام بنفسه سـورا كبيرا ، يحيط بهذه الامتار الثمينة التى استخلصها بعـرقه ودمه ، ثم زرع لنفسه حديقة صغيرة ، ملأها ببعض الخضر والجزر والبنجر .

وعندما جاء الصيف ، ترك رالف مزرعته الصغيرة ، واتجه نحو ميناء «بيلا كولا» ، لكى يعمل طوال الصيف، حتى يستطيع ان يحصل على المـال الذى يمول به مشروعه الكبير . وظل دائبا على هذه العادة كل صيف ، طوال السنوات السبع التالية .

وعاد رالف فى الخريف ليواصـل معركته القاسية مع الادغال الجبارة ، كى ينتزع من بين براثنها مزيدا من الاقدام والامتار ، وكان يتعلم فى كل يوم جديدا ، يسـاعده على اداء عمله بطريقة افضل ، لكى يحصل على نتائج اكثر بمجهود اقل .

كان لا بد له من زورق صـغير ، يعبر به البحيرة ذهابا وايابا ، بدلا من هذا الطوف الخشبى الذى كان يقتضيه مجهودا كبيرا يقصم الظهور . ولم تكن له اية خبرة بصناعة الزوارق ، ولكنه تذكر ما قرأه فى الاسطورة المشهورة عن « روبن سـان كروزو » ، فطبق العلم على العمل ، وسرعان ما احرق كتلة ضخمة من الخشب ، وحفر لنفسه مكانا فى قلبها ، حتى اصبحت زورقا طيبا اراحه من عناء كثير وعرق غزير .

وكان رالف فى ايام صباه يكره حرفة النجارة كرها عميقا ، اما الآن ، فقـد اخذ ينشىء بنفسـه كل شىء يحتـاج اليه فى مزرعته الجديدة ، فاستطاع ان يبنى لنفسه كوخا كبيرا ، ثم انشأ بعد ذلك مخازن للغلال ومواد التموين ، كما صنع بيديه الرحافات وغيرها من الاشياء اللازمة .

وفى مقدم الربيع الثالث ، كان رالف قد طهر بضعة فدادين قليلة من ارض

الغابة ، ولهذا قرر فى الخريف التالى ان ينفذ اول مشروعاته الانشائية الكبيرة ، وهو بناء منزل دائم ، يضم ثلاث حجرات واسعة ، ويتسع للعائلة التى يأمل ان تكون له فى يوم من الايام .

واقتضى الامر شتاء بأكمله ، لكى يسقط اشجار الارز الضخمة ، ويقطعها الى شرائح وكتل .

ولكن كيف ينقل هذه الاخشاب والكتل الى المكان الذى اختاره لبناء داره ؟ .. هنا تبرز عبقرية رالف فى الاختراع ، وقدرته على الابتكار والابتداع .

فكر الشاب المغامر فى ان ينشىء لنفسه خطا للترولى ، ينقل عليه هذه الاخشاب . . وراح يعمل بصبر لاينفد ، حتى استطاع ان يمد قضبانا خشبية صغيرة ، ثم صنع بنفسه عجلات مستديرة من بعض الاخشاب ، وضعها على العربة التى صنعها

وهكذا حل هذه المشكلة المحيرة ، واصبح يمتلك خطا للترولى ، استطاع بوساطته ان ينقل كل مرة تسع كتل ضخمة من الاخشاب الطويلة ، عبر مسافة الثلاثمائة متر التى تفصل بين كوخه وبين اشجار الغابة .

وكان هذا نصرا عظيما لرجل ضئيل الحجم ، يعمل بمفرده ، دون معونة من احد !

ولم يكن بناء الدار التى يحلم بها امرا يسيرا ، ولا سيما انه كان مضطرا الى ان يعمل طوال الشتاء ، فى جو تهبط الحرارة فيه عن الصفر درجات كثيرة ، واقتضاه تحقيق هذا المشروع عامين طويلين ، نظرا لانه كان يضطر الى الرحيل فى كل صيف ليعمل بعيدا عن مزرعته من اجل المال الذى يحتاج اليه .

وعندما انتهى من بنائه ، اصبح رالف يمتلك قصرا صغيرا متينا ، يحتوى على غرفة متسعة للنوم ومثلها للجلوس ، وغرفة رحبة للمطبخ ، واخرى فى الدور العلوى وجعل من جدران المنزل الخشبية من الداخل سطحا ناعما لامعا نظيفا .

كان يضع كل شيء بمهارة وحذق ، لم يكن هو نفسه يتصور انه يمكن ان يصل اليهما .

وبعد ان انتهى من اعداد الدار ، شرع يعد بنفسه قطع الاثاث اللازمة لها ، فصنع الموائد والمقاعد والفراش وغيرها من الادوات التى امتلأت بها رحاب الدار .

ولاول مرة فى التاريخ ، شهد وادى « أتناركو » دارا حقيقية تقوم على أرض ، تبشر بأن مزرعة رائعة سوف

تقوم الى جوارها .

وواصل رالف بعد ذلك عملية انتزاع اراض جديدة من الغابة ، ليضيف فى كل يوم امتارا اخرى الى مزرعته الصغيرة ، حتى يوفر لنفسه الحدائق والمراعى والاحواض اللازمة للمزرعة التى جعلها امله فى الحياة ، بحيث تصبح مزرعة تعتمد على نفسها ، وتكفى ذاتها بذاتها !

ولم يكد ربيع عام ١٩١٧ يحل ، حتى كان رالف قد ربح حوالى ستة افدنة فى خلال خمس سنوات من العمل الشاق المتواصل .

واضطر بعد ذلك ان يوقف العمل فى مشروعه الاكبر الى حين ، فقد دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى الى جوار حلفائها ، فحمل رالف بندقيته ، واغلق ابواب منزله بعد ان اختزن فيه كل ادواته ، وانطلق الى « بيلا كولا » ومنها الى العالم المتحضر مرة اخرى ليسجل اسمه بين المتطوعين للقتال .

وساهم رالف فى المعارك التى دارت فى فرنسا ، حتى تم احتلال منطقة الراين .

وعاد الجاويش رالف ادواردز من الحرب فى سبتمبر ١٩١٩ ، وقد اكتسب خبرات ومعارف كثيرة ، وحمل على ظهره بندقية اخرى جديدة ، استطاع ان يصيد بها دبا ضخما وهو فى طريقه الى مزرعته العتيدة .

وتوقف اخيرا امام كوخه القديم . ثم ما لبث ان قفز الدرجات الخشبية الصغيرة ، ودفع الباب الذى اغلقه منذ عامين ، من غير قفل او مفتاح ، فوجد كل شىء كما تركه تماما لم ينقص منه شىء ! .

***

وانفق رالف طوال الخريف فى العمل لاكتساب مساحات جديدة من الارض .. وكان للنقود التى استطاع توفيرها خلال فترة الجندية الفضل فى تمكنه من زيادة انتاجه واسراعه فى العمل ، حتى انه استطاع شراء جواد جميل وبعض الماشية ، وكثير من الادوات التى كان يحتاج اليها ولا يستطيع الحصول عليها لقلة ما لديه من مال . وقد اضطر الى ان يصنع بيديه طوفا خشبيا ضخما يعجز عن حمله ستة رجال اقوياء ، حتى يمكنه ان ينقل فوقه الماشية والجواد عبر البحيرة ، اذ كانت لا تستطيع ان تقطع المسافة الى مزرعته وسط الثلوج الكثيفة .

وبدأت المزرعة تكتسب كل مقومات

المزارع المعروفة ، فقد اصبحت تضم جوادا وبعض الماشية ، وقبل ان يحل الشتاء التالى ، كان رالف قد استطاع ان يبنى مخزنا آخر للمؤن فى ممتلكاته
وراح رالف يفكر

كان يمكن ان يتقدم عمله بخطى اسرع لولا انه ينفق فصل الصيف بأكمله بعيدا عن المزرعة ، فلماذا لايبقى للعمل فيها .. ؟ ولكن كيف يحصل على النقود التى كان يربحها من العمل بعيدا ؟

لماذا لا يبدأ فى الصيد بالشباك من الغابة المليئة بالحيوان ؟ ..

وهكذا ظل رالف يعتمد طوال الثلاثين عاما التالية على الصيد فى الحصول على دخله الوحيد الذى يستطيع ان يشترى به ما يلزم للمزرعة ومؤنة الشتاء ، فاشترى عربة ذات عام ، وآلة تقص الحشائش فى العام الذى بعده ، وراح يبتاع الآلات اللازمة عاما بعد عام ..

وفى عام ١٩٢٢ ــ اى بعد ان امضى عشرة اعوام تقريبا ــ وحيدا وسط الغابات ، يعيش فى عزلة عن الناس جميعا ، يجاهد بيده ليصنع كل ما يحتاج اليه ، قام رالف برحلة فى الشتاء ليشترى بعض المؤن التى تلزمه ، وتوجه الى محلة « فريفال » القريبة من وادى اتناركو ، وهناك استضافه احد سكانها ويدعى هوبر ، وهو امريكى الاصل .

وقد اجتذب رالف بأحاديثه عن تجاربه فى الادغال قلوب آل هوبر ، وكانت اكثرهم افتتانا بحديثه ، فتاة نحيلة فى الثامنة عشرة من عمرها ، ذات عينين يبدو فيهما الصفاء والطيبة

كانت « ايثيل هوبر » فتاة نشأت على حب الطبيعة ، وكان شعرها الكستنائى البديع يكلل هامتها الجميلة ويحيط بوجهها الساحر الذى تزيدمن سحره ابتسامتها الحلوة الدافئة ، وقد استرعت الطريقة التى ترتدى بها ثيابها ، ونظافتها وهدوءها انتباه رالف ، ووجد فيها رجاحة فى العقل ونضجا يزيد على سنها الصغيرة .

ومنذ ذلك الحين ، تكررت زيارات رالف لآل هوبر ، وكثرت رحلاته للحصول على المؤن ، على الرغم من انه كان يقطع فى هذه الرحلات ما يقرب من ٦٥ كيلو مترا فى الذهاب ومثلها فى العودة .

وفى ذلك الربيع ، قبلت ايثيل هوبر ووالدتها الدعوة لقضاء اسبوع فى ضيافة رالف بمزرعته التى اقتطعها وسط الادغال .

وفاق ما رآه آل هوبر خلال هذه

الزيارة كل ما كانت الام وابنتهـــا تتوقعان رؤيته نتيجة مجهود رجـل واحد .

ومر الاسبوع سريعا ، وقبـل ان تعود ايثيل هوبر الى منزل ابيهـا ، كانت قد اصبحت خطيبــة للمغامر الشاب رالف ادواردز !

وفى ٢٢ اغسطس ١٩٢٣ ، ساعد رالف زوجته ـ بعد ان تم قرانهما ـ فى الركوب على ظهر جوادها ، وامتطى هو جواده ، وانطلقا معا الى بيت الزوجية الذى بناه العريس بيديه ، وكانت هذه هى رحلة شهر العسل التى تحلم بها كل فتاة .

كانت ايثيل هوبر سعيدة لانهـا ستشاطر الرجل الذى احبته مشاق الحياة وسط البرارى والادغال ، تعمل كمـا يعمل ، وتجاهد كما يجـاهد ، وتحلم كما يحلم .

ومضى الاثنان معـــا يحصدان الحاصلات التى كان قد زرعها انتظارا لذلك الخريف الذى سيزيد فيه عدد سكان المزرعة • وشـاركت ايثيـل زوجها فى اعداد الحديقة وتسميدها بالسماد الطبيعى الذى كانت الطبيعة تزودهما به ، وامضى الاثنـان طوال ايام الخريف فى اجراء الاســتعدادات اللازمة لاستقبال الشتاء الرهيب .

وبمقدم الشـتاء ، واجهت ايثيل اختبارا قاسـيا لم يسبق لها بمثله عهد من قبل ، فقد اخذ رالف يتركها وحدها فى الدار اياما وليالى طويلة كل مرة ، لكى يباشر الصـيد بشباكه فى ارجاء الغابة .

ولكن هذه الوحدة لم تطل كثيرا على ايثيل ، فقد بدت فى الخريف بشائر تدل على انها لن تكون وحدها هـذا الشتاء ...



وفى سبتمبر ، ذهبت الى ميناء (بيلا كولا) ، حيـث وضـعت فى مستشفاه المتواضـع مولودهـا الأول الذى أطلقـا عليـه اسم « ستانلى بروس » ... ولم يسـتطع الاب أن

يغامر بالعودة بابنه وزوجته الى دارهما وسط الادغال قبل منتصف نوفمبر، خوفا على الاثنين من مشقة الرحلة وقسوة الجو .

وحمل رالف طفله فى سلة خاصة من الصوف فوق ظهره ، وانطلق به الى الدار فى رحلة كانت محنة قاسية، لم يسبق ان قطع مثلها اى مولود من قبل .

***

وملأ الطفل ايام ايثيل بمطالبه ، حتى ان الشتاء ، بل وشتاءين آخرين بعده ، مرت سريعة دون انتشعر بها . وقبل ان يتم ستانلى عامه الثالث ، ولد شقيقه (جون) ، وبعد عام ونصف تبعتهما شقيقتهما (ترودى) .

وهكذا اكتمل افراد الاسرة الرائدة فى منطقة البحيرة المنعزلة .

ولقد اصبحت المزرعة الآن تنتج كل ما تحتاج اليه تقريبا . كان هناك ثور وبقرة وعجولها الصغار . وكانت الحديقة تكفل فى الواقع امداد الاسرة بكل الاغذية اللازمة ، التى قد لاتجدها الا بعد آلاف الكيلو مترات . وامتلأت مخازن العائلة بمواد الطعام التى تكفيها فترات طويلة فى سخاء . اما الاشياء الاخرى القليلة التى لا يستطيعون انتاجها كالسكر والدقيق وادوات المطبخ والاسلاك والمسامير ، فكانوا ينفقون على شرائها حوالى مائتى دولار سنويا ، كماينفقون على الملابس حوالى ٤٠ دولارا ، والباقى الذى يستطيعون توفيره كانوا يشترون به بعض العدد والكتب ، فاذا احتاجوا الى شىء آخر، كانوا يصنعونه بأيديهم او يدخلون عليه تحسينات من ابتكارهم !

وفى خريف ١٩٢٩ ، كانت الاسرة التى تعيش وسط البرارى اسعد حالا من ملايين الاسر التى تعيش وسط العالم المتمدين فى كثير من بقاع العالم

ولكن الاسرة لن تذكر هذا التاريخ لهذا السبب ولا من أجل الازمةالمالية التى اجتاحت الدول جميعها فى ذلك الحين ، بل انها ستظل تذكره ، لانه التاريخ الذى نزلت فيه اعظم كارثة حلت بها .

ففى اكتوبر من ذلك العام ، بينما كان رالف ادواردز يقوم بزراعة بعض نبات البطاطس بعد ظهر ذات يوم ، اذ شاهد دخانا كثيفا يتصاعد فوق سقف منزله ، فانطلق يعدو كالمجنون

ولم يكد يقترب من الدار ، حتى شاهد زوجته تحمل طفلتها التى تبلغ الشهر السادس من عمرها ، وهى تقف والى جوارها طفلاها فى حقل قريب ، بينما راحت النار تاكل

الدار الفسيحة التى انفق عامين من العمل الشاق فى انشائها

ضاعت القلعة الحصينة التى كانت تقيه برد الشتاء وثلوجه وعواصفه القاسية التى لا ترحم .

وتحولت القلعة الى انقاض ورماد، وزاد من وقع الكارثة ان رالف لم يحتفظ بشيء ذى قيمة بعيدا عن الدار ، اذ لم يكن يتوقع هذه النكبة التى وقعت بسبب بعض الشرر الذى تطاير من النار التى يطهى عليها الطعام فى المطبخ .

وهكذا ضاع كلّ شيء فى غمضة عين . ضاعت مؤونة الشتاء ، واثاث المنزل وكلّ مايمتلكانه . حتى البنادق، التى كانت مصدرهما الحيوى للطعام .

وكان اشد ما فى الكارثة المـا ان الاسرة فقدت كلّ ثيابها ، الثقيلة والخفيفة على السواء ، ولم يعد لديهم جميعا غير الثياب التى كانوا يرتدونها ساعة الحريق .

كانت مثلّ هذه الكارثة كفيلة بأن تقضى على اقوى الارواح عزما واشدها مضاء ، ولكن رالف وزوجته ايثيل لم يستسلما لليأس ، بل اسرعا بوضع الاطفال فى الكوخ القديم الصغير الذى لم تكن مساحته تزيد على ثلاثة امتار طولا ومثلها عرضا . ونام الجميع على الارض فى الصقيع الذى يهرأ الابدان .

وقال رالف لزوجته :

ــ شكرا لله ، فلا تزال لدينا البقرة لتقدم لنا اللبن للاطفال ، ويمكننا ان نذبح العجل لنحصل على اللحم .

وفى الصباح ، بحث رالف بين الرماد المتخلف عن الحريق ، حتى استطاع ان يحصل على بعض اوانى الطهى التى شوهتها النار ، ولكنه استطاع ان ينظفها ويعدها للعمل .

وتذكر رالف ان هناك كوخا مهجورا لصياد ، يقع على بعد حوالى ٣٥ كيلو مترا من الغابة ، فانطلق اليه ، ثم عاد وهو يحمل غطاءين للنوم وبعض الملابس القديمة ، وبعض الخيوط والابر والمقصات ، وكانت تلك اشياء ثمينة لا تقدر بثمن فى هذا الموقف الذى اصبحوا يواجهونه .

وكانت ايثيلّ بارعة فى اعداد الثياب القديمة لكى تلائم اطفالها وتقيهم برد الشتاء

***

واضطر رالف الى الذهاب الى البلدة القريبة لكى يشترى مؤنا اخرى بدلا من التى احترقت . ولكنه ذهب هذه المرة وليست معه اية نقود ، فقد اكلت النار كل مدخراته

وعندما سمع اهالى (بيلا كولا)

نبأ الكارثة التى حاقت بالمغامر البطل، اشفقوا عليه ، فقدموا له كل ما فى استطاعتهم من مساعدة ، وبدت شهامتهم فى ذلك الموقف ، اذ مد له اصحاب الحوانيت فى آجال سداد ثمن مشترياته ، كما جمع له اصدقاؤه هناك حوالى مائة دولار قدموها له نقدا مساعدة له على مواجهة آثار النكبة .

وهكذا انقذت شهامتهم الاسرة المنكوبة من العدم . وعندما قص رالف على زوجته ، ما حدث فى الميناء ، انهمرت دموعها على وجنتيها شكرا لهذا الجميل .

***

قبل الحريق اللعين ، كان رالف قد انتهى من اعداد مسكن خاص للدجاج، يبلغ طوله ستة امتار وعرضه حوالى اربعة . ولما كان بيت الدجاج اكبر حجما من الكوخ القديم ، فقد قرر رالف ان يشرع فى تحويل هذا البيت الى دار مؤقتة للاسرة

وقبل ان يحل الخريف التالى ، اصبح للاسرة مرة اخرى مسكن يؤويها ورصيد لا بأس به من الخضر والفاكهة واللحوم . وامتدت رقعة الحقول المزروعة عبر القناة التى تخترق الادغال .

لقد انتصرت روح المغامر الذى لم يعترف بالهزيمة يوما .

***

كانت ايثيل بارعة فى اطلاق النار منذ طفولتها ، كما كانت صائدة ماهرة. وقد وجدت الفرصة امامها متاحة ، فأخذت تمضى اوقات فراغها فى اصطياد بعض الحيوانات ذات الفراء ، وقد وعدها زوجها بأن يكون ثمن هذا الفراء كله لها ، تبتاع به ما تشاء من حاجات ، وعلى الرغم من ان المبلغ الذى كانت تحصل عليه من هذا المورد كان متواضعا ، فقد استطاعت ان تدبر به هدايا لعيد الميلاد قدمتها لزوجها واطفالها .

كانت الحاجة الى بعض الاشياء غير الموجودة ، تبرز عبقرية رالف فى الابتكار والاختراع ، فقد كانت كل اعماله مثلا حيا صادقا للمثل الشائع « الحاجة ام الاختراع » وان الزائرين لمزرعته التى اطلق عليها اسم « ذى بيرشز »، ليدهشون من هذه العجائب الذى استطاع هذا المغامر ان يبتدعها وينفذها كلها بيده ، على الرغم من انها كانت تتطلب خبرة فنية وعلمية ومهارة فى الصناعة ، وكلها اشياء لم تكن عنده يوم بدأ مغامرته التى لا مثيل لها

ولقد ادرك رالف انه لا بد له من مصدر لتوليد القوى الكهربائية ، التى تتيح له استغلالها فى شتى النواحى ، فابتاع الكتب التى تزوده بكل المعلومات اللازمة عن الكهرباء ومحطات توليد القوى من مساقط المياه ، واستطاع بمفرده — ودون معونة من احد — ان يقيم محطة صغيرة للتوليد فى بقعة منحدرة من النهر ، زودته بالكهرباء التى انار بها بيته ، واستخدمها فى كثير من الاغراض الاخرى النافعة ، ولاسيما تقطيع الاخشاب واعدادها .

ولعلها كانت اول مرة تشهد فيها تلك الغابة العذراء مصباحا يضاء بالكهرباء . .

***

كانت اقرب مدرسة الى المزرعة تحتاج الى رحلة تستغرق بضعة ايام فى الذهاب ومثلها فى العودة ، فلم يكن امام رالف وزوجته بد من تعليم الاطفال فى المنزل . وهكذا اصبحت الدار تنقلب الى مدرسة فى المساء ، حيث يجلس ستانلى وجونى وترودى ، يستمعون الى الدروس التى يلقيها عليهم رالف وايثيل ، وكانا يستقيان مصادرها من الكتب والنشرات التى كانا يحصلان عليها بالبريد من ادارة التعليم فى حكومة كولومبيا .

وهكذا تلقى الاطفال تعليمهم وفقا للمناهج الدراسية ، دون ان يذهبوا الى مدرسة فى حياتهم ، واجتازوا الامتحانات السنوية بالبريد ، عاما بعد عام .

ولم يكن الاطفال هم وحدهم الذين يتعلمون ، بل كان رالف يتعلم معهم هو الآخر ، فانه لم يكن قد تلقى فى صباه من التعليم الا قسطا ضئيلا ، ولكن حياة العزلة دفعته الى ان يرتشف من مناهل العلم التى تقع بين يديه ، فقرأ كثيرا من الكتب عن مختلف العلوم والدراسات ، حتى اصبح خبيرا فى الجيولوجيا والكيمياء والتعدين والهندسة ، وانتقلت هذه الهواية الى الاطفال ، وكان هو يشجعهم على ارتياد كل ميدان .

ففى سن العاشرة ، اختارت «ترودى» الطيران موضوعا لدراستها ، ثم تحولت الى دراسة الفلك ، ومنه الى النبات ، حتى استطاعت ان تعرف كل شجرة او زهرة باسمها اللاتينى .

كان الاطفال جميعا على جانب من العلم والثقافة ، قل ان يناله اطفال المدن الذين يمضون سنواتهم فى المدارس بين ايدى الاساتذة المتخصصين وقد اصبحت مكتبة دارهم اليوم تضم

مئات من الكتب المختارة بكلّ عناية .

وفى سن السابعة عشرة ، اعرب الابن الاكبر ستانلى عن رغبته فى ان يفعلّ تماما ما فعله والده فى مثل تلك السن : ان يشق طريقه فى الحياة بيديه وحده . وبعد عامين اعرب شقيقه الاصغر جونى عن مثلّ تلك الرغبة ، ولم يكن رالف ادواردز الرجل الذى يقف فى طريق مثلّ هذه الامانى ، بلّ انه على العكس شجع ولديه على ان ينطلق كلّ منهما فى الطريق الذى اختاره لنفسه .

وهكذا سار كلّ منهما فى الطريق الذى اختاره بعيدا عن المزرعة ، فاصبح ستانلى كهربائيا ناجحا ، بينما اصبح جونى من اشهر المصورين الخبراء فى فنهم ، وبقيت ترودى وحدها مع ابويها فى مسقط رأسها ..

وفى سن الحادية والعشرين ، بدأت ترودى ادواردز فى تنفيذ مشروع كالمشروع الذى بدأه والدها من قبلّ ، فاختارت مساحة من الارض الكثيفة الادغال ، وراحت تعملّ بيديها بمفردها لتطهير الارض من اشجارها الباسقة التى ترتفع عشرات الامتار عن الارض ، ونجحت وحدها فى اكتساب ارض جديدة من الغابة تبلغ مساحتها ٨٠ فدانا ، كما بنت الفتاة بنفسها جسرا عبر النهر يبلغ طوله حوالى عشرة امتار ، ثم انشأت لنفسها كوخا خاصا ، تماما كما فعل والدها يوم طرق تلك الاصقاع الخالية منذ اكثر من ثلاثين عاما .

ولم تمض فترة طويلة ، حتى كانت قد اكتسبت مزرعة جديدة ، تحوى ١٤ بقرة ، ومخزنا كبيرا للحبوب ، واحاطت مزرعتها بسور كبير لتبعد عنها الدببة والحيوانات البرية .. وفى فبراير ١٩٥٦ عندما قمت بزيارة ترودى فى ممتلكاتها الخاصة ، كانت الفتاة المغامرة قد طهرت شقة من الارض على طول النهر يبلغ طولها حوالى كيلو متر ، واتساعها حوالى ٦٠ مترا ، وهى اول طريق مفتوحة بمثلّ هذا الاتساع شهدتها ادغال اتناركو منذ عصور ما قبلّ التاريخ !

***

كان حلم رالف الاكبر ان يحصلّ على طائرة بحرية تسهل له الكثير من اعماله وتنقلاته فى تلك الاصقاع الثلجية ، والادغال الكثيفة . وظل طوال ٢٠ عاما وهذا الامل يسيطر على افكاره سيطرة تامة ، ولكنه لم يستطع أن يحققه ، فلم يكن يمتلك ثمن هذه الطائرة ويبلغ حوالى ٤ آلاف دولار اذا كانت مستعملة !

كان يقتصد كل عام مبلغا ضئيلا لعله يستطيع ان يحقق حلمه ، ولكنه بعد سبع سنوات وجد ان المبلغ الذى ادخره لا يزال اقل كثيرا عن ثمن الطائرة المرجوة ، ولو ظل الحال على هذا المنوال لما حقق الحلم الا بعد عشرات السنين .

وبعد تفكير عميق ، اصدر المغامر العظيم اعظم قراراته جراة وجنونا ، لقد قرر ان يصنع طائرته بيده !

ولكنه لكى يفعل ذلك ، لا بد له اولا من ان يعلم نفسه كل دروس الطيران المعقدة التى لم يكن يعرف عنها شيئا من قبل .

انه لم يواجه من قبل مشكلة عويصة كهذه المشكلة ، ولكنه لم يتراجع امامها ، بل بدأ مشروعه الجديد بأن بعث فى طلب الكتب الخاصة بهندسة الطيران ، ولكنه ما كاد يشرع فى دراستها ، حتى وجد انه لا يستطيع تفهمها جيدا لانه لا يعرف الرياضيات معرفة كافية ، وهكذا عاد خطوة الى الوراء ، وبدأ يدرس الرياضيات من جديد دراسة شاملة .

وامضى رالف سنوات كرس لياليها كلها لدراسة الرياضيات بمختلف فروعها ، فأتقن الجبر والحساب واللوغاريتمات وغيرها ، واستمر فى دراساته ، حتى وصل الى المرحلة التى استطاع معها ان يفهم ما يقراه فى كتب هندسة الطيارات وتصميمها . وكانت ابنته ترودى — وهى الاخرى من هواة الطيران — تشاركه فى دراساته يوما بعد يوم ، حتى استطاعت ان تتقن علوم الطيران بسرعة فائقة مذهلة

واشترى رالف بما ادخره محركا قديما مستعملا لطائرة من طراز « كونتيننتال » قوة ٨٥ حصانا ، واخذ يصنع بقية اجزاء الطائرة قطعة قطعة ، على اساس دراساته الدقيقة ولكنه سمع بعد ذلك انباء اشاعت خيبة الامل فى نفسه ، فقد ذكر له بعض الطيارين الذين هبطوا فى المنطقة المجاورة لمزرعته ، ان الحكومة لا يمكن ان تسمح له بالطيران بطائرة من صنع يده ، الا بعد ان تقوم ادارة النقل باختبارها اختبارا دقيقا وفقا لمقاييس ولوائح خاصة ، وسوف يستغرق ذلك بضع سنوات اخرى !

وكانت ضربة قاسية موجهة الى حلم رالف ، الحلم الذى قضى فى العمل من اجله اكثر من عشر سنوات من الدراسة الشاقة المرهقة والعمل الذى لا ينقطع .

ونصحه احد الطيارين بشراء طائرة

برية قديمة بالمبلغ الذى فى حوزته ، ولا سيما بعد ان ضاقت الفجوة بين ثمن مثل هذه الطائرة ، والنقود التى ادخرها .

وسافرت ترودى الى فانكوفر ، حيث التحقت بمدرسة الطيران ، ونجحت فى الحصول على شهادة بالطيران وقدساعدتها دراستها الطويلة مع ابيها فى علوم الطيران على اجتياز التدريبات بسرعة ، حتى أنها أتمتها فى خلال اسبوعين فقط ، ثم ابتاعت طائرة قديمة وانطلقت بها الى دار الاسرة .

وفى ٨ يوليو ١٩٥٣ سمع رالف ادواردز ـ الذى كان قدجاوز الستين من عمره ـ صوت محرك طائرة يدوى فوق البحيرة ، وما لبثت طائرة بحرية زرقاء ان بدت فوق الوادى واخذت تهبط تدريجا فوق اشجار الارز العالية ، ثم هبطت فوق مياه البحيرة.

وهتف رالف بصوت مرتفع ينادى زوجته ايثيل :

ـ لقد عادت ، لقد عادت !

وانطلق الاثنان فى سرعة خاطفة ليحتضنا (ترودى) التى عادت مع الحلم الذى تحقق فى النهاية

***

ولم تمض فترة طويلة ، حتى كان رالف نفسه قد سافر هو الآخر الى فانكوفر ، حيث حصل على شهادة فى الطيران ، وهو فى الثالثة والستين من عمره . وقد ادهش الممتحنين والمدربين بمعلوماته الغزيرة وخبرته الطويلة بفنون الطيران ، ولعله اكبر من حصل على شهادة الطيران سنا فى كندا كلها ان لم يكن فى العالم بأسره

لقد اثبت رالف ادواردز طوال حياته ان قوة العزيمة والصبر والدأب على العمل يمكن ان تحقق المعجزات .



حكم الاناقة !

كان رجل كبير السن متأنق فى ملبسه ، يسير فى الطريق وفجأة لاحظ على رباط رقبته بقعة ، ولم يتردد لحظة ، بل اتجه الى اقرب سيارة فى الشارع ، ورفع غطاء خزان البنزين وغمس منديله فيه ، واخذ ينظف البقعة بعناية، ثم أعاد غطاء البنزين مكانه ، ومضى فى طريقه.

(فيليب كوهين)


كتاب الشهر
شيطان نيويورك
خلاصة كتاب The Count of Gramercy Park
بقلم روبرت هامدن الكورن

شيطان نيويورك

طاف فنسنت كولويل ـ كما كان يسمى نفسه ـ بنظراته عبر قاعة الاستقبال الفاخرة ، وهو يصغى الى الجزء الاخير من المقطوعة الموسيقية التى كانت أنغامها الحالمة تتردد فى أرجاء المكان ، ثم مر بأنامله الرقيقة التى تشبه أنامل النساء ، على شاربه الصغير ، وقد بدت عليه علامات الارتياح اذ كان يجول بانظاره بين ضيوفه الاعزاء .

كان هناك آل هامبلتون الاثرياء ، وآل بلنهام ، ذوو الصيت الذائع فى الاوساط المالية ، وهيدلى ميرتون وزوجته ، ومسز همفرى فان جيدن العجوز : انها مجموعة من اشهر شخصيات المجتمع فى نيويورك .

كانت قائمة الضيوف لاتحوى حقا أكثر من خمسين اسما ، ولكنهم كانوا جميعا من أصحاب المراكز المالية الوطيدة .

وقد تخصص آل كولويل ، الزوجان الانجليزيان اللطيفان ، اللذان انتقلا حديثا الى حى (جريمارسى بارك) الارستقراطى ، فى اقامة الحفلات الموسيقية الرائعة ، وكانت تلك الحفلة بصفة خاصة من انجح حفلاتهما .

وما كادت الانغام الاخيرة تتلاشى فى جو القاعة ، حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد .

وهرعت مسز هيدلى ميرتون نحو مستر كولويل ، وقالت وهى تمد اليه يدا اثقلتها الجواهر المرصعة والماسات الثمينة :

ـ كانت حفلة رائعة يامستر كولويل ، رائعة جدا .

وانحنى كولويل فى أدب جم ، بينما انهال عليه شكر ضيوفه ، الذين راحوا يمتدحونه فى حرارة ، ويثنون على الموسيقى والشمبانيا التى قدمها اليهم .

وتلاعبت ابتسامة ساخرة على شفتى كولويل وهو يستمع الى حديثهم عن غرامه بالموسيقى ، وبينما كان يتجه بانظاره نحو زوجته التى تقف عبر القاعة ، اذ أمسكت مسز فان جيدن بذراعه وقالت :

ـ لم يكن ينبغى أن أحضر ، فقد كنت فى حالة سيئة جدا هذا الصباح ، ولكنك كنت لطيفا جدا عندما وعدتنى بتقديم موسيقى (براهمز) فى دعوتك ،

حتى اننى لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الحضور

فقال الرجل الرقيق فى لهجة انجليزية تشوبها لكنة أجنبية :

ـ لقد قدمت موسيقى براهمز خصيصا من اجلك ياسيدتى

فاجابت قائلة :

ـ كان هذا كرما عظيما منك ، والآن ينبغى ان أعثر على مسز كولويل لاستاذنها فى الانصراف ، لقد كانت حقا حفلة رائعة .

وسار الاثنان معا نحو المكان الذى كانت تقف فيه زوجته بيتى كولويل .

وقالت مسز كولويل وهى تصافح ضيفتها :

ـ كان لطيفا منك أن تحضرى ، يا الهى ، ماهذه اللآلىء الجميلة التى ترتدينها ؟

فأرخت العجوز جفنيها فى خجل مصطنع ، ثم قالت فى فخر :

ـ لقد ارتديتها الليلة فقط من اجلكما

واشارت باصابعها الى عقد طويل مزدوج ، ثم قالت ضاحكة :

ـ هذه هى الهدية التى تلقيتها لمناسبة العيد الخامس والعشرين لزواجى ..

ثم راحت تشير الى بقية مجوهراتها الكثيرة التى تزينت بها فى تلك الليلة ، قائلة :

ـ وتلك مجوهرات ام زوجى همفرى ، انها لاتظهر الا فى المناسبات الرسمية .

ورافقها كولويل بعد ذلك حتى وصلا الى درجات السلم ، ثم أمسك ذراعها وساعدها على الهبوط حتى بلغا الردهة ، وهناك قال للخادم وهو يرمقها بنظرات حادة :

ـ احضرى معطف مسز ڤان جيدن يا ايلين ..

واختفت الخادم برهة فى غرفة المعاطف ، ثم عادت وقد امسكت بين يديها معطفا ضخما من الفراء الفاخر كاد يخفيها وراءه . وساعدت ايلين السيدة على ارتداء معطفها ووضع الوشاح الحريرى الطويل حول عنقها .

وكان سائق مسز جيدن ينتظرها أمام الباب ، فامسك بذراع مخدومته اليمنى ، بينما أمسك كولويل بالذراع اليسرى ، وساعدها الاثنان على ركوب سيارتها الفارهة

ووقف كولويل يرقب السيارة وهى تنطلق بها ، ثم استدار سريعا وعاد الى الدار .

***

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل عندما اغلق المنزل رقم ١٢ فى

جريمارسى بارك أبوابه وراء آخـــر ضيوفه الذين انصرفوا جميعا ماعدا جورج اندرسون ، الصديق الهـادىء المقرب الى آل كولويل .

وخلعت بيتى معطفها ، ثم جلست وقد ثنت احدى قدميها تحتها على المقعد الكبير فى غرفة المكتبة بينمـــا جلس كولويل واندرسون يتنــاولان كأسا من الويسكى فى مقعدين آخرين فى الجانب الآخر من الغــرفة ، وقال كولويل متسائلا :

ــ هل عادت ايلين ؟

فقالت بيتى :

ــ كلا ، لم تعد بعد

وفجأة دق جرس التليفون فى رنين مزعج ، فاسرع كولويل يرفع السماعة بيده ، بينما اتجهت اليه أنظار بيتى واندرسون وسمعاه يقول :

ــ ماذا تقولين يامسز جيدن ؟ .. اننى لا أستطيع ان اصدق ! انه شىء مروع .

وسكت قليلا ، ثم عاد يقول :

ــ كلا كلا ، ليس لدينا بكل تأكيد ، وبماضاعت فى سيارتك أوفى الطريق .. سنبحث عندنا طبعا بكل دقة، ولكننى واثق أنك ستجدينها ، أجل ، أجل . ليلتك سعيدة .

وأعاد كولويل السماعة الى مكانها ، ثم قال وهو يبتسم فى وجه صــديقه اندرسون :

ــ دق الجرس لايلين يابنى

وحضرت ايلين سريعا الى الغرفة وقد أحاطت بعنقها قلادة ضخمة من اللآلىء الثمينــة وتدلت حتى قاربت وسطها .

وخلعت الخادم القلادة ، ثم قالت وهى تسلمها لجورج :

ــ أليست جميلة حقا ؟ ..

وأخرج جورج من جيبه منظــارا مكبرا مما يستخدمه تجار المجوهرات، بينما كان الجميع ينظرون اليه فى لهفة وقلق ، ولم يرفع هو رأسه عن اللآلىء وهو يقول :

ــ انها من النوع الجيد جدا

فسأله كولويل قائلا :

ــ كم تساوى بالتقريب ياداتش ؟

ــ حوالى خمسين أو ٦٠ الف دولار اذا كنا ســعداء الحظ ، ولكننــا سنحتــاج الى وقت طويل قبــل ان نستطيع التخلص منها

وهنا قالت بيتى : وماذا يحدث اذا استدعت مسز ڤان جيدن البوليس بدلا من رجال شركة التأمين ؟

فقال كولويل :

ــ أريحوا أعصابكم ، ان البوليس لن يسمع شيئا عن هذه المســألة ،

فالامر في غاية البساطة .. لقد حضرت السيدة العجوز حفلة صغيرة مع بعض الاصدقاء اليس كذلك ؟. وهى تعرف كل انسان هنا ، وكان في الحفلة أطنان من اللآلىء والمجوهرات فلم يضع منها شيء ، هذا فضلا عن ان المجوهرات المفقودة هى مجوهرات أم زوجها وهى تأمل العثور عليها قبل أن يعرف أحد نبأ ضياعها ، فاذا لم تجدها ، فهى مؤمن عليها .

واخرج بعد ذلك قطعة من الورق كانت في جيبه ، وقال وعلى شفتيه بسمة ماكرة :

ـ دعونى أقرأ لكم شيئا كتبته قبل العشاء .

« عزيزتى مسز ڤان جيدن

لانستطيع انا ومسز كولويل ان نعرب لك عن شعورنا لضياع لآلئك ، وقد قمنا بتفتيش كل شبر في المنزل دون جدوى . ولا يمكن الا ان نعتقد انها سقطت منك في الطريق او على أرض السيارة ، وانها وجدت طريقها الى أيدى الآخرين .

واننى ارسل لك مع خطابى هذا رمزا صغيرا لتقديرنا وعواطفنا ، ونحن نعرف أننا لانستطيع أن نعوضك عما ضاع ، ولكننا نامل أن تعوض هذه الهدية جزءا من خسارتك .

مع احر عواطفنا .

المخلص

كولويل

***

وكان كولويل ذكيا ولا ريب ، أو لعل الحظ ساعده مرة أخرى ، فقد تصرفت مسز ڤان جيدن كما توقع بالضبط .

وذهب في الصباح التالى الى منزلها عارضا خدماته لمساعدتها في البحث عن لآلئها الضائعة ، فاستطاع بلباقته ان يبعد عن نفسه كل الشبهات .

وكانت شركة التامين حريصة من ناحيتها ، فنشرت كثيرا من الاعلانات واعلنت عن مكافآت في الصحف ؛ وذهب أحد محققيها الى مسكن كولويل حيث فحص المكان فحصا دقيقا عاونه فيه الجميع .

أما البوليس ، فلم يشترك في الموضوع ، ونجح كولويل في الحصول على ولاء مسز ڤان جيدن واعجابها برسالته التى بعث معها « مشبكا » مرصعا بالياقوت كان اندرسون قد سرقه في حادث آخر !

***

قطع فنسنت كولويل ـ او جيرالد تشابمان كما يدعى في الحقيقة ـ شوطا طويلا من حياته منذ مولده في

بروكلين قبل ثلاثين عاما فى مغامرات عجيبة ، فقد امتازت طفولته برغبته الجارفة فى القيام بالاعمال المثيرة ، واحتقار النظم والقوانين ، وأصبح مجرد احساسه بانه ارتكب جريمة دون أن يحاسب عليها هو الهدف الرئيسى لحياته الخيالية .

وصاحبه سوء الحظ فى أول الامر ، فقد اعتقل فى عام ١٩٠٧ بتهمة ارتكاب سرقة كبرى ، وأمضى عاما واحدا فى السجن ، وكان قد حكم بحبسه عشر سنوات ، ثم أطلق سراحه بكلمة شرف منه ، ولكنه مالبث أن اعتقل مرة أخرى قبل مرور شهر واحد بتهمة سرقة أخرى ، حيث أمضى ثلاثة أعوام فى السجن . وفى عام ١٩١١ اعتقل للمرة الثالثة بتهمة ارتكابه سرقة مسلحة ، وعندئذ أرسل الى سجن (أوبرين) حيث بقى فيه حتى سنة ١٩١٩.

ولم يضع جيرالد تشابمان وقته فى السجن عبثا ، فقد أمضى الساعات فى مكتبات السجن يقرأ ويعلم نفسه ، ويتدرب على النطق باللهجة الانجليزية السليمة ، ودرس أخطاءه السابقة ، كما اكتسب حذقا ودهاء لم يجاره فيهما مجرم آخر فى تاريخ أمريكا

وفى خلال الفترة التى أمضاها فى سجن (أوبرين) ، التقى لاول مرة بداتش أندرسون ، فأصبحا من أقرب الاصدقاء ، وكان داتش من النوع الهادىء المتواضع ، فكان بمثابة الميزان لجراة تشابمان وتهوره وأعصابه الملتهبة السريعة الانفجار .

وكان أندرسون سليل أسرة طيبة ، وقد أتيحت أمامه كل الفرص ليكون رجلا طيبا ، عظيما ، فقد تلقى تعليمه فى الجامعة ، وكانت أسرته تمتلك الوفير من المال ، ولها علاقات طيبة بالكثيرين ، ولكنه فضل الاستمتاع بملاذ الحياة خارج القانون !. وعلى مر السنين ، تخصص (داتش) فى سرقة الاحجار الثمينة ، وتزييف النقود ، واعتمد عليه تشابمان فى كثير من الامور التى تتطلب النصيحة والتشاور !

وفى أثناء تمضية فترة العقوبة فى سجن « أوبرين » طرأت على بال جيرالد تشابمان فكرة أكبر عمل قام به فى حياته ، فقد عزم على ارتكاب سرقة كبرى والاختفاء فى حى (ايست اند) الذى تسكنه الطبقة الراقية فى نيويورك ، بعد التسمى باسم مستعار

ونجح تشابمان فى رسم خيوط السرقة الكبرى ، التى أصبحت تعرف فى سجلات الاجرام الامريكى باسم

« سرقة بريد شارع ليونارد » ، واعد كل تفصيل محتمل لهذه السرقة أثناء وجوده فى السجن ، ثم مضى فى احكام تدبيراته بعد اطلاق سراحه .

كان يراقب خط سير سيارة البريد التى تنقل بريد (وال ستريت) حى المال الشهير يوما بعد يوم ، وقد أحس بارتياح بالغ عندما عرف أن رجلا واحدا هو الذى يقود العربة .

وتعاون هو وزميله داتش اندرسون ، وزميل ثالث يدعى تشارلس لوربر كان سجينا سابقا معهما على القيام ببروفة للحادث . ففى كل يوم خلال الاسبوع الاخير السابق للجريمة كانوا ينطلقون بسيارتهم وراء سيارة البريد لملاحظة كل حركة من حركاتها .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢١ ، ماكاد سائق سيارة البريد يتوقف أمام اشارة المرور فى أحد الشوارع ، حتى تسلل تشابمان الى جواره ، ودس مسدسه بين اضلاعه ، وطلب اليه أن يتجه بالسيارة الى طريق جانبى ليوقفها هناك .

وساعده الجو يومئذ ، فقد كان الضباب الكثيف يخيم على المدينة ، فأخفاهم عن العيون تماما ، وتوقفت السيارة فى ركن مظلم من شارع ليونارد ، حيث قام داتش وشارلى بنقل حقائب البريد بسرعة من سيارة البريد الى سيارة تشابمان ، بينما تناول الاخير حقيبة من القماش ، وضعها على رأس السائق المرتعد ، وأغلقها أسفل معصميه .

وفى خلال دقائق قليلة ، كان اللصوص الثلاثة ينطلقون بسيارتهم يسابقون الريح ، وعبروا الجسر الى (ايست ريفر) وهناك توقفوا مرة أخرى فى شارع معتم حيث أبدلوا أرقام السيارة .

وبعد ساعة أخرى ، كانوا قد وصلوا الى المخبأ الذى أعدوه من قبل وكان عبارة عن مخزن متهدم للحبوب فى مزرعة منعزلة مهجورة ، وهناك حملوا الحقائب الثمانى التى سرقوها الى المخزن وأمرهم تشابمان بفصل احدى الحقائب لفرزها ..

وقام تشابمان بتقدير قيمتها كلها ، ثم همس قائلا :

ـ أمامنا الآن ٢٨٥٤٦٢ دولارا ، فاذا ظل هذا المعدل فى بقية الحقائب فسنكون قد حققنا ربحا عظيما

وتبين أن كلا من الحقائب السبع الاخرى تحوى أكثر من الاولى ..

وارتسمت البسمات على وجه تشابمان وهو يحصى مجموع الغنائم فاذا بها تبلغ مليونين و ٦٤٣٧٢٠

دولارا بينها أكثر من ٣٧٥ الف دولار نقدا .

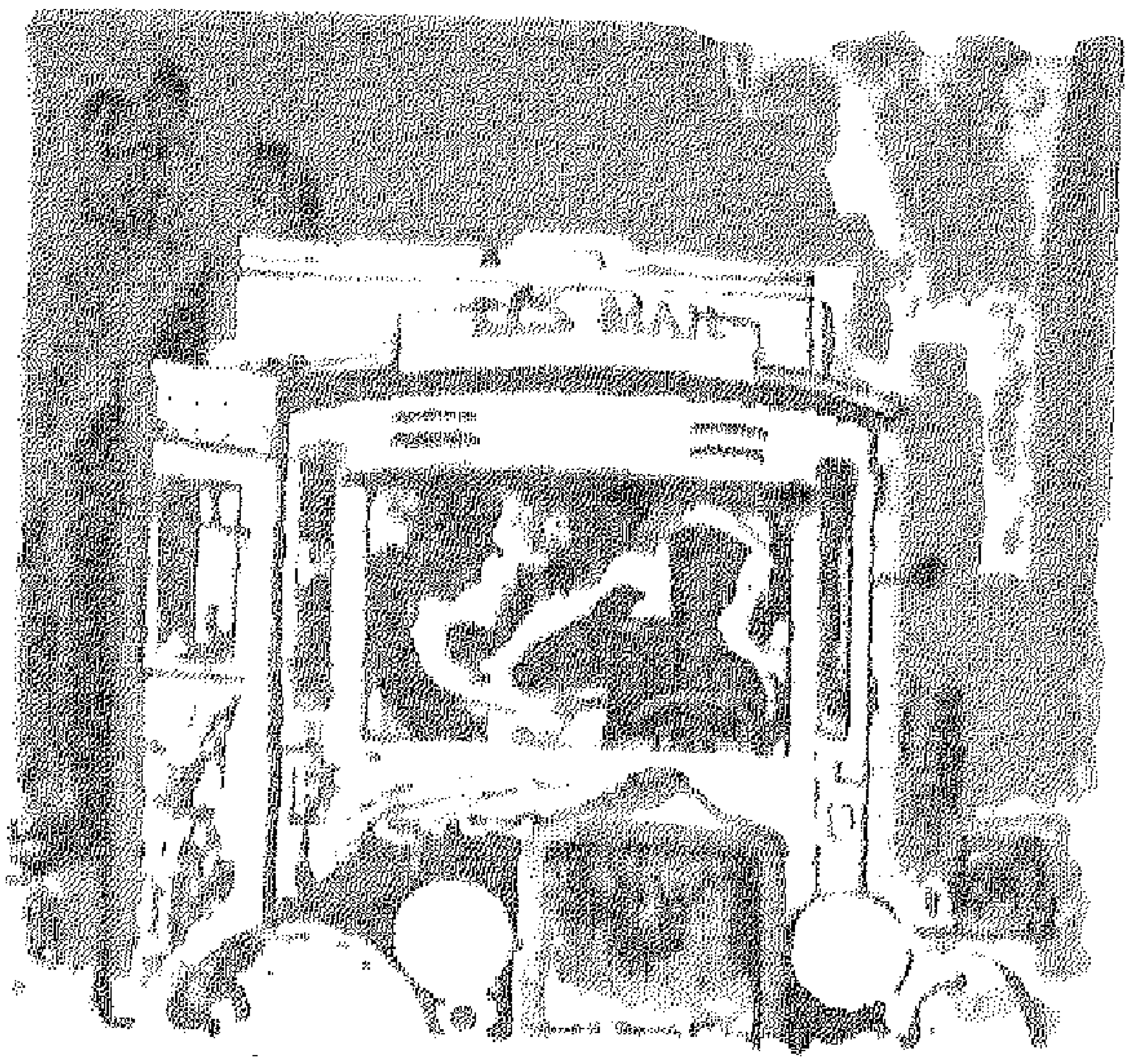
وهنا بدأت المرحلة رقم (٢) من خطة تشابمان الجهنمية ، فقد استأجر هو وزوجته الدار الفاخرة رقم ١٢ بحى جريمارسى بارك تحت اسم مستعار هو مستر ومسز فنسنت كولويل . ومع أن سائق سيارة البريد استطاع التعرف على تشابمان وأندرسون بين صور المجرمين السابقين التى عرضها عليه البوليس ، فان البوليس لم يفلح فى العثور على الرجلين فى مخبئهما الارستقراطى الجديد .

وعرضت جائزة قدرها ٢٥ ألف دولار لمن يرشد اليهما ، وتحدثت الصحف فى اسهاب عن أكبر سرقة فى تاريخ أمريكا .

***

كان جيرالد تشابمان — أو كونت جريمارسى بارك — كما يطلق عليه بعض أصدقائه سعيدا بكل ماحدث .

انه شخص مولع بالمغامرات والحوادث المثيرة ، يريد أن يحس أن البوليس يسعى فى البحث عنه فى كل ركن من أركان البلاد . واقبل على مطالعة كل ماكتبته عنه الصحف ، مغتبطا بما فيها من مبالغات ، ساخطا



لاعنا ، اذا وجد من احداها تقليلا لقيمة ماسرقه !

واستغل تشابمان وأندرسون بعض نصيبهما من صفقة شارع ليونارد فى عملية تهريب الخمور ، خلال فترة تحريمها فى أمريكا ، فربحا مبالغ طائلة ، وازدهرت شركتهما ، كما نجح الاثنان فى ارتكاب سرقات اخرى أضافت الى ثروتهما دخلا كبيرا . ولم يقم الاثنان بهذه الاعمال لانهما كانا فى حاجة الى المال ، بل لكى تظل أيديهما نشطة ، وذكاؤهما حادا !!

ومضت الحياة حلوة هادئة فى جريمارسى بارك مدى ثمانية أشهر ، تمتع فيها تشابمان وزوجته بهذه العيشة الارستقراطية والوسط الراقى بحسبانهما زوجين بريطانيين لطيفين !!

***

وكان الجو شديد الحرارة عند ظهر

يوم ٣ يوليو عام ١٩٢٢ عندماوصل كولويل الى منزله فيسيارة تاكسى ، وصرف السائق ثم دلف الى المنزل الذى كانيشمله السكون والصمت ، وتوجه كولويل الى حوض الغسيل وأخذ يصب الماء البارد على وجهه ، ثم فك رباط رقبته ، وأخذ يصعد السلالم المغطاة بالسجاد • وعند باب المكتبة توقف قليلا ، ثم قال فى لهجة رقيقة :

ـ بيتى ؟••

ومن ظلام القاعة ، برز شبح مجهول دس بين جنبيه فوهة مسدس ، فحاول أن يدس يده الأخرى فى جيب معطفه الأيمن ، ولكنه كان متأخرا ، فقد ظهر شبح آخر من ناحية المكتبة ، وأسرع يقيد ذراعيه من الخلف ، ثم وضعت القيود الحديدية فى يديه

وسمع صوت أحد الرجلين يقول :

ـ حسنا يا تشابمان •• اننا نريد أن نتحدث اليك

ودخل الجميع المكتبة ، حيث شاهد بيتى وقد جلست وفى يديها قيود هى الأخرى ، وحاولت أن تتكلم ولكن احد رجال البوليس منعها من الحديث • وهبط الجميع الى أسفل حيث كانت فى انتظارهما سيارتان للبوليس ، انطلقتا بهما الى مركز البوليس

ورفض تشابمان أن يعترف بشىء طوال التحقيق ، رغم ما بدا له من أن البوليس يعرف الكثير فعلا ، وعرف من الحديث أنهم ضبطوا بعض الشيكات السياحية المسروقة بعد صرفها ، ومع ذلك فقد ظل يتجاهل كل شىء رغم انهيال الأسئلة عليه وسط الجو الحار الخانق •

وفجأة دخل أحد الجنود الحراس يعلن أن « بيتى » أصيبت باغماء ، فصحبه أحد ضباط البوليس لمشاهدتها بينما جلس تشابمان بمفرده مع الضابط الآخر الذى كان يرقبه فى بلادة • وفجأة أخذ تشابمان يتنفس بشدة ، ثم سقط فجأة فى مقعده وهو يئن قائلا :

ـ ماء ••• ماء

وهرع ضابط البوليس دون وعى الى القاعة ليحضر له كوبا من الماء ، ولكنه ماكاد يغلق الباب خلفه ، حتى قفز تشابمان من مقعده الى النافذة المفتوحة ، ونظر الى أسفل !

كان هناك ثمانية طوابق تحته ، وكان الشارع يسبح فى ضوء بعد الظهيرة ، فكتم أنفاسه ، ثم لاحظ وجود حافة رفيعة حول البناء على بعد نصف متر تحت النافذة ، فلم يتردد ، بل رمى نفسه من النافذة

الى الحافة الضيقة على الرغم من الارتفاع الشاهق ، وأمسك بالحائط ، وأخذ يتقدم صوب نافذة مفتوحة أمامه ، وهناك نظر الى الداخل فى حذر • كانت الغرفة خالية ، فألقى بنفسه داخلها بسرعة ، وسمع أصواتا هائجة فى القاعة ، فأحضر مقعدا استعان به على الصعود فوق دولاب للملابس ، حيث كوم جسمه كأنه كرة ، وفجأة فتح الباب ودخل رجلان ، سمعهما يتحركان وهما يبحثان عنه تحت المقاعد والكتب ووراء الأوراق ، وكاد الاثنان ينصرفان ، لولا أنه اضطر الى اطلاق بعض أنفاسه المكتومة ، وعندئذ توقفت الحركة تحته ، وسمع صوتا يقول :

ـ حسنا يا تشابمان ، تستطيع أن تهبط

وعاد مرة أخرى الى غرفة التحقيق

وكانت هذه هى نهاية قصة جريمة شارع ليونارد • وفى خلال شهرين حكم على تشابمان وزميله أندرسون بالسجن ٢٥ عاما فى اصلاحية الرجال • أما بيتى فقد أطلق سراحها لعدم امكان اثبات اشتراكها فى السرقة

***

ولكن الباب الخارجى لاصلاحية الرجال فى « اتلانتا » بولاية جورجيا لم يكد يغلق وراء تشابمان ، حتى بدأ يفكر فى الهرب ويضع الخطة لذلك بجرأة عجيبة ، وساعدته بعض العوامل المادية فى السجن ، اذ لم يكن مستشفى السجن يبعد كثيرا عن السور الخارجى ، وكان هناك بين المستشفى والحائط بضعة أحواض صغيرة يقوم المسجونون بزراعتها بالخضر والزهور

وبدأ تشابمان خطته بعمل حبل بوساطة وصل قطع القماش وتضفيرها بعد سرقتها من ورشة السجن ، ثم ابتكر نوعا من الخطاف وضعه فى طرف الحبل • ثم أخفى هذه الاشياء فى حوض بعض المزروعات على مقربة من المستشفى وأمضى لياليه بعد ذلك يصنع لنفسه مبردا •

وكانت خطة تشابمان التالية تقضى بأن يتصنع المرض ويشكو آلاما حادة فى الرأس والعنق حتى ينقل الى المستشفى ، وساعده الحظ العجيب ، فنقل اليه وليس به أكثر من مريض واحد ، كان من المسجونين الذين تثق فيهم ادارة السجن وتمنحه بعض الحرية ، وقد وافق هذا السجين على أن يعمل كشافا بينما يقوم تشابمان ببرد أحد القضيبين الحديديين الموضوعين على نافذة غرفة المستشفى التى تعلو حوالى ستة أمتار عن الارض

وسرعان ماصنع تشابمان حبلا من أغطية الفراش ، وربطه فى القضيب الباقى فى النافذة • وكان المحول الرئيسى للقوة الكهربائية للسجن يقع تحت النافذة مباشرة ، ويعرف تشابمان ان اى خلل فيه يعطل التيار الكهربائى عن السجن كله ، فاستعان بقفاز من المطاط سرقه من غرفة العمليات ، ووجه ضربة عنيفة الى السلك الذى ينقل التيار من المحول ، فقطعه ، وعندئذ غرق السجن فى ظلام دامس

وهبط تشابمان وزميله بالحبل الى الحديقة ، ثم انطلقا الى جدار السجن فألقى تشابمان بالخطاف فأمسك به ، وتسلق هو الحبل أولا وتبعه زميله ، ثم نقل الحبل الى الناحية الأخرى ، وهبطا الى الخارج •

وسمعا وراءهما فى الظلام أصوات الحراس يجرون فى ضجة وانزعاج .

وانطلق الاثنان يعدوان بعيدا • وبعد ٢٤ ساعة ، كان تشابمان يرقد فوق أرض حقل به بقايا نبات الذرة ، يبعد عن السجن حوالى ٥٠ ميلا ، وسمع من بعيد أصوات الكلاب المطاردة وهى ما زالت تجد فى اثره

واقترب الصوت ، وعلى مسافة بعيدة شاهد ضوءا تبعه ضوء آخر ، فبلل العرق البارد وجهه ، وظهره ، وانطلق يعدو من جديد • وعندئذ دوى صوت رصاصة تمرق فى الليل وأحس بألم قاتل فى ساقه •• ثم أصابته رصاصة أخرى فى ظهره ، فسقط على وجهه فى الوحل ، حيث ظل راقدا يلهث ، واحس بالدم الساخن اللزج يتدفق ببطء من ساقه وظهره وما لبث أن فقد الوعى تماما !

***

استيقظ جيرالد تشابمان فوجد نفسه فى غرفة بيضاء ، تفوح منها رائحة العقاقير المخدرة ، فأدرك أنه فى المستشفى ، وحاول أن يمدد جسمه من فرط الألم الذى أحس به فى ظهره وعندئذ أقبلت احدى الممرضات لتساعده فسألها بعض أسئلة ، أدرك منها أنه معدود بين المصابين باصابات خطرة ، وأن هناك حارسين يقفان على باب غرفته ، فعاد يسألها :

ـ وهل أبلغتم زوجتى ؟

فقالت الممرضة أنها لا تعتقد أن حالته من الحالات الخاصة ، ولكنه راح يلمس الوتر الحساس من نفس الممرضة ، فأخذ يتحدث عن شوقه لأطفاله الذين قد لايراهم بعد اليوم ، وزوجته المحبوبة ، وقال أنه أنفق حياته حقا فى ارتكاب الخطأ ، ولكنه يريد ان يودع زوجته قبل ان يموت

وسقطت الممرضة الساذجة فى الشرك ، فوعدته باستدعاء زوجته من نيويورك

ومر اليومان التاليان فى بطء وتثاقل ، ولكنه كان على ثقة من أنه يستطيع الاعتماد على زوجته بيتى فى التصرف من تلقاء نفسها ، وكان كلما غادرت الممرضة الحجرة ، تحامل على نفسه ونهض من فراشه وأخذ يكره نفسه على السير والتدرب رغم الآلام الرهيبة التى كان يحس بها • وكان هذا التدريب الذى يقوم به سرا يزيد ارتفاع حرارته ، وهذا ما يريده تماما فقد كان يساعده فى تراخى انتباه القائمين بحراسته بحسبانه مريضا فى حالة خطرة ، كما وافقت السلطات على السماح لزوجته بزيارته

وفى يومه السادس بالمستشفى ، أدخلت الممرضة زوجته « بيتى » الى غرفته ، قائلة لها أنه غير مسموح ببقائهما معا أكثر من ربع ساعة ، ثم تركت الزوجين بمفردهما

وأسرعت بيتى بالعمل ، فأخرجت مسدسا صغيرا من معطفها أعطته لتشابمان وقالت فى صوت متوتر :

ـ علينا أن نعمل بسرعة • ان السيارة تقف فى مواجهة المستشفى

فقال تشابمان بهدوء : لا تخافى لقد دبرت كل شىء فعلا

ثم دق الجرس الموضوع عند مقدمة الفراش ، وسرعان ما حضر أحد خدم المستشفى • وعندئذ أخرج تشابمان مسدسه من تحت أغطية الفراش وقال له :

ـ اغلق فمك تماما وافعل ما آمرك به ، والا ألهبت رأسك بالرصاص ، الآن اخلع ملابسك بسرعة

وقام تشابمان بارتداء ملابس الخادم ، ثم قيد أسيره بأشرطة صنعها من أغطية الفراش ، وقال لزوجته أنه سيسبقها على أن تتبعه بعد دقائق

وتم كل شىء على ما يرام فلم يشك



فيه أحد أو يعترض طريقه حتى وصل الى السيارة الرابضة أمام المستشفى وهناك وجد صديقه القديم تشارل وولف ــ ذا الذراع الواحدة ــ يجلس أمام عجلة القيادة

ودلف الى المقعد الخلفى ، بينما جاءت بيتى وراءه بسرعة وهمست قائلة :

ــ هيا بنا

وبعد ساعات توقف وولف أمام الدار رقم ١٢٣ بشارع ميلبرى بمدينة « مونس » بولاية أنديانا ، حيث يقع منزل ومكتب الدكتور هارى سبيكرمون الصديق القديم لتشابمان وموضع ثقته

وكان الطبيب الذى حكم عليه فيما بعد بالسجن لاتجاره بالمخدرات ، يدين لتشابمان وعصابته بجميل سابق ولذا تعهد بمساعدتهم فيما يطلبونه منه

وشرع سبيكرمون فى فحص جروحه



بدقة بعد أن أزال عنها الاربطة ، ثم قال لبيتى :

ــ أعتقد أنه من الافضل البقاء هنا فترة من الوقت ، فهذه الجروح فى حاجة الى غيار دائم يوميا ، كما أنه ليس من الحكمة التجول فى البلاد الآن على هذه الصورة

ووافق تشابمان وزوجته على ذلك وقضيا فعلا ثلاثة أسابيع عند الدكتور سبيكرمون

وما كاد الجرح يبدأ فى الاندمال ، حتى أخذ تشابمان يتجول فى انحاء البلدة بحرية ، بعد أن أطلق شاربه من جديد ، وأعاد النظارات السوداء فوق عينيه

وأمضى أياما كثيرة يقرأ كل مايصل اليه من كتب ، تساعده على التقدم فى فن الاجرام .. قرأ كتبا عن الورق وصناعة النيتروجلسرين الذى يستخدم فى نسف الخزائن ، وعمليات تزييف النقود وغيرها من الكتب التى يحصل عليها بالسرقة من المكتبات العامة فى مختلف المدن !.. أما بقية وقته فكان يمضيه فى لعب الجولف أو قيادة سيارته الى الريف

وفى ذات يوم ، شاهد منزلا فى مزرعة صغيرة منعزلة عن الطريق العام على مقربة من بلدة ايتون بولاية

أنديانا بوليس ، فاقترب منه حيث شاهد فلاحا ضامرا يعبر الساحة الكائنة أمام مخزن الحبوب ، فسأله عما اذا كان يستطيع أن يعثر على مكان هادىء يمضى فيه بعض الوقت للنقاهة ، لانه أجرى عملية جراحية منذ وقت قريب ، فصحبه القروى الى زوجته ..

واستطاع أن يقنعهما بما عرضه من نقود ، بالموافقة على أن ينزل فى ضيافتهمامقابل ٢٥ دولارا كل أسبوع بعد أن تسمى باسم توم ميللر

وأمضى تشابمان مع « بن هانس » وزوجتهمارى ستةأسابيع ، يساعدهما على أعمال المزرعة واطعام الدواجن وغسل الاطباق والطهى ، وذلك قبل أن يبدأ القيام برحلاته البعيدة التى وصفها لهما بأنها رحلات للبيع .. وفى احدى هذه المرات ، عاد تشابمان ومعهصديقه داتش اندرسون ، حيث قدمهلآل هانس تحتاسم ايفر تيللر

***

وأمضى تشابمان وأندرسون بضعة أسابيع يستعدان لعملية التزييف الكبرى التى يحلمان بها . وقداكتشف داتش ان الورق الذى يستخدم فى أوراق النقد الامريكية يصنع فى مصنع بمدينة دالتون فقرر أن يحضر كمية من الاوراق من هذا المصنع بأية وسيلة ليطبع عليها نقوده الزائفة

وأدرك تشابمان أنهما فى حاجة الى سيارة أخرى للعمل ، ولكنه بدلا من أن يشترى سيارة ، والأموال وفيرة معه ، سرق واحدة من احدى شركات بيع السيارات فى ستوبنسفيل بولاية أوهايو ، وكانت سيارة لنكولن تتسع لخمسة ركاب

وانطلق الشريكان بالسيارة ومعهما زميلهما تشارل وولف ، واخذوا يتجولون فى المدن وينزلون فى افخر الفنادق ، وامضوا بضعةايام فى فحص المنطقة المحيطة بمدينة سبرنجفيلد بحثوا عن قاعدة يعملون منها ، وعن شخص يستطيعون استخدامه فى اغراضهم ، ووجدوا ضالتهم فى شخص يدعى «والتر شين» كان يمتلك وكالة خاصة للاعلانات فى البلدة ، وكان انسانا ضعيفا ، افسده حب المال الكثير وحب الحفلات والشراب ، فلم يكن يتردد فى الاقدام على اى شىء ، وليذهب القانون الى الجحيم !

وكان للوكالة مخزن كبير ، يصلح لاخفاء الغنائم فيه

وفى يوم ١١ أكتوبر ١٩٢٤ ، صحب تشابمان شين فى نزهة بمدينة « نيو بريتين » بولاية كونكتيكت

الصناعيـة الصغيرة ، وهنـاك حاول سرقة أحد المتـاجر فى الفجر ، وقام بحركة جريئـة اذ ترك شين ينتظره فى السيارة ، وتسلل وحده الى المتجر حيث أخذ يحطم خزائنه وينسفها ، ولكن حوذيا فى حظيرة قريبة ارتاب فى الأمر ، فأبلغ البوليس الذى بعث أربعة من رجاله لاعتقال اللص المغامر ، ولكنه استطاع الافلات منهم بعد أن صرع أحدهم برصاص مسدسه

وتمكن البوليس من اعتقال شين فى السيارة ، وتولى ادوارد هيكى مفتش البوليس السرى استجوابه ، وكان هيـكى من أمهر مخبرى البوليس ، فاستطاع بعد سـاعات من التحقيق انتزاع اسم تشابمان من شفتى شين باعتباره قاتلا لضابط البوليس

ورغم أن شين تحـدث فى صراحة تامة ، فان معلوماته لم تفلح فى الكشف عن المكان الذى يختفى فيه تشابمان ، لان شين نفسه لم يكن يعرف شيئا عن نشاطه خارج الولاية التى اشتركا فى العمل فيها أخيرا

وضبط فى مخزن الوكالة التى يديرها شين كميات هائلة من الاسلحة وأدوات السرقة والغنـائم التى فازت بهـا العصابة فى حوادث سابقة .. وعكف هيكى على فحص هـذه الاشياء لعله يهتدى منها الى المكان الذى ذهب اليه تشابمان دون جدوى .

وأخيرا عثر بين الاشياء المكدسة فى المخزن على حقيبة قديمة ، استطاع أن يجد اسم وعنـوان الدكتور هارى سبيكرمون مكتوبا تحت البطـاقة الخارجية الملصقة عليها .

وظل رجال البوليس يواصـلون مراقبة بيت الدكتور سبيكرمون ثلاثة أشهر كاملة ... حتى كلل صبرهم بالنجاح ، وشاهد أحدهم ذات صباح شخصا تنطبق اوصافه على تشابمان يدخل بيت الطبيب المشتبه فى امره

وأحاط البوليس بالدار ، حتى اذا ما غادرها تشابمان فى صورته الجديدة ، أطبق عليها البوليس ، واقتادوه بعد معركة حامية الى السجن .

***

وأثار نبأ القبض على تشابمان بعض تعقيـدات قانونية ، فمنذ هربه من اصلاحية اتلانتا كانت الحكومة الفدرالية تتلهف على اعادته اليها ، بينما كانت ولاية كونكتيكت تريد هى الاخـرى تقديمه للمحاكمة بتهمة قتل أحـد ضباط بوليسها ، وقد تم اعتقـاله بوساطة بوليس ولاية انديانا ، فمن المختص بمحاكمته من كل تلك الجهات؟

ووافق المدعى الامريكى العام على أن



يحاكم تشابمان امام محاكم كونكتيكت بتهمة قتله لأحد ضباط البوليس .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلهـا محـامـوه ، والانكار الذى أصر على التمسك به خلال المحاكمة ، فقد أدانه المحلفون على تلك الجريمة وصدر الحكم باعدامه وتحدد يوم ٢٥ يونيو ١٩٢٥ لتنفيذ الحكم عليه .

ولكن جيرالد تشابمان لم يشنق فى ذلك اليوم .

فقد قدم محاموه التماسات لتأجيل التنفيذ ، ووافقت السلطات المختصة على ذلك .

وفى الوقت الذى كان فيه المحامون يبذلون جهودا يائسة لانقاذ رقبته ، كان صديقه داتش اندرسون ـ الذى اختفى عن العيون ـ يقوم بسلسلة من التهديدات الرهيبة لكل من لعب دورا ضد صديقه ، فهـدد بنسف شركة السيارات التى شهدت كاتبتها ضد تشابمان ، ونفذ تهديده ، اذ أحرق الشركة وبلغت خسائرها ٢٠٠ ألف دلاور ، ثم هدد بقتل المزارع بن هانس وزوجته مارى ، ونفذ تهديده بعد ان استدرجهما بعيدا عن المزرعة بمكالمة تليفونية زائفة ، وشوه معالم جسديهما بالرصاص . وأخيرا هدد النائب العام للولاية بالقتل ، ولكنـه لم يستطع تنفيذ تهديده الاخير ، اذ ضبط وهو يحاول صرف ورقة مالية زائفة من انتاجه فى بلدة موسكيجون بميتشجان ، وقتل اثناء محاولة اعتقاله .

وظل المحامون يقومون بكل مناورة قانونية مستطاعة لمنع تنفيذ الحكم ، بين تأجيلات والتماسات واستجوابات ، وغيرها . وأخيرا تقرر تنفيذ الاعدام فى منتصف ليلة ٥ أبريل ١٩٢٦ ، أى بعد حوالى عام من موعد التنفيذ الاول .

وفى الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة ، تأرجحت جثـة أكبر مجرم شهدته أمريكا « كونت أوف جريمارسى بارك » وساد حكم القانون فى النهاية !

***

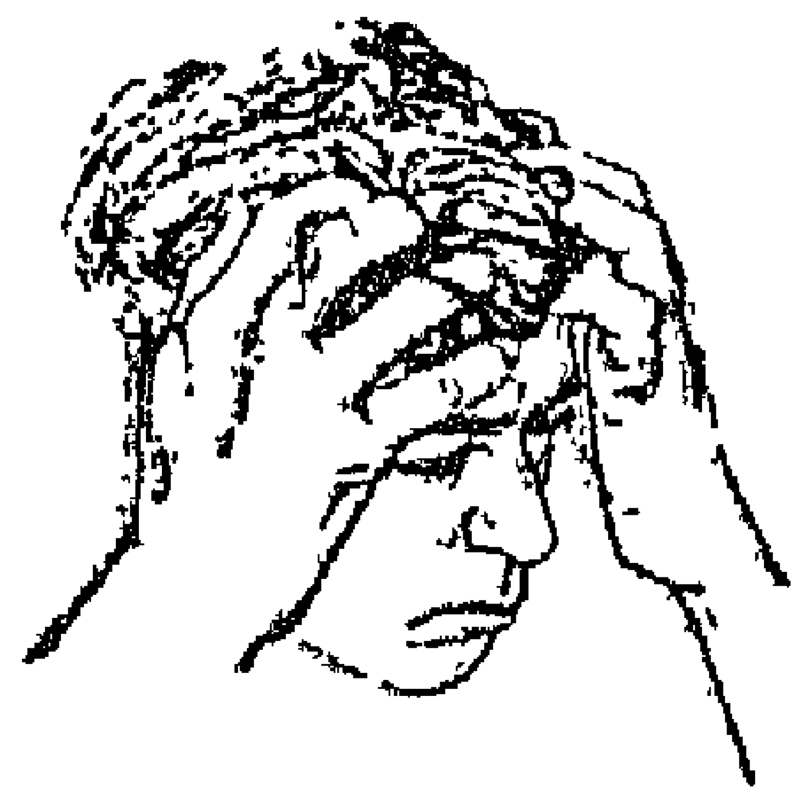
تستطيع ان تعرف متى يكبر الصبى فى السن : حين يكف عن الرغبة فى الخروج مع الفتيات ، ويفضل البقاء معهن فى المنزل .
(س.ل.)

كرّس حياته لمكافحة الجنون

خلاصة كتاب: A Man Against INSANITY

بقلم بول دي كرويف





ان قصة جاك فيرجوسن ــ الرجل الذى كرس نفسه لاعادة العقل الى كل من افقدته الحياة عقله .. لهى قصة كفاح خالد ليس له مثيل . لعل أروع فصولها ، أن هذا الطبيب الذى يعد من رواد طرق العلاج الحديثة للمجنون ، كان هو نفسه مجنونا سابقا ، عرف مستشفيات الامراض العقلية كنزيل قبل أن يعرفها كطبيب معالج .

وهى فضلا عن ذلك قصة جهاد رجل اراد أن يكون طبيبا رغم كل الظروف التى واجهته ، فتحقق له ما اراد ، واصبح طبيبا وهو فى الاربعين من عمره ! .. وكان فيرجوسن قبل ذلك وقادا فى قطارات السكة الحديد ، وبائعا للويسكى ، وعاملا فى حانة ووسيطا لشركات التامين . ولكن ذلك كله لم يحوله عن هدفه الاول ، وهو أن يكون طبيبا .

واراد القدر أن يضعه فى مستشفى المجانين كمريض ، فدخله أكثر من مرتين ، ولمس بنفسه كيف يعالجون الجنون فى هذه المستشفيات ، حتى اذا ماشفى وارتد اليه عقله ، كان اعظم من كافح الجنون بوسيلته الخاصة ، التى تعتمد أولا وقبل كل شيء على دواء جديد ، اسمه الحب والحنان !

كرس حياته لمكافحة الجنون

فى خريف عام ١٩٥٥ ، وقف الدكتور جاك فيرجوسن الطبيب بمستشفى « ترافيرس سيتى » فى ميتشجان ، فى مؤتمر للأطباء النفسانيين ، ليتحدث عن الانقلاب المذهل الذى حدث فى نظام المستشفى بين ١٠٠٣ من المريضات المصابات بأمراض عقلية . وقال الدكتور فيرجوسن أن المركبات الكيماوية الجديدة لعلاج الجنون ، أعادت الكثيرات من مرضاه المخبولات الى دنيا الواقع ، حتى أن عاملات قسم التجميل بالمستشفى لم يستطعن ملاحقة الطلبات التى انهالت عليهن من المريضات الراغبات فى تصفيف شعورهن بطريقة « البرمنانت » !

ان السيدات المحطمات ، اللاتى أمضين سنوات طويلة لا يبدين أقل اهتمام بمنظرهن ، واللاتى كن يتجردن من ثيابهن ، ويبدين أفحش السلوك ، ذوات الخبل العنيف ، الغارقات فى

ذهولهن ، الخـاملات خمولا يجعلهن اقرب الى النبات منهن الى الانسان ، هؤلاء السيدات المريضات ، أصبحن عاقلات مرة أخرى، شديدات الاهتمام بمظهرهن، مما دعا الى ادخال تحسينات على برامج التجميـل بالمستشـفى ، كجانب من جوانب رد الاعتبار اليهن .

وعنـدما عرض تقـرير الدكتـور فيرجوسن على زملائه المجتمعـين فى المؤتمر الطبى ، أذهلهم ، وأثار بينهم اهتماما بالغا ، فقد كانت المريضـات اللواتى اختارهن الدكتور فيرجوسن لمبـاشرة علاجه عليهن ، هن أسـوأ المريضات حالة فى المستشفى . كانت بينهن ٢٢٥ واحـدة من المريضـات المزمنـات ، كلهن يقـاومن الحقن بالانسولين والصـدمات الكهربائية ، وتعد حالتهن ميئوسا منهـا . ومع ذلك ، فعنـدما عولجن بالعقـاقير الجديدة ، والعطف والحنان ، عادت تلك الحالات الميئوس منها فأصبحت عادية بصورة تكاد تكون معجزة .

لقد اختفت نوازع القتال والتحطيم بين ٨٠٪ منهن ، وتوقفت ٧٠٪ عن القيام بجولاتهن الليلية ، واستطاعت ٧٢٪ منهن المسـاهمة فى الحفـلات وأعمال التسلية ، وأقبلت ٧٤٪ على العلاج بكد واجتهاد .

ومنذ أن بدأ الدكتور فيرجوسن مشروعه ، أصـبح فى مستشـفى (ترافيرس سيتى) أكثر من مائة فراش خال ، فى حين أن هذا المستشفى الذى يضـم ٣٠٠٠ فـراش ، كان المرضى يضطرون للانتظار فترة طويلة قبل أن يسمح لهم بالدخول فيه !

وفى خلال العـامين الأولين لتولى الدكتور فيرجوسن عمـله بالقسـم النسـائى بالمستشفى ، بلغ عـدد المريضات اللاتى بلغن من التعقل حدا سـمح باعادتهن الى بيوتهن ٣٠٠ مريضة ، بينما تحسنت حالة ٥٠٠ أخريات بصـورة مدهشـة ، وبدأن يقمن بزيارات تجريبيـة لدورهن أو لتركهن فى عناية الأسرة ، والبعض لم يكن لديه مكان يذهب اليه ، بعد أن رفضت أسرته قبوله ، أو اختفت عن العيون .

***

أن جاك فيرجوسـن الرائد الأول للعلاج الحديث للجنون، رجل ضخم، يبلغ التاسـعة والأربعين من عمره ، زاول مختلف الحرف والمهن ، فاشتغل بائعا متجولا ، ثم عاملا فى مصانع الصلب، فوقادا بالسكك الحديدية ، فعاملا فى حانة ، وبائعـا لعقود التأمين ، فبائع ويسكى متجولا . وفى كثير من المرات

كان بين نزلاء مستشفى الامراض العقلية !

ومن تجاربه الخاصة عرف فيرجوسن ماذا يعنى أن يكون الانسان مخبولا ، يخيل اليه أنه ليس هناك من يستطيع مساعدته ، ثم لايلبث أن يعود الى عقله مرة أخرى .

وتخرج جاك فيرجوسن ، الذى كان والده ناظرا لاحدى محطات السكك الحديدية ، من مدرسته الثانوية وهو لم يزل فى السابعة عشرة ، فذهب ليعمل فى مصانع الصلب لمدة عام ، ثم ترك هذه المصانع ليدخل جامعة (انديانا) كطالب يستعد لدراسة الطب .

وتطلب الأمر ٤ سنوات ليتم دراسته الاعدادية التى تستغرق عامين ، وكان قد اقتصد بعض المال من عمله بمصانع الصلب ، ولكنه وجد أن الأمر يتطلب مزيدا من النقود للدراسات المعملية وشراء الكتب الدراسية الغالية ، فدبر له والده عملا كوقاد فى السكك الحديدية ، فأخذ يقسم وقته بين العمل والجامعة .

وفى سنة ١٩٣٠ التحق بكلية الطب ، ولكنه أصيب يومئذ بخلع فى مفاصل ركبته ، فلم يستطع أن يواصل عمله كوقاد ، بينما كانت رجله فى جبيرتها .

وهكذا اضطر الى ترك الكلية قبل أن يتم سنته الأولى فيها !

ثم أقبلت فترة الازمة الاقتصادية العالمية ، فأصبح من المستحيل عليه أن يستعيد عمله السابق كوقاد ، وفى خلال السنوات العشر التالية ، ساهم جاك فيرجوسن طالب الطب السابق فى سلسلة عجيبة من الأعمال ، فباع عقود التأمين ، واشتغل محللا للويسكى فى مصنع التقطير ، ثم بدأ يبيع الويسكى لتجار الجملة ، ثم افتتح متجرا خاصا لبيعه ... وفى خلال ذلك كله ، كان الطب يناديه ، فعاد الى جامعة أنديانا ليحاول دخول كلية الطب من جديد ، وكان عمره يومئذ ٣٣ عاما !

ولكي يواجه فيرجوسن النفقات الطويلة للدراسة ، اشتغل عاملا فى بار ، من بعد الظهر حتى منتصف الليل ، وكان يمضى بقية الليل فى المذاكرة واعداد دروسه لليوم التالى ، وعلى الرغم من ذلك كانت نتائجه دائما ممتازة ، حتى أنه حصل على عمل فى الكلية لتدريس التشريح لزملائه الطلبة !

والتقى جاك فيرجوس بفتاة كانت تعمل صرافة للنقود فى بار ، وكان وجهها الصامت الحزين يخفى وراءه بسمة هادئة حلوة ، فأحبها وتزوجا

فى عام ١٩٤٤ . وبذلت مارى من اجله جهدا شاقا ، كانت تطهى له طعامه وتنظف ثيابه وتقضى ساعات أخرى فى عملها لتساعده فى دراساته الطبية.

وملأها حبها له قلقا عليه . كان لا يكاد ينام قط ، فهو يعمل فى المعمل ويدرس للطلبة ، ويذاكر أغلب ساعات الليل . وأدركت مارى أن هذا المجهود الذى يستمر ليلة بعد أخرى سيؤدى به الى انهيار عصبى، ولكنها لم تستطع منعه .

وفى مايو ١٩٤٥ أصيب جاك بجلطة دموية ، فأمضى سبعة أسابيع للعلاج بالمستشفى ، وكانت مارى الى جواره تساعده وتشجعه ، حتى تمكن من التغلب على المرض .

وفى خلال اقامته فى المستشفى ، وجد جاك الراحة فى شىء آخر، ولكنها كانت راحة منحوسة ، فقد أعطاه الأطباء اقراصا منومة لتهدئة أعصابه واتاحة الراحة لعيونه المسهدة ، فقد كان لفرط نشاطه فى حاجة الى أدوية منومة .

وبفضل مارى ، عاد الى داره ليمضى فترة النقاهة ، وكان كل شىء يسير سيرا طيبا ، لولا أنه بدأ يتلمس مزيدا من العقاقير المنومة وعاد الى كلية الطب مرة أخرى حيث عهد اليه الاساتذة بتدريس التشريح الجراحى، ومعمل الكيمياء الحيوية ، فأخذ يلتهم العلوم ، ويهضم مجموعة ضخمة من العلوم المعقدة مما زاد من اضطراب عقله الذى أرهقه الجهد ، فاضطر فى سبيل اراحة عقله الى أن يأخذ مزيدا من هذه الاقراص الصفراء الصغيرة!



دكتور جاك فيرجوسن

***

وجاء يونيو ١٩٤٨

انه اليوم الذى كان يحلم به منذ سنوات . لقد تخرج طبيبا وهو فى سن الأربعين ، ولن يستطيع أي شىء أن يقف فى طريقه بعد اليوم . ولكن المتاعب كانت قد بدأت فى الواقع .

كان عليه ، لكي يبدأ عمله كطبيب فى الريف ، أن يمضى سنة كطبيب امتياز ، ولكن فى خلال هذه السنة ، أحس بغشاوة تخيم على راسه نتيجة لاستخدام الأقراص المنومة ، فانطلق يتلمس طريقه الى الحمام ، وهو يتعثر فى سيره ، وهناك فك أزرار ياقته ، ولكنه كان فى حالة سيئة للغاية ، لا يستطيع أن يدعو طبيبا . وكانت مارى فى الخارج تزور بعض معارفها ، فاضطر لكي يقضى على آلامه أن يأخذ مزيدا من الاقراص المنومة ومعها بعض الكودبين .

وفى الصباح التالى ، بلغ طريقه الى المستشفى بكل مشقة ، وهناك نجح فى الحصول على ٢٥ قرصا من الاقراص المنومة من أحد اصدقائه ، ولكنه استهلكها بسرعة ، ولما لم يستطع الحصول على المزيد ، اصابه الخبل والجنون .

واصيب باضطراب عقلى حاد وهلوسة . كان يخيل اليه أن الأطباء يجرون عملية جراحية على زوجته مارى ، ويسمعهم يقولون انها ستموت . واصيب بمرض (البارانويا) أو جنون الاضطهاد ، فأخذ يشكو بمرارة من أصدقائه الأطباء الذين يهملون علاج كتفه ، واصبح مخبولا يريد أن يقتل ، حتى انه هدد احد أطباء الامتياز الذين كلفوا بمراقبته .

ولم يستطع الأطباء ان يفعلوا شيئا الا أن ينقلوه الى عنبر المصابين باضطرابات عقلية فى المستشفى !

وسمع بابا حديديا يغلق خلفه ، تاركا اياه فى الداخل !

***

لم يعد الآن الدكتور جاك فيرجوسن ، الرجل الذى يفخر بأنه بين أعضاء هيئة التدريس بجامعة انديانا ! بل هو اليوم فيرجوسن الذى طالت لحيته ، وبدا عليه الاكتئاب والذل ، يقيم بين الرعاع والمتشردين ومدمنى الخمر

ومنع عنه الأطباء الاقراص المنومة ، حتى تسرب السم من عقله المريض يوما بعد يوم ، وصفا ذهنه اخيرا .

وبعد أسبوعين ، سمحوا له بالخروج من هذا الاعتقال المؤقت .

وعامله اطباء المستشفى بروح كريمة ، فسمحوا له بالعودة كطبيب للامتياز ، وكان يتمتع بسرعة عقلية ودقة فى التصرف ، حتى احبه المرضى جميعا .

وفى عام ١٩٤٩ منح جاك فيرجوسن ترخيصا بممارسة مهنة الطب !

***

واستطاع ان يلهب مشاعر أهل

القـرية الصـغيرة بولاية انديانا التى ذهب ليعمل فيها، فأحبه الأهلون الذين لايتجاوز عددهم ٥٠٠ نسمة ، حتى أنهم أقرضوه ١٢ الف دولار لاعداد العيادة وتجهيزها ، وشراء سيارة !

ولم يكن فيرجوسن فى حاجة لانتظار قدوم المرضى ، فقـد انهـالوا عليه بطلباتهم منذ البداية . وكانت زوجته مارى هى يده اليمنى فى جهاده هناك . . كانت تستقبل المرضى وتنظف العيادة، وتضبط حسـاباته ، وتقـوم بعمل المرضة فى حالات الطوارىء ، فضلا عن قيامها بالطهي وتدبير المنزل . . أما زوجها فكان يقضى كل وقتـه فى العمـل ، ينطلق بسـيارته الى بلدة (لابورت) المجاورة ليقوم بعملياته فى ساعة مبكرة من الصباح ، ثم يسرع بالعودة لاستقبال بقية زبائنه، ويزدرد لقيمات من شطائره ، ثم ينطلق مرة أخرى بسيارته لزيارته بيوت مرضاه .

وهكذا كان لايكاد ينتهى من عمله قبل الرابعة من صباح اليوم التالى ، فلا يجد متسعا من الوقت للنوم !

وعاد الى استخدام الأقراص المنومة، وبدا حديثه أكثر ثقلا وأخذت الكلمات تتعثر فوق شفتيه .

وفى يوليو ١٩٥٠ ، وبعد عام من النجاح الساحق كطبيب ريفى ، نقل جاك فيرجوسن الى عنبـر مغلق فى المستشفى ! وفى خلال الثـلاثة عشر شهرا التالية ، أدخل الى المستشفى مرتين أخريين !

وفى خلال فترات الهدوء ، كانت تمر به نوبات يحاول خلالها أن يقتل نفسـه ، أو يقتل زوجته مارى، وصـور له الهذيان مشـاهد بالألوان تمر أمام عينيه . كان يحلم دائما بوجود رجل يطارده بلا انقطاع فى قطار ، يحاول أن يقتله . . . وخيل اليه أن غرفته مليئة بمقاعد ذات شعور نابتة فوقها !

لقد تحطمت أعصابه تماما !

وفى ديسمبر ١٩٥١ ، وبعد فترة من التعقل ، تخلى الدكتور فيرجوسن عن عمله فى القرية ، وأغلق عيـادته ومسكنه ، وانطلق بعيدا . . لقد هزم فى كفاحه !

وتوجه فيرجوسن الى الدكتـور برنارد فرازين بمستشفاه . وهناك فى العنبر الذى أغلق عليه ، نجح فى التخلص من آثار الأقراص المنومة ، ولكن الأمر لم يعـد مجرد ادمان على الأقراص المنومة ، فقد أصبح فريسـة لليأس والألم ، وبدأ يهمـل حلاقة ذقنه ، وأصبحت هيئته تستدر الشفقة .

كان عندما يشعر خلال العلاج أنه موضع أنظار الأطباء ، ينفجر باكيا

دون أن يفصح عن سبب آلامه .

واقترح بعض الأطباء علاجه بالصدمات الكهربائية ، ولكن دكتور فرازين اعترض على ذلك ، وقال انه لو كان هو نفسه يعانى مثل هذا الاضطراب العقلى ، لما رغب فى مثل هذا النوع من العلاج .

لقد كان فرازين انسانا طيبا ذا قلب كبير ، وقد أثر ذلك فى نفس جاك فيرجوسن . . وبدأ عقله المهدم ينفعل تحت تأثير دواء عجيب .

لقد لاحظ أن الخدم يعاملونه على اعتبار انه مخلوق بشرى ، لا مجرد مخبول مدمن على المخدرات . . وكان هذا هو الدواء الجديد الذى فعل فى نفسه فعل السحر ، انه العناية والحب والحنان . وقد أصبح فيرجوسن فيما بعد يعتبر هذا العلاج من أهم الوسائل لانقاذ مرضاه .

***

وتطلب الأمر جهود ثلاثة أطباء مئات من الساعات ، حتى أمكن اعادة جاك فيرجوسن الى حالته الطبيعية ، بعد أن أمضى ستة أشهر فى المستشفى واستعاد صحته وعقله .

وعاد فيرجوسن الى زوجته مارى صافى الذهن ، وقد تخلص من آثار مرضه وهدأت أعصابه ، وأحس بالشكر لهذا العلاج المدهش الذى أدى الى هذه النتيجة العظيمة .

وفى مايو ١٩٥٢ ، عاد جاك فيرجرسن — بعد أن بلغ الرابعة والأربعين — يمارس مهنته مرة أخرى ، فحصل على عمل كطبيب فى مستشفى « لوجانسبورت » بولاية أنديانا .

وكان مركزه الجديد أقل فى مستواه عن مركزه السابق ، وكانت سوابقه كمدمن على أقراص التنويم لا تدع امامه أملا فى مستقبل زاهر فى عالم الطب ، ولكن هذا لم يفت فى عضده .

وقال لبعض اخصائه : لقد اتجهت لممارسة الطب ، لاننى ادركت ان هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ حياتى ، واذا كان الآخرون قد مدوا لى يد المعونة ، فاننى يجب أن أكون خادما لمن انقذونى ، ويجب ان اقدم معونتى للجميع .

وبدأ فيرجوسن يدرس كتابات عالم نفسانى جرىء ، هو الدكتور ولتر فريمان ، الذى يعد من رواد علم الامراض العصبية والنفسية ، وقد ذكر فريمان فى كتاباته كيف نجح طبيب برتغالى يدعى ايجاس مونيز مع معاونيه فى احداث ثغرات فى جانب جمجمة الاشخاص المصابين بجنون ، وقطعوا كتلا من خيوط الاعصاب التى

تصل الفصوص الامامية من المخ بالجذر العصبى . والمعروف ان الفصوص الامامية تقوم بالتفكير ، بينما يعد الجذر العصبى مستودع القوى للانفعالات . وقدنجحت هذه العملية فى اعادة العقل الى ثلث المرضى المجانين الذين أجريت لهم ، وتحسنت حالة الباقين .

وقد اصبح جاك فيرجوسن من أشد انصار طريقة فريمان ، ولم يكد عام ١٩٥٤ يأتى ، حتى كان قداجرى أكثر من ٤٠٠ عملية من هذا النوع فى مستشفى لوجانسبورت ، ودلت النتائج على ان ٧٥ ٪ من المرضى قد تحسنت حالتهم تماما بهذه العملية وانها نجحت فى تهدئة اعصابهم ، ويسرت عليهم الحياة مع أنفسهم ومع الآخرين ، وحسنت سلوكهم .

وأمكن تحقيق المعجزة للآلاف من المصابين بالجنون فى انحاء الولايات المتحدة واعادتهم الى بيوتهم بفضل هذه العملية . ولكن كان هناك رد فعل آخر مؤسف يعقب هذا النوع من العمليات ، فقد تبين انها تحدث نواة خاصة بين خلايا المخ فى الجذر العصبى ـ مستودع قوى الانفعالات ـ تجعله فى حالة متدهورة ، كما انها تحدث آثارا سيئة ايضا فى الفصوص الامامية للمخ ، التى تساعد الانسان على التصور والتنبؤ والتفكير فى المستقبل ، وكانت تحدث احيانا تشنجات تجعل المريض يستخدم ألفاظا فاحشة أويتجه اتجاها جنسيا شاذا ، أو تسبب له خمولا دائما .

وبدأت روح الطبيب الريفى جاك فيرجوسن الطبية تكره هذه العملية .

وفى ذلك الوقت ، بدأت الانباء تتردد عن التجارب التى تجرى على عقار جديد يسمى (راولفيا) ، وكيف استطاع بعض الاطباء أن يحصلوا على آثار طيبة فى العلاج به بعد تحويله الى أقراص ، أطلق عليها اسم (سيربازيل) ، ولم يكن هذا العقار مجرد مخدر كغيره من الاقراص المنومة بل كان مهدئا للاعصاب .

ونجحت اقراص (سيربازيل) فى التأثير على الجذر العصبى فى المخ ، فقللت من الاندفاعات الانفعالية ، وتبين أن هذه الاقراص كانت نوعا جديدا سحريا فى عملية الفصوص المخية .

وشرع جاك فى التوسع فى استخدام العقاقير الجديدة ، كما بدأ يشك تدريجا فى أن الامراض العقلية سببها كيميائى ، ومن ثم فمن الممكن علاجها بطرق كيميائية . ودعم رأيه هذا أن

الدكتور توم سنبايز بمستشفى هيلمان ببرمنجهام كان قد كتب منذ سنوات أن امرأة مخبولة كانت على وشك الموت نتيجة للجنون الذى سببه لها مرض البلاجرا ، أعطيت حقنا قليلة من فيتامين (ب) ونياسين ، فعادت الى بيتها بعد أسبوع وقد صفا ذهنها ، أى أن مرضها هذا كان راجعا الى نقص مركب كيماوى واحد فى جسمها .

وتعلق جاك بأهداب هذا الامل الكيماوى ، كما اقتنع بفائدة استخدام علاج الحب والحنان الذى لعب دورا هاما فى شفائه هونفسه .

وبدأ فيرجوسن يمارس طريقته الخاصة فى العلاج .

وكانت طريقته الكيماوية تقدمعلى أساس الاكتشافات التى أسفرتعنها الابحاث الطبية منذ أربعة أجيال تقريبا . ففى عام ١٩١٦ ، اكتشف الدكتور وليام لورنز أستاذعلم النفس والامراضالعصبية بجامعةوسكونسن واقعة كانت أول بشير بالامل فى هذا العالم الحزين من المرض المجهول الاسباب .. فقد طلب منه صديقه الدكتور أرثر لونفيهارت استاذ الصيدلة الشهير أن يحضر له مريضا بمرض عقلى مصابا بالخمول التام ، وكان يقوم اذ ذاك بدراسة عمل المركبات الكيماوية المختلفة التى تؤثر فى الجهاز التنفسى عند حقنها فى الدم ، ويريد أن يجرب ذلك على مخلوق فقد عقله ، حتىلايكون هناك مايقال أنه اثر نفسانى .

وأمكن العثور على الرجل الذى يريده لونفيهارت تماما ، وكان رجلا يعانى منذ سنوات خبلا من النوع المعروف الآن باسم «الشيزوفرانيا» أو انفصام الشخصية . كان انسانا جامدا صامتا ، ذا عينين اما مغلقتين أو تحدقان بنظرات خاليةمنالشعور وقد انقطعت كل صلة بينه وبيندنيا الواقع .

وشرع لونفيهارت يحقن هذا المخلوق السابق بمادة سيانيد الصوديوم ، فلم يطرف له جفن أو تتحرك عضلة واحدة خلال عملية الحقن ، بل كان فى ذهول شامل . ولم يكد السيانيد يستقر فى مركز التنفس فى مخه ، حتى اخذ تنفسه يزداد سرعة وعمقا ، ثم قال فجأة :

ــ هالو !

لقد ظل هذا الرجل سنوات وهو أبكم لايتكلم . فاذا به يستيقظ فجأة من ذهوله ، وتتسع حدقتاه وهو ينظر الى الدكتورلورنز ، الذىشاهد

كيف يعود الذكاء مرة أخرى الى عقل انسان كان مفروضا أنه ذهب الى غير رجعة .

وظل يتحدث حوالى خمس دقائق ، دون أن تبدو عليه أية بادرة تشير الى أنه مجنون ، حتى اذا ما انتهى مفعول (السيانيد) ، بدأ حديثه يتعثر ، وعاد الذبول الى عينيه ..

ومع أن شفاءه لم يستمر الا خمس دقائق ، فان الامر كان بالنسبة للدكتور لورنز فتحا جديدا فى عالم آخر ، فأخذ يكرر التجربة مرة بعد اخرى على كثيرين من المرضى بالشيزوفرانيا الميئوس من حالتهم ، فنجح العقار معهم ، ولكن نجاحه كان مؤقتا ، اذ انك لاتستطيع أن تستمر فى اعطاء ملايين من المرضى حقنا مستمرة من السيانيد ليلا ونهارا !

وفى عام ١٩٢٨ ، أثبت لورنز ولونفيهارت أن استنشاق خليط من ثانى أكسيد الكربون والاوكسجين عن طريق قناع البنج ، يؤدى الى نوبات من صفاء الذهن لدى بعض المجانين الذين يعانون تشويشا فى عقولهم تستمر ٣٠ دقيقة .

ولكن هذه الفترة من التعقل كانت لاتعنى شيئا بالنسبة لملايين المصابين بأمراض عقلية فى العالم ، فانت لاتستطيع أن تبقيهم عقلاء بالمواظبة على مثل هذا العلاج كل نصف ساعة طوال ٢٤ ساعة يوميا .

وفى أوائل عام ١٩٣٠ ، أدهش لورنز الاطباء بازاحته الستار عن سر آخر من أسرار الامراض العقلية فقد حقن مريضة فى معهد ويسكونسن النفسى كانت أقرب الى الجماد منها الى الانسان ، بمادة أميتال الصوديوم فرقدت فى غيبوبة عميقة بضع ساعات ، ثم بدأت تهتز ، وفتحت عينيها لتقول للدكتور لورنز وزميله :

ـ ماهى النتيجة يادكتور ؟

فسألها فى دهشة :

ـ نتيجة ماذا ؟

فقالت : نتيجة مباراة الكرة بين (بيرديو) و (ويسكونسن) التى تجرى الآن !

وذهل لورنز وزميله ، فقد سمعت هذه المجنونة التى كانت بعيدة عن العالم تماما حديثهما الذى تبادلاه أثناء اعدادها للحقن بمادة الاميتال ، واستطاع عقلها أن يسجل الاحاديث التى تدور حولها على الرغم من انها كانت تعد مجنونة ميئوسا من شفائها !

وجلست المرأة فى فراشها ، وتناولت وجبة ضخمة من الطعام دون مساعدة ، ثم ذهبت بنفسها الى الحمام ، ودخنت سيجارة ،

واستمرت التجربة بعد ذلك عامين ، ظلت المرأة خلالهما تستيقظ كل يوم من نوم عميق يجلبه لها (الأميتال) وتظل صافية الذهن ثمانى ساعات تلعب خلالها مع طفلتها وتتصرف كأى مخلوق عادى ، ثم لاتلبث أن تستغرق فى نوم عميق ، فاذا استيقظت منه ، عاد اليها جنونها !

وبعد عامين من هذه التجربة العجيبة التى تعد من أعجب التجارب فى عالم الطب ، ماتت المرأة !

***

وتعلق الدكتور لورنز بأهداب هذا الامل ، فقد أظهرت هذه الساعات الثمانى من التعقل أن كثيرين من المصابين بأمراض عقلية ، الميئوس من شفائهم ، يمكن اعادتهم الى التعقل بطرق كيماوية .

وفى أوائل عام ١٩٥٠ ، وصل من الهند مسحوق جذور بعض الشجيرات ذات الاوراق الخضراء والزهور البيضاء ، كان اسمها العلمى هو « راولفيا سيربانتيا » ، واكتشف دكتور روبرت ولكنز بمستشفى ايفانز التذكارى أن لهذا المسحوق أثرا عظيما على المرضى بالاضطرابات العصبية والعقلية ، فضلا عن فائدته السابقة فى علاج ضغط الدم العالى .

واستطاع الكيميائيون أن يعدوا بلورات من مركب كيماوى نقى من (الراولفيا) ، التى أصبحت تعرف تجاريا باسم « سيربازيل » . وسرعان ما ثبت أن هذا العقار يزيل الاضطراب لدى بعض المجانين ويهدىء أعصابهم

هذه الانباء كلها غيرت حياة جاك فيرجوسن ، وجعلته يحاول تجربة العقاقير الكيميائية فى علاج الجنون .

***

كانت حرية جاك فيرجوسن فى العمل محدودة جدا فى مستشفى (لوجانسبورت) فبدأ يبحث عن مكان جديد يعمل فيه ، ولم يتعبه البحث كثيرا ، قبل أن يستقر فى عام ١٩٥٤ فى مستشفى « ترافيرس سيتى » فى ميتشجان ، وهو مستشفى يضم ثلاثة آلاف مريض ، ويتمتع بقدر كبير من النظام والنظافة كما أنه لايجبر مرضاه على ارتداء لون واحد من الثياب كما تفعل المستشفيات الاخرى مما يجعلها اقرب الى السجون !

وقال مدير المستشفى دكتور شيتس معتذرا : ان العلاج فى المستشفى ناقص ، لان ميزانيته الضئيلة لاتسمح بشراء الادوية الجديدة ، وكان شيتس رجلاذاقلب كبير ملىء بالحب والحنان والعطف على المرضى جميعا . وعهد الى دكتور فيرجوسن بالقسم النسائى بالمستشفى وبه ١٠٠٣ مريضات .

وفى هذا الجو الذى يغمره الحنان والحب ، كان كل شىء معدا أمام جاك ليبدأ معركته مع الجنون ، وفى تلك الاثناء وردت أنباء من فرنسا عن عقار جديد مهدىء للاعصاب اسمه (ثورازين)

ويقول جاك : لقدعثرت فى صيدلية المستشفى على كمية صغيرة من عقارى سيربازيل وثورازين ، كما استطعت اقناع أطباء المستشفى بالتنازل لى عما لديهم من عينات طبية من هذين العقارين ، وشرعت أحاول الحصول على كميات أخرى من بيوت الادوية ، وهكذا أصبحت فى موقف يتيح لى البدء بالعمل .

وبدأ فيرجوسن يختبر آثار السيربازيل والثورازين على أسوأ المريضات سلوكا . لم يكن الى جواره طبيب مقيم أو طبيب امتياز لمساعدته ، بل كان يعمل بمفرده ، يعاونه ١٠٧ من المرضات والخدم .

وأسفر استخدام هذه الادوية عن تهدئة المريضات المشاغبات ، حتى أصبحن رقيقات وديعات كالحملان ، ولكن كان هناك شىء محزن ينذر بالسوء فى العقارين بعث القلق فى نفس فيرجوسن ، فقد تبين له أن عقار السيربازيل كان يسبب لكثيرات من المريضات حالة من الخمول الحالم ، فاذا واصل استخدام العقار ، أملا فى أن يكون التأثير الاول مؤقتا ، كانت بعضهن تستغرق فى يأس مظلم وحزن مقيم .. ومع أن العقارين كانا ناجحين فى تهدئة المريضات الثائرات المشاغبات ذوات النشاط الكبير ، فانهما لم يساعدا المجنونات المصابات باليأس وخمود العزيمة .

وفى عام ١٩٥٤ أصبح فيرجوسن محققا طبيا يتعاون مع مؤسسة (سيبا) للادوية ، واستطاع أن يحصل منها على كل مايلزم مرضاه من عقاقير دون مقابل ، كما قدمت اليه الشركة نوعين من مركباتها الجديدة ، فكان أول طبيب فى العالم يجرب هذه العقاقير على مرضاه ، على أمل أن تنجح فى ازالة خمود العزيمة والخمول ..

وقد تبين أن اثر العقار الأول فى المرضى مثير ، فقد قلب سلوكهم من النقيض الى النقيض تمـــاما . أما العقار الثانى وهو (ريتالين) فقــد استطاع أن يطرد خمود العزيمةالذى يحدثه (سيربازيل) دون أن يزيل الاثر الطيب الذى يحدثه العقار .

وأتاح السيربازيل والريتالينلجاك فيرجوسن فرصة قياس مسئوليـــة النشاط الوافر والنشاط النـاقص معا عن السلوك الشاذ للمرضى ،وعن طريق الملاحظة الدقيقة ، استطاعأن يكيف موقفه . فعندما يكون سلوك المريض عدوانيا عنيفا ونشاطه زائدا على حده ، يبدأ علاجهبالسيربازيل ، فاذا بدات فترة الهدوء ، أضافاليه الريتالين لمنع الجانب الهـــادىء من التمـــادى فى الهبــوط . اما اذا كان سلوك المريض سالبا ، فانه يبـــدأ بالريتالين حتى اذا بدأ مفعولهالدافع، أضاف اليه السيربازيل لمنع الجانب المضطرب من السلوك من الارتفـــاع كثيرا .

وبهذه الطريقة ، بدأ جاك يوازن سلوك هـــذه الاكوام البشرية بين السلبية والعنف .

وعندما زرت جاك فى مستشـــفى (ترافيرس سيتى) دعانى لمشاهدة احدى مريضـــاته ، وهى ســـيدة عجوز فى الحادية والسبعينمنعمرها تدعى «جودرام» ، نزلت بالمستشفى منـــــذ ٥٢ عاما مصــــابة بمرض (الهلوسة) ، وأجريت لها٢٨صدمة كهربائيـــــة دون جدوى ، وفى عام ١٩٤٣ جربت عليها طريقة أخرى ، اذ ربطت كلها كالمومياء ثم القيت فى ماء بارد ، وتكررت هذه الجلســـــة ٤٢٠ مرة ثم توقفت لانها لم تفـــد شيئا على الاطلاق .

كانت جـــودرام ســـلبية فى كل تصرفاتها الى حد لا أمل فى علاجه ، ولم يكن فى استطاعتها اطعام نفسها أو العناية بشئونها ، صامتةلاتتحدث قط ، تمزق ملابســـها الداخليـــة والخارجية بلا انقطاع ، وترقد عارية أو شبه عارية على الارض فى غرفـــة منعزلة .

وجربت عليها مختلف وســـائل العـــلاج دون أدنى فائدة ، وظـــل سلوكها كما هو حتى عام ١٩٥٤ .

وفى يوم عيد الميلاد من ذلكالعام ، شرع فيرجوسن يعالج (جـــودرام) بنصف ملليجرام من عقارالسيربازيل ثلاث مرات فى اليـــوم ، وفى يوم ١٣ يناير سنة ١٩٥٥ ، اى بعد حوالى ٢٠ يوما ، هدأتأعصابها ،وأصبحت

قادرة على أن تبقى مرتدية ثيابهـــا لاول مرة منذ ٣٠ عاما ، وأدى العلاج المستمر الى ازالة الخمود من عزيمتها وعندئذ شرع فيرجوسن يجرب معها طريقة الموازنة بين عقارى سيربازيل وريتالين ، فلم يكد يحـل الصيف ، حتى استطاعت أن تخرج وحدها فى نزهات فى الخارج

***

ان جاك فيرجوسن يقول ان نجاحه لايرجع الى العقاقير والادوية وحدها فان هذه العقاقير تســاعد على بدء اليقظة العقلية فقط ، وتبعث القابلية على الشفاء فى نفوس المريضات ، ثم يأتى دور المرضات ليسكبن الثقة فى نفوسهن ويزلن أثر الخوف والرهبة منها

واحست المريضات بذلك العطف والحنان الذى أسبغته المرضـــات عليهن ، فبادلنهن حبا بحب ، وبث ذلك الثقـــة فى نفوســـهن فأتى بالمعجزات .

كان شعور المرضات قبــل ذلك مجرد احساس بالعطف والاشفاق ، يشوبه اليأس التام من شفاء أولئـك المريضات المجنـونات . أما اليوم ، فقد امتزج هذا العطف بالود والامل فى قرب شفائهن .

وقبل استخدام عقاقير فيرجوسن وطريقته الجديدة فى العـلاج ، كان المستشفى يحوى اربعة عنابر مغلقة للمجنونات شديدات الهيـــاج ، أما اليوم فهناك عنبر واحد من هذا النوع يضم المريضات اللواتى لم يفلح فيهن الاصـــلاح ، والمريضـــات الخطرات الواردات من عنبر الاستقبال .

وفى هذا العنبر الآن ستائر جميلة ، وجهاز تسجيل لعزف الموســيقى لترقص المريضات على نغماتهـــا ، وجهاز للتليفزيون ، ومعزف (بيانو) تعزف عليه المريضـــات ، وهنـــاك مجموعة من الكتب والمجلات لقراءتها لا لقذفها فى وجوه الاخريات !

***

لقـــد نجح جاك فيرجوســـــن ـ المجنون السابق فى أن يكافح الجنون بطريقة لم يسبقه اليها غيره ، وسجل أرقاما قياسية فى عدد المرضى الذين يعودون الى بيوتهم بعد شفائهم من المرض فى مستشفاه ، حتى بلغ عددهم فى عام ١٩٥٦ ثلاثة اضعاف عددهم فى عام ١٩٥٣ عندما بدأ تجربة عقاقيره

***

ويقول جاك فيرجوسن : ان طبيب الاسرة هو أصلح رجل لعلاج الامراض العقلية عنـــد بدء ظهورها ، وهى

لاتزال فى مرحلة بكرة ؛ ولا سيما أعادت كثيرين من الميئوس فى
بعد أن أصبحت العقاقير الجديدة فى شفائهم الى أماكنهم من الحياة العامة
متناول يده ، تلك العقاقير التى مرة أخرى !

اختبر معلوماتك عن المرأة والرجل

(ارجع الى الاسئلة ص ١٠٣)

١ ـ صواب : فنحن نسمع اعتراضات المرأة واحتجاجاتها وهى تقول : ((انظر الى زوجى حين يصاب ببرد ، ماذا يفعل ؟))ولكن الدراسات التى أجريت على ما يزيد على ...٥رجل وامرأة بوساطة جامعة كورنيل أثبتت أن المرأة أكثر ميلا الى المبالغة فى مختلف الشكاوى والآلام التى تصاب بها .

٢ ـ خطأ : فقد دلت الاختبارات النفسية التى أجريت فى جامعة دى بول على أن المرأة ، وان لم تكن أقل قدرة على المراوغة والكذب من الرجل ، الا أن الرجل أطول باعا اذا تعلق الامر بالحديث عن الكذب الصراح .

٣ ـ صواب : دلت الدراسات على ان المرأة تميل الى الاعجاب برجل تشعر بتفوقه العقلى عليها . ويميل الرجل على العكس من ذلك الى الاحجام عن المرأة التى تبدى قدرة عقلية أوفر منه . ولكن هـذا لا يعنى أن الرجال أكثر تفوقا على النساء فى الذكاء العام ، ولكنه يعنى أن الرجل يميل الى الزواج من امرأة أقل منه فى المستوى العقلى ، وأن المرأة تميل الى الزواج من رجل أعلى منها عقليا

٤ ـ خطأ . برهنت الدراسات التى أجراها علماء الاجتماع بجامعة كاليفورنيا الجنوبية على أن الرجال يلقون مشقة أكبر فى تحقيق حياة سعيدة فى زواج ثان من النساء . اذ يميل الرجال المطلقون الى أن يصبحوا أكثر نسيانا أو جمودا فى طريقة حياتهم ، وأقل استعدادا للتساهل والتكيف ، بحيث يتوقع الرجل فى زواجه الثانى أن يكون التكيف فى أغلبه من الشريك الآخر .

٥ ـ خطأ : فقد وجد الدكتور ليونا تيلر عالم النفس بجامعة أوريجون فيما استخلصه من نتائج الابحاث العلمية المعروفة ، أن الانثى تبدأ فى التفوق على الذكر فى القدرة عـلى الكلام عقب فترة الطفولة بقليـل ، وتظل محتفظة بتفوقها بعد ذلك دائما . فهى تتحدث بسـهولة أكثر وبسرعة أكبر ولمدة أطول .ولكن تفوق الانثى ينحصر فى طلاقة الحـديث أكثر منه فى القدرة على فهم المعانى وتعقبها .

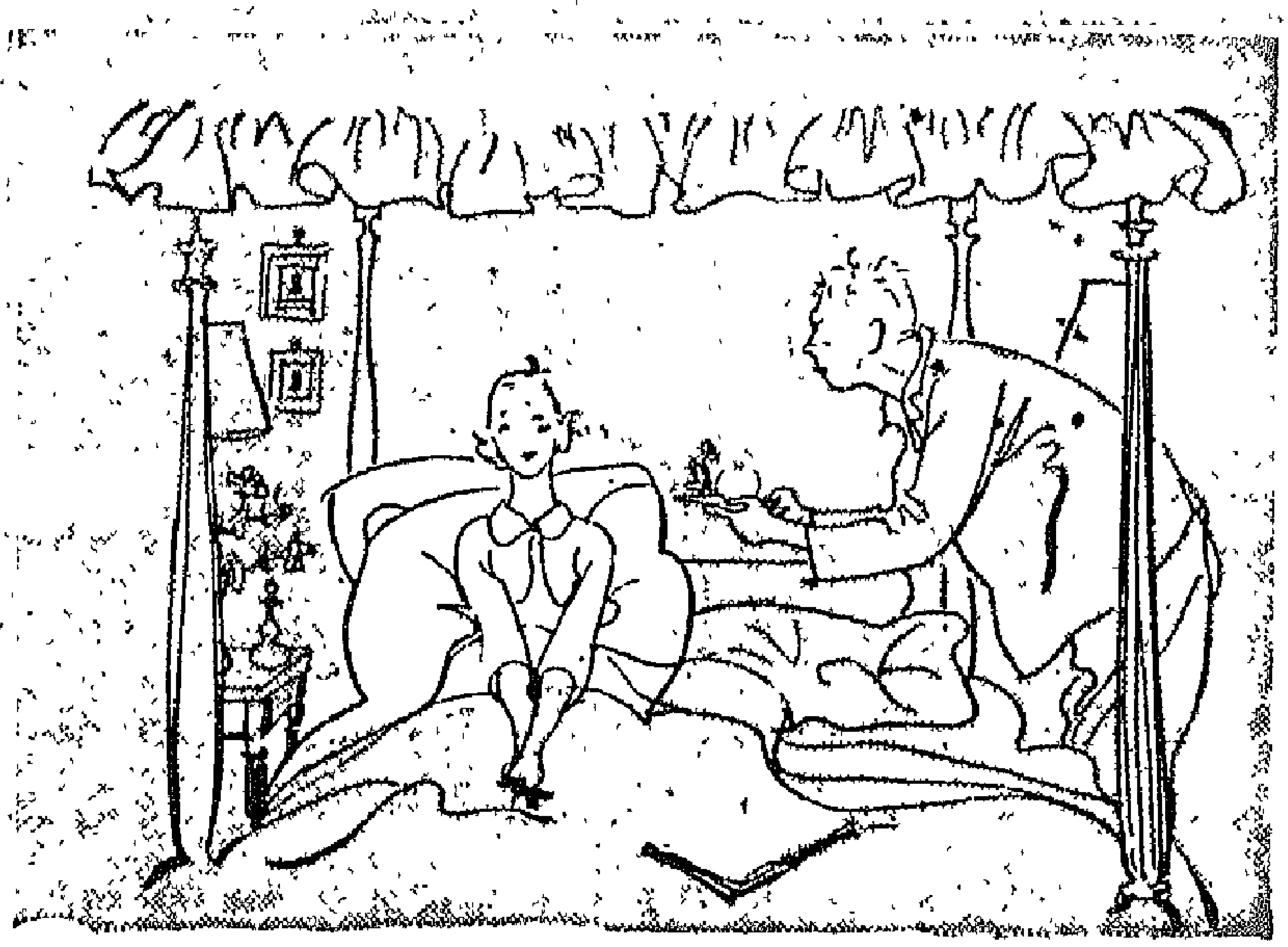
٦ ـ خطأ : فقد أظهرت الدراسـات أن الرجال بطبيعتهم أسرع الى القلق من النساء ، وأكثر عرضة للتعب من القيام بأعمال متكررة متشابهة . والرجال تنقصهم هذه القـدرة التى تتوافر لدى النساء عـلى التكيف مع الظروف الرتيبة التى لا تتغير . ولعل هنـاك سـببا واحدا يمكن أن ترد اليه قدرة المرأة على عدم الشعور السريع بالتعب من الاعمال الرتيبة ، هو أن المرأة أميل الى التأمل الباطنى والانغماس فى أحلام اليقظة .

٧ ـ صواب : يستفاد من الدراسـات النفسية العديدة التى أجريت على زمن الرجع أو رد الفعل أن الرجل حين تنبهه حواسـه الى خطـر قريب الوقـوع ، فانه يمضى الى الفعل بسرعة أكبر من المرأة العادية .

٨ ـ خطأ : فقد أثبتت الدراسـات أن النساء لسن أكثر قدرة على الشعور بالسعادة من الرجال فحسـب ، بل أكثر قدرة على الشعور بالشقاء أيضا . وكما يقـول عالم النفس لويس تيرمان الاستاذ بجامعة ستانفورد : ان المرأة تستشعر السعادة الزوجية وشقاءها فى أقصى صورهما ، بدرجة أدق وأحذق من زوجها .

كتاب الشهر

معجزة كل يوم



تلخيص كتاب **SMALL WONDER**

بقلم جراهام بورتر

من منا لا يذكر تلك الفترة السعيدة من حياته .. الفترة التي تمتلىء فيها نفسه بمزيج عجيب من الانفعالات والعواطف المتضاربة ، ينتابه القلق حينا ، ويستبد به الفزع أحيانا .. ثم تبلغ فرحته ذروتها يوم يطالعه ذلك الوجه الصغير الذى امضى الشهور الطوال فى انتظاره ، وتفرع أسماعه تلك الصرخات الحبيبة .. صرخات طفله الاول ..

انها المعجزة التى تقع كل يوم .. فى كل قرية وكل مدينة ، فى الريف والحضر ، فى الصحراء وبين الادغال .. معجزة الطبيعة التى تكفل لهذه الدنيا البقاء ..

انها القصة الخالدة التى تتكرر كل يوم فى حياة كل زوجين ، قصة ميلاد طفلهما الاول ..

معجزة كل يوم

في عصر يوم من أيام الاحد في أوائل ابريل .. كان فيليب تمبلتون قابعا في مقعد كبير في داره ، يرقب في اعجاب زوجته الين ، وهي قابعة في مقعد آخر وقد انهمكت في مطالعة كتاب ، وبدت ملامح وجهها وكأنها طفل صغير واسع العينين ، وفجأة توقفت عن القراءة ، ثم قطبت ما بين حاجبيها ونظرت اليه بتمعن ، وقالت :

ــ كم كان عمرك يوم أصبت بالتهاب الغدة النكفية ؟

وكان لهذا السؤال مغزى خاص ، فقد انقضت ستة اشهر منذ أن اقترحت عليه الين لأول مرة ان الوقت قد حان لكي ينجبا طفلا ، بعد ان أكدت له ان الجميع قد شرعوا في انجاب أطفال ، وان كان فيليب قد ارتاب في تأكيدها ، اذ كان عمله في شركة السمسرة التي يعمل فيها يقوم على تحليل الاحصاءات ، ومن ثم فقد كان يعلم أن عملاء المستقبل يولدون بمعدل واحد في كل ٧٫٨٤ ثانية ، وهي نسبة تدعو الى الهلع ، ولا سيما عندما لا يجد أحدا من عملاء المؤسسة قادرا على انجاب أكثر من بضع مئات أخرى من الاسهم المالية !

ولكن فيليب لم يحاول ان يذكر هذه المعلومات لالين ، فقد تعلم في خلال الفترة التي مرت على زواجهما أنها عندما تقول الجميع ، فهي تعني عادة اثنين أو ثلاثة من أخلص الاصدقاء

ومع أن فيليب وافق على تنفيذ المشروع الذي اقترحته الين ، فقد ظلت الابوة بعيدة عنهما ، وعندما فرغ صبرها اتجهت صوب العلم ، ورغم الجهود التي بذلها معها الدكتور كلايبول طبيب الاسرة ، فان شيئا لم يحدث ليحقق أملها ، وبقيت الين في خيبة أملها ، نحيلة القوام كما كانت يوم تزوجا منذ ثلاث سنوات .

وأخذ فيليب يفكر في كوخهما الذي اثقلته الرهونات .

كم من الاشياء حققاها خلال تلك السنوات ؟ هناك تلك الستائر الجميلة التي صنعتها الين للمطبخ عندما سكنا الدار لاول مرة ، ومائدة القهوة الانيقة التي اشترتها من حانوت الاثاث القديم واعادت تجميلها بنفسها ، ومع أنها لم تكن تعرف شيئا عن الحياكة او

أعمال الخشب ، فقد قامت باعـداد سراويل العمل الزرقاء ، وبذلت جهدا كبيرا في العمل ، كما بذل هو ايضـا كل ما في وسعه ، فصـنع صناديق النـافذة التي نبتت فيهـا زهور الجيرانيوم ، وبنى تلك القبة التي تعلو حظيرة السيارة وسور الحديقة .

لم يكن هناك ما يبدو مستحيلا ، ما دمت عازما على ان تفعله ، ما عدا انجاب الاطفال .. !

وهـكذا احس فيليب بهـزة عند سماعه سـؤال الين الذي كان بمثابة اتهام له .

ودق فيليب بقدميه وقال في اهتمام انها تبحث عن الحل في المكان الخاطيء فان اصابتـه بالتهاب الغـدة النكفية كانت متوسطة ، فضلا عن أن سـنه لم تكن يومئذ تزيد عـلى العـامين ونصف العام .

وأزاحت الين بيـدها خصـلة من الشعر عن جبهتها ، وابتسـمت وهي تقول :

ــ لقد حان الوقت الذي يجب علينا فيه ان نبحث كافة الاحتمالات ، والا فأين سنجد الحل ؟

وسكتت لحظة ، قبـل ان تقترح عليه أن يذهب لزيارة الدكتور كلايبول

***

وبعد يومين ، هبط فيليب تمبلتون من الاتوبيس في طريقـه الى منزله بقلب أثقلته الهموم ..

لقد زار الطبيب ، ومنذ ذلك الوقت وهو يخشى مواجهة الين ، بعـد أن أبلغه الدكتور كلايبول انه يشك كثيرا في أن زوجته سيصبح لها طفل ، أما السبب الفني لذلك ، فان فيليب لم يدركه تماما ، اذ كانت اللغة اللاتينية هي أضعف دروسه في المدرسة .. !

واخذ يسائل نفسه : كيف يستطيع أن يسـتجمع شجاعته ليبلغها هذا النبأ ؟

وعندما اقترب من الدار ، شاهد ثلاثة من أطفـال الجيران وهم يلهون بدراجاتهم الصـغيرة ، فاحس بغيرة تجتاح قلبه ، لان جاريه بول ولندا سمبسون استطاعا ان يخرجا هؤلاء الاطفال الى العالم دون مجهود يذكر

وتجمع الصغار حوله ، فابتسـم لهم في شوق ، وهو يتخيل نفسه وقد اصبح ابا لاطفال مثلهم ، ثم ربت على وجناتهم الصغيرة برقة وحنان وانطلق بعد ذلك الى منزله الخالي من الاطفال ليؤدي المهمة الكئيبة التي تنتظره .

وكانت الين في انتظاره ، فما كادت تراه ، حتى هتفت قائلة :

ــ هل تعلم يافيليب ؟ انني حامل !



وهكذا فقد الدكتور كلايبول أحد مرضاه .

وتذكر فيليب ان صديق الدراسة القديم توم بايتون يعد الآن من اشهر أطباء الولادة فى المدينة ، فقال لزوجته بعد العشاء :

ـ هل تعلمين اننا سعداء الحظ لان لنا صديقا مثل توم .

فسألته فى دهشة :

ـ توم .. ؟ من هو توم هذا .. ؟

ـ توم بايتون طبعا ، انه سيكون طبيبا مولدا رائعا لطفلك .. !

فقالت فى تثاقل :

ـ لماذا أعتقد ان مجرد تفكيرك فى استخدام توم أمر شائن ؟

ـ ولماذا لا نستخدمه .. ؟ انه طبيب جيد ولو لم يتقاض أجرا ضخما ، هذا فضلا عن انه يهتم شخصيا بحالتك ..

ـ اجل ولهذا فانى لا اريده .. فقد كان كل همه خلال الحفلات الراقصة أيام الدراسة أن يختلى بى فى سيارته ليطارحنى الغرام ..

فقال فيليب فى اصرار :

ـ لقد كان هذا منذ سنوات . اما الآن فهو طبيب محترف ، وقد اقسم يمين « أبوقراط » .

ـ اننى أفضل الموت على ذلك . كما أننى لا ادرى لماذا نتناقش فى ذلك الامر ، بعد أن اتفقت فعلا مع الدكتور باركلى على زيارته فى الاسبوع القادم .

***

كانت عملية الحمل بمثابة بدء لعبة جديدة بين الين ومعارفها الكثيرين ، وقد تبين لفيليب أن هدف زوجته هو ان تضرب رقما قياسيا فى قوة الاحتمال والتكتم قبل ان يكشف الفريق المعارض سر حملها ، بينما كان خصومها من ناحية أخرى يأملون الا تحمل ، ولم تكن هناك جائزة أو

عقوبة للفائز والمهزوم ، بل كان الامر مجرد كبرياء وحب خالص للعبة .. !

ومما ضاعف حماسة الين ، انها علمت عن ثرثرة جاراتها ، ان مودى سكوت صديقتها اللدود ، كانت هى الاخرى يراودها الامل فى أن تحمل ، وان كانت لم تنجح فى تحقيق أملها بعد

وكانت الين ومودى صديقتين منذ سنوات الدراسة الثانوية ، يوم كانت الاثنتان تتنافسان فى الحصول على منصب سكرتيرة الفصل ، وترعرعت صداقتهما أكثر ، كلما كانت تبرز أمامهما منافسة جديدة ، وها هو ذا سباق الحمل العظيم قد اقبل ، ولا تزال مودى واقفة عند خط البداية دون ان تدرى ، بينما قفزت الين حتى أوشكت ان تتم الدورة الاولى .. !

واقسم فيليب لزوجته أن يحتفظ بالسر الرهيب بين ضلوعه ، مع استثناء واحد ، فقد أذنت له أن يبوح به لابويها ، وماكادت مسز مارش تسمع هذا النبأ ، حتى قالت فى صوت مرتعش :

ـ اننى سعيدة .. سعيدة جدا !

ثم انخرطت فى البكاء ، وأردفت بعد قليل :

ـ لقد اوشكت أن أعتقد اننى لن اكون جدة أبداً .

وشرعت على الفور تسرد على ابنتها أنواع الاعمال التى سوف تشغلهما استعدادا لهذا الحدث العظيم . هناك ملابس يجب أن تحاك خيوطها وستائر يجب ان تعد ، ومواعيد للاطباء وغير ذلك من الاعمال .

كان جدول الاعمال مزدحما حقا ولكن مسز مارش كانت تواقة الى الاشتراك فى تنفيذه .

وكان يبدو انها اختارت فعلا جنس المولود المنتظر . اذ قالت تقترح فى مرح :

ـ ألا يكون طريفا أن تسجلى اسم ابنتك الصغيرة فى كلية (ولسلى) فى نفس اليوم الذى تولد فيه ؟

وأعاد هذا السؤال زوجها مستر مارش الى عالم الحقيقة بعد أن ظل فكره شاردا فترة طويلة ، فرفع حاجبيه الكثين ، وقال لزوجته :

ـ يبدو لى انك نسيت يامادج أن هناك مولودا ذكرا يولد بين حين وآخر!

***

وهكذا ظل السر مكتوما حوالى ثلاثة أشهر ، ولكن هذا الغطاء المغلق بعناية ، كان يخفى تحته شغبا عائليا كبيرا ، فمنذ اعراض الشهر الثانى للحمل ، بدأت الين تسرد عددا هائلا من الاضطرابات الجسمانية ، لم يكن

فيليب السليم النية يعلم شيئا عن أكثره ، وان كان يعرف شيئا واحدا عن ثقة ، وهو أن المرأة تشعر بارتياح كبير عندما تجد تحت تصرفها كل هذا العدد من الامراض .. !

ولكن وساوس الين كانت تثير متاعب مستمرة لفيليب ، فهو لم يضطر الى ان يجلب لها في الفراش كميات لاتحصى من الفاكهة والبسكويت فحسب ، بل انه اضطر الى ان ينام فوق فتات البسكويت ، فاذا استطاع أن يغمض عينيه لم يدم ذلك طويلا .. فقد نصح الدكتورباركلي زوجته أن تستهلك يوميا لترا من اللبن وثلاثة من الماء على الاقل ، وقد ادى عملها بهذه النصيحة الى تكرار ذهابها الى الحمام مرات كثيرة ، وكانت رحلات الذهاب والاياب هذه لا توقظه من نومه فحسب ، بل كانت توقظ ايضا فتات البسكويت المبعثرة على الفراش حتى اذا عادت الين استغرقت فى النوم ، بينما يظل فيليب يتلوى من الارق .. !

وفى أواخر يونيو ، كان جسم « الين » يقترب بسرعة من النقطة التى يصبح بعدها اعلان النبأ أمرا لامناص منه ، ولحسن الحظ ، اعلنت مودى فى أول يونيو أنها تتوقع طفلا فى فبراير التالى ، وعندئذ استولى الفرح على قلب الين ، فقد كانت تنتظر طفلها فى ديسمبر ، أى أنها لم تحفظ سرها أطول فترة فحسب ، بل انها ستهزم مودى ايضا فى موعد الولادة وتسبقها بشهرين .. !

وبينما كانت الاسابيع تجرى ، كان يبدو لفيليب أن نومه العميق قد أصبح مجرد ذكرى ، وكلما زادت النفقات التى يدفعها ، زادت عصبيته حدة !

وفى ليلة حارة من ليالى الصيف الاخيرة ، أخرج فيليب كومامن الفواتير المنزلية التى كان قداخفاها بعيدا عن الانظار ، وجلس يجمع ارقامها فى خوف ، وما كاد يصل الى نصف عمود الارقام ، حتى قالت الين فجأة:

ـ ما رأيك فى « وندى » ؟

فقال فى دهشة :

ـ من وندى هذه ..؟

ـ وندى تمبلتون ؟

ـ لا اظن اننى اعرفها .. هل هى احدى الاقارب ؟

فصاحت فى غضب :

ـ أواه يافيليب ، لقد كنت اسألك رأيك فى اسم « وندى » اذا جاء مولودنا بنتا .

فقطب حاجبيه ، وظل يردد الاسم بضع مرات فى تفكير ثم قال :

ــ ما رأيك فى « جـــين » ؟ انك لا تســتطيعين الاعتراض على هذا الأسم ؟

فهزت راسها قائلة :

ــ لقد استبعدت انا وأمى اسم « جين » .

ــ أمك . . ؟

ــ أجل ، ولعلك تعرف ان الاطفال لا يصـــلون الينا حاملين بطاقاتهم الشخصية ، ولهذا تناقشت طويلا مع أمى فى اختيار الاسم .

ــ وما هو الاسم الذى اقترحته ؟

ــ ان أمى عاطفية النزعة ، ولهذا فهى تفضل اسما ظل متوارثا فى اسرتها منذ أجيال . . هو « كاساندرا » .

فصاح فى هلع :

ــ كاساندرا . . ؟ هل تمزحين ؟

ــ كلا ، وهذا هو السبب فى اننى اخترت اسم « وندى » فقـــد تتعلم أمى كيف تحبه ايضا .

فقال وهو يتثاءب :

ــ ولكنه لا يعجبنى أنا أيضا . . على أية حال اذا أردت أن تستخدمى اسما من أسماء الاسرة ، فلا مانع ، ولكن ارجوك الا يكون اسم كاساندرا

وبعد نصف ساعة ، قال فيليب فى غرفة النوم ، وقد اغرق صوته المتعب فى الوسادة :

ــ هيا الى الفراش ياعزيزتى ، أنت تعلمين ان الطبيب أمرك بالراحة كثيرا

وكانت الين منهمكة فى ذلك الوقت فى الوقوف فوق مقعد امام المرآة ، لترى صورة بطنها من جانبها . ثم قالت :

ــ أعتقد اننى تضخمت عما كنت عليه فى الصــباح . . أليس كذلك يا عزيزى ؟

وغلبه النعاس اخيرا فنام ، وبعد ثوان أو دقائق أو ساعات ــ لايعلم ــ استيقظ ليجد زوجتـــه وهى تضربه بمرفقها بين ضلوعه ، وتقـــول لاهثة فى الظلام :

ــ هل تعلم . . ان المولود يحـــرك اقدامه ، هاهو ، هنا . اعطنى يدك .

وأمسكت يده ، وهى تقول :

ــ هنا . . ! هل تشعر به . . ؟

ولكنه اعترف ــ فى صدق ــ انه لم يشعر بشىء ، ثم استغرق فى النوم مرة أخرى قبل أن يتم حديثه . .

ولم ينم طويلا هـــذه المرة أيضا ، فقد هزته الين بالحاح وقالت هامسة :

ــ انه يضرب بقوة لم أعهدها ، ضع يدك هنا ، انتظر دقيقة . .

وبذل فيليب جهـــده ليبقى عينيه مفتوحتين ، ولكن الدقيقة مرت دون ان يحدث شىء ، وظل ينتظر ، بينما اخذت الين تحتج لانه لايهتم بالالتفات

لهذا الحدث العظيم . وأخيرا اضطر الى أن يكذب ويقول انه شعر بأقدام الطفل وهى ترفس يمينا وشمالا ..! وعندئذ فقط ، سمحت له الين أن يواصل النوم !

***

وفى أوائل الخريف شعر فيليب بحقارة شأنه وتفاهة الدور الذى يقوم به فى المنزل .

كانت غرفة النوم الصغرى هى عرينه وملجأه الدائم ، وهى خلوته المحبوبة التى لا يستطيع احد أن ينتهك حرمتها ، فهناك يعتكف وحده بعد ساعات العمل المتعبة فى المكتب . وكان المفروض دائما أنه سيحتفظ بهذا الملجأ المقدس ، وأن الطفل سوف يتخذ لنفسه سكنا فى ركن غرفة النوم كأنه عصفور أو قط سيامى .

ولكن الين عادت ذات يوم مع أمها من جولة شراء ، ومعهما حوض صغير لاستحمام الطفل ، وضعاه فى عرين فيليب . وسرعان ماتبع هذا الاعتداء الاول على ممتلكاته الخاصة اعتداءات أخرى ، اذ انضم الى حوض الاستحمام صندوق ابيض لامع لملابس المولود ، وميزان صغير ، وأدوات للتعقيم .

ويبدو أن لوازم الطفل لم تكن لها نهاية ، اذ عاد فيليب ذات مساء ليجد باب الدولاب وقد أغلقه فراش الطفل الصغير .

وقال لزوجته وهو يحاول ضبط اعصابه بشدة :

— اننى لا اريد أن أكون طاغية .. ولكن ماذا سنفعل بكل هذه الاشياء ؟

فقالت فى هدوء :

— هل نسيت أنك توشك أن تصبح أبا ؟

فأجاب وهو يشير الى عرينه الذى امتلأ بكل هذه الاشياء :

— وكيف استطيع أن انسى ..

وسكت فترة ، ثم قال :

— ولكن ، أين سنضع كل هذه الاشياء ؟ .. أعنى بصفة دائمة ؟

فقالت بطريقة مراوغة وان كان معناها واضحا :

— لعلك تعلم أن خبراء تربية الاطفال يقولون انه لابد للطفل من غرفة خاصة .

— ولكنى ارفض أن أطرد من غرفتى ، ان اطفال العالم جميعا لايستطيعون طردى من معتكفى ! .

وعاد بعد أسبوعين من عمله ، ليجد ستائر وردية اللون ، تغطى نوافذ المكان الذى كان فى يوم ما ..



مملكته الصغيرة التى لاتمس !

***

وفى يوم ١٤ نوفمبر ــ اى قبـــل شـــــهر كامل من اليوم الذى ينتظر وصول الطفل فيه ــ عاد فيليب الى منزله ، وانحنى على جبين زوجتـــه فقبلها .. ثم سألها :

ــ ماذا قال لك الطبيب اليوم ؟

ــ ان باركلى رجل لطيف للغاية ، لقد جعلنى أشعر باطمئنان كبير

ــ وهل طمأنك بشأن الالم الحاد الذى تشعرين به ؟

ــ أى ألم ياعزيزى ؟

فقال فيليب :

ــ الالم الذى أحسست به فى خصرك ، والذى أيقظتنى من النوم لتحـــدثينى عنه .

فأرسلت بصرها من النافذة بعيدا ، وسرحت فى قليل من التفــكير ، ثم قالت :

ــ لقـــــد طلبوا الدكتـــور باركلى للحضور الى المستشـــــفى فى نفس الوقت الذى كنت على وشـــك أن أسأله فيه عن هذا الالم ..

وفى تلك الليلة ، دخل فيليب غرفة نومه عائدا من الحمام ، ليجد زوجته ألين قد اتكأت على الوســـادة وهى تبكى ، فسألها فى لهفة :

ــ ماذا حدث ياعزيزتى ؟

فحاولت ان تغطى تجهم وجههـــا بابتسامة جريئة ، ثم قالت :

ــ لقــــد عاد وجع الظهـــر مرة ثانية ..

فسألها بصوت أجش :

ــ ماهـــو رقـــم تليفـــون الدكتور باركلى ؟

فاقتربت بشفتيها من وجنتـــه فى خجل ، ثم قالت :

ــ سوف يسير كل شىء على مايرام يافيليب ، كمـــا أنك لاتســـتطيع ان تطلبه فى المنزل ، بل يجب أن تطلبه من المستشـــفى ، فهـــو لايعطى رقم تليفونه لمرضاه .

ولكن فيليب هرع الى التليفون ، وبعد محاولات عديدة استغرقت أكثر من نصف ساعة ، سمع صوتا يقول :

ـ دكتور باركلى يتكلم ..

فقال فى صوت مرتفع :

ـ اننى فيليب تمبلتون ، لقد كانت زوجتى تشكو آلاما شديدة فى مؤخرة ظهرها .

فسأله الطبيب :

ـ منذ متى بدأ الحمل ؟

ـ ٨ شهور

ـ وهل هناك أعراض اخرى ؟

ـ أجل ، انها متعبة ومضطربة بصفة عامة

فقال الطبيب وهو يتثاءب :

ـ كل الحوامل كذلك ، متى تم فحصها آخر مرة ؟

ـ ولكنك رأيتها بعد ظهر اليوم يادكتور ؟

ـ أجل ، أجل الين تمبل .

ـ ان اسمها تمبلتون .. الين تمبلتون

وتتابعت أسئلة الطبيب بعد ذلك عن موضع الالم بالضبط وكيفية سيره ، ومواعيد حدوثه الخ ...

وأحدث هذا الاهتمام أثره فى نفس فيليب .. وسرعان ما قال فى بشاشة :

ـ اننى أشعر بالاسف يادكتور ويجب أن أعتذر لك

ولكن الطبيب قاطعه قائلا :

ـ هل تشعر بألم كبير الآن ؟

فقال فيليب وهو يضحك :

ـ أن زوجتى مستغرقة فى النوم الآن ، ويبدو انها فى حالة جيدة

ووضع السماعة وقد شعر بارتياح لاحد له . ان الدكتور باركلى رجل يعرف عمله جيدا .

واغلق فيليب عينيه ، ولكنه ماكاد يستغرق فى النوم ، حتى جلست اليه فجاة فى الفراش ، وقالت :

ـ وجدتها .. وجدتها !

وسرت البرودة فى عموده الفقرى ، وخشى أن يكون الطفل فى الطريق فورا . وفجاة التفت ذراعا الين حول عنقه ، وقالت :

ـ لقد اكتشفت الاسم الذى يجب أن نطلقه على المولود اثناء الحلم . انه اسم (باتى) باتى آن تمبلتون ، وسندللها باسم بات ، اليس رائعا ؟

***

وفى ليلة عاصفة كثيفة الضباب ، كان فيليب والين جالسين يلعبان الورق حين دق جرس التليفون فجاة ، فقامت الين للرد على السائل .

وسمع فيليب صـــوت الين عبر الغرفة يقول :

ـ ما أروع ذلك ، انني سعيدة جدا ، انه أعجب نبأ سمعته .

وما كادت تنتهي من الحديث ، حتى بدأت كتفاها وكأن ثقلا كبيرا وضع فوقهما .. ثم رأى فيليب عبرة تسيل في سكون على بساط الغرفة ، فهرع اليها ، وسألها :

ـ ماذا حدث ؟ ..

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة زائفة :

ـ لقد وضعت مودى طفلتها وهي في الشهر السابع !

***

وبعد أسبوع واحد ، أي بعد خمسة أيام من الموعد الذي كان منتظرا ان تضع فيه الين طفلها ، أيقظته في رقة ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا ، وهمست قائلة :

ـ هنـــاك شيء مريب يجري في أحشائي ، انني احس بأن الطفل سيصل الليلة .

وعلى الرغم من أن الانتظار قد رهقه كثيرا ، فان هـــذه الكلمات جعلته يستيقظ فورا في حالة تنبه تام ، كان قد درس دوره في العمل عندما تحين اللحظة الحاسمة .

ووفقا للخطة الموضـــوعة ، شرع يرتدي ملابسه ، ناصحا زوجته أن تبقى هادئة ، ثم اتصـــل بالطبيب تليفونيا ، ولكن زوجته أسرعت تقطع الاتصال التليفوني قائلة :

ـ ماذا تفعل يافيليب ؟ .. ليس هناك مايدعو للانزعاج .. ان الطفل لايصل في المتوسط الا بعد ١٢ ساعة من بدء الاوجاع .

فقال في صوت عال متحديا :

ـ هناك أطفال يولدون في ٢٤ ساعة ، وآخرون يأتون بعد عشر دقائق ، هذا هو معنى كلمة في المتوسط ..

ولكنها قالت وهي تعيده الى فراشه :

ـ اسمع ياعزيزي .. ان الدكتور باركلي سوف يسخر منك اذا أزعجته الآن ، فلا تحاول دعوته الا اذا بلغت الاوجاع حدا يسمح بذلك

وقبل أن تنتهي من كلماتها ، قالت وهي تضغط على شفتيها :

ـ هاهي واحدة أخرى ، امسك ساعتك الآن وعد الوقت ..

وراح فيليب يسجل الوقت على ورقة صغيرة ، ثم قال مقترحا :

ـ الا ترين اننـــا يجب ان نخبر

والدتك تليفونيا ؟

واحس فى تلك اللحظـــــة بحب جارف لحماته لم يشعر بمثله قط ، ولـكن الين قالت ان الوقت لم يحن لدعوة أمها بعد .

وفى الساعة الثالثة صباحا ، قالت الين :

ــ لقد مرت ١٥ دقيقة لم اشعر خلالها باوجاع ، فلعل هـذه المظاهر خادعة ، واعتقد أننا يجب ان ننتظر بضع دقائق أخرى قبل أن نستأنف النوم

واصلحت من وضع وسادتها ، ثم قالت :

ــ دعنا نتحدث قليلا . خبرنى ، هل تعتقد أن هتلر لايزال حيا ؟ . انهم يقولون انه مازال يعيش متخفيا فى أمريكا الجنوبية .

فقال على الفور :

ــ بل أعتقد أنه ميت ، ولكن .. لقد أضعنا ساعة بلا جدوى ، فلماذا لانستدعى الطبيب ؟

فقالت :

ــ اننى غير واثقة تماما .

ــ ولكن الدكتور باركلى يتوقع أننا سندعوه يوما ما بكل تأكيد .

فقالت الين :

ــ ليس هذا ما أعنيه ، لقد كنت أعنى أننى غير واثقـــة من أن هتلر مات ، فهناك أشخاص يؤكـدون أنه يعيش فى أمريكا الجنوبية !

ــ حسنا .. حســنا .. انه فى أمريكا الجنوبية .

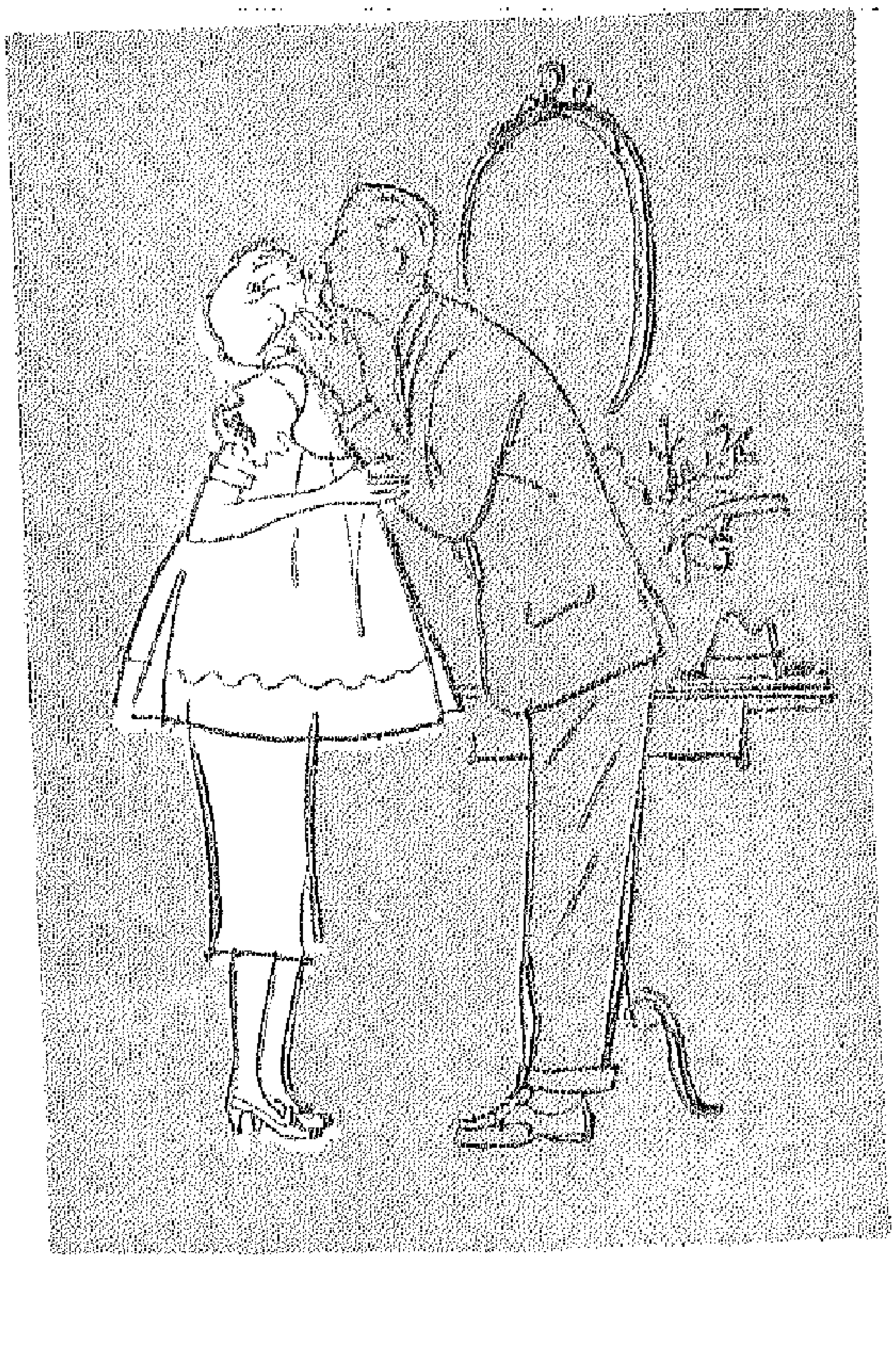
وفى تلك اللحظة ، أحست بأوجاع أخرى جذبتها الى الفراش . وسالت عبرة أخرى على وجنتها .

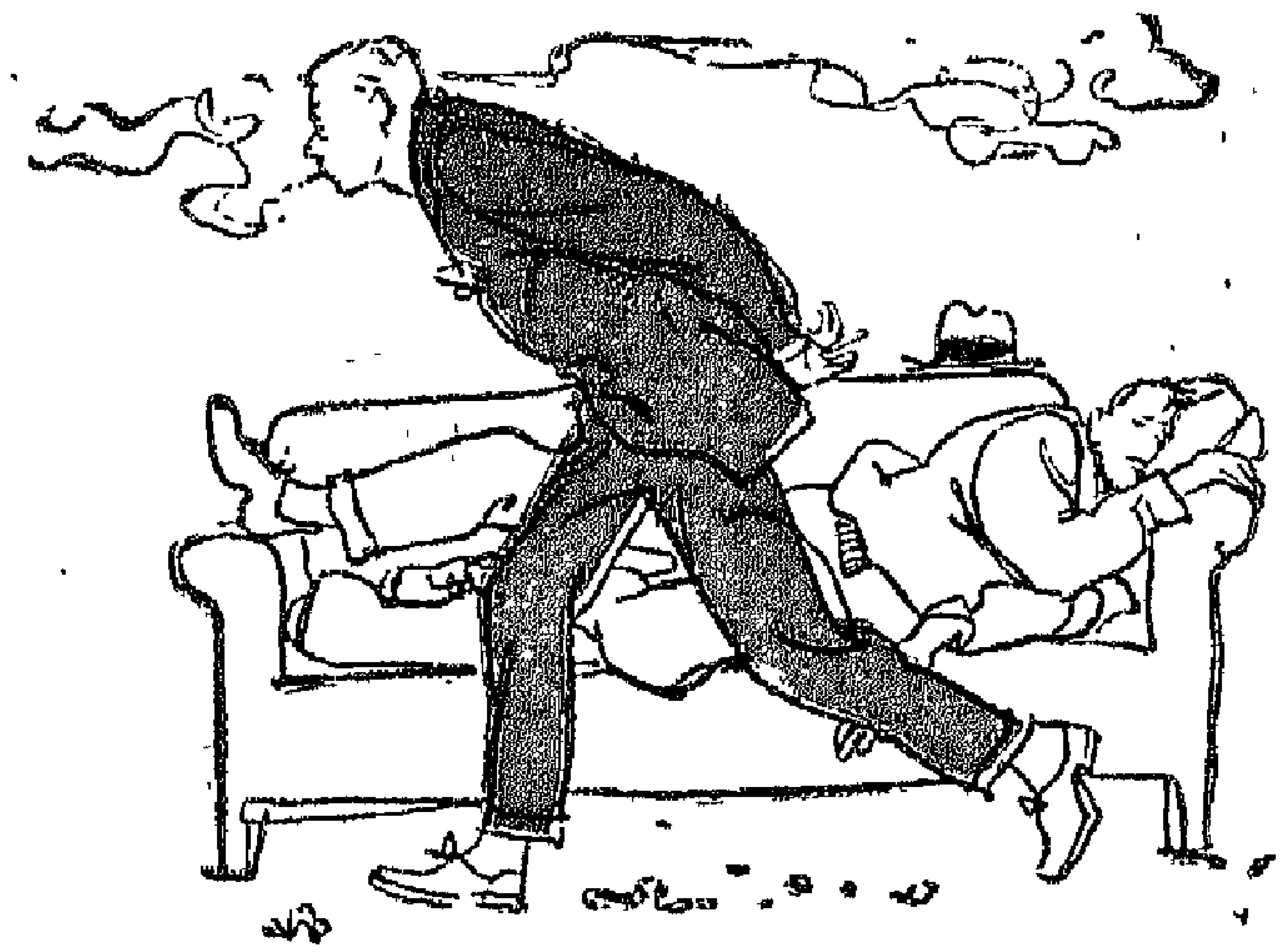
وهرع فيليب فاتصـــل بالطبيب دون أن تعترض هذه المرة ..

وبعد خمس دقائق ، سمع صوت دكتور باركلى يقول مزمجرا :

ــ ماذا حدث ؟

ــ ان زوجتي على وشك الوضع





ووضع فيليب السماعة فى عصبية ، ثم التفت لزوجته قائلا :

ـ أن الطبيب يصر على أن نذهب الآن فورا الى المستشفى .

***

كانت الرحلة الى المستشفى أعظم تجربة محطمة للاعصاب واجهها فيليب ، وقد انطلق بالسيارة ببطء وسط الشوارع الخالية المظلمة ، وهو يحرص على الا يصبح ابا وهما على قارعة الطريق . وخيل اليه أن الطريق قد طال ، وأن كل شارع قد امتد الى ثلاثة أضعاف طوله الاصلى . وبعد رحلة بدت أنها لن تنتهى ، وصلا الى مقربة من المستشفى ، بعد أن استمع من الين الى كل التعليمات عن الاعمال التى يجب أن يقوم بها اثناء وجودها فى المستشفى .

وعندما توقفت السيارة أمام المستشفى ، ابتسمت اليه فى رقة قائلة :

ـ هل تذكر الليلة التى قبلتنى فيها اول مرة فوق الربوة ؟.

فقال : بلا ريب .

فهمست :

ـ ما الذى جعلك تظن ذلك ؟

ـ لان موعد الوضع قد حان منذ خمسة أيام .

ـ حدثنى عن الاوجاع ، وكيف تسير ؟

ورد عليه فيليب ، بينما واصل الطبيب استجوابه ..

وأحس فيليب بالحنق على هذا الرجل الذى يضيع الوقت فى هذا الحديث الطويل ، فانتهز فرصة سكوته لحظة وقال :

ـ الا تعتقد أنه من الافضل نقلها للمستشفى ؟

فقال الطبيب وهو يتنهد :

ـ حسنا ، سأتصل بالمستشفى لانتظاركما ، وعليك أن تصحب زوجتك فى السيارة الى المستشفى على مهل .

ــ فيليب ، قبل أن ندخل ، هل تقبلني مرة اخرى مثلما فعلت في تلك الليلة ؟

***

واخـذوا الين الى عنبر الولادة ، بينما جلس فيليب في قاعة الانتظار ، على ان يراها بعد ٢٠ دقيقة بعد أن يتم اعدادها للوضع

ورأى على مقربة منه رجلا ينـام على أريكة ، وقد دلت ملابسـه على أنه كان ينتظر هناك منذ ٤٨ ساعة .

وحضرت ممرضة بعد قليل دعته لمرافقتها لرؤية زوجته ، فسـار الى جوارها في هدوء عبر الردهة الطويلة .. وسألها في لهفة :

ــ ماذا يفعـل الدكتـور باركلي الآن ؟

ــ أعتقد أنه نائم .

فقال وقد كاد يتعثر في سيره :

ــ نائم ؟ أين ؟

ــ في منزله كما أظن .. وسنخطره نحن في الوقت المناسب .

واشارت له الممرضـة الى باب نصف مفتوح ، سـمع صوت الين ينطلق من داخله تناديه .. ودلف الى الداخل ، واقترب منها وسألها :

ــ كيف الحال الآن ؟

ــ انني على استعداد تماما

فانحنى على جبينها وقبلها، فقالت في بهجة :

ــ لقد أعددت لك طعام الافطار في المنزل .

واخذا يتحدثان عن عيد الميلاد ، والهدايا التي ينتظر ان يتلقاها الطفل .. وفجأة أطبقت بيـدها على يده بقوة كالمنجلة ، وأغلقت عينيها بقوة، وبدأت قطرات من العرق تتـدحرج على صدغيها ، وعنـدما انتهت نوبة الالم ، القت برأسها على الوسـادة وحاولت أن تبتسم وعنـدئذ طلبت اليه الممرضة أن يخرج من الغرفة .

***

وبعد الخامسة صباحا بقليـل ، وصل الدكتور باركلي .

كان فيليب يذرع غرفة الانتظـار جيئـة وذهابا دون توقف ، يجلس أحيانا على مقعد ويمسك مجـلة في تثاقل ، ثم يخرج ليرتشف قدحا من الماء أو ينظر الى وجهه في المرآة .

واسـتيقظ الرجل النـائم فوق الاريكة ، وقال وهو يتثاءب :

ــ اسمي مارتن

فذكر له فيليب اسمه وهو يشد على يده ، كما يفعل متسلق الجبال

الذى التقى برجل آخر فوق قمــة (كلمنجارو) .. قائلا :

ـ هل امضيت هنا طويلا ؟

ـ منذ منتصف الرابعة صباحا . وانت ؟

ـ لقد سبقتنى بعشر دقائق .

وادرك فيليب السر فى نوم مارتن وسط هذه الظروف ، عندما قال له انه أب لاربعة أطفـال وان الخـامس قادم فى الطريق فى اية لحظة .

ودخلت ممرضـــة تؤكـد نبوءة مارتن ، وكانت تدفع بيدها فراشـا على عجل ، ووراءها اخرى تحمـــل طفلا على ذراعيها ..

وهرع مارتن يستقبل زوجتـــه وطفله الخامس ، بينمـا كان فيليب ينظر فى دهشـــة الى الرجل الذى انجب خمسة بهذه السهولة !

وبقى فيليب فى وحـــدته . كان يحس بالحاجة الى شخص الىجواره يحدثه ، حتى ولو كانت حماته ! .. وسار نحو النافذة ، ووقف يحـدق فى الظلام السائد فى الخارج .

كانت السماء تمطر ، واغصـــان الاشـــجار تنحنى تحت قـوة الريح الشديدة ، فضم قبضة يده ، وقال هامسا :

ـ اجعـــل كل شىء على مايرام يا الهى .. من اجلهـــا .. ارجوك يا الهى .

وكان قد نسى كل شىء عنالزمن، عندما سمع صوت الدكتور باركلى ، فاستدار فجاة وقلبه يدق بعنف .

ووضـــع الطبيب يديه على كتفى فيليب .. وقال :

ـ أيها الشاب .. لقـد أصبحت أبا لطفلة جميلة !

وظل فيليب يحدق فى وجهه دون أن ينبس بنبت شفة ، ثم انطلق نحو الغرفة التى ترقد فيها زوجته .

وارتعد عندما شـــاهد فى طرف الردهة ممرضة تدفع امامهـا سريرا متحركا ، وعلى بعد بضعة أمتـــار خلفها ، ممرضة اخرى تحمل شيئا بين ذراعيها ، فاسرع يعبر الردهـة نحوهما

كانت الين تبتسم وهى تغـــالب النوم ، كطفل سعيد !

وحاول أن يقول شـــيئا ، ولكن الكلمات توقفت فى حلقه ، ثم شاهد طفلته ..

هذا الشىء الضئيل ، الذىاشترك مع الين فى اخراجه !

يا الهى .. انها جميلة جدا .. بل

انها أجمل من كل طفل ولد فى هذا العالم !

واقـتـرب من الجسم الضئيـل ، وراح يتلمس جلده النـاعم بأطراف أصابعه .

هذه ابنته .. انها فى حجم أوراق الزهرة فى براعمها .

واجتاحه أعجب وأقوى احسـاس شعر به فى حياته .

وبدا ذقنـه يهتز ، وعينـاه تدمعان ، وحاول جهده ألا يتصرف كأنسان مخبول .

وقالت الين وهى تهمس فى أذنه :

ـ انها تحب أباها !

وكان هذا أكثر مما تحتمله عواطفه ، فأنحدرت العبرات على وجنتيه ، وهو يدفن رأسـه بين ذراعيها .

وهكذا ولدت .. كاسندرا تمبلتون !



من باب الاجتماعيـات بصحيفة ((ستيت جورنال)) بولاية الينوا .
((تحتفل مسز ت . ميرفاى يوم الاحد القادم بعيد ميلادها الثامن والاربعين .
ومما يجدر ذكره أنها تقيم فى سبرنجفيلد منذ ٥٧ عاما .))

من السهل أن تتعرف على رئيس وزراء فرنسا فى أى صورة للاقطاب الاربعة ..
فهو الشخص الوحيد الذى لم تعرفه قبل ذلك .

(بنفسيولا هيرالد)

أثار شاب ارتباك أصدقائه بالسؤال التالى : بما أنك لست طرفا فى المشكلة .. فما رأيك فى الجنس البشرى ؟ . (دافيد برادى)

كتاب الشهر

وُلِدَ ليُعطى

Born to Give

ملخصة عن كتاب : حياة جون د. روكفلر

بقلم : رايموند فوسديك

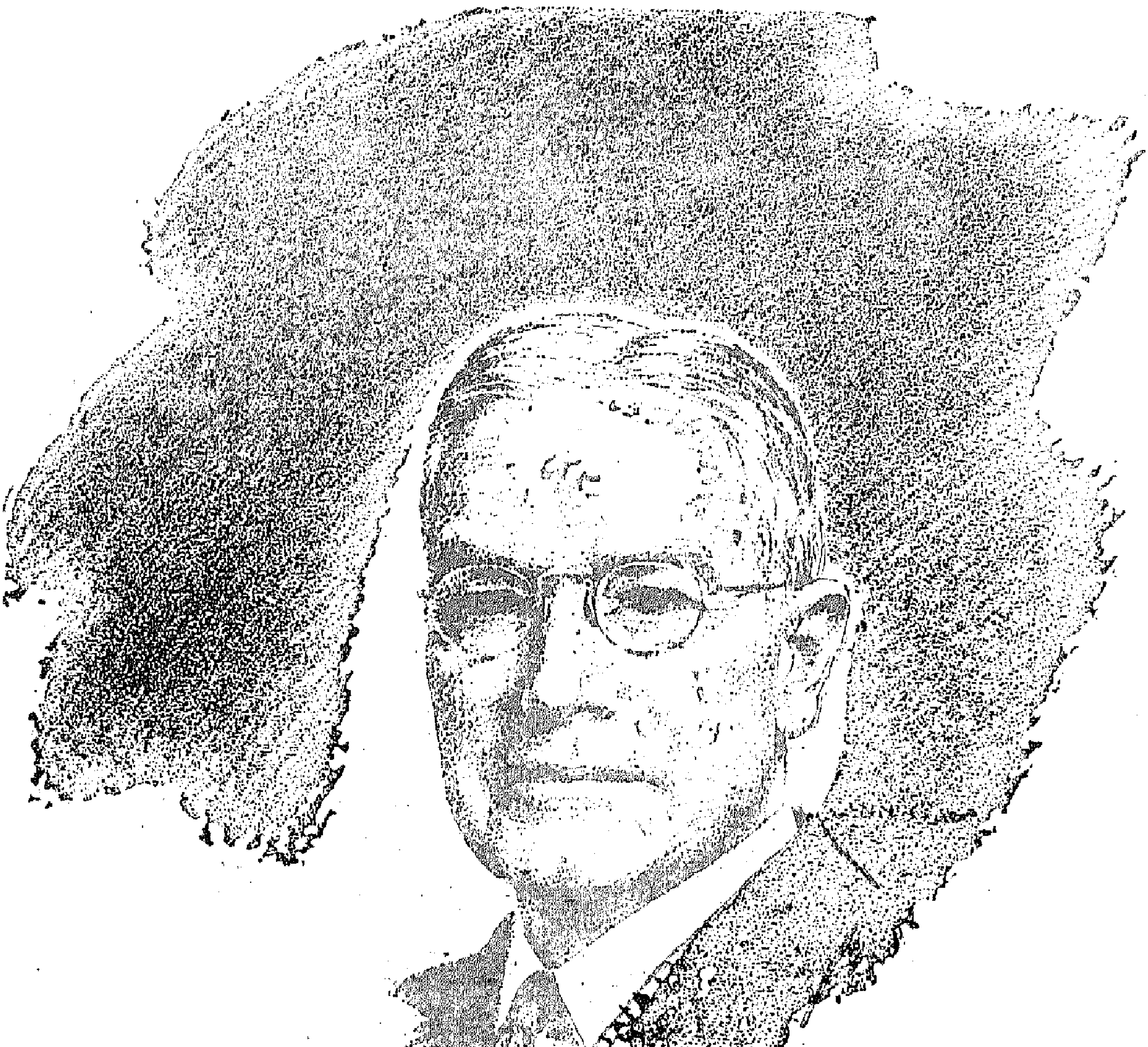
ولد ليجد نفسه وريثا لثروة من اكبر ثروات العالم . وكانت تلك الثروة اكبر عقبة فى طريق سعادته ، ولكنه عرف كيف يتغلب عليها ، وكيف يجعل منها نعمة للجنس البشرى باسره ، بدلا من ان تكون نقمة عليه وعلى الناس ، كما يفعل الكثير من الثروات .

انها قصة البذل والعطاء بسخاء لم يعرفه العالم : البذل فى سبيل رفاهية البشر وخيرهم ، ولكنه بذل تشوبه الحكمة ويطبعه التعقل وبعد النظر ..

ان ٩٣ دولة من دول العالم تنتفع اليوم بأموال ذلك المحسن الكبير الذى لم ير العالم مثيلا له من قبل . وتستخدم هباته فى النهوض بمختلف العلوم والفنون ، وفى مقدمتها الطب والتعليم ومكافحة الامراض التى تفتك بسكان العالم وغيرها من نواحى التقدم العالمى .

عندما شرع رايموند فوسديك فى كتابة هذا المؤلف عن جون روكفلر الصغير ، نظر اليه الرجل الكبير فى ارتياب وقال متعجبا : ترى ما الذى ستجده للكتابة عنى ؟

وسترى فى هذا الكتاب ان ما كتب لم يكن الا قطرة من بحر .



إن العراقيل التى تصوغ الحياة البشرية تتخذ صورا كثيرة كالفقر ، والعاهات ، واعتلال الصحة ، أو البيئة التعسة ، ولكن العراقيل التى واجهت حياة جون روكفلر الصغير كانت من نوع آخر ، يتمثل فى الثروة الضخمة ، ذلك النوع من الثروة الخانقة الكفيلة بأن تستنزف كل طاقاته ، وتسمم كل حياته • وقد قال عنها فى سنواته الاخيرة :

« لقد ولدت فيها ، ولم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله حيالها • لقد كانت موجودة أمامى كالهواء والطعام أو أى عنصر آخر ! »

وعلى الرغم من الجهود التى بذلها والداه لحمايته ، فقد أحاط ضغط

الثروة بطفولته ، وذهب الى الجامعة مدفوعا بأنه ابن أغنى رجل فى العالم . وكان عندما يدخل مكتب أبيه يقابل بالترحيب الذى يشوبه ذلك الارتياب الذى يوجه الى هـؤلاء الذين ليس لنجاحهم أية علاقة بأية موهبة حقيقية . وتعلم طعم النفاق والمداهنة المرير ، والصداقات الخادعة القائمة على الانانية وتوقع المنافع ، وحرم الكثير من الاتصالات العادية التى تكفل التوازن والادراك السليم لحياة الانسان .

كل تلك العراقيل كانت كفيلة بأن تجلب السخرية وخيبة الامل والخمول المحطم للعزائم بالنسبة لكثير من أبناء الأثرياء ، ولكن روكفلر الصغير برز كرجل يتمتع بالبساطة والتواضع والاحاسيس الديموقراطية وسيطرت عليه فكرة أن الثروة التى ورثها يجب أن تستخدم لزيادة رفاهية الجنس البشرى ، وكرس حياته لهذا الغرض متذرعا بالفكر والشجاعة والصبر الذى لا نهاية له ، وأصبح اسمه ـ مستقلا عن اسم أبيه ـ جزءا لا يتجزء عن التاريخ الاجتماعى لهذا العصر .

فما الذى أتاح لهـذا الرجـل ان يجعـل من اسم روكفلر ، وثروة روكفلر ، شيئا ينظر اليه الناس فى انحاء العالم باعتباره رمزا لنوع من الكرم المهذب لا مثيل له فى التاريخ ؟

ان الجواب على هذا السؤال هـو قصة حياة ايمان قوى ، وشجاعة لا ترهب شيئا ، وتكريس النفس لمثل عليا ، لعل أصدق ماتوصف به أنها « الاخوة الانسانية » .

***

يدأ جون دافيسون روكفلر ـ الذى قدر له أن يجمع ثروة من أعظم ثروات أمريكا ـ حيـاته العملية فى سن السادسة عشرة ، فى كليفلند بولاية « أوهايو » ، كمساعد لصاحب متجر لبيع الكتب والمجلات ، وذلك فى عام ١٨٥٥ ، وسرعان ما أصبحت كليفلند كلها تتحدث عن كشف آبار البترول الجديدة .

واهتم روكفلر بهذه الصـناعة الوليدة ، التى عرفت باسم « تكرير البترول » . وفى سنة ١٨٧٠ ساعد عـلى انشـاء وتنظيم شركة (ستاندرد أويل) وأصبح رئيسا لهـا ، وسرعان ما سيطرت هـذه المؤسسة على صـناعة التكرير فى كليفلند ، وأصبحت مركز التكرير الاول فى أمريكا كلها .

وهكذا وضع جون روكفلر وهوفى الحـادية والثـلاثين من عمـره أسس

ثروته الهائلة المستقبلة ، وبعد أربع سنوات ، وفى صبيحة يوم ٢٩ يناير من عام ١٨٧٤ انطلق روكفلر الى مكتبه فى فرح ليعلن فى ابتهاج نبأ عظيما • لقد رزقه الله فى النهاية بابن يرث اسمه ، بعد أربع بنات ، ماتت احداهن فى سن الطفولة ، أطلق عليه اسم جون روكفلر الصغير •

وراح الطفل ينمو ويترعرع فى قصر الاسرة الريفى فى « فورت هيلز » على بعد أربعة أميال شرقى المدينة ، وكان لديه كل شيء ماعدا صبيانا آخرين يلعب معهم ، فقد انفق ايام صباه الاولى فى عالم كله بنات ، هن شقيقاته الكبريات •

وكان له رفيق واحد محبوب ، هو أبوه، الذى كان برغم مشاغله الكثيرة يحاول ان يمضى أكبر قدر مستطاع من وقته مع أطفاله ، كان يشاركهم فى ألعابهم بحماسة ، ويعلمهم كيف يسبحون وينزلقون ويجدفون أو يركبون الخيل ، ويقول جون : لم يكن يذكر لنا قط ماذا نعمل أو ماذا لا نعمل ، بل كان واحدا منا •

وعندما بلغ جون العاشرة ، استدعت أعمال روكفلر الاب أن ينفق أغلب وقته فى نيويورك ، وهكذا اشترى فى عام ١٨٨٤ منزلا فى الشارع الرابع والخمسين ، وانتقل مع اسرته الى هناك •

***

كان آل روكفلر أتقياء متدينين • كان الاب رجلا ورعا عميق الايمان ، يتمتع بسيطرة غير عادية على نفسه ، وقد صممت زوجته العظيمة لورا سبلمان أن تعكس هذه الصفات على أطفالها ، مما كان له أكبر الاثر فى حياة جون الصغير • فقد نشأ صبيا منعزلا • كان الرقص ولعب الورق بل والذهاب الى المسرح ممنوعا ، وقبل أن يتجاوز العاشرة من عمره ، كان قد تعهد كتابة بالامتناع عن المشروبات الروحية والتدخين والدنس طوال حياته •

ومع أن روكفلر الاب قد ترك لزوجته مهمة تنشئة أطفاله ، فقد كانت هناك دائما رابطة قوية من المودة والمحبة بين الاب والابن • كان جون يرى والده رجلا يتمتع بكل صفات البطولة من شجاعة الى كرم وأدب ونظام • ولم يكن هناك مفر من ان تطبع شخصية الابن بكثير من عادات الاب ومثله ، فاكتسب ولع أبيه بالتفاصيل الدقيقة ، وآرائه فى كيفية ادخار المال وانفاقه ، واحتفظ كأبيه بحساب دقيق لنفقاته اليومية •

والعجيب أن البيئة الاولى التى نشأ فيها روكفلر الصغير لم تخنقه أو تنفره أو تبذر فى نفسه بذور الثورة فيما بعد •

لقد نشأ الفتى فى فراغ اجتماعى ، ولكنه تدرب على ان يفعل أشياء يجب أن يفعلها ، وأن يفعلها دون احساس باكراه أو خوف من عقاب • وكان يقول : كان أبى وأمى لا يسألاننى قط الا سؤالا واحدا ، هو : هل هذا العمل صائب ؟ •• وهل هو واجب ؟

وقد أمضى روكفلر الصغير أيام حياته كلها يوجه لنفسه هذا السؤال

***

وفى عام ١٨٩٢ كان جون قد أصبح على استعداد لدخول الكلية ، فذهب الى (بروفيدانس) ، و (رود ايلاند) مع ثلاثة من أصدقائه ، هم : افريت كولب ، وارشيبالد ماكليف ، وهما من رفقاء الدراسة فى مدرسة براونج ، وليفرت داسيتيل نجل قسيس مدينة جريس •

والتحق الاربعة بجامعة براون فى سبتمبر ١٨٩٢ ، وأدهشته حرارة جو الكلية الخالى من الشكليات والرسميات ، لقد أصبح الآن مختلطا بمجموعة كبرى من الشباب ، بينهم الغنى والفقير ، المتدين وغير المتدين ، البعض يستحق الاعجاب ، والبعض يمكن الصبر على أعماله ، وضحكوا من عاداته الاقتصادية وحساب ملاليمه ورفو ثيابه بنفسه ، ولكنه كان يأخذ الامور بروح طيبة سمحة •

وفى نهاية العام الاول ، كان قد فقد بعض حيائه ، واكتسب اسما للتدليل هو (جونى روك) ، بل لقد أقنعه زملاؤه بقبول بعض الدعوات فى مناسبات اجتماعية فى بروفيدانس •

كان يبتعد أول الامر عن الرقص خجلا وحياء ، ولا يذهب الا الى الحفلات الموسيقية الصغيرة ، وكان يعتبر فتيات بروفيدانس طائشات متهورات ، حتى أنه كتب لامه يقول ، « اننى لا أحب الوقوف معهن والحديث فى غير طائل ، ولن تكون تلك عادتى أبدا »

وفى عامه الثانى فى الكلية وقع تغيير فى حياته ، فقد قبل دعوة لحفلة راقصة فى منزل مستر جودارد من أمناء الجامعة • وفى تلك الليلة دربه صديقه ليفرت على رقصة الفالس •

وفى تلك الحفلة التقى جون بفتاة أطول منه قامة ، وكانت راقصة بارعة ، من أجمل فتيات بروفيدانس ، وتدعى « آبى ألدريتش » •• ويقول عن تلك الفتاة : « لقد عاملتنى كأننى أعرف كل شىء فى العالم ، وقد

أكسبتني ثقتها الكثير على الرغم من أنني لم ارقص معها • ومنذ ذلك الحين بدأت أتمتع من حين لآخر بالنواحي الاجتماعية في حياة الكلية » •

ومع أن آبي الدريتش كانت من اسرة تتناقض تماما مع اسرته ، فقد جذبته روحها المرحة ، واحساسها العميق بالمسئولية ، كمـــا أعجبت بأخلاقه الجدية ، واخلاصه البـــادى ومرحه الهادىء •

ومنذ ذلك اليوم ، بدأت كلمـــة (زهور) تحتل مكانا ثابتا في دفتر حساباته اليوميـــة ، وأصبح زائرا دائما لمنزل آل ألدريتش •

***

في خلال السنوات التي أمضاها جون في جامعة براون ، لم ينحرف قيد أنملة عن شعار «الواجب» ولكنه كان يتعلم ان هذا الشعار لا يمكن ان يقاس بالصلابة التي كان يظنها يوما ، وقد كتب لجدته يقول : « ان أفكاري وآرائي لم تتغير قط ، ولكنني وجدت أنني أستطيع ألا أتقيد بحرفية القانون أكثر من روحه » •

وكان أســـبوع التخــرج مليئـــا بالاحتفالات ، وقد قرر جون ألا يسمح لشيء ان يشوه هذه الايام الاخيرة ، ومع ذلك فقد أحس بروحه تمتلىء حزنا وأسى ، فقد منحته الكلية ثقة جـــديدة ، ومتعتـــه بالاســـتقلال والصداقة اللذين قد يصعب العثـــور عليهما بعد ذلك •

لقد أوشكت الايام السعيدة على الانتهاء ، وهو يعلم ان حياة مختلفة مليئة بالتجارب وخيبة الامل تنتظره •

ولم يفصح لاحد عن حقيقة ما يدور في احساساته الا بعد سنوات كثيرة ، فقد وقف في الاجتمـــاع الخمسيني لزملائه من الخريجين ليقول :

« في هذا المكان تمتعت بشخصية حرة تماما ، ولم ألق في حياتي بعد ذلك مثل هـــذا النوع من الزمالة ، وهذا ما يحدوني الى العودة الى هـــذه الاجتماعات التي تضمنا جميعا فوق أرضنا القديمة ، وحيث أعود بالنسبة لكم « جوني روك » فقط ! »

***

وذهب جون روكفلر للعمـــل في مكتب أبيـــه ببرودواي في نيويورك في خريف ١٨٩٧ ، وسرعان ما انغمس في حياة أحس انه لم يكن قد أعد لها اعدادا طيبا ، فهو لم يفكر قط في الانفراد بحياة عملية خاصة به ، بل كانت رغبته منذ الطفولة ان يعـــاون والده بكل طريقة مستطاعة ، والآن وهو يحاول ان يجعل نفســـه تألف

مشروعات أبيه الواسعة ، أحس بالفجوة السحيقة التى تفصل بين امكانيات أبيه ، وبين عجزه هو !

وكان روكفلر الصغير يرهب فردريك جيتس ، القسيس السابق الذى أصبح الصديق المقرب لروكفلر الكبير ، وكان على قدر كبير من الثقافة والحيوية المتدفقة ، لا يخشى شيئا ، طلق الحديث ، لايستطيع الا القلائل مقاومة سيطرته اثناء وجوده معهم ، ولم تسفر اتصالات جون الصغير اليومية بجيتس عن تبديد شكوكه تماما •

كان ينظر عادة فى حسد شديد للكتبة والسكرتيرين فى مكتب أبيه ، انهم يكسبون أجورهم ويثبتون جدارتهم لانفسهم ، وتلك ميزة لا تتوافر له قط •

كان يقول : لم أكن قط فى تنافس مع أحد ، فلم يكن هناك ما يقلقنى لان أحدا قد يفوز بعملى ، ولكننى فى الواقع كنت فى سباق مع نفسى ، ومع ضميرى !

ومنذ اليوم الذى دخل فيه مكتب أبيه ، بدأت الصحافة ـ كبقية زملائه ـ تطلق عليه اسم جون روكفلر الصغير ، حاولت ان تكتب كل شىء عما يفعله ، لم تكن تترك تفصيلا مهما يكن تافها الا ذكرته : نوع رباط العنق الذى يرتديه ، لون ثيابه ، ساعات عمله ، وعاداته فى العمل ، كم ينفق على غذائه ؟

***

وعلى عكس كثيرين من معاصريه ، لم يكن روكفلر الكبير ينغمس قط فى مضاربات البورصة ، وقد قال مرة : « لو طلب الى ان أقدم نصيحة لاحد ، لقلت له ان يبتعد عن البورصة ! » ولكن يبدو انه لم يقدم هذه النصيحة لابنه ، وكانت النتيجة أنه سرعان ما وجد نفسه متورطا فى مضاربات واسعة المدى ، ونزلت به خسائر بلغت حوالى مليون دولار لم تكن معه يومئذ • وذهب روكفلر الصغير الى أبيلا خجولا ذليلا وسرد عليه القصة كلها ، واستمع الاب فى صبر ، ووجه اليه كثيرا من الاسئلة ، ولكنه لم ينطق بكلمة لوم أو زجر واحدة ، بل قال بكل بساطة :

ـ حسنا يا جون •• لا تدع القلق يستولى على نفسك ، سأعمل على اخراجك من هذه الورطة •

وكان هذا هو كل شىء !

ولم ينس روكفلر الصغير قط هذه اللحظة • وقد كتب فيما بعد لابيه يقول : « كثيرون من الآباء كان يمكن

ان ينهالوا باللوم وتثور ثائرتهم ، وهم على حق فى ذلك ، ولكن احتمالك ورقتك جعلانى أحس بالدرس الذى علمتنى اياه هذه الحادثة احساسا أكثر عمقا ، وكنت أفضل لو ان يدى قطعتا عن أن أسبب لك هذا القلق ! »

ووعى جون الدرس جيدا ، فتفادى المضاربات بعد ذلك ، وكان يعدها كالمقامرة والمراهنة على سباق الخيل ، ويقول انها أضمن وسيلة اخترعت للخراب المالى !

***

كان جون كثيرا ما يأخذ قطار المساء بعد يوم ملىء بالعمل ، ليتوجه الى (بروفيدانس) حيث يهرع الى نادى الجامعة وهناك يغير ملابسه ، ثم تجده بعد قليل على عتبة دار الدريتش هادئا انيقا على استعداد لقضاء سهرة رشيقة • ولكن زياراته تلك كانت قصيرة ، فقد كان يتذكر دائما انه مضطر للعودة بقطار نصف الليل

وبعد ثلاث سنوات من مقابلتهما الاولى ، اعلنت خطبة جون روكفلر الصغير الى آبى الدريتش وكتب جون لأمه يومئذ يقول : ان سعادتى تزداد كل يوم ، حتى لم يعد لها حدود

واقيمت حفلة الزفاف فى يوم مشرق من اكتوبر ١٩٠١ ، وبعد انقضاء شهر العسل الذى امضياه فى مزرعة روكفلر فى (بوكانتيكو هيلز) بولاية نيويورك انتقل العروسان الى منزل فى الشارع الرابع والخمسين ، وعاد العريس الى عمله •

لم يكن الاب الذى بلغ الستين يومئذ يحضر كثيرا الى مكتبه ، بل إنتقلت اغلب المسئولية فى العمل الى الابن ، الذى وجد نفسه فجأة يتمتع بسلطة تامة دون تعليمات !

وعندما كان يلتمس النصيحة من أبيه ، كان رد الاب الذى لايتغير هو:

ـ افعل ماتراه أفضل ، أو اتبع حكم عقلك الطيب

***

كانت ثروة روكفلر الهائلة تثير قلق فردريك جيتس ، وهو يرقب تكدسها وتضخمها يوما بعد يوم •

وفى ذات يوم دوى صوت القسيس السابق قائلا لروكفلر الكبير دون رهبة :

ـ ان ثروتك تتدحرج كالانهيار ، ولكن الى أعلى ،فيجب ان توزعها باسرع مما تنمو ، فان لم تفعل ، فانها ستسحقك انت وأولادك واحفادك من بعدك

والواقع ان روكفلر الكبير كان محسنا منذ طفولته ،وعندمابدأ عمله ككاتب صغير ، كان يخصص جانبا من اجوره بانتظام للكنيسة واعمال البر وظلت هباته تتزايد بنسبة ازدياد دخله ، حتى اذا وصل الىسنة ١٩٠٠، كانت تبرعاته قد بلغت نسبة عالية بما فى ذلك انشاء جامعة شيكاغو

كان روكفلر على استعداد للتخلى عن الملايين ، ولكن الهبات يجب ان تكون لاغراض مثمرة جديرة بها •وعلى اساس هذه المقاييس ، كان انفاق ثروته الهائلة يعد مشكلة محيرة •

وتصادف أن بدأ فردريك جيتس في مطالعة كتاب اوسلر المسمى «مبادىء الطب وممارسته » فوجد أنه استحوذ علىاهتمامه وانهمك فىقراءة كل كلمة منصفحاته الالف ، ثم قال عندما القيت هذا الكتاب ، بدأت ادرك كيف أهملت دراسة الطب فى الولايات المتحدة أهمالا بالغا ، وتلك فرصة لروكفلر ليقدم خدمة عظيمة لبلاده ، وربما للعالم بأسره •

وكتب جيتس مذكرة لروكفلر ، قال فيها ان الطب لنيصبح علما تماما حتىيتاح لهفريق منالرجال الموهوبين الذين يكرسون انفسهم للدراسة والبحث بلا انقطاع ، مقابل أجر مجز يجعلهم غير مضطرين لممارسة المهنة •

وقد اصبحت هذه الكلمة هى الفلسفة التى تكمن وراء (معهد روكفلر للابحاث الطبية) •

ولكن لم يكنمنالسهل التأثير فى روكفلر الاب ، فطلبالى ابنه أنيبحث مشروع جيتس من ناحيته التنظيمية واستطاع جون بمعاونة « سيتلو » مدير جامعة كولومبيا والدكتور وليام ولش الاستاذ بجامعة جون هوبكنز أن يجمع حوله فريقا من اشهر علماء الطب لاستشارتهم فى المشروع

وجاءت توصيتهم الاولى فى عام ١٩٠١ بالغة التواضع • فقد اقترحوا انفاق ٢٠٠ الف دولار فى خلال عشر سنوات على منح تخصص للابحاث الطبية • ولكن روكفلر الصغير وعد فى العام التالى باسم ابيه بجعل المبلغ مليون دولار ، وراح يسعى بنفسه للبحث عنمكان لمعهد روكفلر للابحاث الطبية • وفى عام ١٩٠٦ ابلغ والده ان المعهد يتطلب مبلغا لايقل عن خمسة ملايين دولار !

وعلى الرغم من أن روكفلر الكبير ظل طيلة حياته يفضل لنفسه انواع العلاج القديمة ، وبقى مخلصا سنوات

طويلة لطبيب من النوع الذى يعالج كل الامراض ، الا ان هباته التى بلغت فيما بعد اكثر من ٦٠ مليون دولار ، جعلت المعهد من اكبر مراكز الابحاث الطبية فى العالم ٠

***

فى عام ١٩٠٥ ، كان جيتس لايزال غير مرتاح الى النسبة التى توزع بها ثروة روكفلر ٠ وبعد محادثات خاصة مع روكفلر الصغير ، كتب جيتس رسالة الى روكفلر الكبير كانت لها نتائج تاريخية مهمة ٠ وجاء فى تلك الرسالة : « هناك طريقان مفتوحان امامك ، فاما ان تتصرف انت واطفالك فى خلال حياتكم فى تلك الثروة الكبيرة فى صورة بر دائم متحد فى سبيل خير الجنس البشرى ، أو انها سوف تذهب الى عالم المجهول فى نهاية حياة بعض من يعيش الآن من اطفالك كما حدث للثروات الكبرى ، مع نتائج محتملة قد تنذر بشؤم لا يمكن التكهن به »

وانطلق جيتس فى رسالته يرسم برنامجا خيريا تجاوز به كل ما كان يمكن تصوره : اقترح تخصيص مبلغ كبير للتوسع فى التعليم العالى فى امريكا ، وآخر للنهوض بالابحاث الطبية فى انحاء العالم ، وثالث للنهوض بالفنون الجميلة وترقية الذوق فى الولايات المتحدة ، ومبلغ للنهوض بالزراعة العالمية وتخصيب الحياة الريفية ، وآخر للنهوض بالفضائل المدنية فى البلاد الخ ٠٠٠

وقد اتبع روكفلر الصغير هذه الرسالة بخطاب آخر قال فيه :

« يبدو لى أن خطاب جيتس أمر لايحتمل جدلا أو ردا ، واننى اعززه من كل قلبى ، وآمل انك ستجد من الحكمة تنفيذ هذا المشروع »

وحقق الخطابان اثرهما فى نفس روكفلر الكبير ٠٠ ففى خلال اسبوعين تبرع بعشرة ملايين دولار للمجلس العام للتعليم الذى كان روكفلر الصغير قد شكله لترقية التعليم فى امريكا منذ عامين ، دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة ٠ وبعد قليل أتبعها بهبة اخرى قدرها ٣٢ مليون دولار ٠ وبدأت مبالغ ضخمة تتدفق على معهد روكفلر للابحاث الطبية ، وأصبح المعهد مجهزا لشىء أكبر من ذلك ، لمؤسسة روكفلر الكبرى !

كان جيتس هو صاحب الخيال والمهندس ، وروكفلر الصغير هو البانى وان كان قد اطلق على نفسه تواضعا اسم الوسيط بين الوالد والفرصة

المناسبة • وبعد حوالى ٨ سنوات ، بعد ان قدم جيتس مشروعه الطموح ، كان روكفلر هو الذى كافح فى سبيل حل المشكلة الكبرى : مشكلة العثور على فريق واحد من الرجال الذين يمكن ان يتوقع منهم المعرفة والاهتمام بمثل هذه الاتجاهات المختلفة •

وفى خلال تلك الفترة ، وصل روكفلر الصغير الى أهم قرار فى حياته ـ كما وصفه هو ـ اذ استقال من ادارة شركاته كلها ، ولم يحتفظ لنفسه الا بمقعده فى مجلس ادارة شركة كلورادو للوقود والحديد •

وكان يخشى من أثر هذا القرار على ابيه ، فقد يراه ضربة لآماله التى يعلقها على رؤية ابنه متربعا على رأس الامبراطورية الصناعية التى انشأها، ولكن روكفلر الكبير تلقى النبأ بهدوء وقال :

ـ جون، افعل ماترى أنه الصواب•

وهكذا قطع جون روكفلر الصغير وهو فى السادسة والثلاثين علاقاته بالعمل فى الشركات ، على الرغم من انه كان لايزال شخصية يثور حولها الجدل فى السنوات التالية بصفته حامل اسهم ووريثا لثروة روكفلر

وأحس انه أصبح الآن حرا يستطيع ان يكرس نفسه قلبا وقالبا لما يعده أخطر مهمة فى حياته كلها ، مهمة الاستخدام المثمر لثروة ضخمة فى سبيل الخير العام وتقدم البشرية

وفى ٢٩ يونيو ١٩٠٩ ، وقع روكفلر الكبير وثيقة ، عهد فيها الى ثلاثة وكلاء هم ابنه جون ، وصديقه جيتس ، وهارولد ماكورميك بأسهم شركة ستاندرد اويل وثمنها ٥٠ مليون دولار ، على ان يؤسسوا بها (مؤسسة روكفلر) وطلب اليهم وضع ميثاق مناسب للمؤسسة

وفى سنة ١٩١٣ وافق المجلس التشريعى بولاية نيويورك على قانون يجعل مؤسسة روكفلر مؤسسة موحدة وجعل جيتس شعارا لها « النهوض برفاهية الجنس البشرى فى انحاء العالم » وتساءل الوكلاء الثلاثة أنفسهم مم تتكون رفاهية الجنس البشرى ؟

وأجاب جيتس ان المؤسسة يجب أن تكرس نفسها لمشروعات ضخمة جدا لاتستطيع القيام بها المنظمات الاخرى • وأقترح كهدف مبدئى مكافحة المرض ، الذى وصفه بأنه المصدر الرئيسى لكل العلل البشرية الاخرى من فقر وجريمة وجهل ورذيلة الخ ••

وهكذا وجه الاهتمام الاول الى

الصحة العامة •

وبينما كانت المؤسسة لاتزال في طورالاعداد،كان روكفلر الصغيروأبوه قد شكلا (لجنة روكفلر الصحية) التي قامت بعمل عظيم بقضائها على الدودة الشريطية في الجنوب ، وقد انتقل العمل الآن الى الادارة الدولية الجديدة التي انشأتها المؤسسة ، ثم امتد الى بقاع اخرى من العالم واضيف الى البرنامج فيما بعد مقاومة آفات اخرى مما تصيب الصحة البشرية كالملاريا والحمى الصفراء وغيرهما، ثم انشىء (مجلس صحة الصين) ، وبدأ العمل في كلية الطب الاتحادية في بكين ، التي اصبحت الموقع الامامي للطب الحديث في الشرق الاقصى •

وفي عام ١٩١٠ نشر كتاب «التعليم الطبي في الولايات المتحدة وكندا » لابراهام فلكستر ، فأثار ضجة كبرى اذ اثبت فيه المؤلف أن ١١٥ مدرسة طبية في أمريكا ليس بينها الا ست فقط تزود الطلبة بمعلومات تكاد تقرب مما يكفي لدراسة الطب ، ولم يكن في اكثر هذه المدارس شيء من المعامل أو العيادات الطبية أو غيرها من لوازم المستشفيات ، وكانت الاشتراطات المطلوبة لدخول الكليات تافهة الى حد بدا معه ان في استطاعة اى انسان ان يصبح طبيبا • وقال فلكستر ان ٥٠ مدرسة طبية لم تكن تتطلب للالتحاق بها اكثر من شهادة مدرسة ثانوية او مايعادلها ، و٨٩ أخرى لاتطلب الا مجرد مبادىء التعليم الاولى !

وقرأ جيتس الكتاب ،فأسرع بدعوة المؤلف الى مكتبه ، وسأله : ماذا يفعل للتعليم الطبي في امريكا اذا كان معه مليون دولار ؟

فقال ابراهام فلكستر انه سيعطيه للدكتور ولش الاستاذ بجامعة جون هوبكنز •

وسر جيتس لهذا الرد ، فبعث فلكستر الى بلتمور لاستشارة ولش •

وكانت تلك الرحلة بداية تنفيذ البرنامج الذي قام به مجلس التعليم العام ومؤسسة روكفلرواحدث انقلابا في التعليم الطبي بأمريكا وتكلف ١٠٠ مليون دولار • وقال فلكستر بعد ذلك ان هذا العمل قد قفز بالطب الامريكي من الحضيض الى القمة •

***

وبدأ روكفلر الصغير بعد أن انهمك تماما في هذه المصالح الواسعة ، يمر بتطور ثقافي غير عادي ، فقد اصبح يختلط باشهر علماء امريكا ومفكريها واساتذتها ، وأصبح كثيرون منهم

اصدقاء اكثر منهم زملاء أو متعاملين .
وتغيرت حياته الخاصة أيضا ، واتسعت آفاقها بفضل زوجته «آبي» فعلى الرغم من اختلاف امزجتهما وثقافتهما واهتمامهما ، فقد ارتبط الاثنان بحب عميق واحترام متبادل ، وان كانت آبي لم تفقد شيئا من روحها واستقلالها ووسائلها الخاصة .
وفي خلال المدة من ١٩٠٣ الى ١٩١٥ رزق روكفلر الصغير بستة اطفال ، هم ابنته الكبرى « آبي » وهي الآن مسز مورجان موزيه ، والباقون من الذكور وهم جون الثالث ونلسون ولورانس وونثروب وديفيد ..

ومع انه صمم على أن ينقل الى ابنائه ذلك التراث العجيب الذي آل اليه عن ابيه، تراث الحب والزمالة والمقاييس العليا للشرف والكرامة ، الا انه ادرك ان الزمن قد تغير ، وان بعض نواحي النظام القاسي الذي نشأ في ظله لم تعد تصلح للاستعمال الآن . وكان يترك مثل هذه الامور لحكمة زوجته وحصافتها، وقد تكفلت هي ببث روح البهجة في جيل روكفلر الجديد ، وعلمت أطفالها مثل زوجها العليا ، وشجعتهم على الاهتمام حتى بالتفاصيل التي كانت غريبة على طبيعتها ، فقالت : لاتنسوا تدوين حساباتكم ، فان والدكم يريد مراجعتها بنفسه !

***

ان ادارة الشركة الوحيدة التي احتفظ بها روكفلر جعلته ينغمس بعد ذلك فيما عده اهم حلقات حياته . ففي عام ١٩١٣ اضرب ثلاثة آلاف عامل من عمال مناجم الفحم في جنوب كلورادو وشمل الاضراب ٢٠ شركة كانت أكبرها شركة كلورادو التي كان روكفلر اكبر مساهميها ، مع انها كانت تدفع اجورا اعلى من أية شركة من منافساتها ، وتتيح لعمالها احوالا أطيب للعمل وفقا للوائح وزارة العمل الامريكية ، الا أن الادارة رفضت بصلابة الموافقة على الاعتراف للمعدنين باتحادهم وحق الاتجار في محال أخرى غير الشركة ، وغير ذلك من المظالم الاخرى الخاصة بالاجور وساعات العمل . وبعد أن استمر الاضراب الصاخب ستة اشهر ، اجرى تحقيق بوساطة الكونجرس الامريكي وعندما استدعى روكفلر الصغير كشاهد ، دافع بحرارة عن موقف الشركة ، وان كان قد اعترف بانه لايعرف الا القليل عن سياستها العمالية واحوال العمل فيها .
وازداد الاضراب الذي دام ١٥

شهرا حرارة وعنفا • وفى ٢٠ ابريل نشبت معركة بين ٣٥ من رجال بوليس الولاية وبعض عمال المناجم المسلحين عند (لودلاو) قتل خـلالها كثيرون من العمال ، كما اكتشف فى اليـــوم التالى ان ١١ طفلا وسيـــدتين ماتوا اختنـــاقا فى كهف كانوا قد سعـوا للالتجـــاء اليــه من نيـران المدافع الرشاشة •

هــذه الفاجعة التى عـرفت باسم (مذبحة لودلاو) أثارت استـنكارا واسع المدى ، وجعلت اسم روكفلر موضع استنكار فى أمريكا كلها •

وشرع روكفلر الصغير الذى أحس بعداء العمال وعزلته عن الرأى العام الامريكى يبحث عن الأســـــباب الرئيسية للاضراب ، فعهد بذلك الى القسم الخاص بالابحاث الاقتصـــادية فى مؤسســـة روكفلر الذى يرأســه ماكنزى كنج ـ وقد أصبح فيما بعــد رئيسا لوزراء كندا ـ وتحت ارشادات كنج ، أدرك روكفلر سريعـــا موطن الداء ، فعمل على علاجه ، وبعد انتهاء الاضراب الذى استمر بعد مذبحـــة (لودلاو) ٨ أشهر أخرى، قام روكفلر بزيارة لمناجم الشركة الثمانية عشر استغرقت أســـبوعين زار خلالها معسكرات العمال وهبط الى المنـــاجم وتحدث الى المئات من العمال محـــاولا الوصول الى أعماق مظالمهم ، ثم عقد اجتمـاعا مشتركا لمنـــدوبى الموظفين والمستخدمين والعمال اقترح فيـــه مشروعا لتمثيل العمال ينتخب طبقا له مندوب عن كل ١٥٠ رجلا ، ويجرى تحقيــق دقيــق فى كل مظلمة ، مع حماية المستخدم من كل ايذاء يمسه من رؤســـــائه المباشرين • ووافقت أغلبية العمال على المشروع بعــد أن فاز روكفلر بثقتهم باخلاص وصدق توجيهاته وأطلق على هـذا المشروع اسم (فكرة كلورادو) وسرعان ما حذت أغلب الشركات الصـــــناعية الامريكية الهامة حذوه فى خـــــلال السنوات التالية ، وقد اهتم روكفلر بتغـذية المشروع وكرس كثـيرا من تفكيره وطاقته لمشاكل صيانة السلام فى أوساط الصناعة وحماية حقوق العمال ، وكان وقوف ابن أغنى رجل فى العالم فى صف المضربين من العمال فى احدى شركاته حدثا يجعل العالم كله ينصت اليه فى اعجاب •

***

فى عام ١٩٢٨ تقدم « أوتو كاهن » مدير الاوبرا السابق الى روكفلر باقتراح غـير عادى : قـال ان دار الاوبرا متروبوليتان فى نيـــويورك

أصبحت عتيقة وفى مكان غير مناسب وقد استنفدت أغراضها ، ولابد من بناء أوبرا جديدة وسط نيويورك ، وطلب معاونة روكفلر لتنفيذ هـذا المشروع •

ورأى روكفلر فى الاقتراح فرصة كبرى لتحسين أمور المدينة ، فقرر أن يمضى فى تنفيذه ، ورغم المشاق التى واجهت المشروع ، ولاسيما الازمة الاقتصادية التى مرت بأمريكا والعالم فى سنة ١٩٣٠ ، فقد أقدم روكفلر على تنفيذه بجرأة بالغة ، وتعاقد مع جامعة كولومبيا على استئجار الارض اللازمة للمشروع بايجار سنوى قدره ثلاثة ملايين و ٣٠٠ ألف دولار ماعدا الضرائب ، وساهمت شركات الاذاعة فى المشروع الذى أطلق عليه اسم « راديو سيتى » أولا ثم مركز روكفلر فى النهاية • وجاء المشروع آية فى الروعة والفخامة ، فقد كان عبارة عن مجمع ضخم يضم ١٤ طابقا فيماعدا المسارح • وهو الآن من أكبر المراكز التجارية والثقافية والمسرحية فى أمريكا ، وقد كلفته هذه المغامرة ١٢٥ مليون جنيه !

كان روكفلر الكبير يثق ثقة تامة فى شخصية ابنه وقدرته على استغلال ثروته الضخمة لخير الجنس البشرى ، وقد ظل يغمره بهباته حتى استقر عبء الثروة الكبرى فى النهاية على عاتق روكفلر الصغير وقد قال روكفلر الاب فى عام ١٩٣٠ بعد أن رأى بعينى رأسه كيف نفذ ابنه الجانب الاكبر من فكرة جيتس: « ان ثروتى الكبرى فى الحياة هى ابنى ! » •

***

ان المؤسسات الضخمة التى انشئت وانفق عليها بفضل سخاء روكفلر وكرمه ، تقوم بخدمة البشرية فى ٩٣ دولة ، وتساعد على مكافحة الامراض ، وتقدم التعليم الاولى والعالى ، وتوسع الآفاق فى كل فرع من فروع المعرفة ، كالطب وعلوم الاحياء والطبيعيات وعلم النفس وعلوم الاجتماع والفنون ، ومع أن الاثر الفعال لاعمال روكفلر الخيرية قد عزى لعوامل كثيرة ، الا أن هناك حكمة خاصة تكمن وراءها كلها ، وتعكس شخصية روكفلر الاب ، فقد منح الرجل كل تبرعاته بحذق وحرص ، وبعد دراسة دقيقة لجدارة المشروع بالهبة • ولكنه بمجرد تبرعه ، لم يكن يحاول السيطرة أو التدخل بنفوذه فى العمل •

كان يقول لابنه: « جون •• ان لدينا

المال ، ولكن لن تكون له قيمـــة للبشرية ما لم نجد رجالا أكفاء ذوى آراء وقدرة على التخيل،وشجاعة فى استخدامه استخداما منتجا » •

وقد كرس روكفلر الصغير حياته للعثور على هؤلاء الرجال •

وفى ٢٣ مايو ١٩٣٧ مات جـون دافيسون روكفلر الكبير بعد ان بلغ الثامنة والتسعين فى قصره الشتوى على شاطىء أورموند بفلوريدا •

وفى سن الخامسة والستين ، كان روكفلر الصغير يعيش حياة مزدحمة زاخرة بمختلف الاعمال ، كانت لديه عشرات من المشروعات ، يعالجها كلها بحماسة وعمل شـاق وتركيز ذهنى دقيق واستغرقت أعماله كل وقته ، وساهم فى مشروعات جديدة ضخمـة كانشـــاء المستشفيات والكليـــات والمتاحف والحدائق العامة وغيرها •

وظل على الرغم من كل هذا خجولا متواضعا ، تزداد سعادته كلما جهل الناس شخصيته ، وعاملوه ببساطة دون تكلف

حدث بعد الحرب العالمية الاولى أن قام روكفلر الصغير بتمويل عمليـــة اصلاح قصر فرساى الفرنسى وعندما زار باريس فى عام ١٩٢٧ انطلـــق بسيارته الى فرساى لمشاهدة القصر فبلغه فى الرابعة بعد الظهر وأبوابه على وشك الاغلاق ، فلم يشأ أن يعلن عن شخصيته بل عاد الى باريس فى هدوء •

وعرفت القصة بعد ذلك ،فصدرت صحف باريس كلها تشيد بالحادث فى صفحاتها الاولى : المليونير الامريكى الذى تبرع بمليونى دولار لاصـــلاح القصر ، ثم رفض أن يطالب بالدخول بعد الموعد أو يحتج بكلمة واحدة !

ومع أنه طوال حياته من أنصـــار السلام المتحمسين ، فانه انهمك فى العمل لكسب الحرب بعد حادث بيرل هاربور فى عام ١٩٤١ ، والتحـــق أولاده الخمسة بالقوات المسلحـــة الامريكية ، نلسون منسقا للشئـــون الداخلية ، وجون ولورانس بالبحرية، وونثروب وديفيـــد بالجيش ، وكان روكفلر وزوجته ينفقان الساعات فى مطالعة أخبار الصحف والكتـــابة لابنائهما والاستماع للراديو لمعـرفة أنباء القتال فى المعارك التى يشترك فيها الاولاد •

وانتهت الحرب ، وعاد الابناء الخمسة الى وطنهم فى سلام • وفى ربيـــع ١٩٤٦ كان أطفالهما الستة وأحفادهما السبعة عشر يحيطون بهما •

ويساهم أولاد روكفلر الآن فى

أعمال مؤسسات الاسرة الخيرية ، فجون يرأس مجلس ادارة مؤسسة روكفلر ، ونلسون يدير مركز روكفلر ، ولورنس يدير المركز التذكارى لمكافحة السرطان بنيويورك وديفيد يرأس معهد روكفلر ، بينما يقوم ونثروب بمسئوليات أبيه فى وليامز برج

وفى نهاية عام ١٩٤٦ سمع الابن الاكبر نلسون أن الامم المتحدة فى مأزق لانها لم تعثر على أرض مناسبة لاقامة مقرها فى نيويورك ، وأن ولاية فيلادلفيا تعرض تقديم الارض المطلوبة . فاقترح على أبيه اهداء قطعة أرض للامم المتحدة ، ووافق الاب فورا ، كما وافق الاخوة جميعا ، وقدمت الاسرة أرضا يتراوح ثمنها بين ٨ ، ٩ ملايين دولار هدية للمنظمة العالمية مما استأهل معه شكر العالم بأسره .

وفى ربيع عام ١٩٤٨ ، رحلت آبى الدريتش روكفلر عن العالم فى قصر الاسرة فى بوكانتيكوهيلز ، وتركت وفاتها فراغا كبيرا فى حياة زوجها ، الذى أحس بالعزلة والالم ، فعاد الى عمله يغرق فيه أحزانه

وبعد ثلاث سنوات ، عادت السعادة الى حياته مرة واحدة ، عندما تزوج مارى بيرد ألين أرملة صديقه القديم ارثر الين ، وهى عازفة بيانو موهوبة ، أعادت لحياته الزمالة التى كان يفتقدها ، وجددت حبه القديم للموسيقى .

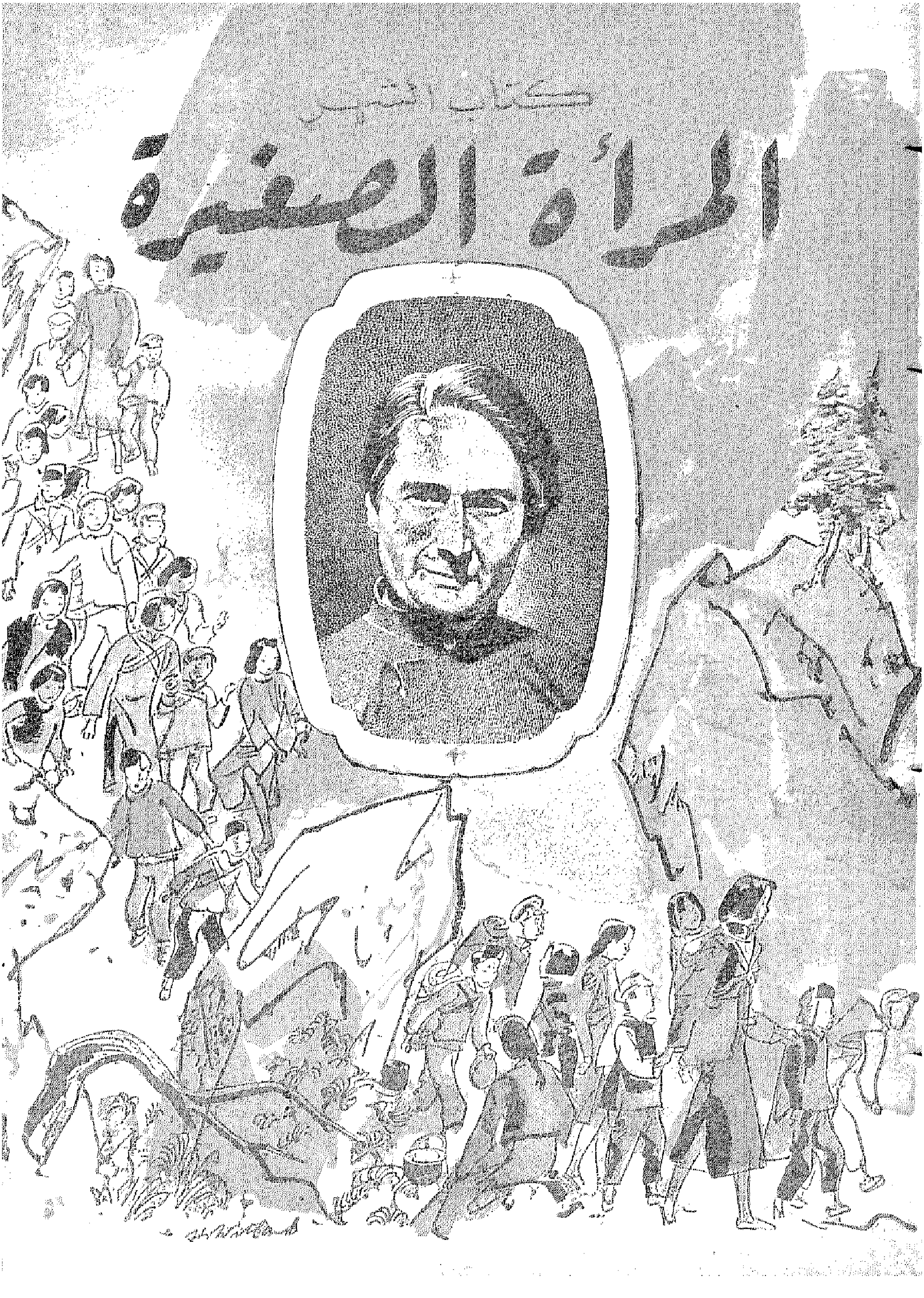
ولا يزال جون روكفلر الصغير حتى اليوم ــ بعد أن جاوز الثالثة والثمانين ــ يعيش سعيدا فى مرحلة أخرى من حياته . بعد أن أسدى الى العالم كثيرا من الايادى التى لا تنسى .

الامر الذى يهم

على رأس الخطابات التى تبعث بصفة دورية الى مديرى فروع احدى الشركات طبعت هذه العبارة :

أن تنظر .. هذا شىء
وأن ترى ما نظرت اليه .. هذا شىء آخر
وأن تفهم ما رأيته .. هذا شىء ثالث
وأن تتعلم مما فهمته .. هذا شىء يختلف تماما
ولكن أن تتصرف بناء على ما تعلمته .. فهذا هو الامر الذى يهم حقا ..

(مالكولم ماك فير)


كتاب الشهر
المرأة الصغيرة

المرأة الصغيرة

عن كتاب

THE SMALL WOMEN

بقلم الان بيرجس

كانت قصة هذه المراة الصغيرة سببا فى حيرة واهتمام كبير الاطباء بمستشفى « سيان » ... لم يكن هناك شك فى انها تحتضر ، أما من هى ، فلا أحد يعرف

لقد أحضرها اثنان من الفلاحين المجهولين ، والقيا بها أمام البوابة الامامية لمستشفى البعثةالاسكندنافية المتحالفة ، فى ذلك اليوم من خريف عام ١٩٤١ ، بعد انانزلاها من مؤخرة عربة يجرها ثور ، كأنما هى عروس صغيرة مصنوعة من الخرق البالية .

وعندما قام كبير الاطباء بفحصها ، شاهد على جسدها الضامر النحيل ندبة جرح حديث من طلق نارى ، كما كانت تعانى من رضوض داخلية شديدة . والتهاب رئوى ، فضلا عن وجود آثار تدل على سابق اصابتها بمرض من الامراض الخطيرة الرهيبة ، مرض التيفوس !

كانت فى حالة هذيان بالغ ، وقد تجاوزت حرارتها ٤٠ درجة مئوية . وبعد خمسة عشر يوما من العلاج ، كانت المراة الصغيرة لا تزال تعانى حالة ارتباك عقلى ، وبدا كأنها تثقل الخطى على عتبة الموت ، فى انتظار فتح الباب الاخير المؤدى اليه ! . .

فى ذلك الحين ، كان اليابانيون قد شرعوا يمطرون مدينة (سيان) بقنابلهم . وقد وقف كبير الاطباء ، يرقب جسد مريضته الهزيل ، وهو يهتز فى ألم ، كلما دوى صوت احدى القنابل ، وهز انفجارها جدران الغرفة

كان جسدها يتفصد عرقا باردا ، وتقلصات الألم تعبر صفحة وجهها ، وتحركت شفتاها تهمس قائلة : اين اطفالى ..؟ سيقتلنا اليابانيون .

وكبرت الهمسات حتى أصبحت صراخا ، ثم انخرطت فجأة فى حديث باللغة الصينية الخشنة ، التى قال

البعض انها اللهجة السائدة فى احدى المناطق الجبلية التى تقع بعيدا نحو الشمال .. وانقضت نوبة الهذيان ، وبدت بسمة شاحبة على وجهها،بينما انحنى الطبيب فوقها ، يقول بلهجة رقيقة : لا تخافى ..

تخاف ! .. انها تستطيع أن تؤكد له ان الخوف امر لم يعد يهمها قط .

لقد أصابها الرعب عندما نامت فوق الجليد بين اشجار الصنوبر الروسية المظلمة ، وارتعشت عندماطاردهارجل غريب فى غرفة الفندق الذىنزلت به فى فلاديفيوستك ، وخافت عندما انهالت عليهارصاصات الجنود اليابانيين من انحاء المقابر .

وعاد الطبيب يهمس فى أذنها :

ــ ما اسمك ؟ ومن أين أتيت ؟

عجبا ... أن كل انسان يعرف اسمها بالصينية وهو « ايه ــ ويه ــ ديه » أو العفيفة ، ولكنهم لا يريدون هذا الاسم الصينى ،بل مجرد اسمها الانجليزى

كان يبدو انه سؤال سخيف ، فلا ريب أنهم يعرفون ان اسمها الاصلى هو جلاديس آيلوارد وانها ولدت فى لندن .

وعادت بها الذاكرة القهقرى عبر السنين

انها تذكر اليوم الذى اصدرت فيه قرارها العظيم وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، كانت يومهـا مجرد خادم لم تتلق نصيبا كبيرا من العلم ، ومع ذلك فقد قررت أنترحل الى الصين وكان عليها أن تعتمد على مواردها الخاصة ، وانتدخرمنمرتبها الضئيل اجر السفر فى هذه الرحلة الطويلة ..

كانت يومئذ تعمل فى خدمة السير فرنسيس يونجهاسبندالرحالةالشهير، ولعل وجودها فى هذا المنزل هو الذى الهب مشاعرها للسفر الى الصين .

ولم يكن كيس نقودها يومأصدرت قرارها هذا يحتوى على أكثرمندراهم معدودة ، ومع ذلك ، فقد صممتعلى أن تحقق حلمها الاكبر .

وضحكت جلاديس ، عندماتذكرت مقابلتها الاولى مع ذلك الكاتبالعجوز الذى يعمل فى وكالة السفر التىذهبت اليها . انه لم يسمع قط طوال عمله فى مكاتب السياحة بمثل هذا الطلب العجيب . وعلى الرغم منذلك ، فقد راح الرجل يشرح لها فى صبربالغ كيف ان ارخص طريق للوصول الى الصين، هو عن طريق روسيا الى تينتسين عبر سكة حديد سيبيريا . وقال انه لا يتكلف سوى ٤٧ جنيهـا ونصف

جنيه ، ولكن من المستحيل استخدام هذا الطريق الآن بسبب الحرب غير الرسمية بين روسيا والصين

ولكنها قالت بكل هدوء :

ـ اننى لا أعبأ بهذه الحرب القديمة السخيفة . انه أرخص طريق أليس كذلك ؟ هذا هو كل ما أريد ، فاذا تكرمت بحجز مكان لى للسـفر ، فسأعطيك الآن هذه الجنيهات الثلاثة على الحساب ، وسأدفع الباقى أقساطا أسبوعية قدر استطاعتى .

فقال الكاتب العجوز وهو ينتقى الفاظه بعناية تامة .

ـ سيدتى ، اننا لا نحب أن نسلم زبائننا جثثا هامدة ! ..

ولكنها قالت فى اصرار : انهم لن يؤذوننى فانا سيدة . وعلى أية حال ، فاننى على ثقة من أن الحرب ستكون قد انتهت عندما أجمع بقية النقود .

وشملها الكاتب العجوز بنظرات فاحصة . ثم أسلم أمره الى الله ، ومد يده فالتقط الجنيهات الثلاثة .

***

لم تكن هى نفسها تدرى ماذا تستطيع أن تفعل فى الصين بعد أن تصل اليها خاوية الوفاض لا تعرف كلمة واحدة من لغتها ، ولكنها قررت أن تقوم هناك بأى عمل نافع لخدمة هذا الشعب المسكين .

وساعدها الحظ عندما سمعت من صديقة لها ، أن سيدة عجوزا تدعى مسز جنى لاوسون تعيش فى الصين ، نشرت اعلانا فى الصحف تطلب سيدة شابة لمساعدتها ومواصلة عملها بعد موتها .

وأسرعت تكتب للسيدة العجوز تعرض استعدادها للقيام بهذه المهمة . ومنذ ذلك الحين ، ضاعفت جهودها لتوفير النقود لدفع بقية ثمن تذكرة السفر .

كانت تقوم بعمل أى شىء فى المنزل لتزيد من مكافاتها ، وطافت بمكاتب التخديم لتحصل على أى عمل اضافى فى أيام عطلتها الاسبوعية .

وأصبح الكاتب العجوز « معرفة قديمة » ، بعد ان اعتاد رؤية هذه السيدة الملتهبة حماسة ، التى تظهر أمام مكتبه كل صباح جمعة بلاانقطاع ، تاركة له قروشا ضئيلة فى كل مرة ، حتى استطاعت فى النهاية أن تسدد ثمن التذكرة .

وفى ذات صباح ، وصلها خطاب يحمل طوابع بريد زاهية الالوان . وكانت الطوابع من الصين وقالت مسز لاوسون فى خطابها انها ترحب بها اذا قدمت الى تينتسين على نفقتها متى

شاءت ، وهناك ستجد رسولا يقودها الى أى مكان تكون فيه وقتئذ .

***

وفى يوم السبت ١٨ أكتوبر ١٩٣٠ ، كانت الرحالة جلاديس آيلوارد تقف على رصيف محطة ليفربول فى انتظار الرحيل عن انجلترا ، وهى لا تحمل فى جيوبها أكثر من أربعة بنسات نقدا ، وشيكا سياحيا بمبلغ جنيهين . وقد خاطت المبلغ بعناية فى ثيابها الداخلية ، ظنا منها أن أحدا لا يجرؤ على الوصول الى مثل هذا المكان ، وأخذت معهـا معطفا قديما من الفراء أحالته الى قطعة من السجاد ، وحقيبتين ، احتـوت احداهما على ملابسها ، والاخرى على تشكيلة عجيبة من علب اللحـــوم والاسماك والخضر المحفوظة ، وقطع البسكويت والشـاى والبن والبيض المسلوق وموقد يعمل بالكحول .

وقبعت جلاديس داخل سجادتهـا السميكة ، بينما راحت القطـارات المختلفة تهتز بها متنقلة عبر القارة ، مارة بالمانيا وبولندا وروسيا ، حتى بلغت سيبيريا بعد عشرة أيام ، وهناك واجهها الرعب الاول ، عنـدما بدا الجنود يحتشدون داخل القطار ، حتى اذا بلغ محطة (شـيتا) أخليت كل العربات من المدنيين ، ولكن جلاديس رفضت مبارحته .

وانطلق القطار الى الامام ، ثم توقف بعد بضع ساعات مرة أخرى فى محطة صغيرة وغادره الجنود ، واختفوا فى الظلام ، وأطفئت أنوار القطار ، بينما كانت جلاديس هى الراكبة الوحيدة فيه .

ووسط البرد القـاتل الذى كان يحيط بها ، دوى فى أسماعها صوت لم نسمع مثله من قبل ، وان استطاعت أن تحدس ماذا يكون . أن صـوت نيران المدفع الرهيب يؤكد لها انه نذير بالشر ، وشاهدت أضـواء تلتمع فى السماء من بعيد .

وأدركت فى خجـل أن كاتب وكالة السفر العجوز كان على حق فيمـا قاله لها .

واستطاع سائق القطار فى النهاية أن يقنعها بأن أملها الوحيد هو أن تعود أدراجها سائرة الى جوار القضبـان الحديدية حتى بلدة (شيتا)

وهكذا انطلقت تدب وسط الليل البهيم ، وريح سيبريا الموحشة تهيل الجليد فى أعقابها ، وقد لفت قطعـة السجاد حول كتفيها ، وحملت حقيبتيها الثقيلتين فى يديها ، وراح ظلها يهتز بين أشجار الصنوبر الباسقة والسـماء الحالكة السواد التى ترصعها النجوم

وبعـد ان بلغ بها البرد والارهاق

مبلغه ، جلست فوق القضيب الحديدى البارد ، وأشعلت موقدها الصغير ، وصنعت قدحا من القهوة ، ثم أكلت قطعتين من البسكويت، وأخيرا أوقفت الحقيبتين على جانبيهما ، ولفت نفسها لفا محكما داخل المعطف القديم ، ثم رقدت بينهما لتنام وأصوات الذئاب تعوى من بعيد .

وجاءها الفجر الشاحب يضىء الجبال من حولها ، فاستيقظت وقد تجمدت أطرافها من البرد ولكنها ما لبثت أن انتعشت من جديد .

وصنعت لنفسها قدحا من القهوة وأكلت قطعة من الخبز الجاف ، ثم جمعت حاجاتها ، وانطلقت تواصل رحلتها . ومرت عليها الليلة التالية فى تعب وبرد قارس ، حتى وصلت فى النهاية الى محطة شيتا ، وكان الظلام قد أرخى سدوله ، فألقت بحقيبتيها على الارض ، وألقت بنفسها فوقهما حيث امضت الليلة نائمة .

وفى الصباح التالى ، ركبت جلادبس قطارا آخر ، انطلق يقطع بها صحراء سيبريا الشاسعة ، حتى بلغ فى النهاية ميناء « فلاديفوستك » على شواطىء المحيط الباسيفيكى .

وعلى جدران تلك المحطة وقع بصرها على اعلان عن فندق سياحى، فانطلقت اليه . وبينما كان كاتب الفندق يقيد اسمها ، كان هناك رجل قصير سمين ذو وجه منغولى ، يفحص جواز سفرها ثم وضعه فى جيبه ، وأدركت جلاديس أن لهذا الرجل صلة بالبوليس

وفى صباح اليوم التالى ، بينما كانت تسير فى الردهة ، أحست فجأة أن أحدا يسير وراءها ، فالتفتت خلفها لترى فتاة ساحرة الوجه ترتدى ثيابا نظيفة ، همست فى اذنها بلغة انجليزية .

ـ أنك فى خطر ، اذا لم ترحلى الآن فلن ترحلى أبدا ، انهم يبحثون عن عمال مهرة ويستطيعون ارسالك الى أواسط سيبيريا ، حيث تختفى كل أخبارك .

وسألتها جلاديس : وماذا أستطيع أن أعمل !

ـ البسى ثيابك وجهزى متاعك ، وستسمعين عند منتصف الليل دقا على بابك فافتحيه واتبعى الرجل الذى تجدينه أمامك ، هل فهمت ؟

فحنت جلاديس رأسها فى ضعف ، ثم عادت الى غرفتها ، ومرت برجل البوليس الذى كان يجلس فى مقعد مهتز وهو يدخن سيجارا ضخما ، فقالت له :

ـ أرجوك أن تعيد لى جواز سفرى

فأخرج سيجارته من بين شفتيه

ثم نفث دخانها الكثيف ، وقال :
ـ انه لا يزال تحت الفحص ، وسوف أعيده لك فى المساء .

***

فى تلك الليلة جلست جلاديس فى غرفتها الباردة بعد أن تناولت عشاءها من البسكويت والسمك المحفوظ ، وسمعت دقا على باب الغرفة ، ففتحته فاذا بها ترى رجل البوليس يبتسم وهو يلوح لهـا بجواز سفرها فى احدى يديه ، ولكنها احست بالخوف منه ، فأسرعت تجذب الجواز منه ولكنه أجبرها على أن تفتح الباب ثم خطا الى الداخل وعلى شفتيه بسمة ساخرة خبيثة ؟

وقالت فى خوف : اياك ان تجرؤ على الدخول هنا .

ولكنه دخل وراح يجول بعينيه فيها ، وفى كل ما بالغرفة ، ثم انصرف بعد قليل

وهرعت عبر الغرفة ، فالتقطت جواز سفرها وأخذت تقلب صفحاته بسرعة ، وارتعشت اصابعها خوفا وهى ترى كيف انهم غيروا وظيفتها فى الجواز ، فجعلوها عاملة فى احد المصانع !

واسرعت تجمع اشياءها ، ثم جلست فوق الفراش تنتظر موعد نصف الليل ، وهى تبتهل الى الله من اعماق قلبها !

***

كانت الطرقات على الباب رقيقة حتى أنها لم تسمعها الا بمشقة . ووجدت رجلا غريبا يشير اليها أن تخرج ، ثم أمسك الباب ريثما خرجت بحقيبتيها ، وتبعته هى عبر الردهة ، حتى خرجا الى الطريق ، وهب هواء الليل البارد على وجهيهما !

وانطلقا فى الطريق المظلم نحو البحر .. وعلى مقربة من أرصفة الميناء ، برز من بين الاكوام المكدسة ، شبح تبينت فيه الفتاة التى انذرتها فى الفندق ، فأسرعت اليها وهى تتنهد من أعماق قلبها

وقالت الفتاة وهى تشير نحو الماء :
ـ أترين هذه السفينة ؟ انها ستقلع الى اليابان فى الفجر ، ويجب ان ترحلى على ظهرها .

فقالت فى ارتباك : اليابان ! ولكن ليس معى نقود !

فقاطعتها الفتاة قائلة : ستجدين ربان السفينة فى ذلك الكوخ الصغير ، فاشرحى له الامر ، ولكن يجب أن ترحلى على هذه السفينة .

وتأثر القبطان اليابانى بقصتها وظروفها ، فوافق على أن يصحبها معه بلا مقابل .. وبعد ست ساعات أقلعت

السفينة الى المحيط .

ونظرت جلاديس وراءها الى فلاديفوستك بعينين أضناهما التعب . ثم قالت تسائل نفسها :

ـ ترى من هؤلاء الذين ساعدوها .

وظل هذا الامر لغزا خالدا يحير ماضيها !

***

بعد أسبوع ، وقفت جلاديس على ظهر سفينة يابانية أخرى متجهة غربا نحو الصين . وفى اليوم التالى ، هبطت أخيرا فى الارض التى ظلت تحلم منذ سنين بالوصول اليها . ولكن رحلتها لم تكن قد انتهت ، ففى تينتسين ، أبلغوها أن مسز لاوسون موجودة الآن فى « يانج تشنج » بأقليم شانسى الذى يقع فى شمال الصين .

كانت الرحلة شاقة تستغرق بضعة أسابيع ، وقد رافقها خلالها دليل صينى شاب ، سافر معها أولا الى بكين ، ومنها استقل قطارا آخر حتى نهاية الخط الحديدى فى بوتزى ، حيث واصلا رحلتهما فى مجموعة من سيارات الاتوبيس العتيقة . وبعد شهر كامل وصلا الى « تشيكو » حيث أبدلت ثيابها ، وارتدت ثوب فلاحة صينية ، ثم امتطت صهوة بغل .

وبعد مسيرة يومين آخرين ، أوقف قائد البغال دوابه ، واشار بأصابع ترتعش قائلا :

ـ هذه يانج تشنج !

ويانج تشنج هذه أشبه بجزيرة صغيرة لا تزال تعيش فى حضارة عصر كونفوشيوس ، تقف فوق ذروتها الجبلية العالية كقلعة فى قصة خرافية ، وجدرانها الصخرية العالية تبدو كأنها أسنان برزت من الفك ، بينما زادها منظر المعابد والبيوت الصينية القديمة التى تبدو فوقها غموضا فوق غموض .

والتقت جلاديس هناك بسيدة عجوز صغيرة الجسم ، ذات شعر ناصع البياض ، قدمت لها نفسها على انها مسز لاوسون . وبعد أن رحبت بها ، راحت تطلعها على المنزل الذى تقيم فيه ، وأخذت تتنقل معها من غرفة الى أخرى ، وكانت كلها غرفا قذرة متخربة ، ليس بينها ما يصلح للسكنى غير غرفة واحدة تحتوى على مائدة ومقعدين .

ونادت مسز لاوسون شخصا باللغة الصينية ، فأسرع اليها عجوز صينى يدعى يانج ، قالت انه الطاهى ، وكان يحمل فى يده أناء كبيرا به بعض الخضر والطعام المسلوق ، فاكلت جلاديس بوخشينة ! وخرجت بعد الأكل لتحضر حاجاتها من فوق البغل ، فشاهدها

فريق من الاطفال ، ففروا صائحين، بينما أمسكت امرأتان بقطع من الطين الجاف وقذفتاها بها ، فأسرعت عائدة الى مسز لاوسون وأخبرتها بما حدث، فقالت المرأة العجوز بهدوء .

ـ هذا يحدث لى فى كل مرة أخرج فيها الى الطريق ، وغالبـــا ما أعود والقذارة تغمرنى . انهم يكرهوننـــا هنا ، ويطلقون علينا اسم «الشياطين الاجانب » . . . فعليك أن تعتـادى ذلك .

واخذت مســز لاوسون تشرح لها مركزها المالى ، فقالت ان لديها دخلا صغيرا تنفق منه ، وانها دفعت أجر المنزل لمدة سنة مقدما . أما الطعـام المكون من القمح والذرة والخضر فلا يكلفهما الا قليلا .

وفكرت المرأتان فى طريقة تقدمان بها خدماتهما لهؤلاء الصينيين الذين يحاولون دائما الابتعاد عنهما ، وأخيرا استقر رأيهما على حل ، وهما ترقبان قافلة من البغال تمر أمامهما . .

وقالت جلاديس :

ـ لو أمكننا فقط أن نتحدث الى سائقى البغال ، فانهم سوف يحملون رسالتنا مئات الاميال عبر الاقاليم التى يمرون بها

وهكذا قررت السيدتان أن تفتتحا فندقا صغيرا .

كان المنزل يحتوى على غرف كثيرة، كما كان لديهما طاه بارع ، وسرعان ما أصلحت الغرف المتهدمة والاسقف، ونظف الفناء الكبير ، وخزنت كميات كبيرة من الاذرة والقمـــح والخضر وأطلقت مسز لاوسون على المكان اسم « فندق الثمانى سعادات » ، وهى الحب والفضيلة والرقة والتسامح ، والاخلاص ، والصدق والجمال والولاء

وتصاعدت رائحة الطعام الطيب من الفندق ، بينما جلست المرأتان تنتظران الزبائن دون جدوى ، فقد كان سائقو البغال يتزاحمون على بقية الفنادق ، ويبتعدون عن فندق « الشـــياطين الاجانب » !

ولم تجد جلاديس فى النهاية بدا من الوقوف أمام باب الفندق حتى اذا ما اقتربت منها احدى القوافل ، جذبت زمام البغل الاول نحو الفناء ، فتبعته بقية القافلة فى ثوان معدودة !

وتكررت هذه المحاولة ، حتى امتلأ الفنـــدق بالنزلاء . وظلت جلاديس تجتذب البغال وأصحابها ليلة بعـد أخرى ، حتى ذاعت شهرة فندقهما فى المنطقة .

وتعلمت جلاديس اللغـة الصينية من الطاهى « يانج » فى سرعة وبراعة،

حتى استطاعت أن تقص بها القصص لنزلاء الفندق ، وفى خلال السنوات التالية استطاعت أن تنطق خمس لهجات صينية مختلفة من اللهجات السائدة فى أقليم (شانس) .

وكانت الخبرة التى اكتسبتها جلاديس خلال اعوام قلائل عظيمة الفائدة لها ، عندما فوجئت بوفاة مسز لاوسون العجوز ، فاستطاعت أن تواصل عملها ببراعة وكفاية .

واقبل حاكم البلدة على فندقهاذات يوم فى موكبه الرسمى ، فداخلها الخوف من أمر هذه الزيارة ، ولكنها ما لبثت أن ابتهجت ، عندما أبلغها الرجل انه قرر تعيينها مفتشةمن قبله للاشراف على تنفيذ القانون الجديد الذى أصدرته الحكومة المركزية ،بمنع تقييد اقدام البنات والنساء على نحو ما كان متبعا فى الصين من قرون . وقد أكسبها هذا المنصب مهابة واحتراما فى انحاء المنطقة ، كما عين جنديان لمرافقتها أثناء طوافها فىانحاء الاقليم وسرعان ما اكتسبت حب الاهلين واعجابهم لما كانت تبديه من طيبة ورقة أثناء تنفيذ مهام منصبها، وأصبحت زيارتها للقرى تثير اهتماما كبيرا .

لقد انقضت الى غير رجعة تلك الأيام التى كان الاطفال وأمهاتهم يلقون عليها فيها الطين الجاف ، وأصبح حتى التجار يقفون أمام حوانيتهم وينحنون احتراما أثناء مرورها بهم

وفى العام التالى لاقامتها فى يانج تشنج ، بدات تؤسس لنفسها أسرة، بدأتها بتبنى طفلة هزيلة سقيمة وجدتها ترقد على حجر أمها تحت الشمس المحرقة ، فلما حاولت تقديم النصيحة الى الأم للعناية بطفلتها ، عرضت عليها الأم شراء الطفلة بدولارين . ولما لم يكن معها غيربضع قطع نحاسية فى جيبها توازى أربعة قروش ، فقد عرضت المبلغ على المرأة التى سارعت بقبوله والتنازل لها عن الطفلة !

وكانت تلك أولى الاطفال الخمسة الذين تبنتهم جلاديس بعد ذلك

***

لم يكن فى يانج تشنج من يدرك أن اليابانيين قد سيطروا فى ذلك الحين على منشوريا ، وانهم يتجهون جنوبا على طول الطرق القديمة التى عبرها الغزاة من المغول .

وهكذا عندماظهرت الطائرات الفضية الصغيرة فوق قمم الجبال فى يوم من أيام ربيع ١٩٣٨ أسرع الناس جميعا لمشاهدتها ، فان كثيرين منهم لم يكونوا

قد شاهدوا طائرة من قبل . وبعد دقائق ، تحول المكان كله الى جهنم تسودها الفوضى التى اختلطت فيها أصوات الناس بأزيز الطائرات ، وما لبثت الدنيا أن أظلمت ، وراحت القنابل تتساقط واحدة بعد الاخرى!

كانت جلاديس فى ذلك الحين تصلى فى احدى الغرف ، عندما أصابت احدى القنابل ركنا من أركان فندق « الثمانى سعادات » فقتلت تسعة أشخاص كانوا يقفون الى جواره فى الطريق وتساقطت أرضية الطابق الذى كانت تجلس فيه جلاديس ، فسقطت الى أسفل تتمرغ بين الاخشاب والاحجار والغبار ، ودفنت بين الانقاض فى الغرفة السفلى .

وبدا كأن ساعات قد مرت قبل أن يرفعوا الانقاض عن ظهرها ، بعد أن أصيبت برضوض شديدة وجروح دامية ، ومع ذلك ، فقد أسرعت تنفض عن نفسها آثار الغبار والانقاض . وأخذت تعاون فى اخراج الطاهى وبقية النزلاء من تحت الاخشاب الهاوية .

كان الذعر والاضطراب قد سادا كل مكان ، وجاء البعض ليقول أن الحالة فى المدينة مروعة فقد قتل عدد كبير من سكانها .

وقررت جلاديس أن تذهب مع من بقى سليما تقدم ما تستطيع من مساعدة .

كانت صيدليتها الصغيرة تحوى بعض القطن والمواد المطهرة ، فأسرعت تحملها وتنطلق بها الى البلدة ، وهناك رأت منظرا لم تشهد مثله فى حياتها .

كان وسط المدينة قد سحق تماما ، وجثث القتلى والجرحى ملقاة فى كل مكان ، وازدحمت الشوارع بالناس المذعورين ، والصراخ يدوى بطلب النجدة من الذين لا يزالون تحت الانقاض .

ونظمت جلاديس فرقا لرفع الانقاض وانقاذ من تحتها ، وأخرى لتطهير الشارع الرئيسى وثالثة لمساعدتها فى اسعاف الاهلين ، وراحت تضمد جروح المصابين وتطهرها بما تحمله من مواد وماء ساخن ، ثم توجهت الى مقر الحاكم ، حيث شكلت لجنة من بعض كبار الاهلين برياسة الحاكم ، وعرضت هى مقترحاتها على اللجنة فوافقت عليها .

وقال الحاكم فى قلق :

ـ هناك أنباء اخرى مزعجة . لقد بلغتنا الانباء بأن اليابانيين يتقدمون الآن صوب يانج تشنج .

فقالت جلاديس : علينا اذن الا نضيع وقتا آخر .

وبدأت فرق التطهير تقوم بعملها ، وتعاون نزلاء السجن وأصحاب البغال وأهل المدينة على رفع الانقاض من الشوارع ، ونقل الجرحى الى أحد معابد بوذا ، حيث أشرفت جلاديس على تطهير جروحهم وتضميدها وجبر كسورهم .

وتدفق الناس على القرى المنعزلة والكهوف الجبليـــة ، يحملون ما يسـتطيعون من ممتلكات . ورحل مدير السجن والمسجونون ، والحاكم وزوجاته ، حيث نزلوا قصرا منعزلا فى منطقة قريبة ، بينما ذهبت جلاديس مع أطفالها وعمالها الى قرية صغيرة تقع على جانب ذروة عالية ، تشـبه عش النسر فوق قمم الجبال ، وهناك أمضت اسبوعا ، حتى وردت أنبـاء أخرى بأن الجيش اليابانى مر بالبلدة وتجاوزها ، فعاد كثيرون من الاهلين ، وعادت جلاديس أيضا معهم ووجدت فندقها كما تركته تماما ، وكان الركن الذى حطمته القنابل لا يزال مكشوفا للسماء ، فأدركت انها يجب ألا تتوقع الكثير من العمل بعد الآن ، فقـد توقف خط البغال عن المرور بهـذه الطريق القديمة ، واختفى الطباخ يانج دون أن يبدو له أثر ... لقد ذهب السلام وبدأت الحرب !

***

فى فبراير ١٩٤٠ ، قررت جلاديس أن ترحل الى تشيكو ، لتلحق بجين ودافيد ديفيز اللذين يديران بعثـة هناك ، ولم تكد تصل الى هناك ، حتى وجدتهما يتاهبان للقيـام برحلة الى منطقة الساحل تسـتغرق شهرا ، وعرضا عليها البقاء للاشراف على نزلاء المؤسسة وعددهم مائتا طفل .

وفى الربيع تراجع اليـابانيون من تشيكو ، ودخلتها القوات الوطنيـة الصينية . وفى ذات يوم جاء الى المبنى ضابط صينى شاب ، وطلب مقـابلة جلاديس .

كان شـابا يختلف عن غيره من الرجال الذين التقت بهم خلال اقامتها فى الصين ، له شعر لامع وجبهة عالية شاحبة ، تحتها عينان سـوداوان ، تحيط بهما حواجب سوداء كثيفة ، وقال الضابط فى أدب : ان اسمه لينان وانه ضابط فى قلم مخابرات الجيش الصينى الوطنى ، وقال أن الموقف فى شانس مرتبك وانه أوفد خصيصـا ليعرف ماذا يدور فيها ، فانها منطقة حيوية للدفاع عن الصين ، ثم سالها ببساطة :

— هل تقبلين مساعدة الصين ؟

فقطبت حاجبيها وقالت :

— وكيف أستطيع أن أساعدها ؟

انكم تقاتلون فى حرب فى حين أن العمل الذى أقوم به انسانى بحت

فقال برقة : وهل يصر الله على حياده فى كل شىء ؟ .. ألا يقف ضد الشر ؟

ـ اجل ، ولكن على أية حال سوف أساعدكم بقدر ما يسمح ضميرى .

فانحنى امامها فى أدب وقال : هذا كرم منك ياسيدتى ، هل تسمحين لى بالعودة للتحدث معك فيما بعد ؟

ومر أسبوع قبل أن يعود مرة اخرى ، وفى هذه المرة ، وجه اليها كثيرا من الاسئلة ، قائلا : انه يتلهف على بناء صين أخرى أكثر قوة وحرية وخلوا من الفساد .

وقبل أن ينصرف سالها عما اذا كان يستطيع أن يراها مرة أخرى ؟

واحست بعد انصرافه بشعور عجيب يسرى فى أعماقها لاول مرة منه .

***

واتجهت نحو المرآة المحطمة التى تحتل ركنا فى غرفتها ، ووقفت تحدق فى صورتها .. كانت عيناها سوداوين كبيرتين ، وعلى الرغم من آثار الشمس المحرقة ، فقد كان جلدها محتفظا بنعومته ورقته ، ولم تنل منها الايام كثيرا ..

ودون أن تفكر ، مدت يدها فالتقطت وردة قريبة ، ودستها فى شعرها !

وتوثقت بينهما روابط الصداقة ؟ فقد كانا متقاربين فى السن ، ولكليهما ذهن متوقد وكانا يسيران فى الامسيات فى الطرق الضيقة من البلدة ، أو فى الحقول المحيطة بها ينظران الى القمر الذى يطل عليهما من وراء البيوت القديمة ذات الاسقف المائلة ..

كانا فى كل مرة يلتقيان فيها تزداد الهوة التى تفصل بينهما ضيقا ...

وقالت لنفسها : لقد كرست جهودها حقا لهدف انسانى نبيل ، ولكن الله خلقها أيضا امرأة مليئة بتيارات الطبيعة وقواها المتضاربة فى أعماق النساء ، فاذا وقعت فى الحب ، فالله هو الذى أراد ذلك

***

وأثار لينان فى أعماقها شعور الولاء لوطنها الجديد ، فأخذت تجمع له المعلومات عن القوات اليابانية وعددها ومواقعها بالضبط وأسلحتها . وأحست أنها بحصولها على هذه المعلومات انما تساعد على هزيمة عدوهما المشترك .

وعرض عليها الزواج . كان تواقا الى أن يرتبط بها بذلك الرباط المقدس ، سواء أكانت هناك حرب أم كان السلام

ولكن جلاديس قالت له :

ـ كلا ، بل يجب أن نكسب الحرب أولا . اما الزواج فهو سعادة شخصية تستطيع أن تنتظر .

ومع مقدم الربيع الجديد ، وصلت انباء عن اقتراب اليابانيين مرة أخرى، وطلب الى المدنيين اخلاء المدينة ،وكان اهتمام جلاديس الاول هو مصير المائتى طفل الذين تقوم برعايتهم ،فطمأنوها بأنهم سيطعمون ويلبسون ويقطنون بيوتا مريحة ، اذا استطاعوا أن يصلوا الى (سيان) .

وأرسلت جلاديس نصف الاطفال أولا الى سيان ، بقيادة شاب صينى. وبعد ثلاثة أسابيع سمعت جلاديس أن الاطفال وصلوا سالمين ، وأن الدليل فى طريق العودة ليذهب ببقية الاطفال. وانتظرته جلاديس طويلا ، فقد كانت الاحوال فى سوء مستمر ، ولكن الدليل لم يصل قط . فقد سقط فى أسر اليابانيين وقتل !

وفى نفس الوقت الذى كانت القوات اليابانية تشق طريقها فيه داخل المدينة، بعثت جلاديس ببقية الاطفال الى الفندق القديم فى يانج تشنج ، وقررت البقاء فى تشيكو مؤقتا ..

ولكن فى نفس الليلة التى رحل فيها الاطفال ، أرسل القائد الصينى يلح فى الرحيل فورا عن المدينة . وعندما رفضت ، بعث اليها نسخا من منشور يوزعه اليابانيون فى القرى المجاورة جاء فيه أنهم يمنحون جائزة قدرها مائة دولار لمن يدلى بمعلومات تؤدى الى اعتقال ثلاثة أشخاص أحياء أم أمواتا . وهم حاكم المدينة وأحد رجال الاعمال فيها ... أما الثالث ، فهو جلاديس آيلوارد !

وادركت حينئذ أنه لا بد لها من الفرار ، ولكنها أقدمت على ارتكاب خطأ جسيم ، فقد تسللت من البوابة الخلفية المدينة ، وراحت تجرى وسط المقابر أمام فريق من الجنود اليابانيين وعندئذ دوت الرصاصات حولها من كل مكان ، واصابتها احداها فى ظهرها فسقطت على الارض ،ولكنها عادت الى الوقوف وراحت تزحف على يديها وقدميها حتى وصلت الى الخندق الذى يحيط بالمدينة ،والقت بنفسها فيه ، فاختفت بين الحشائش التى تغمره .

كان الارهاق قد نال منها، فأغمضت عينيها قليلا لتستريح ، ولكنها مالبثت ان استغرقت فى النوم ، وعندما استيقظت كان الظلام قد أرخى سدوله، وشعرت بتحسن فى قواها فان الجرح كان سطحيا ولم ينزف كثيرا من الدماء.

وعادت تشق طريقها وسط الحقول، حتى بلغت الجبال ... وبعد يومين، كانت تسير فى طريق يانج تشنج ، حيث فندق (الثمانى سعادات)

فاستولى الفرح على الاطفال لرؤيتها معهم مرة اخرى ، فاحتشدوا حولها فى الفناء يضحكون ويمرحون ، وفى الصباح قادتهم فى رحلة طويلة شاقة استمرت بضعة أيام ناموا خلالها فى العراء ، وأوشك طعامهم على النفاد وسط المناطق الجبليـة ، حتى بلغوا مدينة « يوان كو » فوجدوا أهلهـا قد هجـروها خـوفا من اقتراب اليابانيين منهم .

وواصلوا الرحيـل مرة اخرى فى طريقهم الى سيان ، يتنقلون من قطار الى سـيارة ، وقـد حفيت اقدامهم من كثرة السير ، ومزقت الأحجـار الحادة أرجلهم

ولم تذكر جلاديس كم من الايام استغرقت الرحلة التعسة ، ولـكنها كانت تعلم فقط أنهم بداوها فى شهر مارس ، وهم الآن فى أواخر ابريل .

وفى سيان ، وجدوا أبواب المدينة مغلقة لمنع تدفق اللاجئين اليها ؛ ولكنها استطاعت أن تعهد بالاطفال الى مندوبى الحكومة الذين وعدوها بالعناية بهم ، ونقلوهم الى بلدة قريبة .

وبعد أن اطمأنت على مصير الاطفال ، سادها احساس عجيب . لم تعـد تستطيع أن تضع الطعام فى فمهـا ، وارتعشت يداها فلم تعد تستطيع التحكم فيهما ؟ . .

وتمددت فوق الفراش الخشن الذى قدموه لها ، فدارت الدنيا أمام عينيها ، وأحست بالحرارة تسرى فى كل جزء من جسمها ، وما لبث الضـوء أن تلاشى من أمامهـا ، وغابت فى ظلام دامس .

وعندما عادوا اليها بعد قليـل ، وجدوها غارقة فى بحر من الهذيان ، لم تستيقظ منـه الا فى المستشفى الاسكندنافى المتحالف .

ولم تشف جـلاديس تماما من مرضها وجراحها ، بل ظلت تنتابهـا نوبات من الجنون . وفى تلك الفترة عاد الضابط لينان الى (سـيان) وتوسل اليها ان تتزوجه وترحل معه الى تشونج كنج ، حيث عين للعمـل هناك ، ولكنها رفضت .

وحاولت بين العبرات المنهمرة من عينيها أن تقنعه بأن دورها لم ينته بعد . وأن أمامها أعمالا أخرى تنتظرها

وودعها يائسا فى مشهد أليم ، فانها لم تنس أنه الرجل الوحيد الذى احبته .

وعملت جلاديس مرة أخرى لـكى تحصل على المال للانفاق على اطفالهـا الخمسة الذين تبنتهم ، فاشـتغلت بتدريس اللغة الانجليزية ، وشاركت فى بعض الخدمات الاجتماعيـة ، ثم

ذهبت تعمل فى مستعمرة لمرضى الجذام على حدود التبت ، وهناك التقت بقس أمريكى تأثر بما شاهده من مرضها وفقرها فقرر أن يجمع لها بعض التبرعات لاعادتها الى وطنها .

هذه هى قصة المرأة الصغيرة ، التى هزت رأسها يوم ذهبت اليها أسألها عن الاحداث المثيرة التى مرت بها خلال الاعوام العشرين التى أمضتها فى الصين ، وقالت فى هدوء :

— لم يحدث لى شىء مثير يهم الناس معرفته !

مأزق !

شاهدت امرأة تقود سيارة وهى تحاول أن تدور بها الى اليسار فى شارع من الشوارع التى لا يسمح بالسير فيها الا فى اتجاه واحد . وأدت هذه المحاولة الخاطئة من جانب السيدة الى تعطيل المرور تماما . وأخيرا ظهر احد رجال البوليس وبدأ يهرول متجها ناحية المكان الذى تجلس فيه السيدة ، فوجدها عاجزة تماما عن الحركة بعد أن أوقعت نفسها فى هذا المأزق الحرج . ولكنها استطاعت أن تستفيد من فرصة الحديث قبله .. فلما اقترب منها اخرجت رأسها من النافذة وصاحت متسائلة فى غضب : وأين كنت طوال هذه المدة ؟

(ب . و)

انت !

لابد أن يكون فى السلك الدبلوماسى مكان لهذه السيدة التى أعلنت ذات يوم انها ستترك عملها فى أحد المصانع . وسألها رئيسها عن السبب ، فقالت له : لاننى لا احب المحيطين بى ..

وعاد الرئيس يلح فى السؤال : ما الذى لا يعجبك ؟

فكان الرد منها صريحا قاطعا : انت !

(م . و)

لباس البحر فى الكنيسة !

قرأت هذه اللافتة على باب احدى الكاتدرائيات بفرنسا : يرحب القسيس بكل سائح يريد الدخول . ولكنه يرى من واجبه أن يلفت نظر كل زائر الى أنه لن يجد بداخل الكاتدرائية حماما للسباحة . ومن ثم فليس من الضرورى أن تدخل الكنيسة وأنت بلباس الاستحمام .

(ذى ورد أوف جود)

كتاب الشهر

جسر إلى الشمس



جسر إلى الشمس

عن كتاب : Bridge To The Sun

بقلم جوين تيرازكى

انه الحب وحده هو القادر على صنع تلك المعجزة التى تبدو بين سطور هذا الكتاب . فقد جمع بين قلبين احدهما من اقصى الشرق والآخر من اقصى الغرب ، وربط بينهما فى احلك الاوقات ، واقسى الظروف فلم تزدهما النكبات الا قربا والتصاقا .

الحب وحده هو الذى ظل يجمع بين هذين الزوجين ، بعد ان قدر لهما ان يصبح كل منهما عدوا للوطن الذى انجب شريك حياته ، ولكنهما ابيا ان يفترقا ، وقررت الزوجة ان تقف الى جوار زوجها فى اشد الساعات قسوة مضحية فى سبيل ذلك بكل شىء ، حتى حياتها

وفى هذا الكتاب ، الذى وضعته الزوجة النادرة المثال ، نطالع صورة واقعية لما احاط بالحرب العالمية الاخيرة من مآس وفواجع ، فى بساطة وصدق ، ونرى قصة الاخلاص والوفاء اللذين لا مثيل لهما الا فى الاساطير وقصص الخيال .

بدأ يوم الاحد ٧ ديسمبر ١٩٤١ كأى يوم عادى من أيام العطلة الاسبوعية ، وكانت أمى تزورنا يومئذ ـ أناوزوجى هيدنارى تيرازاكى الموظف بوزارة الخارجية اليابانية فى مسكننا بواشنطون ، ومعنا ابنتنا ماريكو التى لم تتجاوز الربيع التاسع من عمرها .

كان يوما بهيجا ، إقترحت خلاله أن نذهب بالسيارة الى أحد المطاعم الريفية القريبة من واشنطون لنتناول العشاء . وبينما كنا نأكل فى غبطة ومرح ، سرنى أن أرى زوجى «تيرى» ـ كما كنت أناديه ـ فى فترة راحة واستجمام ، بعد أن ظل يواصل العمل أكثر من ٢٠ ساعة يوميا خلال الاسابيع الماضية ، ولكنه مالبث أن استغرق فى تفكير عميق بعد أن انتهينا من تناول العشاء .

وفى أثناء العودة ، طلب تيرى أن يتوقف عند السفارة اليابانية ليطلع على آخر البرقيات ، ولهذا أنزلنا مع أمى وماريكو عند احدى دور السينما وعدنا بعد السهرة بمفردنا ، ولكننا ماكدنا نصل الى ردهة المبنى الذى نقطن فى أحد مساكنه ، حتى أحسست فورا أن شيئا ما قد وقع ، فقد شاهدت فريقا كبيرا من الناس وقد تجمعوا هناك وهم يتحدثون فى أصوات هامسة ، وأخذوا يحدقون نحونا ، بينما قال لى موظف الاستعلامات بالعمارة :

ـ لقد طلبكم مستر تيرازاكى مرارا من السفارة ، وهو يرجو أن تتصلوا

به بمجرد عودتكم فورا •

وهرعت فى قلق الى التليفون ، حيث استطعت بعد لأى أن أتصل بسكرتيرة زوجى ، التى قالت لى :

ـ ان مستر تيرازاكى شديد القلق عليكم ، ولكنه مشغول الآن ، وسيتصل بكم مرة أخرى بعد دقائق

فسألتها : ماذا حدث ياترى ؟

فقالت : ألا تعرفين ؟ افتحى جهاز الراديو •

وألقيت سماعة التليفون من يدى، وأدرت الراديو لأستمع الى نشرة الاخبار ، وهكذا سمعت لاول مرة نبأ الهجوم اليابانى على «بيرل هاربور» لقد أصبحت الآن زوجة لاحد رعايا الاعداء !

واستبد بى الرعب والالم ، وكان أشد ماأقلقنى ، هو كيف أخفف وقع النبأ على ابنتى ماريكو ، ولاسيما بعد أن أدركت أنها أصبحت مضطرة لترك مدرستها التى تحبها •

وبعد قليل ، اتصل بى تيرى ، وأبلغنى فى صوت زاخر بالتعب والانفعال ، أن تليفونات السفارة كلها معطلة عن العمل ، وأنه لن يستطيع الاتصال بى تليفونيا مرة أخرى ، ثم أردف يقول :

ـ كونى قوية ياعزيزتى ، وودعى أمك بالنيابة عنى •

ثم أضاف قائلا فى يأس :

ـ هذا شىء مروع •• لماذا أقدموا على مثل هذا العمل الرهيب ؟•• لقد كتب الفناء على اليابان •

ورغم أن تيرى لم يتصل بى تليفونيا مرة أخرى ، فقد ظل جرس التليفون يدق بلا انقطاع طوال تلك الليلة : أصدقاء قدماء يعربون لى عن أسفهم ، ويتعهدون ببقاء حبهم وصداقتهم بغض النظر عن الحرب بين أمريكا واليابان ، وقد أقلقهم أمر « تيرى » بصفة خاصة • كانوايعلمون أنه كرس كل حياته الدبلوماسيةلبناء صداقة ثابتة، وأن الحرب تعدبالنسبة له هزيمة شخصية ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ـ ولم أكن أستطيع أن أذكر لهم ـ شيئاعن المغامرةالاخيرةاليائسة التى أقدم عليها تيرى منذ أيام قلائل لمحاولة تفادى الكارثة •

***

ورقدت فى غرفتى وحيدة تلك الليلة أحاول النوم دون جدوى • لقد ظلت ذكرى السنوات التى أمضيناهانحاول أن نقيم « جسرا » بين بلدينا الحبيبين تترى على مخيلتى •• كانت سنوات مليئة بالبهجة والامل الذى قد لايعود قط •

لقد تقابلنا منذ حوالى أحد عشر عاما ·

ففى شتاء عام ١٩٣٠ ، غادرت مدينة « جونستون » ، تلك البلدة الجبلية الصغيرة التى تقع بولاية « تنيسى » حيث نشأت وترعرعت ، لكى أزور عمتى فى واشنطون ·

ولم تمض فترة طويلة على وصولى ، حتى تلقينا دعوتين متعارضتين من سفارتين مختلفتين ، احداهما سفارة فرنسا والاخرى سفارة اليابان · واخترنا حضور حفل الاستقبال الذى أقيم بالسفارة اليابانية ، اذ رأت عمتى أنها قد تتيح لى لونا جديدا من الحفلات ·

وعندما كنا فى الصف الطويل من المستقبلين ، لاحظت شابا يابانيا مليحا يقف الى جوار السفير ديبوتشى يرقبان اقترابنا · كان يعد طويلا حتى بالنسبة للمقاييس الامريكية ، وقد وقف كالبرج الشاهق الى جوار السفير الضئيل الحجم ، والتمعت عيناه السوداوان ، ولاحظت أنه قد ثبتهما نحوى · وعندما قدم الىّ ، أدركت أن هيدنارى تيرازاكى يتحدث الانجليزية بطلاقة ، وانه أتم حديثا تخرجه فى جامعة براون ، وهو يعمل الآن مستشار البروتوكول للسفير ·

وأخبرنى تيرازاكى انه تعب من مرافقة ضيوف السفارة العجائز ، والاجابة على أسئلتهم التافهة عن بلاده ، وانتى أول شابة صغيرة أحضر حفلة يابانية منذ أسابيع وكنت يومئذ فى الثالثة والعشرين · ولما لم أكن قد التقيت بأى يابانى من قبل ، فقد وجدت نفسى أوجه اليه أسئلة لا حصر لها ، وقد بدا لى أنه لم يعدها تافهة ، لانه أخذ يجيب عليها بحماسة بالغة ·

وانصرفت يومها من دار السفارة وأنا أشعر بالاسف لمغادرتها ، ومغادرة مستر تيرازكى ! وفى اليوم التالى ، بعث لى ورودا صفراء ، ومجموعة من الكتب والصور اليابانية ، لازيد من معلوماتى عن اليابان ·

ودعته عمتى لتناول الشاى ، ثم رأيته بعد ذلك كثيرا ، حيث علمت من « تيرى » كما أصبحت أناديه ، انه درس فى جامعة طوكيو اللغة الانجليزية لرغبته فى العمل بوزارة الخارجية ، وعرفت انه يحب التفاهم بين الشعوب الى جانب حبه الشديد لليابان · وكان فضلا عن ذلك لاعب جولف ممتازا وسباحا بارعا ، ويقود سيارته بسرعة تبعث الرعب فى أعصابى ·

وعندما سألنى تيرى أن أتزوجه ، لم يكن مطلبه هذا مفاجأة لى · ومع

انه أشار الى ما قد يصادف زواجنا من عقبات بسبب عدم ادراك كثيرين من مواطنينا الامريكيين واليابانيين ، وما سوف يحيط بنا من عادات غريبة في بقاع مختلفة من العالم ، مع ذلك كله، فقد ألح على بكل قلبه ، أن تكون اجابتي بالقبول •

ولم يكن في استطاعتي أن أرد على طلبه فورا • كنت أريد أن أبقى معه ، وأكره أن أتركه لاعود الى « جونستون » ولكن هل كنت أريد الزواج منه ؟ •• ما أعجب أن يطلق على اسم جوين تيرازاكي !

وظللت أؤجل اصدار قراري ، ثم ما لبثت كل شكوكي أن تلاشت قبل أن أركب القطار عائدة الى بلدتي ، وقررت قبول عرضه •

وهكذا تحدد مصير مستقبلي •

كانت هناك مسائل لاتزال تنتظر البت فيها • كنت أريد أن يفهم أبواي موقفي وأن يوافقا على قراري ، بينما كان تيري يريد أن يحصل على موافقة شقيقه الاكبر « تارو » الذي كان يعمل يومئذ قنصلا لليابان في نيويورك ، نظرا لان أبويه كانا قد توفيا من قبل ، وأصبح شقيقه هو رأس العائلة وفقا للتقاليد اليابانية • كما كان عليه أيضا أن يحظى بموافقة وزارة الخارجية اليابانية ـ التي كانت ككل وزارة للخارجية ـ لا تنظر بارتياح الى زواج موظفيها من الاجانب ولكن هذه العقبات أزيلت كلها من الطريق واحدة بعد الاخرى، وسرعان ما تم زواجنا في واشنطون في الخريف التالي •

وبعد زواجنا بأسابيع قليلة ، استدعى تيري الى طوكيو •

كان بيتنا الاول في اليابان ، أشبه بمشرب شاي صغير ، أقيم على أراضي أسرة زوجة تارو شقيق زوجي، وقد أحسست لاول وهلة أنه شديد البرودة ، وقد حاولوا تدفئته بالفحم الملتهب في موقد قديم ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان ينقص المكان كثير من مستلزمات الراحة التي تعرفها المساكن الغربية ، ولكني أحسست ، بمرور الوقت ، أنني أصبحت أكثر اعجابا بجمال الحياة اليابانية الرقيقة ، ولا سيما بعد أن جاء الربيع ، واختفى الجو البارد ، وفتحت النوافذ على الحديقة الرائعة المليئة بالازهار الفاتنة •

ولم يكن يضايقني في تلك الحياة غير المركز المتواضع الذي كانت تحتله المرأة اليابانية ، فقد كان على مثلا ـ بصفتي زوجة يابانية ـ أن أدخل قاعة

الطعام فى مآدب العشاء خلف زوجى، وبعد الطعـام ، يجب أن أعتكف مع زوجات بقية المدعوين فى مكان منفرد بحسباننا أقل ذكاء ، من أن نجلس لنبادل الرجال أحاديثهم • ولم تكن أحاديث النساء لتدور الا حول أطفالهن أو عن نساء أخريات • وقد تقبلت هذا الوضع دون شكوى أو تذمر •

وبعد أن أمضينا ثمانية أشهر فى طوكيو ، نقل تيرى الى شانغهاى لكى يبقى هناك خمس سـنوات ، وقد أعجبتنا المدينة فى الواقع ، وهنـاك ولدت طفلتنـا ماريكو بعـد فترة قصيرة ، كما رقى تيرى الى وظيفـة نائب قنصل •

كانت الخدمة فى الصين أمرا جوهريا لحياة كل دبلوماسى يابانى ، فقد كان عليـه أن يعرف كل شىء عن هؤلاء الستمائة مليون الذين يعدون أقرب الجيران وأهم الاسواق الطبيعية لليابان، وقد كان زوجى موضع ثقة تامة فى عمـله ، محبـوباً من كل زملائه ومرءوسيه ، كما كانت وزارة الخارجية تتوقع له مستقبلا باهرا •

وكانت اليابان قد غزت منشوريا حديثا ، ومع أن هذا العمل خلق جوا من التوتر الدولى ، فقـد دافع تيرى عنه ، بحجة أن اليابان يجب أن تدافع عن كيانها بابقـاء الروس بعيدا عن حدودها ، حتى تنشىء منطقة عازلة بينهما تفيد كلا من الصين واليابان، مصرا على أن روسيا هى العدو الطبيعى لكلتا الدولتين •

ولكن تيرى لم يكن يثق مطلقا فى العسكريين فى بلاده ، وازداد قلقه من جراء التطورات التى كانت تجـرى هناك يومئذ • فقد سيطر شـباب العسكريين على السلطة فى اليـابان منذ عام ١٩٣٠ ، وبدا من تصرفاتهم أنهم لن يقفوا عند حد فى سـبيل تحقيق أهدافهم، اذ أقاموا الصناعات الكبرى لامداد الجيش بما يلزمه من عتاد ، وفرضوا الرقابة على الصحف، وقاموا بكثير من الاعمال التى تدل على التعصب القومى •

وقد ذعر تيرى من هذا الجو الذى أشاع الرعب ، ولكن السياسـيين المعتدلين كانوا لايزالون أقوياء ،ولهذا فقد تنبأ بأنهم سـوف يتغلبون فى النهاية على العسـكريين ، وقد أثبت نجاح المعتدلين فى انتخابات ١٩٣٦ انه كان على حق ، ولـكن آماله فى الاصلاح الداخلى فى اليابان ما لبثت أن تحطمت بالاعمال الوحشية التى حدثت يوم ٢٦ فبراير من العام نفسه، عندما قام فريق من صغار الضباط

المسلحين بالمدافع الرشاشة باغتيال الاميرال ساتيو وكثيرين من السياسيين الاحرار البارزين ، فلم يفلت منهم الا رئيس الوزراء وقلائل آخرون !

وقد عوقب القتلة بسرعة ، وحاول تيرى أن يؤكد لى أن الاحوال قد تتحسن بعد ذلك ، ولكن التفكير فى أن هؤلاء الرجال البارزين قتلوا لانهم يؤمنون بما يؤمن به زوجى ارعبنى . ومنذ ذلك اليوم ، بدأت أخاف على سلامته ، وأدركت أى مدى لا يزال يفصل اليابان يومئذ عن الحكم المستقر .

***

وبعد ذلك العام ، نقلنا الى هافانا حيث عمل تيرى كقائم بالاعمال ، ورئيس بالنيابة للمفوضية اليابانية ، وهناك أنشأ علاقات صداقة سريعة مع أهل كوبا ، وبعد عامين صدرت الأوامر بعودتنا الى شانغهاي ، حيث وجدنا المدينة قد تغيرت بصورة تبعث على الاسى .

كانت اليابان قد أصبحت فى حرب مع الصين ، فقد اصطنع العسكريون حادثا مدبرا لاجبار الحكومة المدنية على القيام بالعمل الذى يريدونه ، وسرعان ما اندفعت القوات اليابانية عبر نهر اليانجيتس واحتلت شانغهاي .

كانوا يتصرفون كالجنود البروسيين ، وقد أصدر الجيش اليابانى أوامره بأن ينحنى أى صينى مهما يكن مركزه أو سنه أمام أى يابانى يمر أمامه . وقد ولد هذا الاذلال حقدا مريرا أطاح بحياة الكثيرين من اليابانيين على الرغم من فرض حظر التجول .

وقد سببت السيطرة العسكرية على المدينة آلاما بالغة لتيرى ، الذى وجد أن كل ما كان يفخر به فى شعبه قد تهاوى وتلاشى ، ولم تتحمل أعصابه كل ما كان يشاهده بعينه من أعمال العسكريين ، وعندما أدركت أنه أوشك على الانهيار العصبى ، أصررت على أن نغادر شنغهاى ، وبعد تردد قليل ، وافق على أن يطلب نقله الى وظيفة أخرى ، وأجيب طلبه فوراً ، وصدر الامر بنقله الى بكين كسكرتير ثان للسفارة اليابانية هناك . وكان ذلك فى ربيع عام ١٩٣٩ .

***

عندما وصلنا الى بكين ، احسسنا بارتياح بالغ للجو الشاعرى الهادىء الذى كان يسودها وقتئذ ، ولكن العامين اللذين أمضيناهما هناك ، كانا مليئين بأحداث عالمية تنذر بالشر ، فقد اشتعلت نيران الحرب فى أوربا ، وسحر النصر الالمانى السريع فى فرنسا

العسكريين في اليابان ، وسرعان ما أبرم الميثاق الثلاثي الذى تحالفت بموجبه كل من دول المحور الثلاث ألمانيا وايطاليا واليابان ، ولكن هذا التحالف أثار قلقا عميقا في نفس تيرى ، اذ كان واضحا انه لا يعني شيئا الا الاشتراك في الحرب. وأخذنا منذ ذلك الحين نرقب مجرى الاحداث الرهيبة في لهفة وقلق بالغين •

وفي ربيع ١٩٤١ أعيد تيرى الى واشنطون سكرتيرا أول للسفارة اليابانية هناك، فقد أراد شقيقه تارو، الذى أصبح الآن مديرا للقسم الامريكي بوزارة الخارجية ، أن يساعد تيرى السفير نومورا في مباحثاته، وأن يمنع العسكريين من القضاء على فرصة الوصول الى تسوية سلمية •

وكانت العلاقات بين اليابان وأمريكا في تدهور مستمر ، وقد أملت الوزارة اليابانية أن يتمكن سفيرها نومورا — الذى كان من الاحرار المخلصين — من أن يصل الى مثل هذه التسوية مع أمريكا ، ولكن القرار الذى أصدره الرئيس روزفلت بفرض العقوبات جعل الامور شاقة بالنسبة لليابان ، مما أدى بالعسكريين الى أن ينطلقوا في طريق التصادم مع أمريكا، وكانوا يأملون في احتلال جنوب شرقي آسيا ليعوضوا خسائرهم في حرب الصين التى دامت أربع سنوات بلا جدوى ، وقد ظنوا أن جهود أمريكا للتغلب عليهم سوف تفشل اذا استطاعوا أن يفاجئوها بتدمير أسطولها •

واستمرت المفاوضات غير المثمرة في وشنطون طوال الصيف دون أن تنتهي الى نتيجة ، وقد بذل كل من نومورا وكوروسو المبعوث الخاص الذى أوفد لمساعدته جهدا طيبا ، ولكن لما لم تكن لديهما سلطة الموافقة على سحب القوات اليابانية من الصين أو تقديم أى تساهل آخر تطلبه أمريكا ، فلم يكن لديهما شيء يستطيعان المساومة عليه •

وفي ١٦ اكتوبر ، سقطت وزارة الامير كونوى — المعتدلة نسبيا — وخلفتها وزارة الحرب الذى ينادى بالحرب برياسة توجو • وسرعان ما استقال شقيق زوجي تيرى من منصبه كمدير للقسم الامريكي بوزارة الخارجية وأبرق نومورا الى طوكيو يقول انه اذا كانت بلاده تنوى اطلاق يدها في العمل فانه يجب أن يستقيل أيضا • وجاءه الرد يطلب اليه الاستمرار في التفاوض للوصول الى نوع من التسوية قبل ٢٩ نوفمبر ، ولكن نومورا بعث يقول انه رجل شريف ، لن يشترك في أى خداع ، وطلب قبول استقالته

فورا .. فلم يصله أى رد من طوكيو وكان زوجى تيرى – اليد اليمنى للسفير – يواصل العمل ليلا ونهارا ويعيش على القهوة والسجاير فقط ، واليأس يزداد تعمقا فى نفسه أمام الازمات المتتالية ، وأصبح يستشعر اقتراب الكارثة ، فقرر أن يبذل كل جهد مستطاع لتفاديها .

وعندما اقتربت نهاية شهر نوفمبر دون الوصول الى أية تسوية ، طرح على بساط البحث فى السفارة اقتراح جرىء ، يدعو الى أن يوجه الرئيس روزفلت نداء للسلام الى أمبراطور اليابان مباشرة ، باعتباره الرجل الوحيد الذى يملك السلطة لردع العسكريين الذين يتولون السلطة فى البلاد . ولم يكن الامبراطور يتدخل فى المسائل القومية الا نادرا ولكنه اذا فعل ، فان كل الزعماء اليابانيين – بما فيهم وزارة الحربية – سوف يطيعون رغباته .

وحظيت الفكرة بالقبول ، وعهد الى تيرى أن ينفذها ، فأذعن ، وهو يعلم أنه اذا عرف دوره فسوف يعامل كخائن لبلاده ويكون فى ذلك نهايته ونهاية أسرته أيضا . واختار تيرى الدكتور ستانلى جونس الزعيم الدينى وصديق الرئيس روزفلت للتوسط لدى الرئيس الامريكى ، الذى رحب بالفكرة ، وقرر أن يبعث سفيره جرو لمقابلة الامبراطور وابلاغ رسالته اليه مباشرة .

وقال روزفلت للدكتور جونس : « قل لهذا الشاب اليابانى تيرازاكى انه رجل شجاع ، وان أحدا لن يعرف شيئا منه عن هذا الدور الذى قام به .. ان سره فى أمان » (*)

ولم ترسل برقية روزفلت الى هيرو هيتو الا فى ٥ ديسمبر ، وسلمت فى اليوم التالى ... ولكن الوقت كان متأخرا ، فلم يكن فى الاستطاعة منع الكارثة الكبرى . وبعد خمس سنوات قال الامبراطور لزوجى انه لو تسلم البرقية قبل ذلك بيوم واحد لاستطاع أن يوقف الهجوم المفاجىء على بيرل هاربور !

***

وفى اليوم التالى لوقوع الهجوم اليابانى على بيرل هاربور ، دق جرس الباب فى مسكننا ، وكان الطارق أحد رجال مكتب المباحث الجنائية ، وقد نصحنا الرجل فى أدب أن نبقى فى الدار ، والا نبرحها الا فى رفقة احد رجاله حرصا على سلامتنا .

ولم استطع الاتصال بتيرى ، الذى كان مقيما فى السفارة ، ولكنى كنت

اتوقع اللحاق به عندما يتقرر المكان الذى سننتقل فيه • وكان مركز أمى دقيقا بعد ان اصبحت معدودة من رعايا الاعداء ، ولكنهم سمحوا لها بالعودة الى بلدتها ، فودعتنى وداعا قد لايكون هناك لقاء بعده ، بعد أن شجعتنى وامرتنى بأن احتفظ بروحى قوية عالية •

وبعد عشرة أيام ، سمح لى ان أرى تيرى ، اذ حضر مساء الى المنزل فى حراسة شديدة على ان يعود الى السفارة فى الصباح التالى • كان وجهه يبدو مكتئبا ، وقد بدت عليه علامات الارهاق والحزن وخيبة الألم ، ونطقت عيناه بما كان يعتمل فى جوانحه من ألم وشجن

وفى تلك الليلة سألنى عما انوى أن افعله ، وذكرنى بانهم اذا عرفوا دوره الذى قام به فى موضوع برقية الامبراطور ، فقد يكون فى ذلك نهايتنا جميعا ، ولكننى كنت قد اخترت طريقى بوضوح منذ عشر سنوات ، يوم قبلت الزواج منه

وبعد بضعة أيام ، لحقت بزوجى وبقية موظفى السفارة ، حيث نقلنا جميعا الى بلدة (هوت سبرنجز) فى ولاية فيرجينيا ، وهناك بقينا فى انتظار مبادلتنا بالدبلوماسيين الامريكيين الذين كانوا فى سفارة امريكا بطوكيو •

وامضينا فى معتقلنا ستة أشهر كاملة مع الدبلوماسيين الالمانيين ، وقد قضينا هذه الشهور فى الرسم وتعلم اللغات الفرنسية والاسبانية والانجليزية ، ولم يكن يسمح لنا بالاتصال بأحد فى الخارج ، وقد أعيد الالمانيون أولا ، ثم تبعناهم بعد قليل ، حيث ابحرنا من نيويورك على ظهر السفينة السويدية « جريبشولم » يوم ١٨ يونيو ١٩٤٢ ، وبعد اسبوعين ، توقفنا فى ريودى جانيرو ، حيث لحق بنا ٣٨٠ من الدبلوماسيين اليابانيين فى أمريكا الجنوبية وفى خلال الشهر الذى امضيناه على ظهر السفينة ، امضى تيرى ساعات طويلة فى لعب البنج بونج والبريدج ، ولكننى كنت اعلم انه يحاول التخلص من أفكاره ، فقد كان فى حزن مقيم منذ حادث بيرل هاربور ، كما كان يخشى على سلامتى وسلامة ابنتنا ماريكو عقب وصولنا الى اليابان •

ووصلنا اخيرا الى ميناء لورنسو ماركيز البرتغالى المحايد فى افريقيا الشرقية ، حيث تم تبادلنا مع الدبلوماسيين الامريكيين القادمين من الشرق الاقصى • وواصلنا بعد ذلك

المرحلة الاخيــــرة من رحلتنا على ظهر السفينة اليــانية « أساما • مارو » حيث توقفنا فترةقصيرة فى سنغافورة التى كانت قـــد ســقطت فى أيدى اليابانيين •

وبعد شهرينمن مغادرتنا نيويورك وصلنا الى ميناء يوكوهاما اليـــابانى ، وهناك وجـــدنا تارو تيرازاكى شقيق زوجى مع زوجته فى انتظارنا للترحيب بنا ، ثمانطلقنا الىالفندق الامبراطورى فى طوكيو ، وهناك أبلغ تيرى شقيقه نبأ البرقية التى ارسلها روزفلت الى امبراطور اليابان ، ولكن تارو قال انه لا يعتقد ان العســكريين اليـــابانيين عرفوا أمرها

***

كان أول ما استرعى نظـرى عنـــد عودتنا الى اليـــابان ، ذلك التقشف الشديد الذى يعيش فيه اليابانيون ، فقد كانت آثار الحرب واضحة جلية ، اذ اختفت أكثر الحاجات الضرورية فلم نجد الصابون فى افخر الفنادق ، ولم يكن هناك الا عددقليل من الخدم، واختفى ذلك الجو المرح البهيج الذى عشته فى السنوات السابقة ، وكان الاجانب الوحيدون الذين نراهم ، هم من الالمانيين أو الايطاليين •

واستأجر لنا تارو مسكنا صغيــرا على مقربة من الجامعة الامبراطورية ، ولكن الحياة أصبحت عسيرة شاقة ، فقد كانالغاز والكهرباء يوزعان بقيود شديدة ، ولم يكن من الممكن الحصول على الماء الساخن الا فى خلال الفترة من الخامسة والنصف الى الســـابعة والنصف صباحا ،وقلت كمياتالطعام الذى كان يوزع بالبطـــاقات ، وكنا ننتظـــر ساعات فى الصفوف الطويلة لكى نحظى ببعض الاسماك أو حزمة من الجزر !

والحقنا ماريكوبالمدرسة الكاثوليكية فى « فوتابا » وكانت ناظرتها راهبة يابانية على جانب كبير من الادراك ، تتحدث الانجليــزية بطـلاقة ، ولكن طفلتنـــا كانت اطول من زميـــلاتها اليابانيـــات ، بينما كانت معرفتهـــا للغة اليابانية أقل منهن ، ولهذا كانوا يعدونها امريكية ، وقد لاحظت انهـــا فقدت مرحها وأصبحت تلتزم الصمت فى اغلب الاحيان •

ووضعت وزارة الخارجية اليابانية زوجى فى قائمة الانتظار ، فلم تسند اليه عملا بعد عودته ، وقد فحصه احد الاطباء ، وقال ان ضغط الدم عنـــده قد ارتفع الى درجة خطيرة ، ونصحه بألا يرهق نفســـه ، وان يرتاح قدر استطاعته ، ولكنالخمول كان يضايقه

فقد كان يأمل فى الحصول على مركز يستطيع فيه أن يظل على صلة بمجرى الامور ، حتى يكون على استعداد للعمل عندما يعود السلام مرة اخرى •

كانت انباء الحرب خلال شتاء ١٩٤٢ لاتحمل الا انباء الانتصارات اليابانية ، ولكن احوال المعيشة كانت تزداد ضنكا على مر الايام ، حتى اننا بعد بضعة أشهر لم نعد نستطيع الحصول على الماء أو الغاز •

واستأجرنا مسكنا فى ضاحية « ميجورو » ، حيث نستطيع تدفئة الماء بالاخشاب أو الفحم بدلا من الغاز ، وكان لدنيا بستانى يزودنا بالخضر ، كما استأجرنا خادمة يابانية تدعى (كيكويا) كانت تحس ان بين واجباتها حمايتى من مضايقات الجيران واصحاب الحوانيت ، ومع ذلك فقد وجدت تسامحا كبيرا فى اليابان ، ولم تكن تحركاتى مقيدة ، على الرغم من انني كنت أعلم أنني موضوعة تحت رقابة دائمة بصفتى امريكية •

***

ومازلت اذكر يوما كنت اركب فيه سيارة عامة فى طوكيو مع ابنتى ، عندما أخذ بعض طلبة الجامعة ينظرون الى ويتحدثون عنى ، ثم سألونى عن جنسيتى ، فقلت لهم اننى امريكية ، واننى قدمت مع زوجى اليابانى لاعيش معه فى وطنه على الرغم من قيام الحرب بين بلدينا ، وعندئذ التفت احدهم الى مواطنيه من ركاب السيارة وهتف قائلا :

ـ انظروا الى هذه الامريكية الباسلة ، لقد تجاهلت كل الاخطار لتبقى مع زوجها اليابانى فلنكن طيبين معها ، ونظهر لها ان الحرب بين الحكومات لا الافراد •

وأصيبت ماريكو بالحمى ، ثم اصابتها الحصبة وتلتها سلسلة من امراض الطفولة ، اضاعت عليها العام الدراسى بأكمله ، كما سقط تيرى صريع المرض فى سبتمبر ١٩٤٣ ، وامضى أربعة اشهر متنقلا فى مختلف مستشفيات طوكيو •

وفى اوائل عام ١٩٤٤ تلقى تيرى أنباء كان أثرها فى صحته أفضل من كل علاج لقيه فى المستشفيات فقد اختير « مامورو شيجمتسو » الذى كان صديقا قديما لاسرته ، وزيرا للخارجية ، وأمر فورا بتعيين زوجى مديرا للقسم الامريكى بالوزارة •

والعجيب أن يعين شيجمتسو وزيرا فى خلال الحرب التى كان يكرهها ويحاول منعها •

وبدأ تيرى عمله بالذهاب الى

الوزارة مرتين أو ثلاث مرات كل اسبوع ، حيث يطلع على البرقيات الواردة ، والتي كانت تعطي صورة للموقف اكثر وضوحا مما تذكره الصحف ، ثم يوجه نصحه الى شباب الوزارة الذين كانوا يعملون تحت امرته وكانوا يحبونه جميعا وينظرون اليه باعتباره شخصية ممتازة . وقد ساعد تيرى على تنظيم اللجنة الخاصة بشئون ما بعد الحرب والتى بدأت تدرس أفضل الوسائل لفترة الانتقال

***

كان كل شهر يمر يقرب نهاية القتال على الرغم من ان الاذاعات والصحف كانت لاتزال تتحدث عن الانتصارات ، فقد كان كل انسان فى اليابان يستطيع ان يدرك الحقيقة دون حاجته الى كثير من الذكاء .

وازداد الموقف الاقتصادى سوءا ، كما أصبحت صفارات الانذار لاتكاد تنقطع عن العويل ليلا ونهارا ، حتى قرر (تيرى) أن يبعدنا عن طوكيو قبل أن يبدأ قذفها بالقنابل وبدأ يبحث عن دار فى الضواحى البعيدة ، وعندئذ عرض علينا شقيقه تارو ان نشاطره سكنى الدار التى استأجرها فى (اوداورا) على بعد ٨٠ كيلو مترا جنوب غربى طوكيو ، فقبلنا على الفور ورحلنا الى هناك ، ولكن الحياة فيها لم تكن افضل منها فى طوكيو فقد كان الجرحى والقتلى يفدون الى محطة البلدة بالمئات كل ليلة ، واضطرت السلطات الى الاستعانة بالاطفال فى مختلف الاعمال ، وكانوا يجندونهم عن طريق المدارس وقد استطعنا أن نبعد ماريكو عن هذه المحنة ، بوساطة بعض الاصدقاء الذين ادرجوا اسمها بين عمال احد المصانع المشتغلة بأعمال الدفاع .

وفى نوفمبر استأجرنا دارا صغيرة فى قرية « يوشيهاما » الصغيرة التى يقطنها صيادو الاسماك ، ولكننا لم نكد ننتقل الى هناك ، حتى زارتنا قاذفات القنابل الامريكية فى تشكيلات ضخمة ، وراحت تمطر المدن الكبرى المحيطة بالقرية بالقنابل .

ومنذ ذلك الحين أصبحت الغارات جزءا من برنامجنا اليومى ، فهى لاتكاد تنقطع ليلا أو نهارا ولم يعد هناك اى نظام للحياة ، فقد اصبحت المفاجآت غير المنتظرة هى القاعدة ، وغيرها هو الشاذ .

وجاء شتاء ١٩٤٤ ، وكان من أشد فصول الشتاء التى مرت خلال الحرب برودة ، وزاد الموقف سوءا انقطاع

الفحم والوقود ، حتى اننا اخـــذنا نستخدم اخشاب اشجار الصنوبر فى الطهى ، وكنا نتجمع كلنا فى المطبخ لنحظى ببعض الدفء وعلى الرغم من ذلك فقد اصيبت بتجمد فى اطرافى ، كما اصيب تيرى بالتهاب رئوى حاد وامرنا طبيب القرية بأن تظل غرفتــه دافئة ، وان يتناول حســاء ساخنــا ودجاجا وبيضا ولبنا الخ .. ناسيــا ان كل هذه الاصناف اصبحت مجرد ذكرى فى المخيلة !.

وشفى تيرى ببطء مع انه لم ينفذ اوامر الطبيب المستحيلة وان كان قد خرج من هذه المحنة اشد ضعفا ووهنا مما كان ، وانقطع عن الذهاب الى عمله ردحا طويلا من الزمن ، ولكن زملاءه الشـــبان فى الوزارة كانوا يزورونه باستمرار ، ملتمســين نصـــائحه وارشاداته .

وفى اوائل عام ١٩٤٥ اشـــتدت وطأة الغــارات الجــــوية على المدن اليابانية الكبرى ، وكنا نشعر بهزات القنابل وهى تنفجر فوق أهدافهــا المحيطة بنا ، وتقرر اخلاء قريةالصيـد الصغيرة التىنقطنها ، ولحسن الحظ استطعنا أن نعثر فى شهر ابريل على منزل صيفى صغير فى جبال ناجاند على بعد ١٦٠ كيلو مترا من طوكيـــو ، عرضــه علينا صـــديق قديم من ايام شنغهاى ، فرحلنا الى هناك على الفور ولكن الحصول على الطعـــام اصبح المشكلة الوحيدة التى تشغل اذهاننا هناك ، فقد كان ملجؤنا منطقةجبلية جرداء ، لاتحــوى بقعا كثيرة صـــالحة للزراعة ، ولهذا كنانضطر الى الذهاب الى القرى المجاورة سيرا على الاقدام بحثا عن الخضر اللازمة لطعامنا

وازداد ضعفنا نحن الثلاثة ـ أنا وتيرى وابنتنا ماريكــو ـ على مـرور الأيام، وكنا نحس أننا نكاد نموتجوعا ومللا ، فلم يكن لدينا مانفعله ، الا أن نجلس كل يوم تحت اشعة الشمس دون ان نعمل شيئا ، وفقدنا السيطرة على دموعنا ، فكانت تسيل علىوجناتنا دون أن نستطيعلها دفعا.وكانأخشى ما أخشاه وقتئذ ، ان يصاب احـــدنا بمرض خطير ونحن فى تلك الحـــالة البالغة من الضعف.ولماأصيبتالطفلة بحمى الدنج ، وعانى تيـرى مرضـــا اقرب الى الشـــلل ، أحسست اننـــا اصبحنا فى نهاية الطريق .

كانت الصحف تصـــل الينــا دون انتظام ، كما كان موقعنا بين الجبال يجعل سماع الاذاعات متعسرا ، ولهذا فاننا كنا نتابعتطورات الحرب بطريق البريد . وفى ذات يوم عادت ماريكو

من مكتب بريد القرية برسالة لابيها من صديق صحفى ، تحدث فيها عن قنبلة جديدة رهيبة القيت على هيروشيما ، وقال : اننا لم نعرف بعد وسيلة للدفاع ضد هذا السلاح المدمر الجديد ٠

وجاءت النهاية سريعا ، فقد دخلت روسيا الحرب فى الوقت الذى اوشكت فيه اليابان أن تركع على قدميها مستسلمة ، وفى صباح ١٥ أغسطس جاء شخص يعدو وهو يلهث ، لينقل الى أهل القرية رسالة سمعتها القرى المجاورة ، تدعو كل اليابانيين الى الاستماع لرسالة سوف يذيعها الامبراطور بالراديو لأول مرة فى التاريخ . وفى هذه الرسالة ، طلب الامبراطور هيروهيتو الى شعبه أن يستعد لتحمل مالايمكن تحمله ،وكان معنى هذا استسلام اليابان ٠

وقد رأيت بنفسى كيف بكى الرجال والنساء يومئذ ،قبل أن يتم الامبراطور رسالته ، بل ان الاطفال اشتركوا ايضا فى هذا البكاء الذى يمزق القلوب !

وهكذا انتهت تلك الحرب الضروس التى دامت اكثر من خمس سنوات مهلكة ٠

وكان تيرى تواقا الى أن يشترك فى العمل ، فرحل الى طوكيو ، واستأجر لنا هناك منزلا صغيرا عدنا للاقامة فيه ، وسط الخراب الكبير الذى كان يبدو فى ارجاء العاصمة اليابانية ٠

وفى ذات مساء من ربيع ١٩٤٧ ، اصيب تيرى بشلل خفيف ، لازم الفراش بسببه اكثر من شهر ونصف شهر ، ثم أصر بعد ذلك على العودة لعمله ، وبعد عام آخر اصيب بنكسة شديدة نقل بسببها الى المستشفى ، حيث قرر الاطباء انه لن يستطيع العودة الى عمله بعد ذلك ، وقالوا ان التوتر البالغ الذى اصابه من قبل قد جعل قلبه يتضخم حتى اصبح حجمه ضعف الحجم الطبيعى ٠

وأدركت يومئذ أن أيامه معنا أصبحت معدودة ٠ وعرف تيرى ذلك أيضا ، ولهذا اوصانى بالعودة الى امريكا بصحبة ابنتنا ماريكو ، التى اصبحت يومئذ فتاة ناضجة فى السادسة عشرة من عمرها ، وحاولت ان اعصى أمره محتجة على ذلك ، وصممت على البقاء الى جواره ولكنه اقنعنى بالسفر فترة من الوقت

وانتظرنا حتى انهت ماريكو عامها الدراسى فى طوكيو ، ثم رحلت معها الى امريكا فى اغسطس ١٩٤٩ ومنذ ذلك الحين ، تركزت حياتى فى رسائل

زوجي الحبيب ، التي كانت ترد الى بانتظام ، وقد ذكرفي احدى هذه الرسائل انصحته تتحسن ، مماجعل الأمل يتواثب في قلبي ، وقررت أن اعود الى اليابان ، وبينما كنت استعد لحجز اماكن للسفر في يونيو ١٩٥٠ شبت نيران الحرب في كوريا ، وخشي تيرى ان يمتد لهيب الحرب في الشرق الاقصى ، فكتب لي ينصحني بالتمهل ريثما ينتهي القتال في الاراضي الكورية •

وجاءتني بعد ذلك رسالة مسهبة من تيرى ، سرد فيها صور حياتنا معا منذ ان التقينا ، قائلا انه يرجو أن تتاح لي الفرصة يوما لاضع كتابا عنها •

وكانت تلك آخر رسائل تيرى • فبعد أيام قلائل ، بينما كنت مستلقية على فراشي والى جواري ماريكو ، اذ دق جرس الباب ، فأسرعت لأرى الطارق وكان موزع البرقيات ، الذي سلمني البرقية المشئومة التي كنت اخشى وصولها يوما :

لقد مات تيرى !!

خوف بعد الاوان !

كانت الرياح تعصف بشدة حول المدمرة وهي تنطلق بسرعة ٥٠ عقدة والمياه تتدافع فوق ظهرها . وفجأة دفعت الرياح والمياه مساعد ضابط السفينة والقته من فوق ظهر السفينة . وانتابنا الذعر جميعا .. ولكن برز في نفس اللحظة بحار زنجي عريض المنكبين ضخم الجثة وقفز الى الماء وسط الامواج والتقط صاحبنا وعاد به .

ولما صعد الاثنان الى ظهر المدمرة ، وبدأ مساعد الضابط يتنفس مرة ثانية لاحظت ان البحار الزنجي كان يرتعد ويرتجف بشدة خلت معها ان السفينة كلها تهتز معه . وسأله : لماذا لاتذهب الى فراشك .. انك تكاد تموت من البرد !

ورد البحار يقول : انني لا اشعر بالبرد ياسيدي ولكنني خائف !

ـ خائف من اى شيء ؟ لقد قمت بعمل من اعمال الشجاعة !

ـ لانني .. لا .. لا .. اعرف السباحة !

(...)

الاكاذيب عن الشقراوات

ظهر هذا العنوان بالخط العريض في صدر الصفحة الاولى من جريدة « تيمز ستار » التي تصدر بولاية سينسيناتي : « معظم الاكاذيب التي تقال عن الشقراوات غير صحيحة ! »

(تيم)



هذه المأساة التى لا مثيل لها فى عالم الحضــارة : السود والبيض . فى هذه القصة الانسانية الرائعة ، يبدو كيف تخلق الرحمة الالفة والحب بين الناس . ان الله خلقهم ألوانا كما خلق الزهور . ان العالم هو حديقة الله ، وهو يحبنا جميعا لانه لا يرى جلودنا ولـكن يرى ما فى قلوبنا ...

الملاك الأبيض

كانت ألواح الكوخ خالية من الطلاء ، وسقفه المصنوع من الصفائح التى يعلوها الصدأ يبعد عنه وهج الشمس ، ولكنه لا يحمى ما تحته من حرارة شمس فلوريدا الملتهبة ، ولذا كان داخل الكوخ اكثر حرارة من خارجه فى ساعات القيظ .

ولم يكن الى جوار الكوخ أية ظلال ، فلم تكن هناك أية أشجار تظلله بأوراقها وأغصانها الوارفة ، بل مجرد حشائش وصفائح صغيرة ، وقاذورات وبقايا زجاجات محطمة تملأ المكان .

كان هذا هو منزلنا الذى يقع فى بلدة صغيرة على الساحل الغربى لولاية فلوريدا منذ اكثر من ثلاثين عاما . وفى ذلك اليوم بارحت أنا وشقيقتى التوأم « مينجى » ذلك الكوخ ذا الجو الخانق الذى يرقد فيه والدنا المريض بلا حول ولا قوة ، وقالت لى مينجى :

— قينى .. انني ذاهبة الى المدينة أبحث عن عمل أنال من ورائه بعض النقود ، حتى أتمكن من شراء شىء يأكله أبى ، وربما استطعنا شراء أحذية لنا .

فقلت لها متوسلة :

— لاتذهبى فى هذه الشمس المحرقة يا مينجى . لا تتركينى وحدى مع أبى فى هذا اليوم المنحوس .

والواقع أن حال أبى فى هذا اليوم من أيام الصيف لم يكن أسوأ منه حين أصابه الشلل منذ عامين ونصف عام . كان المسكين عاجزا عن الحديث ، لا يقدر الا على تحريك يديه ورأسه ، ومع أننى كنت أستطيع أن أدبر الامر بنفسى بضع ساعات ، فقد كنت أخشى أن تذهب مينجى الى البلدة ، حيث يعيش البيض ، فتواجه كثيرا من المتاعب .

ولكن مينجى ما لبثت أن قفزت بقدميها العاريتين فوق الرمال المحرقة وراحت تقفز على أعقابها لتحمى أصابع أقدامها من لمس حبات الرمال البيضاء الملتهبة . ورحت أرقبها فى اشفاق حتى بلغت الطريق المرصوف بالحصباء على الجانب الآخر للخط الحديدى ، بعد أن أحرق لهيب الشمس قدميها . وهناك اختفت عن ناظرى ، وان كنت قد عرفت منها بعد ذلك كل ماحدث لها خلال الساعات التى تغيبتها :

قالت انها توقفت مرة واحدة فى

طريقها الى البلدة ، لتبلل قدميها المعذبتين فى مجرى ماء صغير ، ثم انطلقت فى طريقها مرة أخرى ، نحو تلك الدور الجميلة البيضاء التى تظللها أشجار النخيل الباسقة .

وجمعت شجاعتها قبل أن تدنو من أول بيت أنيق تمر به ، وراحت تسير على أطراف أصابعها فى حذر نحو الدرجات الرخامية ، وفجأة سمعت صوتا يقول :

ــ أماه .. هناك زنجية صغيرة فى الفناء .

وما لبثت امرأة شقراء أن هرعت خارجة من الداخل ، وقد بدا عليها الغضب .. وأمرت مينجى أن تخرج ولا تعود .. فأسرعت أختى بالفرار ، وقلبها يكاد يقفز من صدرها خوفا .

وحاول صبيان أبيضان أن يدهساها بدراجتيهما ، فأطلقت لساقيها الريح حتى تقطعت أنفاسها .. وفجأة أحست بأحشائها تكاد تتمزق جوعا .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا ، ولم تكن قد تناولت فى إفطارها أكثر من قطعة من الخبز وبعض الشراب ، ولم يكن طعامها فى اليوم السابق أكثر من ذلك .

وكانت تقف وقتذاك فى مواجهة سور منخفض لاحدى الحدائق ، تقف وراءه عجوز بيضاء تجمع بعض أوراق الشجر المتساقطة . وقالت مينجى بأدب :

ــ سيدتى :

فنظرت اليها العجوز فى دهشة ، ثم قالت فى لهجة خلت من القسوة :

ــ ماذا تريدين أيتها الصغيرة ؟

ــ سيدتى .. هل تريدين أن أعمل عندك ؟ اننى أستطيع أن انظف الفناء وأجمع أوراق الشجر .. و ..

فابتسمت السيدة وقالت :

ــ انك أصغر من أن تبحثى عن عمل . وليس لدى شىء تستطيعين عمله ، اننى آسفة ياصغيرتى . عودى الى منزلك .

ومضت العجوز تواصل جمع أوراق الشجر ، ولكنها سرعان ماعادت تنظر الى مينجى التى كانت لا تزال تقف ثابتة فى مكانها ، وقالت :

ــ قلت لك عودى الى المنزل !

ولكن مينجى لم تتحرك أيضا . . لقد أحست فى هذا المكان ببعض الرحمة على الرغم من أن السيدة أمرتها بالانصراف ، ولم تعرض عليها شيئا . ووجدت من العسير عليها أن تولى ظهرها لهذه الرحمة .

وأخيرا قالت السيدة :

ــ انك صغيرة ، صغيرة جدا ، ولكن

حفيدتى قد تجد لك شيئا تعملينه .

ودعت السيدةأختىمينجى للدخول الى الساحة الداخلية ، ثم طلبت اليهـا الانتظار ريثما انطلقت هى الى الداخل

واسـتطاعت مينجى فى مكانها أن تسمع صوت السيدة وهى تتحـدث الى حفيدتها المدعوة روزى تليفـونيا عن تلك الزنجية الصغيرة التى تبحث عن عمل وترفض الانصراف ..

وجففت مينجى حبـات العـرق المخلوطة بالاتربة على جبينها ، وكانت ساقاها وقدماها مليئـة بالخدوش ، تحت ثيابها العتيقة البالية . .

وبعد قليـل توقفت سيارة زرقاء فاخرة أمام الباب الخارجى ، وهبطت منها سيدة شابة تحمل طفلة صغيرة على كتفها ، كانت طويلة أنيقة ترتدى ثوبا صيفيا مزركشا بالزهور وحـذاء أبيض ، لها فم رقيق وعينان رماديتان تبـدو فيهما بسـمة حلوة . لم تر مينجى جمالا كهذا من قبل .

وسارت السـيدة نحو مينجى ثم قالت فى مرح :

ـ مرحى أيتها الفتاة الصـغيرة ، هل انت التى تبحثين عن عمل ؟

فقالت مينجى : أجل يا سيدتى .

ـ اننى ادعى مسـز لى ، وهذه طفلتى « ادى » ، ما اسمك أنت ؟

ـ مينجى .

ـ اسم لطيف،وكم عمرك يامينجى؟

ـ أظنه تسع سنوات .

ـ أخشى أن تكونى أصـغر من أن تصلحى للعمل عنـدى . ألا تذهبين الى المدرسة ؟

ـ كلا ياسيدتى ، لقد ذهبت اليها حينا ، ولكننى لن أعود اليها .

ـ وهل تعـرف أمك أنك تبحثين عن عمل ؟

ـ ليس لى أم . لقد ماتت أمى بعد ولادتى بدقائق ، وكانت لى زوجة أب ولـكنها هربت وأخـذت كل شىء فى المنزل . كانت تضربنى أنا وڤينى ولا تحبنا .

ـ ومن ڤينى هذه ؟

ـ أختى .. انها فى المنزل مع أبى المريض الذى لا يستطيع السير .

ـ أواه .. اننى آسـفة جدا لان والدك مريض يا مينجى . كم تريدين مقابل العمل عندى ؟

ـ حوالى نصف دولار اسبوعيا .

ـ وماذا تنوين أن تفعلى بالنقود يا مينجى ؟

ـ سأشـترى حذاءين من الجلد الاسـود اللامع وجـوارب حمراء لى ولاختى ڤينى .

ـ حسـنا ، تعالى معى ، سنذهب

إلى المنزل .

وعندما ذهبت مينجى مع مسز لى الى منزلها الذى تشيع فيه الروائح الجميلة والجوالرطب المنعش ، فغرت فمها دهشة . انها لم تحلم قط بمشاهدة مثل هذا المكان .

وراحت تدور بسرعة فيأنحاء المكان فاحصة ، تتحسس بيديها الخشنتين قطع الاثاث الوثير .

ووضعت مسز لى طفلتها فوق غطاء ورديالون وسط غرفة الجلوس ثم قالت لمينجى :

ـ تعالى معى لاعطيكشيئا يناسبك

وفتحت دولابا أخرجت منه ثوبا أزرق اللون وقالت لها :

ـ لقد كنت أرتدى هذا الثوب ، عندما كنت فى مثل حجمك .

واختطفت مينجى الثوب من يدها وقالت فى بهجة :

ـ انه جميل جدا .. هل استطيع أن أرتديه الآن ؟

ولم تنتظر حتى تسمع الرد ، بل أسرعت تخلع ثوبها القديم ، وترتدى الثوب الجديد .

ونظرت مسز لى الى جسم مينجى القذر ، الذى لم يلمسه الماء منذ شهور ، وقالت :

ـ مينجى ، هل تريدين حماماجيدا ينعشك ويرطب جسمك للثوب الجديد ؟

كانت مسز لى امرأة تعرف كيف تختار الكلمات فى لباقة ورقة .

وقادت مينجى الى الحمام حيث ارتها كيف تفتح الصنابير ليتدفق الماء فى الحوض الرخامى الانيق .. وأعطتها قطعة من الصابون المعطر الفاخر .

وارتدت مينجى الثوب الازرق بعد خروجها من الحمام ، ثم قالت :

ـ والآن ، هل أستطيع أن ألاعب الطفلة ، انني أحب الأطفال

ـ حسنناياعزيزتى ، ولكنلاتحاولى رفعها من الارض ، بل اجلسى الى جوارها لتقربىمنها اللعبالتى لا تصل اليها يدها . واذا بدأتتحنى رأسها استعدادا للنوم فنادنى .

وذهبت مسز لى الى المطبخ لتعد طعام الغداء ، بينما هرعتمينجى الى غرفة الجلوس لتلاعب الطفلة ، وكانت ادى قد تعبتمناللعب وأخذتتتثاءب استعدادا للنوم .

وبعد دقائق ، سمعت مسز لى صوت شيء يسقط بقوة على الارض ، ثمانطلقتطفلتهاتصرخ فهرعتالسيدة الى الغرفة ، حيث وجدت مينجى تمسك بالطفلة من وسطها ، فأسرعت

بأخذها منها وقالت لها :

ـ هل رفعتها من الأرض ؟

فقالت مينجي وهي ترتعش : كلا يا سيدتي

فذهبت السيدة بطفلتها الى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفهـا ، بينما وقفت مينجي تعاني الهلع والرعب

كان كل شيء يدعو الى الفرار .. الفرار دون توقف حتى تصـل الى بيتها ، ولكنها سوف تجد في المنـزل أختهـا وأباها ينتظـران ، ولا شيء يؤكل هناك ..

وراحت تسائل نفسها : أتهرب .. أم تبقى ؟

وعندما سمعت صوت أقدام مسز لى قادمة ، بدأت تستعـد للهـرب ، ولكنها ما أن شـاهدت وجه السيدة حتى توقفت ، لم يكن الوجـه جامدا أو غاضبا !

وانهمرت الدموع من مقلتيهـا ، وقالت السيدة في رفق :

ـ مينجي ، ليس هناك من يحب الفتيات الصغيرات اللائى يكذبن .. لقد رفعت الطفلة .. أليس كذلك ؟

ـ كلا .. أجل .. لقـد كانت تريد النوم ، فأردت ...

فقاطعتها مسز لى قائلة :

ـ ولـكنى طلبت منك أن تدعونى عندما تبدأ في النوم . من الأفضل دائما ذكر الحقيقة يا مينجي

ـ أجل يا سيدتي .. هل آذيت الطفلة ؟

ـ كلا .. ولكنها ارتعبت قليلا ، وهي الآن نائمة ، هيا معي الى المطبخ

وأحضرت السيدة كيسا كبيرا من الورق وضعت فيه الطعام ، ثم ساعدت مينجي على تنظيف ثوبها وقالت لها :

ـ هيا اذهبي الآن الى منزلك ، فلا شك أن أختـك وأباك في قلق عظيم بشأنك .

فقالت مينجي : هل أعود غدا ؟

وبدا أن السيدة ترددت قليلا .. فاظلمت الدنيا في عيني مينجي ، ولكن مسز لى قالت أخيرا :

ـ أجل عودى غدا ، والآن هيـا لأعود بك الى منزلك في السيارة

***

عندما شـاهدت السيارة الفـاخرة وهي تقترب من كوخنا ، استولى على رعب مفاجىء .. ترى ما الذى أحضر هذه السيارة الى أرضنا القفراء التى لم تشهد مثلهـا من قبل ، وما معنى حضورها غير المتاعب ...

وتوقفت السيارة أخيرا ، وأنا أتابع النظر اليها في ارتعاش من داخل الكوخ ولشد ما كانت دهشتى عندما شاهدت

مينجى تقفز من داخلها وهى ترتدى ثوبا جميلا ، وقد أمسكت فى يدها كيسا من الورق ، وبرزت من ورائها سيدة بيضاء غريبة

وسمعت صوت مينجى تنادينى ، ولكنى لم أتحرك ولم أجب على ندائها وسمعت مينجى تقول للسيدة الغريبة اننى خجول قليلا ولا أحب الحديث مع الغرباء •

وعادت مينجى تنادينى لألتهم ما أحضرته معها من لحوم وخضر وكعك ، وعندئذ اندفعت خارجة من مكمنى ، واختطفت الكيس من يدها ثم أسرعت عائدة الى الكوخ ، وهناك مزقته ، ورحت ألتهم ما فى داخله ، وأنا أحدق النظر نحو هذه السيدة التى حضرت مع أختى

وأخذت السيدة تحدق حولها فى صمت وسكون ، ثم سألتنى عما اذا كانت تستطيع الدخول لرؤية أبى المريض ؟

اننى لن أنسى صورة منزلنا يوم زارتنا مس روزى أول مرة

تلك الجدران التى أكلها النمل الأبيض ، والنوافذ الخالية من الزجاج وقد غطيت بأوراق الصحف الصفراء الممزقة ، والفيران التى تعربد فى المكان بكل جرأة ووقاحة ، ومصباح الكيروسين بظلاله الكئيبة المتراقصة ، والدخان المتصاعد منه ، وهو يهتز فوق مائدة محطمة ، والمقعد الذى خلا من مكان الجلوس وقبع فى زاوية من الغرفة المظلمة ، وذلك السرير الصغير المتأرجح الذى أتقاسمه أنا ومينجى

وتراجعت فى رعب الى الغرفة الخلفية ، غرفة أبى بينما كانت مينجى تقود زائرتنا الى الداخل واضطرت مسز لى الى التوقف قليلا ريثما تألف عيناها ظلام الغرفة ، وأنفها رائحتها الخانقة ثم سارت نحو الفراش البالى الذى يرقد فيه أبى المشلول • وقالت فى لهجة حاولت أن تكسبها بهجة ومرحا : هالو ••

ولكن أبى لم يستطع الا أن يتمتم بأصوات غير مفهومة ، ثم مد يده السليمة المرتعشة الى طرف الفراش يحاول الوصول بها الى الزائرة • وأسرعت مسز لى الى امساك يده ثم نظرت اليه بعطف • وقالت :

ـ لا تحاول الحديث ، اننى أدرك كل شيء

وقالت مينجى ان أبى لا يقدر على الكلام •

ونظرت الى عينى السيدة الطيبة ، فاذا بهما مبللتان بالدموع ••

واقتربت منها ، فمدت يدها نحوى

وربتت على كتفى وقالت :

ـ فينى ، اننى سعيدة لانك الى جوارى الآن

ومنذ تلك اللحظة ، لم أعد أخشى مسز لى !

وغادرت السيدة البيضاء كوخنا ، ولكنها عادت مرة أخرى فى المساء تحمل كثيرا من أكياس الطعام وبعض الحساء الساخن لأبى ..

وفى تلك الليلة ، ذهبت لأنام لأول مرة فى حياتى وأنا أحس أن هناك شيئا طيبا فى انتظارى عندما أستيقظ فى الصباح !

***

كنا نعيش فى وقت ما فى منزل أكبر وأفضل من هذا الكوخ الحقير ، فقد كان أبى من عمال البناء البارعين فى عملهم ، ولكنه فى صباح يوم مشئوم ، لم يستطع النهوض من فراشه وتبين أنه أصيب بشلل فى جانبه ، وفقد القدرة على النطق

وبعد أسابيع ، جمعت زوجة أبى ثيابها وكل حاجاتها ثم غادرتنا الى الأبد . ومنذ ذلك الحين انتقلنا الى هذا الكوخ الخشبى الذى نستأجره بنصف دولار فى الاسبوع ، وبدأت أنا ومينجى نقوم بخدمة أبينا العجوز المشلول قدر إستطاعتنا

كانت مشكلتنا الرئيسية هى الحصول على الطعام .. كنا أحيانا نسرق الخضر من الحقول القريبة ، أو نجمع بعض التوت والجوافة بحرية من البساتين المهجورة . وكنا نسير ثلاثة أميال لنحصل على بعض البرتقالات من أماكن تعبئة المحصول ، أو نسرق الحمام والدجاج الشارد بشص نضع فيه بعض الحبوب

وتحسنت حالتنا بعض الشيء . عندما التقينا بالعمة « تيلر » وهى عجوز أقعدها الروماتزم عن الحركة الكثيرة ، تعيش وحدها فى منزل صغير على مقربة من كوخنا . وعندما لاحظت أنا ومينجى أنها تغيب كثيرا عن كوخها أخذنا نسطو عليه ونسرق ما نجده من طعامها ، الى أن ضبطتنا ذات يوم فنظرت الينا نظرة صارمة وقالت :

ـ اننى لا أحب من يسرقنى .. اذا أردتما شيئا فاطلباه منى وسأعطيه لكما

ومنذ ذلك اليوم أخذت العجوز الطيبة ترعانا وتمدنا بمساعداتها وبعض الاموال التى تحصل عليها من غسل بعض الثياب للغير ، وكثيرا ما كانت تحذرنا من الجحيم الذى سنذهب اليه اذا لم نقلع عن السرقة

هكذا كان مركزنا المادى والادبى ،.

يوم اكتشفت أختى مينجى عزيزتنا مس روزى !

***

في اليوم التالى بقيت العمة تيلر مع والدنا ، وأخذتنى مينجى معها الى دار مس روزى ، ومع أننى كنت قد سمعت من أختى كل شيء عن المنزل، فقد أدهشتنى روعته وجمال حديقته وأثاثه الناعم الوثير ، وسجاجيده ذات الوبر الكثيف • وهنـاك رأيت لأول مرة البيانو والراديو

ولم تكن السيـدة تتوقع قدومى ، ومع ذلك فقد بدا أنها سرت لحضورى وقدمت لنا بعض ثيـابها القديمة التى سهرت فى الليلة السـابقة لاصلاحها حتى تناسبنـا ، كما منحتنـا بعض الجوارب الملونة والاحذية السوداء

وفى ذلك اليوم اتفقنا على أن نتبادل أنا ومينجى خدمة مسز لى بينما تبقى الاخرى فى المنزل مع والدنا • وكنـا نتوقع أن تعطينا مسز لى فى نهـاية الاسبوع نصف دولاروهو أقصى مبلغ كنا نتوقعه • وقالت مينجى أننا يجب أن ندفع منه ايجار الكوخ المتـأخر أربعة أسابيع ، ولكن مسز لى أعطتنا فى يوم السبت دولارا لكل واحدة منا مع صندوق يحتوى على كثير من مواد البقالة وزجاجتى لبن • وعندما عدنا الى أبينا يومئذ ، ورأى ما أخذناه حرك يده السليمة قليلا وحاول أن يبتسم لقد أدرك يومئذ أننا عثرنا على صديقة وحامية •

وبعـد أيام هبت عاصفة هوجاء أطارت سقف الكوخ الذى نقيم فيـه وملأت الساحة الامامية بالمـاء ، كما أغرقت كل ممتلكاتنا • وعنـدما حضرت مسز لى لتطمئن علينا بعـد العاصفة وشاهدت ما حدث الكوخ ، هرعت الى منزلها ثم عادت تحمـل أغطية للفراش وسلة كبيرة مليئـة بالطعام، كما أحضرت طبيبا للاطمئنان على صحـة أبى ، واستأجـرت عامـلا لاصلاح الكوخ ظل يعمل أياما كاملة، فصنع لنا سقفا ونوافذ جديدة وأصلح الجدران والالواح المحطمة •

وبحثت السيدة الطيبة عن المخلفات القديمة الصالحة للاستعمال فى منزلها فأرسلت لنا فراشين صغيرين ودولابا صغيرا للملابس وأقمشة لتغطيـة الفراش ومائدة •

كانت هذه الممتلكات بالنسبة لنا شيئا عظيم القيمة، وقد دفعنا وجودها الى الحرص على تجميل الكوخ ومدخله وزراعة بعض الحشـائش والازهار أمامه ، حتى يصبح لائقا بالانقـلاب الذى طرأ عليه •

وهكذا أصبح لدينا أجمل منزل في الجيرة ، أو هكذا خيل الينايومئذ!

***

لم يكن المنزل هو وحده الذى طرأ عليه هذا التغيير،بل انني أناومينجي شملنا التغيير أيضا ، فمنذ اليوم الاول لمقابلتنا لمسز لى ، بدا من تصرفاتهاوحديثها أنناإذا كناحريصين على البقاء عندها فعلينا أن نتمسك بالصدق والامانة فى كل ما نقول ونعمل • ومع أن الامر كان شاقا عسيرا فى مبدئه ، فقد جاهدنا حتى استطعنا أن نكون جديرين بثقتها •

وقبلنا تحت الحاح مسز لى عندما جاء الخريف ، أن نعود الى المدرسة ، وحصلت لنا على ترخيص من ناظر المدرسة بأن تذهب أختى يوما الى المدرسة ، وأذهب أنا فى اليوم التالى ، لكى نتبادل البقاء لخدمة أبينا ، كما كنا نتبادل العمل فى منزل مسز لى •

وبطريقتها الخاصة ، عالجت مسز لى تلك المشكلة العميقة الجذور التى يعانى منها الاطفال الزنوج منذ أن يلمسوا التفرقة فى المعاملة التى يلقونها بسبب سواد جلودهم ••

ففى ذات يوم قالت مينجى :وددت لو كنت بيضاء ••

وما زلت أذكر رد مسز لى عليها يومئذ ، قالت :

ألا تحبين الزهور التى فى حديقتى انها تحوى كل الانواع ، وهذه هى الطريقة التى خلق الله العالم بها • ان الناس كالزهور من كل الالوان والانواع ، يجب ألا نرغب فى أن نكون غير ما نحن • لقد خلقنا اللهبالصورة التى أرادنا بها، انه يريدفتيات بيض البشرة وفتيات سمراوات ، وسواء أكان المرء أبيض اللون أم أسوده ، فاننا نستطيع جميعاأن نجعل أنفسنا جديرين بالحب والاحترام •

***

كان والدنا يفقد قواه مع مرور الايام • وفى يوم من أيام الصيف التالى، ازدادت حالتهسوءا، وأصابنى رعب مفاجىء ، فاستنجدت أولابالعمة تيلر ، ثم ذهبت الى مسز لى لاعود بأختى مينجى ، فصحبتنا السيدة فى سيارتها • ودخلت الكوخ، وما كادت تنظر الى أبى ، حتى قالت ان من الافضل أن نستدعى طبيبا بسرعة ، ولكن العمة تيلر قالت :

ـ لا فائدة من الطبيب الآن ، انه يموت •

وحنت مسز لى رأسها ، ثم اقتربت منا وربتت على كتفينا بحنان وقالت:

ـ يبدو أن هذا صحيح !

ولم تمض دقائق ، حتى توقفت حركات ابى ، وتصاعدت أنفاســـه الاخيرة •

وفي تلك الليلة ، عادت بنا مسز لى الى منزلها لننام لديهـــا ، وأعدت لنا ملابس لنرتديها أثناء الجنــازة ، كما أبقتنا معها طوال هذا الاسبوع قبل أن تسمح لنا بالعودة الى كوخنا •

منذ ذلك الحين ، أخذنا نذهب الى المدرسة أنا ومينجى معا ، ثم نذهب بعد ذلك الى منزل مســـز لى ، وفى المســـاء نعود الى المنزل لنقوم بأداء واجباتنا ونذاكر دروسنا •

لم يكن لدى مسز لى عمل كاف لنا نحن الاثنتين ، ولذا دبرت السيدة الامر لكى تعمل مينجى عند شقيقتها مسز بورتر التى تعيش قريبا منها ، وقد اختارت ارسال مينجى لانها اقل خجــلا منى ، وحاولت مينجى ان تحتج ، ولكنها أذعنت مكرهة بعد ان أقنعتها مسز لى بأنها تفعل ذلك فى سبـــيل مستقبلنا حتى نعتــاد على الانفصال عن بعضنا •

وارتفع أجر كل منا أنا ومينجى الى دولارين كل أسبوع •

وفى ذات مساء ، مرت مينجى على دار مسز لى لتعود معى الى الــكوخ ، وسرنا معا فى طريق العــودة ، حتى اذا بلغنا خط السكة الحـديد الذى يفصل بين حى البيض وحى السود فى المدينة ، اقترحت مينجى أن نجلس قليلا على الحشائش الخضراء فى الظلام ، ريثما يمر القطار القادم بعـد نصف ساعة •

وجلسنا نتقـــاذف ببعض الحصى الصغيرة • وفجأة سمعنا أصواتا تدوى على مقربة ، فاستولى علينا الرعب ، فحدقنا أمامنا فى الظـلام • وعادت نفس الاصوات تقترب وتزداد اقترابا ، فقالت مينجى وهى تجذب يدى وتجرى بى وسط الاشجار الكثيفة عبر الخط الحديدى :

ـ صوت رصاص !

وسمعنا بعد ذلك أصوات سيارات تقترب ، وطلقـــات نارية تدوى ، وصيحات تزمجر •

فقالت مينجى : ارقدى بسرعة على الارض ، انهم مجمـــوعة من الرجال البيض يحملون بنادق ، وانتظرنا حتى مرت السيارات ، وانطلقت نحو حى الزنوج ، وركابها يطلقون رصاصهم فى الهواء •

ولم نستطع أنا ومينجى التحرك • وحاولنا أن نسرع فى العودة الى الكوخ ، وعندما اقتربنا منه ، كان رذاذ المطر قد بدأ يتساقط •

لم يكن هناك أى بصيص من الضوء فى الحى كله • كل باب وكل مصراع نافذة أغلق باحكام وأطفئت الانوار • وسرنا على أطراف أصابعنا حتى بلغنا باب منزلنا ، وفتحت مينجى الباب ونظرت داخل الغرفة المظلمـــة ، ثم قالت :

ـ هذا الباب ليس له قفل • الافضل ألا ندخل •• هيا نرقد تحت الكوخ •

وزحفنـــا على أقدامنـــا وأيدينا بين الدعائم المقام عليها الكوخ ، وسرعان ما نمت ورأسى فى حجر أختى ، وأيقظتنى بعد ذلك أصوات مرتفعة ، فحاولت أن أسعل ، ولكن مينجى وضـــعت يدها على فمى قائلة فى همس : هس ••• انهم هنا !

وعلى وهج المصابيح اليدوية التى كانوا يحملونها ، استطعت أن أرى أحذية تسير نحو درجات منزلنـــــا الامامية • واســـــتمعنا ونحن نكتم أنفاسنا وهم يركلون الباب بأقدامهم ، وأخذوا يتجولون معربدين فى غرفنا ممزقين الاثاث قاذفين كل مايقع تحت أيديهم ثم قال أحدهم :

ـ هيا بنا •• لا أحد هنا ••

وابتعـــدت الاحذية ، وتبعتهـــا السيارات التى جاءت تحمل أصحابها وظللنا فى مكاننا حتى الفجــر ، ثم زحفنا من المخبأ •

كانت الدنيا كلها صامتة لا حياة فيها ، وأبواب المنازل لا تزال مغلقة باحكام •• وسمعنا الطلقات النارية تتردد من بعيد ، وصيحات الانتصار تمتزج بأصوات نفير السيارات كأنها تحتفل بالنصر ، ثم شـــاهدنا ثلاث سيارات مليئة بالرجال البيض ، وكانت احداها تجر وراءها جثة الفريســـة السوداء التى كانوا يبحثون عنهـــا طوال الليل •

وترك الرجال الجثة المشوهة معلقة على بعض دعامات خشبية أمام متجر فى الحى التجارى بمدينة الزنوج • وعندما شاهدنا هذا المنظر ، استولى علينا رعب قاتل ، فهرعنا عائدين الى كوخنا لنغلق أبوابه علينا مرة أخرى

ومر وقت خلناه دهرا طويلا ، ثم قفز قلبى بين ضلوعى بعد أن شاهدت السيارة الزرقاء المعهودة ، وراقبت مسز لى وهى تهبط من سيارتهـــا وتسير فى خطوات واسعة نحو الباب ثم صاحت تنادينا • وما كدنا نسمع الصوت الحبيب ، حتى انطلقنا نحوها ، وصاحت مينجى :

ـ ان فينى مريضة ، لقد أصابتنا الرطوبة واضطررنا للنوم تحت المنزل

وحاولت أن أقص على مسز لى ما

رأينا من منظر رهيب ،ولكنها تجاهلت حديثي ،وقالت :

ـ ما رأيكما في المبيت عندي الليلة، حتى أستطيع أن أعالج برد فيني •

وعدت أحاول أن أسرد مأســـاة الزنجي الذي شنقه البيض ، ولكن السيدة تجاهلت حديثي مرة أخرى وقالت لمينجي :

ـ هيـــا احضري معطف فيني ، انها ترتعد •

***

أمضيت بعد تلك الليلة الرهيبة حوالي اسبوعين في المستشفى اعاني من التهـاب في الرئة ، والحمى التي أصابتني بسبب نومنا تحت الكوخ• وكانت مسز لي تأتي لزيارتي كل يوم، وكنت أحس بيدها الباردة فوق رأسي الملتهبة ، وتتناهى الى أذني كلماتهـا الرقيقة •

وحتى بعد شفائي ، أصــبحت مسز لي تمنحني الكثير من عطفهـا ووقتها ، وتقضي السـاعات الطويلة الى جوار فراشي ، تحدثني عن أشياء كثيرة • حدثتني عن المدرســـة ، وشجعتني على مواصلة الدراسة حتى الجامعة ، فكان لهـــذه الكلمة وقع السحر في أذني •

وعندما عدت الى المدرسة ، عكفت على الدراسة بهمة لم أعهدها من قبل، وفي نهاية العـام قفزت أنا وأختي فصلا دراسيا كاملا بفضل اجتهادنا •

وفي ذلك الصيف ، رفعت مسز لي ومسز بورنر مكافأتنا الاسبوعيـة الى ثلاثة دولارات ، وكنا قد بلغنا الثالثة عشرة من عمرنا ، وأصبح في استطاعتنا أن نؤدي الكثير من الاعمال المنزلية النافعة •

وفي تلك الاثناء شجعتني مسز لي على التـــدرب على عـزف البيانو والرسم • وأصبح لي ولاختي كثيرون من الاصدقاء ، الذين كانوا يجتمعون معنا في المســـاء أمام باب الكوخ نتحدث ونمرح في بهجة ، وفي السنة الدراسية التالية انتقلت مينجي الى فصل غير الذي نقلت اليه ، ومع ذلك فقد ظللنـــا نستذكر دروسنـــا معـــا وكنت أنا أكثر ميلا للمذاكرة والدراسة منها ، وسرعان ما بدأ تفوقي عليها•

وكان بين أصدقاء مينجي شاب نحيل يدعى سام ، قدمته الى مرة • وكان رفيق دراستهـــا على الرغم من انه يكبرها بحوالي اثني عشر عاما ، وكان يجمع الى جانب الدراسة عملا في السكك الحديدية• ومع ان مينجي لم تحدثني عنه كثيرا ، فقد أدركت ان علاقتها به وثيقة وانها تقابله كثيرا،

ولكنى لم أهتم بذلك يومئذ ، اذكنت منهمـــكة فى التفكير فى مشروعاتى وأحلامى الخاصة . لقد قررت أن أواصل الدراسة لأصبح معلمة .

وخفت أن تسخر مينجى من هذا الحلم اذا صارحتهـا به لمـا يتطلـب تحقيقه من نفقـات كثيرة ، فكتمت الامر بين جوانحى . وكان هناك سر آخر تخفيه هى أيضا عنى .

لقد فوجئت ذات صباح بأنهـا قررت أن تتزوج من صديقها سام ! وحاولت أن أحتج لأنها صغيرة لم تتجاوز الرابعة عشرة ، ولكنهـا لم تستمع الى ، وتوسلت الى مسز لى أن تتدخل لمنعها ، ولكنها قالت أن من الخير تركها تنفذ ما تراه فى صالحها .

ورحلت مينجى مـع سام بعـد زواجهما الى (ليكلاند) على بعد مائة ميل من البلدة ، فبدا العالم مظلما أمام عينى ، فقد كانت هذه أول مرة تبتعد فيها عنى توأمتى وصـديقتى الوحيدة مينجى !

ورحت أتابع دراسـتى بجـد واجتهاد ، كما رفعت مسز لى أجرى الى خمسـة دولارات أسـبوعيا ، وشجعتنى على الادخار لجمع نفقـات الدراسة الجامعية .

وزرت مينجى فى فترة العطلة ، بعد أن وضعت طفلها الاول (تيموثى) فأدركت أن الامور لا تسير على مايرام بينها وبين زوجها سام ، وفعـلا استمر زواجهما عاما ونصف عام آخر ، وضعت خلالهما طفلها الثـانى ، ثم انفصلت عنه وعادت الينـا تجرجر أذيال الخيبة والأسى .

ومضت حياتنا فى نهج جديد ، فبينما كانت مينجى تبقى مع الاطفال فى المنزل ، رحت أنا أواصل الدراسة والعمل عند مسز لى ، وفى نهـاية السنة الاخيرة بالمدرسـة الثانوية نجحت نجاحا باهرا وفزت بكثير من الجوائز .

وأمضيت العام التالى أعمل عمـلا شاقا لأدخر كل مليم من أجرى حتى أستطيع أن أكمـل المبلغ الـلازم للدراسة فى الجامعـة ، وشجعتنى مسز لى على أن أقوم فى وقت الفراغ بالخدمة فى بعض المآدب التى تقام فى الدور الكبرى لأربح مالا أضيفه الى مدخراتى . وعندما اقترب موعد التحاقى بجامعة فلوريدا ، أقرضتنى مستر لى مبلغ ٧٥ دولارا لأكمـل نفقات الكلية وشراء الكتب .

***

استطعت أن أحصل على عمل فى عنبر الفتيات المستجدات بالجامعة ،

بعد أن أنفقت كل ما معى على المصروفات ومستلزمات الدراسة ، وعكفت على الدراسة طوال العام بكل ما أستطيع من قوة وجلد ..

ومضت سنوات الدراسة الجامعية على أحسن حال . وكنت أستغل فترة الصيف في العمل عند مسز لى لأحصل على بعض نفقات الدراسة، وعندما تخرجت بعد ثلاثة أعوام ، أتيحت لى فرصة الحصول على منحة دراسية فى جامعة فيسك لتفوقى ، ولكنى رفضت قبولها ، حتى أتيح لأختى فرصة اتمام دراستها هى الاخرى ، بعد أن أمارس أنا العمل كمدرسة .

وعينت مدرسة فى نفس المدرسة التى كنت أتلقى فيها العلم منذ ست سنوات . والطريف أن مينجى أصبحت بين تلميذاتى . وبعد عامين، انتهت هى أيضا من دراستها الثانوية بتفوق كبير ، ثم ذهبت الى الجامعة فى تالاهيس ، وكان طفلاها قد كبرا واستطاعت أن تتركهما فى رعايتى خلال العامين الاولين من دراستها فى الجامعة .

أما أنا ، فقد تعرفت الى شاب رقيق يدعى جون سامز كان من رفقاء الطفولة ، ولكنه كان يعمل فى جزر هاواى منذ خمس سنوات ثم عاد لزيارة والديه قبل أن يستقر فى عمله الجديد فى مصنع للطائرات بلوس انجيلوس .

وطلب جون يدى ، فترددت قليلا ثم قبلت . وكان هناك شىء واحد يضايقنى فى ذلك ، وهو أن الذهاب الى كاليفورنيا يعنى ابتعادى عن مسز لى وأولادها حوالى ثلاثة آلاف ميل ، ولكننى عندما قدمت جون اليها ارتاحت اليه ، ونصحتنى بقبول الزواج منه فورا .

***

كانت الرحلة طويلة جدا ، وماكدنا نستقر فى منزلنا الجديد بكاليفورنيا، حتى رحت أبحث عن عمل فى احدى المدارس ، ووجدت عملا كمدرسة لفصل يحوى تلاميذ من جنسيات مختلفة . وكانت أول مشكلة أواجهها هناك تتعلق بالالوان ، بين أختين زنجيتين صغيرتين احداهما سوداء كالأبنوس ، والاخرى سمراء ذات شعر أشقر ، ودهشت لأننى وجدت السمراء تبتعد عن السوداء مع أنهما شقيقتان !

وتذكرت درسا تلقيته من مسز لى .

وفى اليوم التالى جمعت طاقتين من

الزهور ، احداهما تحوى مجموعةذات لون واحد ، والاخرى تحوى زهورا متعددة الالوان • ثم طلبت الىالاطفال أن يذكروا أى الطاقتين أحب اليهم ، فأجمعوا على أنها الطاقة ذات الالوان الكثيرة ، وعندئذ قلت لهم :

ـ ان الله أيضا يحب هذه الطاقة• لقد خلق الله هذه الزهور متعددة الالوان لنتمتع بها ، وخلق أيضا أشخاصا ذوى ألوان مختلفة ،أبيض وأسود وأصفر واحمر ، وجمعهم فى هذه الدنيا كما نجمع الزهورفى الحديقة ، فالعالم هو حديقة الله ، وهو يحبنا جميعا ، لأنه لا يرى جلودنا فقط ، بل يرى مافى قلوبنا أيضا •!

وجاءت مينجى الى كاليفورنيا مع طفليها ، ولكنها قررت أن تهجر الدراسة لتصبح ممرضة ، ثمالتحقت بعد تدريبها بمستشفى كبير بالمدينة ، وتزوجت بعد ذلك مرة أخرى ••

وطوال تلك السنوات لم ينقطع تبادل الرسائل بيننا وبين مسز لى• وكنا نذكر لها فى رسائلنا كلصغيرة وكبيرة فى حياتنا وكأننا لا نزال نقيم معها • وفى ذات ليلة تلقينا برقية تحمل الينا نبأ محزنا • كان مستر لى يقول فيها : « مسز لى مريضة جدا ، هل تستطيعان الحضور ؟ »

وانطلقنا فى أول قطار ، ولكننا ماكدنا نصل حتى وجدناها فىغيبوبة تامة ، ترقد فى فراشها فى سكون ، دون أن تحس بوجودنا •

وبعد قليل ، فتحت عينيها قليلا ، وارتسمت على شفتيها بسمةشاحبة، ثم أغلقت عينيها الى الأبد •!

وانحدرت عبراتنا فى سكون رهيب •

لقد ماتت الانسانة التى علمتنا معنى الحب وجمال الحياة !

تخليص الفائض !

ضبط رجال البوليس فى ايلنوى ثلاثةلصوص وهم يحاولون سرقة مبلغ ٤٠ الف دولار من خزانة أحد البنوك الكبرى ،ودهشالبوليس لان اللصوص اكتفوا بسرقة هذا المبلغ فقط مع أن الخزانة كانت عامرة أمامهم•• فسألوهم عن سر اكتفائهم بأربعين الف دولار •• وهنا قال أحد اللصوص :

ـ لقد قرأنا فى ميزانية البنك الاخيرة انالفائض هذا العام ٤٠ ألف دولار •

كتاب الشهر

الرّغبة في الحياة

عن كتاب THE WILL TO LIVE

بقلم الدكتور ارنولد هاتشنكر

في اعماق كل منا حافزان غريزيان ... احدهما يدفعنا للمحافظة على حياتنا ، والآخر يحرضنا على تدمير انفسنا ، ولهذا يجب ان نعمل على تنمية الرغبة في الحياة في اعماقنا

كم من رجل او امرأة ، كان يربطه بالحياة خيط واه ، فاذا بكلمة او اشارة عابرة ، توقظ فيه الرغبة في الحياة ، فيعاود الكفاح ، وتتحقق المعجزة ، وينجو من هلاك محقق !

ومؤلف هذا الكتاب ، طبيب من خريجي الجامعات الالمانية ، يمارس عمله الآن في نيويورك ، وهو يبين في كتابه الرائع المعجزات التي يمكن ان تتحقق بفضل الرغبة في الحياة وذلك على ضوء ما مر به من تجارب خلال ٢٥ عاما من الخبرة الطبية

وقد كتب الدكتور رالف جالوس عضو مجلس ادارة جمعية العلاج النفسي في امريكا يقول : « انني آمل مخلصا ان تنتشر قراءة هذا الكتاب على نطاق واسع ، سواء بين الاطباء او عامة الناس ، ليدركوا الفهم الحقيقي للروابط الدقيقة بين الانفعالات والامراض الجسمانية »

الرغبة فى الحياة

تحدثت الى ذات مرة سيدة عجوز ممن كرسن أنفسهن لخدمة التعليم ، عن مرض خطير أصابها وهى فى منتصف العمر ، فقالت أنها كانت ترقد فى فراشها وهى معلقة بين الموت والحياة وبينما كنت مستغرقة فى شبه غيبوبة ، اذ تناهى الى مسمعها صوت اثنتين من زميلاتها وهما تتحدثان أمام حجرتها بالمستشفى ، وقالت احداهما فى حماسة :

ـ لو استطعنا فقط أن نفهمها كم نحن فى حاجة اليها ..

ولقد وصلتها الكلمات حقا ، فبعثت فيها ـ وقوى الموت والحياة تتصارع من حولها ـ الرغبة فى أن تعيش . ففى تلك اللحظة التى خمدت فيها العزيمة واهتزت العقيدة ، أعادت كلمات زميلتها الطمأنينة الى نفسها ، ووهبتها الشجاعة على أن تواصل الكفاح مرة أخرى ..

اننا اذا كنا نريد الحياة حقا ، واذا كان هناك شىء نعيش من أجله ، فان الرغبة فى الحياة تصبح قوة قادرة على كفاح المرض ، ففى صميم كل منا حافزان غريزيان قويان : هما الرغبة فى الحياة ... والرغبة فى أن ندمر أنفسنا . والغريزة القوية التى تدفعنا للبقاء أحياء ، تدعمها رغبتنا فى الخلق والاكتشاف ، والانجاز . والاطباء يخضعون لهذه الغريزة ، عندما يقولون أثناء الازمات المرضية : « لقد فعلنا كل ما فى وسعنا ، والأمر الآن فى يد المريض » .

أما الرغبة فى تدمير أنفسنا ، فقد يكون ادراكها عسيرا ، ولكنها موجودة حقا ، وعندما نقول عن شخص ما « انه أسوأ عدو لنفسه » فان هذه الكلمة يمكن أن تصدق على كل منا الى حد ما ، ولو أن رجلا وضع رصاصة فى قلبه ، فمن اليسير عليك أن تفهم أنه فعل هذا ليقضى على نفسه ، ولكن من العسير أن ترى رجلا آخر يقتل نفسه بالتقسيط عن طريق المرض . ولكن هذا مايحدث فى أغلب الاحوال!

جاءنى ذات مرة كهل يلتمس العلاج من قرحة فى المعدة ، قال انه يعانى منها منذ ثلاثين عاما ، وكان يقول ان كل مايرجوه من حياته أن يتخلص من هذه القرحة .

وقلت له متسائلا :

ــ لنفرض أنك استيقظت غدا لتجد نفسك وقد شفيت من هذه القرحة ، فماذا تفعل ؟

فقال في دهشة :

ــ ماذا أفعل ؟ سوف أتمتع بالحياة !

ــ كيف ؟ ماذا ستفعل بالضبط ؟

فقال في تخبط :

ــ لماذا ؟.. سوف أتمتع بحياتي كبقية الناس !

وهكذا لم يستطع الرجل أن يحدد بالضبط ماذا ينوى أن يفعل .. لم تكن عنده أية خطة أو أي هدف ، أو حافز يدفعه لان يشفي لكي ينجز عملا هاما بالنسبة له .

لقد أقام حياته منذ ثلاثين سنة حول هذا المرض ، فزملاؤه في العمل يساعدونه على أداء عمله ، وأسرته تحيطه برعايتها بسبب حالته ، وطبق الحساء الساخن دائما في انتظاره عندما يعود من مكتبه الى المنزل . فاذا أبعدت هذه القرحة عنه ، فانك ستأخذ معها طبق الحساء الساخن ، الذي يجد فيه عوضا عن الحب !

كلا ، انه في حاجة الى هذه القرحة في معدته . ان حاجته الى العطف أو الرعاية ــ وهي ما يعوضه عن الحب ــ كانت أقوى من حاجته الى أن يشفى وأن يستغل كل طاقته في عالم زاخر بالمسئولية . انه كأكثر مرضى القرحة المزمنة . كان يعاني من عدم النضج العاطفي أولا ، ومن القرحة ثانيا ، ولهذا وجه غريزته المدمرة الى الداخل ، الى نفسه !

***

ان عددا كبيرا من المرضى الذين يغمرون عيادات الاطباء ، يفشلون في الحصول على الشفاء ، مهما يكن نوع العلاج الذي يعطى لهم ... انهم يعانون من أعراض كثيرة مختلفة ، فالبعض يشكو من ضعف ، والبعض لا يستطيع أن ينام ، وآخرون يحسون بآلام في القدمين أو الاكتاف أو الظهر ، والبعض قد يصاب بالعصبية أو انقباض النفس ، ولكن الامر الرئيسي بالنسبة لهم جميعا واحد : انهم جميعا يحسون بتعب لا يمكن وصفه أو الشفاء منه !

وهم غالبا ما يتحدثون في حسد عن بعض من يعرفون ، وكيف أن لهم طاقة لا يصيبها الارهاق ، ويقدرون على الأكل والهضم ، أو يستغرقون في النوم ويستيقظون في انتعاش .. ثم يقولون في حسرة :

ــ أما أنا فاني أستيقظ أكثر تعبا مما كنت عندما ذهبت لأنام !

هؤلاء الرجال والنساء المتعبون . لا يدركون أن الشخص القوي لا ينتج

بالضرورةطاقة أكثر منغيره ، ولكنه يستخدمها فقط بطريقة أكثرتأثيرا ، فيحين أنطاقة هؤلاء الحاسدين تبدو وكأنها مياه النهر التى تتسرب فى الرمال .

ولكنالطاقة لاتختفىهكذا ببساطة وقوانين الطبيعة تقول ان الطاقة لا تضيع ، فأين تذهب اذن ؟

ان الأطباء الذين فحصوا المريض واستعانوا بكلمصادر العلوم الطبية اختلفت آراؤهم حول ذلك ، فأحدهم يقول : انهازيادةمفرطة فىالحموضة ، بينما يقولآخرانها علاماتالشيخوخة ويذكر ثالث انها حساسية . . ولكنهم اذا شفوا أحد الامراض ، فانالمريض يستطيع دائما أن ينتج مرضا آخر بطريقة ما .

فماهو العيب فىكل هؤلاءالناس؟

أيمكن أن يكون بعض الصراع الداخلى قد التهم طاقاتهم ؟

انالرجل الذىيواجه صراعاداخليا أشبه بدولة فى حالة حرب أهلية ، انه يقاتل فى يأس ضد قوات ثائرة فىداخل نفسه ، وهويلجأ الىالطبيب ملتمسا منه العون ، ولكنه فىالغالب يجدالطبيب لاحول له ولا قوة مثله ، ولن يستطاع شفاء المريض الا اذا واجه هو وطبيبه سبب الحرب كما يواجهان خسائرها .

حدثيوماأنجاءتنىامرأة ، وجلست فى قلق على حافة المقعد ، وقالت :

ـ لقد ذهبت الىكثيرين منالاطباء وربما كانتحالتى ميئوسا منشفائها .

ثمقالتانها مريضة منذ ١٤ سنة وقدذهبت الىمختلف الاطباءالمختصين فى امراض النساء ، والقلب ، والاطباء الباطنيين والجراحين دون جدوى . كان كلمنهم يشخصمرضها تشخيصا مختلفا ، وكلما نجح أحدهم فىشفاء مرض ما ، قفز أمامه مرض آخر ! كانت تشكو من الدوار والخفقان ، والصداع وتحس آلاما فى المعدة . ولما لم تكن قد أصيبت بأى مرض خطير قبل زواجها ، فقد سألتها عن حياتها المنزلية وعن زوجها ، فقالت أن زوجها رجل طيب ، وهو محام ناجح فى مهنته ، منتظم فىعاداته ، يخرج من المنزل أربع مرات من ليالى الاسبوع ، ليحضر اجتماعا فى ناديه أو ليقضى السهرة مع بعض أصدقائه فى لعب الورق . وقد أنجبا طفلين وكانت الفترات الوحيدة التىأحست فيها بالرضاء خلال سنوات زواجها الاربع عشرة ، هى التى مرت بها أثناء حملها فى هذين الطفلين .

وتحدثنا عن علاقتها الجنسية مع

زوجها ، فقالت أنها لاتعرف بالضبط ماذا أعني بالرضاء الجنسي ؟! قدتكون جربت مثل هذا الشعور أحيانا في بداية فترات حملها ، ولكنها كانت واثقة أنها لم تجربه قط خلال السنوات التي تلت ذلك !

لقد برزت الآن شخصية المريضة، وبات واضحا أنها تنكر نفسها ، لا من الناحية الجنسية فحسب ، بل وفي التعبير عن أي اتجاه ابتداعي آخر . لم يكن لها أي اهتمام بالنواحي الثقافية أو الفنية ، ولم تشارك زوجها في حياته الاجتماعية لأنها لم تكن تهتم قط بألعاب الورق . وكانت ترى جماعات الناس متعبين !

وبينما كانت السيدة تتحدث عن زواجها ، بدأت تدرك هي نفسها كم كانت حياتها الزوجية قاحلة مجدبة لاتبعث على الرضى.. لقد كانت زوجة مطيعة ، ولكن الباعث الابتداعي النشيط المحبب ، لم يكن متوافرا لديها ، ومع أنها كانت تبدو في الظاهر راضية بزواجها ، فقد كان عقلها الباطن ثائرا عليه !

وقلت لها أنها يجب أن تجعل زواجها مقبولا ، وأن تقوم باصلاح ايجابي . انها لم تواجه قط هذا القرار ، أو تدرك أن عليها أن تتخذ قرارا ما ، ففي كل نواحي الزواج الابتداعية ، سواء في الاتحاد الجنسي أو الزمالة الاجتماعية ، ظلت منعزلة سلبية ، ولكنها بهذا الرفض في مواجهة الامور ، أطلقت داخل نفسها قوة تدمر سعادتها وصحتها ، وقد تنتهي بالقضاء على حياتها .

وما أن اكتشفت المريضة أن زواجها هو مصدر متاعبها ، وأن أمراضها الكثيرة ليست الا صورا للتعبير النفسي ، حتى اختارت موقفها ، وبدأت تصعد الطريق في بطء شديد وظلت سائرة في طريقها الجديد بصبر ودأب، حتى بدأت ترى النتائج .

فبعد ثلاثة أشهر ، أحست أنها أصبحت أقوى جسمانيا ، وشيئا فشيئا بدأت طاقتها الابتداعية تتدفق، وأصبحت ترى في واجباتها حيال زوجها وأطفالها فرصا جديدة مبهجة، بعد أن كانت ترى فيها من قبل عبئا يفوق طاقتها !

وقالت لي : لقد أصبح في استطاعتي الآن أن أواجه كثيرا من المواقف التي كانت تثير اضطرابي ، وأجد الآن كثيرا من الوسائل لجعل زواجي ناجحا، واعترف لي زوجها أنه بدأ يشعر لأول مرة بالحياة المنزلية الممتعة !

***

اننا جميعا جربنا التعب دون سبب مادى ظاهر ، ولكننا نعرف أن بعض الرجال والنساء العاديين يمكنهم ان يقوموا بجهود بطولية تستغرق فترات طويلة ، دون أن يستريحوا الا فترات قليلة ، ولا يشعروا بتعب أكثر مما يجب • ففى خلال الغارات الرهيبة التى قام بها الالمان على لندن اثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت السلطات تخشى أن تنتشر الاوبئة بين الاهلين، بسبب ظروف الحياة التى كانوا يعيشونها ، فضلا عن قلة نصيبهم من النوم ، وتكدسهم فى المخابىء كل ليلة، ولكن صحة أهل لندن فى ذلك الشتاء القاسى - كما قال تشرشل - كانت فوق المتوسط ، فان القوة على تحمل العناء اذا تنبهت بدت وكأن لاحدود لها •

وفى كل مكان وكل يوم ، يذهب الناس الى أعمالهم دون كلل ، اذا كانوا مزودين بالحماسة والايمان بما يفعلون ••

***

وآثار الاجهاد العاطفى الطويل المستمر بسبب نزاع لم يحل يمكن أن تكون مدمرة ، ولكن عندما يزول هذا الاجهاد العاطفى، ويكون للمريض باعث عظيم للعيش ، فقد تحدث معجزات الشفاء التى يعسر شرحها بالطب البيولوجى وحده •

فى احدى الليالى دعيت لعلاج رجل كان يحتضر فى مسكنه الذى يقع عبر الشارع الذى تقع فيه عيادتى ، وكان الطبيب الذى يباشر علاجه قد غادر البلدة فترة من الوقت • كان المريض قد جاوز الستين ، وهو صاحب صيدلية كبيرة ، يتمتع بمركز طيب بين أطباء المدينة • وعند باب المنزل قابلنى شقيقه قائلا فى رجاء :

- يجب أن تبقيه حيا الى الصباح، حتى نستطيع أن نتم زواجه •• انه يجب ألا يموت ، قبل أن يجعل من ابنه مولودا شرعيا !

ثم علمت أن هذا الرجل المحترم، كان يعاشر مدبرة منزله منذ أكثر من عشرين عاما ، وقد أنجب منها هذا الولد ، ولكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة قط للاعتراف بخطئه والتزوج من المرأة • لقد كان ينفق على ابنه فى سخاء ، وكان الابن يدرس عندئذ فى الجامعة استعدادا للعمل بصيدلية أبيه ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يحمل اسم ابيه أويرث عمله وهو فى هذا الوضع غير الشرعى•

وظللت أكافح طوال الليل ضد مرض التهاب عضلة القلب فى مرحلته

الاخيرة ، حتى هدأ السائل الخطر فى الوتين . وعندما جاء القسيس فى الصباح ، كان الرجل المحتضر قد استعاد من الوعى مايكفى لاشتراكه فى حفل الزواج ..

ثم وقعت المعجزة !..

لقد عاش الصيدلى بعد ذلك عامين آخرين ، ورأى ابنه وهو يتخرج فى الجامعة ، وظل الرجل يمضى كل يوم بضع ساعات فى الصيدلية ليقدم ابنه للزبائن ، حتى رحل عن العالم فى سلام ودعة !

اننى بعد أن صارعت الموت فى كثير من مثل هذه المباريات ، التى كسبت بعضها وخسرت البعض الآخر أعتقد اننى أستطيع أن أدرك لماذا كان هذا الصيدلى المريض راغبا فى الموت أول الامر ، ثم قرر أن يعيش .

لقد كان قلبه ممزقا منذ سنوات بسبب عدم استطاعته التغلب على القانون الاجتماعى الصارم ، ووجد نفسه لايستطيع أن يرضى ضميره بالاعتراف بابنه غير الشرعى ، فعانى من إحساس عميق بالفشل . ولكنه ما أن اضطر لاتخاذ هذه الخطوة الحاسمة رغما عنه ، بفضل أخيه ، حتى وجد أن أمامه مهمة جديدة سعيدة يجب أن يؤديها .

ان عليه أن يعيش ليساهم فى تخرج ابنه ، ويتيح له بداية طيبة فى العمل . ولاشك أن الطب قد ساعد على ابقاء الحياة فى جسمه الذابل ، ولكن الطب وحده لايستطيع أن يعيده للحياة ، بغير معونة من قوة البعث التى تبدت فى رغبته فى الحياة بعد هذا العمل الرسمى الذى وهبه ابنا يحمل اسمه وعمله

ونحن جميعا جربنا أحيانا حالات الاحساس السابق أو الوفاة المفاجئة ، فهل يعنى هذا أننا سنموت سريعا حقا ؟ كلا ، ولكن هذا الاحساس يشير الى أنه كان فى أعماقنا جميعا فى هذه اللحظة حوار يدور مع غريزتنا المدمرة ، فقد نحس لحظة ما اغراء بالتهرب من أعبائنا ومسئولياتنا ، ولكل منا لحظاته التى يشيع فيها الملل والكآبة ، والتى يتضاءل فيها الامل وتتبدد الشجاعة .

ولقد وصفت لى طيارة شابة مغامرة ذات مرة ، ذلك الشعور الذى يساور الانسان ، وهو على حافة الموت خلال نوبة مرض حادة . قالت انها كانت تطير يوما بمفردها فوق المحيط ليلا ، عندما شرد ذهنها شرودا عجيبا .. اذ خيل اليها أن الى جوارها صديقا من الطيارين الذين لقوا مصرعهم خلال

الحرب ، وقدامسك بيدها وقال لها:

« تعالى معى » .. ثم اخذ يصور لها ــ او صورت لها أفكارها ــ ذلك العالم الجميل الذى يمتد فى الفضاء الى ما لانهاية ، عالما يخلو من الهموم والمخاوف ، كل شىء فيه هادىء ناعم كالسحاب ..

وقال شبح الطيار : يجب أنأذهب الآن .. هل أنت قادمة معى ؟

ولكنها جلست مثبته فى مكانها ، بينما كانت طائرتها تزمجر فوق المحيط .. بعيدا عن الارض .. وعن الواقع .. !

وفجاة عادت الى نفسها ، وقالت لى : « لو لم أعد الى عالم الحقيقة سريعا ، لاصبحت واحدة منالطيارين الذين تفقد طائراتهم ، وتسقط فى المحيط .. !

ان مامر بهذه الشابة الهادئةالمتزنة خلال لحظة يأس ، وهى جالسة فوق مقعد القيادة فى طائرتها ، لا يفترق عما يحس به المريض اثناء اصابته بحمى عنيفة خلال مرض حاد خطير .

فنحن عندما نحلق فى هذا العالم الوهمى بين الارض والسماء ، عندما يصبح كل ما يربطنا بالحياة مجرد وجود أولئك الذين نحبهم ، وتهتز اطرافنا وتصبح غير حقيقية ، عندما يستعر لهيبالحمى ، فانالعقل يواجه الرغبة فى الموت سافرة . وبعد أن يعود المريض من مثل هذه التجربة فانه يقول فى الغالب : لقد كدت ارحل عن هذا العالم .. أليس كذلك ؟

وفى تلك اللحظة الاولى الخطرة بعد أن يعود الانسان الى وعيه ، يأتى غالبا هذا الاعتراف :

ــ أريد أن أموت .. !

وقد حدث أن جاء الىمكتبى يوما رجل فى صحة تامة ، وقال لى :

ــ اننى أستحق الموت الآن أكثر مما استحق الحياة ..

وبعد شهور قلائل مات الرجل !

وكثيرا ما نجد أن بعض ضحايا النوبات القلبية المفاجئة كان يستشير محاميه حولوصيته أو كان قدتعاقد على التأمين على حياته .. !

ولكن المناقشة غير الواعية مع غريزتنا المدمرة ، لا تحتاج للوصول الى نتيجة سلبية ، ففى امكاننا أن نتذرع بشجاعة جديدة ونمضى قدما الى الامام .

***

وبين هؤلاء الذين يقررون الحياة ، وهؤلاء الذين يستسلمون ، يبدو أن الخلاف بينهما هو خلاف فى الهدف ، وسلامة العاطفة .

ويبدو أحيانا أن مخاوفنا قادرة على اضعاف مقاومتنا للمرض ..

منذ بضع سنين ، جاءني شاب صغير ، وطلب مني أن أفحصه ، لأنه يشك في اصابته بشلل الاطفال ، ولكنه كان خاليا من اعراض هذا المرض واضطررت أن أقول له اننا لا نعرف وسيلة لفحص الاشخاص المعرضين للاصابة بهذا المرض الذي تمتلىء نفسه خوفا منه .. وفي العام التالي ذهب الشاب الى طبيب آخر ، وطلب منه أن يفحصه بحثا عن شلل الاطفال .. ومرة أخرى طمأنه الطبيب بأنه غير مصاب به . وفي العام الثالث ، أصيب الشاب فعلا بحالة شلل أطفال حادة .. !

ان أي تفسير لهذه الحالة العجيبة المثيرة للقلق سيكون محض افتراض . ويرى بعض الخبراء أن الخوف قد يسبب رد فعل زائد للجسم المتوتر ، وأن الجسم يصبح معرضا لبعض العلل والامراض كقرحة المعدة وشلل الاطفال وغيرهما ..

جاءني مرة رجل مريض جدا ، محني الظهر ، مرتعش اليدين ، وطلب الي أن أعالجه من مرضه ، فسألته عرضا ، متى أصيب بالصمم .. ؟ فذكر لي السنة بالتقريب ..

وعدت أسأله : هل كان متزوجا يومئذ ؟ فقال : اجل ..

فسألته : هل كانت زوجته تكثر من الشكوى بصوت مرتفع .. ؟

فصرخ قائلا :

ـ أواه .. لقد كانت لا تحتمل ! وحدثني طبيب أوربي يوما عن تجربة قام بها منذ سنوات ، بينما كان يعالج مريضة مصابة بالصمم ، وكانت تحب الغناء رغم صممها ، وبينما كانت تغني يوما امامه ، اذ جلس امام البيانو وأخذ يصاحب غناءها بالعزف برقة . وفجأة خطر له أن يغير النغمة اثناء العزف ، فلم يبد على المرأة أنها لحظت هذا التغيير وان كانت قد استمرت في الغناء على النغم الجديد .

وكثيرون منا يعرفون اناسا مصابين بالصمم ، لا يمكنهم أن يسمعوا شيئا يوجه اليهم مباشرة الا اذا قيل بأعلى صوت ، ولكنهم يستطيعون سماع حتى الهمسات اذا كانت تتضمن اشياء عن أنفسهم ..

انك قد تسخر من مثل هذا الصمم وقد تعده خدعة ماكرة ، ولكنه موجود حقا ، وهو انذار بأن المريض يعاني من وطأة الغريزة المدمرة ، وانه ضحى فعلا بجزء من نفسه لهذه القوة المزبدة

.. هو حاسة السمع .. !

والواقع أن كل دلائل الشيخوخة المبكرة تحمل مثل هذا الانذار ، فعندما يبدأ المرء فى السير متثاقلا ، وينحنى ظهره قبل موعده ، فثق انك امام رجل أو امرأة سئم الكفاح بسرعة ، واستسلم لاغراء تدمير النفس ، فنحن لانكبر بالاعوام ، بل بانفعالاتنا العاطفية حيال الاحداث .

ان رجلا قد يفقد ماله ، فيشيب شعر راسه بين عشية وضحاها ، وآخر قد تصيبه كارثة ، فيكافح ويمضى قدما فى اتجاه جديد ، ويرفض أن يخضع للغريزة المدمرة ، بل يجهد نفسه ليخرج من الكارثة بجهود ابتداعية جديدة .

وان امرأة تفقد زوجها قد تعتبر ان حياتها قد انتهت .. فتنكمش قامتها ، وتذبل تدريجا ، ويبدو التذمر على صوتها ، مما يدل على انها تستعد للموت ، فى حين ان امرأة غيرها قد تكون كبيرة السن حقا تبدأ فى الازدهار ، وقد تنافس غيرها للحصول على زوج جديد ، أو تمارس حياة عملية أو تشغل نفسها بمتع لم تكن تجد الوقت الكافى للتمتع بها من قبل .. وهكذا تعبر بوسائل ابتداعية عن رغبتها القوية فى الحياة والتمتع بثمارها .

وأقول مرة اخرى أن المرض الذى يصيب الجسم هو فى الغالب نوع من التكييف لصعوبات الحياة ، ولكنه تكييف غالى الثمن ..

وهناك أوقات قد نشعر خلالها بالحاجة لان نمرض ، لنأخذ مهلة من الكفاح ، ولنجمع قوانا مرة أخرى ، أو لتتاح لنا فرصة جديدة للحكم على أهمية الاحداث . ففى مثل تلك الاوقات ، لايكون المرض هزيمة ، بل انه قد ينقذنا أحيانا عندما تسقط فى شرك من جراء عمل قمنا به ضد مصلحتنا أو ضد رغباتنا الكامنة ، أو عمل يعد انتهاكا لبعض مقاييس الشرف والكرامة ، ولم نجد أمامنا مخرجا من هذا المأزق .

حدث أن ممثلة صغيرة لامعة ، أصيبت فجأة بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية ونقلت فورا الى المستشفى لاجراء جراحة عاجلة لها ، وعندئذ غمرها زملاؤها والمعجبون بها بعطفهم الكثير ، وراحوا يقولون : ياللاسف .. سوف تلغى روايتها الجديدة ، وسيتوقف صعودها سلم المجد فجأة بعد أن سارت فيه قدما . ولعل الاصدقاء كانوا يدهشون لو عرفوا انها كانت تحس براحة تامة رغم آلامها وهى

راقدة فى المستشفى ، بدلا من أن تحزن على مجدها الضائع ،فقد كانت وحدها تعرف أن عملية استئصال الزائدة لن تؤذى حياتها الفنية ، بل ستنقذها ! ففى خلال اجراء البروفات لهذه المسرحية الجديدة ، ساورهاقلق عميق، بعد أن أحست أن هذا الدور لايلائمها مطلقا ، وأنه بدلا من أن يعزز نجاحها الاول ،سوف يعرضه للخطر أويقضى عليه.. وزاد ايمانها بهذه الفكرة حتى باتت فى حالة يائسة .. ان استمرارها فى الرواية سيكون كارثة عليها ، ولكن الانسحاب من التمثيل أثناء البروفات سيكون أكثر ايذاء لسمعتها الفنية ..

ولم يبق على الافتتاح الا أيام قلائل ، عندما استيقظت ذات ليلة وهى تشعر بآلام رهيبة فى بطنها، وظنت أنها حالة هستيرية ، فحاولت أن تتجاهلها،ولكنها بعد أن اضطرت لاستدعاء الطبيب، تبين لها أن الزائدة الدودية لم تلتهب فحسب ، بل انفجرت أيضا !

واجتازت الممثلة الآلام الجسمانية وهى سعيدة ، فقد ضحت بزائدتها الدودية فى سبيل حياتها الفنية ، وشفيت من جراحها ، لتجد رواية جديدة فى انتظارها ، ودورا يرضيها ويدعم نجاحها السابق !

***

وعندما نقول عن زميل أو رئيس انه يجعلنا نشعر بالمرض أو بالعلة ، فنحن فى الغالب نعنى هذه الكلمات نصا وروحا . اننا نحس بالغثيان المتزايد ، أو بما يشبه الطعنة أو الاختلاجات التى تسبق الصداع . وليس الرئيس أو الزميل هما السبب فى ذلك ، ولكن الاستجابة العاطفية هى السبب فيما نشعر به من غثيان أو صداع . ان الالم الجسمانى الذى يوحى به هذا الشعور حقيقى تماما مثلما نضحك عندما نلهو ، أو نبكى عندما نحزن ، ولكننا نستطيع أن نتعلم كيف نغير هذه الاستجابة العاطفية . وهناك وسيلتان لمواجهة هذا الموقف تسببان لنا توترا عاطفيا: هما القتال أو الفرار . وبمجرد أن نصدر قرارنا ونحدد طريقنا ، نكون فى طريق العودة الى الصحة . ولكن هذا القرار يجب أن ينفذ . اننا يجب أن نعالج الصعوبات عن طريق العمل .

وعندما يمنعك الخوف من القتال ، فان شعورك بالخيبة والثورة المكبوتة كفيل باصابتك بصداع يحطم الرأس فى نهاية اليوم .. وعلى العكس فانك اذا طرحت مخاوفك جانبا ، وأقدمت

على عمل ايجابى ، فان الاثر قديكون مبهما الى حد كبير •

جاءنى ذات مساء أحد مرضاى وقد بدا عليه الابتهاج وقال :

ـ اننى أشعر باحساس رائع ، كما كنت أحس وأنا فى العشرين بعد مباراة عنيفة فى التنس •

أما السبب ، فقد كان أمرا عاديا • لقد عارض أحد زملائه فى العمل مشروعه المفضل ، فأخذ يفكر فى نتائج معارضة زميله للمشروع ، ثم قرر أنه يستطيع قبولها • وبعد أن تغلب على قلقه غير الواقعى ، أصبح حرا يستطيع أن يكافح من أجل مشروعه وأن يكسب وجهة نظره •• وبعد أن انتهى الكفاح ، أحس بأنه ارتد شابا ، وانه خرج من مباراة رياضية شيقة •

اننا يجب ألا نتجاهل القوى الداخلية فى أنفسنا بعد أن نستشيرها فى الصعوبات التى تواجهنا فى الحياة ، اذ أننا اذا تجاهلناها أو عملنا على كبتها ، فانها سوف تسد الطريق فى وجوهنا •

وعندما نقدر موقفنا على أساس واقعى ، ونرى اننا سنصاب بهزيمة اذا قاتلنا ، فان الهرب عندئذ سيكون أمرا عاديا وسليما فى نفس الوقت ، فالحيوان فى الغابة لا يشعر أن عليه التزاما يقتضيه أن يقاتل كل من يواجهه • انه اذا واجه عدوا معروفا له ، فانه يتصرف على ضوء احتمال فوزه أو هزيمته فى المعركة ، وهو لا يخجل من الفرار أمام عدو طبيعى أقوى منه •

ان الهرب فى موقف لا يمكن الدفاع فيه لا يعد جبنا ، ولكنه حماية للنفس ، ويجب أن نشعر بارتياح بالغ للهروب الناجح من موقف ما ، تماما كما نحس بالارتياح اذا قاتلنا خلاله بنجاح !

***

اننا يجب أن نتعلم كيف نغرس فى أنفسنا الرغبة فى الحياة •

ان الرغبة فى الحياة قوية عظيمة ، ونحن نعتقد انها تستطيع أن تتكفل برعاية نفسها ، ولكننا رأينا كيف أننا ننصب أحيانا شراكا خفية لهذه القوة العظيمة القيمة فى الحياة • ولما كانت تلك القوة يمكن أن تضعف وأن تتلاشى ، فاننا نرى أناسا يموتون قبل موعدهم ، أو يعيشون بنصف طاقتهم أو يقتلون انفسهم على الفور

والرغبة فى العيش ، وليدة عوامل عديدة ، يكمن أكثرها تحت وجداننا كما يكمن الجزء الاكبر من جبال الثلج

تحت سطح الماء • وقد تضعف هذه الرغبة أو نقضى عليها دون أن ندرى ، كما ان فى امكاننا أن نعززها ونغذيها ونعمل على تنميتها •

ويجب ان نتعلم أولا كيف نجتاز الازمات التى لانعرفها فى الحياة بأقل خسارة ممكنة لاحساسنا العاطفى •

ففى حالات التوتر يجب أن نجد وسائل صحية للاسترخاء وازالة التوتر ، ولكن أغلب الوسائل التى يختارها الناس ليست طيبة، اذ أنها ليست استرخاء ، بل هى هروب من الواقع ، فالرجل قد يهرع الى الحانة أو الى ميادين السباق ، أو يجلس طوال الليل يلعب الورق • والمرأة قد تقوم بجولة مرهقة على المتاجر ، ولكن مثل هذه التسلية قد تحدث توترا خاصا بها • وعليك بدلا من ذلك ، اذا زاد التوتر ، أن تبحث عن منقذ منه • خذ مثلا جرعة من الماء ، أو امرح مع طفل صغير ، أو ساهم فى بعض الاعمال المنزلية ، أو اخرج للسير تحت أشعة الشمس فترة ، أو قم بجولة على الاقدام بمفردك ، أو انظر من النافذة ، فانها ستذكرك بالعالم الذى يقع وراء الجدران الاربعة التى حبست نفسك فيها مع متاعبك ، وتساعدك على أن تحكم على الامور حكما صادقا الى حد ما •

ان فترة الغداء يمكن أن تكون منقذا حقيقيا لما يصيبك من توتر خلال اليوم ، ولكن ليس بالطريقة التى يتناول بها أغلبنا غداءه • فقد شكا لى رجل من عسر الهضم الذى يلازمه، برغم انه كان يسير على قدميه قبل عودته الى مكتبه ، ولكن متاعبه كانت تسير معه الى هناك • كان الرجل محنى الظهر كعادته ، وكأنما يحمل العالم على كتفيه ، وقد شاع القلق على صفحة وجهه ••

وقلت له :

ــ قم بجولة على قدميك ! واذكر لى فيما بعد كم حمامة ستراها تطير على طول الطريق ••

ونظر الرجل الى فى ذهول ، ثم أدرك ما اعنيه وقال :

ــ سأحاول ذلك •

ولم أره بعد ذلك طيلة ست سنوات ، ثم جاء الى يوما يشكو مرضا تافها ، وقال لى فى بهجة : اننى لا أزال أحصى الحمام !

***

انك اذا تجاهلت حاجة الجسم والعقل الى الانتعاش بعد الاجهاد تكون خائنا لرغبتك فى الحياة ، فاذا كنت لاتنام وتأكل بلا اكتراث أو نظام

وتتجاهل أعراض التوتر والتعب ، وتترك نفسك تتدهور ، فانك تكون فى طريقك الى الكارثة ، لانك انما تساعد غريزتك المدمرة ..

يجب أن يكون لك برنامج طويل المدى ، تتعهد فيه رغبتك فى الحياة بكل الوسائل الممكنة،لتجعل حياتك غنية سعيدة كما يجب أن تكون .

لنفرض أنك - ككثير من الناس- تخفي شوقك لان تجد من يرعاك ويحميك ، فى حين انك تظهر عداء للاشخاص الذين تتوق الى حبهم وعنايتهم . انك تحتاج الى الحب ، فلماذا لاتسعى اليه ؟

ان أفضل وسيلة للحصول على الحب ، هى أن تمنح الحب !

وتعلم منح الحب أشبه بتعلم مهنة جديدة . اننا نشعر بالارتباك أولا ، وقد نشعر بالخوف،فنحن لانستطيع أن نغير آثار السنين باشارة واحدة أو كلمة عابرة،ولكن الحب الذى يمنح بحرية ودون انتظار لكلمة شكر أو عرفان بالجميل، هو الحب الذى يفوز بحب مقابل .

وثق أنك منذ اللحظة التىتعترف فيها بحاجتك الىالحب ، ستكون فى الطريق الى الاستقلال والسعادة ،وقد لاتصاب قط بقرحة فى معدتك ! .

***

وكما أن العضلات التى تستخدم لاتصيبها الشيخوخة الا فى أواخر الحياة ، فان العقل الذى يستخدم لايهرم أبدا ، ولاصحة للفكرة القائلة ان التعليم ينتهى مع انتهاء سنوات الدراسة ، اذ أن هذا الرأى يجعلنا نقضى على أنفسنا ، ويفتح أمامنا طريق الشيخوخة بسرعة . فاننا عندما نتوقف عن التعلم ، نبدأ فى الكبر ، وعندما نتوقف عن الاهتمام بالاشياء ، نبدأ فى الشيخوخة ، وعندما نتوقف عناستخدام أجسامنا، نبدأ فى التقدم فى السن ،فليست هناك فترة يجب أن نتوقف عندها عنمزاولة كلنشاط ، كما أنهليست هناك سن يجب أن نصبح فيها من العجائز !

لقد قال الدكتور هارى بنيامينفى كتابه « الطب الامريكى » ان المشكلة ليست مشكلة اضافة سنوات الى حياتنا ، ولكنها مشكلة اضافة حياة الى سنواتنا .

ان بعض الكهول لا يحسون بأعراض الشيخوخة ، بل يحتفظون حتىيومهم الاخير بحكمتهموحيويتهم، وغالبا مايحتفظون بقدرتهم الجسمانية، فهم يرون ويسمعون ، لهم قلوب متسامحة رحيمة ، وأذهان متنبهة

واعية . انهم أناس نادرون لاتنساهم الذاكرة .. والكثيرون منا يعتزون بصورة جد أو رجل حكيم من أصدقاء الاسرة ، ونحن نشكر القدر الذى جعلنا نعرف مثل هذا الشخص ، وان كنا لانستطيع أن نشرح أسس صفاته الفريدة .

ولكن السبب ليس سرا ، فانني أعتقد أن مثل هذا الانسان ، هو شخص بلغ مرحلة النضج الكامل . قد تكون الحياة وهبته حظا سعيدا أو بيئة طيبة منذ الولادة، أو قد يكون تغلب على مساوىء الميلاد والبيئة أو مر بتجارب حرجة خلال شبابه .

وأعتقد اننا لكى نصل الى الشيخوخة فى حكمة وكرامة ، يجب أن نعالج النواحي غير الناضجة التى بقيت فينا منذ الطفولة . ولكى نعيش طويلا - لا بالسنوات فحسب بل بالتمتع بها أيضا ، فاننا يجب أن ندرك ونسيطر على القوى التى تقصر الحياة، فى مطالع الحياة واواخرها .. ويجب أن ننفق بعض الوقت لنغرس فى أنفسنا الرغبة فى الحياة !

ان الرغبة فى الحياة قادرة على تحقيق المعجزات !

ثوب الطبيعة

ارادت احدى شركات الطيران السويدية ان تعرض اثواب الزفاف فى مختلف البلاد فى معرض اقيم فى غرب برلين ، فابرقت الى مختلف الدول تطلب نماذج لهذه الاثواب .. وبعد ايام تلقت الشركة طردا بالبريد الجوى من نيروبى عاصمة كينيا وقد كتب على الصندوق من الخارج « فى داخله ثوب الزفاف الذى يستخدم فى هذه البلاد »

وفتح المختصون الصندوق . . فاذا به خال !

« جوردون جاماك »

مغامرة !

كتب كريتس بوك فى كتابه عن « الوقائع التاريخية » ، انه فى بعض عهود اليونان القديمة، كانت العادة انه كلما اقترح شخص قانونا جديدا فى الجمعية العامة ، فانه يفعل ذلك وهو واقف فوق منصة خشبية وقد وضع حبل حول عنقه .. فاذا تمت الموافقة على القانون ، رفعوا الحبل عن عنقه ، اما اذا فشل القانون .. رفعوا المنصة !


كتاب الشهر
عن صورة التقطت لمونتجومري شخصيا
ما أشبه الأحداث التي حواها هذا الكتاب بما تحويه القصص الخيالية التي تتفتق عنها أذهان كبار المؤلفين، لولا أن كل سطر من سطوره حدث فعلا في عالم الحقيقة لا دنيا الخيال
عن
صورة
مونتجومري



كنت بديلاً لمونتجومري

ملخص عن كتاب Iwas Monty's Double

بقلم كليفتون جيمس

في صباح يوم من أواخر ربيع عام ١٩٤٤ ، دق جرس التليفون بمكتبي ، حيث اعمل بادارة الاجور والمرتبات التابعة للجيش البريطاني ، وسمعت صوتا رقيقا يقول :

ـ انني الكولونيل نيفين بقسم السينما في الجيش ، هل انت الملازم جيمس ؟

وعرفت على الفور صوت محدثي ، انه نجم السينما المعروف ديفيد نيفين ، الذى استطرد يقول :

ـ هل يهمك المساهمة في بعض الافلام السينمائية الخاصة بالجيش ؟

فاجبت : اجل يا سيدى ، انني ارحب بذلك بكل تاكيد

فقال في سرعة : حسنا .. حاول ان تحضر الى لندن لاجراء اختبار سينمائي لك .

واعدت السماعة الى مكانها ببطء .. ورحت اسائل نفسي : ترى هل اصيب الجيش اخيرا بنوبة تعقل ؟ .

لقد كنت ممثلا طوال ٢٥ عاما ، وعندما اشتعلت نيران الحرب في عام ١٩٣٩ ، تطوعت لتقديم خدماتي الفنية للترفيه عن الجنود ، ولكنهم بدلا من ذلك ، اسندوا الى عملا في ادارة المرتبات والاجور ، وهو عمل لا يتفق ومواهبي ، فلعلهم يريدون الآن اصلاح هذا الخطأ ..

وسافرت الى لندن والامل يملأ جوانحي . وفي العنوان الذى ذكره لى ديفيد نيفين بشارع كيرزون ، وجدته هناك ، حيث رحب بي ترحيبا صادقا ، ثم تركني مع رجل يرتدى ثيابا مدنية ، قدم نفسه لى قائلا انه يدعى الكولونيل ليستر . ثم اضاف قائلا :

ـ اصغ الى يا جيمس : انني عضو في الفرع الخامس التابع لادارة المخابرات الحربية ، واخشى ان يكون فيما ساقوله لك صدمة لم تكن تتوقعها . انك لن تعمل في فيلم سينمائي ، ولكن الاختيار وقع عليك لتكون بديلا للجنرال مونتجومري !

كنت اعرف اننى اشــــبه القائد الكبير . وكثيرا ما كان هـــذا الشبه المذهل موضع تعليقات من اصدقائى . وقدنشرت صحيفة «النيوزكرونيكل» صـــورتى يوما وانا اضع « البيريه » المشـــهور على رأسى ، وكتبت تحت الصورة :« انت مخطىء .. انه يدعى الملازم كليفتون جيمس »

وراح الكولونيل ليستر يفحصنى فى صمت برهة من الوقت ، ثم راح يشرح لى الخطة .

قال ان يوم الغزو اصبح وشيكا ، وقد اعددنا قوة عظيمة لغزو الشاطىء الفرنسى ، وسرعان ما تهبط قواتنا هناك ، وتشق طريقهـــا الى برلين . ولا شك انه من المستحيل اخفاء هذه الاستعدادات الضخمة على الالمـــان ، كما ان فى استطاعتهم ان يحدسوا عن المنطقـــة التى ننوى أن نوجه ضربتنا اليها ، ولكنهم لا يعرفون متى نقوم بالهجوم ، كمـــا انهم لا يستطيعون استبعاد احتمال توجيه ضربة اخرى مفاجئة فى جبهة اخرى ، ومن ثم فقد وضعت خطة مخادعة ، وافق عليهـــا الجنرال ايزنهاور ، وكانت فكرةالخطة تقوم على أساس ايهـــام العدو بأن مونتجومرى ـــ القـــائد المنتظر لقوة الغزو البريطانية ـــ قد ترك بريطانيا الى مكان آخر فى العالم . ولكى يتم ذلك ، فان على ان اتقمص شخصية الجنرال مونتجومرى بعـــد ان اقوم ببعض تدريبات سريعة على القيـــام بهذا الدور ..

وقال الكولونيل ليستر محذرا :

ـــ يجب الا تفضى بكلمة واحدة عن هذا الامر الى اى مخلوق .

وعقب هذه المقابلة ، سرى فى كيانى شعور اشـــبه بشعور الرهبـــة التى تسبق ظهور الممثـــل على المسرح . لقد كنت جنديا خلال الحرب العالمية الاولى ، وما زلت اشـــعر حتى الآن بخوف ـــ كالتـــلاميذ ـــ من كبـــار الضباط . ولكن فكرة تمثيل شخصية اكبر هؤلاء الضـــباط جميعا ، كانت مهزلة بشعة ! بل انهم لم يسمحوا لى حتى بوقت كاف للتفكير !

***

وفى خلال الاسابيع القليلة التالية ، اخذت ادرس الصـــور الفوتوغرافية التى نشرتهـــا الصحف للجنرال مونتجومرى ، وراقبت الافـــلام السينمائية التى التقطت له . وراح الكولونيل ليستر واثنان من ضـــباطه يحشـــدون مئات من التفاصـــيل عن شخصية الجنرال فى راسى ، وكانت الحاجة الى السرية المطلقة سـببا فى

ازدياد رهبتى ، حتى اننى كنت اخشى اول الامر ان اتحدث مع احد على الاطلاق

وقال لى الكولونيل ليستر :

ـ اريدك ان تنظر الى الامر على انه رواية نقوم باخراجها لعرضها على العدو .. ان عدونا ليس بسيطا ساذجا ، أن علينا ان نخدع القيادة الالمانية العليا .

ووضعت الترتيبات اللازمة لكى اقضى بضعة ايام بين هيئة اركان حرب الجنرال مونتجومرى زيادة فى الاستعداد لاداء دورى ، حتى استطيع ان ادرسه عن كثب ، وحتى اتفادى الاشتباه فى امرى او الاسئلة المحرجة التى قد توجه الى ، فقد ألحقت هناك باعتبارى جاويشا فى المخابرات ، ولم يعرف حقيقة العمل الذى اقوم به غير اثنين فقط من ضباط اركان الحرب

وفى صباح اول يوم تسلمت فيه هذا العمل الجديد، وجدت نفسى جالسا فى عربة جيب تسير خلف سيارة الجنرال مونتجومرى «الرولزرويس» مباشرة . وعند الفجر ، توقف موكب سياراتنا امام منزل ريفى على مقربة من ميناء بورتسموث ، وبعد ان انتظرنا هناك حوالى خمس دقائق مليئة بالتوتر ، بدأ مساعدو الجنرال مونتجومرى فى الظهور . وبعد ان قاموا بتفتيشنا بدقة تامة ، خرج الجنرال نفسه .

كان « مونتى » يبدو كما كنت اتخيله تماما .. وهو يضع على رأسه قبعته « البيريه » السوداء الشهيرة ، ويرتدى سترة من الجلد ، وقد لاحظت ان له طريقة خاصة فى التحية ، عبارة عن حركة خفيفة مزدوجة من يده ، تجعلها اقرب الى الترحيب منها الى اى شىء آخر .

وانطلق بنا الموكب مرة اخرى .. وبينما كنا نسير بسرعة على طول الطرق الريفية ، كان الاشخاص القلائل الذين غادروا بيوتهم فى مثل تلك الساعة المبكرة يتوقفون او يحدقون فينا ، ثم ما لبثوا ان عرفوا الجنرال ، فابتسموا ، ولوحوا له بأيديهم فى حماسة ، فرد تحياتهم بتحية ودية .

وعندما اقتربنا من البحر ، شهدت عيناى منظرا رائعا ..

لقد اتيح لى ان اشهد « بروفة » كاملة ليوم الغزو ..

كان هناك على مقربة من الشاطىء صف من السفن الحربية يمتد الى آخر مايبلغه البصر من مدى : طرادات ومدمرات ، وسفن ضخمة لانزال

الجنود ، تحمل دبابات وسيارات مصفحة ومدافع بالمئات ، وكان الجو فوق رؤوسنا زاخرا بالطائرات ، بينما راح جنود المشاة يتدفقون على الشاطىء من سفن الغزو

وبعد ان تحدث (مونتى) بايجاز مع بقية قواد القوات المتحالفة ، الذين كانوا يرقبون العملية من فوق سطح احد الفنادق ، ظهر الجنرال مرة اخرى . وعلى الفور تابع الموكب سيره وراءه

واخذت ارقبه وقد نسيت كل شيء آخر . لقد كان الجنرال مونتجومرى مسيطرا على المشهد ، كان يتوقف بين الحين والحين ليلقى اسئلة سريعة على ضباط القيادة والجنود ، فاحصا مدققا ، وهو يقدم نصائحه ويصدر اوامره فى حزم ..

اية شخصية لهذا الرجل ؟

لقد كانت شخصيته تفرض نفسها على الناس منذ اللحظة التى يظهر فيها ، بل وقبل ان يتحدث . ولا شك انه لو ظهر على المسرح لحقق لنفسه ارباحا ضخمة !

***

كان بعض جنود المشاة الذين يكدحون فى سيرهم على الشاطىء بعد هبوطهم من سفن انزال الجنود ، مازالوا يشعرون بدوار البحر ، ولكنهم يحاولون اخفاء هذا الاحساس بشجاعة فقد كان نفور مونتجومرى من الغثيان ، سواء فى نفسه او فى سواه مشهورا

وجاء جندى صغير يكافح ليسير الى جوار زملائه ، وقد هده التعب من ثقل العتاد الذى يحمله ، وراح الفتى الصغير يجر قدميه جرا وهو يكاد يبكى ، ثم انتابته دوخة ، فبدأ يسير فى الاتجاه المضاد لزملائه

وهرع مونتجومرى نحوه سريعا ، ثم اداره الى الناحية الاخرى وعلى شفتيه بسمة ودية ، وقال له :

ــ من هذا الطريق يا بنى ، انك تسير جيدا ، ولكن لا تفقد الاتصال بالجندى الذى يتقدمك . ثم مد يده فوق كتف الجندى الفتى ، ورتب ما كان على ظهره من عتاد كاد يسقط على الارض .

وعندما عرف الفتى حقيقة الرجل الذى قدم له هذه المساعدة الودية ، بدأ على وجهه تعبير صامت بالحب الذى يصل الى درجة العبادة .

وكانت تلك دراسة واقعية عن مدى التأثير السحرى للثقة التى يشيعها (مونتى) فى جنوده

***

في خـــلال الايام القلائل التاليـــة ، تعلمت الكثير عن مونتجومرى . كان لا يدخن ولا يشرب الخمـــر قط ، شـــديد التعصب للياقة البـــدنية . وعندما اتصل به الكولونيل ليستر يوما ليسأله عما اذا كانت هناك اشياء خاصة تميز نظام طعامه لكى اعرفهـــا ، قال بسرعة :

ــ كلا بكل تأكيد .. انني لا اتناول اللبن او السكر مع « العصيدة » هذا كل ما في الامر

وفي خـــلال تناول وجباته ، كان مونتجومرى يتحدث في مرح عن الطيور والوحوش والزهور ، وكان يجـــذب سيقان ضباطه في هدوء ، اذا وجـــد انهم يجهلون التاريخ الطبيعي .. ولم اسمعه قط يشـــير الى الحـــرب في حديثه .

وبينما كنت اتابع مونتجومرى يوما بعد يوم ، كنت ارقبه بعين فاحصة كالصقر ، محاولا اكتشاف تعبيراته العابرة ، وقد لاحظت طريقته الخاصة في الســـــير ، فقد كان يمشي ويداه مشبكتان خلف ظهـــره ، والطريقة التى كان يقرص بها وجنته وهو يفكر ، وحركاته المفاجئة ، وطريقـــة اكله ، وعادته في الضرب بيده بقوة كلما اراد ان يبرز نقطة ما .

واصبحت في النهاية واثقا من انني استطيع ان اقوم بدور مونتجومرى تمـــاما ، سواء من ناحيـــــة الصوت والاشارات او التعبيرات التى تلازم حديثه ، ولكنني كنت اخشى ان يعوقني خجلي الطبيعي عن النجاح في تقليـــد هذه الشخصية الفريدة ، وان اشيع الاحســـــاس الذى يثيره فيمن يراه : احساس القوة والثقة التامة .

وكانت الخطوة الاخيرة في دراستي للجنرال ، اتاحة الفرصة لي للاجتماع به في لقاء خاص . كان الجنرال يجلس أمام مكتبه وهو يكتب ، ولكنه وقف عنـــد دخولي والبسمة على شفتيه ، كان يكبرني سنا ، ولكن الشبه بيننا كان مدهشا ، حتى لكأنني كنت انظر الى صورتي في المرآة . ولم تكن هناك حاجة لوضع حواجب زائفة او وجنات محشـــوة ، او اى قطعـــة اخرى من الاعضاء الصناعية

وسرعان ما وجد مونتجومرى شيئا مشتركا يجمع بيننا ، فقد نشأت انا في استراليا ، بينما نشأ هو في جزيرة تسمانيا المجاورة لاستراليا . وبينما كان يتحـــدث الى ، كنت اصغى اليه بعنـــاية ، محاولا ان اسجل صـــوته الصارم المرتفع ، والطريقة التى يختار بها كلماته . ولم يـكن مونتجومرى

يستخدم العبارات العلنانية فقط ، حتى ان بعض الناس كان يصف خطبه بأنها جافة جدباء !

وقال لى الجنرال قبل ان انصرف :

ــ ان على عاتقك مسئولية ضخمة كما تعلم ، فهل تشعر بالثقة ؟

وعندما ترددت قليلا فى الجواب ، اضاف قائلا بسرعة :

ــ سيكون كل شىء على ما يرام ، لا تدع القلق يساورك .

وفى تلك اللحظة ، تلاشت كل مخاوفى . لقد كان كالمهد به ، قادرا على اشاعة الثقة فى النفوس .

***

وبعد ايام قلائل كنت فى وزارة الحربية ، حيث احسست جوا من التوتر السائد .

وقال لى ليستر :

ــ والآن يا جيمس ، لقد حان الوقت لرفع الستار . غدا فى منتصف السابعة مساء سوف تصبح الجنرال مونتجومرى . سوف تذهب الى المطار فى سيارة ، وامام عشرات من الناس ستركب طائرة رئيس الوزراء . وفى الساعة الثامنة الا ربعا من صباح اليوم التالى ستهبط بك الطائرة فى جبل طارق . وقد نشرنا الشائعات على طول الساحل الافريقي بأن مونتجومرى قد يحضر لاعداد جيش امريكى بريطانى لغزو جنوب فرنسا . وسوف تسافر بعد ذلك الى الشرق الاوسط كله لدعم هذه الشائعات . ان كل حركة من حركاتك ستكون موضع رقابة دقيقة من عملاء هتلر . ونحن نستطيع ان نخبرك بالمزيد عما سوف تفعله ، ولكن الاشياء لاتسير تماما كما نرسمها ، فعليك ان تتصرف بنفسك ، ولتجعل الموقف هو صاحب الكلمة الاولى دائما .

وسكت ليستر لحظة ثم قال :

تذكر من الآن ان كبار الضباط ليسوا الا مرؤوسين لك ، وان الجماهير اذا هتفت ، فان هتافها سيكون موجها لك .

وفى اليوم التالى ، كان الاحساس الثقيل باقتراب « ساعة الصفر » يحوم حولى وانا ارتدى بذلة الجنرال الكاملة ، واضع على رأسى «البيريه» الاسود المشهور ، وفوقها شارة الفرقة المصفحة ، ولكن ليستر كان يبدو راضيا عن التأثير الذى تركته فى نفسه بعد ان ذهبت اليه ليفحصنى للمرة الاخيرة . وقال لى :

ــ هناك شىء آخر واخير .

ثم سلمنى بعض المناديل ذات اللون « الكاكى » وعلى جوانبها الاحرف

الاولى من اسم مونتجومرى .

وقال لى : عليك ان تسقط بعض هذه المناديل وكأنها سقطت منك عفوا، كلما رأيت ذلك مناسبا .

ثم شد على يدى بقوة متمنيا لى حظا سعيدا . وسرعان مارحت اهبط الدرجات ، وخلفى البريجادير هايوود، والكابتن مور ، ياوراى الخاصان .

وفى خارج المبنى ، كانت فى انتظارنا ثلاث سيارات عسكرية ، وقد تجمع عدد من الناس حول السيارة التى يرفرف عليها علم مونتجومرى ، وتصاعدت هتافاتهم وانا اصعد الى السيارة .

وبينما كانت السيارة تنطلق بى ، ابتسمت لهم على طريقة مونتجومرى، ورفعت يدى بالتحية المشهورة عنه ، فزادت هتافاتهم حماسة ، وظللت ابتسم واحيى الجماهير ، حتى تصلبت عضلات وجهى وبدأت ذراعى تؤلمنى .

وفى مطار « نورثهولت » كانت هناك جموع اكبر فى انتظارى ، وعلى مقربة من طائرتى ، وقف صف كبير من كبار الضباط . كان بعضهم يعرف (مونتى) جيدا ، فتسارعت دقات قلبى ولكننى غادرت السيارة بنشاط ، وتبعنى البريجادير هايوود ، ثم رحت أسير ببطء امام صف الضباط الكبار مفتشا، بينما كانوا جميعا يقفون امامى فى صلابة وانتباه .

واتجهت نحو ملاحى الطائرة ، وسألت الطيار :

ـ كيف حالك يا سلى ؟ . . هل تعتقد ان رحلتنا ستكون طيبة ؟

ثم تبادلت معه كلمات قليلة حول تقارير الارصاد الجوية ، وبعد ان فتشت صف ملاحى الطائرة ، سرت نحو باب الطائرة . ثم التفت نحو الجميع ، والقيت اليهم بتحيتى الاخيرة، ودخلت بعد ذلك الى الطائرة .

واحسست براحة تامة بعد ان انتهى المشهد الاول بنجاح . وقد عرفت فيما بعد أن احدا من كبار الضباط الذين رأونى لم يشك قط فى شخصيتى . وقال احدهم وكان يعرف مونتجومرى معرفة وثيقة :

ـ ان الرجل العجوز يبدو على ما يرام . . وان كان متعبا قليلا !

***

وفى الصباح التالى هبطت بنا الطائرة فى جبل طارق . . ورفع الستار عن مشهد آخر .

وامام الصخرة العتيدة ، وقفت مجموعتان من الضباط ورتل طويل من السيارات . وكان بين الجمهور المحتشد فى المطار بعض العمال

الاسبان ، وكثيرون منهم من عملاء العدو المعروفين .

وسمعت هايوود يقول لى هامسا :

ــ دع اكبر عدد من الناس يراك .

وفتحت ابواب الطائرة ، ووقفت عند الباب لحظة ، ثم رفعت يدى وسط السكون السائد بتحية (مونتى) المعهودة ، ثم اخذت اهبط بخفة من الطائرة .

وبعد احتفالات الترحيب ، ركبت السيارة التى انطلقت فى شوارع جبل طارق ، بينما كانت حشود المدنيين الاسبان يقفون لمشاهدة الموكب . وعند مبنى الحكومة ، وجدنا عند وصولنا عددا اكبر من الناس ، كما وجدت «قره قول شرف» ، والجنرال سير رالف ايستوود ، حاكم جبل طارق وصديق مونتجومرى القديم . وابتسم الرجل وقال وهو يمد يده :

ــ هاللو مونتى ، اننى سعيد لرؤيتك هنا .

وكنت قد تلقيت تدريبا خاصا استعدادا لهذه المقابلة ، وكنت اعلم ان مونتجومرى ينادى الحاكم دائما باسم التدليل ، فقلت فى صوت (مونتى) الرقيق :

ــ كيف حالك ياراستى ؟ انك تبدو على ما يرام

وتأبطت ذراعه بطريقة ودية ، وسرنا جنبا الى جنب ، حيث قادنى سير رالف الى مكتبه الخاص . ثم اغلق الباب خلفنا باحكام ، وراح يرقبنى فى سكون قاتل ..

واخيرا شاعت الابتسامة على شفتيه ، وهزنى بحرارة وقال وهو يصافحنى :

ــ اننى لا استطيع ان اصدق عينى .. انك (مونتى) حقا .. لقد ظننت برهة انه غير الخطة وقرر ان يحضر بنفسه .

ثم ذهب بى الحاكم الى غرفتى ، وهناك تناولت افطارى على انفراد . وبعدذلك سرت على مهل نحو النافذة . ورفعت بصرى الى اعلى مصادفة ، فاسترعى انتباهى حركة خفيفة فوق سطح المبنى الملحق بالدار .. كان هناك عامل يقبع هناك ، وهو يصوب نحوى شيئا اشبه بالبندقية !

ومرت بى لحظة عصيبة ، ولكننى بعدان دققت النظر مرة اخرى ، تبين لى اننى كنت مبالغا فى مخاوفى ، فلم يكن الرجل يصوب نحوى بندقية ، بل كان يحاول ان يفحصنى بوساطة ميكروسكوب رفيع

وحضر احد الياوران وذهب بى الى مكتب الحاكم مرة اخرى ،

حيث شرح لى سير رالف الخطوات التالية فقال :

ـ بعد ١٢ دقيقة ، سوف نسير معا فى الحدائق التى تقع خلف المنزل .

ثم غمزنى بعينه ، وقال :

ـ هناك اثنان من رجال البنوك الاسبان من معارفنا ـ ولا استطيع أن اقول من اصدقائنا ـ جاءا ليشاهدا سجادتين قديمتين عندنا . وسوف يلتقيان بك بمحض المصادفة وهما يمران من خلال الحديقة فى طريقهما للداخل ..

ثم نظر الى ساعته : وقادنى نحو الحدائق .

***

كانت الشمس ترسل اشعتها الدافئة من خلال سماء صافية ، ونحن نخطو ببطء بين احواض الزهور ، نتوقف بين حين وآخر لنناقش موضوعا زراعيا ، ثم انحنينا بين المزروعات حتى واجهنا الجناح الايسر للدار . ورأيت مجموعة من العمال يصلحون الجدران ، وكان احدهم ينظر نحوى بعناية ، وعندما ضبطته متلبسا بالنظر الى ، سارع بابعاد بصره عنى واستمر يؤدى عمله .

وعرفت فيه نفس الرجل الذى رأيته يختلس الى النظرات من وراء التلسكوب .

وواصلت جولتى فى الحديقة مع سير رالف ، حتى سمعنا صوت بوابة الحديقة الحديدية تهتز فجأة ...

ثم شاهدنا رجلين قادمين نحونا من خلال الممر الاوسط . اثنين من الاسبان حليقى الذقن ، فى أواخر العقد الرابع من عمرهما ، يرتديان ثيابا سوداء اللون .

وهمس سير رالف بصوت اجش وهما يقتربان :

ـ لا تكن عصبيا .. احرص على رفع رأسك

وبدأنا نتحدث بصوت مسموع عن « مجلس الحرب » و « الخطة رقم ٣٠٣ » ، وكأننا لم نر هذين الغريبين ثم ربت الحاكم على ذراعى وكأنه يحذرنى ، فتوقفت عن الحديث فجأة واظهرت دهشتى لرؤيتهما .

وحياهما سير رالف بحرارة ، فحنيا رأسيهما لتحيتنا على الطريقة الاسبانية . ثم قدمنى اليهما ، فوقف الاثنان ينظران الى فى احترام ورهبة ، وتحدثت اليهما فى ادب ، ولكن من بعيد ، وكنت اشبك يدى وراء ظهرى وانا اتحدث على عادة (مونتى) .

ولاحظت ان احد الاسبانيين ـ وكانت ملامح وجهه تدل على انه

شرير فى رواية مثيرة ـ ثبت عينه التى تشبه عين الافعى نحوى ، بينما كان الآخر يظهر اهتمامه بحديث سير رالف ، ولكنى لاحظت انه كان ينتهز الفرصة ليجول بعينيه فى كل بوصة من جسمى ٠

واستمع الاثنان باهتمام الى ثرثرتى البلهاء عن الجو والزهور وتاريخ هذا المبنى الحكومى ٠ وعندما رأيت انهما شاهدانى بما فيه الكفاية قلت بسرعة :

ـ حسنا ٠٠ آمل أن يستمر الجو هكذا ٠٠ ان أمامى رحلة أخرى طويلة بالطائرة ثم ادرت وجهى للناحية الاخرى وسرعان ما استأذن الاثنان فى الانصراف ٠ وسار معهما سير رالف الى داخل المنزل ٠

لقد تم كل شيء بسرعة ، ولكن فى خلال هذه الفترة الوجيزة ، تغير مصير هذين الجاسوسين ، ومصير الآلاف من جنودنا ٠

وقد عرفت فيما بعد أن هذين الاسبانيين كانا من أنشط عملاء هتلر ، الذين دربوا على يد الجستابو ، وقد زودهما بأوراق وأسماء زائفة ، وأرسلا الى اسبانيا باعتبارهما من رجال المصارف ، واستقرا فى جبل طارق بعد الشائعات التى نشرها قلم المخابرات البريطانى ، حتى يتمكنا من التجسس على حركاتى ٠ وقد وضع الجاسوسان اثنين من أتباعهما لمعاونتهما فى ذلك ٠ أحدهما استخدم فى مبانى دار الحكومة كعامل ، والآخر ترويجى الحق بمقصف المطار ٠

وكان على كل من هؤلاء الجواسيس الاربعة أن يقدم تقريرا مستقلا كل يوم يحوى كل ما شاهده بالتفصيل ٠

ولابد ان الاسبانيين قد عملا بسرعة ، فبعد أن غادرا مبنى الحكومة فى جبل طارق بساعتين ، كان مندوبو هتلر فى مدريد قد تلقوا أنباء بأن مونتجومرى وصل الى جبل طارق ، واستأنف سفره جوا الى أفريقيا ، وسرعان ما أرسلت برلين ذلك النداء الجنونى الى عملائها :

« اكتشفوا بأى ثمن طبيعة الخطة رقم (٣٠٣) ٠ أرسلوا كل معلوماتكم ٠ الامر هام جدا ٠

وعلى الفور أمرت ادارة مكافحة الجاسوسية فى ألمانيا رجالها بتركيز نشاطهم حول هذه المشكلة ٠

***

كان رحيلى عن جبل طارق كثير الشبه بقدومى اليها ٠ كان الجنود بأسلحتهم يصطفون فى المطار تحت

أشعة الشمس ،وجاء سرب من طائرات « سبيتفاير » لتحيتي فوق المطار •

وبعد أن انتهت الرسميات المعتادة تأبطت ذراع السير والف ، وسرت معه جيئة وذهابا الى جوار مقصف المطار ، حيث كان الجستابو النرويجي يعمل! •

وعلى مقـــربة من نافذة المقصف المفتوحة ، بدأنا مناقشة وهمية حول سر عسكرى هام وأخذت أحدث الحاكم عن مشروع خيالى للدفاع عن الميناء، وشحن الاسلحة تمهيدا لتنفيذ الخطة رقم (٣٠٣) • !

***

كانت محطة هبــوطى التالية هى الجزائر، حيث بذرت الشائعات بعناية عن وصول مونتجومرى فى مهمة على جانب كبير من الاهمية ، لعلها انشاء جيش بريطانى أمريكى لغزو جنوب فرنسا •

ووجدت فى انتظارى فى المطار هيئة أركان حرب الجنرال ويلسون لتحيتي وعلى مقربة من المطار ، كان هنـــاك حشد ضخم من المدنيـــين من مختلف الجنسيات ، وقد أغراهم ماتسرب الى آذانهم عن زيارتى السرية ، فوقفوا على أمل مشاهدة الجنرال مونتجومرى شخصيا !

وكان بين هذا الحشد ايطاليان من الموالين للحلفاء فى الظاهر ــ وان كان المعروف انهما من عملاء الجستابو ــ وكان معهما رئيسهما المباشر وهـــو ضابط فرنسى برتبة ميجور ، كان قد وصل الى الجزائر منـــذ أسبوع باعتباره من رجال المخابرات الفرنسية ولكن رجالنا كانوا يعرفون أنه كان فى الحقيقة من أبرع عملاء العدو • وبمجرد وصوله أبدى رغبة شديدة فى مقابلة مونتجومرى اذا جاء يوما الى الجزائر ، وقد حانت الفرصة لتحقيق رغبته •

وقبل أن نغادر المطار ، قدموا لى الميجور الفرنسى •

اننى لم أر فى حياتى مخلوقا يبدو عليه طابع الشر أكثر من هذا الرجل، كانت عيناه السوداوان تلمعان فوق وجه شاحب ، تمتد فيـــه أثر ندبة غائرة من جرح قديم ، وعلى فمه مظاهر القسوة ، وكان يبـــــدو قادرا على ارتكاب أى شىء ،حتى اننى لم أستطع أن أمنع نفسى من مراقبة حركاته فى شك وارتياب ، خوفا من ان يطلق النار على فجأة •

***

وصحبنى ضابط أمريكى برتبـة كولونيل من المطار الى مدينة الجزائر

وعندما دلفنا الى السيارة ، حيتنى السائقة الامريكية الشقراء ، وطلبت منى التوقيع بامضائى فى دفتر « أوتوجرافها » ، ولما كنت أتوقع مثل هذه الحالات من أتصالاتى بهواة (الاوتوجراف) من الامريكيين ، فقد أمدنى الكولونيل ليستر بمجموعة من صور مونتجومرى موقعا عليها بخطه .

ودون أن ابتسم - اذ كان نفور مونتجومرى من وجود النساء فى مسرح الحرب أمرا مشهورا - قدمت اليها احدى الصور وقلت فى جفاء :

- أرجو أن تكفى هذه ؟

ولن أنسى ماحييت هذه الرحلة التى قطعناها من المطار الى الجزائر بالسيارة كان الحرس الامريكى الذى يرافقنى قد تلقى تحذيراً من احتمال وقوع محاولة لاغتيال مونتجومرى . ولما لم تكن هناك قوات كافية يمكن الاستغناء عنها لحراسة طريق طوله ١٢ ميلا ، فقد تقرر أن تطلق السيارة التى تقلنا العنان لسرعتها تفاديا لما قد يقع ، وهكذا اندفعنا بسرعة الصاروخ ونحن نطلق صفارات الانذار تعوى على طول الطريق حتى الجزائر

وأخيرا تنفست الصعداء ونحن ندلف من خلال البوابة الضخمة ، ونتوقف أمام منزل مبنى من الحجارة البيضاء .. كان هو مقر قيادة الجنرال ويلسون .

وأغلقت الابواب وراءنا ، ليرتفع الستار عن مشهد ثالث ...

***

كانت حوادث الايام التالية صورة متكررة : هبوط بالطائرة فى المطار ، واستقبالات رسمية ، وحرس شرف ، وحديث وهمى عن أسرار استراتيجية وجموع محتشدة من المدنيين لمشاهدتى وجنود يملأون الشوارع وهم يهتفون باسمى

كان أعظم ماأخشاه أن ألتقى بكبار الضباط عن كثب ، فاننى لم أكن أستطيع الاستمرار فى الحديث عن المسائل العسكرية الفنية العالية ، ولكن ادارة المخابرات كانت قد رسمت جولتى بمهارة بحيث أتناول طعامى دائما على انفراد ، كما حرصوا على منع اجتماعى بالضباط عن قرب ، الا مع القلائل الذين كانوا يعرفون الحقيقة .. ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا يلقون بى دائما فى طريق عملاء العدو .

ومازلت أذكر يوم جاءنى البريجادير هايوود ومعه أحدهم . كان عجوزا ذا لحية مدببة ، يرتدى حلة رثة سوداء اللون ، وقبعة ذات حافة عريضة ،

تجعله أشبه بممثل قديم أخنى عليه الدهر •

وقال هايوود وهو يقدمه لى :

ـ عذرا ياسيدى . . ان البروفسور × يرجو التشرف بالسماح له بتقديم احتراماته •

انه من علماء الآثار المشهورين ، وهو ايطالى من الموالين لنا

وتعجبت برهة ، وساءلت نفسي: لماذا أضيع وقتى فى الحديث مع عالم آثار ؟ •

***

ولكنى كنت أعلم أن هايوود أمضى فى عمله بالمخابرات سنوات طويلة ، وانه اختير خصيصا لهـــذه المهمة الدقيقة ، كما انه لايفعل شيئا دون سـبب قوى • ولهذا تبادلت مع البروفسور الايطالى بضع كلمات •• وعند ما حنى الرجل رأسه مودعا ، وانسحب بضع خطوات ، التفت الى هايوود ، وبدأت أتناقش معه بصوت مرتفع حول بعض الخطط العسكرية الملتوية •

وعلى مر الايام ، اندمجت تماما فى دورى،حتى أصبحت صورة طبق الاصل من الجنرال مونتجومرى وكنت أقوم بنفس الدور حتى عندما اكون وحيدا !

وفى نهاية الاسبوع ، عدت الى الجزائر ، بعد أن أدركت اننى قمت بمهمتى دون أن تقع أية كارثة خطيرة، فان أحدا لم يساوره الشك قط فى اننى الجنرال مونتجومرى •

ولم يبق على موعد الغزو غير أيام قلائل •• •

وانتهت مهمتى ، فانطلقـت بى السـيارة نحو مقر قيـادة الجنرال ويلسـون ، حيث ارتديت ملابسى الاصلية كملازم فى الجيش ، ثم تسللت فى هدوء من الباب الخلفى ••

لقد أصـبحت مشـابهتى الآن للجنرال موضع احراج . وكان هناك خطر من تسرب السر الى الخارج حتى يبدأ الغزو فعلا ، ولهذا تسللت بعد ظهر اليوم التالى الى طائرة متجهة الى القاهرة ، المدينة الوحيـدة القريبة التى تكفل بضخامتها أن تبتلعنى دون أن يبدو أى أثر لى • وهناك ظللت مستترا حتى بدأ الغزو

***

لقد ظللت أسائل نفسى طويلا : ترى أية فائدة أسفرت عنها جهودى هذه ؟ • ولكنى لم أعرف النتيجة الا بعد انتهاء الحرب •

لقد ساعد هذا الخداع على تضليل العدو ، وابعاد فرق روميل المصفحة

عن ميدان المعركة ، مما ساهم فى انجاح عملية الغزو .. كما علمت مدى الخطر الذى كان يكمن فى المهمة التى قمت بها ، فعندما وصلت الى برلين أنباء رحلة مونتجومرى التى ينوى القيام بها للشرق الاوسط ، أمرت القيادة الالمانية العليا رجالها باطلاق النار على طائرتى خلال الطريق ، فاذا فشلت هذه الخطة ، فان مونتجومرى يجب أن يقتل فى أى مكان فى اسبانيا أو أفريقيا .

ولكن الالمان قرروا فى اللحظة الاخيرة أن يتأكدوا أولا من اننى مونتجومرى حقا ، وعندما ارتاحوا الى هذه النقطة ، تدخل الفوهرر لانقاذ حياتى ، فقد أمر هتلر ألا يقتل مونتجومرى بأية حال ، حتى يكتشف الالمان أولا أين يعتزم الجنرال شن حملة الغزو .

وفى خلال عودتى التى لم يشعر بها أحد بعد الغزو ، توقفت الطائرة التى تقلنى فى جبل طارق .

وبينما كنا ننتظر نقلنا الى مكان نمضى فيه الليل ، واتجه ركاب الطائرة الى مقصف المطار .

وحدث اننى بينما كنت أقف أمام البار ، أن سمعت صوتا يقول بلهجة أجنبية :

ـ ماذا يمكننى أن أحضره لك ياسيدى ؟

ورفعت بصرى ، فرأيت رجلا متوسط العمر أبيض الشعر ، ذا حاجبين كثيفين وعينين رماديتين نفاذتين ..

ويبدو أن أحد البحارة قد استرعى انتباهه لهجة الرجل الاجنبية ، فقال له :

ـ يبدو أنك بعيد جدا عن وطنك

فقال الرجل :

ـ بيننا أميال كثيرة .. اننى من النرويج .

ودفعنى احساس غامض بأن أستدير مسرعا حتى لايرانى الرجل .

لقد كان هو النرويجى الذى يعمل لحساب العدو ! .

وقلت لنفسى وأنا أبتعد :

ـ ترى ماذا يكون رده لو سألته الآن : كيف حال الخطة رقم ٣٠٣ ؟

الملجأ الاخير !

فى مكاتب احدى المؤسسات فى (سانت لويس) وضعت اللافتة التالية :

« عندما يفشل كل شىء آخر .. حاول ان تفعل مايقترحه الرئيس » !

كلمات شابة

ان التفكير فى المتاعب القديمةاشبه بمحاولة تحديد النسل بأثر رجعى !

تشارلس ويلسون

فى هذه الايام التى اتسعت فيها فتحات الصدور فى ثياب النساء.. اصبح النظر فى عينى المرأة يتطلب عزيمة قوية !

بنسا كولا

خصص للتفكير فى كل ما يقلقك نصف ساعة معينة وسط النهار .. ثم استغرق فى النوم خلال تلك الفترة !

بيتر بولا

كل طفل جديد يأتى حاملا رسالة بأن الله لم ييأس بعد من الانسان ..

طاغور

عندما يقول الشخص ان كل مايهمه هو المبدأ لا النقود .. فان النقود هى التى تهمه !

آب مارتين

قابلت فى حياتى قلائل من الرجال الذين يتحمسون للعمل الشاق . ومن سوء الحظ أننى كنت اعمل لحسابهم !

بيل جولد

لو ان نصف ما يبذل من الاهتمام والجهود الهندسية الموجهة للابحاث الخاصة باجسام الامريكيات وجهت الى برامج القذائف الموجهة ، لكان الامريكيون اليوم يبيعون السجق فى القمر !

آل كابونى

ما أصعب شراء هدية زفاف تبدو اغلى من ثمنها الحقيقى !

كيلنجر نجازين

فى هذه الايام يساعد الله الذين يساعدون أنفسهم ، بينما تساعد الحكومة الذين لايساعدون انفسهم !

وان بنيت


كتاب الشهر
٢٠٠٠ لغة تختفي

٢٠٠٠ لغة تختفي

عن كتاب Two Thousand Tongues to Go

بقلم كلارنس و . هول

عندما لدغ ثعبان البوا الضخم لوريتا اندرسون ، وهي تجلس بمفردها في قاربها الصغير على مقربة من احدى قرى الهنود الحمر الواقعة على نهر موروتا في أعماق غابة بيرو، كانت زميلتها ليلي ويسترآند — الممرضة المدربة — قد تسلقت ضفة النهر لعلاج طفل مريض .. وصرخت لوريتا وهي تكافح الثعبان السام ، وأسرعت تقفز من القارب والدم ينزف من يدها وذراعيها بعد أن أصيبتا بجراح بالغة . وهرعت ليلي لنجدتها، وراحت تضمد جراحها ، وبعد ساعة واحدة ، عادت الاثنتان الى عملهما ، تعلمان قبيلة شابرا الهندية كيف تقرأ وتكتب .

وفي نفس هذا الوقت ، وعلى بعد ١٢٠٠ كيلو متر الى الجنوب الغربي ، كانت استر ماتيسون وزميلتها آني شو تكافحان وباء الانفلونزا الذي يهدد باكتساح هنود بيرو ، بينما كانت الاثنتان مصابتين بالحمى .

وعلى بعد ٤٠٠ كيلو متر الى الشمال الشرقي ، كانت ماري روث واين وزميلتها مارتا دان تجلسان فوق طوف خشبي مع بعض أفراد قبيلة اميوشا الهندية ، يكافحون جميعا الشلالات والدوامات في طريقهم الى مدرسة الغابة .

واذا ألقيت نظرة شاملة على أرض بيرو التي تبلغ مساحتها ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع من الاحراش ، كشفت عن عشرات من المحطات الصغيرة الاخرى القائمة وسط الغابات ، حيث يعمل عشرات من الشبان والشابات ويعيشون حياة خطرة بين الهنود المتوحشين ، وكلهم يعمل في سبيل هدف واحد ، هو اقناع الاهليين الاصليين — الذين لم تخضع لغاتهم من قبل للكتابة — بأن يتعلموا سر الورق الناطق .. أو الكلمة المطبوعة .

ان ٤٢ فتاة وحوالي ٧٠٠ شاب يمارسون جميعا هذا العمل ، وكلهم ينتمون الى جماعة تشن

حربا لاهوادةفيهاعلى الامية فى العالم، وقد أطلقت على نفسها اسم «معهد تعليم اللغات الصيفى» وأعضاءهذه الجماعة يعملون الآن فى ١٢ دولة مختلفة ، بين جماعات تنطق ١٧٥ لغة ، يقضون حياتهم يحللون لغات قبائل الهنود غير المكتوبة ، ليضعوا كتبا لتعليم القـراءة ، وقواميس ، وينشـئون المـدارس ، ويدربون المدرسين من الاهلين ، غير مبالين ما يواجههم من اخطار بالغة .

والرجل الذى انشأ هذه الجماعة هو وليم كامرون تاونسند ـ أو العم كام كما يسميه زملاؤه .. وهورجل بالغ النشاط على الرغم من أنه تجاوز الثانية والستين من عمره ، وقـد أمضى أكثر من ٤٠ عاما بين قبـائل الهنود فى أمريكا اللاتينية .

وقد سمعت عن تاونسند اخيرا بينما كنت أستقل طائرةنقل عسكرية تابعة لحكومة بيرو فوق جبال الانديز، اذ بينما كنا نعبر قمة يغطيها الجليد على ارتفاع ٦٤٠٠ متر ونحن نتجـه نحو الغابة ، ازاح الطيار الشاب انبوبة الاوكسجين عن وجهه ، واشار الى البرارى الواسعة الممتدة الى أبعـد مما يصل اليه البصر .. ثم قال :

ـ هناك كثيرون من أهـل أمريكا الشمالية فى تلك الاصقاع ، هل تعرف السنيور تاونسند ومعهـده الذى يعلم اللغات ؟

وعنـدما بدا على وجهى أننى لم أفهم مايعنى ، ظهـرت عليه علامات الاشفاق .. وقال :

ـ يجب أن تذهب وترى بنفسك .. ان أهل بيرو فخورون بمايفعله هذا المعهد لبلادنا

وفى خلال أيام قلائل ، كنت أشق طريقى فى أعماق الغابة ، فى طائرة صغيرة ، تابعة لاحـدى البعثات ، وأحيـانا فى قارب صغير . وهكذا ذهبت ورأيت فى تلك القرى الهندية المتناثرة على طول انهار الغابة الملتوية ، رأيت هؤلاء الشبان الابطال ، وهـم يغزون بالحب قلوبا متوحشـة لم يستطع الزمن أو قبائل الانكا أو الغزاة الاسبان أن تصل اليها ، وفى مقدمتهم ذلك الرجل العظيم ذو القلب الكبير والبسمة السريعة التى تشبه بسمة الاطفال ، يحثهم الى الامام بعـد أن قذفتهم أحلامه الى هذا الغزو الجرىء ضد الجهل والخرافات .

وعندما كان كامرون تاونسند فى الحادية والعشرين من عمره ، مـلأ حقيبته بالكتب الدينية المكتوبة باللغة الاسبانية ، وانطلق الى جواتيمالا .

وكان ذلك فى عام ١٩٠٧ ، وسرعان ما وجد أن بضاعتـــه من العسير تصريفها ، فقد كان أكثر من ثلثى اهل جواتيمالا من الهنود ، والقليـــل منهم هو الذى يعرف الاسبانية .. ولم يبد الا على عدد ضئيل الرغبـة فى التعلم .

وفى ذات يوم ، عرض كاميرون نسخة مما يحمل على أحد الهنود ، فقال له الرجل :

ـ اذا كان الهكم بارعا حقا ،فلماذا لم يتعلم لغتنا ؟

وكانت هـذه العبارة هى السبب الذى دفع تاونسند الى أن يهجـر توزيع الكتب الدينية ، لكى يتيـح للاله أن يكسب لغة جديدة ..

وفى خلال الاعوام الخمسة عشر التالية التىعاشهامعقبيلة كاكتشيكل البدائية فى جواتيمالا ، أخذ يدرس لغتهم الصـعبة ، ويخضعها تدريجا لصورة من صـور الـكتابة ، حتى استطاع بعد دأب وصبر أن يبتكر طريقة مبسطة لتعليم اية لغةصوتية الى لغة مكتوبة .

وفى عام ١٩٢٢ أصيب تاونسـند بالسل الرئوى،فاضطر الىأنيعود الى الحضـــارة مرة اخرى ممتطيا صهوة بغـــل ، ولكنه كان قد ترك لهنـود كاكتشيكل عـدة مدارس ومستشفى صـــغيرا ومطبعـــة وعشرات من دور العبادة .

وعاد كامرونتاونسند الى آمريكا . وبينما كان يعـالج من المرض الذى أصابه ، زاره صـــديق قديم يدعى (ليونارد ليجترز) ، وألح عليـه ان يفعل لهنود فى امريكا اللاتينية مافعله لهنود جواتيمالا .

وفكر تاونسند مليا ، ثم قال :

ـ اننى على اسـتعداد لان أفعل ذلك بشرط واحد ، هو أن تساعدنى على انشاء معسكر لتـدريب الرواد الذين سـيعاوننى فى هذا العمل ، حيث ندربهم على كيفيـــة اخضـــاع اللغات البـــدائية وترجمة الكتب الى تلك اللغات .

واشترك الرجـــلان فى القيـــام باحصائية عن الأميـــة فى مختلف الدول ، فأدهشهما أن يجدا أن حوالى نصف البالغين فى العالم لا يعرفون القراءة والكتابة ، وأن هنـاك حوالى ٣٠٠٠ لغة مختلفة فى العالم ، بينها أكثر من ألفـين ليست لهـــا قواعـد للكتابة أو القراءة !

وقال كامرون تاونسند :

ـ هذا هو هدفنا : ألفا لغة جديدة يجب أن تكتب وتقرأ .

***

وفى صيف ١٩٣٤ أفتتح تاونسند وليجترز مدرستهما فى منزل مهجور باحدى المزارع بقرية أوزارك بجبال أركنســـاس ، وفى خـــلال الموســـم الدراسى الاول لم يزد عدد الطلبة على اثنين • وبعد ســـبعة مواسم ضاق المنزل على رحابه بالطلبة،حتى اضطر تاونسند الى نقل مدرسته الى الفناء الخلفى لجامعـــة أوكلاهوما وأطلق على هذه المدرسة الفريدة فى نوعها اسم « المعهد الصيفى لتعليم اللغات » وهى تدرس الآن لحوالى ٥٠٠ طالب من طلبة جامعـــات أوكلاهوما ونورث داكوتا وواشنطون ، كيفية تحليـــل اللغات وكتابتها ، وللمدرسة فروع فى كل من بريطانيا وكندا واستراليا ، وقد بلغ عدد خريجيها حتى الآن أكثر من ألفين ، يمارسون العمل فى ٢٥ دولة •

وقبـــل أن يرسل الطـــالب الى الاحراش والغابات لممارســـة عمله ، يوضـــع أولا تحت اختبـــار عنيف يستغرق ثلاثة أشـــهر فى معسكر خاص باحدى الغابات ، حيث يثبت قدرته على اقامة كوخه فى الغابة من غير اســتعانة بمنشار أو مســمار أو مطرقة ، وكيف يصنع كوخا خشبيا، أو قاربا محفورا فى كتلة من الخشب، وكيف يسير به فوق الشلالات الثائرة والانهار الزاخرة بالتماسيح ، وكيف يناضل حيوانات الغابة وزواحفهـــا الضخمة ، وكيف يقــوم بالاسعافات الاوليـــة ويجبر العظـام المكسورة ويكافح الأوبئة ، وكيف يشق طريقه وسط غابات خاليـــة من العـــلامات المميزة •

والذين يجتـــازون ذلك الامتحان الشـــاق العســـير ، وهم أكثر من ٩٠ ٪ ، يرسلون بعـــد ذلك ثلاثة أشهر أخرى للحياة مع بعض القبائل، فى اختبار آخر •

***

وما ان انتهى تاونسند من تدريب الطليعة الاولى من شـبابه على كيفية تعليم اللغـــات ، حتى انطلقـــوا الى المكسيك ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وقيل لهم بجفاء :

ـ اننا لا نريد مترجمين ، ان لغات الهنود يجب أن تختفى •

فقال تاونسند :

ـ انها ســتختفى فى وقت أسرع اذا استخدمناها لتعليم الهنود اللغة الاسبانية •

واستطاع بمعونة اثنين من كبار الشخصيات المـكسيكية أن يشـــق طريقه الى الداخل ، فأقام بين قبـــائل

الأزتكس بولاية موريلوس ، وبدأ عمله بتعلم لغتهم .. .. وقد أصبح فى المكسيك اليوم ٢١٦ مترجما للغات القبائل تابعين لمعهد تاونسند ، يعملون بين ٥١ قبيلة مختلفة • وقد قال لهم احد كبار الرسميين اخيراً : أننا لم نعد نعدكم من الأجانب ، بل أنتم مكسيكيون حقا •

وخير نموذج لاتباع تاونسند الذين كرسوا حياتهم لهذا العمل ، ماريانا سلوكم من ولاية باسادينا ، فقد كانت هى وخطيبها يدرسان فى معهد تعليم اللغات استعدادا للذهاب معا الى قبائل « تزلتال » بولاية تشياباس وعدد أفرادها حوالى ٤٠ ألف شخص ، ولكن خطيبها مات قبل الزفاف ، فأصرت ماريانا على أن تواصل وحدها الكفاح من أجل هذه الفكرة الملهمة • وقد حاولت أسرتها أن تعترض فى أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن أذعنت •

وبعد أن تمكنت ماريانا من دراسة لغة القبيلة المعقدة ، أعدت كتب التعليم وافتتحت فصولا للقراءة والكتابة • وفى خلال ١٦ عاما ، كانت قد افتتحت سبع مدارس ناجحة لتعليم اللغة ، وترجمت الى لغة القبيلة مجموعة من الكتب والنشرات التى تنقل الثقافة المكسيكية لرجال القبيلة وفى خلال عملها ، استطاعت أن تقضى على أعمال السحر والسرقة وادمان الخمور بين طوائف كبيرة من القبيلة ، وأن تستخدم الادوية الحديثة لعلاج الامراض بدل علاج الدجالين والاطباء والسحرة ، كما حولت خمسة آلاف من أبناء القبيلة من عبادة الشمس الى عبادة الله •

وفى ديسمبر الماضى ، بينما كانت ماريانا تجمع حوائجها استعدادا للانتقال الى لغة أخرى ، نشرت عنها صحيفة « تمبو » وهى من أمهات صحف المكسيك مقالا فى الصحيفة الاولى استغرق ١٦ عمودا ، قالت فيه : انها استطاعت أن تخرج أمة هندية كاملة من البربرية الى الحضارة !

وذاعت أنباء ماحققه « معهد تعليم اللغات الصغيرة » من نجاح فى المكسيك الى دول أمريكا اللاتينية الاخرى ، وكانت بيرو أول دولة تستجيب لعرض كامرون تاونسند لارسال شبابه المدرب على تعليم اللغات •

وفى صيف عام ١٩٤٥ ، ذهب تاونسند الى بيرو تلبية لدعوة الرئيس مانويل برادو ، حيث أخذ يدرس غابة بيرو ويزور زعماء القبائل ليرى مدى استعدادهم لقبول مجهوده •

ثم أحضر بعض معاونيه وبعث بهم الى ثلاث قبائل تقيم فى مناطق بعيدة عن العمران ، وقد اضطر الشبان فى سبيل الوصول اليهم الى السفر بضعة أسابيع فى زوارق صغيرة وأطواف خشبية ، يشقون طريقهـــم وسط غابات لايمكن اختراقها ، متحاشـين المرور بالقبائل التى اشتهرت بقتـل الابيض بمجرد مشاهدته • وقد أقنعت هذه التجربة المؤلمة تاونسند بشىء واحد، هو وجوب الحصول على طائرة •

كانت هناك بعثة عسكرية تابعـة للبحرية الامريكية فى ليما تفكر فى بيع طائرة برمائية قديمة، فاشترتها حكومة بيرو بمساعدة أحـد المعجبين بعمل تاونسند ، واستأجر تاونسند لقيادتها طيارا عسكريا سابقا يدعى لارى مونتجومرى ، أصبح الآن مراقبا لهيئة طيران الغابة وادارة اللاسلكى التابعة لمعهد تعليم اللغـات ، والتى تعد الذراع اليمنى للمعهد ، وتملك الهيئة اليوم ١٩ طائرة يعمل عليهـا ٢٢ طيارا ، فضلا عن فريق كبير من رجال الصيانة وعمال اللاسلكى الفنيين الحاذقين •

وأغلب هـذه الطائرات تستطيع الهبوط فوق الانهار ، وبينهـا طائرة تدعى «هليوكوريير» تعد فخر أسطول المعهد الجوى ، وهى طـائرة من نوع الهليكوبتر ، تسـتطيع أن تحلق فى الجو مسافة صغيرة ، وتطير على ارتفاع ٧٠٠٠ متر بسرعة ١٢٥ كيلو مترا فى الساعة ويمكنها أن ترفع رجلا من الغابة وهى تطير فى دورات صغيرة قريبة من سطح الارض •

وفى العام الماضى قطع طيارو تاونسند الشجعان أكثر من مليونين و ٤٠٠ ألف كيلو متر فوق الجحيم الاخضر من غابات الامازون فى بيرو دون أن يقع حادث واحد لها، ويهبط الطيارون كل يوم بطائراتهم فى أمان فـوق مساحات صغيرة جـــدا مقتطعة من الغـــابة • أو فوق الانهـــار المليئة بالتماسيح •

ويقضى تاونسند أوقاته جائلا فى أنحاء العالم، باحثا عن القبائل الهندية التى لم يصل اليها من قبـل ، أو مجندا شباب الجامعات للعمل فى معهده ، عارضا على الحكومات برنامجه لتعليم القراءة والكتابة • واذا لم يكن فى مثل تلك الجولة ، فانك تجده دائما فى منزله بمنطقة « ياريناكوتشا » وهى منطقة الاعداد لعمليات معهـد تعليم اللغات فى بيرو ، وهى عبارة عن مساحة قدرها ١٦٠ فدانا مقتطعة من الغابة، أشبه بخلية نحل لاينقطع

فيها الطنين بفضل نشاطها المكرس كله لغاية واحدة ،هى خدمة الشبان الذين يعملون الآن بين ٢٩ جماعةمن قبائل بيرو المختلفة ، وعددها جميعا ٤٩ قبيلة ، لكل منها لغتها وعاداتها ومناظرها الخاصة ٠

واذا فاجأت تاونسند فى المنزل، فانه سوف يطوف بك أرجاء القاعدة الكبرىعلىطول شواطىء بحيرةيارينا، فهناك المطارات وورش الاصلاح وحظائر قواته الجوية ،وهناكمساكن للعمال وأسرهم وعددهم ١٧٥ شابا وفتاة ، وكلها على طراز بيوت الغابات،وهناك مستشفى طبىومقهى ومطعم وعنابر نوم للعمال من رجال القبائل الذين يمرون بالقاعدة دائما قادمين أو راحلين٠وفى القاعدةمطبعة تطبع فيها كتب تعليم القراءة للقبائل والقواميس وغيرها من أدوات القراءة وقد أنجزتهذه المطبعةفى العامالماضى فقط طبع ١٨ ألف مجلد ٠ وهناك أيضا فصول للدراسة ، يحضر فيها الهنود ليتلقوا تدريبا تحت أشراف وزارة التعليم فى بيرو،حيث يتعلمون اللغة الاسبانية،ثم يعودون للتدريس فى المدارس الجديدة التى تشيدها الحكومة بين أهليهم ٠

ومركز العصب فى قاعدة الغابة هو المركز اللاسلكى ، وهو عبارة عن برج للمراقبة ، يجرى العمل فيه ليلا ونهارا ليظلعلى اتصال معمعلمى اللغات المقيمين بين القبائل ٠ وقد اشترى تاونسند لهذا المركز أجهزة لاسلكية من مخلفات الحرب كافية لربط كل أجزاء الغابة البيضاء فى شبكة لاسلكية واحدة ٠

وقد وقع كثير من الحوادث التى دلت على قيمة هذه الشبكة ، فقد استخدم بعض أعضاء المعهد جهاز الارسال لاخماد حربكانتعلى وشك الانتقال بين القبائل ، اذ بينما كان يوجينسكوت وزميله كنيث كنسيجر يقيمان بين قبيلة « كاشيناهواس » التىاشتهر رجالها باسم «الوطاويط» اذ وجدا القبيلةيوما وقد انهمكت فى الاستعداد لحرب طاحنة ، فقد سمع رجالها شائعة تقول ان أحد أقاربهم وكان متزوجا من قبيلة « كولينا » المجاورة قد قتله أقاربزوجتهبالسحر فصاح الجميع وهم يلوحون برماحهم وأقواسهم وأسهمهم : الموت لقبيلة كولينا ٠

وسأل سكوت الهنود : وماأدراكم ان هذه الشائعة صادقة ٠ ؟ دعونا نتحقق أولا من الامر ٠

وتزاحم المحاربون من أفراد القبيلة

حول جهاز الارسال الذى استخدمه سكوت وقد بدت عليهم الحيرة، بينما بعث سكوت نداء الى زملائه المقيمين مع قبيلة كولينا •

وبعد دقائق قليلة ، كان صوت القتيل المزعوم ، يؤكد لاقاربه من على بعد ١٥٠ كيلو مترا، انه مازال على قيد الحياة،وان قبيلة كولينا الصديقة تعامله أحسن معاملة •

وهنا ألقى المحاربون أسلحتهم ، وطلب زعيمهم أن يتحدث الى زعيم القبيلة الاخرى ودعاه مع رجاله الى وليمة كبرى ، وبعد أيام انقلبت المجزرة المنتظرة الى احتفال بالصلح بين القبيلتين •

وعلى معلمى اللغات المقيمين فى الغابات أن يقوموا باتصالات لاسلكية منتظمة بالمركز الرئيسى ، حتى اذا انقطعت أنباؤهم التى يذيعونها على الهواء فترة طويلة ، أرسلت طائرة خاصة لمعرفة السبب ، كما يطوف فريق من العمال اللاسلكيين الفنيين بانتظام بين مختلف المحطات للكشف على مافيها من أجهزة الارسال والاستقبال والتأكد من صلاحيتها تماما •

وفى بعض الاحيان يتحول برج اللاسلكى فى « ياريناكوتشا » الى محطة لاذاعة الاخبار على أفراد الجماعة المنتشرين وسط الغابات •

وتذهب الفتيات التابعات للمعهد الى تلك المناطق الخطرة بنفس اللهفة التى تذهب بها زميلاتهن فى أمريكا الى متاجر الثياب ، بل يبدو انهن أصلح من الرجال فى هذا العمل • ولعل هذا يرجع الى أن الهنود أقل ارتيابا فيهن • ويقول تاونسند ان زعماء الهنود يعتقدون انهن مجرد نساء لاقدرة لهن على الايذاء أو لعلهن يبحثن عن أزواج !

وكان تاونسند فى أول الامر يخشى ارسال فتيات الى مواقع القبائل غير المأمونة ، ولكن مالبث ان اطمأن وتركهن يذهبن •

وفى كل بيرو، لم أجد أكثر شجاعة بين فتيات معهد اللغات الصيفى من « لوريتا اندرسون » التى كانت الرائدة الاولى بين قبائل الشابرا • فمنذ ثمانى سنوات فقط ، كانت هذه القبائل مشهورة بالقتل وصيد الرؤوس البشرية ، وكان زعيمها تاريرى قد توصل الى الزعامة بعد أن ذبح سلفه بكل هدوء •

وحدث فى أحد أيام سنة ١٩٥٠ ان ذهبت لوريتا مع زميلتها دوريس كوكس الى قرية تاريرى فى قارب

صغير ، ثم تسلقت الاثنتان ضفة النهر بين صفوف من رجال القبيلة الذين ينطلق الشرر من عيونهم،وقد أدهشتهم هذه الجرأة التى بدت من الفتاتين البيضاوين •

واتجهت الفتاتان صوب الزعيم ، واخذتا تستخدمان كلمات قليلة من لغة القبيلة تعلمتاها من أحد التجار فى النهر،وتكملان حديثهما بالاشارات حتى أبلغتا الزعيم انهما قدمتا لتعيشا بين شعبه ودراسة لغته •

وحملق تاريرى فى الفتاتين فى صمت طويل، ثم أمر اثنتين من نساء القبيلة العجائز بمساعدة الفتاتين فيما تريدان • وبعد بضع سنوات قال تاريرى لتاونسند :

– لو أنك أرسلت الينا رجالا لقتلناهم بمجرد رؤيتهم •• ولو أرسلت رجلا وامرأة لقتلت الرجل وأخذت المرأة لنفسى ، ولكن ماذا يستطيع زعيم كبير أن يفعل بفتاتين لاحول لهما ولاقوة ،وتصران على مناداتى بقولهما : ياأخى ؟

والغابة التى تحيط بكوخ الفتاتين لاتخلو من جمال • ان سحبا من الفراشات الجميلةذات الالوان المبهجة ترفرف تحت أشعة الشمس الساطعة التى تتخلل أوراق الاشجار عندما يتوقف المطر ، والطيور الجميلة تملأ الغصون ، وفى الليل تنبعث أصوات القردة وهى تعوى وتولول ، ويرتفع صوت النمر الامريكى المفترس •

ولعل أكثر الاشياء مضايقة ، هو أسراب الذباب والهوام والزواحف، والنمل والصراصير التى تتسلل من كل فتحة فى الكوخ . والعناكب الكبيرة التى تزحف فوق الشباك المحيطة بفراشيهم ليلا •

وتقول دوريس : فى خلال الشهور الخمسة الاولى ، أصابنا رعب عظيم •

***

وفى احدى الليالى بينما كانت الفتاتان تعملان على ضوء الشموع ، اذ اندفعت الى الكوخ امرأة هندية تحمل اليهما انباء مروعة .. قالت ان رجال القبيلة سكروا بعد وليمة خمر حافلة ، فتدفقوا نحو الكوخ وهم يصيحون معلنين عن عزمهم على اغتصاب الفتاتين البيضاوين !

وهرعت الفتاتان صوب الغابة حيث أمضتا الليل هناك • وفى الصباح عادتا الى جهاز اللاسلكى واتصلتا بالقاعدة فى (ياريناكوتشا) التى تبعد عنهما بحوالى ٦٤٠ كيلو مترا • فقال مدير القاعدة :

– استدعيا تاريرى لمحادثتى

باللاســلكى

وجاء الزعيم ، وسمع صوتاينبعث من الصندوق الاسود قائلا فى لهجة صارمة •

ـ أنت الزعيم ، فكيف لاتستطيع السيطرة على رجالك ؟ •

وأحس تاريرى بهــذا التحــدى لسلطانه ، فقال فى عزة وأنفة :

ـ اننى الزعيم ، وأتعهدللسيدتين انه لن يصيبهما مكروه •

وفعــلا اطمأنت الفتــاتان على نفسيهما بعد ذلك •

وفى مثل هذا الجو الحافل بالازعاج والمضايقات انكبت الفتاتان على العمل المضنى حتى درستا لغــة القبيلة • وأعدتا كراسة تحوى حروفا أبجدية لهذه اللغة ثم وضعتا كتــابا لتعليم مبادىء القراءة والكتابة بها، وأخذتا تعلمان أطفال القبيلة كيف يقرأون ويكتبون ، كمــا ترجمتا الاقاصيص الشعبية والاساطير الخاصة بالقبيلة•

وانضم الزعيم تاريرى الى جماعة من قبيلته كانت الفتــاتان تقومان بتعليمها ، وقد أعجب الرجــل بهما اعجابا بالغا بعد أن رأى لغتــه وقد أصبحت تكتب وتقرأ •• ومنذ ذلك الحــين ، اقبــل عــلى معاونتهما فى استخراج المعانى الصحيحة لكلمات اللغة ، وفى كتــابة قصص القبيلة وترجمة فصول من الكتب الدينية •

وفى خلال الشــهور التالية بدا تغيير كبير على تاريرى ،فقد كف عن عبادة الافعى،واستنكر طب السحرة ، وحرم القتل على رجاله ، وألغى عادة قطع الرؤوس التى اشتهرت بهــا القبيلة •

وهناك اليوم كثير من المدارس التى تعلم أطفال قبيلة الشابرا ، كما ان عددا من شباب القبيلة يتدرب الآن ليقوم بعد ذلك بالتدريس فى هــذه المدارس • وسوف تقضى الفتاتان فترة أخرى تتراوح بين خمس وسبع ســنوات مع القبيلة قبل أن تنتقلا الى قبيلة أخرى ، ومعركة أخرى مع لغة جديدة •

***

ولقد اكتشفت نفس هذا المسلك فى كل فريق من معلمى اللغات التابعين لمعهد تعليم اللغات ممن التقيت بهم، وأكثرهم شكيمة هؤلاء الذين يعملون مع قبائل ذات نغمات مضاعفة ،حيث يختلط المعنى بين الكلمات ولايميز بينها غير نغمة القائها •

وعلى شباب معهد اللغات أن يقوم الى جوار تعليم اللغة بمعالجــة عدد لايحصى من الامراض ، ولهذا يفضل

تاونسند كلما أرسل اثنين الى الغابة أن يكون أحدهما مدربا على التمريض، كما يجب أن يكون الاثنان على استعداد لمواجهة الحالات الصحية الطارئة التى تحدث كثيرا • فالالتهـــاب الرئوى شائع هناك ومميت ، كمـا ينتشر أيضا مرض الفيـل وبعض أمراض القرحة الذى ينتقل عن طريق ذبابة الرمل ويتلف مسالك الانف والحنجرة ويؤدى الى الموت جوعا •

وخير مثل رأيته بين ممرضـــات المعهد فتاة تدعى جينى جـروفر ، وهى مخلوقة هادئة عسـلية العينين تقيم مع قبيلة « أجوارونا »وهى فرع من قبيلة جيفاروس التى اشـتهرت بصيد الرؤوس ، وتعد أكبر قبـائل الهنود فى حوض الامازون ببيرو وعدد أفرادها حـوالى عشرة آلاف • وقد استطاعت جين وزميلتها ميلى لارسون أن تقيما هناك ١١ مدرسة للغات ، يقوم بالتدريس فيها رجال من القبيلة لم يكونوا يعرفون الى سنوات قليلة كيف يكتبون أو يقرأون •

وفى عام ١٩٥٦ اشترك ١١ مدرسا من القبيلة فى الانتخابات العامة فى بيرو لاول مرة فى حياة القبيلة !

وتقيم جينى وميلى فى كوخ مقام فوق رقعة صغيرة من الارض المتقطعة من الغابة يحدها النهر الثائر من ناحية والغابة الكثيفة من النواحى الثلاث الاخرى •• ويأتى حوالى ٣٠ هنديا كل يوم الى الكوخ لتقوم جينى بعلاجهم أو اسعافهم ، وهى تضع على رأسها ورقة من أشجار الموز كمظلة، وتمسك حقيبتها الطبية فى يدها ، أو تسافر فوق النهر المضطرب فى زورق صغير لعيادة المرضى •

وحدث يوما أن أصيب حوالى ٢٠٠ شخص من أبناء القبيلة بحالات من السعال الديكى مما أرهق مخزونهـا من الادوية ،فأرسلت نداء باللاسلكى الى « ياريناكوتشـــــا » وسرعان ما جاءها الرد فى طائرة مشـــحونة بالادوية • وبعد عشرة أيام من جهاد مضن، استطاعت الفتاتان وقف الوباء على طول نهر الماراتون قبل ان يتسع خطره •

وتقول جينى انهما استطاعتا تخليص القبيلة من سلطان الاطبـاء السحرة الدجالين ، بل ان بعضهـم يحضر أبناءه اليهما لعلاجهم مما يصيبهم من مرض •

***

وقد بدأت القاعدة الاساسية فى ياريناكوتشا عملهـا فى عام ١٩٤٩ وكان على رأسها الدكتور كنيث اليتج



ولم يكن بها غير أدوات طبية قديمة وبعض الادوية التي تبرع بها المحسنون أما اليوم فهي تفخر بمبنى يضم ١٢ غرفة ، ومعملا من أحدث طراز مجهزا بكل الادوات الطبية اللازمة بما فيها أشعة اكس، وهذا المركز يعالج حوالى ستة آلاف مريض سنويا ، وتقوم ادارة الصحة العامة في بيرو بامداد المخازن الطبية للقاعدة بما يلزمها من دواء ، كما تساهم في ذلك بعض مؤسسات صناعة الادوية الصديقة • ويشرف على المستشفى المزدحم الدكتور رالف ايشنبرجر مع عدد صغير من الممرضات ، وهو يقوم بعلاج المرضى الذين تحملهم الطائرات من الغابة ، كما يظل على اتصال دائم بمعلمات اللغة الممرضات حتى يكن على استعداد دائم للطيران لمواجهة الحالات الطارئة الهامة بمجرد الاشارة •

وفي عام ١٩٥٤ ظهر عدد من مرضى الجذام على طول نهر « أوكايالى » ، فقام الدكتوران ايشنبرجر واليتج برحلات شهرية لمكافحة هذا المرض الخبيث في عشرات من القرى على طول النهر ، وقد أمكن وقف المرض وعلاج عدد كبير من الهنود المصابين به خلال السنوات الاربع الاخيرة •

وعندما تواجه ممرضات المعهد حالة معقدة ، يسرعن بالاتصال بالدكتور ايشنبرجر باللاسلكى، فيطلب اليهن وصف الحالة وصفا دقيقا مفصلا ، ثم يصف طريقة العلاج التي يجب اتباعها •

***

ويقول تاونسند انهم يلجأون لاقناع هنود الامازون بالاقبال على التعليم، بالتأثير في ثلاث نواح تتفق وحالتهم العقلية، هي افتخارهم بلغتهم الاصلية، ورغبتهم في تحسين حالتهم الاقتصادية ثم فضولهم الذى لايهدأ ولا يرتوى•

والواقع ان هنود الغابة من اكثر الناس فضولا، لولا الخوف من القبائل الاخرى وسوء المعاملة الذى عانوه من الاجانب خلال الاجيال الماضية ،ولا سيما زراع المطاط والباحثين عن الذهب •

ولايكاد أحد أبناء هذه القبائل يكتشف أن في استطاعته تعلم القراءة حتى ينطلق في هذا الطريق ، وقد بدت فائدة تعلم لغة ثانية في بيرو — هي اللغة الاسبانية — بوضوح ، ولاسيما لمن يتعاملون مع التجار الجائلين وغيرهم من العملاء الذين يقيمون عند اطراف الغابات ، حيث استقر بعض التجار الذين يقدمون لهم بعض الحلى التافهة مقابل سلع هندية ، وهم غالبا مايخدعونهم مستغلين جهلهم •

ولهذا قرر بعض زعماء القبائل ان يعلموا شعوبهم لتفادى هذا الخداع ، وعلى رأسهم الزعيم شيرونكاما الذى يعد من أقوى زعماء القبائل فى بيرو•

وقد أدى انتشار التعليم بين القبائل الى الامتناع عن عبادة الاوثان وتحريم القتل والخمور وسبى النساء من القبائل الاخرى ، وتعدد الزوجات وغيرها من العادات الضارة •

***

وشجعت حكومة بيرو انشاء معاهد تدريب أبناء القبائل ليكونوا مدرسين لشعوبهم ووضعت برنامجا ضخما لذلك ، حيث يتلقى بعض رجال القبائل برامج خاصة باللغة الاسبانية ، ثم يعودون بعد التخرج للعمل كمدرسين لابناء قبيلتهم ، وتدفع لهم الحكومة أجورهم • وقد وضع النصار الرسمى لوزارة التربية فوق مدارس الغابات •

وفى خلال هذا العام ، تلقى ٧٥ مرشحا للتدريس هذا البرنامج ، وهم يمثلون ١٦ قبيلة مختلفة ، وقد جمعت بينهم الصداقة برغم ماكان بين قبائلهم من عداء وخلاف شديد •

وقال الدكتور مورون بستا الذى يعد فى طليعة المربين فى بيرو بعد ان زار بعض مدارس الغابات :

— لقد أظهر لنا هؤلاء الشباب كيف نشق طريقنا بين أدغال الجهل ، وساعدونا فى اشراك سكان البلاد الاصلية فى حياة بلادنا ، وهم يستحقون كل مساعدة •

وقد عين الدكتور مورون مراقبا على مدارس الغابات فى يناير ١٩٥٧ ، وهو يقيم الآن فى بيت سقفه من الغاب ، ويقضى أغلب وقته فى التفتيش على المدارس المتناثرة فى انحاء الغابة •

ويشاطر مورون تاونسند رأيه فى أن الهنود الذين تعلموا حديثا لايستطيعون البقاء على العيش من صيد الاسماك والحيوانات ، بل انهم يفضلون الاستقرار فى قرى دائمة ، حيث يتمكن اطفالهم من الذهاب للمدرسة ، ويستطيعون هم الحياة بطريقة أفضل •

وقد شنت حكومة بيرو حملة جديدة لتعليم القبائل وسائل الزراعة الحديثة، وساعدهم معهد تعليم اللغات عـــلى تنفيذ هذا البرنامج .

ويقول تاونسند ان هدفه الرئيسي هو ألا تنتزع الهندي من غابته ، بل أن تنتزع الغابة من أعماق الهندي .

وقد قال أحد زعماء قبائل الامازون لهم كام :

ــ قبل أن تأتي الينا لم يكن هناك غير الظلام .. أما اليوم فليس هناك سوى النور !

ايهما اقوى ؟

كان أحد ابناء ولاية تكساس يزور ولاية نيو انجلند .. فاخذ يفاخر بالمزايا الصـــحية التي تتمتع بها ولايته بسبب جوها الرائع . ثم قال ، ان والده الذي يبلغ من العمر ٧٥ عاما لا يزال يركب جواده كل يوم ..

وهنا قال أحد الذين استمعوا الى حديثه أنه يعرف شخصا من أهل نيوانجلند يبلغ مثل هذه الســـن ، وهو يمضي أكثر من عشر ساعات كل يوم في حرث أرضـــه ، ولـكنه اضطر في الاسبوع الماضي الى التخـلي عن عمله بعد ظهر يوم السبت ، لكي يشهد حفلة زفاف أبيه ..

وسأله ساكن التكساس في دهشة :

ــ وكم يبلغ عمر ابيه .. ؟

ــ ٩٩ عاما ..

ــ ولمـاذا يريد الزواج في هذه السن ..؟

ــ لانه من العار أن يظل عزبا .. !

اقتراح نافع !

قدمت لجنة الخدمات المدنية الامريكية شهادة شرف ومبلغ ٢٧٥ دولارا للمستر جون أوفرهولت الموظف الحـكومي بواشنطون ، وذلك مكافاة له على الاقتراح الذي قدمه للجنـــة لتوفير اموال الدولة ، فوافقت عليه فورا ..

اما الاقتراح .. فهو الغاء وظيفة صـــاحب الاقتراح !

(ى . ب)

« ان ما حواه هذا الكتاب من أمثلة مقنعة لقصص النجاح التى ألهمها الاحساس بالنقص ، كفيل بأن يساعد الشخص العادى على ان يفهم نفسه ويفهم غيره ، وان يتجه بحياته فى طريق أكثر هناء وسعادة »

كتاب الشهر

الإحساس بالنقص

أول خطوة نحو النجاح

ملخص كتاب

The Importance of Feeling Inferior

بقلم مارى بينون راى

فى يوم من أيام يونيو، كان قطار برودواى الجديد يقف بكامل عرباته فى احدى ساحات السكك الحديدية فى « لونج ايلاند » ، وفجأة اضيئت مصابيح التصوير ، ودوى صوت العدسات ، وضج الجمهور المحتشد عندما قفز رجل يرتدى سروالا رياضيا قصيرا ، وربط سلسلة حديدية الى العربة الاولى.. ثم جذب القطار بيديه ، فاذا بائنين وسبعين طنا من الصلب تتبعه فوق القضبان !

ان الرجل الذى قام بهذا العمل هو انجيلو سيسليانو ، الذى يبلغ السابعة

والاربعين من عمره . وقد نشأ انجيلو في الاحياء الفقيرة من (بروكلين) ، وكان ابنا لمهاجر ايطالى . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره ، كان فتى شاحب الوجه ، هزيلا ضئيل الجسم ، لا يزيد وزنه على ٤٤ كيلو جراما ، وكان دائما موضع سخرية المشاغبين من الفتيان .

وفى احد ايام الآحاد ، ذهب انجيلو مع بعض فتيان الحى الذى يقطن فيه ، لزيارة متحف بروكلين ، وهناك جلس الفتى الهزيل وقد ثبت انظاره على تمثالين لابولو وهرقل ، واستمع الى زعيم الجماعة وهو يقول لهم ان الرياضيين الاغريق هم النماذج التى صنع المثالون منها هذين التمثالين .

وفى تلك الليلة ، امسك انجيلو سيسليانو احدى الصحف ، وراح يقص منها التدريبات الرياضية ، وبدأ يعمل ليجعل من نفسه رجلا يشبه ابطال الرياضة الاغريق ..

ولم يتخل انجيلو قط عن هدفه منذ ذلك الحين ، حتى عندما كان الجميع يسخرون منه وهو يستعرض امامهم عضلاته الهزيلة ، او عندما كان يحاول ان يتفاخر بقوته ، فيتقدم من احد الفتية المشاغبين ويقول له : هل لك فى مصارعتى ؟ فيمد الفتى يده ليزيحه بعيدا !

ويبدأ انجيلو يبتكر لنفسه تدريباته الخاصة ، وراح يجمع قطعة من العضلات فوق الاخرى . ولم يعد هناك شك فى أن عضلات الفتى الهزيل بدأت تنتفخ فى كل اتجاه ، حتى اصبح يوما « صاحب اكمل جسم فى العالم » واصبح جسمه « مزيجا من هرقل وابولو » كما وصفته الصحف .

لقد اكتسب تشارلس اطلس ــ انجيلو سابقا ــ هذه الالقاب فى مسابقات كبرى لكمال الاجسام . ولم يستطع احد حتى اليوم ان يقترب من المثل الاعلى لجمال الرجولة عند الاغريقيين كما فعل انجيلو . ولاشك انك شاهدت بعض التماثيل التى كان هو نموذجا لها ، وبينها تمثال « الاسى » المقام على ضفاف نهر المارن بفرنسا وغيره من التماثيل الكثيرة .

أليس من الواضح ان انجيلو سيسليانو اصبح «تشارلس اطلس» لانه كان يوما قزما هزيلا يزن ٤٤ كيلو جراما ، وموضع سخرية وعبث المشاغبين ؟

***

ولدت كلاسن جيرتى على مقربة من حى « باو بلز » الذى يعد من احياء لندن الفقيرة ، وكان ابوها

سكيرا مدمنا ، يعمل مغنيا فى صالات الدرجة الثالثة . وعندما بلغت جيرتى الثالثة عشرة ، ذهبت لتعيش مع ابيها وعشيقته فى غرفة واحـــدة يقسمها ستار من القماش

كان ابوها يعمل فى المسرح . وهذا هو الجو الذى تريده جيرتى . وبعد ان اسندوا اليها ادوارا صغيرة ، قيل لها انها تبدو كسيدة راقية .

وذهبت جيرتى لتقـــابل « ايتاليا كونتى » مدربة المسرح الشهيرة ، التى اكدت لها انها قد تتعلم حقـــا لتبدو وتتصرف كسيدة راقية ، ولكن صوتها الخشن الجلف ولهجتها العـــامية لن يخدعا أحدا

وكان هذا هوكل ماتريده جيرتى . لقـــد كانت تتوق فقط الى ان تصبح سيدة راقية ، اما الآن ، فقد صممت على ان تصبح كذلك .

وراحت جـــيرتى تكثر من التردد على مســـكن المدربة ، حتى رضيت مس كونتى اخيرا ان تتولى تدريبها .

هذه الفتاة الفقـــيرة نفسها ، هى التى ظهرت بعد بضع سنوات فى دور راليزا دولتيل بائعة الزهور فى رواية (بيجماليون) لبرنارد شو ، واستطاعت ايتاليا كونتى ان تجعـــل من كلاسن جيرتى ، « جيرترود لورانس » التى تعد فى مقدمة من يفخر بهن المسرح البريطانى ، والتى اصبحت من اعظم شخصيات المجتمع العالمى ، فاستبدلت بالفقر الغنى ، وبالمنبت الحقير التربية المهذبة ، وبالكلام السوقى العبارات النفيسة ، وبالقلق العاطفى، استقرارا فى الزواج من رجل محب لها . ولم تكتف بذلك ، بل قرأت كثيرا ، حتى اصبحت اســـتاذة زائرة بجامعـــة كولومبيا .

وتعترف « جرترود لورانس » بأن حياتها كلها قد تأثرت بمركب النقص الاجتماعى الذى كانت تشعر به .

***

كان اكثـــر من مائتى شخص من الشخصيات الشهيرة قد دعوا لحضور المأدبة ، تجتذبهم شهرة المضيفة التى يضع لها كول بورتر ألحانا خاصة ، ويغنى فى حفلاتها لوريتز ميلشيور ، ويعـــزف فيها جورج كوبلاند عـــلى البيانو اغنية « فى ضوء القمر » والقمر نفسه يسبح فى سماء البندقية .

ودق جرس التليفون فى جنـــــاح المضيفة ، وغمغمت السكرتيرة تقول :

ــ ان مسز كورنيلوس فاندربلت ــ المليونيرة المعروفة ــ تقول انهـــا سمعت كثيرا عن مآدبك الرائعـــة ، وهى تتساءل عما اذا كان فى استطاعتها

الحضور مع بعض اصدقائها الى مأدبة الليلة .

وغاصت المضيفة فى مقعدها الكبير، وطاف بخيالها مشهد من مشاهد الماضى .

كانت يومئذ طفلة فى الثانية عشرة من عمرها تعيش فى سان فرانسيسكو، وكانت هناك حفلة كبرى تقام فى البيت الكبير الذى يقع عبر الشارع الذى تقطن فيه ، لمناسبة عيد ميلاد صديقتها الصغيرة ابنة صاحب المنزل الكبير .

وظلت هى طوال اليوم منحنية فوق السور ترقب الاستعدادات التى تجرى للحفلة .. كانت هناك زينات واكداس من الطعام والزهور ورجال الاوركسترا .

والتفتت الطفلة الى امها وقالت :

ـ أماه ، أى رداء سأرتديه فى الحفلة ؟

فقالت الام :

ـ انت ؟ .. انك لن تذهبى الى الحفلة يا عزيزتى ، لاننا لم ندع اليها .

ـ لم ندع اليها .. لماذا ؟

ـ لاننا لسنا من مستوى اسرة صديقتك !

وفى المساء .. جلست الطفلة فى نافذتها ترقب العربات وهى تتوافد على الدار ، والاثواب الحريرية الهفهافة وهى تجرجر أذيالها .. والضحكات والموسيقى تدوى فى اذنيها ..

وظلت ذكريات هذه الليلة اقسى ذكريات حياتها ، حتى اصبحت عجوزا ..

وعادت السكرتيرة تذكرها :

ـ ان مسز فاندربلت لا تزال على الخط يا سيدتى ..

واحست بنشوة الفوز تعصف برأسها بصورة لم تحس بها فى حياتها، وهى تقول :

ـ قولى لمسز فاندربلت ان هذه المأدبة لاصدقائى فقط .

لا شك ان السبب واضح فى ان « الزا ماكسويل » اصبحت اشهر من يقيم المآدب فى العالم ، واصبحت شهرتها عالمية كمضيفة من الطراز الاول .

انها تقول فى قصة حياتها التى كتبتها بنفسها : « اعتقد ان الدافع الاكبر يعود الى اول مرة تعرضت فيها للازدراء ، يوم كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، عندما اقام السناتور جيمس فير مأدبة كبرى احتفالا بعيد ميلاد ابنته ، وما زلت اذكر حنقى الملتهب عندما قالت لى امى اننا فقراء الى حد يمنعهم من دعوتنا الى المأدبة.

واعتقد انني اخذت احاول منذ ذلك الحين – دون ان ادرى – اثبات ان مرتبتي الاجتماعية لا تقل عن آل فير . وكلما حققت نصرا صغيرا في المجتمع اليوم ، عادت ذاكرتي دائما الى اول مرة تعرضت فيها للمهانة والازدراء ، والاحســـاس بالحنق الذى مـــلأ جوانحي يومئذ »

***

هاهم ثلاثة اشــخاص . . كلهم مختلف الاهداف ، وقد استطاعوا تحقيق هذه الاهداف بسبب شعور قوى بالنقص ، احسوا به في طفولتهم . وليس هذا مجرد استثناء ، بل هو القاعدة . .

- فليس هنـــاك من ينجح دون مركب نقص .
- وليس هناك من ينجح على الرغم من مركب النقص .
- وكل شخص ينجح ، انما يفعل ذلك بسبب مركب نقص .

ولحسن الحظ ان كل انسان لديه مركب نقص .

هل يخـالجك الارتياب في ذلك ؟ انك تشعر انه لو كان عندك اى مركب فلا بد انه مركب تفوق لا نقص ؟

دعنا اذن نبحث حالة رجـل كان يشعر مثلما تشعر .

كنت ضــيفة على البرت دورن – اغلى الفنـــانين اجرا – في نادى (استورك) الفاخر بنيويورك . وكانت صلتي به تسمح لي ان اسأله :

– اخبرني : أليس عنـدك مركب نقص ؟

ففكر دورن لحظة . . ثم قال :

– كلا ، استطيع ان اؤكد لك انني ليس عندى شيء كهذا ، بل قد يحتمل ان عندى العكس .

وبعد قليل ، تسللت اليه من سؤال آخر . . فقلت :

– هل تدعو ضـيوفك الى نادى ستورك الفاخر ؟

فقال لي :

– اما ان ادعوهم هنا . . او في نادى (الحادى والعشرين) وهـــو من اغلى مطاعم نيويورك

وابديت اعجـــابي برباط عنقــه الجميل . . فقال لي :

– انني اشترى اربطة عنقي دائما من متجر « كينز » (وثمن الواحد فيه لا يقل عن ٢٠ دولارا)

واشرت الى الاسم الدقيق المطرز على قميصه . . فقال :

– انني اصنع قمصاني عند سولكا (ولا يقل ثمن القميص هناك عن ٤٠ دولارا)

وعدت اقول .. أن لونه مناسب تماما للحلة التى ترتديها .

فقال: الواقع اننى اصنع بدلى عند دى جيز (ولا يقل ثمن البدلة عنده عن ٢٧٥ دولارا)

فابتسمت ، ولاحظ ابتسامتى ، فقال:

ـ ما الذى تهدفين اليه من وراء هذه الاسئلة ؟ هل لكل هذا علاقة بسؤالى عن مركب النقص ؟

ـ وبما ؟

ـ هل تعنين ان كل هذا الاستعراض للتفوق ، هو مجهود لاخفاء نوع من الاحساس بالنقص ؟

ـ هذا ما يحدث غالبا .

ـ اننى ارى ما ترمين اليه ..

وسكت برهة .. ثم قال فجأة:

ـ اصغى الى : ساذكر لك شيئا لا تعرفينه ، هل رأيت المرسم الذى املكه ؟

ـ اجل، انه من افخم الاستوديوهات ذات الطابقين فى مانهاتان ..

ـ حسنا . . اننى استطيع ان ارى من نوافذى هناك ، المساكن التى تخلو من الماء الساخن ، حيث كانت امى تعمل بوابة ، تغسل الثياب وتنام على الارض . كنا نقاسى دائما البرد والجوع ، وحول أجسادنا خرق باليـة .. وما زلت اذكر اننى كنت لا امتلك سوى بذلة واحدة وانا فى الثامنة من عمرى ، وقد اصلحت امى حجرها حتى لم يعد فيه مكان لرقعة جديدة ، فكنت انحنى الى الوراء وانا اسير فى الطريق ، حتى تخفى السترة مقعد البنطلون الممزق . اما اليوم ، فعندى بدل ثمن الواحدة منها ٣٠٠ دولار ، وقمصان غالية ..

اننى مازلت اذكر كيف أقسمت لنفسى وأنا طفل «سيكون عندى أجمل الثياب فى العالم فى يوم ما ... سوف أريهم ... سوف أريهم ! » .

وأخذت أعمل على تذليل كل العراقيل التى اعترضت سبيلى منذ الطفولة . كنت أضعف الاطفال صحة فى حينا الفقير . وكانت الامراض تزورنى دائما بانتظام ، فأصابتنى الملاريا ، والالتهاب الرئوى ، والسل ، وامراض القلب ، فأردت أن اثبت اننى انسان كامل . وأخذت أسبح فى نهر (ايست ريفر) حيث كانت الفيران الضخمة تخرج من بين الاحجار مزمجرة فى وجوهنا . وفى سن الثانية عشرة ، أخذت أدخن السجائر التى التقطها من أرض الطريق . ومارست الملاكمة فى أخشن نواديها ، حتى استطعت أن ابنى لنفسى جسما قويا

شيئا فشيئا .

وعندما كنت طفلا ، كنت أتوق الى أن أصبح فنانا ، ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أدفع أجر الدروس ، ومن ثم فقد علمت نفسى ، ولم أدخل فى حياتى مدرسة فنية ، الا لالقى فيها محاضرات فيما بعد ! ..

وبايجاز .. اننى اعتقد حقا ان مركب النقص عندى قد سدد لى دينه كاملا ! ..

***

عندما كان الفريد ادلر غلاما صغيرا ... استيقظ ذات صباح ، ليجد الى جواره فى الفراش شقيقا ميتا ! وقد جعلته هذه التجربة الرهيبة تلك الشخصية الكبيرة التى عرفها العالم فيما بعد ..

لقد قرر يومئذ ان يصبح طبيبا ليستطيع أن يكافح الموت .

وفى باكورة حياته الطبية ، مرت به ظواهر متتابعة ، أدت به الى اكتشاف كثير من الحقائق التى تتعلق بالعقل البشرى ، اذ بينما كان يفحص بعض الجثث ، لاحظ أشياء لم تكن تسترعى اهتماما من أحد .. لقد اكتشف قلبا متضخما زاد حجمه عن الحجم العادى ، ولاحظ أن هناك صماما أصيب بانسداد ، فمنع الدم من الوصول الى الرئتين بكميات كافية ، فتساءل :

ـ هل تضخم حجم القلب لكى يكمل هذا النقص ؟

ولاحظ فى جسم آخر أزيلت منه كلية مريضة ، ان الكلية الاخرى كانت أكبر من الحجم العادى كثيرا . وفى جسم ثالث كانت احدى الرئتين ضعيفة بسبب المرض ، بينما زادت قوة الرئة الاخرى زيادة كبرى .

أليس من الامور المنطقية افتراض انها كانت تجاهد لتعويض القوى التى ضاعت من الاخرى ؟ .

وفى العظام المكسورة ، لاحظ ادلر انها كونت لنفسها طبقة صلبة ، فهل فعلت ذلك لتجعل العظام اقوى مما كانت ؟ .

هذه الظواهر المنتظمة كلها تجعل الامر يبدو كما لو كان للجسم قانونه الخاص ، وهو ان يستبدل بالنقص زيادة ، وذلك بدافع من غريزة المحافظة على النفس .

وانطلق ادلر قدما فى أبحاثه .. بدأ يزور المدارس الفنية ، ويختبر ابصار الطلبة ، فاكتشف أن أكثر من ٧٠٪ من طلبتها مصابون بنقص خطير فى البصر .. ؟ فكيف اختاروا حياة عملية تعتمد على عضو معيب ؟

لقد علم أنهم أحسوا ــ وهم أطفال ــ بهذا النقص فى بصرهم ، وبذلوا مجهودا خاصا لرؤية الاشياء أحسن من غيرهم ، فدربوا قوة الملاحظة ــ وهى متعتهم من الرؤية ــ الى حد جعلهم يهتمون بعالم المرئيات أكثر من المعتاد .

وراح ادلر بعد ذلك يتعمق فى دراسة حياة كبار الفنانين ، فاكتشف أن كثيرين منهم عانوا من ضعف فى البصر .. فقد كان « البريخت ديرر » أحول ، وكان « ماتيكو » مصابا بقصر فى النظر ، « وادولف فون فتزل » كان ضعيف البصر الى حد أنه كان يقرب اللوحة من عينيه عندما يرسم ، وكان « لفون لنباخ » عين واحدة ! .

فلماذا اختار كلّ هؤلاء وهم من ذوى الابصار الضعيفة أن يصبحوا فنانين ؟ هلّ السبب هو نفس القانون الذى لاحظه أثناء تشريحه للجثث ، وهو ان الطبيعة تجاهد لتعويض الجسم عن عجزه البدنى ؟

واستمر « أدلر » فى دراسة العميان ، فلاحظ أن حواس السمع والحس والشم عندهم أكثر حدة من المعتاد ، وأن ضعف السمع لدى بعض الموسيقيين من أمثال بروكز ، وفرانز وسمتيانا، وبيتهوفن، كان على الاقل من أسباب اهتمامهم البالغ بجمال الصوت بصورة غير عادية .

لقد كان بيتهوفن مثلا رائعا لذلك، فقد كان مهموما منذ الطفولة لضعف سمعه ، وماكاد يصل الى سن الثامنة والعشرين ، حتى كاد يصبح أصم ، وبعد اربع سنوات لم يكن يستطيع أن يستمع الى الاوركسترا الا بالاستعانة ببوق صغير يضعه فى اذنه .

وفى هذه السنة ، لحن بيتهوفن سيمفونيته الثانية الرائعة ، وبعد ان أصبح أصم تماما ، لحن أغنية « ايرديكا » ، وسوناتا «ضوء القمر» ثم سيمفونيته الخامسة ، وبعد أن امضى فى صممه التام ٢٥ عاما ، أخرج مقطوعته الخالدة « السيمفونية التاسعة » .

وانتقل ادلر خلال ابحاثه ــ دون ان يدرى ــ من علم الحياة الى علم الاعصاب ... ومن الاعصاب الى علم النفس ، فانتقل من البحث فى تعويض النقص العضوى على مستوى بيولوجى ، الى التعويض عن عيوب جسمانية على أسس نفسانية .

ولكن كل النماذج التى لاحظها حتى ذلك الحين ، كانت كلها تقوم بعملية

التعـــويض دون وعى . فلم تكن الارادة البشرية تلعب فيها أى دور .
وبدأ أدلر يبحــث حالات أشد وضوحا .

كان هناك باستير ، الذى اصيب بشـــلل فى المـخ ، قضى على مراكز النطق فى مخه ، ولكنه استطاع أن يشق طريقـــه ببـطء وألم ، حتى استطاع ان يتكلم مرة اخرى بمجهود قوى من ارادته ، فأنشـــأ فى مخه مراكز جديدة للنطق ..

ووجد مئات من الحالات المماثلة، لرجال أقوياء مشهورين : كانوا ضعافا فى شبـــابهم ، فاذا بهم يصبحـون أبطالا فى العــــدو ضربوا الرقـم القياسى وكانوا فى صباهم مصابين بالكساح . وراقصات باليه شهيرات كن مصابات بشلل الاطفال ، ومطربات شهيرات ، كن مصابات بالسل الرئوى!

لقد كافح الكل كفـاحا يائســـا للتغلب على عجزهم ، فأصبحت لهم قدرة متفوقة بفضل ارادة الانسان، لا مجرد عمل الطبيعة الاعمى ! .

واخذ الامر يبدو أمامه كأنما هو نوع من القانون ... كأنما تحتاج الانسانة الى حواجز لكى تقفز من فوقها ، وكلما ارتفع الحاجز كانت القفزة أكبر .. ان الانسان وحده بين كل الحيوانات . هو الذى يشعر بعدم كفايته ، انه وحده الذى لديه مركب نقص ، وهو وحده الذى يجاهد لتعويض هذا النقص .

ولهذا ... فهو انسان . !

وكان هذا هو الرأى الذى انتهى اليه أدلر .

***

انك تستطيع ولا شــك أن تمضى فى الحياة وقد سـيطر عليك احساس غامض بالنقص دون أن تدرك سببه قط . ولكنك اذا حاولت فانك سوف تستطيع أن تكشفه وتتغلب عليه .

انفرد بنفسك . واعترف بأشنع الحقائق عن نفسك ، وحاول أن تجمع كل الاجزاء معا مرة أخرى فى صورة تبعث على الرضا أكثر من قبل .

اننى اعترف أن الامــر صــعب ، ولكن فى هذا التيه الذى تعيش فيه لايزال فى امكانك أن تجد طريقك ، اذا تلمست أثرا تهتدى به .

ان الطريقــة التى وصفهـــا ادلر تقول لك :

ـ اسأل نفسك : ما هو هدفى من الحياة .

ان لكل مخلوق بشرى هـدفا قد لايزيد أول الامر ـ خلال الطفولة ـ على رغبة مبهمة فى السيطرة

وفى خلال الحياة،يظل الهدف النهائى واحدا بالنسبة لنا جميعا ، وهو التفوق أوالسمعة ،وتقدير الزملاء . ان أهدافنا تمثل تعويضا عن نقص ما قد يكون حقيقيا أو خياليا ؟ .

هذا هو هدف مركب النقص .. ان يحثنا على تعويض هذا النقص .

كان هناك رجل قبيح الوجه الى حد كبير ، حتى ان الناس كانوا يديرون وجوههم اذا التقوا به فى الشارع حتى لايروا وجهه . ولم يكن هو يحاول بذل أى مجهود لتحسين مظهره . وقد ظل حتى آخر أيامه مهملا فى ثيابه . كان يلبس ليزيد قبحه بمنظره الثقيل ، ويديه المتراخيتين،وبنطلونه الاسود الضيق، ومعطفه الذى يشبه قماش مظلة ، وقبعته التى كأنها مدخنة موقد .

كان من سكان الاحراش .. وقد ظل سلوكه حتى النهاية ــ بعد ان ارتفع الى مركز عال ــ كما كان ، سلوك رجل الاحراش،فقد ظل يرد على طرقات الباب وهو يرتدى القميص فقط ، ويرتدى قفازات سوداء وهو ذاهب الى الاوبرا ، ويسرد حكاياته بطريقة خاطفة ، فاذا دار الحديث حول الشئون العامة ، انسحب فى نوبة كآبة مفاجئة !

كان يبدو فى كل مكان فى غير موضعه ، سواء على مقعد القضاء ،أو فوق منصة الخطابة فى الكونجرس ، أو فى المزرعة أو المنزل .

لم يكن أصله منحطا فحسب ، بل كان يحوطه الظلام بسبب أمه التى كانت طفلة غير شرعية . فظل طوال حياته يشعر شعورا جارفا بقصوره الاجتماعى ..

ان انسانا لايمكن أن يبدأ أكثر وضاعة من ذلك ، أو ان يرتفع أكثر مما ارتفع اليه .. فقد أصبح رئيسا للولايات المتحدة !

فكيف أتيح لرجل لم يبذل أى مجهود لتعويض مثل هذه الالتزامات الثقيلة ، ان يصل الى ماوصل اليه ابراهام لنكولن ؟

الجواب على ذلك ، انه عوض نفسه باستخدام مواهبه القلبية والعقلية العظيمة ، ليرتفع فوقها . وقد عمل فى ناحية واحدة للتعويض المباشر عن نقصه ، وذلك فى ناحية التعليم . فقد عمل هنا بكل مافى طاقته للتغلب على هذه العقبة الاولى ..

كان جهله تاما ، حتى انه ظل حتى العشرين وهو يعتقد ان الارض مسطحة !

فأخذ يقرأ ويقرأ بعمق حتى ضاقت

عيناه في محاجرهما • كان يقرأ على ضوء الشموع والمصابيح، ونار الموقد • يحس بثبوط في العزيمة كلما قارن القليل الذي يعرفه بالكثير الذي بقي عليه أن يعرفه •

وعندما ملأ استمارة الترشيح لعضوية الكونجرس •• كتب أمام بند التعليم : ناقص !

كانت حياته كلها تعويضا شاملا لكل شيء ينقصه •• عاش بلا ثروة أو مركز اجتماعي أو نجاح في حب أو زواج ، ووجه كل جهده نحو هدف واحد : أن يصبح رئيسا للولايات المتحدة •

ومع ذلك ، فان طموح لنكولن لم يكن يتسم بالضيق أو الانانية ، بل كان يتوق الى أن يضع كل مواهبه وشخصيته النبيلة في خدمة الجنس البشري •

ولكن الانسان العادي يجب أن يختار هدفا في نطاق امكانياته ، ولا يسعى الى هدف لايمكن الوصول اليه الا عن طريق أحلام اليقظة •• ففي دنيا هذه الاحلام، ترى كل فتاة نفسها وقد أصبحت راقصة باليه كبرى ،أو ممثلة مسرحية عظيمة أو نجمة سينمائية أو مطربة أوبرا •• ويرى كل فتى نفسه طيارا أو خطيبا مفوها، أو مراسلا لصحيفة في الخارج أو محاميا جنائيا • وكل هذه الاهداف اللامعة يمكن الوصول اليها دون جهد ـ بمجرد استغلال المواهب الطبيعية للحالمين ، لا عن طريق العمل الشاق ـ الذي يرجون تفاديه !

انهم يختارون الاهداف التي تتملق أنانيتهم، دون التفكير في قدرتهم على الوصول اليها •ولما كانوا غير قادرين على الوصول أو بذل أي مجهود في هذا السبيل، فان الاحساس بنقصهم يزداد زيادة مطردة •

فماهو العلاج ؟ ••

الانتقال الى هدف آخر (*)

قد يكون الاعتراف بأن الانسان لن يصبح قط طيارا كلندنبرج أو نجما كجاربو أمرا مهينا ، ولكن بالعمل الشاق يستطيع الانسان أن يصبح محاسبا جيدا أو سكرتيرا خاصا • ومع ذلك ، ففي النهاية يكون هذا العمل باعثا على الرضا اكثر من حلم لن يتحقق قط •

كان هناك غلام ضئيل يدعى ديل كارنيجي ، يحلم بأن يصبح بطلا في الكرة ،ولكن مدرب الكرة أقنعه أخيرا انه لايصلح لهذه اللعبة •

وراح الشاب يحفر وينقب حول أنقاض أحلامه ، حتى اكتشف أن

مايبغيه حقا هـو التصفيق والشهرة التى تتصل بنجوم الكرة • فانتقل آلى الخطابة العامة ، التى كان يتمتع بموهبة صغيرة فيها • وفى النهـاية أنشأ مدرسة شهيرة لهذا الفن ،وألف كتابا عنوانه « كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر فى الناس «

ان ديل كارنيجى بانتقاله بهدفه من المستحيل الى الممكن ، لم يتغلب فقط على مركب نقصه بل انه ساعد الملايين على التغلب علىمركب نقصهم•

ان الاهداف التى توضع فى مكان عال مستحيل الوصول اليه تؤدى فى مراحل بطيئة من المثالية الى الفشل الى وهن فى العزيمة • ويعرف علماء النفس هـــذه العملية بأنها « أرض خصبة لكلأنواع الاضطرابات العقلية والعصبية » وعلاجها هو أن ندقق البصر لمواجهة وقائع الموقف •

***

يجب أن يكون الهدف الذى نختاره موصلا الى تقرير الشخص لنفســـه وتقرير الآخرين له •ولما كان الهدف النهائى لكل جهودنا ،أن نرفعأنفسنا فى عيون الزملاء ، فان هذا الشرط قاعدة مقررة • وكل مرة نفشل فيها فى كســـب هذه الموقعة ، فاننـــا قد نشعر بخرير بارد للنقص ، يبدأ فى التجمع حول أقدامنا •

كان أدلر هو أول من حلل هـذا الاحساس العميـق بالنقص ، الذى يسيطر على نصـــف الجنس البشرى بوساطة النصف الآخر • فليست هناك امرأة مهما تكن جميلة أو غنية أو لامعة ، يمكن ان تفلتمنالاحساس بالنقص الذى يثيره الباعث الجنسى• انه يبدأ عند الطفولة بسبب المركز الممتاز الذى يتمتع به الصـــبيان ، ويستمر خلال فترة النضج ، بمقتضى القانون • وفى العمل والحرف ، فى الحكومة والمجتمع على السواء •

لقد ولدت فى عالم يرحب بهامنذ الولادة ترحيبا أقلمنالذكر ،ويسند اليها أعمالاحقيرةغير جديرة بالرجل، مما يزلزل ثقتها بنفسهامنذ الطفولة•

فماذا تظن الفتاة فى نفسها • ؟ وكيف تتفاعل مع ذلك الاحساس ؟

ان الـكثيرات ســوف يخضعن ، والبعض سيعتقد فى نفســه النقص فعلا ويرضى به ، وكثيراتسوفيقمن بشنحرب الجنسسرا ، وقلائلسوف يلمعن فىدورهن النسائى ،والقويات فقط هن اللواتى سيكافحن الرجال ويطالبن علنا بالمساواة بين الجنسين•

ولكن الجميع ــ سيرغبن من أعماق قلوبهن ــ لو أنهن كن رجالا !

فهل زودت الطبيعة المرأة بمـــا

يكفل لهـا من منافسة الرجال ؟

اذا حكمنا على الامر بما حدث فى الماضى •• قلنا لا • فليس هنـــاك ميـدان واحـد من ميـادين السـعى والاجتهاد ، احتلت فيـه المرأة المقام الاول ـ باستثناءات قليلة ـ سواء فى الفنون أو الدين أو الفلسفة أو السياسة أو العمل أو الحرف ، وكل تفسير فى العالم لايغير شيئا منهذه الحقيقة •

فهل يرجعذلك لنقصفى الفرص ؟ أم بسبب شبه العبودية الذى عاشت فيه قرونا ؟

هل يرجع الامر الى أنهن الجنس الاضعف جسمانيا ، مما يجـعلهن غير قادرات عـــلى المزاحمة فى عالم يعتمد الى حد كبير على القوة البدنية؟

أم لانهن كن محرومات من التعليم والتدريب والخبرة أمدا طويلا ؟ أو لانهن مقيـدات بالولادة والامومـة ، وواجبات الدار ؟

تلك كلها مجرد تفسيرات للفشل لأدلة على القدرة • • ولـكن الضغط الذى تتعرض له النساء حتى يشعرن بالنقص والاحساس بالهزيمة والظلم الذى يعانين منه حتى اليـــوم ، أمر لايمكن احتمـاله • وقد ثار الجنس النسـائى كله احتجاجا على هـــذا التمييز المجحف • وعملت النســاء لتحقيق المساواة السياسية ، وفعـلا كسبت المرأة الحق فى الاقتراع فى كثير من الدول ، وحق الانتخـــاب للمناصب فى دول أخرى،ولكن المرأة لاتزال بعيدة عن الانتخاب كرئيس للحكومة ••

ولم تحقق المرأةتقدما فىالسياسة فحسب ، بل وفى ميادين الاقتصاد والاجتماع أيضا ، وعلى الرغم منذلك فلا تزالالمرأة بعيدة جدا عنالمساواة، وليس هناك أوضح من انهن لايزلن يخفين احساسا كامنا بالنقص حيال الرجال •• أما الشىء العجيب ، فهو احساس الرجال بالنقص حيـــال النساء !

ان الرجال فى أعماقهـم يخافون النساء • وهذه حالة عقلية تظهـر تماما خلال المراهقة،فالفتيانيشعرون أمام الفتيات اللاتى يماثلنهم عمرا، بعدم الكفاية والخجل والخوف من ألا يستطعن القيام بدور الرجال ، أو ارتكاب أعمال سخيفة •

بل ان الرجل الذى لايخاف المرأة حقا ، يمكن أنيجدها غامضة محيرة، صعبة المراس•• انه يشعر انهيواجه فى الانوثة مزيجا من القوى التى قد لايستطيع ادراكها ••

وعندما يبدأ علم النفس ، وعلم الامراض العقلية التغلغل فى أعماق هذه الامور، فانهما يصلان الى تفسير مقبول • • وهو ان الرجال جعلوا النساء يشعرن بالنقص لانهن فى الواقع متفوقات عليهم !

ولقد عرض آشلى مونتاجو ـ أستاذ علم الاجناس الشهير ـ هذا الرأى فى كتابه المعروف « التفوق الطبيعى للنساء » وقال فيه :

« ان التفوق في أيخاصية ،سواء أكانت حيوية أم اجتماعيـة ، يقاس بالمدى الذي تعود فيه هذه الخاصية بفوائدحيوية علىالشخص أو الجماعة، فاذا عملت بمثلهذه الطريقةلتجعلك تعيش فترة أطول أو تكوناكثر صحة ومقاومة للمرض،وتمكنك أنتوذريتك من أن تعيش بطريقة أكثر فاعليةمن الآخرين ، فيمكن القول على أساس مقياس تعريفنا للتفوق، انك متفوق على الآخرين » •

ويمضى « مونتاجو » قائلا : ان الرجال يزيد معدل نجاحهم ، لا لانهم متفوقون من الناحية الطبيعية ، بل لانهم يعوضون أنفسهم عن النقص الطبيعى • أما النساء فهن متفوقات على الرجال من الناحية البيولوجية لافى القوة الجسمانية ولكن فى قوة الخلق ، وهذا هو الاختبار الحقيقى •

والنساء يعشن فترة أطول من الرجال ،ولايؤثر فيهن الجوع والتعب والصدمات والارهاق وغيرها من النكبات ، كما تفعل فى الرجل • ونجد ان معدل الوفيات بينالرجال أعلى منه بينالنساء ـ فىكل الاعمار ـ بل ان الجنين الانثى أكثر احتمالا من الذكر ! وفى كل مكان ـ لابين البشر فحسب ـ بل وبين الحيوان ، نجد ان احتمالات الحياة للانثى عند الولادة أعلىمنها عند الذكر •وليست المرأة أكثر مقاومة لبعض الامراض فحسب ، بل انها تشفى منها أسرع من الرجل !

وهناك أكثر من ٣٠ نوعا من الاضطرابات الجسمانية التى يزداد شيوعها بين الرجال عنهابين النساء، وتتراوح بينعمى الالوان ،والهيموفيليا «الاستعدادللنزف» والصلع ، وقرحة المعدة ، والنقرس وغيرها ، والسبب فى هذا ان الطبيعة تزيد من العمل لصلحة المرأة بسبب أهميتها الكبرى فى حفظ النوع •

والنساء أكثر استقرارا عاطفيا من الرجل،على عكس الدعايات التىيقوم بها الرجال •

ونسبة الرجال فى مؤسسات

الامراض العقلية أعلى كثيرا من نسبة النساء هناك • كما ان هناك عددا اكبر من الذكور بين مدمنى الخمور وضحايا الكحول • والرجل أكثر تعرضا للانهيار العصبى والاصابة بالعجز الجسمانى من المرأة • ونسبة التعثر فى الحديث بين الذكور والنساء تعادل خمسة الى واحد • والمرأة أسرع امتصاصا للصدمات العاطفية من الرجل •

ويقول الدكتور «جيلسبى» انه فى خلال الحرب العالمية الثانية كانت نسبة الرجال الذين أصيبوا بانهيار عصبى تحت ضغط الحصار والقنابل الجوية تزيد عنها بين النساء بحوالى ٧٠ ٠/٠ • وجاء فى الاحصاءات الاخيرة لشركة متروبوليتان للتأمين ان معدل الانتحار بين الرجال يزيد عنه بين النساء بنسبة ١٠ الى ٤ •

***

واذا استبعدنا الرياضة والحساب والميكانيكا وبعض الموضوعات الاخبارية ، وجدنا أن البنات يحققن دائما نسبا أعلى مما يحققه الفتيان فى اختبارات الذكاء ، وهن يتفوقن فى اللغات ، ويتحدثن بها أسرع من الرجال ولهن قدرة على تعلم اللغات الاجنبية أكثر من الرجال •

والآن نصل الى السؤال الاخير •

اذا سلمنا ان لديك مركب نقص أو مركبين وانك تريد القضاء عليهما ، فهل تستطيع ذلك ؟

انه أمر شاق حقا ، ولكن هل هو مستحيل ؟

ان التجارب الانسانية دلت على أن ذلك غير مستحيل • ان امكانيات النجاح عن طريق تعويض النقص تبدو فى حياة الكثيرين من عظماء الرجال والنساء فى العالم •

اننا لانستطيع أن نقرأ تاريخ حياة داروين ، وهنى ، وكيتس ؛ وكانت ؛ وبيرون ؛ وشوبان ، وفاجنر ، ودوستوفسكي ، وبيكون ، وأرسطو دون أن نوقن بأن شخصياتهم وحياتهم قد شكلت بفضل ضعفهم ، وان رجالا كالاسكندر ونابليون ونلسون ودانونزيو قد أثارهم للبحث عن مجد عسكرى ضآلة تكوينهم الجسمانى ، وان رجالا كسقراط وميرابو وفولتير قد دفعهم الى تنمية مواهبهم غير العادية بشاعة وجوههم القبيحة •

ان العقبة ليست فى استحالة تغيير أنفسنا ، وليست فى صعوبة هذا التغيير ، بل فى اننا لانريد هذا التغيير • ولكن مايكاد المرء يبدأ جديا فى استكشاف أنانية نفسه ،

حتى يكتشف أشياء كان يحاول دائما اخفاءها عن نفسه ، وهو يعلم انه يستطيع تغييرها لو أراد .

ولكى نقوم بمثل هذه التغييرات ، يجب أولا ان نغير تفسيرنا للاحداث السابقة فاذا كنا فى الطفولة نعتقد أن كل رجل يقف ضدنا لان والدنا كان يفعل كذلك ، فان ذلك يجعلنا نتخذ مسلكا عدائيا ازاء العالم . واذا كنا نحس بالاشفاق على أنفسنا بسبب بعض الضعف الذى عانيناه فى طفولتنا أو حقارة مركزنا ، وشعرنا بأن العالم يجب أن يحمينا ويغفر لنا كل شيء كما تفعل أمنا ، فيجب أن ندرك الآن أن كل هذه تفسيرات زائفة ، واننا يجب ان نغيرها . وبعد أن نكشف المعنى الذى وجدناه للحياة والاسباب التى تكمن خلفه ، نكون قد أمسكنا مفتاح شخصيتنا . ان مركب النقص هو مفتاح هذه التغييرات .

ان الوقت الذى يجب أن تبدأ فيه هو الآن .. فبهذا المفتاح ستفهم نفسك ...

ان حياة جديدة كاملة يمكن أن تتفتح أمامك . انك سترفض الذل بعد ذلك بسبب مركب النقص ، وستقرر استخدامه فى الاغراض التى هو مقصود بها ، وكما فعل الناجحون السعداء فى كل زمان ومكان .

انك لن تكون عبدا لمركب النقص بعد اليوم ، بل ستجعل منه عبدا لك ، وحتى اذا عانيت قليلا فى البداية فيجب أن تستمر فى طريقك نحو حياة اكثر غنى وامتلاء .

مرة واحدة تكفى ؟

كان السناتور مايك مورنى عضو الشيوخ الديموقراطى عن اوكلاهوما يتحدث الى بعض الاهالى فى مدينة (نورمان) عندما سأله احدهم عن رأيه فى التفرقة بين السماح لروسيا بعضوية الامم المتحدة وحرمان الصين الشعبية منها ، فاخذ السناتور مورونى يسهب فى الشرح فترة طويلة .. وأخيرا قال للسائل :

ـ هل عرفت الرد على سؤالك ؟

فقال الرجل :

ـ ليس تماما .. ولكننى لا اريدك ان تعيده مرة اخرى !

وراء
تشرشل ٢٥ عاماً

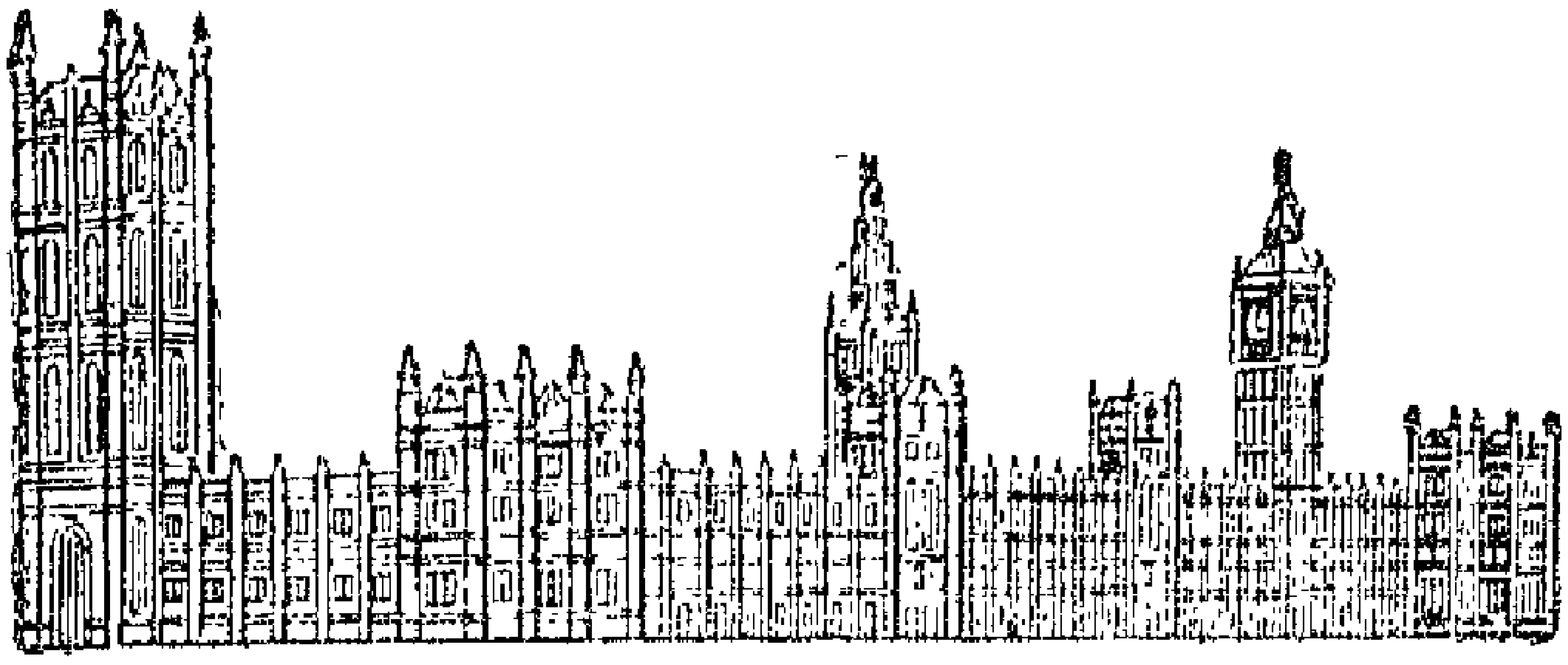


عن كتاب
Assignment : Churchill

بقلم : مفتش بوليس سكوتلانديارد
ولتر هنري تومبسون

في خلال ربع قرن من الحرب والسلام ، وقف مفتش بوليس سكوتلانديارد ولتر هنري تومبسون جنبا الى جنب مع أحداث التاريخ .. ممثلة في ونستون تشرشل ، كان عليه أن يكفل السلامة الشخصية لرجل من أكثر الرجال الذين عرفهم العالم نشاطا وحركة ، وقد أتاح له هذا العمل أن يشهد الكثير مما دار وراء الكواليس في حياة هذا الرجل الكبير ..

وفي هذا الكتاب ، يكشف المفتش تومبسون للقارىء عن كثير من اللمحات الطريفة واللحظات التي لا تنسى في حياة تشرشل .. غير العادية !



وراء تشرشل ٢٥ عاماً

عندما التقيت بتشرشل لأول مرة ، كان يذرع أرض مكتبه بمنزله الذى يقع بميدان « سوسكس » بلندن . كان ذلك فى عام ١٩٢١ ، وكان يومئذ قد أصبح من الشخصيات ذات الشهرة العالمية ، فقد تولى وزارة البحرية قبل ذلك بعشر سنوات ، ويوم ذهبت لمقابلته ، كان وزيرا للدولة لشئون الطيران ، ووزيرا للدولة لشئون المستعمرات فى نفس الوقت ، فان وزارة واحدة لاتكفى تشرشل ! .وفى هذا المنصب كان علينا أن نرحل سريعا الى مصر .

كانت سكوتلنديارد قد عينتنى لأكون حارسا خاصا لتشرشل ، ولم يكن هذا العمل ليبعث الرضا فى نفسى ، فقد جربه كثيرون من زملائى من قبل ، فوجدوا انه من أصعب الرجال الذين عملوا معهم ، فضلا عن أنهم لم ينالوا قط يوما من أيام الاجازة .. كانت ساعات الرجل كلها ساعات عمل محموم ، وقد اشتهرت مطالب تشرشل بأنها تتسم بالطغيان .

وبينما كان تشرشل مندفعا كالصاروخ فى أنحاء مكتبه ، لايحول بصره عن خطواته ، غير مدرك أن هناك من يهدد بتحطيم حياته الخاصة ، بدا أنه مشغول بطريقة تثير الرثاء .. وقال سكرتيره :

ــ هذا هو السير جنت تومبسون .

فتوقف تشرشل عن السير لحظة ، وتطلع نحوى .. ثم قال :

ــ هل أردت أن ترانى ؟

لم أكن أريد أن أراه ، بل كنت أريد أن أبلغه الأمر الذى تلقيته من سكوتلنديارد بارسالى للمحافظة على حياته ..

وراح يصغى الى باهتمام ، بعد أن أخرج نفسه من أفكاره العميقة .. ثم قال :

ــ شكرا يا تومبسون . لا شك عندى فى أننا سنكون معا على أطيب ما يكون

وهذا ما حدث فعلا ، برغم انه

كان فى الغالب على حساب أعصابى التى بذلت جهدا ضخما للسيطرة عليها

***

وفى خلال أولى رحلاتنـــا ، لمست بنفسى كيف يغير تشرشـــل أفـــكاره ومشروعاته فجأة دون سبب ظاهر. فقد منحنى اجازة بعـــد ظهر أحـــد الايام ، ثم ألغاها على الفور بعد أن قرر أن يذهب ليرسم الاهرام . وقد أحسست بكثير من الضـــيق ، لانه عهد الى بحمل أدوات الرسم وصناديق الألوان ، وكنت أعتقد أن حماســـته للرسم ماهى الا نزعة طارئة لن تتكرر ، ولكننى سرعان ما أدركت أن الرسم بالنسبة لتشرشل ليس مجرد نزعة هوائية .. بل هو مرض !

وراح تشرشـــل يرسم الاهـــرام ويدخن سيجاره عدة ساعات ، بينما تجمعت حولنا حشود من السائحين والأطفـــال الصـــغار ، وهم يلتقطون صورا أو يضحكون .. وجاء لفيف من الجنـــود الانجليز وأخذوا يلقون بتعليقات ساخرة فى همسات عالية .. حتى استدار تشرشل نحوهم وعلى شـــفتيه بسمة عريضة .. وفجـــأة صاح الجنود الشبان فى ذهول :

ــ يا الهى .. انه تشرشل !

وأسرعوا بالانصراف بعيدا ، ولكنه دعاهم للاقتراب منه ، وأخذ يعرض عليهم أعمـــاله ، وهو ينتقد وجـــوه النقص فى الرسم ، دون أن يتوقف عن العمل .. أو الحديث .

ومنذ ذلك الحين ، صحبت تشرشل مرارا عديدة وهو يرسم منذ ساعات الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء .. كان أحيانا يستدير نحوى ويبتسم لى دون أن يتـــكلم ، وكأنه مغتبط بوجود شخص الى جواره .. ولكنه كان أشـــد اغتباطا بصمتى ، فاذا كان لابد للصـــمت أن يقطع ، فيجب أن يكون هو الذى يقطعه !

***

لم نكد نعود من مصر الى بريطانيا ، حتى أصبح تشرشل رجلا بلا عمل ، فقد سقطت وزارة لويد جورج ، ولم يعد تشرشـــل وزيرا ، ولا عضـــوا بمجلس العمـــوم .. أصبح مجـــرد ونستون سبنسر تشرشل !

وبرغم ما اشتهر به تشرشل من مقابلة الهزائم بنبل بالغ ، فقد كان وهو بلا عمـــل عبارة عن كتـــلة من الاعصاب الثائرة التى لا يمكن التحكم فيها .. كان يركل ســـلال المهملات بقدمه فى غضـــب ، وفى مثـــل تلك الاحوال ، كان الافضـــل للانسان أن يبتعد عنه ، وهذا ما كانت تفعـــله

أسرته وخدمه

ولكن مثل هذه الفترات الخاملة لم تكن تدوم طويلا ..فقد قال لى ذات صباح :

ـ اذا فهم لا يريدوننى .. حسنا سنرى . اننى أعرف ماذا أفعل . احزم لى حقيبتى ياتومبسون ، فاننى ذاهب لاقاتل من أجل مقعدى القديم فى دائرة داندى .

وفى تلك الليلة ، أصيب تشرشل بنوبة مرض حادة بسبب التهاب زائدته الدودية ، وكانت الانتخابات العامة قد بدأت فعلا .

وجلست خارج غرفته فى المستشفى .. وكدت لا أصدق أذنى عندما سمعته يصرخ فجأة مناديا اياى وكأنما هو جالس أمام مكتبه .

وطلب منى أن أوافيه بالصحف أولا ، ثم أمرنى ان استدعى سكرتيره ، ثم طلب عددا آخر من السكرتيرين ، وظل يبعث البعض الى التليفون ليقوموا بمهام كلفهم بها ، ويستدعى أناسا الى المستشفى للحضور فورا ، وعندما قال له الأطباء انه مريض ، قال ساخرا ، انه يعرف ذلك ، وان هذا هو سبب استدعائهم !

وأخذ زائروه يفدون واحدا بعد الآخر ، وظل يستقبلهم ليلا ونهارا ، حتى اذا حاولت رئيسة المرضات أن تشكو من هذه الزيارات غير المناسبة ، قال لها :

ـ دعى مراعاة القواعد لمن لديهم وقت لذلك !

كان تشرشل يومئذ فى حالة نفسية طيبة جدا ، يتحدث بصوت عال ، حتى أن كل المرضى الذين يتحركون على مقاعد ذات عجلات ، كانوا يأتون الى الغرفة العجيبة ، ويتجمعون حول بابها فى نصف دائرة .

وكان منافسه فى الدوائر سكوتلنديا يدعى «سكرايمجور» . ولكن داندى كانت مسقط رأس تشرشل . وفى خلال أيام قلائل ، فاجأ أطباءه بقوله انه أمر باضافة عربة خاصة الى اكسبريس سكوتلندا . وانه سيستقل هذا القطار فى المساء !

وحاول الأطباء أن يثنوه عن ذلك ، مذكرين اياه بأن خيوط جرحه لم ترفع بعد ، فقال محذرا :

ـ سأحتفظ بها اذن تذكارا منكم !

***

وحملناه الى القطار على محفة .. وفى سكوتلندا ، كنت اضطر خلال الحملة الانتخابية أن أحمله من الشارع حتى غرفته فى الفندق ، أو أضعه فوق المنصة فى الاجتماعات العامة ..

وعلى الرغم من ان مظاهر الالم كانت تبدو كثيرا على وجهه ، فقـد كانت شخصيته تسيطر على كل ماحوله.

انه لايسمح قط لزائدته الملتهبة ان تتدخل فى الانتخابات ..!

ولـكنها تدخلت فعـلا • • وهزم منافسه الاسكوتلندى !

وعقب انتهـاء الانتخـابات أمضى تشرشل خمسة أشهر عـلى شاطىء الريفييرا الفرنسية • كان تشرشل مولعا بالمقامرة بحماسة • كان يحب مافيها من ألوان وضجة وماّس•• ولكنه لم يكن يرجع قط الى المائدة ليأخذ بثأره • كان يربح أو يخسرثم ينصرف •

وفى مونت كارلو ، كان تشرشل يخسر فى الغالب ، ولـكنه لم يكن يخسر مبالغ كبيرة الا فيما ندر ،فقد كان يســـتفيد تماما بفرص الحظ ، ويعرفمتى يجب انينهضعن المائدة•

وقد تكفلت أرباحه بسداد ايجار الفيللا الانيقة التى أمضىفيها الشهور الخمسة فى الريفييرا •

ومع اننى لم أره يقامر بصورة جدية بعد مونت كارلو ، فانه كان يحب المراهنة ، ويراهن على أى شىء ومع أى انسان • ففى خلال الحرب العالمية الثانية ، كان يراهن علىعدد الطائرات الالمانية التى أسـقطت فى بعض الغارات ، وعلى عـدد الاسرى الالمان فى معركة ما ،أو تاريخسقوط هدف للعدو بين أيدينا•• كان يحب ان يراهن على ماسوف يقوله الخطيب التالى فى الاجتماع !

***

كان الاضراب العام الذى حدث فى عام ١٩٢٦ ، أسـوأ كارثة أصابت بريطانيا منذ حربها الاهلية ، ومع ذلك فاننى أعتقدانونستون تشرشل وزير المالية يومئذ ـ قد تمتع بكل دقيقة من هذا الاضراب • كان يحب الاضطراب اذا استطاع انينتفع به•

ولما كان تشرشـــل يتفقد صحف الصباح أكثر مما يتفقد طعامه ، فقد قرر ان يضيف الى قائمـــة المشاكل التى يواجهها ، مشكلة نشر الاخبار فى انجلترا خلال الاضراب •

ولميكنأمامه الا أن يتولى التحرير مع انه لم يسبق له قط القيام بهذا العمل •

وعرض صاحب صحيفة (مورننج بوست) على الحكومة كل مايستطيع من تسهيلات مادية لاصدار صحيفة، وعلى الفور انتقلنا الىمبنى البوست• وماكدت أشاهد المبنى لاول وهلة ، حتى أدركت ان سلامة تشرشل فيه

ستكون فى خطر ، فان أى انسان يستطيع ان يدخـــل أو يخرج دون ترخيص،ويستطيع أن يحمل أى شىء فى الغرف العديدة المظلمة التى تقع أسفل المبنى • وحذرت تشرشل من ذلك أربعمرات،ولكنهأخذيصفر بعض الالحان دون أن يعبأ بما أقول • ثم قام بزيارة مطابع الجريدة ، وتوجـه بعـد ذلك الى مكتب رئيس التحرير حيث كان كل المحررين فى انتظاره ، وهم فخورون لانهم سيعملون مع مثل هذا الرجل فى مثل تلك الظروف •

وجاءت خيبة الامل الاولى لتشرشل بعد دقائق قليلة من توليه العمــل • لقــد دق جرس التليفـــون ، وقال متحدث باسم نقابة العمال انهــا لن تســمح لعمــال صــحيفة البوست بالعمل لحساب الحكومة !

وما كدت أبلغ الامر لتشرشـــل ، حتى دار حول نفسه وقد رفع ذراعيه الى أعلى وحتى ذقنه •• ثم اتصـــل باللورد بيفر بروك تليفونيا •• وبعد قليل كان أمامنــا مســاعد المراقب الليلى لصــحيفة « ديلى اكسبريس » التى يملكها بيفر بروك • انه شخص لا تستطيع النقابة أن تمسه ••

وجلس الرجل بمفرده يعمل على آلة اللينوتيب ، يجمــع المقــالات ، بينمــا وقف تشرشــل خلف ظهره يشجعه •

كانت الصــحيفة كلها عبارة عن صــفحتين •• ولــكنها كانت مجرد بداية

وجـذب تشرشل النســخة الاولى من « الجازيت البريطانيـة » من آلة الطباعة ، وراح يعـــــدو وهو يلوح بها بيديه فى أنحاء الدار ، وقد بدا عليه الاغتباط التام •

وفى سبيل الحصول على مهندسين ميكانيكيين للمطابع ، اتصل تشرشل بقــاعدة الغواصــات ، وطلب أبرع مافيها من ميكانيكيين •• وفى خلال ساعات قلائل ، كان لدينا فريق من الخبراء ، على اســتعداد للاشراف على شىء لم يسبق لهم رؤيته • كتشرشل نفسه !

كان يعمل طوال اليوم فى وزارة المــالية ، ويتحدث خلال ذلك أكثر من ثلاثين مرة مع ادارة الصحيفة •• ثم يقفز الى سيارته وينطلق بهــا الى مبنى الجريدة •

وتخاطف الشعبصحيفة تشرشل •• وارتفــع توزيعهــا خــلال فترة الاضراب من بضعة آلاف الى أكثر من مليونى نسخة •

***

كان تشرشل يكتب دائما ، وكان يكسب الكثير من كتبه ومقالاته الصحفية ، مما أتاح له شراء قصر « شارتويل » الريفي بالاستعانة بمبلغ أوصى له به أحد أبناء عمه • وكنت معه خلال ساعات السير الطويلة المتعبة التى قمنا بها قبل شراء المكان •• وكان يبدو انه لابد من اجراء تصليحات كثيرة فيه •

وكان تشرشل يطوف بلندن ويقول : يجب نزع هذا •• وتمهيد هذه المنطقة ، واقامة أسوار جديدة هنا الخ ••

وعندما كان عمله الحكومى يسمح له ، كنا — أنا وهو — نذهب الى هناك مع جيش من عمال الحدائق والبناء والمزارعين ، ونقضى مئات الساعات لنجعل من المكان منزلا ريفيا كاملا • وكان تشرشل مولعا بخلط الاسمنت ، وكان لا يتعب من حرث الارض بيده • كما كانت له طريقة فذة فى تشجيع رجاله ، وارشادهم الى ما يعملون • والطريف انه كان يحاول أن يظهر لعمال البناء المحترفين كيف يضعون الطوب ، فى حين أنه هو نفسه لم يكن يعرف كيف يمسك « مسطرين » البناء •• وفى تلك الايام ، أخذت أسطورة تشرشل البناء تنتشر ، فى حين أنه فى الواقع لم يكن بناء ماهرا •

***

فى سنة ١٩٤٠ ، كنت قد رأيت تشرشل فى كل منصب وزارى تقريبا • ولكنه كان قد بلغ الخامسة والستين ، ولهذا كنت أشك فى أنه سيتولى المنصب الذى يتوق اليه •• رياسة الوزارة !

ولكن حدث يوم ١٠ مايو ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش هتلر تشق طريقها فى أوربا المتفجرة ، أن دعاه الملك لمقابلته •

لقد كانت بريطانيا فى حاجة اليه ••

وجلست الى جواره فى السيارة ونحن فى طريقنا الى قصر بكنجهام ، وأنا أحس بفخر لا يقدر •• وعندما عاد بعد ذلك الى مبنى وزارة البحرية ، وقفز من سيارته قلت مهنئا :

— اننى سعيد لانك بلغت هذا المركز يا سيدى • ولكنى كنت أود لو أنك توليته فى ظروف أفضل من هذه • انك اليوم تحمل عبء مهمة عظمى •

وصافحنى تشرشل كصديق • ثم قال :

— ان الله يعلم مدى ضخامة المهمة •

وكل ما أرجوه ألا يكون الوقت متأخرا .. ولكننا سنبذل كل جهدنا ونقدم كل ما بقي في أمكاننا ..

ووقف برهة صامتا تماما وهو يحدق في وجهي .. ثم أرسل نظراته بعيدا ، وكأنه لا يحس بوجودي ، أو يسمع صوت الطائرات التي كانت تملأ الجو .. ثم تساقطت بعض العبرات من عينيه ، وظل واقفا دون حراك .

وأخيرا استدار نحو مبنى وزارة البحرية ، واتجه نحو درجاتها في حزم وهو يتمتم بصوت خافت . وتصلبت العضلات حول فمه ، وبرز فكه .. ثم واصل صعوده ، ليؤدي دوره الخالد في انقاذ حريات الانسان المتحضر .

***

لم يكن تشرشل يبدي أي تعاون عندما يتعلق الامر بحمايته من الخطر .. كان الخطر يجتذبه ويبهجه .

حدث يوما ونحن في أوائل أيام الحرب ، عندما كان مقر القيادة البريطانية في « أميين » على مقربة من خطوط الجبهة، أن انطلقت صفارات الانذار بغارة جوية .. وكان في الامكان مشاهدة الاشتباك الذي يدور بين الطائرات الالمانية وطائرات الحلفاء من ساحة القصر الذي كان يستخدم مقرا للقيادة .. وسحر المنظر ونستون تشرشل ، فزحف تحت أحد الاسوار ليختفي بعيدا عن أنظار الجنود الذين كانوا يحاولون ادخالنا جميعا داخل القصر .وهززته من كتفه . ثم جذبته بحدة من قدمه .. ولكنه صاح قائلا :

ـ احن رأسك أيها الاحمق . هل تريد أن نفقد كل شيء ..

ثم اختفى مرة أخرى بين الاشجار .. وأخذ يرقب منظر المعركة الجوية من بين أغصانها .

وفي بداية معركة بريطانيا ، كان على رئيس الوزراء اذا دوت صفارة الانذار ، ان يهبط الى المخبأ المعد للوقاية من القنابل . ولكن تشرشل كان لا يعبأ بهذا الواجب ، فكان يرفض الهبوط للمخبأ .

كان واجبا ان أبعد شبح الموت عن هذا الرجل . وعندما كان الموت يقترب منه ، كان على أن أنسى شهرته وجلال منصبه ، ولم أكن اتردد في أن أدفعه وراء أي حائط أو ركن للاحتماء به ، وكان هويصب لعناته على ، ويظل يحدق في وجهي فترة طويلة في غضب ..

وعندما بلغتمعركة لندن ذروتها

كان تشرشل يهرع الى السطح بمجرد سماع صفارات الانذار ليرقب قذف القنابل ونيران المدافع . لم يكن أحد ليستطيع اقناعه بالابتعاد عن هذا الطريق الطائش .. ولكنه كان يشعر بذنبه ، فيقول لى :

ـ انني آسف لانني أصحبك الى هذا الخطر ياتومبسون .. وكان يجب ألا أفعل ذلك ، لولا أنني أعرف جيدا أنك تحبه !

وبرغم ما كنت اشعر به ، كنت أجيبه فى دأب قائلا :

ـ لست واثقا من ذلك تماما يا سيدى .. ان كل ما يهمنى هو سلامتك أنت . وكأنما يحس مدى غضبى ، وخطئه نحوى ... فيقول مدافعا فى ضعف :

ـ عندما يحين أجلى ياتومبسون .. فسوف أرحل !

***

كانت عطلات نهاية الاسبوع التى يقضيها تشرشل فى قصر تشيكرز الريفى خلال الحرب تكاد تكون صورة واحدة . كنا نصل الى هناك فى الساعة الرابعة بعد ظهر الجمعة ، فى شبه غزوة صغيرة للدار . فقد كانت هناك دائما سيارة أو سيارتان مليئتان بالضيوف ، من الوزراء والامريكيين ، وزعماء دول أوروبا المحاربة ، الى جانب السكرتيرين ومساعد وخادم خاص ، واثنين من البوليس السرى لمساعدتى ومصورين للسينما ، وثلاثة من السائقين وبعض رجال بوليس لندن لحماية البيت من الخارج .

كان تشرشل يحرص على الاستحمام بمجرد وصوله ، وكان يصر على ذلك كما كان يفعل المغنى الايطالى الكبير كاروزو ، حتى لقد أوقف قطارنا يوما وسط صحراء السودان ، وأمر باحضار ماء ساخن من غلاية القطار ، وضعها فى برميل ضخم الى جوار شريط القطار ، ووقف يأخذ حماما فى العراء ... بينما وقف أهالى أفريقيا ينظرون اليه وقد فغروا أفواههم فى دهشة وذهول .. أما هو فقد قال لى : «كأنهم لم يروا احدا عاريا من قبل» !

ولايكاد تشرشل ينتهى من حمامه وانتعاشه ، حتى يرتدى حلته الرسمية كان يرتديها للعشاء ، ولا يهمه مايرتديه أى شخص آخر . وكانت مائدة عشائه زاخرة دائما .. وبعد العشاء يستريح قليلا ، ثم يعود وقد ارتدى روبا شرقيا فاخرا . وهو يرتديه دائما خلال العرض السينمائى

الذى كان مولعا بمشاهدته . وبعد العرض يتحدث قليلا مع ضيوفه ، ثم يتوجه الى مكتبه للعمل . . . ومعه الموظفون الذين صحبهم من لندن ، حيث يظل عاكفا على العمل حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا ، وقد يستمر فى العمل طوال الليل !

وكانت متعته الكبرى بعد السينما هى الموسيقى ، وهو يحب منها النغمات الراقصة ، والمارشات العسكرية ، وكان أحيانا يدير مفتاح الراديو حتى يعثر على احداها ، وعندئذ يأخذ فى السير على نغماتها ذهابا وايابا فى القاعة الكبرى وقد بدا عليه السرور ، غير عابىء بالخدم والضيوف ، وهو يصيح بأوامر وهمية عسكرية !

***

كان تشرشل يمتاز بسرعة التصرف فى قراراته الخاصة بالحرب ، وكان يستطيع أن ينجز فى يوم واحد أكثر مما يستطيع عدد من الرجال أن ينجزوه فى يو . أو ثلاثة .

حدث فى احدى المناسبات أن عدنا الى لندن عند الغسق بعد أن أمضينا أربعة أيام مرهقة فى باريس لم ننم خلالها قط ، وقد هاجمتنا طائرات الاعداء ونحن نحلق فوق المانش .. كان كل فرد من جماعتنا يشعر بارهاق بالغ ، ولاسيما اللورد هاليفاكس ... ومع أن تشرشل نفسه كان فى حالة يرثى لها من التعب ، فانه التفت الى زملائه قائلا :

ــ سنعقد اجتماعا لمجلس الوزراء فى الساعة العاشرة مساء اليوم .

وعندئذ زمجر لورد هاليفاكس قائلا :

ــ لقد امضينا وقتا عصيبا يا ونستون ... الا يمكن تأجيل الاجتماع الى صباح غد ؟

ففكر تشرشل قليلا ثم قال :

ــ عندك حق ... سنؤجل الاجتماع ..

فقال هاليفاكس : حسنا ..

ولكنه لم يستطع أن يتم حديثه ، فقد استطرد تشرشل قائلا :

ــ . . حتى العاشرة والنصف مساء اليوم ...

وانطلق نحو سيارته !

وقد رأيت أمثلة مذهلة على سرعة بديهة تشرشل وبراعته فى التصرف ، فقد حدث مرة وهو يقوم بالتفتيش على قاعدة الاسطول فى « سكابافلو » أن رأى فى المرفأ بعض السفن الحربية الوهمية التى تبدو شبيهة تماما

بالسفن الحقيقية ، حتى أنها يمكن أن تخدع الطيارين على ارتفاع الف قدم ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد اشار تشرشل الى احدى هذه السفن الزائفة التى توجد فى طرف المرفأ ، وقال للضابط المسئول ان الطيارين الالمان لايمكن ان يخدعوا فيهما أو يسقطوا قنابلهم عليها .

فقال الضابط : ولكن طيارى الاستكشاف التابعين لنا لم يستطيعوا تمييزها .

ـ انهم فى حاجة الى نظارات اذا ..

ـ لماذا ياسيدى ؟ .

فقال تشرشل على الفور

ـ لانه ليست هناك طيور النورس البحرية التى تجدها دائما فوق السفن الحقيقية ، وهى لاتحلق فوق هذه السفن الا اذا القيت لها بعض الفضلات ... فضعوا فضلات الطعام فى الماء حول السفن ليلا ونهارا وبهذا تطعمون الطيور وتخدعون الالمان وفعل الضابط ماأمره به تشرشل .

***

كان تشرشل لايحب صلف بعض كبار الضباط الذين تمتلىء صدورهم بالنياشين . فكان يتخسهم فى بطونهم أو ينفث الدخان فى وجوههم ، ثم يمضى فى طريقه، غير ملتفت الى الوراء ليمتع نفسه بمظاهر الدهشة والغضب التى خلفها وراءه ... وفى خلال زيارته لايطاليا قبل الحرب ، طلب منه الا يدخن فى الغرفة الملحقة بمكتب موسولينى وهو فى طريقه لمقابلة الدوتشى ، فأعطى سيجاره المشتعل للضابط الايطالى ... ثم سار الى مكتب موسولينى وهو يشعل سيجارا جديدا ! .

وكذلك لم يكن تشرشل يحب تعالى جوزيف ستالين وسيطرته . وفى أول مقابلة لهما بالكرملين، اضطر الى ان يمر بسبعة حراس قبل أن يلتقى بستالين ... وبعد لحظات غادر الغرفة وانطلق فى ممرات الكرملين دون أن ينظر يمينا أو يسارا ، واشعل عددا من الثقاب على جدران الكرملين ، وأشعل سيجاره ... وراح ينفث الدخان فى غضب ..

لقد بدأت يومئذ مشادته الاولى مع ستالين ! .

ودعيت البعثة البريطانية كلها بعد ذلك لحضور مأدبة بالكرملين ، واستمر العشاء وتبادل الانخاب بضع ساعات ... وحوالى منتصف الليل اتجهت الجماعة الى غرفة الشمبانيا

حيث قدم المزيد من الانخاب،واستمر تشرشل أربع ساعات فى هذا الجو حتى بدأصبره ينفد تدريجا ٠٠٠ فقد كان هناك عمل يجب انجازه ٠٠ وأخيرا رأيته يميل على سير الكسندر كادوجان ويهمس فى اذنه شيأ ، فتحدث كادوجان بدوره مع المترجم (بافلوف)ليبلغ ستالين رغبة تشرشل فى الاجتماع به على انفراد ... الآن

وتجاهل ستالين الطلب ، ودفع المترجم بعيدا ٠٠ واستمر فى شرابه

واستاءتشرشل، فنهض ، وانطلق الى الخارج ومعه سير الكسندر كادوجان، وفعلت أنا مثلهما بالطبع ٠ وعندما رأى ستالين انالجماعة أخذت تتفكك وان كل البريطانيين يغادرون المكان توجه الى الباب حيثألقى الينا بتحية وداع قصيرة !

كان تشرشل ثائرا غاضبا ٠ ٠ فهناك أوقات يضطر فيهاالدبلوماسيون الى ضبط أعصابهم ، ولكن هناك أوقات أخرى يضطرون فيها الى فقد هذه الاعصاب ٠٠ وقد حان هذا الوقت ٠

وارتفع صوت تشرشل وهو يهز أصبعه فى وجه بافلوف ، ويلوح بأصبع آخر نحو ستالين ٠٠ قائلا :

ــ قل لجو انه اذا كان يريد اجراء أية مناقشة ، فالافضل له ان يجريها قبل صباح الاحد ، لان تشرشل وجماعته سيسافرون الى القاهرة ، سواء أنجزوا شيئا هنا أم لا ٠

وفى اليوم التالى ، أبلغ الروس تشرشل ان المارشال ستالين يتوق الى الاجتماع به على انفراد ٠ ٠ وانه يرجوه التكرم بالعشاء معه فى الكرملين فى الثامنة مساء !

***

كان تشرشل يكره الصفير بالفم خلال أوقات العمل ٠٠ حتى الصفير الذى يصدر فى صورة ألحان موسيقية مقبولة ، كان كفيلا بأن يثير غضبه الجنونى ، وقد أصدر أمرا خلال الحرب بمنع الصفير فى ممرات رياسة الوزراء فى ١٠ داونتج ستريت ٠٠ وكان اذا سمع صفيرا أثناء اجتماعاته الهامة ، أرسل أقرب الاشخاص اليه ليبحث عن الشخص الذى ارتكب هذه الجريمة ويسكته ٠

وبدأت آثار الاجهاد والضغط المستمر خلال الحرب تظهر على رئيس الوزراء بصور مختلفة ، كان ينفجر أحيانا فى أول شخص يجده على مقربة منه ٠٠ ولما كنت دائما قريبا منه ، فقد نالنى من هذه النوبات الحامية الكثير ٠ ٠ كان كل ماعمله

لايبدو صحيحا فى عينيه •• وبدأ يحس بالملل من صحبتى ، بل ان احساسه بضرورة عملى كان يثير نفوره وملله ، ولابد ان وجودى أمامه فى كل مكان يذهب اليه قد أصـــابه بملل قاتل •• وهو معذور فى ذلك،فانني أنا نفسى كنت أحس أحيـانا بالمقت لهذا العمل ،وألتمس من سكوتلنديارد ان تنقلنى مؤقتا الى عمل آخر ، فقد كنت أشعر اننى فى طريق الانهيار• وكنت أتمنى لو ان شخصا حاول أن يعتدى عليه ، حتى أستطيع ان أطلق النار على المعتدى !

وحدث يوما ان كان الجنرال سير هاستنجز ايسماى وزير البحـــرية حاضرا خلال احدى نوبات انفجاره فى وجهى •• فســـألته ان يدلنى عن سبب معاملة تشرشل لى بمثل هذه الخشونة ،فاقترب منى سير هاستنجز وابتسم فى وجهى ابتسامة ودية •• وقال :

ـ اننى أنال معاملة مماثلة منـــه ياتومبسون •• واذا كان ذلك يخفف عبئا ، فهو جدير بالاستحقاق •

وحنيت رأسى موافقا . فقد كان الامر كذلك ••

***

وبعد مؤتمر طهران ، كان تشرشل متلهفا لزيارة الجنرال ايزنهـاور فى شمال أفريقيـا ، ثم الذهاب لزيارة جيوش الحلفاء فى ايطاليا •• ولــكن شيئا ما حدث ، ولم يكن فى الحسبان •

كان التعب والارهاق يبدوان على تشرشل ، فلم نكد نهبط من الطائرة فى تونس ، حتى توجـــــه فورا الى فراشه •• وتبـــين ان حرارته قد ارتفعت ، وظلت ترتفع مـــع مرور الوقت ••

لقد أصيب تشرشل ولاشك بمرض ما •••

ورفضت أن يساعدنى أحـــد فى حراسته خلال الليل حتى أستريح ، وقررت ان أبقى الى جواره طـوال الليل •• وهو شىء كنت معتادا عليه ـ

وبدأت سهرتى فى الساعة الحادية عشرة مساء • وطلب منى لورد موران طبيب تشرشل الخاص ان أصغى الى سرعة تنفسه ، فاذا حـدث فيها أى تغيير ، فانني يجب أن أستدعيه على الفور •

وجلست خارج غرفة نومه ، حيث يتسنى لى الاستماع الى صوت تنفسه السريع •• ولكن الصوت مالبث أن توقف حوالى الساعة الثالثة صباحا ، فتسللت الى داخل الغرفة •

كان كل شىء صامتا ، وقفز قلبى

بين ضلوعي ،ولاسيما عندما اقتربت من فراشه فلم أسمع أي صوت يصدر منه • وخفت ان يكون قد وقع أمر سيىء ، فانحنيت فوقه ورحت أصغى بكل جوارحى •• حتى سمعت أخيرا صوت تنفس ضعيف لايكاد يسمع ، وزفرات بطيئة ••

وأسرعت بالاتصال باللورد موران وأبلغته ماحدث ، فهرع الى الغرفة • وبعد ان كشف على المريض ، قال : انه يتنفس الآن أحسن من قبل ، ولكنك كنت على حق فى استدعائى •

وعدت الى الغرفة حيث جلست فى صمت •• وبعد قليل استيقظ تشرشل ، ثم نهض منتصب القامة ، وحدثته بصوت رقيق ، فنظر نحوى بعينين منقلتين،وقد بدا عليه الارهاق والمرض •• وسألنى عن أقراصه المنومة التى كانت قد أبعدت عنه سرا وأحسست بالاسى من أجله ، وتهربت من سؤاله ، وأحسست بالراحة وأنا أراه يعدو الى فراشه •

ورقد لحظة فى فراشه وعيناه مغلقتان •• ثم فتحهما مرة أخرى • ونظر الى قائلا :

ــ أجل •• لقد تعبت كثيرا ،ولكن كل شيء تم رسمه واعداده •

لم أكن أعلم مايعنى • فازداد فزعى ولمع فى عينيه ضوء عجيب ، وتطلع من النافذة الى الليل الملىء بالاسرار •

كانت مآذن تونس تبدو فى الافق البعيد ، وكأنها تشير بأصابعها الرخامية نحو السماء •

كانت تبدو فى قدمها أعظم من الطبيعة •• ويبدو ان تشرشل كان يتطلع اليها أيضا وسألنى فجأة :

ــ أين نحن الآن ؟

ــ انها تونس ياسيدى •• اننا عند الجنرال ايزنهاور •

ــ تونس؟تونس•• انها قرطجنة• ان اطلال قرطجنة قريبة منا ... انه صوت الرومان •

واستند على وسادته بمرفقيه •• ثم قال :

ــ أى مكان أفضل من هذا يمكن ان أموت فيه ؟ •• هنا بين أطلال قرطجنة !

قلت : لاتقل ذلك ياسيدى .. كل انسان فى العالم فى حاجة اليك• حتى أعداؤك .. ان انجلترا تحتاج اليك •

وتنهد تشرشل بعمق •• ثم هوى مرة أخرى فوق فراشه ••واستغرق فى النوم وظللت جالسا الى جوار فراشه حتى الثامنة صباحا ••

كان لايزال نائما •• لم يسمع

أصوات الاجراس التى تحملها الجمال في أعناقها •• ولاصيحات المـؤذن للصلاة • وفى الثامنة وصل طبيبـه لورد موران ومعاونوه ليقوموا بعملهم ووضع الجنرال ايزنهاور معملا كاملا تحت تصرفهم •

كان تشرشل مريضا مرضا خطيرا، ولكن اللحظة الحرجة كانت قد جاءت ومضت بينما كنت معه فى الغرفة ، عندما مر بهـذه اللحظات القليلة من الهدوء والهلوسـة التى جعلته يرى نفسه ميتا بين أطلال قرطجنة •

***

وما أن بدأت فترة النقاهة ، حتى سـافر تشرشـل الى مراكش ليتم استجمامه هناك •

وكان أول شيء فـكر فيه بعد ان استرد بعض قواه • هو الرسم •

كان يريد ان يرسم صورة لمراكش تظهر أكبر قدر مستطاع من المدينة • وكان هناك برج مرتفع متصل بالمنزل الذى نقيم فيه يتيح لمن يصعد فوقه أن يرى أروع مناظر المدينة ، فطلب منى أنا وزميـلى ان نحمله الى أعلى البرج • •

ومع ان كثيرا من المتاحف قد عرض على تشرشل مبالغ ضخمة لاقتناء هذه اللوحات ، فانه رفض بيعها ، رفض ان يوقع على لوحاته ••حتى بحروف اسمه الاولى •

***

كثيرا مايسخر تشرشل من شؤم يوم الجمعة ١٣ ••• ولقد مر بنا يوم جمعة بهذا التـاريخ سـأظل اذكره ماحييت ••

كان ذلك فى ابريل سنة ١٩٤٥ ، وفى الساعة الثالثـة صباحا ، دوى صوت الجرس الليـلى فى غرفتى ، فاستيقظت على الفور •• ان تشرشل قل ان يستدعينى فى مثـل هذا الموقف •••

وقال لى فى ضعف : هل تستطيع ان تأتى بسرعة ياتومبسون ؟

وجذبت مسدسى وهرعت اليه ••

كان واقفا وهو يذرع غرفة نومه وعيناه مصـوبتان الى الارض ••• وسمعته يقول :

ــ هل سـمعت النبأ المـروع ياتومبسون ؟

ــ كلا ياسيدى •

ونظرت اليه••كانت صحته تبدو طيبة ــ وهذا مايهمنى ــ فقلت :

ــ هل حدث شيء لاحد فى الاسرة ياسيدى ؟.

فهز رأسه •• وقال :

ــ كلا •• ولكنه رئيس الولايات

المتحـدة ••• صديقى وصـــديقك ياتومبسون •

ـ ماذا أصابه • • هل أصيب بالشلل ؟

ـ بل أسوأ كثيرا •• لقد رحل •

وظل تشرشـــل فترة طويلة وهو يسير فى أنحاء الغرفة ، وهو يتحدث عن روزفلت ويبكيه • • ويمر عبر الايام والسنين ، متذكرا أحاديثهما ، متمنيا لو انه فعل هذا أو قال ذاك •

واخرج منديله •• وقال وهــو يجفف دموعه :

ـ لقد كان صديقا عظيما لنـــا جميعا •• قدم لنا مساعدات لاتعـــد ولاتحصى ، ولولاه لـكنا فى عـداد الهالـكين •

ثم انخرط فى نوبة بكاء ••

وكان اليوم •• الجمعة ١٣ ابريل !

***

وفى فجر يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ يوم النصر ، كانت هناك حشود ضخمة من الجمهور تتجمع فى هوايتهول ، وخارج مبنى البرلمان ، وحول قصر بكنجهام •• كانوا يعرفون ان تشرشل سيذهب الى مجلس العموم ، فانتظر الالوف ليروه •• وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، أذاع تشرشل كلمته من داونج ستريت ، ثم انطلق الى المجلس بسيارته • • وقد قطعنا جانبا من الطريق بالسيارة ، أما بقية المسافة فلم تكن هناك حاجة للسيارة لقطعها فقد رفعها الجماهير عن الارض • كان الجميـع قد صمموا عـــلى أن يروه ويلمسوه • • وأن يهنئوه شخصيا • ويبدو أن المـلايين نجحوا فى تحقيق رغبتهم يومها •

وفى اليوم التالى غادر رياســـة الوزارة فرأى السيارة المقفلة تنتظره ولكنه طلب السيارة المكشوفة ، فقيل له انها غير موجودة •• فقال :

ـ اذا سوف أسير بين الجمهور •

وحذرته من شدة الزحام •• فقفز على مؤخرة السيارة •• وراح يتسلق سطحها حتى اذا بلغ مقدمتها ، جلس وقد تدلت ساقاه على زجاجها الامامى •

كان منظرا طريفا •• ولكنه كان سعيدا جدا ، وكأنه تلميذ صغير • !

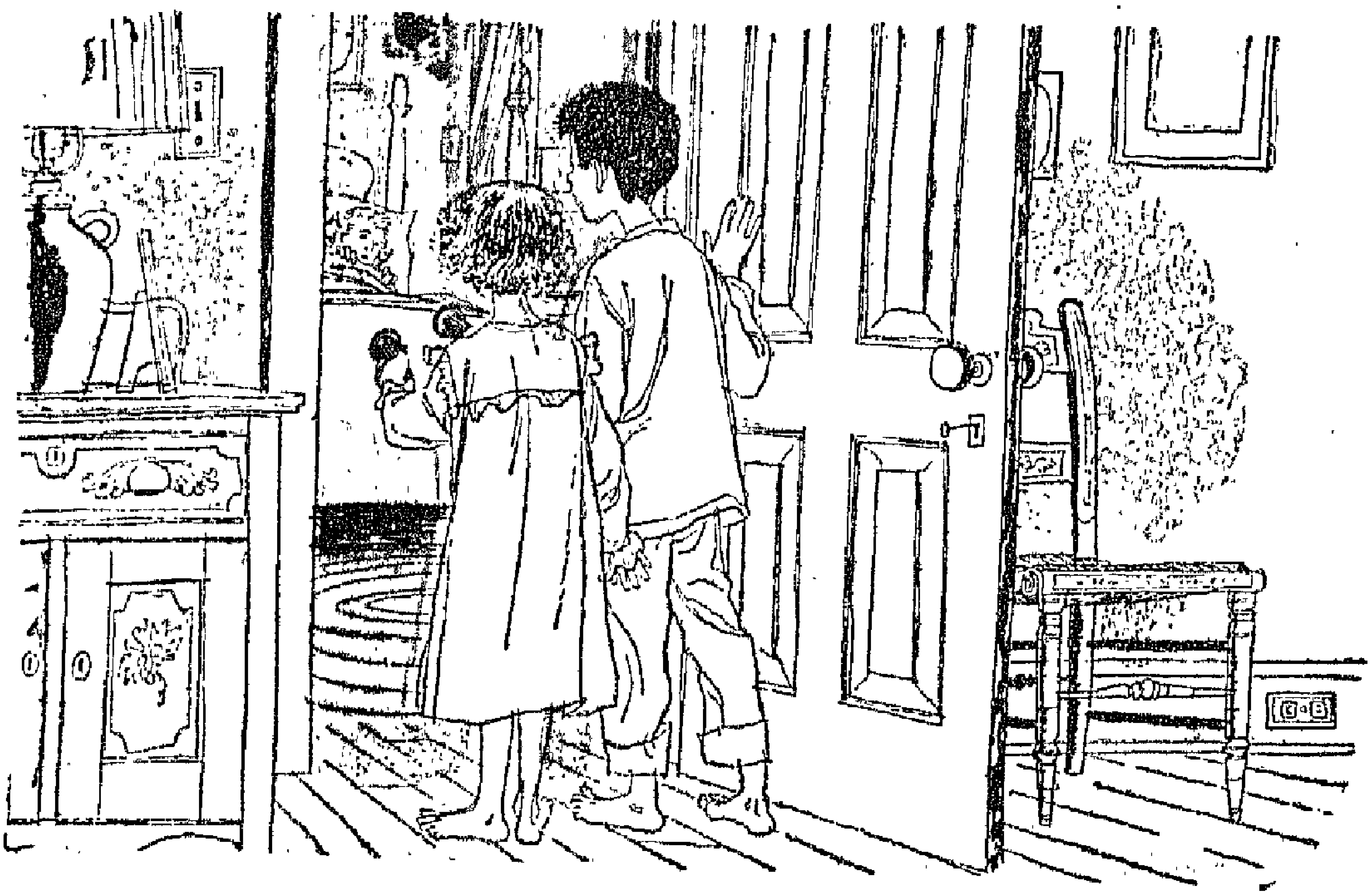
حديث قصير !

قالت الأم لابنتها المراهقة وهى تنـــاولها سماعة التليفون :

ـ لا تطيلى فى الحديث كثيرا ، فان العشاء سيكون معدا بعد ساعة واحدة !

كتاب الشهر

محمد محمود إبراهيم توفيق



والآن أصبحنا ستة

Now We Are Six

ملخصة عن مجلة ماك كول

بقلم فرانسيس بالمر

كان ((جو)) فى الثامنة من عمره ، و ((روث)) فى الخامسة يوم قرر بيل وفرانس بالمر أن يتبنيا طفلين دون رؤية سابقة ... ولم يكن أحد الطفلين قد عرف منزلا حقيقيا يعيش فيه ، حتى بدأت هذه التجربة الجديدة فى حياة كل من يعنيه الامر ... وقد انقضى وقت طويل قبل أن تهدأ الهزات التى أثارتها هذه الصدمة فى تلك الدار التى تقع وسط احدى المزارع الكبيرة ... انها قصة تثير الدفء فى القلوب ... عن أسرة وجدت نفسها !

والآن أصبحنا ستة

عندما قررنا أنا وبيل أن نتبنى طفلين ، كنا قد عقدنا العزم على شيء واحد ... ان نأخذ اي طفلين يمكننا الحصول عليهما ... وسنأخذهما دون أن نراهما أولا ، فقد كان يبدو لنا أن الحكم على الطفلين مقدما من مظهرهما ، انما هو تدخل فى أمر هو من شأن الله وحده .

وقد ادهش طلبنا هذا ادارة الخدمة الاجتماعية ، ومع ذلك ، فقد أبدت اهتماما بمساعدتنا ، وبعد أن انتهت الاجراءات الرسمية الاوليسة ـ وهى كثيرة ـ دعينا بعد يوم واحد ، حيث قيل لنا اننا نستطيع أن نأخذ طفلا وشقيقته ... وكان الطفل فى الثامنة ، وأخته فى الخامسة .

ورأى المسئولون أن يحذرونا من بعض الاشياء ... قالوا ان هذين الطفلين اللذين تخلى عنهما أبواهما وهما مازالا صغيرين ، قد عاشا حتى الآن فى سبعة أماكن مختلفة .. وكان جو فى بعض هذه الاماكن ميالا الى التدمير الى حد كبير ، أما أخته روث ، فقد أمضت العام الماضى فى منزل شخص تبناها ، وهناك أحيطت بحماية مبالغ فيهـا ، فلم يسمحوا لها باللعب مع غيرها من الاطفال . ومع أن الطفل لم يكن يبدى عطفا كثيرا على أخته ، برغم حبها الشديد له ، فقد أحس الجميع أن الاثنين يجب أن يكونا معا .

ومع انهم حذرونا من التسرع فى اصدار قرارنا .. فانني انا وبيل كنا قد اتخذنا قرارنا فعلا .

وسألهم بيل : متى نستطيع اخذ الطفلين ؟ فقيل لنا انهم سيحضرون الطفلين الينا فى خلال أسبوعين .

وفى نفس الوقت ، كانت هنـاك أشياء يجب أن تقوم بها أنا وبيل .. ان منزلنا الذى يقوم وسط مزرعة تبلغ مساحتها ٣٠٠ فدان من الارض الخصبة ، كان عبارة عن مبنى من الطوب الابيض ، له أربع بوابات وست غرف كبيرة فى الدور الارضى ، وثلاث غرف متسعة للنوم فى الطابق العلوى ، وقد عشنا فيه وحدنا ثمانى سنوات .

وشرعنـا فى طلاء غرفة للنـوم فى

الطابق العلوي وتزيينها لكل طفل ..
وبينما كنا نقوم بهذا العمل ، اخذت بعض الشكوك تطوف بخيالي لاول مرة ...

ماذا نفعل اذا تبين أن من المستحيل معاشرة الطفلين ؟ .. هل سنتمكن من حبهما .. بل هل سيتمكن الطفلان من حبنا ؟

***

وحل اليوم الموعود ..

وفي الساعة الواحدة ظهرا وصلت الى ساحة الدار سيارة تقل سيدتين من مكتب الخدمة الاجتماعية .

وتوقفت السيارة ، وفتح بابها الخلفي ، وسمعت صوت قرقعة ، ثم ظهرت تحت باب السيارة ساقان طويلتان ورفيعتان ، وشرع صاحبهما في الخروج من الباب ..

- وأمسكت يد بيل ، وسرنا معا نحو السيارة ..

كانت المسافة التي تفصلنا عنهما لا تزيد على ٤٠ خطوة .. ومع ذلك فقد احسست أنها كانت أطول مسافة سرتها في حياتي . وقبل أن نصل الى البوابة ، كانت صاحبة الساقين الطويلتين تقف أمامنا بصورتها الكاملة .. كانت طفلة صغيرة سمراء ، ترتدي معطفا أكبر من حجمها ، وتمسك في يدها صندوقا كبيرا من الورق ، وقد برزت من كل أركانه رءوس عرائس صغيرة .. وما كادت الطفلة ترانا ، حتى حنت رأسها الى أسفل ، ومرقت من أمامنا وهي تحمل كنزها الصغير بين يديها ، متظاهرة بأنها لم ترنا ..

وتقدمنا نحو السيارة ، حيث برز منها طفل كبير العينين ، تتراقص على شفتيه بسمة قلقة ..

وقلنا له : مرحى ..

ولكن وجهه اكتسى بمزيج من مظاهر الفزع والعصبية .. وبدا أن السيدتين تتوقعان بعض المتاعب .

ودلفنا جميعا الى داخل الدار ، وصعدنا الدرجات ببطء .. بينما كانت الطفلة الصغيرة تتعثر تحت ثقل الصندوق الذي تحمله ، بعد أن رفضت أن تدع بيل يحمله .

وقلت لها : هذه غرفتك ياروث .. ربما أحببت عرائسك كلها أن تنام معك في فراشك الصغير .

وقال لها بيل : هل تصدقين انني نمت في هذا الفراش وأنا طفل صغير ؟

فرفعت اليه عينيها ، ثم نظرت الى الفراش .. وفي سخرية بالغة قالت وعيناها العسليتان الكبيرتان تلمعان :

— كلا ..

وذهبنا مع جو الى غرفتـه التى تقع عبر القاعة .. فما كاد يراها ، حتى أوشكت عيناه الزرقاوان أن تخرجا من محجريهما .. وقال فى لهفة :

– من الذى ينام معى فيها ؟

فقلت له : انها ستكون لك وحدك وفجـأة أسرع الطفلان بالعـدو عبر القـاعة ، ثم قفزا معـا فوق فراش روث ، ووثبـا منـه الى الارض .. وانطلقـا يعدوان فى الردهة ، وأخذا يهبطان الدرجات ويصعدان الى أعلى، كأنهما حيوانات أفلتت من أقفاصها ..

وهبطنا نحن الاربعـة الـكبار الى الارض ، بينما أخذ الطفلان يواصلان العـدو فى أرجاء الدار دون توقف ، حتى طافا بها أكثر من عشرين مرة ، بينما جلسنا نحن نحاول التحدث عن المرحلة التى نواجهها .

ومع أن جـو جاءنا وهو لا يكاد يمتلك شيئا من الثياب ، فقد كان معه الكثير من مسدسات اللعب ، وأمسك هو وأخته اثنين منها ، بعد شحنهما بالبـارود ، ثم جاءا الينـا فى غرفة الجلوس ، وأطلقا على كل منا طلقة . وكان تصويبهما نحونا دقيقا ومتعمدا .. ومع أن جو كان يحاول أن يصبغ المسألة بصـبغة مرحة ، فان روث كانت تطبعها بطابع جدى ..

وقالت روث وهى تصوب نحوى الطلقة الاخيرة :

– والآن .. جاء دورك أنت ..

وكانت النظرة التى بدت فى عينيها تكشف فى وضوح ، كيف أن الرصاص الحقيقى كان كفيلا بأن يحقق هدفها بطريقة أفضل ! !

كان قلبى يدق كالمطرقة الثقيـلة المتعثرة فى دقاتها .. ان الامر سيكون أكثر مشـقة مما كنت أتخيله ... وعندما ودعنا المشرفتين الاجتماعيتين .. لم أجسر على النظر فى وجه بيل كما أنه حاول تفادى النظر الى عينى ..

يالله ... كم كنت أحس بالرعب يومئذ .. لقد أثار الطفلان شـعورا بالاشفاق فى قلبينا .. ولا شىء غير ذلك .. انهما لا يبدوان ولا يتصرفان كأي طفل رأيناه من قبـل .. ولم أكن على ثقة من أن قلبى سوف يتسع تماما لقبولهما !..

***

وصحبنـا الطفلين والوقت لا يزال نهـارا ، لنريهما أرجاء المزرعـة .. فذهبنـا أولا الى مخزن الحبـوب ، حيث كنـا نربى بعض الخنـازير الصغيرة ، التى سحرت روث بمنظرها ، فأخذت تتنقل بينها فى غبطة .. ثم ذهبنـا الى مناطق اطعـام الماشية ،

وأخذنا معنا عربة مشحونة بطعامها لننشره على الارض ، وامتطى جو المحراث مع بيل ، بينما ركبت روث معى فوق العربة التى تحمل الطعام، ونظرت الى نظرة فاحصة .. ثم قالت :

ــ هل تريدين أن ترى كيف وضعوا الابرة فى ذراعى عندما أجروا لى اختبار الدم ؟

ثم أزاحت كم معطفها ، وأشارت الى علامة زائلة .. فقلت لها :

ــ يالك من مسكينة .. هل بكيت يومئذ ؟

فنظرت الي نظرة اشمئزاز تام.. وقالت :

ــ هل تعتقدين أننى من النوع الذى يبكى عند كل ضربة صغيرة ؟

وعند ذلك قفزت العربة قليلا فوق الارض، فجذبت روث نحوى لامسكها بثبات .. كان قلبها يدق بأسرع مما كنت أتصور أن القلب يمكن أن يدق.. وفجأة أحسست أننى أريد حماية هذه الطفلة التى لا تبكى ، ولاتضحك .. بل ولا تبتسم الا فيما ندر ، كما يبدو من مظهر وجهها الشاحب الصغير .

***

وفى أثناء العشاء ، دهش الطفلان عندما وجدا أن لكل منهما منشفة وسكينة وملعقة وشوكة ، وأخذ جو يلوح بالشوكة فى يده وهو يتحدث أثناء تناول الطعام ، ولكن الوجبة مرت أفضل مما كنت أتوقع بصفة عامة ..

وكانت مفاجأة عندما هرعت الطفلة روث الى غرفة الحمام ، ونفضت معدتها الطعام الذى ابتلعته ، وبدا عليها الذعر ..

يالله . انها مريضة كما أعتقد.. فكيف نواجه هذا الامر ؟

ولكن روث سرعان ماعادت الى طبيعتها مرة أخرى .. وعندما اقترحت عليها أن تأخذ حماما ، حنت رأسها فى رزانة ، ثم ذهبت الى حوض الاستحمام ..

وسمعتها تقول بعد قليل : ان لديك أجمل حمام شاهدته فى حياتى.. ان الماء الدافىء جميل أليس كذلك ؟

ومع أنها كانت تتمتع بالحمام كما يبدو ، فلم يظهر على ملامحها قط أنها يمكن أن تبتسم ..

وعندما غمرت قطعة من القماش فى الصابون ، وبدأت أدلك جسمها ، قالت بلهجة عابرة :

ــ هل رأيت من قبل جلودا سمراء ؟.. انها لا تغسل قط ..

انها بشرة سمراء !

اما جو ، فقد نظف نفسه بنفسه، وعندما حلّ موعد النوم ، ذهبت أنا وبيل مع الطفلين الى غرفتيهما ، وأعطينا كلا منهما بطارية صغيرة . ثم ركعنا معهما لنعلمهما كيف يرتلان الصلاة قبل النوم ، وطبعنا قبلة على جبين كلّ منهما ، وتمنينا لهما ليلة سعيدة .

وهبطنا الى الدور الارضي، حيث قبعنا فى مقاعدنا الكبيرة ، وتنهدنا فى ارتياح ، وجلسنا دون أن نتحدث بعض الوقت .. ولكن عندما لجأنا الى الفراش أخيرا ، لاحظت أن بيلّ لم ينم .. كما كنت أنا أيضا فىحالة توتر شديد ، وظللتأرهفالسمع ..

لا أدرى ماذا كنت أتوقع أنأسمع .. ولكنى استغرقت أخيرا فى نعاس متقطع .. الى أن فوجئت بأصوات وضجيج .. وضوء براق يلمع أمام وجهى ..

وسمعت صوت روث تقولْ : انهما لايزالان هنا ياجو ... انهما لم ينصرفا .

ثم عاد الطفلان الى فراشيهما .. ولكنهما عادا لرؤيتنا أربعمراتأخرى قبل الصباح !

وفى اليوم التالى ذهبنا فى جولة لشراء بعض الملابس لجو وروث .

وطلبت الطفلة قبعة من القش ذات لون وردي وطاقة من الزهور فى مقدمتها ، فاشتريتها لها، كما ابتعت لهامعطفا أزرق اللون، ذاياقة بيضاء، وزوجا من القفازات البيضاء المصنوعة من النايلون .

ونظرت روث الى نفسها فى المرآة الطويلة المثلثة الزوايا، ففتنها منظرها ..وبرقتعيناها ، ولكنها عضتعلى شفتيها حتى لا تبتسم ... وعندما تراجعت مع موظف المتجر بضع خطوات لانجاز الصفقة ، عادتروث تنظر الى نفسها فى المرآة مرة أخرى — وهىتعتقد أننى لا أستطيع رؤيتها من مكانى — وأخذت تقوم بحركات عجيبة بيديها وهى تضع فيهما القفازات .. وفجأة ارتسمت على شفتيها شبح ابتسامة .. وعندئذ سالت الدموع على وجنتي ..

وبعد أنأوى الطفلان الىفراشيهما فىتلك الليلة ، أخبرتبيل بما حدث.. وظننا أن الثيابالجديدة قد حسنت سلوكهما.. وكم كانتدهشتنا عندما سمعنا أصواتخطوات على الدرجات — وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء — .. ثم دخلت روثوقد بدا الرعب على وجهها ، وتساقطت

الدموع على وجنتيها ..وهى تقول :

ــ اننى أحب منزلى الآخر أكثر من هــذا .. أريد أمى الاخرى .. عدونى انكم ستعيدوننى اليها ..

وراحت عبراتها تتدفق بغزارة..

لقــد كنت أتوقع ذلك فى الليــلة الأولى لمجيئهما .. أما الليلة ، فلم أتوقعه منها قط ..

ومددت اليها ذراعى ، وأجلستها على حجرى ، وقلت لها :

ــ روث .. اذا اعدناك ، فان جو سيبقى هنا ، ولن تريه بعد ذلك أبدا

فأحسست أن توترها قد زاد قليلا .. وقالت :

ــ ان جو لايحبنى على أية حال..

كما قالت لى أمى السابقة ..

وتعجبت من هؤلاء الاشخاص الذين يحاولون بث الكراهية فى قلب طفلة صغيرة نحو شقيقها ..

وقلت لهــا : روث .. انك قد لاتصدقيننى ، ولـكن ماسأقوله لك هو الحقيقة . لقد كانت أمك السابقة تريدك أنت وحدك ولا تريد جو .. ولكنهم أخذوك من منزلها حتى تعيشى انت وجو معا كمــا يجب أن يعيش الاخوة والاخوات .. والآن ، هيا بنا نسأل جو عما اذا كان يحبك أم لا .

وانطلقنا الى أعلى ، وأنا أدعو الله مع كل خطوة أخطوها أن يلهمه شيئا يريحها .. وما كدنا نصل الى باب غرفته ، حتى نهض من فراشه .. فقلت له :

ــ جو .. ان روث تحس بحنين الى المنزل الذى كانت فيــه ، وهى تعتقد انك لاتحبها .

فمد الطفــل يده ــ بارك الله فى قلبه ــ وربت على كتف اخته وقال بلهجة صادقة :

ــ اننى أحبك ياروث .

فابتســمت الطفلة من بين دموعها .. وسألته :

ــ هل تحبنى حقا يا جو ؟

ولكى يثبت لها قوله ، جذبها اليه وطبع على وجنتها قبلة .. فقلت لها :

ــ مارأيك فى أن تنامى الليلة مع جو ؟

فقالت فى لهفة : هل أستطيع حقا ؟

وقال جو : هل تستطيع ؟

وعندما انصرفت من الغــــرفة ، احتضن كل من الطفلين الآخر ، وناما معا .. وقد تأكدت انهما لن يشعرا بأي حنــين نحو المنزل الآخــر فى تلك الليلة .

وعــدت الى الطابق الاســفل .. وللمرة الثانية فى نفس اليوم ، وجدت نفسى لاأستطيع أن أمسك دموعى..

وبعد أن لجأت مع بيل الى فراشنا

.. بدأ استعراض البطاريات مرة أخرى ، واستيقظنا من النوم ثلاث مرات فى تلك الليلة .

***

كان الصباح التالى يوم أحد .. وقد تمنيت ألا يبدو على وجهى الشحوب حتى لا يعتقد أصدقائى أن هذه المسألة قد أرهقتنى فعلا .. وكنت أعلم أننا سنكون موضع الانظار فى الكنيسة يومئذ .

كانت روث تتكلم بصوت عال قبل أن نبدأ الصلاة ، وفى أثناء الصلاة أخذت تنظر الى الخلف ، بدلا من النظر الى الامام ، ولاسيما عندما وقفنا نرتل الدعاء .. وفى طريق العودة الى المنزل ، قلت للطفلين انهما تصرفا بطريقة لائقة .. ثم قلت لروث فى تلميح ، انه كان من الافضل — تأدبا — ألا تنظر الى الوراء وتحدق فى الناس .

وازددت احساسا بالتعب والارهاق على مر الايام .. وقد طلب جو أن ينام فى الطابق الارضى ، لان أضواء السيارات التى تسير فى الطريق كانت تبرق بين الاشجار ، فتصور مناظر غريبة ، وتحرك ظلالا على السقف والجدران فى غرفته ، تثير رعبه ، اذ كانت تبدو أحيانا فى صورة ذراعى رجل ضخم تحاولان امساكه .. وطلب جو أن نقتطع تلك الاشجار — التى يزيد عمرها على ٧٠ عاما — ولكننا بدلا من ذلك استبدلنا بمصاريع نوافذه البيضاء أخرى ذات لون أخضر داكن ، ووضعنا مصباحا مضيئا طول الليل فى الغرفة ، مظهرين له مبلغ عطفنا عليه واستعدادنا لمساعدته على التخلص من الخوف .

وبعد بضعة شهور ، واجهت هزة من أعظم هزات الأمومة ، عندما قال لى جو :

— أماه ... اننى لا أمانع فى اعادة المصاريع البيضاء واطفاء النور فى الليل اذا أحببت .. فاننى لم أعد أخاف .

ان أشياء كهذه تثير القلوب ... ولكن الصورة فى جملتها لم تتغير كثيرا ... فقد ظلت البطاريات تضىء فى وجوهنا كل ليلة ... وفى كل ليلة يمتلىء المنزل بالضجة ... وهى ليست ضجة أطفال سعداء مرحين ، بل هى ضجة أطفال مقلقين وقحين ، كثيرى المطالب ..

وأخيرا .. وبعد يوم لا يحتمل ، ظلت روث طواله تبدى شكوكها فى كل شىء .. وهددنا جو خلاله بأننا اذا لم ندعه يمتطى صهوة جواد صغير فانه لن يبقى معنا ... هبطت الى

الطابق الارضى بعد أن وضعتهما فى فراشهما .. ورحت أبكى ..

انني لم أحاول الشكوى لبيل قبل ذلك .. أما الآن ، فقد أخذت أنفض له كل ما فى صدرى .. ان هذين الطفلين شيطانان صغيران .. انهما لا يشعران نحونا بأي تقدير .. بل يعاملاننـــا كاثنـين من المغفلين .. وقلت أخيرا :

ـ اننى لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال .. هذان الطفلان فيحاجة الى شخص له صبر وحكمة تفوق ما للبشر .. اننى لا أكاد أرى فيهما شيئا محببـا .. انهمـا ينظران الى والكراهية تنطق من عيونهما .. اننى بائسة شقية ..

وتركنى بيل أتكلم حتى انتهيت .. ثم قال لى :

ـ ليس هناك مايضطرنا لابقائهما .. فهل تريدين اعادتهما ؟

قلت : نعيدهما الى أين ؟.. الى حيث يلقيان المزيد من نفس الشيء الذى جعلهما كما همـا الآن ؟.. ثم أظل أستيقظ كل ليـلة طول حياتى على صـوت خطوات وهميـــة على الدرجات ، وأصـــواتهما تدوى فى أذنى .. كلا يابيل .. اننى يجب أن أرسل نفسى أيضا بعيدا !

وكانت نتيجة محادثاتنا تلك الليلة ، قرارا بأن نكون أكثر حزما مع الطفلين . اننا لن نعاقبهما على مشاغبات الطفولة العـادية .. ولكننا سوف نعاقبهما على الوقاحة ، وتجاهل حقوق الغير ، وعدم احترامهما لنا .

وفى تلك الليلة ، أحسست بالراحة فى نومى برغم المقاطعات المعتادة منهما . وعندما استيقظت فى الصباح التالى كنت أتطلع الى بزوغ النهار ، مدركة أنه سيكون هناك نوع من التغيير ..

كان المعتاد كل يوم أن أصدر بعض التصريحـات أو الآراء ، فلا تقابلهـا روث الابقولها : « أوه .. اننى لاأصدق ذلك . » ولكنى فى هذه المرة ، طرقت الارض بقدمى وقلت :

ـ روث . لقـد سئمت سماعك تقولين هـذا . فاذا فعلت ذلك مرة أخرى فسوف أضربك .

فنظرت الى نظرات سـوداء .. وقالت : أوه .. اننى لاأصدق ذلك !

وسرعان ماقلبتهـا على وجههـا وأخذت أضربها على ردفها ...

لم تبـك ولكنى علمت أن الضرب آلمها .. فقد أوجع يدى .. وسألتها :

ـ هل تصدقين الآن ؟

قالت : أجل ..

وكانت نظرتهـا الي ليست كلهـا

كراهيـــــة .. بل فيهـــا مزيج من الاحترام !

***

وازدادت العلاقة بينى وبين روث توثقا يوما بعد يوم .. كانت تقضى جانبا كبيرا من الوقت معى فى المنزل، وكنت أغنى لها قبل النوم ، وأقص عليها الحكايات المختلفة وأنا أقوم بعملى المنزلى ... وذات مرة ذهبت معى الى المطبخ ونحن نغنى أغنية المهد ... وكانت تضحك من أعماق قلبها .. ضحكة طفل حقيقية سعيدة متألقـــة تأثر لها قلبى .

وبرغم ذلك فقد ظلت بسمات روث قليلة نادرة ... وكثيرا ما كانت تغنى لى أغنيـــات صغيرة تفيض بالشكوى والأنين .. كانت نغماتها دائما واحدة ولكن الكلمات تختلف فى كل مرة ، كلها تتحدث عن طفولة تعسة فى مواقف مؤلمة .. كانت تصب فى أذنى تجاربها فتكشف لى عن أشياء لم أكن أستطيع معرفتها عن طريق سؤالها ..

وفى ذات يوم قلت لها :

ـ روث .. لماذا لا تغنين أغنيـــة سعيدة ؟

قالت : لأننى لست سعيدة ... اننى حزينة .. لا أزال أحس ببعض الخوف من أبى ، لقـــد بدأت أعتـــاد معـــاشرته ... ولـــكن لن يمضى وقت طويل حتى يأتوا ويأخذونى الى مكان آخر .

وشملت وجهها نظرة يأس ووحدة غامرة ... ثم قالت :

ـ انهم يفعلون ذلك دائما كلما بدأت أعتاد على الآباء

فقلت لها : لن يأخذك أحـــد منـــا يا روث . هذه دارك ، ولن يكون لك أب وأم غيرنا قط .

ففكرت الطفلة قليلا ، ثم بدت فى عينيها نظرة سخط .. وقالت :

ـ لست أدرى لماذا لم يحضرونا أنا وجو اليـــكما من أول الأمر ... هؤلاء الأغبياء !

ولكن بينما كانت روث تبدو أسعد قليلا ـ على الاقل ـ فان جو أصـــبح أصعب مراسا .. لقد عاد ذات مساء بعد رجوعه من المدرسة وقد ملأ ثنيات بنطلونه وحذاءه بالحبوب المخصصـــة لغذاء الماشية .. وما كاد يصل الى المنزل حتى توجه الى المطبخ وأفرغ هذه الحبوب كلها على الارض فقلت له : جو .. لم يكن هـــذا لطيفا منك . هيا نظف الارض .

فقفز من مكانه وأحضر المكنســـة ، وأخذ يبعثر الحبوب تحت الحوض وفى كل مكان من أرجاء المطبخ ثم جحظ

بعينيـــه وابتسم ابتســـامة مصطنعة بطريقة تثير الغضب وقال :

ـ هاقد كنست الحبوب كلها .. ما رأيك ؟

فأمسكت المكنسة ، وأخذت أجمع الحبوب بنفسي .. ثم نطقت بكلمات كان المســـئولون عن ادارة الخـــدمة الاجتماعية قد حذرونا من قولها .. قلت :

ـ جو .. لقد حاولت أنا وزوجي أن نجعلك ســعيدا ، ولكنك تتصرف دائما كأننا كنا غير منصفين معك .. هل تعرف أننا غير مضطرين لابقائك معنا في هذا المنزل ؟ .. فماذا تريد بحق السماء ؟

كان‌هذا الكلام كفيلابزعزعةشعوره بالامان .. ولـكنى وجــدت فى تلك اللحظة أنه من الاحكم قوله بدلا من أن أتركه يعتقد انه‌يستطيع‌الاستمرار فى عمل كل مايعن له .

وقال جو ردا على كلامى : حسنا .. انك أنت وأبى تحبان روث أكثر منى ..

قلت : كيف تستطيـــع ان تقول ذلك ؟ لقد ضربت روث عندما ألقت ماء فى الحمام ورفضت أن تجففه .. بينما نثرت أنت الحبوب فلم‌أضربك

وكانت اجابة جو على ذلك درســا تلقينه فى طريقة تربيته .. اذ قال:

ـ كنت أعتقـــد دائما أن الذين يضربون هم المحبوبون أكثر من‌غيرهم

وهــكذا قدم لى جو الرد على أكثر المشكلات التى تكدر حياته ..

وفى ذات يوم ، كان الطفــلان مع بيل فوق المحراث ، عندما طلب بيل من جو أن يترجل ويفتح بوابة مغلقة .. فنزل جو وفتـــح البوابة الى حد يكفى لمروره منها فقط ... وما كاد يجتاز البوابة ، حتى أخرج من جيبه كرة للجولف ، وألقــاها على بيـــل ، فأصابته فى ساقه ..

وصاح جو : افتح بوابتك بنفسك

ثم انطلق فى طريقه الى المنزل ..

وقفز بيل من المحراث،وضرب جو على أردافه ضربا موجعا ، ثم أمره أن يفتح البوابة .. ففعل ! ومر المحراث من البوابة ، فأغلقها جو ، وأمره بيل أن يعود لركوب المحراث .. واستمرا يقومان بعملهما فى المزرعة .

وفى ذلك المساء اقترب جو من‌بيل وجلس على ركبتيه ، وأخذ يتطلع‌اليه بعينين يفيض منهما الحب !

ظللنا فترة طويلة لانستطيع‌القضاء على عادة جو فى المبالغة والكذب . .

وفى ذات يوم سألته : لماذايفعل‌ذلك؟

وتكلم جو .. فكشفت تعبيراته‌عن

كل السخط والحقد الذى يحس به حيال المجتمع كله ..

فقد قال : هل قلت الحق مرة وضربت من أجله ،حتى اذا قلت كذبة توقفوا عن ضربى . . اننى أحيانا أخشى ان أقول الحقيقة .. لقد حدث فى أحد البيوت التى أقمنا فيها ، انهم اعتادوا ضربى مهما قلت لهم ، لانهم يعتقدون اننى أكذب دائما . وكانوا يتركوننا وحدنا فى الليل . كانت روث صغيرة جدا ،وتبكى طول الوقت .. اننى أذكر ليلة ظننت فيها انها كانت جائعة ، فأحضرت بعض اللبن ووضعته فى زجاجة .. ونامت وهى ترضع اللبن .

فقلت له : من الطريف ان تحدثنى عن ذلك ياجو .. فقد قالت لى روث ان من الاسباب التى جعلتها تحبك كثيرا انك كنت تسرق اللبن ، وتدفئة لها وتضعه فى زجاجتها .

فنظر نحوى فى دهشة .. وقال:

ـ هل تذكر روث ذلك ؟ .. لقد كانت صغيرة جدا ، ولاأعتقد انها تتذكره .

ـ لقد قالت لى شيئا آخر .. ان هؤلاء الناس السفلة أغلقوا عليك باب القبو ذات مرة وربطوك الى مقعد .

فقال فى عبوس : مرة ! ..لقد فعلوا ذلك مرارا ..قيدونا بمناشف الاطباق القديمة فى القبو .. وكان فيه فيران كثيرة . . ولما كنت لاأستطيع التحرك ، فقد كانت الفيران تعدو فوق ساقى وتقرض حذائى . لقد وضعوا روث هناك مرة ، ولكنها صرخت بأعلى صوتها فاضطروا الى اخراجها والصعود بها . واعتقد انهم أعطوها شيئا لتنام ، لانها كانت دائمة البكاء وهم لايستطيعون تحمل ذلك. ومرضت روث طويلا بعد ان نقلتنا ادارة الخدمة الاجتماعية الى مكان آخر. ثم ذهبنا الى أماكن مختلفة ، ولكنهم كانوا يأخذوننى مرة كل أسبوع لأراها ... وكنت أجدها دائما فى الفراش لاتقوى على اللعب .

ووضعت ذراعى حول عنق جو ، وطبعت قبلة على وجنته .. فقال :

ـ اننى أتساءل . . هل أحبنى أحد حقا قبل ان أحضر الى هنا . ؟

***

كانت شهور العطلة الصيفية رائعة .. لقد سبحنا معها ، وأمضينا أياما كاملة بين الغابات،وقد صنعت بنفسى شبكة ليصيد بها جو الفراشات التى شرع فى اعداد مجموعة جميلة منها . وبدأ الطفلان يزدادان نموا كل يوم، بدنيا وثقافيا وروحيا .

وأدركنا اننا أصبحنا نتعلق بالطفلين . أصبحت مطالبهما رغباتنا . . . ومتاعبهما تثير قلقنا ، وآلامهما واضطراباتهما موضع رعايتنا وآلاما لقلبينا . .

وفي أحد أيام السبت من شهر اكتوبر ، أصيب بيل بحادث مروع من آلة الحصاد كاد يمزق يده اربا . فنقل الى المستشفى ، بينما جاءت أمي لتبقى مع الاطفال في المنزل حتى أستطيع ان أمضي أغلب وقتي مع بيل في المستشفى .

وفي مساء الاثنين ، عندما عدت الى البيت ، كان الطفلان في الفراش ، وأمي تبدو متعبة . . وعرفت انها عانت متاعب مع جو ، فقد رفض أن يعنى بالدجاج أو يؤدي أعماله المنزلية الصغيرة .

وعندما حان وقت النوم ، قال لها انه لن يفعل شيئا مما تطلبه منه .

وأدهشني هذا المسلك . . فقد كان جو قد بدأ يصبح طفلا طيبا .

وفي اليوم التالي ، انتحيت به جانبا وقلت له :

ـ أعتقد انك تشعر بالقلق على أبيك ، ولعلك تخشى ان ينقلوك الى مكان آخر اذا حدث له شيء سيىء .

ويبدو انني لمست الوتر الحساس . فقد حاول أولا ان يخفي شعوره ، ثم مالبث أن أطلق العنان لدموعه ، وقال وبدنه يهتز من فرط البكاء :

ـ ماذا أفعل ياأماه . . انكم لم توقعوا أوراق التبني بعد ، واذا وجدت ادارة الخدمة الاجتماعية أن أبي فقد جزءا من يده ، فقد يعتقدون انه لم يعد صالحا لتربية طفليه .

فقلت له : ياحبيبي جو . . ثق بنا . عندما يشفى أبوك ، فسيفعل نفس العمل الذي فعله دائما .

وتأكد اننا سنظل معا نحن الاربعة مهما حدث . فلا تحاول ان تشغل نفسك بهذا القلق .

وتوقف جو عن البكاء . . وقال وهو يمسح عينيه :

ـ آسف لانني جعلت جدتي تتألم .

وعندما شفي بيل من الحادث ، قررنا أن ننهي أوراق التبني بأسرع مايمكن ، وقد نجحنا في ذلك بفضل مساعدة مكتب الخدمة الاجتماعية .

وبدا جو أكثر راحة وسعادة بعد التبني ، وان ظلت بعض الكآبة تطغى على وجهه فجأة ، فيبدو وكأنه يخاف كل شيء . . وكل موقف .

وكنت أعتقد في قرارة قلبي ان حل هذه المشكلة قد يكون في الحصول على المزيد من الاطفال ، ولكنني ظللت أتكتم

ذلك بين جوانحى • • الى أن قال لى بيل ذات مساء :

ـ هل تعرفين •• اننى أريدطفلا آخر ؟

قلت : اذاهيا قدم طلبا للحصول على طفل وشقيقته آخرين ••لانه اذا كنا سنتبنى طفلين ، فيجب أن يكون لدينا بنتان •

وعندما بحثنا احتمال احضار أخ وأخت جديدين للاسرة مع جو، وحبب على الفور بالفكرة ، وبدأ هو وروث فى بحث المشروعات التى يعدانهــا للطفلين الجديدين، ومايمكن أن نفعله لهمــا وقدمنــا الطلب • وفى ذات يوم أبلغتنا ادارة الخدمة الاجتماعية انهناك طفلين يمكن الحصولعليهما ، الطفل يدعى توم وعمره سبعة أعوام ونصف ، وأخته تدعى بث وهى فى الخامســة وقد وافقت أنا وبيل دون تردد على أخذهما •

وفى الاســبوع السابق لوصول الطفلين ، بدأ جو يضرب أخته لاقل استفزاز ، وعاد الى شكاواه القديمة من صعوبة الدراسة ، وأخذ يتململ من أعماله المنزلية •

وقلت له يوما : جــو • • انك تتساءل عما سيحدث بعد وصول توم وبث ، وتحس بالقلق لانك قد لاتحبهما ،وتعتقد انهما سيشاطرانك فراشك وألعابك •• فلماذا لاتبعد هذا القلق عن رأسك ؟ •

ودلتنى بسمة حية على اننىلست من نفسه موضع الداء ••

وفى اليوم الذى وصــل فيه توم وبث ، كان جو وروث متلهفين عـلى قدومهما •• وصل الطفلان قبــل العشاء •• كان توم أقصر من روث برغم انه يكبرها سنا ، وكان وجهه مليئا بالتجاعيد وعيناه فيهما حول • وهو يهز رأسه دائما •• أما الطفلة فكان شعرها يتدلى على عينيها ، ولا تعرف تطق الكلمات جيدا •

واستقبل جو وروث شــقيقيهما الجديدين استقبالا طيبا ، فقد اخذت روث تعامل بث معاملة الام الحنون ، وتمسح دموعها •• وقدمت لها بعض لعبها ••

وقالت روث :

ـ انها تحب قطتى الصغيرة • • سأجعلها تقضى الليلة معها •• هل نستطيع أن ندخل الحمام معاياأماه ؟

ودخلت الطفلتان الحمــــام معا ، وأمضتا فيه وقتا ممتعا •

وبينما كانت بث تستحم•• قالت لها روث :

ـ لقد كنت فى مثل هذه القذارة

يوم جئت هنا لاول مرة ! •
وبعد أن وضعت الطفلتين فى فراشهما ••ظلت هذه العبارة تدوى فى رأسى •• وظللت أفكر فيها وأنا أهبط الدرجات الى أسفل ••ورأيت جو قادما نحوى فى غرفة الجلوس وهو يمسك توم من يده •• وقال :

ــ سنصعد الى غرفتنا •• وسيرى توم كل اللعب ويختار منها مايريد ليلعب به •

وابتسم بيل وأنا أجلس الى جواره•
فابتسمت أنا أيضا فى هدوء •
لقد كانت هناك أشياء كثيرة مثيرة أريد أن أحادثه فيها •

منافس !

عندما سمع الكاتب الفكاهى « باجز باير » ان زوجته وضعت مولودا اثناء سفره ، بعث اليها برقية يقول فيها :

« سمعت انك استقبلت ليلة امس فتى وسيما فى مخدعك .. ! »

خبير ..!

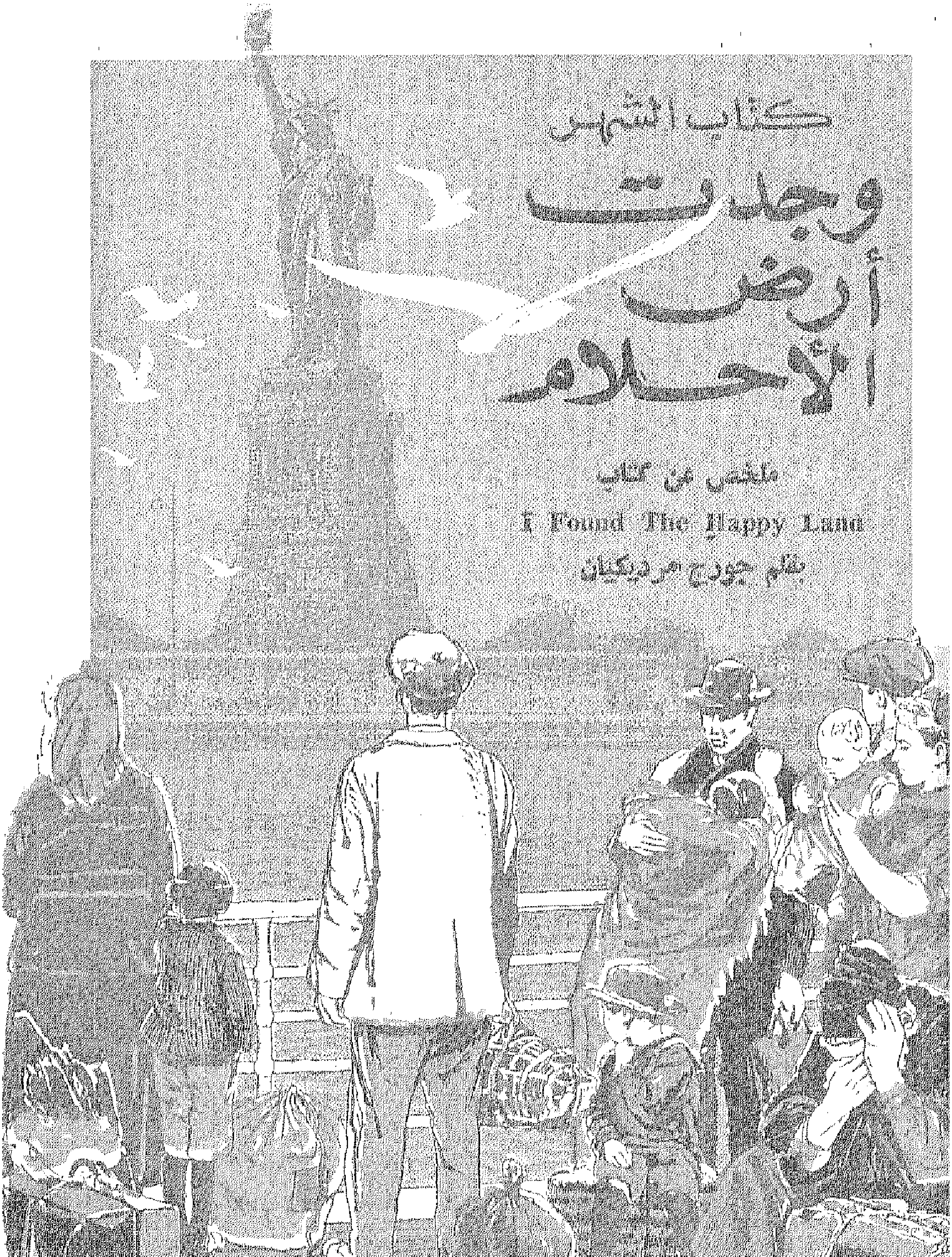
قال رجل البوليس لصاحب السيارة التى اصطدمت بسيارة تقودها سيدة :

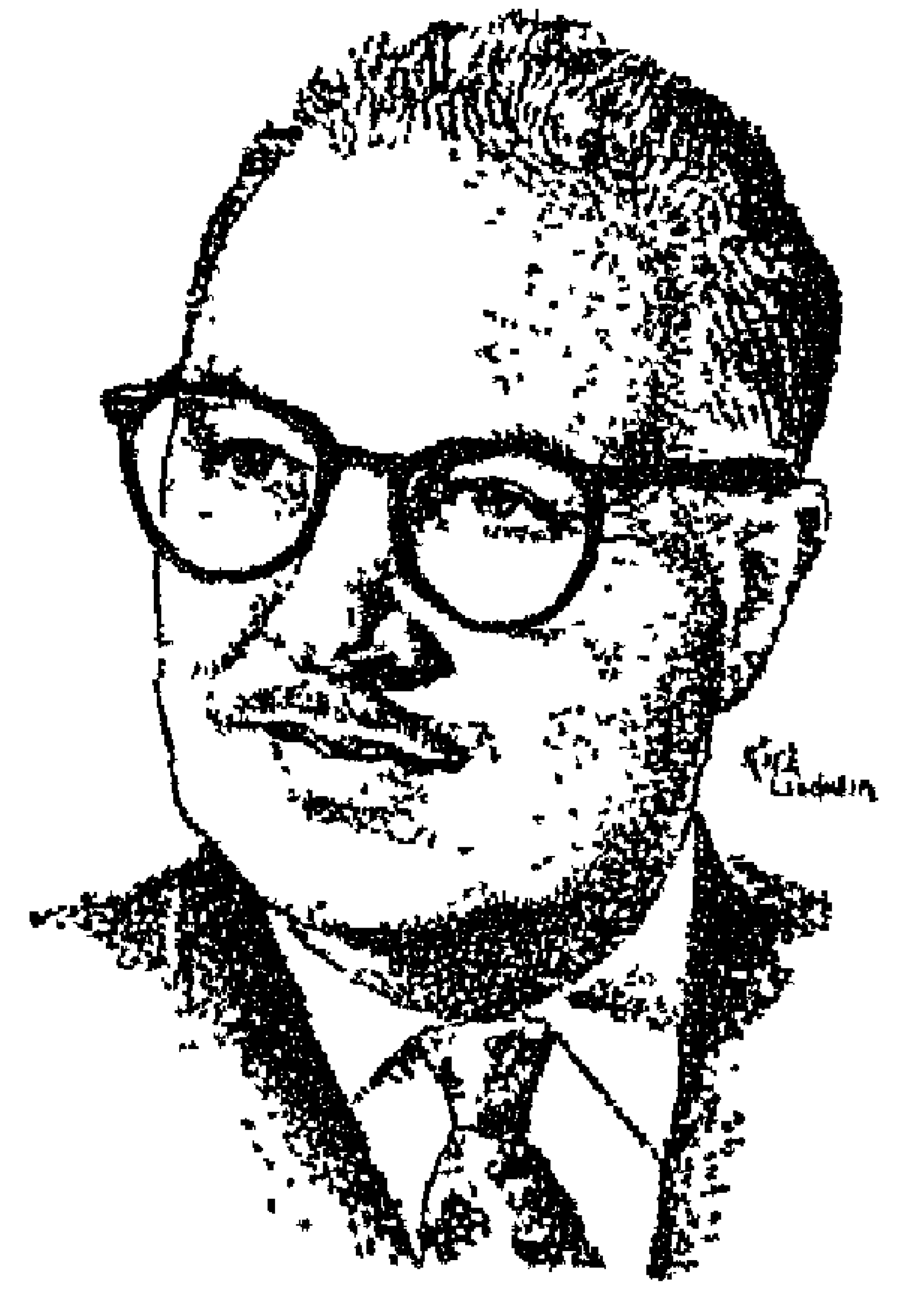
ــ لو كنت مكانك ياسيدى لسويت الامر بسرعة .. فان كل كلمة منك ستقابلها الف كلمة منها .. !

احسن وسيلة !

التفت احد المدعوين الى جاره فى حفلة الكوكتيل وقال :

ــ اننى اشعر بالملل .. سابحث عن سيدة جميلة لمغازلتها ، حتى تضطر زوجتى الى اعادتى للمنزل بسرعة ..


كتاب الشهر
وجدت أرض الأحلام
ملخص من كتاب
I Found The Happy Land
بقلم جورج مرديكيان



جورج مرديكيان

عندما هاجر جورج مرديكيان فى عام ١٩٢٢ الى الولايات المتحدة ، لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره .. ولكنه كان قد عرف الكثير من ألوان البؤس ، وعانى الكثير من الآلام فى وطنه .. ارمينيا ، حتى أصبح أقرب الى الشيوخ منه الى الشباب

ووصل الشاب الارمنى الى امريكا مفلسا ولا يعرف كلمة من الانجليزية ، فبدأ عمله يغسل الاطباق ويساعد الخدم فى احد المطاعم ، ثم ما لبث ان أصبح على مر الايام طاهيا شهيرا وصاحب مطعم كبير .. كما أصبح الآن من رجال الصناعة واصحاب المزارع .. ومواطنا محترما فى كاليفورنيا ..

وجدت أرض الأحلام

جاء قومى من «اكسانتا» ، وهى قرية صغيرة ترقد فوق أعالى جبال القوقاز فى أرمينيا ، حيث تنمو الماشية ذات الذيول السمينة الثقيلة، حتى أن جدى كان يصنع لها عربات صغيرة لتحمل فيها ذيولها . ولعلكم تعتقدون أن الارمن جميعا ذوو شعر حالكة وعيون سوداء ، ولكن الامر ليس كذلك ، فقد كانت أمى زرقاء العينين وشعرها فى لون الحنطة ، كما كانوا يطلقون على أبى لقب « صاحب الشعر الذهبى » ، وكان أبى يعتز باسم مرديكيان فى فخر عظيم ، فان كلمة (مرديك) تعنى بالارمنية «محارب» .

ان أرمينيا اليوم مكان صغير تافه . مجرد جمهورية منسية فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن هناك أرمينيا أخرى تعيش فى قلوب أناس يعيشون فى أنحاء متناثرة من العالم . أرمينيا التى كانت تمتد يوما من البحر الاسود الى بحر قزوين . أرمينيا التى قاتلت منذ ثلاثة آلاف عام الاشوريين ، والرومان ، والمغول ، والفرس ، والاتراك ، والروس . تلك هى أرمينيا التى أنتمى اليها .

وفى سنة ١٨٩٥ ، وهو العام التالى

لزواج أبى وأمى ، انطلق عبد الحميد الثانى سلطان تركيا ذبحا وتقتيلا فى كل الارمن ، من القوقاز حتى الدردنيل . وقد ظل رجال (اكسانتا) يقاتلون الغزاة ثلاثة أشهر طوالا ، حتى عرض عليهم الاتراك التفاوض لعقد هدنة فقبلوا . ووقع الاختيار على جدى لأبى وجدى لأمى لمقابلة الاعداء وراء حدود القرية . وذهبا ولم يعودا قط . لقد عثر القرويون على جسديهما فى الطريق وقد مزقتهما رصاصات الاتراك !

وبعد فترة قصيرة ، شرع أبى وأمى فى القيام بجولة طويلة . ذهبا أولا الى استانبول — عاصمة تركيا يومئذ — حيث كان الارمن يحسون بمزيد من الامن لوجود السفارات الاجنبية هناك ، ثم انطلقا الى (تفليس) بالقوقاز الروسى ، حيث ولدت أنا وشقيقى أرشاج وأختى بيدزار . وعندما بلغت الخامسة من عمرى ، نجح الشباب التركى فى طرد السلطان ، وقد رحب الارمن بهذا العمل ، على أمل أن يكون فيه تحريرهم ، وانتقلت أسرتى الى (سكوتارى) التى تقع فوق سفح تل جميل على مرأى من قباب استانبول ومآذنها .

وانتهت أيامنا السعيدة عندما دخلت تركيا الحرب العظمى الاولى فى صف ألمانيا . وفى ابريل ١٩١٥ اتهم الاتراك الارمن بمساعدة الحلفاء ، وشرعوا مرة أخرى فى ابادة جنسنا .

وسيق الالوف من الرجال والنساء والاطفال الى الصحارى ، وتركوا ليموتوا هناك . وفى احدى الليالى ، أخذوا أبى مع الصفوة المختارة من الرجال فى سكوتارى . ولم نره بعد ذلك .

وغلى الحقد فى دمائى . كنت يومئذ لم أبلغ العشرين بعد ، فهربت من الدار والتحقت بالفرقة الارمنية لاقاتل الاتراك كما فعل أسلافى منذ ألف عام .

موت وبعث

لم تكن الفرقة تلقى اهتماما من الجيوش المتحالفة . ثياب جنودها رثة ممزقة ، والجوع يمزق أحشاءهم حتى يكاد يقضى عليهم . ولكننا كنا نتلقى الوحى من الحلم الذى يداعب خيالنا . حلم أرمينيا المستقلة لاول مرة منذ سبعة قرون .

وانهارت روسيا القيصرية . وهزمت تركيا ، ورأينا اخيرا مولد الجمهورية الارمنية ذات الحظ التعس !

وأقمت بعد انتهاء الحرب فى مدينة (قارس) الصغيرة ، وبدأت انظم

قوات من فتيان الكشافة الارمن ، وكانت منظمة الاغاثة للشرق الادنى هى التى ترعانا وحدها فى تلك الايام، فتمدنا بالطعام والملابس والادوية ، وترعى أيتامنا الكثيرين ، وتعاملنا كمخلوقات بشرية كريمة .

وفى قارس التقيت بجورج هوايت الرجل العجيب ، الذى فتح أمامى ابواب مستودعات منظمة الاغاثة وقال لى :

ـ اذا كان هنا أى شىء يحتاج اليه كشافوك فخذه .

وطلبنا كرات للقدم وأجهزة رياضية أخرى .. ولكن لم تتح لنا الفرصة لاستخدامها ، فقد نشبت حرب أخرى بين الروس والاتراك ، وعندما انتهت كانت أرمينيا قد فقدت استقلالها

ووقعت أسيرا فى أيدى الاتراك .
كنا فى النهار نحطم الثلوج المتجمدة فى نهر قارس ، حتى اذا حان الليل ، أغلقوا على مائتين منا ابواب مصنع للمخلل كريه الرائحة استخدموه كسجن . وتجمدت قدماى فلم استطع حتى مجرد السير .. وبدأ اليأس يغمر قلبى ، فلم تعد لى غير رغبة واحدة . أن أبعث رسالة أخيرة الى أمى .

كانت فرصتى الوحيدة ن ارشو الحارس التركى . وبينما كنا فى طريقنا يوما الى النهر المتجمد ، قلت له :

ـ دعنى أنتظر هنا حتى تمر سيارة منظمة الاغاثة ، وسأحضر لك منها بعض علب اللبن المجفف .

ووافق الحارس . ولما كنت لا أقوى على الوقوف ، فقد رقدت على جانب الطريق حتى ظهرت السيارة المنتظرة، وكان فيها لحسن الحظ مستر هوايت وقرينته .

وكاد الاثنان لايعرفاننى لفرط مابالى من بؤس . وانهمرت الدموع من عينى السيدة الكريمة وأحاطتنى بمعطفها المصنوع من الفراء ، وعرضا على انقاذى ، فقلت لهما :

ـ لم يعد هناك أمل . اننى سأموت . ولكن أرجو أن تحاولا ارسال كلمة وداع الى أمى .

وأعطيتهما عنوانها الاخير فى سكوتارى .. وقلت :

ـ اذا أردتما مساعدتى الآن ، فأرجو اعطائى بضع علب من اللبن المجفف .

***

وفى تلك الليلة سمعت أحد الحراس ينادى اسمى .. وظننت أن أجلى قد حان ، ولكنه بدلا من أن يذهب بى وراء الكنيسة الأرمينية حيث كانوا

يـعـدون أحكام الاعدام ، قادنى الى مكتب ضابط تركى كبير .. وهناك رأيت مستر هوايت .

وزمجر الضابط قائلا :

ـ مرديكيان .. لماذا لم تذكر لنا أنك أمريكى ؟

واستولى على الذهول ، ثم رأيت مستر هـــوايت يغمز لى بعينه .. فقلت :

ـ آسف ياسيدى .. ولكنكم لم تتيحوا لى الفرصة

فقال بغضب :

ـ ان مجرد كونك أمريكيا لايعنى اطلاق سراحك . ولكننـا سنرسلك الى المستشفى

وبعد ثلاثة أسابيع فى المستشفى ، استعدت قواى واستطعت العمل فى مستودع هيئة الاغاثة . وفى احدى الليالى تسللت مع سـجين آخر ... كما نختفى نهارا ونسير ليلا فى طريقنا عبر الجليد الى « اريفان » على حدود القوقاز .. وعندما وصلنا الى هناك قام الدكتـور كلارنس أوشر طبيب احـدى الارســاليات بعلاج قدمى ، وأعطانى ثوبا من الثياب التى يرتديها عمال منظمة هيئة الاغاثة . وبعــد أسابيع كنت فوق سفينة تبحر من ميناء باطوم الى استانبول مع جماعة من عمال الهيئة

وفى استــــانبول علمت أن أمى وأختى الصغـيرة ايلين تقيمـان فى سكوتارى فى سلام .. كان الجميع ما عدا أمى ، على ثقة من موتى ، فقد ظلت أمى تواصل اشعـال المشـكاة الصغيرة التى توضع الى جوار الباب الداخلى للمنزل ، ويعنى اشعالها أن أهل الدار فى انتظار عودة حبيب من مكان بعيد ..

وفى ذات يوم عدت حقا لأقف الى جوار المصباح الصغير !.. وطرقت الباب ..

وظللت فى تلك الليلة أتحدث مع أمى وأختى حتى سـاعة متأخرة عن أخى ارشـاج وأختى بيدزار اللذين سافرا الى أمريكا .. وتلوت رسائلهما مرة بعد أخرى ..

ولم يكد يمر وقت طويل حتى تسلمنا رسالة من أخى ارشاج مع نقود للسفر

وبعد ســاعات قليـلة من اقلاع السفينة التى ركبتها .. كان البوليس التركى يدق باب بيت أمى ..

وقال الضابط :

ـ لقد جئنا نبحث عن ابنك الذى تنكر فى زى عامل بهيئة الاغاثة .

فابتسمت أمى قائلة :

ـ لقد تأخرتم كثيرا .. لقد هرب

من أيديكم ٠٠ الى الأبد !

العالم الجديد

سافرت الى نيويورك فى يوليو ١٩٢٢.

لم أكن قد تجاوزت التاسعة عشرة بعد ٠٠ ولا تزال حياتى كلها ممتدة أمامى ٠٠ ومع ذلك فقد نسيت معنى السعادة !٠٠

وبعد ١٢ يوما كنت فى نيويورك حيث وجدت فى انتظارى تذكرة للسكك الحديدية و٢٠ دولارا من أخى ارشاج الذى يقيم فى كاليفورنيا ٠ واستغرقت الرحلة عبر القارة الأمريكية ثمانية أيام ٠ وعندما بلغ القطار كاليفورنيا ، ومر من بلدة «فرسنو» قفز قلبى بين ضلوعى ٠٠ ان الجميع يعرفون أن فى هذه البلدة أكبر جالية أرمنية بعيدا عن الوطن ٠٠ ثم مررنا بكروم العنب وحقول الحنطة التى تملأ وادى « سان جواكين » ٠

ووجدت نفسى بعد ذلك فى سان فرانسسكو وقد أحاطتنى ذراعا شقيقى ارشاج وأختى بيدزار ٠ كان ارشاج الذى يشتغل الآن بصناعة الاحذية يبدو فى ثياب أنيقة وحال طيبة ، بينما بدت أختى بوجنتيها الورديتين وعينيها الضاحكتين جميلة سعيدة ٠

وقابلت آرام ، زوج أختى ، الذى كان يكبرها سنا ، وقد أقام منذ سنوات طويلة فى أمريكا

سخرية لن أنساها

كان أول عمل قمت به هو غسل الاطباق فى مطعم « دان » ، وهو مطعم بطل مفتوح الأبواب طيلة الليل ، وكان عملى يستمر من السابعة مساء حتى السابعة صباحا ٠ وقد أدركت أنه لن يكتب لى النجاح فى هذه البلاد اذا لم أتعلم لغتها ٠٠ ولكن عملى الذى يستغرق ١٢ ساعة كل يوم لم يكن يترك لى فرصة كبيرة للتعلم ٠

وفى خلال سنتى الأولى ، كانت مدرستى هى مسرح « الكازار » ٠ كنت أدفع ٢٨ سنتا ثمنا لمقعد من المقاعد الرخيصة ، وأظل أرى نفس الاستعراضات مرة بعد أخرى ، لأستمع الى الممثلين وهم يتكلمون ٠٠

وحصلت بعد ذلك على عمل أفضل فى مطعم « كومبتون » حيث لا أعمل أكثر من ثمانى ساعات يوما و١٢ ساعة فى اليوم التالى ٠ وكنت أتناول ١٨ دولارا فى الاسبوع ٠٠

وبدأت أبعث ببعض النقود الى أمى فى سكوتارى ٠ وعندما فتح مستر كومبتون مطعما آخر أرسلنى الى هناك ووعدنى باسناد مهمة تقديم الطعام الى الزبائن بعد أن أتعلم الانجليزية

وفى ذات يوم ، تغيب العامل المختص ، فأسند الى هذا العمل •

ان لما تحن الارمن شعارا يسيطر على حياتنا اليومية •• انه جبل « أرارات » الذى يقع فى قلب أرمينيا القديمة ، ولهذا الجبل ذروتان ، هما « ماسيس » الصغيرة و « ماسيس » الكبيرة • ومن ثم فان كلمة ماسيس تعنى بالنسبة لنا ارتفاعا عظيما لابد من تسلقه ••• وقد ساعدتنى فتاة أرمنية فى أمريكا على أن أبدأ تسلق الذروة الكبرى فى حياتى •

ففى احدى المناسبات ، أحضر الملحن الارمنى البروفسور كالفيان جماعة من الارمن الامريكيين من بلدة «فرسنو» ليشتركوا فى حفلة كورال أقيمت بدار جمعية الشبان المسيحية بسان فرنسسكو وكانوا جميعا على درجة كبيرة من الثقافة والتدريب •• ووقع الاختيار على أنا وشقيقى ارشاج مع جماعة من الشباب المحلى للقيام بمهمة المنشدين فى المسرح

وعندما وصلنا الى المسرح ، التقيت بفتاة جميلة جدا سوداء العينين تدعى (نازنج روزفانيان) كانت موسيقية موهوبة، عهد اليها البروفسور كالفيان بقيادة بعض المعزوفات المختارة •

ولاحظت ان الفتاة كانت تحابى زملاءها القادمين من فرسنو اثناء العزف ، فتبتسم لهم مشجعة ، حتى اذا أدارت وجهها نحونا ، بدا باردا متجمدا ، وكأنها تصيح فينا باحتقار: يافلاحين !

وبعد انتهاء الحفلة ، رقصت مع نازنج ، فلم تبادلنى غير كلمات قليلة• وقيل لى فيما بعد انها سخرت هى واختها من آل مرديكيان ، ووصفتنى أنا وأخى بأننا « شابان لطيفان من الريف القديم » !

واستولى على الغضب •• وقلت لنفسى : سوف أريها يوما من أنا !

***

ان البعض يدفن أحزانه فى الخمر• أما أنا فقد كنت من الذين يبحثون عن العزاء فى العمل •

لقد أصبحت الآن مديرا ليليا لمطعم كومبتون • • ولكننى لم أكن سعيدا بذلك كنت أريد ان أصبح طاهيا •

وعندما سمع مستر كومبتون بذلك، ارتفع حاجباه دهشة وقال :

ــ انك تتقدم فى عملك كمدير للمطعم ، فى حين أن الطهاة لاينالون مثل هذا الاجر فى البداية فقلت له :

ــ هذا لايهمنى •• اننى لن أشعر بالراحة الا وأنا فى المطبخ أقوم باعداد الطعام •

وابتسم الرجل وقال :

ـ حسنا ياجورج •• تستطيع أن تبدأ من الغد • •

وفى نهاية الاسبوع ، ظل مرتبى كما هو لم ينقص شيئا •

وبدأ الافق يتسع أمامى ••

وفى ذات يوم ، قال لى صديقى آرمن بارديزيان الصحفى •

ـ ان صحيفة « آشاريز » تبحث عن كاتب معلق • فلماذا لا تقوم بهذا العمل

وكانت صحيفة « آشاريز » التى تصدر فى فرسنو ، أوسع الصحف الارمنية فى أمريكا انتشارا ، وفكرت فى الامر مليا ، وكان أخى ارشاج هو الذى أصدر القرار فى النهاية • فقد قال لى :

ـ لو أصبحت صحفيا ، فان أى انسان سوف يتردد مرتين قبل أن يقول عنك انك «طفل لطيف من الريف القديم » •

وحصلت على الوظيفة بمعونة صديقى آرمن ، وأطلقت على العمود الذى أكتبه عنوان « هنا وهناك » وقد ظللت أكتبه بانتظام طوال السنوات التسع التالية ••

طاه فى أعماقى !

ظللت أشعر اننى كنت أكثر سعادة عندما كنت أقوم بمهمة الطهى فى المطعم • كنت أحس اننى أنتمى الى المطبخ! ولقد أدركت اننى سأكون طاهيا منذ اليوم الذى احترقت فيه أصابعى وانا أرفع الاغطية عن أوانى امى • والايام التى كنت أتذوق فيها الطعام دائما •

وقررت ان أصبح أحسن طاه فى البلاد • سوف أجمع كل الاسرار الرائعة لفن الطهى الارمنى والشرقى• سأتعلم أحسن الوصفات على أيدى أعظم الطهاة فى العالم ، سواء فى الفنادق الفاخرة أم فى الشوارع المنزوية ••

وفى الصباح التالى ، بحثت عن الرجل المكلف بشئون الطعام فى شركة بواخر (دولار لاين) وكان زبونا منتظما لنا فى مطعم كومبتون، وقد ذكر لى مرارا من قبل اننى اذا أردت ان أطوف حول العالم فانه على استعداد لان يسند لى عملا يمكننى من ذلك • وسرعان ماألحقنى الرجل بالعمل كخادم على ظهر السفينة « الرئيس ويلسون »

وأقلعت السفينة عبر مياه الباسيفيك الزرقاء ، فى رحلتها التى تستغرق أربعة شهور حول العالم • وأخذت أطوف بالمطاعم الكبرى فى كل ميناء نقف فيه •• ترددت كثيرا على

مطعم « تشكليان » أفخم مطاعم هونج كونج ، وفى سنغافورة تناولت عشاء رائعا فى كنيسة أرمنية صغيرة وأخذت أملأ صفحات من كراتشى بوصفات الطعام .. وفى الاسكندرية التقيت بآشجى مورجودريتش الذى ظل سنوات طوالا يعمل طاهيا لفندق « توكاتليان » فى استانبول ،المشهور فى كل أنحاء العالم . وعندما قلت له اننى آمل ان أعديوما أطباقه الخالدة فى العالم الجديد ، وعدنى الرجل بكتابتها وارسالها الى فى البريد . وقد ظل سنوات يرسل لى صفحة بعد أخرى من وصفاته التى لاتقدر بثمن .

وسمح لى رئيس الخدم على السفينة بأن آخذ عشرة أيام اجازة فى أحد الموانىء على أن ألحق بالسفينة بعد ذلك . ولم تكد السفينة تصل الى نابولى ، حتى أخذت القطار السريع الى البندقية ، وهناك فى جزيرة « سان لازارو » الصغيرة ، ذهبت الى الدير الارمنى الذى أنشىء منذ ٢٥٠ عاما ، والذى يعد كنزا عامرا بالتاريخ الارمنى القديم .

وفى دير سان لازارو عكفت على المكتبة ، وأخذت أتوغل فى أغوار الماضى البعيد ، عاكفا على قراءة المخطوطات الثمينة ،وملأت كراساتى بأصول فن الطهى الارمنى القديم الذى يرجع الى عهد الملك شارا العظيم منذ ٣٥٠٠ عام .

العودة

انتهت جولتى العالمية بنهاية مفاجئة . فلم تكد السفينة تصل الى ميناء سان بدرو بكاليفورنيا ، حتى ذهبت الى لوس انجيلوس لاتناول العشاء مع أصدقائى . . وهناك التقيت مرة أخرى بنازنج روزفاليان التى كانت قد التحقت باحدى المدارس فى المدينة .. وقالت لى نازنج فى نهاية السهرة انها تريد أن تسمع الكثير عن تجاربى فى الشرق وفى دير سان لازارو ، فوعدتها أن أكتب اليها ...

ونظرت الى ونظرت اليها . . وفى تلك اللحظة أدركت أننا متحابان

وعدت الى سان فرنسسكو وأنا أحس بحيرة عارمة ..

كنت أعرف ماأريد . . ولكنى لم أكن أعرف كيف أبدأ .. بينما راح الوقت يمر سريعا ..

وأخذت أبث شجونى فى رسائلى الى نازنج .. فردت على قائلة : انت تتوقع أن تتسلق « ماسيس » الكبرى فى يوم واحد . ولكن الامر يحتاج الى خطوات كثيرة واحدة وراء الاخرى .

أن الامر يتطلب وقتا طويلا ••

وكانت (ناز) على حق • • ان المرء يجب أن يصعد ببطء خطوة خطوة ، حتى يصل الى القمة عندما يشاء الله •

وفى أوائل عام ١٩٣٠ عدت الى العمل كمدير مطعم (كومبتون) الجديد فى أوكلاند • • وقررت أنا وناز أن نعلن خطبتنا وفق التقاليد الارمنية القديمة ، فاستأجر والدها قاعة كبرى للرقص وأحضر فرقتين للموسيقى • وتبادلنا دبل «الخطوبة» والمواثيق وباركنا القسيس •

وتزوجنا فى أول يونيو ١٩٣٠ ، وكان قد مضى على فى أمريكا ثمانى سنوات • وشهد الحفل أكثر من ١٢٠٠ من الاقارب والاصدقاء ، و ١٦ وصيفة للعروس ومثلهن للعريس!

واستأجرت مسرح الجالية الاسكتلندية الكبير ، وأحضرت فرقة للاوركسترا تضم ١٩ عازفا ، وكان هناك طعام على الموائد الطويلة يكفى لواء من الجيش •• وقال الناس يومئذ انه أكبر وأفخر فرح فى تاريخ الجالية الارمنية ••

لقد رفعت رأس الاسرة •• ولكننى ظللت سنتين أسدد فى الفواتير • وعقب شهر العسل بدأنا نواجه وقائع الحياة المحزنة ••

لقد أصيب والد ناز بالفالج ،وبعد أيام قلائل رحل عن العالم • • ولما لم يكن له أولاد من الذكور ، فقد أصبحت أنا رب الاسرة ، واضطررت للانتقال مع ناز الى بيتهم فى (فرسنو)

وكان لابيها شريك يدعى جاك ترزيان ، يمتلكان معا مبنى من طابق واحد فى ميدان كورتهاوس يضم قاعات للبلياردو وغرفا للعب الورق وصالونا للحلاقة ومسح الاحذية ، ومطعما صغيرا يسمى « مقهى المدينة » •

وتوجهت للعمل فى هذا المطعم •• وعندما شاهدته وفكرت فى احلامى القديمة عن مطعم (عمر الخيام) أحسست بغصة فى قلبى •• ولكننى قلت لنفسى ، اننا نبدأ من سفح الجبل! وسوف نتسلق الذروة الكبرى أنا وناز معا •

كان (مقهى المدينة) لايقدم غير الشطائر « الساندويتش » فقررت أن أقدم لزبائننا شيئا أكثر أهمية • ودمجر جاك ترزيان وقال لى :

ـ لقد كانت الشطائر تسير على مايرام حتى الآن • • فضلا عن أن الكساد منتشر والناس لانقود معها •

ولكنى سرت فى مشروعى قدما ، فأنشأت مطبخا صغيرا فى أسفل

المبنى ، وبدأت أقدم أطباقا ممتازة من اللحوم والخضر والبطاطس . وسرعان ماتقاطر علينا الزبائن بصورة أدهشت ترزيان . وأصبحت المشكلة بعد ذلك ، هى ايجاد مقاعد تكفى هؤلاء الزبائن !

لكم أحببت (فرسنو) فى تلك الايام !

عمر الخيام

فى خريف ١٩٣١ أقنعنى نجاح « مقهى المدينة » بأن الوقت قد حان لتحقيق المزيد من أطماعى . وفى ذات صباح ، سألت جو ديك ، الذى يزود المطاعم بحاجتها من الالبان ، أن يبحث لى عن مكان مناسب لمطعم جديد .

وظن الرجل أول الامر أننى أمزح معه .. ولكننى أقنعته فى النهاية .. وبعد أسابيع وجد مكانا فى شارع (ماريبوزا) .. ولكنه قال لى : أخشى أن يكون المكان منحوسا فقد أفلس فيه من قبل ثلاثة مطاعم خلال عامين !

كان المكان أصغر مما كنت أتوقع . عبارة عن غرفة طويلة ضيقة ، والمطبخ فى المؤخرة ، والمقاعد والموائد كلها مصفوفة على جانب الحائط ، ولكن كان يجب أن أبدأ فى مكان ما ولهذا قلت له : سآخذه .

وسرعان ما انهمك النجارون وعمال الكهرباء فى تجديد المكان واصلاحه ، وأحضرت كميات من الاطباق والادوات الفضية .. وارتفعت فوق المكان لافتة كهربائية تضىء وتنطفىء بكلمتى : عمر الخيام ..

ودارت ناز بأبصارها فى المطعم ، ثم قالت : هاانت تملك الآن كل شىء .. ماعدا الطعام ..

كانت نقودى وقروضى قد نفدت ، ولكن صديقا للوس شقيقة ناز قدمنى الى أحد تجار مواد التموين بالجملة ، واتفقت معه على أن أدفع له ٢٥٠ دولارا فى خلال شهر ، على أن أسدد له بقية الدين كل اسبوع .

وافتتحنا المطعم يوم ١٢ فبراير ١٩٣٢ .. وانهمكت يومئذ فى المطبخ ، أعد الطلبات من (الشيش كباب) وغيره من الاطعمة الرائعة التى أخرجتها من كراساتى الثمينة .

كنت سعيدا جدا ، فأخذت أغنى وأنا أعمل .. وفى الساعة الواحدة ظهرا ، دفعت ناز الباب برأسها وقالت بفخر :

ــ أنظر ياجورج .. لقد امتلأ كل مقعد فى المكان ، وامتد صف الزبائن المنتظرين الى الشارع تحت أشعة الشمس !

وفى عام ١٩٣٤ لم يعد المكان يكفى

زبائننا الكثيرين . وعثرت على مكان أكبر فى فنـــدق سيكوا يستطيـــع استيعاب ٥٠٠ زبون .

كنت أنا وناز نستيقظ فى منتصف الليـــل بأفكار جـديدة عن الاثاث والزخارف ، حتى اذا جاء الصـباح طلبنا من المقاولين تنفيذ أفكار الليل دون أن نفكر فى النفقات ..

وهكذا ارتفعت النفقـات الى ٥٢ ألف دولار ، فى حين أننى كنت أعتقد أن ٢٥ ألفا كافية لاعداد أفخم مطعم فى وسط كاليفورنيا !

ورفض الدائنون اعطاءنا المزيد من القروض . وطالب بعضـهم بديونه فورا .. وعندما ذهبت اطلب بضعة ألوف من الدولارات من البنك ، رفض المدير ببرود وقال لى :

ــ انك تفتتح مطعما لا يصلح الا لمدينة كبيرة فى مكان صغير مثل فرسنو .. لن ينجح هذا المشروع .

وقلت لناز اننا يجب أن نقتصـد فى نفقاتنا . سأقوم أنا بالطهى وهى تعمل كمديرة الى جانب قيامها بالعمل كصرافة ومستقبلة للزبائن .

وفى تلك الليلة كتبت رسـالة الى امى التى كانت تقيم فى بوخارست ، أخبرها اننى أمر بوقت عسير ولهذا سأتوقف قليلا عن ارسال المائة دولار التى كنت أرسلها لها شهريا .

وعلى الفـور تلقيت رسـالة من بوخارست جاء فيها :

« ولدى العزيز . لقد ادخرت من المال الذى كنت ترسـله لى ٢٧٢٠ دولارا سأحضرها معى لمساعدتك فى محنتك » .

وفى فبراير ١٩٣٥ ، وصلت أمى الى سـان فرانسسكو ، وقد بدت أصغر حجما وأكبر سـنا ، وانقلب شـعرها الاشـقر الجميل الى اللون الفضى . وفى يوم افتتاح المطعم كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تسبحان فى دموع الفخر والسعادة .

وامتلأ المكان بالناس .. وتطلعت عبر الموائد الى زوجتى ، وتبادلنـا نفس الافكار .. سوف ننجح ... ولكن ليس بدون معاناة وعمل شاق .

وسرعان ما احتل (عمر الخيام) مكانا مرموقا فى الحياة الاجتماعيـة والمدنيـة فى البـلدة وبدأت سمعته تترامى فى أنحاء الولايات المتحدة ..

ولكى أزيد سعادة أمى ، أحضرت أخى ارشـاج وأسرته الى فرسـنو حيث أسندت اليـه وظيفـة مدير المطعم ، وفى ينـاير ١٩٣٦ وصلت أختى ايلين وابنهـا .. وهكذا التأم شمل الاسرة مرة أخرى .

وفى الليلة التى وصلت فيها ايلين جلسنا جميعا معا •• ونظرت الى أمى فأحسست بشعور عجيب •• كانت تجلس فى الظلال وعيناهامغمضتان• كان وجهها سعيدا تحت هالة من الشعر الأبيض •• ولكنها كانت تبدو هائمة فى واد بعيد •• لقد كانت تفكر فى أبى ••

وبعد بضعة أسابيع ذهبت بها الى المستشفى لاجراء عملية •• وهناك أسلمت أنفاسها الأخيرة ذات ليلة ونحن حولها جميعا ••

لقد كان موتها هادئا كسقوط ورقة من أوراق الشجر •• أو غروب شمس يوم جميل •

الاسورة الذهبية

كان الضباب يغمر خليج سان فرنسسكو خلال الايام الأولى من عام ١٩٣٨ بينما كنا نسرع فى اعداد « عمر الخيام » الجديد ليكون على استعداد للافتتاح فى اليوم الذى أستبشر فيه بحظى السعيد •• يوم ١٢ فبراير

وافتتح معرض سان فرنسسكو الدولى فى عام ١٩٣٩ ، فبدا أن عمر الخيام يقوم بدور المضيف للعالم كله • وانهمكت فى العمل ليلا ونهارا بسبب كثرة الاعمال ، فقلت زياراتى الى « فرسنو » حيث كان أخى ارشاج يدير المطعم هناك •

وعندما شبت نيران الحرب العالمية الثانية لم أكن قد تجاوزت التاسعة والثلاثين ، ولكن القوات المسلحة رفضت تطوعى لان قدمى كانت لاتزال تعانى من التجمد الذى أصابها فى (قارس) منذ سنوات بعيدة ، وفى ذات ليلة جاء الجنرال يوجين فالس قائد معسكر روبرتس الكبير للتدريب جنوب سان فرانسيسكو وجلس يتناول العشاء فى مطعمى •• ثم قال لى :

ـ هناك مشكلة واحدة فى المعسكر لم نستطع لها حلا •• اننا نفعل كل شىء جيدا ، ماعدا تقديم طعام جيد للرجال •

وبعد أيام قلائل ، كنت فى المعسكر أبحث عن موضع الخطأ حتى لمسته •••

كان العمل فى المطبخ نوعا من العقوبة للجنود • كان الرجال يكرهون ما يقومون به من عمل • فى حين ان اطعام الناس عمل نبيل يجب أن يفخر به الانسان •

وطلبت من الجنرال ان يخلع جنود المطبخ ملابسهم العسكرية وان يرتدوا معاطف بيضاء ومرايل وقبعات

خاصة كالطهاة ، وأن يمنح الجاويش المكلف بالاشراف على الطعام ترقيــة ليحس بالمزيد من الاهمية •

وكانت كمية الطعام التى تلقى فى القمامة لا تكاد تصــدق ، كما كان الطعام غير مستساغ رديء المذاق •• ودعوت الجنود الطهــاة معا ذات يوم وأعددت آمامهم بعض الوجبات اللذيذة السهلة ، فأدهشهم مذاقها •

وفى خـلال الاعوام التالية قمت بنفس العمل فى كل معسكر تقريبا على ساحل الباسيفيك •

وفى أوائل عــام ١٩٤٥ بعد ان بدت تباشير السلام فى الافق ، تقرر أن يعقد مؤتمر الامم المتحدة فى سان فرانسسكو ، وواجهت المدينة مشكلة اعداد غذاء شهى لحوالى ألفى منـدوب ومساعديهم كل يوم ، ينتمون الى أكثر من خمسين دولة • وتطوعت للقيام بهذا العمل وأصبحت المتعهـد الرسمى لاطعام المؤتمر •

***

فى ذلك الخريف انتهت الحرب ••• ولكننى كنت أشعر ان عملى لم ينته بعد •

وعقدنا مؤتمرا عائليا ، قلت فيه اننى أريد ان أقوم بتنظيم أعمالى •• سأبيع مطعم عمر الخيام فى فرسنو ، وسيحضر ارشاج الى سان فرانسيسكو لادارة المطعم بها ، ولذلك يتيسر لى بعض الوقت لبحث مشروعات أخرى •

وفى عام ١٩٤٦ ، تلقيت خطـابا من الجنرال بون ، المسئول عن اطعام القوات الامريكية فى أوربا • قال فيه : ان مشكلة الطعام فى منشآت القوات الامريكية عبر البحــار فى اسوأ حال ، وطلب معاونتى لحــل المشكلة •

وسرعان ما عبرت الاطلنطى فى طائرة نقل عسكرية ، وقد ارتديت بذلة عسكرية •

وقمت بجـولة سريعة على مناطق الاحتلال الامريكية ، ثم صحبت باكلى معى فى زيارات مفاجئة لالمانيا والنمسا حيث أشرح للطهاة الجنود طرق تقديم وجبات شهية مستساغة •

***

كان شتاء ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ أسوأ شــتاء واجهته اوروبا منــذ مئـات السـنين •• كان الناس فى حال من الارهاق والجـوع ، وقد تجمـدت أطرافهم من البرد •• وبدأت أحس مرة اخرى بنفس شـعور الصـبى الارمنى المثقـل القـلب الذى غادر أوربا فى عام ١٩٢٢

كان عملى فى الجيش قد ارشك على الانتهاء ، وكنت متعبا منقبض النفس

.. أتوق الى العودة الى أمريكا . .

وفى ذات ليلة ، سألنى الكولونيل جون دين أثناء العشاء عما اذا كنت قد رأيت معسكر المشردين فى « فونكركازرن » فأجبت بالنفى .. وعندئذ قال لى :

ـ ولكن كل نزلاء هذا المعسكر من الارمن . . . !

ولم أصدق أذنى ..

ان هذه الحرب لم يكن للارمن دخل فيها .. ولكن الكولونيل قال لى : ان هؤلاء ممن اسرهم النازيون ، وقد اصبح وطنهم محتلا بوساطة الروس

وفى الصباح التالى ، ذهبت مع دين وباكلى الى « فونكر كازرن » .. ولم أكن أدرى أن هذه الرحلة سوف تغير حياة الآلاف من الارمن التعساء، بل وحياتى أنا أيضا !

***

كان المعسكر فى الاصل تابعا للجيش النازى ، ولكنه أصبح يبدو أقرب الى معسكرات الاعتقال . فقد احيط بأسوار عالية من الاسلاك الشائكة ، وثكنات كئيبة مرعبة . وعندما وصلنا الى هناك ، كان بضعة الوف من المشردين المختلفى الاعمار يقفون فى أسمال ممزقة برغم اشتداد البرد القارس

كان هناك حوالى ١٥٠٠ أرمنى فى المعسكر ، وقيل لى : ان هيئة الاغاثة والتعمير سوف تصفى عملها سريعا . فماذا يحدث لهؤلاء التعساء ، سوى الموت جوعا أو بردا ..؟

وعرف المشردون أننى ارمنى مثلهم ، فقابلونى بهتاف الترحيب بالارمنية .. وبعد الظهر تجمع حوالى ألف منهم فى الفناء ، ورحت أتطلع الى بحر من الوجوه الشاحبة والعيون السوداء .. ورأيت فيها أربعة آلاف عام من تاريخ ارمينيا .. الكبرياء والخوف ... والمرارة والاذعان

وشكلنا لجنة خاصة لمساعدة الارمن من المواطنين الذين يعملون فى أمريكا وعهدنا برياستها الى الجنرال شكرجيان ، أول أرمنى يتخرج فى كلية وست بوينت الحربية الامريكية وكان على وشك التقاعد من الجيش الامريكى .. وفى أواخر ١٩٤٧ انشأنا مقرا للجنة فى شتوتجارت قام بتوزيع المعونة على المنكوبين ..

وفى أوائل ١٩٤٨ سافرت مع ناز الى أوروبا ، ولكن شهر العسل الثانى الذى أجلناه طويلا ، أصبح رحلة ذات هدف ..

لقد ذهبنا لنساعد اخواننا الارمن المشردين ..

وفى خلال السنوات القليلة التالية قمنا بمايشبه المعجزة .. تقداستقر حوالى أربعةآلاف من الارمن المشردين فى الولايات المتحـــدة ، واكثرهم فى كاليفورنيا ، واثبتوا أنهم من نســل الارمن القدماء الذين حولوا وادى سان جواكين الى حديقــة من أجمل حدائق العالم ..

***

فى ذات صــباح تلقيت فى بريدى رسالة تحمل شعار البيت الابيض .

كانت دعوة الى مأدبة صــغيرة جاء فيها : « نظرا لان المناسبة غير رسمية فانى أقترح أن نتقـــابل فى البيت الابيض حـوالى الســابعة والنصف مساء .. دوايت ايزنهاور » ..

وهــكذا دخلت البيت الابيض فى مساء أحدأيام شهر يونيو ، وتناولت العشاء مع الرئيس ثم جلسنا معـا نناقش المسائل العالمية ..

وبعــد انصرافى رفضت أن أركب أية سيارة فى عودتى الى الفندق .

كنت أريد أن اسير .. فقد كانت هناك أشياء أريد أن أفكر فيها ..

كيف حدث هذا ..؟ كيف استطاع صبى متعب يائس أن يجد مثل هذا الالهــام وكل تلك الفـرص ليحقق أحلامه .. ؟

وفى تلك الليــلة ـ وأنا اســير فى شوارع واشنطون الهادئة ـ استمعت الى موسيقى السعادة المحلقة ، تعزف فى قلبى وقتا طويلا .. !

خطر أكبر .!

كان ابنى وأسرته الصغــيرة يقيمــون فى كاليفورنيـــا على مقربة من ميدان التجارب الذرية بصحراء نيفـــادا ، وقد اعتادوا رؤية الوميض الذى يسبق الانفجار الذرى وبعد دقائق يهتز منزلهم اهتزازا عنيفا .

وفى ذات ليلة ، اســـتيقظ ابنى من نومه فجأة على صوت مرتفع .. فتساءل قائلا :

ـ ماهذا ؟ .

فقالت زوجته :

ـ لاشىء .. مجرد قنبلة ذرية !

وهدأ ابنى وعاد يستانف نومه قائلا :

ـ لقد كنت أخشى ان يكون أحد الاطفال قدسقط من فراشه !



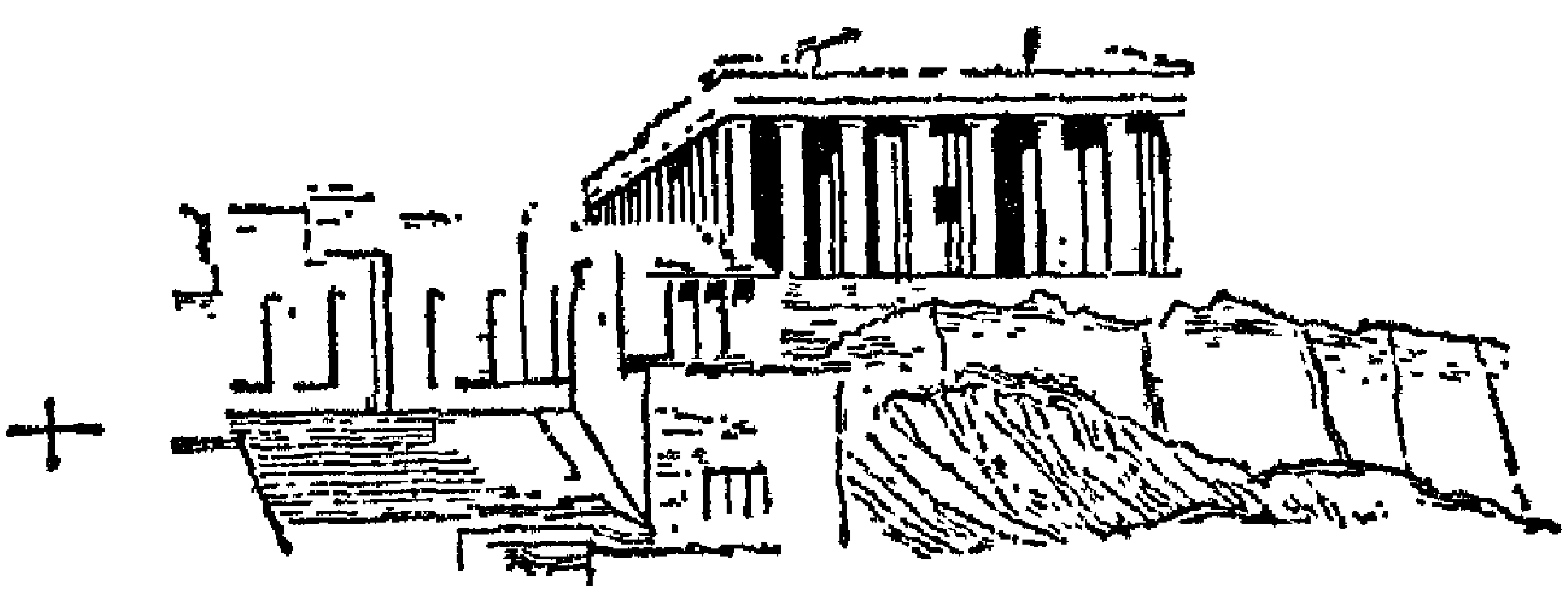
عن كتاب : جلبرت هايت

Man's Unconquerable Mind

ما هو المدى الذى يجب ان نتوقعه من العقل البشرى ؟ والى اى مرتفع او منحدر سوف يقودنا هذا العقل ؟..

ان جلبرت هايت فى كتابه العظيم الذى نلخص منه هذه الصفحات يشيد بهذه القوة المعجزة من الذاكرة وقوة الابتداع ، التى لايزيد وزنها على ثلاثة ارطال : العقل البشرى

ومؤلف هذا الكتاب هو استاذ اللغة اللاتينية والادب السابق بجامعة كولومبيا والناقد الاول للكتب بمجلة « هاربر » ومن أشهر المحاضرين فى الراديو الاميكى .



انتصار العقل دائما

ان الارض والهواء والماء كلها تزخر بالاشياء الحية ، ولكنها — ماعدا الجنس البشرى — لاتكاد تتغير قط . وحتى اذا تغيرت ، فان تغييرها يتم على مسافات متباعدة من الزمن . فنبات السرخس مازال ينمو ، والاسماك لاتزال تسبح ، تماما كما كانت تفعل قبل أن يدب الانسان على الارض . ولا يزال النمل المجد يواصل طريقته المعتادة لحفظ ذاته وبقاء نوعه ، كما كان يفعل عندما كان « الديناصور » سيد الارض . أما الانسان ، فقد أحدث فى تاريخه القصير تحولا كبيرا فى نفسه وفى العالم معا ، فالميزة التى ينفرد بها الانسان ، هى التغيير الهادف عن طريق الفكر . انه الانسان المفكر .

ان العقل البشرى يعمل بلاانقطاع . انه ينبض ليلا ونهارا دون توقف ، من الطفولة الى الكهولة . وفى أنسجة المخ التى تزن ثلاثة أرطال ، تسجل وتختزن بلايين فوق بلايين من الذكريات والعادات والغرائز ، والرغبات والآمال والمخاوف . فيه توجد النماذج والاصوات والعمليات الحسابية البالغة الدقة ، والرغبات الفجة الملحة . صوت همسة سمعت منذ ثلاثين عاما ، أو متعة لم تجرب قط ، بل ظلت عالقة بالمخيلة بلا انقطاع . فيه صورة البنيان المعقد لكوبرى ، وقياس الضغط الذى يحدثه أصبع واحدة على خيط واحد ، وأفكار لعشرة آلاف لعبة مختلفة فى الشطرنج ، والانحناءة الدقيقة للشفتين ، ومعادلة الكرة الطائرة ، والالوان والظلال ، والكآبة والهيام ، ووجوه عدد لايحصى من الاشخاص الغرباء ، وشذا عبير الحديقة ، والصلوات والمخترعات ، والاشعار والفكاهات ، والاصوات والمبالغ والمشاكل التى لم تحل ، وفيه ذكرى الانتصارات التى وقعت منذ زمن بعيد ، والخوف من نار الجحيم ، وحب الله ، ومنظر السلاح الذى يقطع الحشائش ، وصورة السماء التى ترصعها النجوم .

اما أن الانسان يفكر طوال وقته ، فهذه فكرة شائعة . ولكن الفكرة الاقل شيوعا ، هى أنه من الافضل أن يفهم التاريخ البشرى كله على أنه عملية تعلم . فبالتعليم لم نعد حيوانات ، واستطعنا أن نجعل أنفسنا رجالا .

وفى الماضى السحيق ، وسط الغابات الدافئة ، تكون العقل البشرى العجيب ، بطريقة ما ، خلية بعد أخرى ، وانحناءة بعد أخرى . ومع العقل ، تكونت القوتان البشريتان الاخريان المعجزتان ، وهما كلامنا المعقد بصورة لاتصدق ، وأيدينا القادرة على العمل بطريقة ذكية بارعة .

ان التقدم البطىء لانفسنا منذ عهود سحيقة ، من الحيوانية الى الانسانية عن طريق التعليم والتعليم .. ودائما التعليم . هذا التقدم انما هو قصة تحوى الكثير من الشجن ، وكثيرا من الفتنة والجمال .

أن العدد الاولى التى استخدمها الانسان كانت مجرد قطع من الاحجار ، ذات زوايا قليلة مقتطعة لكى تلائم اليد . وعلى مر الزمن ، قرنا بعد قرن ، اختيرت أحجار أفضل ، وشذبت وصقلت ، وصنعت لها زوايا مستديرة وحادة ، حتى لم تعد ملائمة فحسب ، بل أصبحت أنيقة أيضا .

ان من المستحيل أن ننظر الآن الى هذه العدد الحجرية وأن نتخيل صانعيها ، دون أن نشعر بالاشفاق والاعجاب ، والعطف على أسلافنا المهرة المجتهدين ، وأن نجدد احترامنا لنمو العقل البشرى .

وبعد العدد الحجرية ، جاء عهد السيطرة على النار ، وذلك التحول البارع الذى ينسبه السحر ، الذى جعل قطع الاحجار الارضية تتحول الى فخار متين ومعدن قادر على التحمل ، وصنع العجلات التى راحت تجرى عبر وجه الارض منذ ذلك الحين حتى اليوم . ولعل الاعجب من هذا كله ، ابتكار الزراعة . ان كل شىء نستهلكه — ماعدا الغذاء الحيوانى — هو جزء من نبات ، استنبط بعناية من جذع مختار ، قمح وسكر ، وفاكهة وتبغ ، وقنب وقطن . ان رجلا أو امرأة على قدر من الذكاء وجد أن كل نوع من النبات ينمو فى الغابة بطريقة برية ، فتذوقه أو اختبره ، وبالتجربة التى تتسم بالصبر ، استطاع أن يكشف كيف ينميها ويحسنها .

وكانت تلك بداية من بدايات الحضارة الحقيقية . ففى هذه العملية التى تمت فى بطء وصبر ، استطاع الانسان أن يحسن النباتات ، وحسنت النباتات

الانسان . لم يعد النـــاس يعيشون اعتباطا بلا هدف . لقد استقروا ونموا معا . ان الحقول المزروعة تجعل الناس يضعون القواعد ، ويرقبون الفصـــول المختلفة . وهكذا ابتكرت القوانين ، ووضع التقويم السنوى ، وأصبح الفلك علما ودينا معا . وهكذا انتقلنــــا من الحيوانية البدائية الى الحضارة عن طريق الوحشية البشرية البدائية !.

***

أن كل الثقافات الهـامة ليست الا مظاهر رائعة لقوة العقل ، وثقافتنــا الغربية ، أكثر من غيرها ، نتــاج فكر مرتب منظم ، ان العالم كله يستخدم اليوم مخترعاتها ووسائلها العلميــة ، ومثلها التربوية ، كما تبنت حضارات أخرى مذاهبها فى التعليم وحولتها الى ما يلائمها .

وتبدأ قصة الحضارة الغربية بعد سنة ألف قبل الميــلاد مع الاغريق . ومع أنه كانت هناك حضارات أخرى قبـــل الاغريق ، بعضـــها أكثر غنى واتساعا ، الا أن الاغريق هم وحدهم الذين كانوا يفكرون تفـكيرا شـــاقا متواصلا ، ولا سيما فى أمور البشرية . لقد رأوا أنفســـهم وقد أحاط بهم من كـــل جانب شـــعوب لا تعيش بطـــريقة معقولة ، أو ذوى طبـــاع غريبة ، كالمصريين الذين أنفقوا الملايين على حفظ جثث الموتى ، أو قســـاة أقوياء كالاشوريين الذين عبدوا آلهة شـــبه حيوانية ، أو قوما رحـــلا مستعبدين ، كرعايا فارس .

ولم يكن اليونانيون أساتذة لمعاصريهم كاليهود والرومان وغيرهم فى كثير من الاشياء المتصـــلة بالعقل ، بل كانوا أيضا أساتذة لكل من جاء بعـــدهم فى حضارة الغرب الى يومنا هذا .

كان اليونانيون يعتقـــدون أن كل حضارة وكل تقدم انمـــا يقومان على أساس التمتع بقوى العقل والعمل على توسيعها طوال العمر ، فى حين أن بعض الامم الاخرى كانت تؤمن بأن حضارتها انما تعنى خدمة الاله ، أو خدمة الملك المقدس ، أو القوة أو الثروة والراحة . وهناك أمم أخرى حتى يومنا هـــذا ما زالت تؤمن كما يبدو ، بان الحيـــاة ستكون كاملة ، اذا كان لدى كل انسان قدر وفير من الطعـــام والشراب ، وسيارة وبضعة أجهزة أخرى .

لقد كان الاغريق يتمتعون أيضا بكل مباهج الحياة ، من خمر ونساء وأغان ، ورياضة ورقص ، وكثيرون منهم كانوا يهبون كل كيانهم للمسرات واللهـــو ، ولـــكن أكثرهم كانوا يعرفون ما هـــو أفضل من ذلك ، وقد سار عظمـــاؤهم

على هذا المنوال وحرصوا عليه .

كانت تلك العملية هى توسيع العقل . وهى تهدف الى مساعدة الناس على التفكير فى أن كبار شعرائهم ينظمون الشعر ، وأن فلاسفتهم ومؤرخيهم يكتبون ، وأن خطباءهم يتحدثون . كان هناك معلمون من أمثال هومير ، واخيلوس ، واريستوفان ، وثوسيدوس وافلاطون وأرسطو .. هؤلاء وكثيرون غيرهم كانوا أولا وقبل كل شىء أطباء للروح .. الصوت الذى يصغون اليه هو نداء العقل ، يناقش فى هدوء ماهو كائن ، وما كان ، وما يجب أن يكون .

ولعل أمتع ما فى دراسة التاريخ ، أن نرى كيف أن أفكار هؤلاء الرجال ، أو بعبارة أخرى أفكار العقول التى تردد صداها فيهم ، عادت لتظهر مرة بعد مرة فى أزمان متباعدة . ان توازن القوى الذى هو الاساس السياسى لحكوماتنا البرلمانية ، وضع صياغته مفكر اغريقى قديم . كما كان معلمو الاغريق هم أول من نادى بالمثل السامى المعروف : اخاء الانسان ! .

***

ولقد كان الرومان هم أول تلاميذ الاغريق ، وهم مجموعة لاتبشر بخير . وعندما رأى الاغريق الرومان أول مرة ، أطلقوا عليهم اسم «البرابرة» ، وكانوا يعتقدون أنهم قوم ذوو عزيمة ، ولكنهم بلداء ذوو فهم ثقيل . ولم يكن للرومان أدب ولا علم له قيمة دائمة ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يفكروا بطريقة فلسفية ، حتى لغتهم كانت خشنة . وفى كل هذه الميادين علمهم الاغريق ، وكانت النتيجة ازدهار آخر للثقافة الاغريقية ، أينعت فى ايطاليا ، وخلقت ثقافة جديدة مشتركة ، هى الحضارة الاغريقية الرومانية .

ان الكفاءة والقدرة الانتاجية ، والذكاء ، والتذوق ، والتعلم ، كلها تنمو وتزداد مع الحريات الروحية والشخصية ، فيما عدا العهود الكئيبة ، ولقد كان لهذه الحضارة فى كثير من النواحى أعظم أثر فى نجاح الحياة الاجتماعية التى شاهدها عالمنا الغربى ، وقد بلغ عدد القادرين على القراءة والكتابة فى سنة ١٥٠ بعد الميلاد ، أكثر بكثير من عددهم فى عام ١٥٥٠ ، وربما فى عامى ١٧٥٠ و ١٨٥٠ . وكان الرقيق فى سنة ٢٠٠ افضل حالا من « الاتباع » فى عام ١١٠٠ ، أو العبيد فى سنة ١٨٥٠ ، وأحسن بكثير من الاسرى الارقاء الذين ضمتهم معسكرات الاعتقال الالمانية فى عام ١٩٤٤ .

كانت هنـاك مدارس فى كل مكان تقريبا ، وكانت أوربا ومصر وشمال افريقيا والشرق الادنى عامرة بالكتب والمكتبات . كانت هناك تنقلات حرة للفكر . كان المعلمون الرحل والفلاسفة والخطباء الجوالون ، يتنقلون من مدينة الى مدينة ، فوق مسـاحة تزيد على آلاف الكيلومترات المربعـة ، وكان الدعاة الدينيون والاجتماعيون يفسرون الآراء بحرية ويجادلون فى فصاحة .

فلماذا انهارت هذه الحضارة الرائعة السعيدة المفكرة ؟

لا أحد يعرف . ان أصحابها أنفسهم لايعرفون . ولكن هناك شىء واحـد مؤكد ، هو أن الجزء الغربى من هـذه الامبراطورية — وهو الجزء الرومانى — هو الذى انهار أولا ، بينما نجح الجزء الشرقى — حيث المنطقة التى تتحدث اليونانية — فى أن يصون نفسه أمام هجمات لاتنقطع مدة ألف عام أخرى . ولو طلب من أحد أن يذكر تفسـيرا واحدا لهذا التفـاوت العجيب ، فان أفضل مايقال ، هو أن السبب هو أن رجال الغـرب كانوا يحبون المتعـة والثروة ، فى حـين أن رجال الشرق كانوا يحبون التفكير .

وجاء دور العصور المظلمة بعد ذلك ، ومع ذلك ، فانه حتى بعـد فنـاء الامبراطورية الغربية ، وبعد أن سدت كل الطـرق ودمرت كل الجسـور ، وامتـلأت الموانىء بالاوحال ، وقطعت القنوات وأحـرقت المستشـفيات والمكتبات ، وتحولت المبانى العـامة الكبرى الى منازل للمغتصبين ، وبعد أن تحللت اللغة الى عشرات من اللهجات ، وأصبح تعلم القراءة والكتـابة نادرا كالسحر ، ولم يعد أكثر رجال الدين يعرف القـراءة الا بمشـقة ، بل ان كثيرين من القواد والملوك لم يكن يعرف كيف يكتب اسمه . وبعد أن تهاوى حكم القـانون الذى شمل العـالم ، وانتشرت العصابات المنظمة فى النظـام الاقطاعى ، حتى بعد كل ذلك ومابعده ، فان من الافضـل أن تفهـم حركة الحضارة الاوروبيـة على أنها عمليـة تعلم !.

وحتى عندما كانت المدن مليئـة بالناهبين الذين يدمرون مالا يفهمون ، أخذ قلائل من المتفائلين ينسحبون الى أماكن منعـزلة هادئة ، ليبـدأوا فى التدريس والنسخ ، وحفظ التراث من الضـياع ، وفى دير هنـا ، وزنزانة انفرادية هناك ، جلس علماء صابرون يحاولون تفهم أفكار الماضى العظيمة ، فى النثر والشـعر ، ويعلمون غيرهم كيف يفهمونها وينقلونها بدورهم ، فى

بطء وتدرج ، يعيدون بناء عالم التقافة المحطم .

وفى وسط تلك الظلمة ، راح أسلافنا يصعدون فى بطء ، كما صعد أسلافهم من قبل ، من أغوار أكثر ظلاما ، وكما قد يضطر خلفاؤنا الى الصعود مرة اخرى .

وقد تطلب الامر أكثر من الف عام شاقة ، وما كاد عام ١٤٥٠ يقبل ، حتى كانت أوروبا الغربية قد بدأت تستعيد فكرة العالم اليونانى والرومانى كاملة ، وأن تصل الى ماهو أبعد منه فى كثير من النواحى . ومنذ ذلك الحين ، كان اغلب أصحاب العقول الرفيعـــة فى حضارتنا من تلاميذ الاغريق والرومان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة !

***

ومما يبعث الامل فى النفوس ، أن نلقى نظـــرة الى الوراء ، على تاريخ التعلم ، لنرى كيف استطاعت العقول العظيمة أن تظهر فى كثير من الاحيان فى بلاد منعزلة وبين قبائل متوحشة وفى عهود زاخرة بالعنف والاضطهاد .

ما أروع أن تلقى عقلا رصينا رؤوفا يدرس الطبيعة ويقرض الشعر ، وسط هذه الحقب الدموية التى تدوى فيها الآنات الكئيبة والتراتيل المختنقة .. أو أن تكشف بين البورجـــوازيين الكســالى ، أو الفــلاحين الاجلاف ، شخصا منقفا قويا يكافح بين الارقام ، وينتج اختراعات فريدة ، أو يضــــع تفسيرا هندسيا لبناء الكون .

هكذا كان بوذا .. وهـــكذا كان « سكوياه » الهندى الذى استطاع ان يخلق لشعبه من قبيـلة الشـيروكى الهنـــدية لغة مكتوبة . وهكذا كان « جريجور مندل » الراهب الهادىء ، الذى عمل وفكر فى صبر ، حتى اكتشف بعض قوانين الوراثة الاساسية .

ولكن فيما عدا هؤلاء العبـــاقرة المنعزلين ، كانت هناك مفاجآت أخرى فى تاريخ الفكر . انهـا ظاهرة لم تكن متوقعة ، وقد لايمكن تفسيرها . كان هناك رجال عبروا عن العهد والوسط الذى تعلموا خلاله ، ولكنهم بغـزارة خيالهم وعلمهم الجـارف ، وبراعتهم المذهلة ، ارتفعوا عاليـا فوق عصرهم وجيرانهم ، حتى أنهم كانوا يستوطنون الزمن والخلود معا .

هذه الاختلافات المميزة تحدث مرة بعد أخرى فى عالم الثقافة ، ومع ذلك فان بعض النقـــاد يفـكر اليوم أن شكسبير كان قادرا على كتابة رواياته ، لانه لم يكن الا شـــابا من الطبقـــة الوسطى فى الريف ، غادر مدرســته ليصبح ممثلا .. وهم مخطئون ، اذ

أنهم ارتكبوا الغلطة الاولية ، باعتقادهم ان ٢+٢ تصنع ٤ فى عالم العقل !

ان بعض النقـاد لايمكن ان يكونوا قد اشتغلوا بالتـدريس قط . ان التدريس يتيح لك ان ترى — لا مرة واحـدة — بل مرارا كثيرة ، كيف أن صبيا ليس هناك مايميزه عن الآخرين ، سوف تدفعه ملاحظة واحـدة من المدرس ، أو يتأثر باستطلاع موضوع جديد ، فاذا به يبدأ فى التحول فجأة ، فيطرح أفكاره الاصلية جانبا ، ويزداد نضج حديثه وكتابته اليدوية وهو يتغير بسرعة بالغة ، حتى تبعد الشقة بينه وبين أصدقائه ، بل انه لايستطيع حتى أن يذكر أو يعرف نفسـه قبل ذلك بعام واحد ، أن فرصة سعيدة أو مجهودا تحوطه العناية الالهيـة ، قد يؤدى بطريقة ما الى أن تندمج الطاقات الذهنية فى تآلف ابتداعى جديد .

مثل هذا الصبى قد يثير دهشـة والديه ، ولكنه لايدهش نفسـه عادة لانه يشعر انه انما يتعلم لاستخـدام القوى التى هى ملكه فعلا ، وكذلك لايدهش مدرسـه ، الذى يعرف اى كنز غير محـدود من القدرة والخلق يحمله التلميذ فى خزانة عقله المغلقة التى يأمل دائما ويسعى حثيثا لفتحها

وهنـاك حقيقة واحـدة مؤكدة عن الاعمال العظيمه التى حققها العقل ، وهى أن الكثير منها صنعه رجال بداوا حياتهم فى ظروف عادية ، بل وغير مواتيـة فى الغـالب ، ثم مالبثوا ان حلقوا بعيدا جدا عن أصولهم ..

لقد كان اسحق نيوتن ابنـا لفلاح بريطـانى ، ولم يكن تلميذا لامعـا فى صباه على عكس بعض علماء الرياضة الآخرين ولكنه فى خلال سنوات قليلة ذهب الى كابريدج ، حيث اشـتعلت شرارة ذكائه .. وجـوهان جواكيم وينكلمان مؤسس تاريخ الفن الحديث كان فقيرا الى حـد البؤس ، وقد بدأ حياته كمدرس صغير .. وكان هناك صبى جاء نتيجة علاقة عابرة بين سيد ايطالى وفتـاة ريفيـة ، بدأ يدرس الرسم كآلاف كثيرة قبله وبعده ، ولكن هذا الصبى أصبح فنـانا خالدا عرفه العالم باسم ليوناردو دافنشى !

و« لويولا » مؤسس الجيزويت كان جنديا شجاعا جاهلا ، فى عصر ملىء بالرجال الاغبياء والسيوف .. ومارتن لوثر ، ورابلين كانا راهبين لايميزهما شىء عن ألوف غيرهم من الرهبـان الآخـرين فى وطنهم وزمنهـم ... وسقراط كان بناء فى مدينة تزدحم بالبنائين :

ترى كيف يبرز العظماء المفكرون؟

انهم لا ينبتون كالاشجار ... ولايمكن انتاجهم كالسلالات المختارة من الحيوانات .. ولكننا نعرف طريقتين لتغذيتهم في الوقت الذى ينمون فيه ..

وأولى الطريقتين ، أن تكفل لهم تحديا واثارة متواصلين ، اطرح المشاكل أمامهم ، أتح لهم اشياء يفكرون فيها . اقترح عليهم بعض التجارب ، واطلب منهم الكشف عما هو خاف . اما الطريقة الثانية ، فهي ان تجعلهم دائما على اتصال بالعقول البارزة الاخرى .

ان الصبي أو الفتاة لايتصل بزملائه أو مدرسيه أو والديه الى حد كاف .. ويجب أن يقابل كل منهما رجالا أو نساء من الممتازين حقا .

هذا الفيلسوف المتشائم افلاطون قد مات منذ حوالى ٢٣٠٠ عام ، ولكنه مازال يتحدث عن طريق كتبه ، وليس أفضل لشاب يبدأ التفكير في أى نوع من المشاكل الفلسفية ، كالسلوك البشرى أو العمل السياسى أو التحليل المنطقى ، من أن يقرأ لافلاطون ويحاول أن يرد على جدله ، مستخدما وسائل اقناعه البارعة . وهكذا يصبح تلميذا لافلاطون وناقدا له في وقت واحد ..

وكذلك قد يصبح الانسان دبلوماسيا عاديا باتباع كتاب القواعد، وحل كل مشكلة كما تأتى .. ولكن اذا اراد الانسان ان يصبح سياسيا ، فانه يجب أن يقرأ « ماكيافيللى » وان يدرس حياة كل من بسمارك ولنكولن ودزرائيلى ...

ان افضل طريقة للوصول الى العظمة .. هى أن تمتزج بالعظماء .

***

ومن الخطوات التى تبشر بالامل ، ازدهار التعلم في أنحاء العالم . ففى خلال الاجيال الاربعة أو الخمسة الماضية ، كان تقدم التعلم سريعا وعلى نطاق واسع ، الى حد لايدركه غير القلائل . وهذا انتصار للروح . وقد ذكر لى أبى وهو من هواة القراءة أن النساجين الاسكتلنديين القدماء ، علموا أنفسهم القراءة دون أن تكون لديهم أية مدارس ، وذلك بوضع كتاب الهجاء الى جوار المنسج أثناء عملهم .

وقد علمت الادب الاغريقى الكلاسيكى طلبة لم يكن أجدادهم ينطقون أية لغة معروفة ، بل مجرد لهجة أوروبية غامضة لايمكن قراءتها ، ولم يكتب بها ى مؤلف من قبل . ومثل هذا النوع من التحول حدث في اجزاء كثيرة من

الغرب خلال القرن الماضى ، ونحن نراه الآن يمتد الى أجزاء أخرى من العالم .

اننـا نعرف أن العقـل البشرى يستطيع أن يحقق أعمالا اكثر جـدا مما حققها . ان الرجـل العـادى يستخدم كل عضلاته تقريبا خـلال حياة النضج ، ولكنه يترك منـاطق كبيرة من عقله نائمـة قد تبلغ ثلثى العقل . ان كثيرين من الناس يعيشون فى خمـول كأفـراد ، تاركين ذكاءهم اللامع الذى تمتعوا به خلال الشباب ، ساكنا دون استخدام بقية سنوات حياتهم التى قد تصل الى السبعين . وهكذا نجد أن ألفى مليون عقـل فى العالم محدودة بثلاثة أفعـال ، هى : الفقر ، والخطأ ، والقيود المتعمدة .

الفقـر : ان أغلب أبنـاء الجنس البشرى يكاد يعيش فى المستوى الذى يحفظ كيانه . فهو لايكاد يتحمل شراء الكتب أو دفع أجور المعلمين ، أما بناء المدارس ، والكليات والمعامل والمكتبات والجامعات فهى أشـياء فوق طاقتهم تماما . ولكن التعليم يتوقف على هذه التقاليد وتنظيم العتاد . فاذا استبعدت هذه الاشياء مدة ٥٠ عاما فقط ، فان الارض سـوف تمتلىء بالجهـلة الاميين .

وكانت تلك أروع غارة للعصـور المظلمة على أوروبا منـذ خمسة عشر قرنا .

ففى عام ٤٠٠ بعد الميـلاد كانت الكتب وفيرة ، تزيد على الحـاجة . وبعد ثمانية أو عشرة أجيال ، أصـبح الكتاب شيئا ثمينا ، محروسا ، مبجلا من أغلب الناس .

ان الاديب قد يكتب عبر الفيافى التى مزقتها الحرب وأغارت عليها عصابات اللصوص ، يسأل صديقه الذى يقيم فى أقصى البلاد عما اذا كان لديه كتاب معين ، واذا كان عنده ، فهـل يتكرم باعارته اياه لينسخه ثم يعيده ؟ .

اننى لم أنظـر الى مجـلد من مجلدات تلك العصـور المظلمـة ، بصفحاته الضخمة المصنوعة من جلد البقر ، وحروفه المتعبة ، الا خامرنى شعور بالاعجاب ، بذلك الكاتب الذى خطه ببطء ، وصاحب المكتبـة التى حفظته بعناية خـلال قرون الحرب والنهب والجهل والاهمال .

ومع ذلك فان الفقر ، ولو شـمل المجتمع بأسره ، لايعـد حاجزا منيعا أمام التعليم اذا صدقت عزيمة الناس على التعلم ، وكانوا على اسـتعداد للتضحية . ان مجتمعا برمته يستطيع أن يرفع مقاييسه فى خلال خمسين عاما بجهود قوية ، وأن يصونها قرونا من

الزمان .

ان فنلندا من افقر الامم فيأوروبا ، ومع ذلك فلديها مدارس رائعة ، وبها مواطنون أكثر ثقافة مما لدى كثيرمن الامم التى تفوقهـا غنى . ولم تكن سكوتلندا أرضاغنية قط،وعلىالرغم من ذلك فقد استطاعت أن تنفق علىأربع جامعات منذ عهد النهضة الاوروبية . وفى سجلات كل منها قصص أطفال الفلاحين ، الذين شبوا وسط فقر طاحن ، ومع ذلك شقوا طريقهم الى الكليات ، حيث يعيشون على جوالمن الشوفان وبعض الرنجة المملحة التى يجلبونها من بيوتهم ، ثم يرتفعون الى مصافالمتازين من الادباء والمخترعين .

الخطأ : مما يبعث الاسى فيالنفوس، أن يفكر الانسان فى كل تلك العقول الطيبة التى سفهت أو خمدت همتها أو ضلت طريقها خلال القرونالماضية، بسبب الاخطاء السائدة فى النظام التعليمى . ان التعليم المناسبلايعرض فى الغالب الا على فئة مختارة فقط ، أما الباقون فيتركون لكى يرتع الجهل فى أرواحهم . ولم يعترف للنساء بصفة عامة بالاشتراك فى ثقافة أمتهم وعالمهم الا فى دول قليلة فقط وفيخلال العهود الاخيرة .

وهناك ثلاثة أخطاء شائعة تساعد على تعليل ضعف التعليم فى العصر الحاضر هى :

أولا : الفكرة الخاطئة القائلة بان المدارس توجد أساسا لتدريب الفتيان والفتيات على أن يكونوا أشخاصا اجتماعيين ، وأن يندمجوا فيجماعتهم مزودين بالقدرة على العيش فيالمجتمع، وأن يكيفوا أنفسهم للتعاون فى الاسرة والمجتمع . والحقيقة أن هذا ليس الا غرضا واحدا من أغراض المدارس ،فى حين أن هناك غرضا آخر للتعليم يماثله أو يزيد عليه أهمية ، وهوتدريبعقل الفرد وتشجيعه بوسائل مختلفة قدر الاستطاعة .

والخطأ الثانى : هو الاعتقاد بان التعليم عملية تتوقف تماما بمجرد بدء حياة البلوغ ! ان كثيرين جدا من الشبان الذين يتخرجون فى المدارس والكليات ، فى أوروبا وأمريكا ، يتخلون عن لغتهم وينسون علومهم بمجرد تخرجهم مباشرة ، فيهجرون تفكيرهم الاقتصادى والسياسى ، وما أشبه ذلك بالرجل الذى يتعلم الموسيقى ،ثم لايذهب بعد ذلك الى حفلة موسيقية أو يعزف مقطوعة موسيقية واحدة !

أما الخطأ الثالث : فهو الرأىالشائع بان التعليم والتدريس لابد لهما من نتائج مباشرة مثمرة وأن يؤديا الى

النجاح . ان التعليم يهدف حقا الى افادة الشخصية كلها ، ولكن ليس فى الامكان ـ ولا من المرغوب فيه ـ اظهار أن الموضوعات التى تدرس سوف تجعل من يتعلمها غنيا أو كفئا للحياة الاجتماعية ، أو تكفل له وظيفة ما !

القيود المتعمدة : كان ولا يزال هناك كثيرون من الرجال والنساء الذين يعلنون أن بعض مواد المعرفة يجب أن يقضى عليها ، أو أن تحاط بقيود حتى تدرس فى سرية تامة ، لا لان الوقائع التى تذكرها كاذبة ، أو أنها ستقود العقول غير المسئولة الى أن تسلك سلوكا منافيا للاخلاق ، بل لانها اذا عرفت على نطاق واسع فانها سوف تؤذى بعض الجماعات الخاصة أو بعض المنظمات السياسية او الدينية أو الاجتماعية .

وعندما أعلن جاليليو أن الارض ليست المركز الثابت للكون ، ولكنها كوكب يدور حول الشمس ، سجنوه وهددوه بالتعذيب ، وحكموا عليه بأن يسحب تصريحه وهو راكع على ركبتيه ، فسحبه ، ولكنه اذا لم يكن قد تمتم قائلا « انها تتحرك » كما تقول الروايات عنه ، فلابد انه قال ذلك فى عقله الباطن .

وفى الازمنة الاخيرة ، كانت اعظم التغييرات الحاسمة فى التاريخ تهدف لاغراض سياسية . ففى خلال القرن التاسع عشر ، حاول الروس الغاء اللغة والآداب البولندية ، ومنعوا تعليمها . وفى عهد الاحتلال الالمانى الاخير لبولندا دمرت المكتبات البولندية أو وضعت تحت اشراف البوليس . وبعد أن فاز ستالين فى صراعه على السلطة ضد تروتسكى ، محا عمل تروتسكى فى بناء الجيش الروسى من كتب التاريخ الشيوعية ، حتى نسيت فعلا فى الاتحاد السوفييتى .

ولكن تاريخ البشرية يظهر دائما أن العقل استطاع أن يهزم كل من حاول تقييده أو الغاءه . لقد تكررت المحاولة مرة بعد أخرى ، وفشلت مرة بعد مرة ، وهى تتكرر الآن ، وسوف تفشل مرة أخرى .

***

ان حياة الروح البشرية تواجه خطرين ، كلاهما قوى ومهم الى حد كبير . أحدهما الخمول ، والثانى الطغيان . ان من المحتمل جدا ان يكون العالم المتحضر قد نما فى سنة ٢٠٠٠ وبلغ حدا من الثراء والراحة يجعله يكرس وقته للمسرات والمباهج البسيطة الخاملة ، فيختفى الفكر ، أو يحتفظ به عدد قليل من أصحاب

الاعمال والخبراء . كما يحتمل كثيرا أن يضمحل التعليم ويصبح مجرد تدريب على العمل وبرامج فى العلاقات العائلية والاجتماعية ، وأن تنهار الحياة وتتحول الى سلسلة من الايام المتشابهة من المسرات ، ليس فيها الا ساعات من العمل الروتينى الآلى ، تتبعها نزهات صاخبة ولهو رخيص. كل هذا محتمل ، ولكنه لن يقع .

ولو أن هذا الاحتمال تحقق فعلا ، فان طاقات العقل البشرى غير المستخدمة سوف تجد لها مخرجا ومنفذا على الرغم من كل مايحيط بها من راحة وتشتيت للفكر . وسيكون هناك مخترعون وباحثون ومفكرون ، وان بدوا خلال بعض القرون ، شيئا غريبا ونادرا كالقديسين !

ويحتمل أيضا أن يكون الكوكب الذى نعيش عليه كله خاضعا لطغيان شامل فى عام ٢٠٠٠ أو يسيطر عليه عدد من الطغاة الاقليميين ، أكثر خطرا وتأثيرا من كل ما جربناه فى تاريخنا الطويل المليء بالرعب . وقد تنبأ كثير من النقاد بمثل هذا الاستبداد ، وبدت صور منه فعلا هنا وهناك ، فى المانيا وايطاليا وغيرهما . ولكن الاستبداد سوف يفشل فى النهاية ، فليس من المستطاع أن تنزع الانسانية عن كل البشر ، بل سيبقى البعض يفكر ، وحكومات الطغاة نفسها سوف تظل تفكر ، وفى كل جيل جديد من الاطفال سوف يظهر مفكرون جدد .

ان من اليسير أن تقضى على الجنس البشرى ماديا ، بجرثومة أو انفجار ، بسهولة أكثر من أن تدمره عقليا . ان الانسان بقدرته على أن يكيف نفسه ، يمتلك القدرة المستمرة على أن يتغير وأن يستغل قوى عقله .

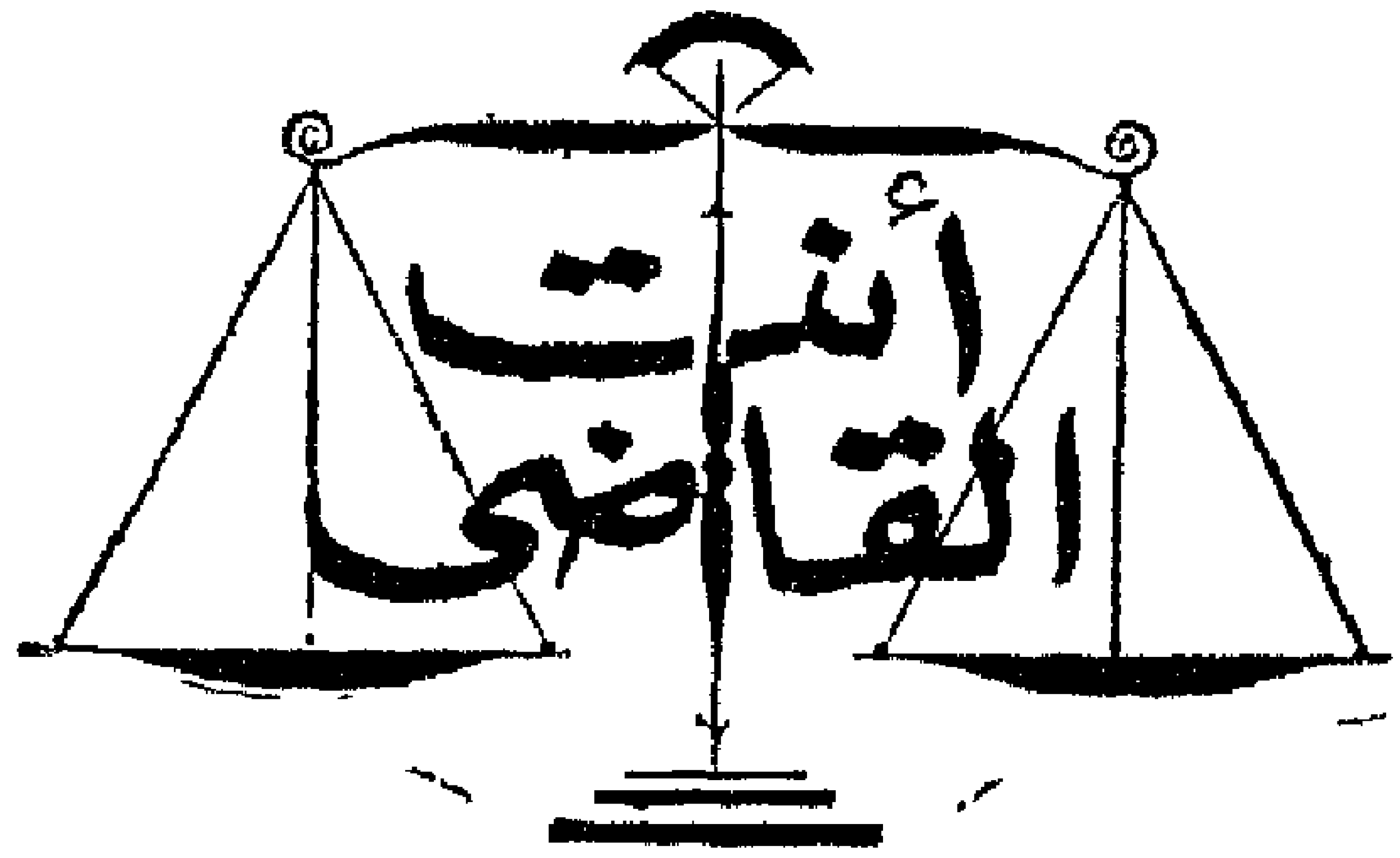
وما دام الناس يعيشون فوق هذا الكوكب ، ومهما تكن قوى الطغيان والقسوة التى تبتكر ، فسوف يظل الناس يفكرون . أن العقل يزحف دائما ، قد يكون غير كامل ، ولكنه رائع ، فريد فى نوعه لدى كل فرد . انه العقل الذى أخرجنا من الوحشية الى المدنية والحكمة ، وهو الذى سيقودنا دائما الى الامام . انه العقل الذى لايهزم !

الطريقة الوحيدة !

كتب فولتون لويس يقول :

ـ اخذت مصانع السيارات الامريكيه تزيد سياراتها ضيقا .. حتى انه بعد عامين فقط ، لن تستطيع ان توجد داخل سيارة امريكية الااذا ولدت فيها ..

اذا كنت قاضيا فماذا يكون حكمك فى القضايا الآتية ؟ اتخذ لنفسك قرارا بشأنها ثم قارنه بما قضت به المحاكم فعلا .



قدم جون الى رئيسه اعلاما بالاستقالة بعد شهرين على الرغم من أن تركه وظيفته كان يحرمه من اكثر من ألف دولار . وقد بلغت برئيسه سورة الغضب حدا جعله يخبر جون أن بامكانه ترك العمل توا واذ اعتبر جون أنه طرد من الوظيفة ، فقد طالب بالالف دولار المستحقة ، فلما رفض رئيسه هذا الطلب رفع عليه دعوى بالمحكمة .

وقد ترافع جون قائلا : ان استقالتى لم تنقض عليها مدة شهرين ولكنه طلب منى أن أترك العمل ، فهذه اقالة لا استقالة .

وأجاب الرئيس : ان جون ترك العمل بمحض ارادته وأنا انما أسرعت فقط بتنفيذ العملية .

هل تحكم لجون بالتعويض المالى ؟

***

كسب جون القضية فقد طعنت المحكمة فى عبارة « أسرعت بتنفيذ العملية » عملية ترك الموظف لعمله وحكمت بان الموظف قد أقيل .

●

لم يكن هوراشيو ليجرؤ على المرور عبر سيارة نقل كبيرة بسبب عدم وضوح الرؤية فى الطريق ، ومع ذلك فقد تكرم سائق سيارة النقل فأشار اليه بيده بأنه من المأمون أن يتقدم هوارشيو بسيارته ولكن سائق سيارة النقل لسوء الحظ أخطأ فى الحكم على سرعة سيارة أخرى كانت تقترب فاصطدمت بسيارة هوارشيو وأصابته بأضرار بليغة .

ورفع هوارشيو دعوى على شركة سيارات النقل لاخذ تعويض .

وترافع قائلا : لقد اعتمدت على اشارة سائقكم بأن الطريق كان مأمونا لكى أمر مجتازا سيارة نقلكم .

وأجاب محامى شركة سيارات النقل : لم يكن لك شأن بسائقنا وفوق كل شيء فأنت مسئول مبدئيا عن سلامتك الشخصية .

هل تحكم بالتعويض لهوراشيو ؟

***

كسب هوراشيو القضية . فقد حكمت المحكمة بان سائق سيارة

النقل عندما أشار اليه بالتقدم كان من واجبه الا يؤدى به الى حادث وهكذا اعتبر السائق مهملا وصاحب العمل مسئولا عنه .

●

لما كان مجلس التعليم يرغب فى موافقة المصوتين على عقد اكتتاب بمبلغ مليون دولار لتوسيع احدى المدارس فانه طبع نبذا تتضمن نبوءة حالكة بان رفض الموافقة على عقد الاكتتاب هو غش لطفلك لمنعه من التعليم . وحينما سمع جماعة من دافعى الضرائب بأن المجلس دفع مئات الدولارات من المخصصات المدرسية لطبع هذه النبذ فانهم رفعوا دعوى لاعلان عدم قانونية مصروفات المخصصات العامة .

وترافع المعارضون قائلين : ربما كان للجنة المدرسة الحق فى نشر نبذ واقعية ولكن حيث ان المخصصات العامة لايجب استعمالها فى الشئون المتابعة فان على أعضاء المجلس أن يدفعوا مصروفات طبع النبذ شخصيا .

وعارض مجلس التعليم قائلا : اننا انما ذكرنا الحقائق كما شاهدناها وان تكاليف طبع النبذة هى من المصروفات العامة المشروعة .

هل تحكم بأن يدفع أعضاء مجلس التعليم مصروفات طبع النبذ ؟

***

كان على أعضاء المجلس أن يدفعوا هذه المصروفات ، فقد رأت المحكمة أن النبوءة الحالكة كانت حبكا أكثر من اللازم لقصة تمثيلية غرضها استصدار الاكتتاب ، ولذلك كانت النبذة متحيزة ولا يجب الدفع لاجلها من المخصصات العامة .

●

سطا اللصوص على خزانة أحد المتاجر ورفضت شركة التامين أن تعوض صاحب المتجر عن خسارته ، وأشارت الى أن بوليصة التأمين أمنت عليه فقط فى حالة سرقة الخزانة بالقوة والعنف اللذين يتركان آثارا مرئية على الخزانة . ورفع صاحب المتجر دعوى .

وترافع صاحب المتجر قائلا : ان اللصوص حين يحملون خزانة الى خارج مبنى فلابد أن يتضمن هذا عنفا وقوة كافيين .

وعقب محامى شركة التأمين قائلا : ان أى انسان يستطيع أن يحكم بأن اللصوص قد يكونون قد فتحوا الخزانة بالاتفاق ، وفى هذه الحالة فاننا غير مسئولين عن التعويض .

هل تحكم بالدفع على شركة التأمين ؟

***

لم يكن على شركة التأمين ان تدفع التعويض وقالت المحكمة : ان للشركة الحق أن ترى بغير لبس ولا ابهام أن علامات العنف والقوة كانت مرئية قبل أن تدفع التعويض .

●

اصيب مورفى فى حادث سيارة ووكل المحامى سميث ليمثله فى المحكمة متفقا على أن يدفع له ثلث أى مبلغ تقضى به المحكمة أو ٤٥٪ من أى مبلغ يحصل عليه برفع دعوى وقد حصل سميث على عرض ترضية بمبلغ ٣٠٠٠ دولار فرفضه مورفى وفيما كان سميث يتأهب لرفع دعوى مطالبا بمبلغ أكبر أخبره مورفى بانه مقال من العمل ووكل محاميا آخر ورفع المحامى الآخر دعوى وحصل على حكم بـ ٨٠٠٠ دولار فطالب سميث بـ ٤٥٪ من هذا المبلغ كمكافأة له

وقال مترافعا : ان مورفى كسر العقد الذى بيننا باقالتى بلا سبب وكان بامكانى رفع الدعوى والحصول له على ٨٠٠٠ دولار .

واجاب مورفى : انني سأدفع لسميث ثلث الـ ٣٠٠٠ دولار عن عرض الترضية التى وصل اليها ولن أدفع مليما أكثر .

هل تحكم لسميث بـ ٤٥٪ ؟.

***

كسب سميث القضية . فقدرأت المحكمة أنه قام بوظيفته كمحام « باخلاص وكفاءة » الى أن « أقيل من هذا العمل بلا سبب عادل » . وبذلك حكمت أنه مستحق للمبلغ الذى طالب به .

عن مجلة « ساتر داى ايفننج بوست »

مساكين !

ان الاشخاص الذين ماتوا فى عام ١٩٢٩ ـ اى منذ ٣٠ عاما فقط ـ لم يسمعوا قط عن أشياء اسمها الطائرات النفاثة ، وحاجز الصوت والسينما المجسمة ، والثلاجات الكهربائيه ، والقذائف الموجهة ، والرادار ، والتليفزيون الملون ، والخيوط الزجاجيه ، والامواس الكهربائيه ، والامم المتحدة ، والخضر المجمدة، والقنبلة الذرية ..

فيالهم من مساكين ..

كتاب الشهر



ادجار والاس

الأديب الذى أحبّ المجرمين

عن كتاب

Edgar Wallace

بقلم مرجريت لين

قل بين الكتاب من حصد مثل هذه الارباح الطائلة من قامه ، كما فعل ادجار والاس ، ولكن هذا النجاح الذى أحرزته اعماله الادبية ، وقصة حياته الدامية ، لا يكشفان وحدهما عن سر الاسطورة التى أحاطت باسم هذا الرجل ..

لقد نشأ ابنا غير شرعى ، تخلت عنه أمه منذ ولادته ، فقيرا لا يملك مليما واحدا ، ولم يتلق من العلم الا النزر اليسير ، ولعل هذا هو سر تقديره للقوة التى أتاحها له المال فيما بعد ، ليعيش فى أرفع مستوى وعلى أوسع نطاق ..

وفى شارع « فليت ستريت » حى الصحافة بلندن ـ الذى اطلق عليه اسم « شارع الاحلام المحطمة » ـ وضعت لوحة أعدها زملاؤه الصحفيون تخليدا لذكراه ، تحمل هذه الكلمات :

« لقد عرف الفقر والغنى ، وظل محتفظا بقدره عند ما عرف الملوك . لقد أفاض مواهبه على كتبه بسخاء ، أما شارع (فليت ستريت) فقد وهبه قلبه » .

وفى قصة حياته التى أعدتها زوجة ابنه « مرجريت لين » استطاعت المؤلفة أن تتعمق فى اغوار قلب وعقل هذا الرجل لتفسر لنا كيف أن شخصيته اللامعة لا تزال بعد ٢٧ عاما من موته ، قادرة على اشاعة الدفء بين هؤلاء الذين لم يعرفوا عنه سوى اسمه فقط .

ادجار والاس

لعل ادجار والاس هو أعظم المؤلفين رواجا فى جميع العصور واكثرهم خصوبة فى انتاجه الخيالى ، ولعله أيضا أغرب ظاهرة ادبية فى هذا القرن ... فمن قلمه وحده تدفق سيل لاينقطع من القصص البوليسية والمقالات والمسرحيات والأعمال الصحفية بسرعة متزايدة مطردة لاتكاد تصدق ... ولم يكن دخله فى السنوات الاخيرة من حياته ليقل عن ٥٠ الف جنيه فى العام ، كان ينفقها دائما قبل أن تصل الى يده ... ومات وهو مدين بمبلغ ١٧٥ الفا من الجنيهات ... وان كانت حقوق التأليف قد سددت هذا الدين فى عامين فقط !

كان مبذرا بصورة لاشفاء منها ، مقامرا عنيدا ... ولقد اضطر لكى يواجه نفقاته الهائلة الى أن يلقى بنفسه فى آفاق ممتدة واسعة من الابتداع الذى يبعث الخبل وبينما كان عدد قراء غيره من الكتاب يقدر بالالوف ، كان هو يهدف الى الملايين ، وكان قانعا بالثمرة الملموسة التى تعود عليه من هؤلاء الملايين ... ولعل اية شخصية من الشخصيات التى ابتكرها خياله الخصيب لم تعش فى مثل هذا الجو العجيب الذى كان سيطر على حياته !

وولد ادجار والاس فى بلدة جرينتش بانجلترا فى عام ١٨٧٤ ، وكان الطفل الثانى لأمه بوللى ريتشاردز الممثلة المغمورة ، وقد جاء ثمرة علاقة غير شرعية بعد أن ترملت واضطرت أن تعيش على دخلها غير المستقر من المسرح لتعول نفسها وابنتها الصغيرة .. وساءت ظروفها عند ولادة طفلها الثانى — غير المرغوب فيه — الى حد انها قررت أن تتكتم نبأ مولده فلم يعرفه غير السيدة التى ولدتها ، ولم تبح بهذا السر لاحد ... حتى عشيقها !

وعقب ولادة الطفل بأسبوع واحد ، حملته بوللى الى قسيس كاثوليكى لتعميده ، واخفت اسم والده الحقيقى ، وكتبت فى سجلات المواليد بالابراشية اسم « ولتر والاس —

ممثل هزلى » باعتباره والد الطفل واستطاعت أن تعهد به الى زوجة بائع أسماك يدعى فريمان فى بلدة (بيلنجز جيت) لتقوم بتربيته مقابل خمسة شلنات فى الاسبوع .

وكانت مسز فريمان وزوجها يحبان الاطفال ـ لحسن حظ الطفل المسكين ـ فقد كان لدى الزوجين عشرة أطفال يعيشون جميعا فى كوخ صغير لايحوى أكثر من أربع غرف صغيرة ... وحتى بعد أن عجزت بولى ريتشاردز عن دفع الشلنات الخمسة للاسرة الفقيرة ، عرضت مسز فريمان أن تتبنى الطفل ادجار ..

وفى هذه الدار ، عاش ادجار والاس مع أطفال أسرة فريمان العشرة .. وقد ظل ملتحقا بالمدرسة حتى بلغ الثانية عشرة ، فألحقته مسز فريمان بمؤسسة للطباعة فى (نيونجتون) وكان هذا أول عمل من سلسلة الاعمال المتتابعة التى التحق بها ، ولم يدم فى كل منها اكثر من شهور قلائل .

والتقى ادجار يوما بأحد البحارة ، فألهب مخيلته بما قصه عليه من قصص البحر ، مما دفعه الى أن يسرع للتعاقد معه للعمل كطاه لاحدى السفن وهو لم يزل فى الخامسة عشرة من عمره ، فضلا عن عمله كخادم للربان فى احدى سفن الصيد ...

وأقلعت السفينة من ميناء « جريمسبى » ... كان الوقت فى شهر ديسمبر ، والبرد قارسا ، والسفينة تتقاذفها الانواء فى بحر الشمال ، فترتفع وتنخفض ، وتميل وتنحدر ، وأسنانه ترتعد وركبه ترتعش ، فقبع ادجار فوق موقد المطبخ ، وأخذ يحاول أن يخفى عجزه عن الطهى كلما أصابه دوار البحر ... وقد كرهه البحارة ، لا من أجل طعامه الردىء فحسب ، بل لأنه اثار الخرافات المتشائمة فى نفوسهم باحضاره حزمة من الدبابيس فوق ظهر السفينة .

وعندما عادت السفينة الى (جريمسبى) بعد شهرين ، هجرها ادجار ، وانطلق الى لندن سيرا على قدميه ... كان يسرق الخبز من عربات المخابز وينام فى الاجران والمخازن الخالية ... لم يكن يتذوق غير الخبز والماء طوال الاسابيع الثلاثة التى قضاها فى المسير ! ..

ورحبت مسز فريمان بعودته اليها سالما ، وحاولت اقناعه بحياة

الاستقرار ، ولكنه عاد يستأنف تنقله السريع بين سلسلة من الاعمال ..

وعندما بلغ ادجار الثامنة عشرة ، وجد نفسه وقد كتب عليه أن يعيش فى فقر مدقع ، وبؤس مقيم ، متنقلا بين أعمال تافهة عارضة ... ووجد عزاءه يومئذ فى مكتبة متنقلة أخذ يتردد عليها ... ولكنه بدأ يدرك انه يجب أن يقرر مصيره بيديه ..

ووسط هذا الجو الذهنى الذى يثير اليأس ... وعلى الرغم من دموع مسز فريمان وتوسلاتها ، ذهب للتطوع فى الخدمة العسكرية ، لمدة ٧ سنوات كجندى فى فرقة « رويال وست كنت »

***

راقت حياة الجيش للمجند الجديد ... فقد أصبح يتلقى غذاء طيبا للمرة الاولى فى حياته ، وبات يباشر عملا منتظما ، وبدأ هزال جسمه المؤلم فى الاختفاء ... وبعد بضعة شهور التمس نقله الى سلاح الخدمات الطبية ، حيث الأجر أحسن ... وكم كانت دهشته بالغة عندما أجيب طلبه وتقرر نقله فورا الى مخازن السلاح الطبى فى (الدرشوت) ..

ولما كانت الدرشوت قريبة من لندن ، فقد بدأ يشعر بولع شديد حيال المسرح ، وينفق جل نقوده وعطلاته فى قضاء أمسيات جميلة فى قاعات الرقص والموسيقى .. كان يحس بالمتعة فى دفء الموسيقى والاغنيات الأخاذة ، فكان يترنم بها بالصفير بشفتيه وهو عائد بالقطار ، ويحاول ان يضع أشعارا من تأليفه للالحان الشائعة ..

وشجعه نجاح أغنياته فى حفلات الكانتين بالمعسكر على ان يضع أغنية للموسيقار أرثر روبرتس ، الذى كان مولعا بسماعه فى قاعات الموسيقى بلندن ... ولدهشته قبل الموسيقار الاغنية ...

وبعد بضعة أشهر رقى جنديا من الدرجة الثانية ، ونقل للخدمة فى جنوب أفريقيا ، وكان هذا نبأ طيبا بالنسبة له ، فقد كانت جنوب أفريقيا يومئذ — فى عام ١٨٩٦ — تغلى ، والحرب متوقعة النشوب .

وأحس الجندى الشاب بخيبة أمل عندما علم أن وجهته هى مستشفى « سيمونز تاون » الذى اشتهر بأنه أكثر أماكن الخدمة الطبية راحة ، فلم يكن هناك شىء يستطيع عمله فى الواقع غير نظافة المستشفى وصيانة الادوات الطبية.

كانت تسليتـــه الوحيـــدة ، هى الكتبـــة المتواضعـــة التى تمتلكهـــا احدى الارساليات الدينية ، فأصبح يمضى أمسياته هناك ، وكانت مسز ماريون كالديكــوت زوجـــة المبشر تبدى اهتماما خاصا بادجار والاس اذ كانت تختار له الكتب ، وتشجعه على قراءة أشعاره لها ... وأحس الجندى الصغير أن هذه الاسرة هى أول أسرة يلتقى بها تمتلك ذلك الشىء الغامض ... الثقافـــة ، فأخذ يكثر من زيارتهـــا ، وشجعـــه على ذلك وجود (ايفى) ابنة مسز كالديكوت ، وهى فتاة ذات خجل وحياء فى الثامنة عشرة من عمرها ، فقد كانت تصغى الى كل مايقـــول باهتمـــام ، وتتابع شفتيه بعينيها ...

وسرعان ما أصـــبح ادجار والاس بالنسبة لها اكثر من مجرد جنـــدى صغير .. كانت تؤمن بأنه عبقـــرى وقد زاد اقتناعها بذلك بعد ان نجح فى الشهور التالية فى بيع بعض انتاجه للصحف فى جنوب أفريقيا ، وتطورت العلاقـــة بينهما الى حب ظل يمـــلأ حياتها حتى موتها ... ولم تـــكد تمر بضعـــة شهـــور ، حتى اعلنت خطبتها الى ادجار برغم معارضـــة أبيها وعدم ارتياحه الى هذا الجندى

لم يكن لدى ادجـــار والاس اى شك فيما يتعلق بمستقبله كشاعر ، وقـــد استطـــاع ان يثبت موهبتـــه الشعرية حقـــا بقصيدة نشرتهـــا له صحيفة « كيب تايمز » بمناسبـــة الاحتفـــال بوصول الشـــاعر الخالد (رديارد كبلنج) الى جنوب أفريقيا .. وأعجبت القصيدة كبلنج ، ولا سيما انها مكتوبة بيد جندى عادى ...

وجاء نصره الاكبر عندما دعى الى حفلة الوداع التى أقامها نادى المدينة للشاعر كبلنج ، فقد بدا فى هـــذه المناسبة أن كبلنج قد أعجب فعـــلا بالجندى الصغير ، وان كانت نصيحته له لم تكن مشـــجعة جـــدا اذ قال له : « بحق الســـماء لاتتخذ من الادب حرفة . ان الادب قد يكون عشيقة رائعة ، ولكنه زوجة سيئة »

ومع ذلك فان نصـــيحة الرجل العظيم لم تلق أذنا صاغية لدى ادجار .

كان لابد اولا أن يحرر نفسه من الجيش بأسرع مايســـتطيع ، وأن ينتهز كل فرصة تسنح له للكتابة .. وقد استطاع أن يتحرر من الخدمة العسكرية مقابل ١٨ جنيها ، وتم له ذلك فى ١٢ مايو ١٨٩٩ ، ثم انطلق الى دار آل كالديكوت ليقدم نفســـه لهم بصفته مدنيا وسيدا مهذبا .

***

ومع أن ادجار لم يكن يقيم في الدار الا نادرا فقد كان يعود بأخس قطار بعد ان يشهد الاجتماعات التي ينقل اخبارها لصحيفة (كيب تايمز) ، ويسرع بالخروج في الصباح الباكر مع أشعاره ومقالاته التي كان يوزعها على صحف جنوب أفريقيا الست التي يساهم في تحريرها ..

وفي اكتوبر ١٨٩٩ عندما أعلنت الحرب أخيرا ضد البوير ، عرضت وكالة رويتر على ادجار والاس أن يقوم بعمل مراسلها الثاني مع الفرقة الغربية ...

لقد حانت أخيرا الفرصة التي انتظرها طويلا ... وسرعان ما انطلق الى الجبهة ، وراح يجول بين المراعي فوق دراجة ، ولكنه كان غاضبا لاضطراره الى البقاء وراء خطوط القتال ، والى أن يختصر برقياته التي كانت الكلمة منها تتكلف شلنا لارسالها .

وبدأ يوجه اهتمامه المتزايد الى الوصف المسهب في القصص التي يرسلها للوكالة بالبريد ، والتي كانت تنشر في مختلف الصحف ، بما فيها صحيفة (الديلي ميل) اللندنية . وبعد ان امضى بضعة شهور في الميدان ، ظن الجميع أن الحرب قد انتهت فعلا ، وعندئذ حصل على أجازة لمدة ثلاثة شهور ، سافر خلالها الى بريطانيا لينشر كتابا من أشعاره هناك ..

ولكن عودته كانت مثيرة للانقباض . . . فقبل ان تقلع به السفينة ، تلقى أنباء مؤلمة بوفاة مسز فريمان ، وفشل الكتاب الذي بذل جهدا في اعداده ، فلم يفز منه بأكثر من ١٥ جنيها ... ومع ذلك فان زيارته للندن اسفرت عن نتيجة أخرى هامة ، اذ توجه على الفور لزيارة توم مارلو رئيس تحرير جريدة (ديلي ميل) ، وأخذ يؤكد له أنه يعتقد أن الحرب ستبقى سنة أخرى على الاقل ، وأشار الى أن مواهبه تتيح له كتابة مقالات طويلة للديلي ميل .. واستمع مارلو اليه في صمت ، ثم دعاه في حذر الى ارسال بعض مقالاته بعد عودته الى كيب تاون .

واقنعت البرقيات الست الأولى التي أرسلها ادجار من هناك ، انه لاحاجة لتردد مارلو بعد ذلك ، فأبرق اليه بتعيينه مراسلا للديلي ميل ، مع اطلاق يده في التصرف كما يشاء .

وفي أبريل سنة ١٩٠١ ، زار

ادجار مدينة (كيب تاون) زيارة قصيرة تزوج خلالها ايفى . وبعد اسبوع من شهر العسل ، استقر الاثنان فى كوخ صغير مفروش فى احدى ضواحى كيب تاون ، وعاد ادجار الى العمل ، حيث اشتبك فى مشادات حامية مع الرقباء العسكريين .

كانت الحرب تسير ببطء ، وكان ادجار فى طليعة المراسلين الذين يبعثون برقياتهم الى انجلترا بالشفرة ، حيث يطلع الجمهور على التفاصيل الحقيقية للاعمال الحربية والخسائر البريطانية .

وأثارت السرعة العجيبة التى ترسل بها كل حركة تحدث فى الجبهة الى لندن حنق اللورد كتشنر اذ كانت ترسل من هناك الى العدو رأسا بالبرق . فأصر اللورد على وضع نظام شديد للتضييق على الصحفيين والمراسلين .. ومع ذلك فقد كان ادجار والاس قادرا دائما على الافلات من هذه الرقابة القاسية .. وبدأت الصحف الاخرى تعيد نشر فقرات من مقالاته ، وهى تشير اليه بأنه « مراسل الديلى ميل الحربى الشهير ... أو الممتاز » .

وفى ابريل سنة ١٩٠٢ ، أصبح واضحا أمام زعماء البوير أنه لابد من اجراء مفاوضات للصلح ، والتقى ممثلو الطرفين فى معسكر الصلح بمنطقة «فير ينجنج» يوم ١٥ مايو . وخشى كتشنر أن تتعرض هذه المفاوضات الدقيقة للخطر بسبب بعض التعليقات الصحفية السابقة لاوانها ، فقرر ابعاد المراسلين عن المعسكر ، واحاطته بالاسلاك الشائكة والحراس المسلحين .

وبعد مضى ١٥ يوما من المحادثات البطيئة ، كان القلق قد ازداد فى انجلترا ... وفجأة أثارت صحيفة (الديلى ميل) حنق الصحف المنافسة عندما نشرت بيانات محددة عن تقدم المفاوضات ... فكيف أمكن أن تتسرب هذه الانباء ؟... لا أحد يعرف ...

وعندما أذاعت الديلى ميل أنباء عن الصلح المنتظر ، عم السخط البالغ بقية الصحف ، التى كانت لاتزال تنشر مقالات مليئة بتنبؤات غير صحيحة ... وفى اليوم التالى أعلن لورد بلفور نبأ توقيع معاهدة الصلح . وعندئذ ساد الارتياب فى ان تكون الديلى ميل قد حصلت على النبأ عن طريق رشوة بعض موظفى وزارة الحربية !

ولكن القصة الحقيقية لم تكن بمثل هذه الكآبة ... ولا بمثل هذه البساطة ...

فبينما كان بقية المراسلين يتسكعون حول أسوار الاسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر ... كان ادجار والاس يمضي أكثر وقته مسافرا بالقطار الى البلدان المجاورة، وقد ارتسمت على وجهه كل ملامح البراءة وعدم الاهتمام بشيء ..

كان القطار يجتاز منطقة تقع على مرآى من معسكر الصلح ، وقد استطاع ادجار ان يلمح بين الحراس الموجودين هناك صديقا قديما من أيام الجندية يثق فيه ، فاتفق معه على خطة ، وزوده بثلاثة مناديل مختلفة الالوان ، أحدها أحمر ، وهو يعنى أنه لاشيء هناك ، والثاني أزرق ويعنى أن هناك تقدما .. أما الثالث فأبيض ويعنى أن المعاهدة على وشك التوقيع ... وكان الحارس يقضي أوقات راحته كلها فى التسكع على طول الاسوار ، وهو يسعل ويمسح أنفه بمناديله الملونة ... ومن لون المناديل ، كتب ادجار والاس برقياته!

وأصبح ادجار بطلا ومجرما فى وقت واحد ... ولا سيما بالنسبة للورد كتشنر ! — وأسرع بعد ذلك الى كيب تاون ، حيث وضعت زوجته ايفى طفلتها الاولى ... كما كانت هناك أنباء أخرى عظيمة فى انتظاره .. لقد عرضت عليه رياسة تحرير صحيفة جديدة ستصدر فى جوهانسبرج باسم (راند ديلى ميل) بمرتب ٢٠٠٠ جنيه سنويا ، وهو رقم مذهل اذا قورن بمرتبه الشهرى يومئذ ، وهو ٢٨ جنيها .. كما كان المركز الجديد هاما رائعا لشاب مازال فى السابعة والعشرين.

ولكن فى خلال تسعة شهور فقط تهاوى صرح النجاح الذى شاده ، فقد كان رأسه يعج بكثير من المشروعات لانجاح هذه المغامرة الجديدة ، فانفق أموال الصحيفة بسخاء للحصول على مواد مثيرة ، وتعاقد مع عدد كبير من المراسلين فى الخارج بأجور باهظة ... وعاش هو فى رخائه الجديد عيشة ترف فأستأجر دارا كبيرة ، ملأها بالخدم من الوطنيين ... وأقام الحفلات بسخاء بالغ ، وراح يلقى أمواله فى ميادين السباق !..

وعندما اضطر الى مبارحة جنوب أفريقيا بعد معركته الاخيرة مع صاحب الصحيفة ... كان قد أصبح مدينا بمئات الجنيهات للمتاجر

والاصدقاء ...

***

كانت رحلة العودة مثيرة للشجن ... لقد ماتت طفلته بالالتهاب السحائى ، وانغمس هو وايفى فى حزن بالغ ... وكان كل مايمتلكه عندئذ هو ٨٠ جنيها ، فقد أغلبهما على مائدة البوكر ، حتى انهما بلغا بريطانيا وليس معهما غير ستة شلنات ، ونصف مسرحية عن (سيسيل رودس) كانقد شرع فى كتابتها . وقد اضطر الى رهن ساعته الذهبية مقابل ١٢ جنيها ، ونزل مع زوجته فى غرفة مفروشة فى « دولويتش »

وبينما انهمكت ايفى فى فتح الحقائب ، انطلق هو لمقابلة مارلو ، الذى عينه مخبرا فى الديلى ميل بمرتب ١٥ جنيها فى الاسبوع ...

وفى خلال أسابيعه الاولى فىلندن، تلقى زيارة غير متوقعة من امه (بوللى ريتشاردز) .. لقد ماتت ابنتها الوحيدة منذ سنوات ، وأصبحت هى عجوزا فقيرة وحيدة، ومع أنها لم تكن قد رأت ابنها منذ اكثر من عشرين عاما ، فانها لم تتخيل قط مدى المرارة التى تركها موقفها حياله فى أعماق نفسه .. انه لم يستطع أن يغفر لها قلبها المتحجر وتخليها عن مسئوليتها نحوه . . ولهذا قال لها بصراحة انها يجب ألا تتوقع منه شيئا .

وبعد بضعة أشهر ، انهارتقواها وهى تمثل دورا صغيرا مع فرقة جوالة فى رادفورد ، ونقلت الى ملجأ العجزة حيث ماتت وهى معدمة

وأحس ادجار بتأثر عميق لهذه الظروف القاسية التى ماتت فيها أمه ، ولا شك أنه أحس بتأنيب فى ضميره ، ولعله أدرك بعد فوات الاوان . كيف استقبلت أمه خيبة الامل التى واجهتها فى لقائهما الاخير، فأدارت ظهرها للندن ، وذهبت لتعمل بمفردها .. وتموت

وفى خلال الاعوام الكثيرة التى ظل ادجار يعمل فيها فى (الديلىميل) تنقل بين كثير من البلاد ، فسافر الى كندا ، واسبانيا ، والكونجو البلجيكية ، حيث قام بالتحقيق فى الجرائم الوحشية التى أشيع انها ترتكب فى بلاد المطاط ... وعندما سافر الى مراكش ، لم يكن عمر طفله الثانى (بريان) يزيد على شهر واحد .. وفى نفس الوقت ، كانت مسرحيته عن « سيسل رودس » تمثل على أحد مسارح كيب تاون..

وعندما عاد الى لندن بعــد شهر ، علم ان المسرحية لم تستمر أكثر من ست ليال ، فكانت تلك ضربة قاسية له ، فقد كان يعول عليها فى انتشاله من متاعبه الماليــة ، اذ ظل كعادته يعيش فوق مستوى دخله .

وسرعان ماانتقل الى دارمتواضعة فى (لوتنج هيــل) حيث لايعرفه أصحاب المتاجر والديون ، وهنــاك قام بمحاولة أخــرى للحصول على الثروة ... وقد قدر لهذه المحاولة ان تجلب له كثــيرا من المــال ...

فبينمــا كانت ايفى تقــوم بطهى الطعــام ، كان ادجار يجلس أمــام مكتبه ، يهز مهد الطفل بيد ، ويكتب بالاخــرى .. كان يعمل بحماســة لاعداد الكتاب الذى أطلق عليه اسم « أربعة رجال عادلون » . ولمــا لم يكن من اليسير الحصول على ناشر يرضى بهــا ، فقد قــرر أن ينشرها بنفســـه ، وأطلــق على مغامــرته الجديدة اســم « تاليس بريس » . وقرر التوسع فىأعمال الدعاية لكتابه، فنشر اعلانات فى الصحف بمبلغ الف جنيه ، واتفق على اعداد ١٦ لافتة ضخمة توضع فى أنحاء لندن ، كما عرض ٥٠٠ جنيه لمن يذكر الحــل الصحيح للغز القصة

وبعد ثلاثة أشهر من نشرالكتاب، غمــرته ظروف كئيبــة ... فبرغم الكميات الكبيرة التى بيعت من القصة، فان فواتير الاعلانات واللافتات كانت ضخمة ...

كان فى حاجــة الى حــوالى ألفى جنيه لانتشاله من هوة الديون التى غرق فيها ، وبدأت الجائزة التى وعد بها تثير أمامه مشاكل ضخمة ، فقد اشترك فى المســابقة ألوف ، وكان بعض الحلول صــحيحا ... وبــدأ القــراء يرسلون خطــابات غاضبــة يتهمونه فيها بالنصب والاحتيــال ، كمــا انهالت الرسائل على صحيفــة (الديلى ميل) التى رأى صاحبهــا الفريد هارمزورث حرصا على سمعة صحيفتــه أن يدفع لادجــار والاس ألف جنيه من راتبه مقدما لتسوية المسألة ..

وهكذا أمكن انقــاذ الموقف ... وانتشال ادجار من فضيحة محتملة وافلاس مؤكد . وبعد حوالى عام ، تسببت أخبــاره فى رفــع قضيتى قذف على الصحيفة ، فقررصاحبها انه لايستطيع تحمــل ما يسببه قلم ادجار والاس من مشــاكل ... واستغنى عنه !

وهكذا وجد ادجار والاس الارض

تنشق تحت قدميه للمرة الثانية •

وذاع فى كل مكان انه كاتب خطر لايؤمن جانبه •• فأقفلت أبواب الصحف كلها فى وجهـــه ، وراحت الشهور تتوالى دون ان يبدو له بريق من الامل فى الحصول على عمل •• وتراكمت على مكتبه القصص والمقالات المرتدة• وانتابه شبه يأس وخمـول ، وازداد التوتر العصبى بينه وبين زوجته ايفى التى كانت تنتظر طفلا آخر ، فكانت تلجأ دائما الى الدموع ، بينمـا كان يجد فى عصبيتهـا مضايقات جديدة تزيد النفور بينهما تدريجا ••

وفى أواخر عام ١٩٠٩ ، بدأ نجمه مرة أخرى فى الصعود •

كان قد ذهب لمقـــابلة مسز ثورن رئيسة التحـرير فى دار (شورى) لنشر القصص البوليســـية وعرض عليها احدى قصصه نقبلتها ، ثم قدمت له بعض النصـــائح لـكتابة القصص القصيرة •• وبعد بضع ليال ، كانت مسز ثورن تركب الاتوبيس من محطة كوبرى لندن فى طريقها الى القطـار عندما وجدت نفسها الى جـوار ادجار والاس ، الذى كان فى طريقه لحضور اجتماع لجمعية اصلاح الكونغو ، فى فى حى « ايست اند » • وفى خلال حديثهما ، ذكر لها شيئا عن القصص التى سمعها عن بلاد المطاط وهو يذرع الشاطىء الافريقى، فهتفت السيدة :

ـ ماالذى يدعوك اذن للبحث عن موضوعات للقصص •• ولديك فى هـذه القصص كل شىء •• اللون والاثارة والشخصيات المدهشة •• لماذا لاتكتب بعض القصص الافريقية لمجلة « تيل تبلر » الاسبوعية

وأنساه هـــذا الاقتراح الاجتماع الذى كان فى طريقـه اليه ، كمـا نسيت هى لحاقها بالقطار، وسارا معا على رصيف كوبرى لنـدن يذرعانه ذهابا وايابا، وهما يتناقشان ويتجادلان ويضعان الخطط ••

ونالت ســلسلة القصــص التى وضعها ادجار بعـــد ذلك بعنـــوان « ساندرز رجل النهر » نجاحا سريعا وبدأ يدرك انه وجـد معينا لاينضب من القصص •• كان قد كتب مذكرات كثيرة عن الكونغو • فبدأ يعزز خياله بها ، فاذا لم تسعفه الوقائع بمايكفى، عمد الى اختراع غيرها •

وماكاد يشعر بالراحة مرة أخرى، حتى انغمـس فى الحيـــاة بـــين مسارح لندن وملاعبهـا الرياضية ، وهى حياة لم يكن فى استطاعة زوجته الخجول أن تشاركه فيهـا • وبدأت المعجبات فى مطاردته ، فذعرت ايفى

من ذلك ، وخافت على زوجها ،فطلب اليهـا ان ترد بنفسها على المحادثات التليفونية ، لتقول للمطاردات انه ليس فى المنزل •

وبرغم ذلك ، فلم يكن هناك مناص من انه سـيعثر يوما عـلى العطف الذى لم يجـده قط مـع ايفى • وقد وجده فى سيدة تدعى (ديزى) كانت فى أوائل العقد الرابع من عمرها تفيض مرحا ـ بينمـا كانت ايفى شديدة التحفظ ـ ووجد فيها ادجار كل المؤانسة والمعاشرة والروح المليئة بالحيوية التى كانت تفتنه فى النساء• فسقط فى غرامها :

وهكذا بدأت علاقة ظلت عشر سنوات، وكان لها تأثير كبير فى حياته •

وأعادت سلسلة (ساندرز) تأكيد مواهبه كصحفى، فازداد الاقبال عليه للعمل كمخبر صحفى وكاتب للمقالات المسـلسلة • • بل رئيس تحـرير لصحف مختلفة •ولما كانت عودته الى فليت ستريت قد أسعدته ، فقد أخذ يتقلب بين مختلف المراكز الصحفية ، وكان يعمل فى كثير منهـا فى نفس الوقت ، وظل كذلك طوال حياته •

***

عندما نشبت الحرب العالميه الاولى، كان ادجار والاس فى التاسعة والثلاثين ـ اى فوق سن التجنيد ـ ولهذا وجد نفسه ممنوعا من العمل كمراسـل صحفى ، كما ان لورد كتشنر لم يغفر له قط •• وعندما عهدت اليه صحيفة (ديلى بوسـت) التى تصـدر فى برمنجهام كتابة تحليـل يومى لانباء الحرب ، أحس بالسرور • وظل يكتب العمود الذى بدأه فى اليـوم الثانى للحرب ، الى مابعد اعلان الهدنة • • وكان يكتبه بطريقة رائعـة ، وتلقى المئات من رسائل القراء الذين كانوا يمتدحون شجاعته فى الرأى •

وعندما تطـوع سكرتيره البارع روبرت كيرتيس فى الجنـدية ، أعلن ادجار والاس عن حاجته الى فتاة للعمل على الآلة الكاتبة ، فجاءت اليه فتاة ذات عينين رماديتين ،وبشرة مليئـة بالنمش فى الثامنة عشرة من عمرها، وقدمت نفسها له باسم مس فيوليت كنج •

كانت فيوليت خجـولا عصبية ، تحـاول ان تبدو أكبر من سنها •• وقد ظل يحادثها مدى ساعتين عن كل شىء عدا الاجر والعمل •• وبعد ان أعجبته ، طلب اليها الحضور لتسلم عملها فى صباح اليوم التالى••وبذلك بدأت علاقة جديدة حيوية فى حياته، قدر لصاحبتهـا ان تصـبح الزوجة

الثانية لادجار والاس ، وان تطـرد زوجته الاولى ، وتهزم عشيقته ديزى التى تكبرها سنا وخبرة !

وفى خلال سـنوات الحرب ، كان زواجه الذى مضى عليـه ١٤ عاما قد بلغ مرحلةرفع فيها القناع عنالاوهام فقد فشلت ايفى بطبيعتها الوادعة ان تشبع حاجات روحه التى تفوقها قوة، اذ كانت شهيته متفتحة للحياة ، وقد أجبره عمله على الابتعاد عنها وامتص كل طاقاته ، وذهب به الى أوساط لاتفهمها ايفى ، التى قررت فى النهاية ان تلقى سلاحها فى هذا الصراع غير المتكافىء ..

وفى عام ١٩١٧ ، اعترفت لادجار بأنها تريد حريتها ..

وبدأت اجراءات الطلاق ..وتم فى يونيو سنة ١٩١٩

وبعد بضعة شهور ، تزوج ادجار والاس من فيوليت كنج ،وقد حرص على ان يحيـط نبأ زواجـه الجـديد بالكتمان قدر المستطاع،فقد كان يفزع من المشاهد العاطفية التى لايرسمها قلمه ، ولهذا تردد فى ازجاء النبأ الى ديزى قبل الزواج .

وكانت الاعوام الخامسـة التالية لزواجه من (جيم) ــ كما كان يدلل فيوليت ــ هى ولاشك أسعد سنوات حياته ، فقد كان يعيش فى سـلام عاطفى وعقلى .. كما كان يربحالكثير من المال .

ومن العجيب انه حتى ذلك الحين، كان ادجار قد تصرف فى كل حقوق كتبه ، وقد بلغت عندئذ ٢٨ قصة ــ فقد كان يبيع الواحدة منهـا بمبلغ يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ جنيها دون أن يفكر فى الاحتفاظ بحـق التأليف . وكان سير ارنسـت هودر مدير دار (هودر وستوتون) للنشر هـو أول من منحه هذا الحق مع عقـد بشراء ست قصص .

ولاريب ان هذا الانتاج المتدفق ــ الذى بلغ فى ٢٧ عاما ــ أكثر من ١٥٠ عملا مستقلا ، يعتبر ظاهرةمن الصعب تفسيرها فقد كان ادجار يبدو فى أغلب الاحيان كسولا خاملا ، وكان شخصية مألوفة فىكل ميادينالسباق والمسارح ، وكان أصدقاؤه يتندرون على كسله ، حتى انهكانيركبسيارة أجرة لمسافة ١٠٠ متر فقط ..وبرغم ذلك فقد كانت الافكار تتدفق عـلى عقله الباطن دون جهد ،وكانيستطيع أنيهيىء نفسهللعمل بتركيز عنيف ، عندما تضطره الضرورة الملحة لذلك .

وعندما زاد انتاجه زيادة هائلة ، قال الساخرون انهذه الاعمال ليست

كلها من انتاجه ، وزعموا ان سكرتيره يكتب نصفها ، او انه يستخدم كتابا مستعارين يضع اسمه على مؤلفاتهم •

وقال آخرون ان هناك منظمة أدبية ضخمة تضع اسمه على انتاجها •• وقد ظلت هذه الشائعات تثير حنقه وضيقه حتى انه أعلن عن جائزة قدرها ٥٠٠٠ جنيه لكل من يستطيع ان يثبت ان كلمة واحدة مما ظهر باسمه كتبها شخص سواه •

ومع ذلك ، فقد ظلت الشائعات تطارده حتى نهاية حياته •• وبعد موته !

ومع ان قصصه التى كان يمليها بسرعة بالغة كانت تتضمن اخطاء فى الوقائع او النحو ، فان حبكتها القصصية الدقيقة كانت تنفذ الى أعماق القارىء ، فتجعله متلهفا لمعرفة ماسوف يقع بعد ذلك ، وتفقده كل اتصال بالواقع ، هائما فى طريق مخيف متشعب المسالك ، فى عالم من الجرائم التى تجعل شعر الرأس يقف هولا •

وقد ظل ادجار سنوات طويلة يكتب فى عناد كثيرا من المسرحيات ويرسلها الى كل مديرى المسارح فى أنحاء لندن ، وأنتج احداها بنفسه ، فلقيت فشلا ذريعا •• ولكنه فى النهاية استطاع ان يكتب مسرحية محبوكة الاطراف باسم « الرجل الشهير وقدمت على مسرح ويندهام فى اول مايو ١٩٢٦ ، فحققت الامل الذى ظل يراوده طوال حياته •

وفى خلال السنوات الست التالية ، ألف أكثر من ١٧ مسرحية أخرى ، نجح اكثر من نصفها ، وكانت هناك ثلاث مسرحيات فى بعض الاحيان تمثل له فى وقت واحد •

***

كان ادجار مفتونا دائما بالمجرمين ، ويشعر عند اتصاله بهم كما يشعر التلميذ الصغير أمام أستاذه • وقد حدث ان فتح مكتبا للمراهنة على الخيل بالاشتراك مع شخصية معروفة فى ميادين السباق يدعى صاحبها « رينجر بارى » ، وفى خلال الشهور الستة التى بقيتها شركتهما ، التقى بكثير من اللصوص والمجرمين • ولكن أمله خاب فى غبائهم ودناءتهم ، بينما كانوا هم ينظرون اليه كمصدر لا ينضب من المال •• ولكنه لم يفقد الامل فى انه سيلتقى يوما بلص أحلامه !

وعندما قام ادجار والاس برحلته الاولى لامريكا فى عام ١٩٢٩ ، كانت حرب العصابات فى ذروتها يومئذ ، وقد دفعته رغبته الى أن يرى عالم الجريمة السفلى الذى كان أكثر عنفا

وروعة من كل ماورد في قصصه ، فطار الى شيكاغو،حيث صحبه ضابط بوليس شاب فيجولة رأىخلالها مقر قيادة (آل كابوني) في فندق صغير، وحانوت الزهور الذي قتل فيه المجرم الشهير (ديون أوبانيون) وحظيرة السيارات التي كانت مسرحا لمذبحة عيد سان فالنتين ، وضاحية شيشرون في شيكاغو ، حيث مقر عصابة آل كابوني •

وأمضى ادجار والاس خمسة أيام من رحلة العودة في ذلك الخمول الذي يعني دائما أن عقله مشغول في الخلق والابتداع ، وعندما وصل الى لندن ، قال لسكرتيره ان لديه مسرحية جديدة كاملة في رأسه بكل تفاصيلها ، وشرع في العمل فورا في مسرحيته العنيفة التي أطلق عليها اسم « في المكان نفسه » وراح يملي حوادثها دون توقف ، وبعد أربعة أيام ، كانت المسرحية قد انتهت ، واعتكف ادجار في فراشه ليستريح من هذا النشاط الذهني غير العادي •

كانت تلك ولا شك أبدع مسرحية لادجار والاس ، بل لعلها أفضل ميلودراما في عصرنا هذا • وزادت سرعة ادجار في الكتابة خلال الاعوام الاخيرة بصورة أثارت حيرة حتى أقرب الاصدقاء اليه •

وكان ادجار والاس يضع خطوط قصصه الجديدة بالجملة ، كل ست أو سبع قصص مرة واحدة • هذا فضلا عن انتاجه الصحفي الغزير في سنواته الاخيرة ، فقد كان رؤساء التحرير جميعا يسعون للحصول على مقالاته بلهفة ، وكان هو مستعدا للكتابة في أي موضوع من الموضوعات •

وفي الوقت الذي ارتفع فيه دخله الى رقم خيالي ، أصبح كل شيء في حياته فاخرا قدر المستطاع • كان يحتفظ بدارين فاخرتين ، ومسكن خاص للعمل ، ولديه ٢٠ خادما ، وكانت مآدبه تضم في كثير من الاحيان أكثر من ٢٠٠ ضيف ، ويستأجر لها مطعما بأكمله • كما كان مولعا بالمراهنة على الخيل ، وكان يراهن في اليوم بمائة جنيه أحيانا ؛

وفي خلال العامين الاخيرين من عمله المضني ، باتت صحته في حال لا ترضي ، فأصبح سريع الاستثارة ، كثير الملل والقلق • لقد أنفق أكثر من ٤٠ عاما في العمل دون كلل ، والآن بلغ مرحلة بدأت فيها شعلة عبقريته تهتز •• تلك الشعلة التي لم يسمح لها قط أنتحترق بانتظام وفي سلام، بل كان يسرف في اشعالها ، في

طيش وتبذير بدافع من طموحه .
وكانت مسائله المالية مضطربة دائما ، حتى أنه فى عام ١٩٣١ أصبح مدينا لضرائب الدخل فقط بمائة وعشرين الف جنيه .

وعندما تلقى دعوة من هوليوود ، قرر أن يذهب ، ليستكشف ذلك المنجم الذهبى الجديد .

ولما اقترب وقت الرحيل ، أحس بانقباض فى نفسه .. وكان يعمل بحماسة لاتمام مسرحيته الجديدة لمسرح ويندهام ، وقد رفض أن يعرض نفسه على الطبيب قبل السفر كما طلبت زوجته .

وفى نوفمبر ١٩٣١ رحل على الباخرة (امبريس أوف بريتن) مع سكرتيره الكفء بوب كيرتيس ، وخادم خاص ، بينما بقيت زوجته فى انجلترا مع طفلهما الوحيد « بنيلوب » الذى كان يعانى مرضا خطيرا .

وأمضى ادجار والاس شهرين فى هوليوود وحيدا ، وبرغم ماشاهده فيها من مرح ومناظر مختلفة ، فقد كان يتطلع الى يوم العودة الى انجلترا ، ولكن عندما حل هذا اليوم ، قرر أن يبقى شهرين آخرين ، ووقع عقدا لاخراج بعض قصصه فى السينما فى اليوم الاخير من يناير .

وكان قد تقرر أن يفتتح مسرح ويندهام مسرحيته الجديدة (الحزمة الخضراء) يوم ٩ فبراير ، واتفق ادجار على أن يوجه كلمة للحاضرين تذاع باللاسلكى من هوليوود .. ولكن فى الليلة الاولى للمسرحية ، أذيع ان ادجار والاس أصيب بالتهاب رئوى حاد ، ومضاعفات بسبب مرض السكر

وفى اليوم التالى ، بينما كانت زوجته فى طريقها الى ميناء سوثمبتاون لتلحق به فى أمريكا ، كان هو قد انخرط فى غيبوبة تامة ، لم تتخللها غير فترات قصيرة من الوعى .. حتى أسلم أنفاسه الاخيرة وهو نائم دون أن يشعر أحد ممن حوله بموته !

وعاد جثمان ادجار والاس الى بريطانيا ملفوفا فى العلم البريطانى على ظهر السفينة « برنجاريا » .. وعندما اقتربت السفينة من ميناء سوثمبتاون ، نكست علمها ، كما نكست كل سفن الميناء أعلامها تحية للعبقرى الراحل .. الذى استقر أخيرا فى أرض الوطن .

***

سمعت احدى السيدات تقول لصديقتها :
ـ لاشك أنني سعيدة جدا لانني استطعت ان أربى أطفالى قبل أن يظهر ذلك الشىء الذى يسمونه « مراهقة » !

كتاب الشهر

كاسترو

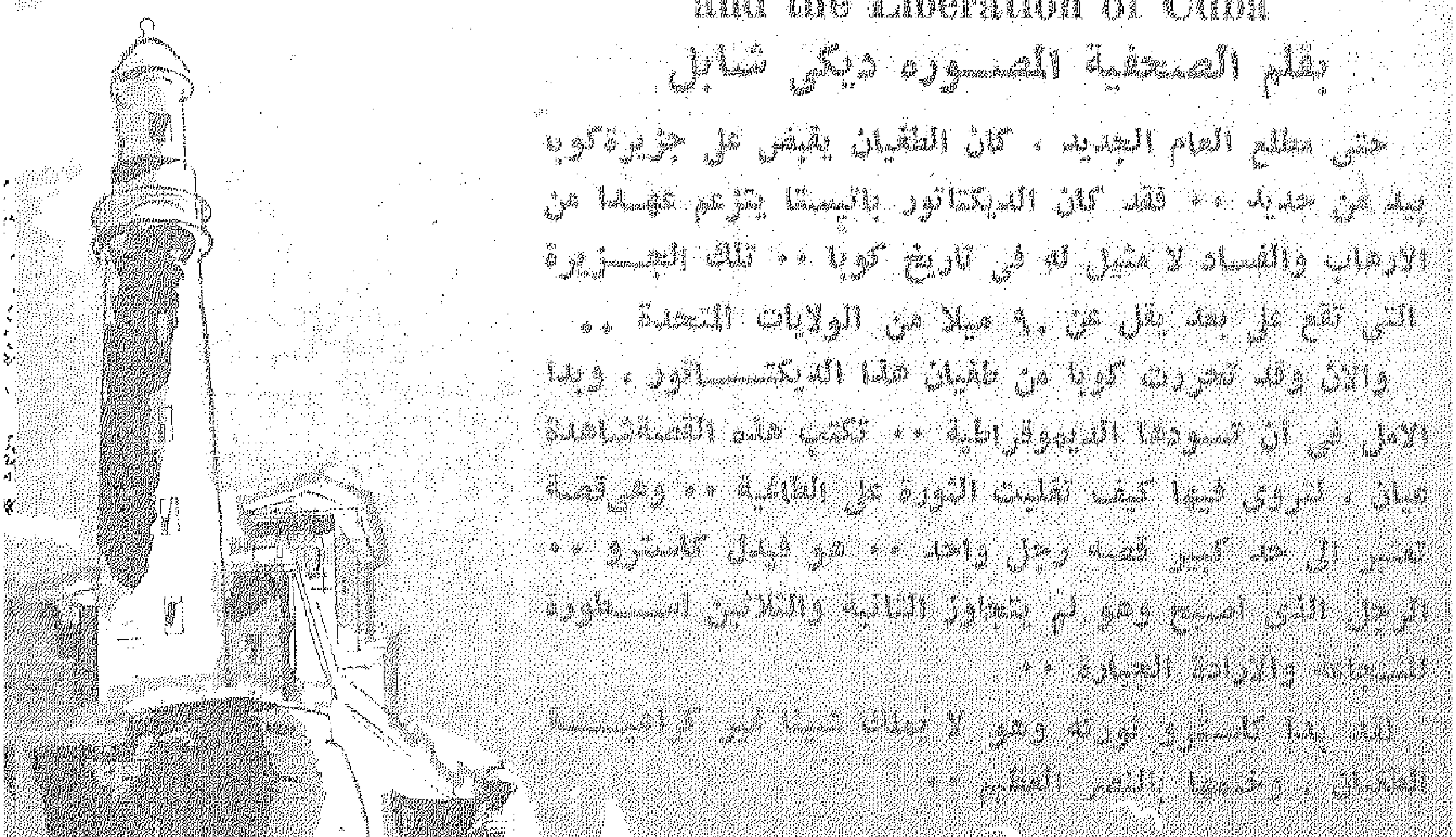
الشاب الذي يحكم كوبا الآن ..

من كتاب
The Story of Fidel Castro and the Liberation of Cuba
بقلم الصحفية المصورة ديكي شابل

حتى مطلع العام الجديد ، كان الطغيان يقبض على جزيرة كوبا من جديد .. فقد كان الديكتاتور باتيستا يتزعم عهدا من الارهاب والفساد لا مثيل له في تاريخ كوبا .. تلك الجزيرة التي تقع على بعد يقل عن ٩٠ ميلا من الولايات المتحدة ..

والآن وقد تحررت كوبا من طغيان هذا الديكتاتور ، وبدا الامل في ان تسودها الديموقراطية .. تكتب هذه القصة شاهدة عيان ، لتروي فيها كيف تغلبت الثورة على الطاغية .. وهي قصة تعتبر الى حد كبير قصة رجل واحد .. هو فيدل كاسترو .. الرجل الذي اصبح وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين اسطورة للبسالة والارادة الجبارة ..

لقد بدأ كاسترو ثورته وهو لا يملك شيئا غير كراهيته للطغيان ، وختمها بالنصر العظيم ..



كاسترو الشاب الذى يحكم كوبا الآن

كان فرار رجل كوبا القوى الرئيس فولجنسيو باتيستا يوم بزوغ فجر العام الجديد مثار دهشة بالغة لدى كثيرين من أصحاب الرؤوس الحكيمة فى أنحاء العالم ، فقد كانت الاحتمالات كلها تجمع على عكس ما حدث . لقد كان معروفا حقا أن بوليس باتيستا قد اصطدم بزعيم ثائر كث اللحية يدعى فيدل كاسترو ، يقود عصبة من الساخطين ، ويشن غاراته فى اقليم « أورينت » على بعد مئات من الاميال شرقى هافانا ... ولكن باتيستا كان يستخدم قوة عسكرية حديثة ، ويمتلك طائرات ودبابات أمريكية الصنع .. فكيف استطاعت هذه الشرذمة أن تتغلب عليه ؟

ان المكان الوحيد على ظهر الارض الذى لم يشعر بالصدمة التى أحس بها الآخرون ، هو كوبا نفسها ... فقد كان الشعب هناك يعرف ما لم يستطع العالم أن يعرفه .. كان يعرف ان هناك حقدا كامنا فى أعماق القلوب حيال باتيستا ، وأن هناك حربا دموية جارفة تدور رحاها عبر الجزيرة التى يمتد طولها حوالى ٧٠٠ ميل ، منذ شهور كثيرة ... كانوا يعرفون ذلك لانهم يشعرون بهذا الحقد ، ويقاتلون تلك الحرب ...

ان عشرة آلاف رجل وامرأة كانوا يرتدون الثوب الاخضر الرث الذى كان شعار الثوار ، بينما انتظم عشرة أضعاف هذا العدد فى مقاومة سرية جريئة ، تجمع بين الاثرياء ذوى الثروات الضخمة ، والفقراء المدقعين ... بين المزارعين والكتبة ، بين أساتذة الجامعات ، وأناس لا يعرفون كيف يقرأون أو يكتبون حتى أسماءهم ... بين الضباط القدماء والمجندين الجدد ، كما كانت شبكة المقاومة السرية تضم أيضا الوطنيين فى المنفى ، والعاطفين على الحركة فى ميامى ونيويورك ، وكثير من عواصم أمريكا اللاتينية .

لقد جمعت حركة كاسترو مبالغ ضخمة من المال ، وجندت رجالا مقاتلين وزودتهم بالعتاد والسلاح ، واشترت وهربت ، بل وصنعت الاسلحة ... وأعانت الارامل واليتامى من ضحايا الحرب ، واهتمت

بالجرحى ... ومع كل هذا ، فقد كان هناك شيء واحد لم تفعله ... ذلك الشيء ، هو الفوز بمساحات كبيرة فى صحافة العالم .

لم تتعرض مهنة من المهن للظلم والجور فى كوبا كما تعرضت الصحافة . لقد قضى باتيستا على مهنة الصحفى فى بلاده ، وجعل من أشلائها حلفاء له .. وكان لمحطات الاذاعة المتعددة فى كوبا موجات ذت أطوال تشوش على المحطات الامريكية وتشوه اذاعاتها .



لقد اعتقل بوليس باتيستا اكثر من ١٢ مراسلا أجنبيا كانوا فى الطريق الى المناطق التى يسيطر عليها الثوار ، وطردهم من البلاد بلا مال ولا طعام .. ان المعركة الوحيدة التى ظل رجل كوبا القوى يكسبها حتى اللحظة الاخيرة هى حرب الكلمات . لقد ظلت البرقيات الكاذبة تدق لتنقل الوصف الرسمى لانتصار قوات باتيستا فى مدينة سانتا كلارا .. التى تقع فى منتصف الطريق بين أورينت وهافانا . فى الوقت الذى كان فيه باتيستا يصعد سلم الطائرة التى فر بها ، لان معركة سانتا كلارا كانت قد فقدت الى غير رجعة ..

***

فى خلال الاسابيع الاخيرة من عام ١٩٥٨ ، استطعت أن أرقب بنفسى قوات كاسترو وهى تتحول الى جيش عامل ، ففى اليوم الاخير من نوفمبر ، قادتنى فتاة ذات وجه جذاب تطلق على نفسها اسم (بيتى) الى الاراضى التى يقيم فيها كاسترو ، والتى تقع على مسيرة خمس دقائق بالسيارة الجيب خارج سانتيا جو دى كوبا ، ثانى مدينة كبيرة فى البلاد

وكانت آخر هدية قدمها لى جماعة من شباب كاسترو ، خريطة تبين بعناية الموقف الحربى فى الاقاليم الخمسة الاخرى فى كوبا . كانت العلامات التى رسموها على الخريطة تبين تسعة طوابير متقدمة من قوات

النوار ، بمواقعها وعـدد رجالهـا وأسلحتها ، واسم الضابط الذى يقود كلا منها .. وقد وقفت مذهولة من هذه الصراحة ، وقلت لهم :

ـ ولكن ماذا يحدث اذا صودرت هذه الخريطة منى وأنا أحاول ركوب الطائرة فى هافانا الى أمريكا .

فأجابنى أحدهم وهو شاب طويل القامة وهو يلوح ببندقيته الامريكية التى غنمها من قوات باتيستا :

ـ لاتهتمى .. ان العـدو يعرف ماذا نفعل الآن . انهم لن يستطيعوا وقفنا ..

***

ليس فى العالم كله مكان تكشف فيه الطبيعة عن وجهها بصورة أكثر رقة مما تفعل فى كوبا ، فهناك ترتفع عيـدان القصب الى علو قيـاسى ، وتزدهر الورود فى كل مكان طوال السـنة ، بينمـا تهطل الامطـار الاستوائية سريعة دافئة ، وترسـل الشمس أشعتها لتشمل الجـزيرة كلها .. وفى باطن الارض الغنيـة ، يكمن الكثير من خام المنجنيز وعروق النيكل والنحاس العميقة ... وتقع كوبا على بعد ساعة واحدة بالطائرة من ميامى ، ويحيط بها شاطىء رملى ابيض ينحدر نحو مياه البحر الزرقاء.

لقـد ظل الظـلم والثورة أمرين لا ينقطعان فى كوبا فى خـلال نصف القرن الاخير الذى تلا انتزاع استقلالها من براثن الاحتلال الاسبانى ، وفى أواخر العقد الثانى وأوائل العقـد الثالث من القرن الحالى ، كان الظالم هو جيراردو ماكادو الديكتاتور القاسى الذى لا يرحم ، وعندما أسقطه طلبـة كوبا بعد ثورة دمويه استمرت بضعة أيام ، تقدم لسد الفراغ بسرعة صف جنـدى شاب شديد المراس ، هـو الجـاويش فولجنسيو باتيستا الذى راح يشق طريقه بسرعة ، حتى أصبح كولونيلا ، ثم جنرالا ... فرئيسـا لكوبا !

وظل باتيستا يسيطر على مقادير كوبا السـياسـية حـوالى ٢٠ عاما ، ولم يكن رجـلا بلا مثـل عليا ، ومن ثم فقد أدخل صورا من الديموقراطية الى كوبا ، وسرعان ما أصبح لها دستور متحرر مكتوب ، وانتخابات عامة منتظمة ، وتعليم عام .. ولكن حكومة الشعب كانت بالاسم فقط ، فقد كانت قبضـة باتيستا المسيطرة على الجيش هى صاحبـة القول الفصل فى كل أزمة .. وعندما خشى نتيجـة الانتخابات التى كانت ستجرى فى عام ١٩٥٢ ، أسـفر

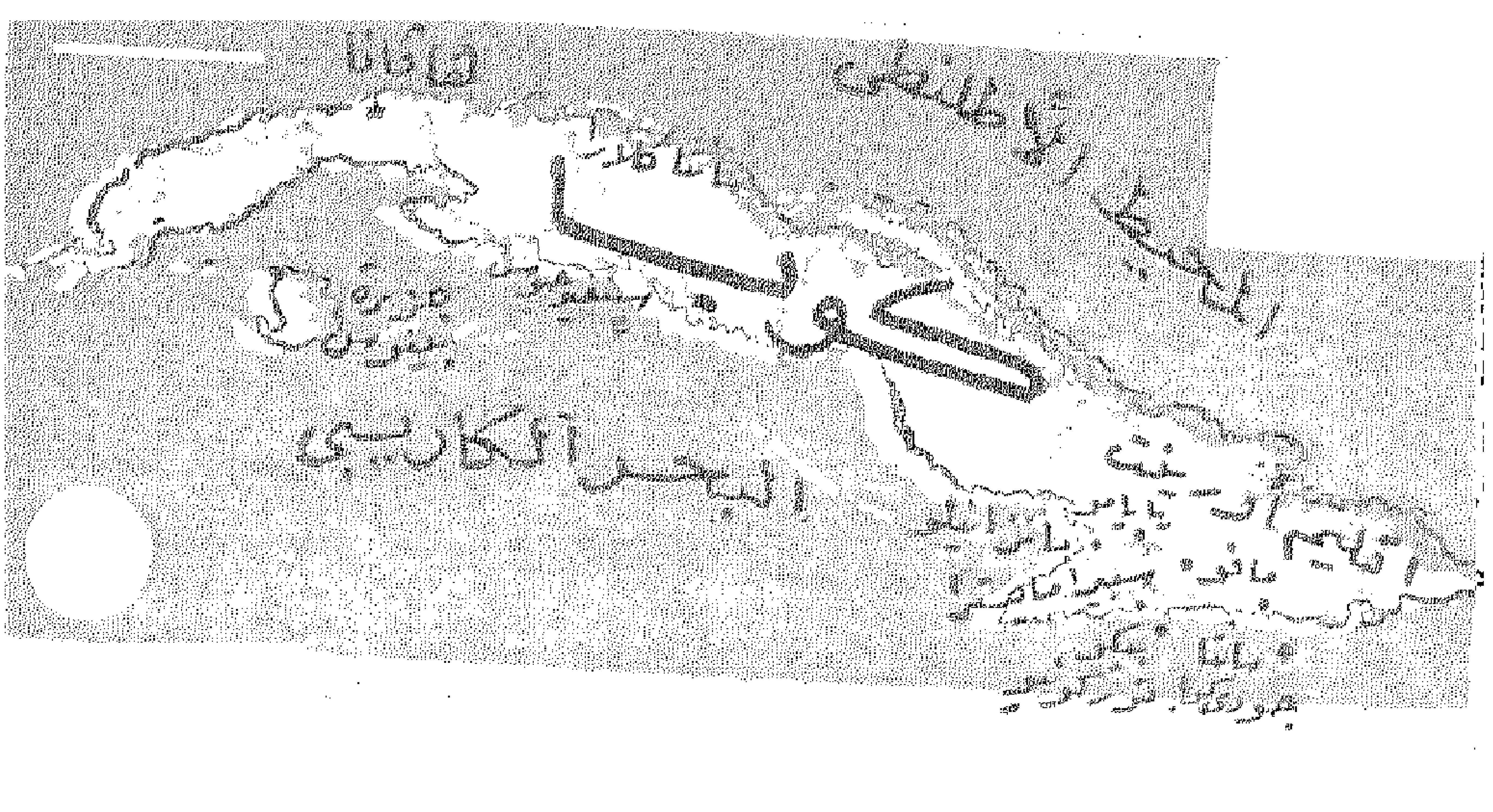
الرجل عن حقيقته ، وألغى الانتخابات وأعلن سلطاته المطلقة .

كان باتيستا يقوم بدور الديكتاتور الطيب فى أول الامر ، فجعل القطارات تصل فى مواعيدها كما عمل موسوليني .. وأخلى شوارع المدن الكبرى من القاذورات والمتسـولين ، وحد من جشـع أصحاب الفنادق وسائقى سيارات الاجرة وغيرهم ممن يتصلون بالسائحين اتصالا مباشرا ، وشرع فى تنفيذ برنامج للانشاءات يعد أجرأ برنامج من نوعه فى كل أمريكا اللاتينية ويتضـمن انشاء الطرق الـكبرى والانفاق والابنيـة الحكومية ، ودور السكنى ، والمستشـفيات وملاجيء الايتام .. الخ .

كل هذه الاعمال غيرت وجه مدن كوبا ، ولا سيما عاصمتها « هافانا »

.. ولكن كان هنـاك أكثر من ثلثى الشعب يعيشـون فى المدن الصغيرة ، أو يقيمون الى جـوار مزارع البن وقصب السكر ، ولهذا لم يصل انفاق المـال أو الاسمنت الى أكواخهم التى تفترش الارض ، وظلوا يأكلون أقل مما تتلهف اليـه بطونهم ، وبقيت طرقهم مليئة بالحفر والمستنقعات ، ومدارسهم رديئة البناء أو فى حاجة الى الاصلاح ، والمستشفيات مجرد وعود على الورق .

وسرعان ما اقتنـع الجميـع بأن ٢٥ جنيها على الاقل من كل مائة جنيه تنفـق على حركة البناء النشطة ، كانت تدخـل الجيب الخـاص لاحـد اتباع باتيستا . لقد كدس الديكتاتور لنفسه ثروة تقدر بحوالى ٣٠٠ مليون دولار ، بل ان وزيرا للمالية فى عهده



أصبح مليونيرا بعد أسابيع من تولى منصبه ، مع أنه كان غارقا فى الديون قبل تعيينه .

وبينما كانت الحكومة تسرق الشعب كان المئات من اتباعها يصنعون ثروات ضخمة ، وكان أحدهم — وهو السناتور رولاند ماسفير — يحتفظ لنفسه بجيش خاص يضم أكثر من الف رجل .. !

وشاد باتيستا هيئة للبوليس السرى حول امبراطورية الفساد التى اقامها ، واطلق على هذه الهيئة اسم «ادارة المخابرات العسكرية» وسرعان ما أصبحت سياراتها ذات اللون الزيتونى المجهزة باللاسلكى رمزا على الارهاب ، بعد أن برزت مدافعها الرشاشة بصورة ظاهرة من مقاعدها الخلفية .. وقيل أنه كان فى كل مركز للبوليس بالمدن الكبرى غرفة خاصة للتعذيب . وبعد فرار باتيستا ، زرت اثنين منها .. فأصابتنى نوبة تشنج .

وأصبح أهل كوبا يؤمنون بأن الشخص الذى تعتقله ادارة المخابرات لن يظهر مرة اخرى على قيد الحياة .. كانت الجثث المشوهة للأزواج والابناء الصغار يعثر عليها فى القنوات

ويقول الثوار أن اكبر مجرمى عصر باتيستا شراسة ، هو الكولونيل « استبان فنتورا » الذى يتهمونه بانه كان ملك الدعارة وتهريب المخدرات .. وفى أواخر عام ١٩٥٨ وجد الدكتور فرانشسكو ألاباوتريللز — وهو قاض يمنحه الدستور سلطة الادانة — تهمة التعذيب والوحشية الى فنتورا ودعمها بأدلة مقنعة ، حتى أن باتيستا نفسه لم يستطع أن يفعل شيئا .. وعندئذ انقذ الديكتاتور صنيعته بوقف الضمانات الدستورية لكل اهالى كوبا ..

وفوق مكتبى الآن وثيقتان تتضمنان تصريحين عليهما توقيعات صاحبيهما تثبتان الارهاب :

وأولى الوثيقتين من مدرسة فى الخمسين من عمرها وأم لثلاثة أطفال كان بوليس هافانا قد ظن أنها تعرف مخابىء أسلحة الثوار ، فاعتقلها فى منتصف الليل ، وفى قسم البوليس الثانى عشر بهافانا ، قاموا بضربها بحديد ساخن يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٨ ومرفق بالوثيقة شهادة طبية تؤيد أقوال صاحبتها ..

أما الوثيقة الاخرى ، فهى من « جوزيه فيرار » الذى يمتلك اكبر مصانع الأسمنت فى كوبا ، ويقول فيها أنه كان بين المستخدمات عنده

شقيقتان تقطنان معا فى مسكن بضواحى هافانا . وحدث ذات مساء يوم أحد أن عادتا الى مسكنهما بعد زيارة لبيت ابيهما فى الريف خلال عطلة الاسبوع . وقد شوهد رجلان من البوليس يحملان بنادق اتوماتيكية وهما يقتفيان اثرهما . وفى الصباح التالى لم تحضر الفتاتان الى عملهما فأرسل مديرهما مبعوثا الى مسكنهما للسؤال عنهما . .

وبعد قليل اتصل المبعوث بالمدير وقال له : انه وجد الفتاتين قتيلتين برصاص البوليس .. وأن احداهما تعرضت لجريمة اغتصاب ..

وفى أثناء تشييع الجنازة ، اقترب أحد ياوران باتيستا فى ثيابه الزاهية من جوزيه فيرار وقال له : « لقد طلب منى الرئيس باتيستا أن أبلغك اعتذاراته الخاصة .. اذ وقعت غلطة فظيعة ، لان البوليس لم يكن يبحث عن هاتين الفتاتين ، بل كان يبحث عن أشخاص يقطنون فى المسكن المواجه لمسكنهما .

أن سرطان الارهاب لم يترك اية طبقة من أهالى كوبا .. وعندما تبين أن جامعة هافانا أصبحت تربة خصبة لاعداء باتيستا ، اغلقت على الفور . وراحت كل جامعات كوبا ومدارسها تغلق أبوابها واحدة وراء الاخرى ، بعد ان اختفى اعضاء هيئة التدريس فى قائمة الشهداء أو المنفيين .. أو انضموا الى قوات الثوار ..

وفى أواخر عام ١٩٥٧ ، أصبحت شبكة المقاومة المدنية الكبرى ضد باتيستا تضم بين صفوفها أصحاب الاعمال الساخطين ، والاطباء الغاضبين والمدرسين الحانقين ..

لقد ظل كاسترو فترة طويلة بعيدا عن هافانا ، وكانت الانباء الاولى عن كفاحه الشخصى تنبىء عن كارثة لا مناص منها ، اذ أن فيدل كاسترو ، الرجل الذى انتصر فى النهاية بهذه الصورة العجيبة لم يهزم مرة واحدة فقط ... بل خسر مرة بعد أخرى ،

ولد فيدل كاسترو ــ الذى يبلغ الثانية والثلاثين من عمره الآن ــ فى أسرة تنعم بالراحة والدعة . كان والده يمتلك مزرعة لقصب السكر تقع فى قلب اقليم « أورينت » ، وعلى عكس أغلب جيرانه ، عرف انجلو ــ والد كاسترو ــ كيف يكون حال الانسان عندما يكون مهاجرا لا يملك شيئا ، عاطلا لا يجد عملا الا خلال شهور قلائل من السنة لحصد محصول القصب ... وقد استطاع أن ينتزع من أرض الغابة بضعة حقول

جديدة .

وعندما بلغ فيدل الثالثة عشرة ، مارس الرياضة المحببة فى كوبا ، رياضة تربية الديوك المقاتلة ، ولكن مشروعه انتهى بالفشل ، اذ لكى تجعل الديك يقاتل ، لابد لك ان تقلل غذاءه وتجعله هزيلا ، وهذا ما لم يفعله كاسترو ، ولهذا كانت ديوكه السمينة تقع صرعى بمجرد دخولها المعركة .

ولم ينس فيدل قط هذا الدرس ... وهو ان النحيل الجائع يتغلب على السمين المتخم !

وتلقى فيدل دروسه الاولى على أيدى الآباء اليسوعيين ، الذين أستطاعوا ان يحولوا بعض طاقته الملتهبة الى اقبال عظيم على قراءة كتب التاريخ ، والتحق بعد ذلك بالمدرسة فى هافانا ، وفى عام ١٩٤٧ دخل جامعة هافانا ، حيث اشترك مع فريق من زملائه الطلبة فى بعثة حاولت ان تقلب ديكتاتور جمهورية دومنيكا ، رافائيل تروبيللو ، ولكن الجماعة لم تكد تقلع بسفينتها ، حتى وقعت بين أيدى أسطول كوبا ... واستطاع كاسترو انيتسلل منفوق السفينة ، وبلغ الساحل بعد أنسبح ثلاثة أميال

وتخرج كاسترو فى الجامعة فى عام ١٩٥٠ وقد حصل على ثلاث درجات جامعية ، احداها فى القانون والثانية دكتوراه فى العلوم الاجتماعية ، والثالثة دكتوراه فى العلاقات الدولية .. وقد اشتهر بين زملائه فى الدراسة بروح الزعامة الآمرة ، وخطبه القوية ، وعنايته الشديدة برياضة جسمه وتكوينه .

لم تكن به حاجة للعمل كمحام ليكسب عيشه .. ولكن المظالمالتى كانت ترتكب ضد البشر دائما ، كانت تستفزه لتقديم التماسات ساخطة الى القضاء ،وكانت الاهداف التى اختارها ، ادارة حكومية تغش المزارعين فى ارضهم ، ومالكيفترس ضحاياهمنصغار المستاجرين الفقراء وعندما كسب قضاياه ضدهما ، رشحه الحزب الارثوذكسى المعارض لباتيستا لعضويةالبرلمان فىانتخابات ١٩٥٢ .

ولكن لم يقدر لهذه الانتخابات ان تجرى ، وحل بدلا منها الانقلاب الدستورى الذى قام به باتيستا .. وثار غضبفيدل كاسترو ، وعاد الى اقليم (اورينت) حيث جمع حوله فريقا من الشباب المثالى الذى يكره باتيستا وكل مايفعله .. واشتركوا معه فى تدبير ثورة متهورة ، واهية

التدبير .. وان كانت تتضمن عنصر الجرأة الذى كان طالع كل أعمال كاسترو .

كان حصن « مونكادا » هو المركز الحصين لباتيستا فى بلدة سانتاجو دى كوبا ، وهذا الحصن عبارة عن مجموعة من المبانى يحيط بها سور من الاسمنت المسلح ، ويسيطر عليه بناءان هما مستشفى المدينة ومبنى الحكومة .

وفى ٢٦ يوليو ١٩٥٣ ، بينما كانت البلدة تحتفل بمهرجان محلى مرح ، قاد فيدل كاسترو ١٦٥ من الثوار المسلحين ببنادق الصيد ، فى هجوم جرىء على الحصن . . .

وسرعان ماسقط المستشفى ومبنى الحكومة فى ايديهم ، واستطاع ٩٥ من المهاجرين ان يقتحموا احدى البوابات ، ولكن جنود الحامية لم يكونوا جميعا يحتفلون بالمهرجان كما قدر كاسترو .. ولهذا فقد انهالت النيران على قوته الرئيسية قبل ان تتمكن من العثور على المخازن التى كانت تعتزم تسليح نفسها منها ببنادق عسكرية .

وصمدت فرقتان انتحاريتان فى المبانى الجانبية حتى تغطيا انسحاب اكثر الرجال الذين فروا بالسيارات ..

ثم ارتكب جنود باتيستا عملين مريرين ، رسما مستقبل فيدل ومصير كوبا كلها ...

كان اول العملين ، اعتقال وتعذيب اخ واخت هما آبل وهايدى سانتاماريا ، وكانا قد ظلا فى المؤخرة مع الشرذمة التى تغطى الانسحاب ، وقام جنود باتيستا بانتزاع عين الشاب آبل أمام أخته ، ثم قطعوا جزءاً حساسا من جسمه .. وأخيراً قتلوه . !

اما هايدى فقد افلتت من الموت ، لتصبح ذات مركز كبير بين الثوار ، وهى اليوم من ارفع نساء كوبا شأنا .

اما العمل الثانى ، فهو الغدر بمجموعة كبيرة من الثوار الفارين ، كانت قد تفرقت فى المناطق الريفية المجاورة فى جماعات صغيرة . فقد ابلغهم اسقف سانتياجو بحسن نية ، وعدا من الحاكم العسكرى للمدينة بمحاكمتهم محاكمة عادلة . ولكنهم عندما استسلموا ، امر الحاكم بقتلهم جميعا بنيران المدافع الرشاشة

وسقط ٤٠ منهم صرعى بنيران المدافع .. التى أخطأت فيدل وشقيقه الاصغر راؤول ، وعندما تقدم احد الضباط ومسدسه فى يده

ليقتل كاسترو ـ الذى كان قد ألقى بنفسه على الارض ، صاح الثائر فى صوت حازم :

ـ يمكنك أن تقتلنى .. ولكنك لن تستطيع ان تقتل الفكرة التى أدت بى الى هذا المكان

وتردد الضابط قليلا . . ثم أدار وجهه ورفض اطلاق النار .

وحكم على من بقى حيا من المغيرين على (مونكادا) بالسجن مددا طويلة ، فى جزيرة الصنوبر .

وفى الوقت الذى كان كاسترو سجينا فيه هناك ، حصلت زوجته على الطلاق منه بعد زواج دام سبع سنوات ، وهى شقيقة احد اتباع باتيستا .

وفى عام ١٩٥٥ ، احس باتيستا بالاطمئنان والثقة بنفسه ، فأصدر عفوا عاما عن المعتقلين السياسيين ، وأطلق بذلك سراح فيدل كاسترو وأخيه راؤول . ولم يكد الاثنان يبارحان السجن ، حتى ألفا جماعة جديدة أطلقا عليها اسما يتعلق بتاريخ هجومهم الاول .. فأصبحت تعرف باسم (حركة ٢٦ يوليو) وغرضها طرد باتيستا بالقوة ، واتخذت لنفسها علما من اللونين الاحمر رمز الشجاعة والاسود رمز الشهداء .. وشعارها التحرير او الموت .

وقام فيدل كاسترو بزيارة قصيرة للولايات المتحدة لجمع الاموال لحركته ، ثم ذهب الى المكسيك ليتزعم جماعة من المنفيين الكوبيين أثناء تدريبهم على فنون حرب العصابات لمدة عام ، ثم وضعوا خطة للقيام بعملية برمائية تعد اجرأ عملية من نوعها فى التاريخ العسكرى ، نظرا للظروف المستحيلة التى كانت تواجهها .

كان عددهم هذه المرة اقل من ١٥٠ من الشباب الاقوياء ، وقد عزموا على احتلال مدينة سانتياجو كلها بما فيها حصن (مونكادا) ، وكانوا يعتمدون على المساعدة التى ستقدمها لهم جماعة صغيرة للمقاومة السرية فى المدينة نفسها بقيادة ثائر شاب يدعى (فرانك بايس) كما رسمت خطة للقيام بثورتين اخريين فى اقليمين بغرب الجزيرة

كانت ساعة الصفر قد تحددت فى العاشرة من مساء ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦ ، وتأيد تحديدها ببرقية ارسلت الى (بايس) جاء فيها : « سيولد الطفل فى الوقت المنتظر» ولكن هذه البرقية كانت متفائلة اكثر مما يجب ، فقد اقلعت السفينة

القديمة « جراما » - وهى اسطول الهجوم الذى أعده كاسترو - وكانت تحمل ٩٢ رجلا ، مع أنها بنيت وجهزت لتسع ٢٠ فقط.. وهاجمتها العاصفة فسقط احد رجالها فى الماء، واضطرت الى التأخر للبحث عنه .

ولما كانت قوات بايس لاتعلم ان كاسترو لايزال فى البحر،فقد بدأت ضربتها فى الموعد المتفق عليه .. فهزمت وأسرت بعد نصف يوم فقط . وقام ٢٠ آخرون بالهجوم على حامية باتيستا فى (بايامو) ولكن أحدا لايعرف مادار فى هذه المعركه ، لان أحدا من المهاجمين لم يبق حيا !

وفى يوم ٢ ديسمبر ، اى بعد يومين من الموعد المحدد - شاهد فيدل الارض .. ورأى معها زورقا للمدفعية تابعا لبحرية كوبا وهو يطارده .. فأمر بارساء السفينة عند الشاطىء .

وراح الغزاة الجائعون ، الذين اصابهم دوار البحر ،يزحفون وسط الاوحال والحشائش ، حتىاصطدموا بأكثر من ألف رجل من قوات الحكومة، فقتل اكثر من ٥٠ من الثوار قبل ان ينتهى اليوم ووقع ١٧ فى الاسر قدموا للمحاكمة مع من أسرمن قوات فرانك بايس .

وكان رئيس القضاة الثلاثة الذين مثلوا للمحاكمة امامهم ، هو الدكتور مانويل اوروشيا - الرجل الذى اصبح اليوم رئيسا لجمهورية كوبا ، وقد كتب يومئذ رأيه فى تبرير العمل الذى أقدم عليه المعتقلون أن المادة ٤٠ من دستور كوبا تبيح مقاومة الطغيان بالسلاح ..

لم يفلت من الموت أو الاسر من رجال السفينة (جراما) المنكودة الحظ غير ١٢ رجلا ، كان بينهم فيدل كاسترو . وقد واجهوا محنة اخرى وهم يسيرون وسط المستنقعات الملحية،وشق بهم الثائر الطريق التى كان يصيد فيها الغزلان ايام صباه، وسط جبال سييرا مايسترا ، وكان احد هذه الطرق يؤدى الى قمة (بيكو توركوينو) التى تعد افضل موقع دفاعى فى كوبا ، اذ ترتفع حوالى ٨٠٠٠ قدم بصخورها الحادة، وتحيط الغابات الكثيفة بسفوحها. وقد لجأت جماعة كاسترو الى هذه القمة فى اوائل عام ١٩٥٧ واتخذت منها مخبأ حصينا ، حيث اعتمدت على تعضيد بعض عائلات من الفلاحين .

ونقل رسول كلمة الى فرانك بايس فى سانتياجو بأن فيدل يستعد لقيادة حملة جديدة،فحمل هو وبضع

عشرات من شباب كوبا بنادق الصيد مرة اخرى ، واختفوا من سانتياجو والمزارع المجاورة لها ،وانطلقوا الى قمة بيكو توركوينو

وهكذا ولدت ثورة كاسترو من جديد .

وبدأت الحركة اعمالها بسلسلة من الهجمات الخاطفة على مدن كوبا واحدة بعد اخرى ٠٠ وراح اعضاء حركة ٢٦ يوليو فى ثيابهم المدنية ، وهم يواصلون عملهم العادى ،يخربون وسائل النقل العامة ، ومرافق الماء والنور والمواصلات ٠ ٠ وكانوا يعملون على الهاب مشاعر اهل كوبا الذين يكرهون باتيستا . . وكان حصاد هذه الحركة دمويا٠ففى اقليم هولجوين ـ الذى يعد نقطةللمواصلات الحديدية ـ قام البوليس بحركة انتقامية ، وترك ٢١ جثة من المشتبه فى نشاطهم الثورى ملقاة فى الشوارع مدة ٤٨ ساعة .

وفى (سانتا كروز) قطعوا رأس اثنين من المتهمين ، وعرضا على الجمهور فى سيارة جيب متنقلة

وامتلأت شهور ١٩٥٧ الطويلة بحركات دموية من كلا الجانبين ، لقد قام باتيستا بابعاد ألف من المزارعين من سفوح جبال سييرا مايسترا ليمنع معونتهم وطعامهم عن كاسترو ، ثم قام بهجوم مباشر على (بيكو توركوينو) ولكن قواته ارتدت على أعقابها بعد أسبوعين

وفى نوفمبر ١٩٥٧ ،نجحت غارة لكاسترو فى الاستيلاء على مدينة كبرى لاول مرة ، هى مدينة « مانزانيلو » ويبلغ عدد سكانها ٦٠ الف نسمة ، وقد احتفظ بها الثوار بضع ساعات ،وجردوا ثكنات الجيش من اسلحتها وأسروا حاميتها وعددها ١٥٠ جنديا ٠ ٠ ثم قاموا بعمل عجيب ، اذ ألقوا محاضرة على الإسرى ٠٠ ثم أطلقوا سرأحهم ٠

وكانت تلك اول خطوة بعيدة نحو تحقيق حلم كاسترو ، فى ان يحطم الرغبة فى القتال لدى جنود باتيستا وكانت خطوة تكتيكية بارعة ، اذ اجبرت الديكتاتور على ان يفقد ثقته فى جيشه ويتبع معه اساليب القمع الاخرى ٠٠ فقد أصدر أمرا بأن اى جندى له الحق فى اطلاق النار على رئيسه المباشر اذا وجده يبحث معه الاستسلام للثوار

وقد ظل هذا الامر الذى قضى على روح الجنود المعنوية حتى نهاية الحرب ٠

***

واصبح لدى الثوار قدر كاف من

الرجال والاسلحة ، يمكن تنظيمهم فى طوابير يتراوح عدد كل منها بين ٤٥٠ وألف رجل . وعندئذ اندفع من سييرا مايسترا طابوران بقيادة راؤول كاسترو يعبران الطريق الرئيسى الى سهول اورينت . وعلى الفور قام باتيستا بشن هجومه الاكبر على الثوار ، فبعث بحوالى عشرة آلاف رجل الى الجبال ، وتفرقوا هذه المرة فى جماعات صغيرة سريعة الحركة ولكن كاسترو ابتكر تكتيكا لصدهم اكسبه الحرب ، فقد امدته حركة المقاومة المدنية بألغام كثيرة ، كما حصل من غاراته على المدافع الرشاشة فاستطاع بهذه الاشياء ان ينصب حلقة مزدوجة من الكمائن ، وقبع فى انتظار تقدم جنود باتيستا .

وفى خلال ٤٥ يوما من القتال ، لم يستطع اكثر من ألف جندى الوصول الى الحلقة الداخلية من الالغام المحيطة بقمة (بيكوتوركوينو) . . ولم يستطع احدهم ان يعبرها ، بل وقع مئات منهم فى الاسر ، ونزعت اسلحتهم . . وألقيت عليهم بعض المحاضرات . . ثم اطلق سراحهم

وبدأ فيدل يستعد لتنفيذ خطة بسيطة . . فقد شرع اولا فى تدمير كل جسر للسكك الحديدية فى (اورنيت) ثم اغلق كل الطرق ، وكانت كل سيارات الاتوبيس او النقل او السيارات العادية التى تحاول الانتقال خلالها تؤمن بالوقوف ثم يطلب من ركابها النزول ، ثم يعادون الى المكان الذى بدأوا منه ، بينما تقلب السيارات وتحرق .

ولكن الحرب حتى هذه المرحلة كانت لاتزال حرب اسلحة صغيرة ضد الطائرات والدبابات .

لقد اصبح سلاح كاسترو السرى الذى اكسبه الحرب ، هو اكتشافه ان جنود الحكومة لايريدون بقاء العهد الذى يقاتلون من اجله . . وانهم يريدون الحياة ايضا .

وفى كل معركة تقريبا ، كان رجال باتيستا يتقدمون ، حتى تطلق الرصاصات الاولى من صفوف الثوار وعندئذ يلقون اسلحتهم ، ويهجرون سياراتهم ، ويسرعون للاحتماء بأقرب قلعة او حصن .

وقد انتقم باتيستا من اهالى القرى بسبب وجود قوات الثوار فيها ، فتعرضت قراهم لضرب المدافع وقنابل الطائرات ، كما استخدم قنابل « نابالم » والبنزين المشتعل لاحراقها . . وبرغم ذلك لم يشك احد من اهالى هذه القرى .

***

كان راؤول كاسترو هو اول من اثار الاتهامات التى ذكرت ان الشيوعيين يعضدون حركة كاسترو، وكان باتيستا يوجه هذه الاتهامات بلا انقطاع ، وذلك لان راؤول الذى يبلغ السادسة والعشرين الآن - سبق ان زار كثيرا من دول الستار الحديدى بأوربا فى جولة مع الطلبة منذ بضع سنوات ، كما انه انتقد صراحة سياسة امريكا فى كوبا . ولكن اتهام حركة كاسترو بالشيوعية اثار استياء كبيرا بين الثوار ،الذين سألونى عشرات المرات :

ــ هل تعتقدون حقا اننا شيوعيون؟

والواقع اننى لم اجد اى دليل على الشيوعية فى احاديث الثوار ، ولم تستطع حكومة كوبا او السفارة الامريكية هناك ان تقدم دليلا واحدا على ان فيدل كاسترو كان شيوعيا فى اى وقت . ولكننى سمعت نقدا عنيفا لامريكا التى وقفت ساكتة حيال ارهاب باتيستا ، ودورها فى امداد قواته بالسلاح

وفى ديسمبر ١٩٥٨ عندما اوشكت الثورة على بلوغ ذروة انتصارها ، امضيت عشرة ايام فى مقر قيادة كاسترو فى الميدان . كان مقر القيادة فى اعماق كهف صخرى مزدوج الاطراف . الى جوار تل يطل على منطقة موحلة على بعد بضعة ايام جنوبى الطريق الرئيسى ،وكان الكهف زاخرا بالاجهزة اللاسلكية وصناديق الطعام وأسرة الجنود وصناديق السيجار وأحزمة الذخيرة

كان الجو فى مقر القيادة مليئا بالتوتر ، زاخرا بالضباط والجنود ذوى اللحى الكثة ، وكلما طالت لحية أحدهم ، دل ذلك على طول الفترة التى أمضاها فى صفوف الثوار . وكان كاسترو يحمل فى يده مكبرا للصوت يتحدث فيه بنفسه ، ويذيع أنباء معاركه الى شعب كوبا ، الذى كان يتابع القتال بالاستماع الى اذاعات كاسترو التى يتحدث فيها بصراحة

لقد سادت هافانا فترة شغب واحدة .. يوم رأس السنة الجديدة ، وكان هذا الشغب موجها ضد الاماكن التى ترمز الى الفساد ، فدمر الشعب ٦ كازينوهات ، وأحرق أدوات القمار وحطم كل اجهزة تحصيل الرسوم فى مواقف السيارات .

وفى الصباح التالى ، كان المنظر الخارجى للعاصمة لا يزال مروعا .. لقد اغلق الاضراب كل المتاجر والمطاعم والحانات ، وأوقف كل سيارات

الاوتوبيس والتاكسيات . وأخذت جماعات من الشباب لابسى القمصان يقومون بدوريات فى الشوارع ،وهم يحملون أسلحة نارية على استعداد لاطلاقها على أى شيء يتحرك ، بينما برزت فوهات البنادق من كل نافذة، مصوبة على الإرصفة الخالية فى الشوارع . وبين لحظة وأخرى ، كانت أصوات طلقات البنادق تتردد،

كان يوم وصول كاسترو الى هافانا يوما مشهودا ، لم أر خلاله أكثر من وجهين جادين فى ذلك اليوم هما وجه الرئيس اوروشيا ، ووزير الداخلية أورلاندو ، فقد انطلق الرجلان فى سيارة ضخمة مقفلة من القصر الجمهورى بعد أن استقبلا كاسترو هناك . وقد استولى القلق على الاثنين على كاسترو الذى أصر على أن يسير على قدميه فى أنحاء المدينة ، ورفض أن يركب السيارة معهما خلال الاستعراض ..

كان من المتوقع بعد الاحتفال أن تحدث نكسة للحركة .. ولكن الايام مرت دون ان تقع النكسة .لقد واصل أهل كوبا تذوق طعم الحرية الاساسى، والتأكد من أن فوهات بنادق البوليس لن تحطم ابوابهم فى الليل .. ومشاهدة عناوين الصحف وهى تنطق بحقهنا فى أن تقول ماتريد بأعلى صوت .

وبعد أن تم تحطيم كل الادارة الحكومية القديمة ، واجهت الحكومة الجديدة مهمة شاقة لتدبير البيت ، وحفظ النظام واعادة المرافق العامة ، واصلاح ما أتلفته الحرب من اشياء يبلغ مجموع قيمتها ١٠٠ مليون دولار .

لقد شرع الرئيس الجديد اوروشيا فورا فى العمل ضد الفساد .. ومع التحرير ، بدأ ألوف من أهل كوبا يشدون الاحزمة على بطونهم ،هؤلاء هم الاشخاص الذين كانوا ينتفعون مباشرة من الاعانات الحكومية ،وبينهم بعض محررى الصحف المحلية الذين كانوا يحصلون على أجور كل أسبوع، ثم جمدت الحكومة الجديدة حساباتهم فى البنوك .

وكانت أكبر المشاكل التى واجهت الحكومة ، هى مشكلة صناعات كوبا الرئيسية : السكر والمواد المعدنية ، والمرافق العامة ، وكان لاصحاب الاموال الامريكيين اكثر من الف مليون دولار يستثمرونها فى هذه الشركات . وقد صرح زعماء الثورة جميعا - من رئيس الجمهورية الى أصغر جندى - أنهم عزموا على القضاء على الانتهازيين والمختلسين ،

والمستغلين للضرائب والاتفاقات الاخرى بين الصناعة وحكومة كوبا .

وواجهت كوبا الجديدة أزمتها الخارجية سريعا .. فكما أدهش نجاح كاسترو الساحق شعوب العالم ، أدهش شعب كوبا العالم بقضائه العسكرى العنيف القاسى الذى أدان بوليس باتيستا ورجال جيشه لاعمال الارهاب التى اقترفوها ...

***

ترى .. كيف يكون مستقبل كاسترو ؟

سيظل الرئيس اوروشيا رئيسا مؤقتا للجمهورية لمدة ١٨ شهرا ، ثم تجرى انتخابات حرة، كما اعلن كاسترو

أما كاسترو فقد تولى رياسة الوزارة فى ١٦ فبراير الماضى واصبح لديه القوة على اصدار القرارات التى يريدها .

ويتمتع كاسترو بقوة هائلة على العمل ، ولكن قدرته على الانجاز تتوقف على علاقاته ببقية الشخصيات السياسية فى كوبا ، الذين كان بعضهم - ومنهم الرئيس أوروشيا نفسه - غرباء بالنسبة لكاسترو حتى شهور قليلة .

ان ما حدث يعتبر بالنسبة لكاسترو وسيلة لتحقيق حلمه فى الحكومة التى كان يسعى اليها دون هوادة خلال الكفاح الدموى المرير الذى خاضه . لقد كان يقول : « ان أشق عمل نقوم به ليس طرد باتيستا ، بل انه العمل الذى ينتظرنا بعد أن ننتصر » .

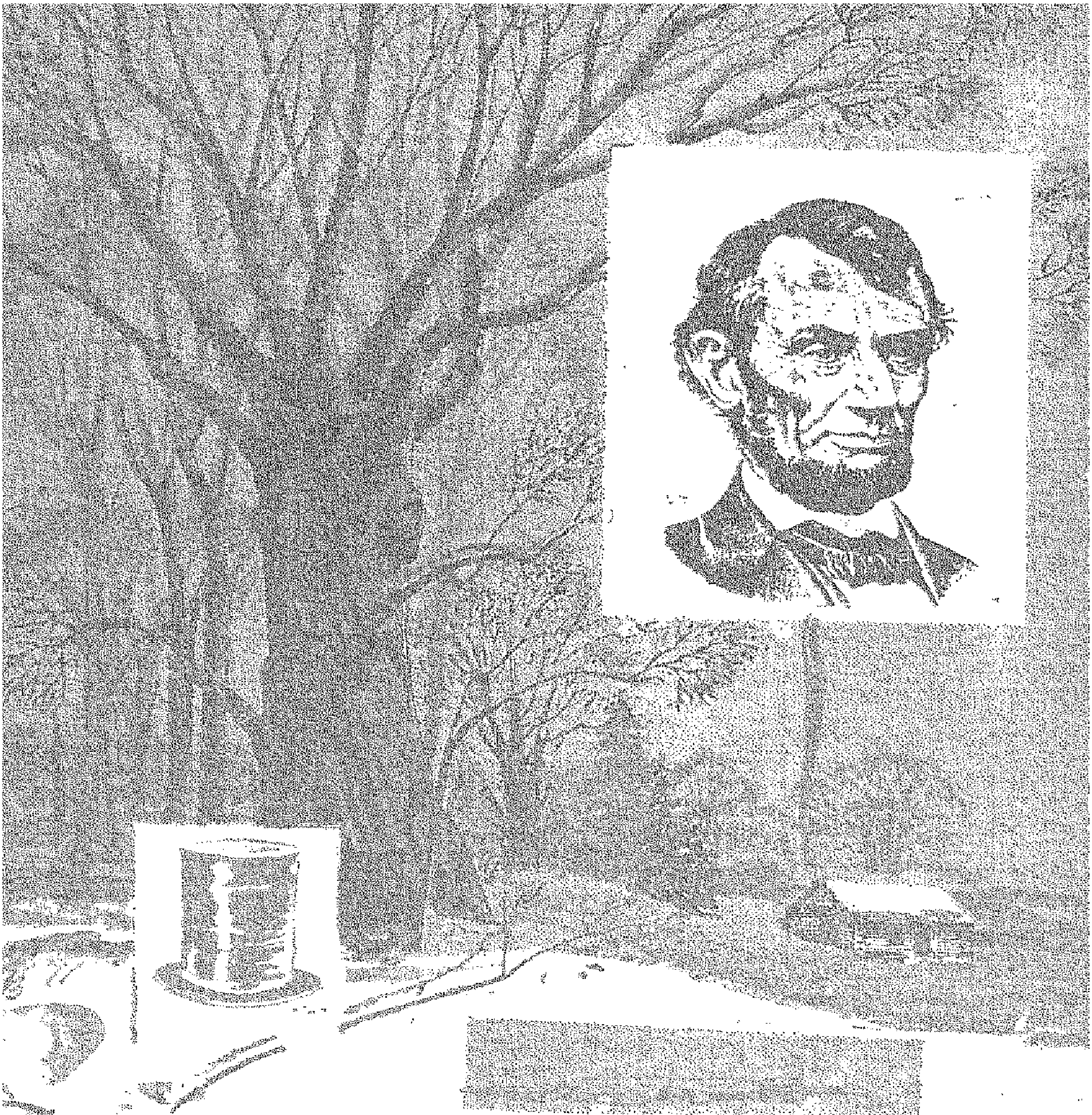
وفى الوقت الذى تكتب فيه هذه الكلمات ، لم يعرف بعد برنامجه السياسى على وجه التحديد ، ولكن هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه يعتزم توجيه جهود حكمه لمصلحة شعب كوبا ، وقد احرز بعض التقدم فى هذا السبيل .

ان كوبا التى يملكها فيدل كاسترو اليوم قد تحررت من الارهاب . واعيدت اليها الحريات المدنية ، وبدأ الفساد يتلاشى .. وتلك خطوات عظيمة الى الامام .. وان العالم الحر ليأمل ان تنبثق منها الديموقراطية الحقة التى يستحقها شعب كوبا

طريقة مضمونة !

قالت الابنة المراهقة لابيها وهى تتدرب فى العزف على البيانو :

- اذا اردت أن اكون شهيرة ... فعليك أن تكون غنيا !



كتاب الشهر

اضحك مع الرئيس لنكولن

اضحك مع الرئيس لنكولن

THE LINCOLN WHO LIVES IN ANECDOTE

اذا كان الله قد ضن على ابراهام لنكولن بنعمة المنظر الجميل ، فقد عوضه عنها بروح مرحة عظيمة ، ظلت تفيض بغزارة فى السراء والضراء على السواء ..

ولقد نشرت كتب كثيرة عن لنكولن ، كما ان القصص التى ذكرت عنه تملأ مجلدات كثيرة .. وفى هذه المجموعة من المقتطفات ، جمعت أفضل ما تردد عن لنكولن من قصص وأساطير ، وقد تم جمعها بطريقة تبرز صورة جديدة ناطقة عن هذه الشخصية العجيبة التى كانت أشبه بالاساطير .

كانت روح لنكولن المرحة عميقة متأصلة الجذور ، فى حكمة وادراك للطبيعة البشرية .

كان المكان يقع على بعد ٢٠ كيلو مترا من بلدة اليزابيث تاون بولاية كنتكي ، بعيداً فى الخلاء ، حيث الحياة موحشة والجيران متباعدون. فى ذلك الشتاء من عام ١٨٠٩ كانت نانسى تنتظر طفلها الثانى فى اليوم الثانى عشر من فبراير .

وفى ذلك اليوم ــ وكان يوم احد ــ سار توماس لنكولن الى أقرب الاكواخ الى بيته ، ويبعد عنه ثلاثة كيلومترات ، حيث تعيش أخت زوجته ، وما كاد يصل الى هناك ، حتى قال لها ببطء :

ــ لقد وضعت نانسى طفلا ذكرا .

وكان دنيس هانكس ابن شقيقة الزوجة ، الذى يبلغ العاشرة من عمره موجودا فى الكوخ ساعتئذ ، وقد ظلت أحداث ذلك الصباح تتألق فى ذاكرته طوال حياته .. وسرد ذكرياته عنها بعد سنوات فقال :

ــ لقد أثار النبأ أمى ، فأسرعت فى اداء عملها المنزلى ، حتى تهرع لالقاء نظرة على القادم الصغير ، أما أنا فلم يكن هناك مايدعونى للانتظار ، ولهذا اسرعت أعدو ثلاثة كيلو مترات لكى أرى ابن عمى الجديد . كانت نانسى ترقد هناك فى فراش عتيق موضوع فى أحد أركان الكوخ ، تبدو عليها سمات السعادة .

وأشعل توماس نارا جيدة ، ثم ألقى جلد دب فوق أغطية الفراش ليزيده دفئا . وجاءت أمى بعد ذلك فقامت بتنظيف المولود ، ودثرته فى بعض الثياب القديمة ، وعكفت بعدئذ على طهى بعض القوت الجاف الممزوج بعسل

النحل لتأكله نانسى ، ونظمت الاشياء فى الكوخ ، ثم عادت الى كوخها !

« ستيفان لورانت »

***

« كثيرا ما سألنى الناس : هل كان ابراهام لنكولن طفلا جميل الطلعة ؟. وجوابى على ذلك انه كان يبدو كأى طفل آخر ، أما وجهه فكان أشبه بثمار الكريز الاحمر الذى اعتصر حتى جف ، ولم يبد عليه أى تحسن بعد أن تقدم به العمر » .

دنيس هانكس

***

فى صباح يوم قاس من شتاء عام ١٨١٦ ، ساعد توماس لنكولن زوجته على اعتلاء صهوة جواد ، وامتطى هو جوادا آخر ، ووضع كل منهما طفلا أمامه ، ثم انطلقا الى (انديانا) ومعهما دنيس هانكس ، ابن شقيقة الزوجة . ويقول هانكس : ان ابراهام الصغير كان يحمل معه بندقية ، وقد استطاع الاحتفاظ بها دون بلل وهم يعبرون نهر أوهايو فوق طوف خشبى ، بل انه صاد بها دجاجة برية فى اليوم الاول لوصولهم الى انديانا .

وفى خريف عام ١٨١٨ ماتت نانسى لنكولن . وقال دنيس فيما بعد أنه لن ينسى قط تلك التعاسة التى سادت الكوخ الصغير الذى يقبع بين الادغال ، يوم ماتت نانسى . وقال انه ساعد هو وابراهام فى اعداد تابوتهـا ، ثم دفنت فى الاحراش .

ان ابراهام لنكولن لم ينس قط تلك الظروف التعسة التى رحلت فيها أمه عن العالم !

« ستيفان لورانت »

***

فى العام التالى لوفاة نانسى ، توجه توماس لنكولن الى بلدة (اليزابث تاون) لزيارة الارملة سارة بوش جونستون . ويقول صمويل هايكروفت بمحكمة البلدة أن توماس قال لها :

ــ اننى لا زوجة لى الآن يامسز جونستون ، وأنت لازوج لك . لقد جئت أعرض عليك الزواج ، وانت تعرفيننى منذ الطفولة ، ولا وقت لدى ، فاذا كنت راغبة حقا ، فلنتزوج على الفور .

وقالت سارة : اننى اعرفك جيدا ياتومى ، ولا مانع عندى من الزواج بك ، ولكنى لا أستطيع أن أتزوج فورا ، اذ لابد من أن أسدد بعض الديون أولا .

ويبدو أن توماس قد سدد ديونها ، لان القاضى هايكروفت قال بعد ذلك انه فى صباح اليوم التالى ،

وكان يوم ٢ ديسمبر ١٨١٩ ، أصدر ترخيصا بالزواج . وتزوج الاثنان .
((وارد هيل ليمون))

***

وفى اليوم التالى شحن توماس كل ما فى منزل سارة من أثاث على عربة استعارها ، وانطلق مع زوجته الجديدة وأطفالها الثلاثة الى انديانا . ولم يكن ما وجدته مسز لنكولن الثانية فى (بيجيون كريك) مشجعا ، فقد وجدت كوخا بلا نوافذ ، وأطفالا قذرين ذوى شعور شعثاء . وسرعان ما أمرت بملء الحوض بماء من النبع القريب ، وأخرجت زجاجة كبيرة مملوءة بالصابون الناعم ، وأخرى لصب الماء بها ، وطلبت من ابراهام وأخته سارة وابن خالتهما دنيس أن يغتسلوا استعدادا للعشاء .

لقد أحب ابراهام (أمه) الجديدة وأغرمت به هى غراما شديدا ، وقالت فى أيام كهولتها : ((كان يبدو أن عقله يتفق مع عقلى ، ويتحركان فى نفس الطريق)) .

وقال ابراهام لنكولن فيما بعد : ان كل ما بلغته فى حياتى أو آمل أن أكونه ، انما أدين به لامى التى كانت ملاكا .
((ستيفان لورانت))

***

كان ((آب)) الصغير طفلا طيبا ، وأستطيع أن أقول ما لا تقوله امرأة فى الالف ، وهو أنه لم يوجه الى قط أية كلمة نابية أو يوجه الى نظرة رديئة ، ولم يرفض قط أن يفعل شيئا طلبته منه . لقد كان مثابرا على اكتساب المعرفة . يقرأ كل الكتب التى تصل الى يده ، فاذا وجد فقرة انتزعت اعجابه ، كتبها فوق الالواح الخشبية اذا لم يجد ورقا .. ويظل محتفظا بها هناك الى أن يجد الورق فيعيد كتابتها عليه ، ويظل يوالى قراءتها ..

سارة لنكولن فى حديث مع وليام هرندون

***

كان ينمو أشبه بعيدان النبات فى حقل من الاذرة . حدث ذات صباح أن أراد أحد رعاة البقر أن يسخر من طوله فقال له :

ــ قل لى يا (أبو طويلة) .. لقد سقطت سكينى فى النبع والماء عميق جدا هناك بالنسبة لك ، أما ذراعاك الطويلتان فيمكنهما الوصول اليها بسهولة .

فقال ابراهام لنكولن ببطء :

ــ كلا .. ان ذراعى ليستا طويلتين الى حد كاف .. ولكن اذا أوصلنا

ذراعى بذراعيك فقد تستطيع أن تسترد سكينك .

وبحركة سريعة رفعه لنكولن الى أعلى ، وحمله وهو يتلوى ويصيح بين يديه حتى وصل الى النبع ، فقذف به الى الماء رأسا على عقب . وعندما بدأت فقاقيع الهواء فى الظهور ، سحبه وهو يقطر ماء ويتمتم باللعنات ..

وصرخ الفتى قائلا وهو يهز قبضة يده :

ـ سوف أنتقم منك يوما يا آب لنكولن .

فقال لنكولن ساخراً :

ـ قد تفعل ذلك .. ولكنك لن تستطيع بعد اليوم أن تناديني ب«أبو طويلة !» . **« يوثز كومبانيون »**

***

فى عام ١٨٢٩ اشتغل (آب لنكولن) لحسابى لاعداد علف الحيوان . وأقول انه كان كسولا الى حد شنيع . يضحك ويتحدث ويلقى بالنكات ، ويسرد الحكايات طوال الوقت . كان بين جواربه وأطراف سراويله مسافة لاتقل عن ٣٠ سنتيمترا . وقد ذكر لى يوما ان والده علمه أن يعمل ، ولكنه لم يعلمه قط أن يحب العمل !

جورج رومنى المزارع
فى حديث مع وليام هيرندون

***

عندما كان لنكولن مرشحا للرياسة ، سأله أحد الصحفيين بجريدة (شيكاغو تريبيون) عن أيام طفولته ، فقال :

ـ ان ربع حياتى يمكن ايجازه كله فى جملة واحدة . هذه الجملة تستطيع أن تجدها فى كتاب جراى الذى عنوانه : « الاخبار البسيطة الموجزة للفقير » .

« دكتور وليام جين »

***

أيام « نيو سالم »

« كنت أشبه قطعة من الاخشاب التى يجرفها التيار .. » **لنكولن**

***

فى عام ١٨٣٠ انتقلت اسرة لنكولن الى ولاية ايلنوى .

وأحس التاجر (دنتون أوفوت) بميل نحو ابراهام لنكولن ، فتعاقد للعمل معه ككاتب ، فى مخزن وطاحونة ببلدة نيو سالم . وكان لنكولن يتسكع فى القرية بلا عمل ريثما تصل سلع (أوفوت) . ولكن الفراغ لم يكن يضايقه قط .. لم يكن هناك أى ازعاج فى ذلك بالنسبة له . كان يؤكد لكل من يقابله انه مجرد قطعة من الاخشاب العائمة التى يجرفها التيار ، وأنه جاء عائما فى مياه النهر واستقر مصادفة فى نيوسالم !

« وليام هيرندون »

***

يبدو انه لم يكن هناك حد لشعبيته أو استعداده . كان أفضل من يحكم فى سباق الخيل ، وهو دائمـا رفيق لاحد الطرفين فى أى نزال ، وان كان يسعى دائما للتوفيق بين الخصـمين قبل أن تقع اية خسارة .. بل كان حكما فى كل مايثير الجدل فى الادب أو العلوم أو التجارة !

كان مشهورا بقدرته على معاملة اى انسان يلتقى به ، ولكنه لم يسع قط للشجار . كان صديق كل انسان ، مع أنه لم يكن يدخن أو يتعاطى أى نوع من الشراب . كان فقيرا لم يذهب الى المدرسة الا فيما ندر ، ومع ذلك كان أفضل شـاب مطلع فى القرية ، ولهذا فان ترشيحه لعضوية المجلس التشريعى للولاية كان أمرا طبيعيا .

« نيكولاى وهاى »

***

لنكولن فى سبرنجفيلد

فى ١٥ ابريل ١٨٣٧ غادر لنكولن مدينـة نيوسـالم ، وانطلق الى سبرنجفيلد بولاية ايلنوس ، كان قد اجتاز امتحان الحقوق الذى يؤهـله للاشتغال بالمحاماة ، واصبح الآن على استعداد لممارسـة العمل . كان فى الثامنة والعشرين ، ولا تزال امامه ٢٨ عاما اخرى من الحياة قبل أن يحين مصيره المحتوم .

كان أول ما يحتاج اليه فراش ينام فوقه ، ولهذا فقد توجه الى متجـر « جوشوا سبيد » ليبتاع فراشا . وقال له سبيد ــ الذى سرعان ما أصبح من أصدق أصدقاء لنكولن ــ ان ثمنه ١٧ دولارا .

وأظلم وجه لنكولن ، ثم قال :

ــ قد يكون الثمن رخيصا جدا .. ومع ذلك فاننى لا أملك هذا الثمن ، فاذا أقرضتنى ثمنه حتى عيد الميلاد ، ونجحت تجربتى هنا كمحام ، فاننى سأدفع لك الثمن ، اما اذا فشلت فى العمل ، فقد لا أدفع لك قط !

وأحس سبيد بالعطف على المحامى الشاب ، فعرض عليه أن يشاطـره غرفته . واسرع لنكولن يصعد الدرجات الى أعلى ، وألقى نظرة على الغرفة ، ثم هبط ليقول والبشر يعلو وجهه :

ــ حسنا .. اننى شاكر لك كثيرا يا سبيد .

« ستيفان لورانت »

***

شهد لنكولن حفلته الراقصة الاولى فى سبرنجفيـلد ، لانه أراد ان يرى احدى الحاضرات .. وهى مارى تود ورقص الاثنان معا ، وكانت تلك بداية غرام طويل عاصف ، انتهى بزواجهما

فى ٤ نوفمبر ١٨٤٢ . وتولى الاب تشارلس دريس عقد القران ، وكان العريس يومئذ فى الثالثة والثلاثين ، والعروس فى الثالثة والعشرين ، وكان بين الحاضرين توماس براون قاضى المحكمة العليا .

((كارل ساندبرج))

***

سمع الكولونيل الكسندر ماكليور هذه القصة من احدى السيدات فى سبرنجفيلد ، وقد عرفت لنكولن وهى طفلة صغيرة .. قالت :

« كنت ذاهبة مع صديقة صغيرة فى أول رحلة أقوم بها بمفردى فى السكك الحديدية ، وكنت احلم بها منذ أسابيع . وحل اليوم ، وعندما اقتربت ساعة رحيل القطار ، لم يحضر الحوذى لاخذ حقيبتى .. ووقفت الى جوار بوابة المنزل أبكى وقلبى يتحطم وانا امسك قبعتى وقفازى بيدى ، عندما مر بى مستر لنكولن ، فسألنى :

ـ لماذا تبكين .. ماذا حدث ؟

وسردت عليه القصة كلها . فسألنى :

ـ ما هو حجم الحقيبة ؟

فصحبته انا وأمى الى غرفتى فى أعلى المنزل ، حيث كانت الحقيبة الضخمة مغلقة ، فصاح قائلا :

ـ جففى دموعك وتعالى سريعا .

وقبل أن أعرف ماهو فاعل ، رفع الحقيبة فوق كتفيه ، وأسرع يهبط السلالم ، ثم انطلق فى الطريق بأسرع ما تستطيعه ساقاه الطويلتان ، وأنا أعدو خلفه ، وأجفف دموعى ، وبلغنا المحطة فى الوقت المناسب ، فأركبنى القطار وقبلنى مودعا ، وتمنى لى رحلة سعيدة ! » .

***

كان لنكولن يسير ذات يوم فى الطريق المؤدى الى سبرنجفيلد عندما اقترب من رجل يقود عربة ، وسأله ما اذا كان يستطيع أن يحمل معه معطفه الى المدينة .. فقال الرجل :

ـ بكل سرور .. ولكن كيف ستأخذ المعطف مرة أخرى ؟

فقال لنكولن :

ـ بكل سهولة .. لاننى سأكون بداخله !

((أورفيل براونج))

***

المحامى الريفى

حدث نزاع بينى وبين جارى ذات يوم حول حدود مزارعنا ، فذهبت الى لنكولن ليعاوننى فى هذا النزاع ، فقال لى :

ـ اذا واظبت على هذا النزاع ،

فسوف تثير عداء يستمر اجيالا . لقد حضر الرجل الآخر عندى ليوكلنى فى قضيته ، فلماذا لاتجلسان معا فى مكتبى ريثما أذهب لتناول الغداء ، فتتحدثا فى الامر وتحاولا تسويته . وحتى لايقاطعكما أحد ، فانى سأغلق الباب بالمفتاح .

وفعل ذلك حقا .. ولم يعد الى المكتب بعد الظهر .

ووجدنا - أنا وجارى - نفسينا حبيسين معا ، فبدأنا نضحك ، وعندما عاد لنكولن كانت المسألة قد تمت تسويتها .

مزارع بسبرنجفيلد

***

أراد أحد الاثرياء فى سبرنجفيلد أن يقاضى رجلا فقيرا على دين قدره دولاران ونصف دولار انتقاما منه . وعندما أنكر الفقير الدين ورفض دفعه ، طلب الثرى من لنكولن أن يرفع له القضية .. ولم يكن لنكولن ميالا لمباشرة هذه القضية ، ولكنه ما لبث أن رضى ، وطلب من الثرى أن تكون أتعابه عنها عشرة دولارات تدفع مقدما .

ودفع العميل الدولارات العشرة . وعندئذ ذهب لنكولن الى المدعى عليه الفقير وأعطاه خمسة دولارات بشرط أن يدفع دينه منها فورا ويستبقى الباقى لنفسه .

وهكذا ربح لنكولن خمسة دولارات ، وربح الفقير دولارين ونصف دولار .. وارتاح المدعى الثرى !

« يمانوبل هيرتز »

***

كان لنكولن يترافع يوما فى دعوى مقامة ضد ضابط شاب .. فقال :

- أيها السادة المحلفون .. هذه التهمة موجهة ضد جندى اعتدى على رجل عجوز .

وعندئذ قاطعه المدعى عليه فى انفة قائلا :

- سيدى . اننى لست جنديا .. أنا ضابط

فقال لنكولن

- اننى أستميحك عذرا .. اذا أيها السادة المحلفون .. هذه التهمة موجهة ضد ضابط - ليس جنديا - بتهمة الاعتداء على رجل عجوز !

« اندرو آدراب »

***

كتب القاضى دافيز ديفيز الذى كان يرأس الدائرة القضائية الثانية فى ايلنوى يتحدث عن لنكولن :

«لم يكن يماثله الا القليلون فى تمتعه بكل مؤهلات المحامى العظيم . كان

عقله منطقيا مرتبا ، ليس فيه مكان العموميات والتفاهات ، لاتتخلى عنه روحه المرحة قط ، وكان قادرا على اثارة اهتمام القضاة والمحلفين ، ولو كانت القضية لاتثير اى اهتمام ،وذلك بسرد القصص المناسبة » .

***

أصغى لنكولن يوما الى حديث عميل جديد جاءه يعرض عليه قضيته .. ثم التفت اليه فجأة وقال :

ـ ان قضينك قد تكون صالحةمن الناحية القانونية الفنية . ولكنها قضية سيئة جدا بالنسبة للانصاف والعدالة ، وعليك أن تبحث عن شخص آخر ليكسبها لك ، اما انا فلا يمكنني أن أفعل ذلك .. اذ أنني في الوقت الذي سأتحدث فيه الى المحلفين ، ساظل أقول لنفسي : « لنكولن انك كذاب » .. وقد أنسي نفسي ، فأقولها بصوت عال !

« جنرال جون لينلفيلد »

***

حدث يوما أن تحدى محامي الخصم أحد المحلفين بسبب معرفته الشخصية بلنكولن ، الذى كان يمثل الطرف الآخر في الدعوى ، وكان هذا الاتهام في تلك الايام يثير ظلامن الشبهة حول سمعة المحامي وعلى القاضي أن يبت في التحدى فورا .. ولكن لنكولن نهض بدوره وراح يسأل كل واحد من المحلفين عما اذا كانت له أية معرفة بمحامي الخصم ، وبعد أن أجاب اثنان أو ثلاثة بالايجاب ، تدخل القاضي قائلا بلهجة عنيفة :

ـ انك تضيع وقتا يامستر لنكولن . ان مجرد معرفة المحلف لخصمك لاتنزع عنه صلاحيته للدفاع .

فقال لنكولن : كلا ياصاحب الفخامة .. ولكنني كنت أخشى فقط ألا يكون بعض السادة يعرفه ، وفي هذا ضرر لي !

« القاضي اورانس والدون »

***

كانت المناقشة تدور حول سياسي توفي بولاية ايلنوى ـ اشتهر بغروره المفرط ، فقال لنكولن معقبا على اشتراك كثيرين في جنازته .

ـ لو كان يعرف أية جنازة رائعة تنتظره ، لمات منذ سنوات !

« كولونيل الكسندر ماكليور »

***

كان لنكولن يخطب في اجتماع لرؤساء الصحف في بلومنجتون فقال أنه يخشى أن يكون دخيلا عليهم لانه ليس من رؤساء التحرير . ثم قال :

ـ انني أشعر اليوم بمثل ماشعرت

به عندما التقيت بسيدة كانت تركب جوادها بين الادغال ، اذ توقفت بجوادى لأجعلها تمر ، فتوقفت هى الاخرى ثم أخذت تحدق فى وجهى متفرسة •• ثم قالت :

ـ انك ولاشك أقبح رجل رأيته •

فقلت لها : قد تكونين على حق ياسيدتى •• ولكن لا حيلة لى فى ذلك

فقالت لى : كلا . . بل نستطيع أن تبقى مختبأ فى البيت !

« عزرا برينس »

***

فى عام ١٨٥٤ ، قدم السناتور ستيفن دوجلاس الى الكونجرس مشروع قانون باباحة الرق فى ولايتى كانساس ونبراسكا ، وقد أثار هذا القانون لنكولن اثارة لم يشعر بمثلها من قبل • وقد ذكر فى خطاب لصديقه جوشوا سبيد رأيه قائلا :

« يبدو لى أن تقدمنا فى الفساد أصبح سريعا جدا • لقد بدأنا كأمة باعلان أن الناس جميعا خلقوا متساوين ونحن نقرأ هذا الاعلان الآن « خلق الناس جميعا متساوين عدا الزنوج » وعندما يصل المتعصبون للبيض الى الحكم ، سوف نقرأ هذه الجملة « خلق الناس جميعا متساوين عدا الزنوج والاجانب والكاثوليك » . . فاذا بلغنا هذا الحد ، فسوف أفضل الهجرة الى أرض أخرى لا يتظاهر أهلها بحب الحرية •• كروسيا مثلا ، حيث يمارس الاستبداد صراحة دون نفاق »

***

رشح لنكولن نفسه لعضوية مجلس الشيوخ ضد ستيفن دوجلاس ، وقد نظم المرشحان سلسلة من الحفلات التى يظهران فيها معا ، والتى اشتهرت باسم « مناقشات لنكولن ـ دوجلاس » وقد حاول دوجلاس أن يبرز كيف كان لنكولن يعمل فى شبابه بائعا للويسكى فى متجر للبقالة وعندئذ نهض لنكولن قائلا :

ـ ان ماذكره مستر دوجلاس صحيح تماما . . ولكنى اقول انه كان فى تلك الايام من أفضل الزبائن عندى •• وأستطيع أن أقول أيضا أننى ابتعدت عن بنك الحانة ، بينما لايزال دوجلاس ملتصقا به الى اليوم •

وفى ذات مرة ، وصف دوجلاس لنكولن بأنه رجل ذو وجهين ، فأجاب لنكولن قائلا :

ـ اننى أترك الحكم فى ذلك للجمهور فلو كان لى وجه آخر حقا ، فهل تعتقدون أننى كنت آتى اليكم بهذا الوجه ؟

ريتشارد هانسر

***

فى ذات ليلة من ليالى الانتخابات لرياسة الجمهورية عندما بدأت النتائج تتوالى ، سرت موجة من التأثر فى سبرنجفيلد ، وقد وردت أنباء طيبة أولا من المناطق المجاورة ، ثم من المناطق النائية ، جعلت الجمهور يهتف للنكولن •• وبدأ الرجال يرقصون ويصيحون فى مبنى الولاية الذى تضيئه الانوار ، بينما أخذ المزارعون يوزعون المأكولات الطيبة •

وفى الوقت نفسه ، جلس لنكولن وحيدا فى مكتب التلغراف الصغير ، يطالع النتائج وهى تسلم اليه تدريجا حتى اذا اقتنع بفوزه ، شمله احساس ساحق بمسئولياته القادمة

•• وبينما كانت صيحات الفرح تدوى من حوله ، كان المرشح الناجح يجلس وحيدا وقد نكس رأسه ، وبدا الاسى على صفحة وجهه العميق التجاعيد •• يفكر فى المستقبل !

« هيلين نيكولاس »

***

كان صباح يوم ١١ فبراير ١٨٦١ يوما مؤلما فى سبرنجفيلد ، امتلأت فيه السماء بالسحب والضباب •• وتجمع الكثيرون فى محطة السكة الحديد ليشاهدوا رحيل لنكولن •• الذى قال لهم مودعا :

ـ أصدقائى *

ليس هناك من يستطيع أن يقدر شعورى بالحزن لهذا الرحيل عن هذا المكان وأهله الطيبين ، الذين أنا مدين لهم بكل شىء • لقد عشت هنا ربع قرن ، وانتقلت من الشباب الى الشيخوخة • هنا ولد أطفالى ، وهنا دفنت أحدهم • اننى راحل الآن ، ولا أعرف متى سأعود ، وأمامى مهمة أعظم من المهمة التى ألقيت على عاتق واشنطون • ولن أحقق النجاح بغير المعونة الالهية التى أمدتنى دائما بعونها والتى تسيطر دائما على مصيرى •

ثم وقف على المنصة التى وضعت أمام باب عربته فى القطار ، عارى الرأس ، وراح يتطلع الى المدينة وهى تختفى عن ناظريه •• وكان هذا آخر لقاء للمدينة مع ابراهام لنكولن

***

الرئيس ••

••• لماذا وضعنى الله فى هذا المكان ؟

لنكولن

كان الرئيس يشعر بضيق كثير من الحاح جيرى سميث عضو الكونجرس ، الذى كان ينهال عليه دائما بطلبات الاستخدام من أهالى دائرته • وفى ذات يوم جاء وفد من رجال الدين لزيارة لنكولن ، فسأله أحدهم عما اذا كان

يلتمس المشورة والهداية من الله ٠٠ فقال لنكولن :

ـ أجل ٠٠ انني أدعو الله كل ليلة قبل نومي ٠ وأفكر في مسئولياتي فأدعوه أن يهبني المزيد من القوة والحكمة ٠ ثم أنظر تحت الفراش ، فاذا لم أجد جيري سميث هناك حاملا طلبات الاستخدام ، فانني أشكر الله على ذلك ، وأطفيء النور ٠٠ ثم أنام

« جيس وايك »

***

ألح عليه وفد من الاهالي يوما أن يعين مرشحهم حاكما لجزر هاواي ، قائلين أنه ليس كفئا لذلك فحسب ، بل ان الجو هناك سوف يفيد صحته التي ليست على مايرام ٠٠ فقال لهم لنكولن :

ـ أيها السادة ماذا تفعلون لو كنتم مكاني ؟ ٠٠ هناك ٨ طلبات أخرى لشغل هذه الوظيفة ، وكلها من أناس أكثر مرضا من رجلكم هذا !

« بنيامين توماس »

***

كتب سكرتير جون هاي يقول :

كان الذين يحيطون به يحاولون دائما اقامة حواجز بينه وبين الناس لانقاذه من مقاطعتهم المستمرة ، ولكن الرئيس نفسه كان أول من يحطم هذه الحواجز ٠ كان يكره كل مايبعد الناس الراغبين في مقابلته ٠ وقد قال مرة :

« لو كان بي عيب ، فهو عدم القدرة على قول لا ٠٠ فشكرا لله لانه لم يخلقني امرأة ، ولو أنه فعل ، فلابد أنه كان سيجعلني قبيح الوجه كما خلقني فعلا ، حتى لايحاول أحد أن يغريني ! ٠٠ « كارل ساندبرج »

***

كانت تعليمات الرئيس الدائمة لحراس البيت الابيض ، هي ألايؤخروا عن مقابلته أي انسان يأتي حاملا التماسا لانقاذ حياة شخص ٠٠ وقد قال يوما :

يشكو بعض قوادنا لانني أعمل على افساد النظام في الجيش بقرارات العفو والتخفيف التي أصدرها ، ولكن هذا العمل يجعلني أحس بالراحة بعد يوم شاق من العمل ، اذا استطعت أن أجد عذرا صالحا لانقاذ حياة انسان ، فأذهب الى فراشي سعيدا ، وأنا أفكر في مدى ماسيشيعه توقيعي من الفرحة في قلبه وقلوب أسرته وأصدقائه

« أنتوني جروس »

***

ذهب وليام كيلوج عضو الكونجرس يوما الى البيت الابيض عند منتصف الليل ، وتجاهل رفض الحراس

السماح له بالدخول •• حتى اذا بلغ الغرفة التى ينام فيها الرئيس ، صاح قائلا :

هذا الرجل يجب ألا يقتل غدا •
انني لا أدافع عما فعله ، ولكنه جار قديم لى واستمع لنكولن فى هدوء الى حجج الرجل الذى عرفه منذ سنوات طويلة ثم قال فى هدوء :

ـ حسنا ••• لا أظن أن قتل هذا الرجل سيفيده بشيء •• هات القلم !

« كارل ساندبرج »

***

عندما يضحك الرئيس

فى خلال سنوات الحرب المفجعة ، كان الرئيس يجد فى المرح تخفيفا عن الالم •• كان يقول «اننى أضحك لاننى يجب ألا أبكى » !

كانت قصة الرئيس المفضلة عن نفسه ، انه سمع اثنين من أعضاء جماعة الكويكرز الدينية تقارنان بينه وبين جيفرسون ديفيز زعيم ثوار الجنوب

فقالت احداهن : أعتقد أن جيفرسون سوف ينجح •

فسألتها الثانية : ما الذى يجعلك تظنين ذلك ؟

ـ لان جيفرسون رجل يحرص على الصلاة ••

ـ ولكن لنكولن يصلى أيضا ؟

ـ أجل ••• ولكن الله سوف يعتقد أن لنكولن يمزح !

« ديكسون وكتر »

***

فى احدى الليالى ، ترك لنكولن قبعته الرسمية الطويلة فوق أحد المقاعد فى غرفة استقبال وزير الحربية ستانتون وعند عودته لاخذها ، وجد سيدة بدينة جدا تنهض من فوق المقعد لتنحنى أمامه •• فرد تحيتها •• ثم سار خلفها ، والتقط بقايا قبعته

وقال وهو يهز رأسه آسفا :

ـ سيدتى • كان لابد لى أن أخبرك أن قبعتى لا تناسبك قبل أن تحاولى تجربتها بنفسك !

***

حدث يوما ان التمس رجل من احدى مدن الشمال ترخيصا بالمرور الى مدينة ريتشموند ـ عاصمة ثوار الجنوب ـ فكتب اليه الرئيس :

سيدى ••

لو أننى منحتك الترخيص المطلوب لما أفادك شيئا ، اذ أن كثيرين من رجالنا اما أنهم لايعرفون القراءة ، أو انهم يحقدون على كل من يأخذ ترخيصا منى ، لقد أعطيت الجنرال ماكيلان وأكثر من ٢٠٠ ألف رجل آخرين تراخيص بالوصول الى ريتشموند ،

ولكن أحدا منهم لم يصل الى هناك « ووستودارد »

***

قال لنكولن مرة : اننى لم اغرس شوكة قط فى قلب انسان بمحض رغبتى .. وبرغم ذلك فانه لم يكد يصل الى ذروة طموحه ، حتى كتب القدر القاسى على هذا الرجل الذى كان يتفادى الاذى وينشر الرحمة فى طريقه ، ان يبعث بالملايين من مواطنيه فى حرب قاسية طويلة ضد اخوانهم الجنوبيين .. واضطرت هذه الروح الحنون تحت ضغط القدر الذى لايرحم خمس سنوات كاملة ، ان تثير الالم فى قلوب الامهات .. الم لايخففه غير الموت وحده . لقد أساءوا الظن به ، وأساءوا تصويره ، وسخروا منه وعارضوه فى كل نبضة او فكرة أو عمل طيب .. فلا غرو ان بدت صورته أكثر ألما وأكثر فاجعة عاما بعد عام .

***

ويقص الدكتور جيروم من أطباء بروكلين كيف لامه الرئيس يوما وهو يريه مستشفى فى (سيتى بوينت) بولاية فيرجينيا .. فقد زار الرئيس العنابر التى يشغلها المرضى والناقهون من جنوده ، ثم بلغ ثلاثة عنابر يشغلها الجرحى والمرضى من أسرى الجنوب. فقال الطبيب :

ـ سيدى الرئيس . انك لن تحب الدخول هنا .. انهم مجرد ثوار .

وعندئذ توقف لنكولن ووضع يده الطويلة على كتف الطبيب برفق .. وقال بهدوء :

ـ نعنى اخواننا المتحالفين ..

ثم زار الرئيس العنابر الثلاثة ، وأبدى من الاهتمام والعناية بأمورهم ما أبداه بجنوده ، وصافحهم بنفس الحرارة .

***

سألته سيدة فى حفل استقبال :

ـ كيف تستطيع أن تتحدث بالخير عن أعدائك الذين كان يجب أن تقضى عليهم ؟

فقال لها وهو يحدق فى وجهها ببطء :

ـ سيدتى .. ألست أقضى عليهم عندما أجعل منهم اصدقائى ؟

((كارل ساندبرج))

***

عندما تلقى لنكولن اعلان تحرير العبيد ظهر أول ينساير عام ١٨٦٣ لتوقيعه ، أمسك الرئيس قلمه مرتين، ثم وضعه .. والتفت الى وليام سيوارد وزير الخارجية قائلا :

ـ لقد ظللت أصافح الناس منذ التاسعة صباحا حتى أوشكت يدى أن تشل .. فاذا خلد التاريخ اسمى فسيكون ذلك من أجل هذا القانون الذى وضعت روحى كلها فيه .. ولو ارتعشت يدى وأنا أوقع هذا الاعلان ، فسيقول كل من ينظر الى هذه الوثيقة بعد ذلك اننى كنت مترددا .

ثم أمسك الرئيس القلم مرة اخرى .. وكتب بحزم على مهل .. «ابراهام لنكولن» .

((ذوريك سيوارد))

***

بدت النهاية فى الافق يوم ٢٠ ابريل ١٨٦٥ ، فقد استولت قوات الاتحاد على ريتشموند ، وفى اليوم التالى سافر لنكولن الى عاصمة الجنوب . وبينما كان يسير فى شوارعها ، احتشد الزنوج من حوله ، وراحوا يركعون أمامه .. فقال لهم :

ـ يجب الا تركعوا الا لله وحده .. واشكروه على تحريركم .

وقال أحد الذين شاهدوه يومئذ انه كان يبدو شاحبا هزيلا ، مزقه الارهاق .

وفى مساء ذلك اليوم ، عندماسأله الجنرال ويتزل كيف يعامل الشعب المهزوم ، أجابه :

ـ لو كنت مكانك ، لعاملتهم بالرحمة والرأفة . **((ستيفان لورانت))**

***

فى اجتماع عقده مجلس الوزراء فى آخر أيام حياته ، قال لنكولن للجنرال جرانت انه يشعر باحساس بأنه سوف يسمع قريبا أنباء على جانب كبير من الاهمية .

فسأله جرانت : لماذا تظن ذلك ؟

ـ لاننى حلمت ليلة أمس حلما كنت أراه قبل كل حدث هام منذ بدأت الحرب .

وقص الرئيس الحلم فقال انه رأى سفينة تسير فى البحر بسرعة ، وانه شاهدها قبل كثير من معارك الحرب الاهلية الحاسمه .

وفى نفس اليوم ، بعد انتهاء كل اعماله ، أمر الرئيس باخراج عربته ليذهب فى نزهة مع زوجته . وعندما سألته عما اذا كان يحب ان يرافقهما أحد فى هذه النزهة قال :

ـ كلا .. بل أفضل الركوب وحدنا اليوم .

وقالت أرملة الرئيس انها لم تره اكثر بهجة وسعادة منه فى ذلك اليوم .. وعندما لمحت له بذلك ، قال :

ـ اننى اعتبر اليوم ان الحرب

أوشكت على نهايتها ، ولهذا أشعر بالسعادة .. ولابد أن نكون أكثر غبطة فى المستقبل ، لاننا كنا فى غاية التعاسة فى السنوات التى وقعت بين الحرب وفقد طفلنا العزيز ويلى .

((ج . مامكيور))

***

(أفضل طريقة نقاس بها الشجرة عندما تكون راقدة) .

***

فى احدى العربات العامة التى كانت تعدو فى الصباح الباكر الى فيلادلفيا، بسط أحد الاشخاص الصحيفة الصباحية أمام عينيه .. وحدق فيها ثم صاح :

ـ يا الهى .. لقد قتل لنكولن !

ودفن الرجال وجوههم بين أيديهم ، وتساقطت عبراتهم الساخنة فوق أرض المركبة التى يغطيها القش .. وجاء سائق المركبة ليتأكد مما سمع ، ثم عاد الى خيوله فنزع عنها أجراسها. وراح يقود عربته التى امتلأت بالمحزونين ، بعضهم صامت ، وبعضهم يبكى .

***

وفى شارلستون ، كانت سيدة سوداء عجوز تسير فى الطريق وهى تحدق أمامها على غير هدى وتعتصر يديها صائحة :

ـ أواه يا الهى .. لقد مات .. مات العم سام !

***

وبدأت الاجراس تدق فى واشنطون طوال اليوم .. وتردد دويها فى نيويورك وبوسطون وشيكاغو وسبرنجفيلد وغيرها من المدن الامريكية الكبرى ، والقرى التى تقع عند تقاطع الطرق الهامة .. كانت الاجراس تدق .. واعلام تنكس .. وقد وضع الجميع الاقمشة السوداء علامة على الحزن والحداد .

مشروع هام !

بينما كنت أمر بالمنزل المتواضع الذى يمتلكه العالم الكبير الدكتور فانبفار بوش فى بلدة (سوث دنيس) ، قلت لسائق السيارة التى استقلها :

ـ ترى اى مشروع هام يعمل فيه الدكتور بوش الآن ؟

فقال السائق على الفور :

ـ انه منهمك فى اضافة حمام جديد الى المنزل !

كتاب الشهر

لكي تعرف نفسك

اقرأ هذا الكتاب

ملخص عن كتاب

On Being A Real Person

بقلم هارى ايمرسون فوسدين

هل تعرف نفسك على حقيقتها ... معرفة صادقة لا زيف فيها ولا غموض ؟

ان معرفة النفس هى الخطوة الاولى التى تكفل لك بناء شخصية قوية حقيقية ، قبل ان تشق طريقك وتحدد هدفك من الحياة ، شخصية تستطيع ان تعتمد عليها وانت تكافح فى سبيل مستقبلك ، وتتيح لك ان تكيف نفسك مع الحياة .

ان الرجل الناجح ، هو الشخص الذى اذا واجه موقفا عصيبا فى حياته ، بحث عن العلة فى اعماق نفسه .. فى موارده ومسلكه ، باحثا عن عيوبه ومواضع النقص فيه لمعالجتها ، غير ملتمس عذرا او تهربا من اللوم

اما الفاشلون فى الحياة ، فهم اولئك الذين فقدوا القدرة على مواجهة انفسهم والتعمق فى اغوارها ، وتهربوا من الاحساس بالمسئولية الشخصية ، وراحوا يتلمسون كل عذر ، ملقين اللوم على الحظ التعس !

وفى هذا الكتاب القيم دراسة ممتعة تكشف افضل الوسائل التى تكفل لك التعرف الى نفسك لتكون لك شخصية حقيقية تكون دعامتك فى الحياة .

لكى تعرف نفسك : اقرأ هذا الكتاب

ان أهم عمل يجب ان يقوم به كل مخلوق بشرى ، هو أن يكون شخصا حقيقيا ، فنحن نمتلك بالطبيعة العوامل التى يمكن أن تصنع منها الشخصية . ومسئولية كل انسان الاولى هى أن ينظم هذه العوامل فى حياة شخصية فعالة .

ونستطيع أن نقول دون مبالغة ، أن التعساء الذين يشعرون بالخيبة ، الذين لا يستطيعون تكييف أنفسهم مع الحياة ، هم أعظم مأساة فى العالم . وهم سواء اكانوا من سكان القصور أم الاكواخ .. وسواء اكانوا من غير المتعلمين أم من طلبة الجامعات ، وفى أى ظرف من الظروف ، فان الذين يفشلون فى بناء شخصياتهم نفسها انما يلقون بأنفسهم فى جحيم مستعر .

ان ثلاثة عناصر تدخل فى بناء الشخصية ، هى : الوراثة ، والبيئة ، والاستجابة الشخصية . ونحن غير مسئولين عن الوراثة ، كما اننا ليس فى استطاعتنا السيطرة على الكثير من بيئاتنا ، ولكننا مسئولون عن القدرة على مواجهة الحياة باستجابة فردية . ولكن عندما يتضمن قبول هذه المسئولية الحكم على انفسنا ، نجد أن عذرا ثابتا يهرع لانقاذنا . .

هذه الرغبة فى تفادى اللوم نجدها فى ابراز الدور الذى يقوم به الحظ . انهم يقولون أن السعداء يحصلون على « حظ سعيد » ، ولا يرجعون فشلهم الشخصى الى الخطأ قدر مايرجعونه الى سوء البخت .. !

أما أن الحظ يمثل عاملا حقيقيا فى التجربة البشرية ، فهذا شىء لا ريب فيه ، والشخص الذى لايتوقع الحظ السيىء كعنصر من عناصر الحياة ، انما يحاول أن يعيش فى عالم خيالى ..

لقد أصيب العداء المعروف جلين كانجهام بالعجز فى طفولته بسبب حريق شب فى مبنى المدرسة ، ويومئذ قال الاطباء إن المعجزة وحدها هى التى تستطيع أن تجعله يسير مرة أخرى . لقد كان شخصا سيىء الحظ ..

وبدأ يسير وراء المحراث عبر الحقول ، وقد استند اليه ليساعده على الوقوف .. واستمر فى التجربة بلا كلل ليرى ماذا يستطيع ان يفعل بساقيه .. حتى ضرب أخيرا الارقام القياسية فى سباق الميل .. !

ولقد صدر كتاب « تقدم الحاج » من السجن ، وكذلك حدث لكتاب « دون كيخوتة » وكتاب « تاريخ العالم » للسير ولتر رالى ، ومجموعة من افضل القصص التى كتبها « أو. هنرى » .

ان سوء الحظ مجرد عذر ، لان الحظ الحسن وحده لا يضمن الشخصية الحقيقية قط . وكثيرون من الناس يتهربون من الاحساس بالمسئولية الشخصية بالانحراف الى حالة من القضاء والقدر العاطفى .. والعجيب أن هذه الحالة من أكثر الحالات النفسية المريحة التى يمكن أن يعيش فيها الانسان ، اذ يعتقد انه اذا كان آلة تدور بطريقة ذاتية ، فهو ليس مسئولا عن شىء .

وتكشف رغبة الانسان فى التهرب من المسئولية عن نفسها — فى أعلى مستوى لها — بأن تنسب كل الصفات الشخصية الى الوراثة والبيئة ، وتلك نظرية شائعة اليوم ، تستخدم دفاعا من كل نوع من أنواع النقص .

فكانت الاجابة هى : أى تل تعنى ؟ لا تل هناك ، ان عجلاتك الخلفية غير موجودة .. !

ان العالم مكان خشن فظ ، والآخرين دائما غير عادلين ، أنانيون قساة .. !

ومع ذلك فاننا نعرف الفرق بين الرجل الذى يتلمس الاعذار دائما ، والرجل الذى اذا واجه موقفا عصيبا ، نظر عادة الى داخله ، الى مسلكه هو نفسه وموارده ، غير ملتمس عذرا أو متهربا من العبء أو اللوم . وفى أى ظرف ، يعتبر نفسه هى مشكلته الكبرى ، واثقا انه اذا عالج نفسه جيدا ، فان هذا سيسفر عن بعض الاختلاف .

اننا عندما ننجح ، أو عندما نحقق غاية مرغوبة بقوة العزيمة والجهد ، فاننا نكون واثقين من انه كان لنا نصيب فى ذلك النجاح ، ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نتهرب من المسئولية عندما نفشل . فبداية الحياة الجديرة بالعيش اذن هى مواجهة انفسنا كمخلوقات فريدة ، كل منا مكلف بصنع شخصيته .. ومع ذلك ، فان الكثيرين من الناس يكافحون كل عامل يمكن تصوره قبل ان يواجهوا مشكلتهم الاولى .. الا وهى انفسهم .. !

ذواتنا الكثيرة

ان العبارة الشائعة « يبنى شخصية » هى فى الواقع تسمية خاطئة .. فالشخصية أقرب الى النهر منها الى البناء ، اذ هى دائمة التدفق ، ولكن

تكون شخصا ، يجب أن تكون قائما بعملية دائمة من الملاءمة .

وهكذا فان اختبارات الشخصية الحية الناجحة ، لا تتشابه تماما عند تطبيقها على شخصين فى مواقف مختلفة ، او على شخص واحد فى اعمارمختلفة ، أما اذا بحثنا عن معيار واحد ، فهناك اتفاق عام ، وهو أن الشخص الحقيقى يصل الى درجة عالية من الوحدة داخل نفسه .

ان كل واحد منا يواجه باستمرار مشكلةالحياة غير المنتظمة . فالشخص المرتبك ، يضطرب بصورةسيئة ، لانه اضاع نظارته ، والشخص الخائف يصيبه الذعر ، والشخص السريع الاثارة اذا فوجىء بنوبة غضب ، فقد السيطرة على نفسه .. ومثل هذه الامثلة تذكرنا كيف أن اكتمالنا الشخصى أمر غير مأمون .

ان الكثيرين منا يتصرفون فى كثير من الاحوال بعيدا عن صفاتهم ، فالصورة العامة لحياتنا قد تتضمن الامانة والصدق وبعض الصفات المشابهة .. ولكنها لا تعمل وفقا لها دائما ، وهذا واضح تماما حتى بالنسبة لفضيلة مثل الادب .. فكم من الناس من لا يمكن الاعتماد على أدبهم ، فهم مؤدبون اليوم مشاكسون غدا ، كريمون ذوو خصال حميدة فى العمل ، عابسون تاثرون فى المنزل ، لطيفون مع اندادهم ، شرسون مغرورون مع من هم أقل منهم .

وفى الرجل ذى الشخصية ، تكون الاستجابة للحياة قائمة ومنظمة بطريقة حسنة ، بحيث يمكن الاعتماد عليها ، فعواطفه ورغباته وآراؤه المختلفة متفاوتة تماما ، لقد اصبح شخصا كاملا ، ذا طابع متحد من الفكر والشعور يلتصق بكل شىءيفعله

والحياة المتكاملة جيدا ، لا تعنى انها حياة وادعة ، لم يعد فيها أى نزاع ، فكثير من الارواح العظيمة كانت تتعذب فى أعماقها . لقد مر على « فلورانس نايتنجيل » وقت عصيب كانت تحاول البحث فيه عن نفسها عبثا . وكتبت فى مذكراتها تقول : «اننى لاأرى فى عامى الحادى والثلاثين شيئا أرغب فيه أكثر من الموت » ! وكتب الواعظ دوايت مودى يقول : « لقد واجهت من المتاعب مع «مودى» اكثر مما واجهته مع أى انسان آخر»

وهكذا الحال فى كل الشخصيات القوية ، اذا اصغى الانسان لما يدور وراء الكواليس ، سمع صدى النزاع والنضال الذى يدور فى أعماقهم ، ولكنهم بدلامن أن ينطلقوا فى بيداء الحياة

على غير هدى ، فان هؤلاء الاشخاص نظموا حياتهم حول بعض القيم السامية وتوصلوا الى الغرض والحافز ..

ومن ثم فان العملية التى يمكن الوصول بها الى الشخصية الحقيقية، عملية داخلية وروحية .

ومهما كان حظ الانسان جيدا فى النشوء وسط بيئة واسرة طيبة محبة، فان هذا لايغنى عن مواجهة نفسه . أما فيما يتعلق بالرخاء المادى ، فانه يخل بنظام الحياة غالبا بدلا من أن يوحدها ، فالارهاق العصبى يصيب ذوى الرخاء اكثر من غيرهم ، كما أن الثروة تزيد عددالاشياء التى يمكن الاختيار بينها ، مما يؤدى فى الغالب الى زيادة الشقاق بدلا من الرضى ..!

***

وصف أحد كتاب القصة العصريين احدى شخصياته بقوله : « لم يكن مخلوقا بشريا بقدر ما كان حربا أهلية » . ان كل كائن بشرى يواجه فى بعض الاحيان موقفا ، يجد فيه نفسه الحقيقية بظروفها وطاقاتها فى ناحية ، وفى الناحية الاخرى صورا مثالية لنفسه وماحققه من أعمال .. وبين الصورتين هوة عظيمة الاتساع لابد من عبورها ..

ان مجد الانسان انما يتمثل فى الاحتفاظ بمثله العليا وطموحه . ولن يجد وسيلة لتحقيق ذلك افضل من تنمية شخصيته ، ومع ذلك فان هذه المقدرة يمكن أن تعمل بطريقة شاذة ، فتمزق الحياة شر ممزق .

ليس فى الاستطاعة اذن أن تحقق الحياة المتكاملة جيدا ، دون أن يكون هناك عمل مبدئى من قبول الذات، كأن تقول لنفسك : « اننى أقرر هنا ــ انا جون سميث ــ اننى أقبل نفسى بما ورثته من مزايا وعيوب ، ومايوجد فى بيئتى من عناصر لا حيلة لى فيها ، وهكذا أقبل نفسى بقدرها المحدود . وسأرى بعد ذلك ماذا استطيع أن أفعل بهذا الـ « جون سميث » » :

وغالبا مايشور التوتر بين وجودنا وأنفسنا التى نرغب فيها بسبب مثل أخلاقية عليا ، حيث تعالج بطريقة سيئة .

واذا لم يتحقق قبول الذات ، وازداد التوتر شدة بين واقع النفس ومايحلم به المرء ، كانت النتيجة غير سعيدة ، وقد تنقلب احيانا الى احساس ساحق بالنقص . لقد كشفت دراسة واحدة لحوالى ٢٧٥ رجلا وفتاة من المتعلمين ان أكثر من ٩٠ ٪ منهم يعانون من احساسات عنيفة مخيبة للأمل بالنقص وهم يعللون ذلك بمختلف الاسباب .

كالعجز الجسماني ، أوالمظهر القبيح، أو انعدام السحر الاجتماعي ، أو الفشل في الحب ، أو قلة الثقافة ، أو الفشل الادبي .. أو الاثم .. !

وتبدو أهمية المشكلة نفسها واضحة على ضوء السبل غير السليمة التي تعالج بها عادة ، فالبعض يعالجها بطريقة اطلاق ستار من الدخان حولها حتى لا يعرف احد النقص التعس الذي يشعر به ، فيصبح الرجل الخجول مشاغبا ، والمرتبك متدفق العاطفة ، وذو الحياء فخورا متباهيا. ان شخصا كان معروفا بين اسرته بالرقة والرزانة ، عاني من فشل اذله فانقلب على الفور فظا مسيطرا .. وعلى العكس ، فانه كان اذا أحس بتفوقه ، تصرف بتواضع كأنه يشعر بنقص ، فاذا استولى عليه الشعور بالنقص بدأ يختال متفاخرا من جديد

وهناك آخرون يتصرفون كالثعلب في الاسطورة المشهورة ، فهم يصفون كل عناقيد العنب التي يفشلون في الوصول اليها بانها مرة المذاق .. ! فالشاب العليل يبتعد عن الرياضة ، والفاسد يسخر من الذين يتحكمون في أنفسهم ويصفهم بانهم اتقياء .. ! والفاشل في المدرسة يتهكم على المثقفين بانهم متحذلقون أدعياء علم .. وهكذا ينبعث قدر كبير من السخرية من هذا المصدر . راقب ما يسخر منه الناس ، تستطع أن تكشف الشيء الذي ينقصهم ، وما يتلهفون — دون وعي — الى امتلاكه ..

وهناك أشخاص آخرون يتلمسون اعذارا تستند الى ادراك مبالغ فيه بنقصهم ، فترى التلميذ الذي يصارع الفشل يقول : « لقد فكرت في الامر مليا ، وانتهيت الى أنني مصاب بضعف عقلي » .. ! وهو بدلا من أن يشعر باليأس لقوله هذا ، تراه يعلنه بارتياح ، وكأنه وجد عذرا كاملا يخليه من كل مسئولية ، وان كان في الوقع عذرا سخيفا ، شاذا من الناحية العاطفية .

***

وبين العناصر الانشائية التي تجعل قبول الذات أمرا جوهريا لكي تصبح شخصا حقيقيا ، مبدأ التعويض . فالنقص يمكن أن يصبح دافعا قويا ان الفتاة الساذجة قد تصبح ذات فطنة وفتنة لانها تشعر ببساطتها . والشاب الخجول الذي يميل الى العزلة ، قد يصبح ذا فائدة كبيرة في الابحاث العلمية بفضل هذا الشعور.

وأهم ما يكتنف مثل هذا العلاج الناجح للنقص المعترف به ، القدرة

على الانقلاب من الموقف الدفاعى الى الهجوم صوب حدودنا . فجون سميث يقبل جون سميث بحدوده الواقعية ومتاعبه الملموسة ، ويبدأ بعد ذلك العمل فى حزم لاكتشاف ما يستطيع ان يفعله معه ..

لقد ادين الكابتن جون كالندر من ضباط المليشيا فى ماساشوسيت ، بتهمة الجبن فى معركة « بنكرهيل » واضطر جورج واشنطون الى أن يأمر بمحاكمته عسكريا ، وعاد كالندر بعد المحاكمة الى التطوع مرة اخرى كجندى صغير ، حيث أبدى فى معركة « لونج ايلاند » من الشجاعة الظاهرة مادفع واشنطون الى الغاء الحكم السابق واعادته الى رتبة كابتن .. ووراء مثل هذه التجربة يكمن عمل أساسى لقبول النفس مع التحول من موقف الدفاع الى الهجوم ..

وفى سبيل تقبل الذات ، قد يبدأ الانسان بتقليل الاشياء التى تشعره بالاذلال الى أقل حد ممكن . فالوجه القبيح ، أو نقص القدرة المطلوبة ، أو الضيق الاقتصادى ، كلها مجرد حدود .. وهى لاتصبح موضع اذلال الا لاننا نحن نجعلها كذلك فى أعماقنا .

ما أشبه الحياة برسم منظر طبيعى .. فنحن نتلقى مسكانا صغيرا أو متسعا ، وعرا أو منبسطا ، وقد تحددت امامنا خطوطه الرئيسية وحدوده العامة . فكل مكان يحوى التحديد والفرصة معا . وأغلب النتائج غير البادية انما تنجم عن المعالجة .. فقد تختفى بعض الفرص العظيمة ، بينما تشتهر مواقف أخرى لم يكن يرجى منها أمل . وسوف تظهر العناصر الاساسية فى أى مكان شخصى فى النهاية مهما حدث لها ، كالارض الخلاء لا تزال تكشف عن حجمها وشكلها الكبير وحدودها مهما فعل المهندس بها ، ومع ذلك فان هذه العناصر يجب تقبلها على أنها فرص أو حوافز دافعة ، لا على أنها شىء يثير الاذلال أو حدود ثابتة كما هو شائع .

وهناك سيدة من أقدر النساء اللاتى عرفتهن — وهى الآن زوجة مدير احدى الجامعات — نشأت فى بيئة فقيرة ، وهى ما زالت تذكر يوما شكت فيه متاعبها لامها ، فقالت لها الأم :

— لقد وهبتك الحياة وهذا كل ما أستطيع ان أمنحك اياه . فكفى عن الشكوى وافعلى شيئا بحياتك ..

تخليص انفسنا من أيدينا

هناك مدرسة معينة تهدف الى منح الشخصية الساحرة لطلابها ، تتطلب

فى الدرس الاول ان يقف الشخص امام مرآة كبيرة ثم يكرر نطق اسمه فى صوت ناعم رقيق منخفض ، حتى يؤثر فى نفسه بنفسه . ولكن السيطرة على النفس بالنفس يمكن ان تصبح من أكبر القوى المزقة فى الحياة . فالشخصية المتكاملة مستحيلة الا اذا وجد الفرد خارج نفسه مصالح ذات قيمة ؛ ينسى نفسه فى تكريس ذاته لها . وحتى نكون اشخاصا كاملين ، لابد لنا من تخليص انفسنا من أيدينا .

ان تركيز الاهتمام على النفس امر طبيعى فى مطلع الطفولة ، ولكن الكثيرين لا يستطيعون التخلص منه بعد ذلك قط ، فتجدهم وهم فى الخمسين من عمرهم ، مازالوا يعيشون على صور صبيانية . مثل هذا التركيز على النفس قد يقضى على شخصيتنا الحقيقية ، فالشخص المنطوى على نفسه سيصبح مجرد لفافة صغيرة !

والمقترحات العملية للطرق ، والوسائل التى تخلص انفسنا من أيدينا لابد أن تبدأ مع الجسم فى المنزل عن كثب ، ان الكثيرين من التعساء الذين يركزون اهتمامهم على انفسهم ليسوا فى حاجة الى طبيب نفسانى ، قدر ما هم فى حاجة الى ادراك سليم فى معالجه الاسس البدنيه لحياة سليمة

لقد صنعت اجسامنا لكى تستخدم فى اعمال بدنية شاقة ، ومن اكثر الاشياء المريحة فى الحياة أن ينسى الانسان نفسه فى عمله ، وهذا هو السبب فى ان كثيرين من الناس يصبحون عصبيين اذا مر بهم فراغ لا هدف له ، اكثر مما يصيبهم من العمل المرهق .

***

ان الناصح الشخصى يواجه دائما انواعا من الحياة التى يركز أصحابها اهتمامهم على انفسهم ، وهم يجاهدون سعيا وراء السعادة عن طريق التعبير عن النفس . والمعنى الشائع للتعبير عن النفس هو : دع نفسك تنطلق على سجيتها ... انزع السدادات عن براميلك العاطفية ودعها تتدفق . . ولكن الناصح الشخصى الحكيم يريد ان يمارس التعبير عن النفس ؛ وفقا للحقائق النفسية الواقعية . ان مجرد التفجير العاطفى فى سبيل الاثارة العابرة للانطواء على النفس لا يوصل الانسان الى اى هدف ، بل ان التكرار المستمر لمثل هذا التفريج العاطفى عن النفس انما يضيع الحياة فى النهاية ويجعلها بلا هدف أكثر مما كانت من قبل .

ان التعبير الملائم عن النفس اعمق بكثير من التفجير النفسى . ان اساسه الحقيقى ليس فى التحرر او الاباحية، بل انه يبدو فى شخص الفنان ، او العالم ، او الام السعيدة المشغولة باسرتها ، ورجل الاعمال الذى يحس بما يريده الجمهور ، فيخلق شيئا لجماعته ..

***

وهناك نتيجتان عمليتان على الاقل تنجمان عن مثل هذا الامتداد الناجح النفس . فهى اولا تكسب الشخص روحا مرحة منقذة ، اذ ان انعدام الاحساس بالمرح يعد عقوبة لا مناص منها للشخص المحزون الذى يشعر بقلق ذاتى شاذ . اما الذين يعيشون فى اشخاص آخرين ، وفى مصالح مترامية الاطراف ، ومن ثم يستطيعون رؤية انفسهم دون تحيز .. فهؤلاء هم وحدهم الذين يمكن ان يشاهدوا انفسهم كما يراهم الآخرون .

لقد جلس الرسام الكاريكاتورى « ناست » ذات مساء مع فريق من رجال المجتمع ، واخذ يرسم لكل منهم صورة كاريكاتوريه ، فكانت النتيجة عجيبة .. لقد عرف كل واحد الصور الكاريكاتورية للباقين بسهولة تامة ، بينما لم يستطع البعض معرفه صورته هو نفسه .. !

ان عدم القدرة على رؤية انفسنا كما نبدو امام الآخرين ، علامة صادقة على عدم النضج فى تركيز الاهتمام على النفس .

لقد رسم ارسطو فى مسرحيته التى اسماها « السحاب » صورة كاريكاتورية لسقراط ، وعندما عرضت المسرحية ، ضجت كل اثينا بالضحك .. وذهب سقراط ليشاهد المسرحية وعندما عرضت صورته الهزلية ، نهض واقفا ليستطيع الجمهور أن يتمتع بالقناع الهزلى الذى كان يثير الضحك عليه .. لقد كان انسانا ناضجا خلص نفسه من يديه .

ان الشخص الذى يستطيع أن يتحقق من ذاته حقا بين اشخاص آخرين ، انما يفعل شيئا فى المرتبة الاولى من الاهمية دون ان يدرى . فهو قد عاش الى الآن بعقل يشبه غرفة تحوطها المرايا ، اينما التفت رأى نفسه .. ثم تحولت بعض المرايا الى نوافذ ، يستطيع ان يتطلع منها الى اشياء جديدة تهمه ..

استخدام كل ما يوجد فينا

اننا يجب أن نفعل شيئا بأية وسيله بكل الدوافع العاطفية المتأصلة

فى كياننا ، وبعض هذه الدوافع العاطفية كحب الاستطلاع ، أو حب المشاكسة أو الخوف ، واحترام النفس ، والرغبة الجنسية ، تعتبر جزءا اساسيا منا ، فاما أن تصبح عبيدا أذلاء لها أو نسيطر نحن عليها لمصلحة شخصيتنا .

حب الاستطلاع : حافز عاطفى فى كل الاشخاص العاديين ، ومن مظاهره المختلفة ، اختلاس النظرات ، والتفرس والثرثرة ، والفضوليون الثقلاء ، وذوو العقول المتفتحة الباحثون عن الحقيقة ، والمكتشفون الشجعان ، وعلماء الابحاث .. كل هذه صور من حب الاستطلاع واستخدام بعضها ينتج اشخاصا جديرين بالاحتقار ، فى حين أن بعضها الآخر يؤدى الى ظهور أشخاص جديرين بأعظم الاعجاب ، ومن هذه الحقيقة التى تصدق على كل الحوافز الكامنة فى أعماقنا ، يبرز أمامنا درس مزدوج . فأولا : ليس هناك عامل عاطفى أساسى فى الطبيعة البشرية جدير بالاحتقار . وثانيا : ان كل عامل منها يمكن أن يسمو ويرتفع قدره بالطريقة التى يستخدم بها .

حب المشاكسة : وهو من اعمق الحوافز العاطفية تأصلا فى الطبيعة البشرية ، فالقتال ضرورى لاستمرار الحياة البشرية وتقدمها . وروح القتال تعبر عن نفسها فى العمل الشاق ، وفى مواجهة العقبات الشخصية بشجاعة وفى مواجهة الشرور الاجتماعية التى تحيط بنا .

ولكننا اذا سمحنا لهذا الدافع العاطفى الذى لا غنى عنه بالمرور ، كانت النتائج مروعة ، فالحقد المزمن والكراهية الكامنة كفيلة بأن تمزق صاحبها اربا .. والاحساس القوى بالحنق يمكن أن يسبب المرض كالجرثومة تماما . واذا كان المرء من سوء الحظ بحيث ان له عدوا ، فان أسوأ ما يفعله ، ان يجعل حنقه عليه يتغلغل حتى يصبح حقدا مزمنا ..

والخوف : أيضا من العوامل التى لا غنى عنها فى التكوين البشرى ، وهو حتى فى أبسط صوره لايمكن الاستغناء عنه ، فالرجل الذى لا يخاف اذا سار فى شوارع مدينة عصرية ، سيموت حتما قبل حلول الظلام .. ولكن الخوف يمكن أن يصبح دافعا قويا للخلق والابتداع ، فالمدارس تنشأ خوفا من الجهل ، والصناعة خوفا من الفقر وعلوم الطب خوفا من المرض ، أما ظواهر الخوف الشاذة ، كالهستيريا والقلق المستحوذ على النفس ، فانها تمزق الشخصية شر ممزق .

والحياة البشرية مليئة بصور سرية

من الخوف ، تكمن فى الغرف العليا والممرات المظلمة من الشخصية ، كالخوف من الظلام ، ومن القطط ، ومن الاماكن المغلقة اوالاماكن المكشوفة والخوف من المسئولية ، ومن انجاب الأطفال ، ومن الشيخوخة والموت ، والخوف من الاثم ، والخوف الدينى الذى يرتبط بأفكار عن اله منتقم يرى كل شىء وجحيم أبدى ..

وهناك احيانا خوف غامض ، يملأ الحياة بمخاوف تثير القلق .. مثل هذا الشقاء يصيب حياة عددلايحصى من الناس بلعنة رهيبة ..

ان الكشف عن خوفنا ومواجهته بصراحة امر على أكبر جانب من الاهمية . فقد بدأنا الاحساس بالخوف ونحن اطفال من شيئين فقط ، هما : السقوط ، والصوت المرتفع . ومنذ ذلك الحين ، اخذت بقية المخاوف تتكدس فى اعماقنا ، ونصف المعركة ينحصر فى معركة كيف واين جمعنا هذه المخاوف ، واقتفاء اثر تطورها ، حتى نستطيع أن ندركها وكأنها مخاوف شخص آخر لا مخاوفنا نحن ، وسوف نتمكن بعد ذلك فى الغالب من ابعادها عن أنفسنا .

ولكننا احيانا قد نجد ما يبرر الخوف الذى تواجهه انفسنا ، وفى هذه الحالة ، تهزمنا عادة الفكرة الخاطئة القائلة ان المواقف الخطرة شىء غير مرغوب فيه ، فى حين أن هناك فى الواقع بواعث مقوية فى المناسبات الخطرة .

ان حب الخطر من أقوى الدوافع فى الانسان ، واذا لم تكفل الحياة بذاتها للناس مخاطر كافية ، خرجوا للبحث عنها ، اما فى الرياضة ، او فى الابحاث الخطرة ، أو الرحلات الاستكشافية أو المغامرات ، أو فى تبنى قضايا غير مألوفة ، والواقع أن مواجهة موقف خطر وجعله يستثير فينا حبنا للعراك — لاالخوف — هو تجربة صحية مفيدة للروح .

ولعل العمل هو اعظم أنواع العلاج للمخاوف غير السليمة .

ولعل طبيعة الخوف المزدوجة باعتباره خيرا وشرا معا — تبدو اوضح ما تكون فى الرجل الذى يخشى كثيرا ألا ينجز عمله ..

اعتبار الذات : وهذه ايضا يجب الا تحتقر أو تكبت ، بل يجب أن تتعلم وتستخدم

وعندماقال تشارلس لامب : « ان أعظم متعة عرفتها ، هى أن اعمل شيئا طيبا فى الخفاء ، ثم أدعه يكتشف مصادفة » . فانه كشف كيف أن

الرغبةفىالملاحظة والفوز بالانتباهالذى يعظم تقـــدير النفس امر شائع بين الناس جميعا ..

انالساخر يقول : ان فى أعماق كل حياة « خالية من الانانية » دوافع من اعتبـــار الذات . وهو على حق فيما يقول ، وان كان مخطئا فى سخريته منها . فنحنجميعانبدأ حياتنا الفردية كأطفال ، يتمتعون بغـرائز من اعتبار الذات . ومع ذلك فان اختبارنا انما يــكمن فى الاغراض والاهــداف التى تســـيطر فى النهاية على هذه القوى الكامنة فينا وتستخدمها كقوة دافعة ومن ثم فان الناصح الشخصى الحكيم يجب الا يقــول لاى انسان انه يجب الا يرغب فى أن يشــعر بأنه مهم ، بل ان عليه أن يسعى لتوجيه هذهالرغبة القــوية الى اتجاهاتانشائية ، فنحن لا نستطيع ، بل ولا يجب أن نتوقف عن العناية بأنفسنا ، فان عملنا الاول فى الحياة هو العناية بأنفسنا كثيرا ، حتى تصبح شيئا جديرا بالبقاء ..

ولعل كلمة « الطهـــر » هى أكثر الكلمات التى يدور حولها الحديث فى ميدان الرغبة الجنسية ، وهى أيضا أقلها فهما ، فالتســامى لا يمكن أن يكون علاجا لكلحاجات الكائنالبشرى فليس هناك بديل عن الطعام لارضاء الاحســـاس بالجوع البدنى ، وعندما نفكر فى الجنس ــ بأضيق معانيه ــ فانه ينتمى الى هذه الطبقة ..

فالشــاب الذى يعـــانى من هـــذه الحاجة الحيوية الاولية يمكن انيقال له أشياء كـثيرة معقولة . فالعفـــة لا تضــعف الجسم ، والانغمــاس فى فى الجنس ليس ضروريا للصحــة ، والقلق العام الذى يصــاحب التوتر الجنسى يمكن التخفيف عنـــه عادة باداء عمل شاق يتعب الجسم كله ، وان الرغبــة الجنســية شىء طبيعى سليم ، يجب أن نتقبلهـــا بالشــكر والروح الطيبـــة باعتبارها جزءا من من تكويننا البدنى ، فلا نلونها بشعور معتل بالاثم . أو نقول له ان للطبيعة اذا تركت وشأنها وسائلها الخاصـــة للتخفيف من التوترالجنسى المحدود .

ولكن الجنس أعمق تأصلا وأشمل نفاذا فى الشخصية مما كان يبدوأول الامر ، فكل العلاقات العائلية، الابوية والأمومة والبنوية ، تنصهر فى هذا المعنى الاكبر من الجنس ، الذىيشمل كل أنواع الحب السامى ، والصداقة بين الاخوة والاخوات ، بين بقيـــة الرجال والنساء ، فى مســلك الاسرة نحو المجتمع بوجــه عام ، أو فى حب الاطفال والعناية بهم ..

وعندما يفكر الانسان فى حياته هكذا ككل لا يتجزأ ، يصبح الطهر الجنسى شيئا زاخرا بالمعانى . ومن الممكن أن يختار الانسان وسيلة للعيش تحول ما فيه من ولاء وطاقات ابتداعية الى نواح مرضية ، ولو ترك رغباته الجنسية دون اشباع. فالمرأة غير المتزوجة ، التى لا تستطيع أن تصبح أما ، تستطيع أن تجد فى التمريض والتدريس والخدمة الاجتماعية منفذا لغريزة الأمومة فيها .

ومن المؤكد انه لا بد أن يكون هناك بعض الضبط لدوافعنا الكامنة . وتصور أن كل الدوافع المتأصلة وقد فجرت نفسها معا .. حب المشاكسة، والرغبة الجنسية والخوف الخ .. لا شك ان الفوضى سوف تعم ، وهكذا نجد أن الفكرة القائلة ان ضبط الدوافع العاطفية الاساسية أمر غير صحى انما هى هراء ولغو ..

والاختيار الذى نواجهه ، لا ينحصر فيما اذا كانت دوافعنا الكامنة ستخضع للضبط أو المراقبة ، بل انه يتلخص فى : كيف يمكن أن يتم ذلك لخدمة حياة متكاملة ؟

***

ان الامكانيات الكثيرة التى توجد فى استخدام او اساءة استخدام دوافعنا المتأصلة ، تنبت كلها من الصفة الاساسية للحياة العاطفية بأسرها .. وهى الحساسية ، ومن أهم الموضوعات التى تتصل باختبار النفس . وهى قادرة على التحقق من التى نعالج بها هذه الصفة الجوهرية. فاذا اكتشف الانسان ماهى طبيعة الاشياء التى تثير غضبه ، فانه سوف يكتسب ادراكا قيما لمشاكله الشخصية

هناك كثيرون من الناس يغضبون سريعا من النقد ، وهؤلاء خلت حساسيتهم حيال رأى الآخرين فيهم، فأصبحت مرضا ، فى حين أن هذا الرأى ضرورى لاستمرار الحياة الاجتماعية . مثل هؤلاء الاشخاص الشواذ ، يعتبرون أن تقديرهم أمر مسلم به ، ويرون فى الانتقاد وقاحة ، أما الشخص العادى ، فهو يعتبر النقد أمرا مسلما به ، أما التقدير فهو مكافأة اضافية .

الكآبة المسيطرة

يعتبر القنوط واليأس من أسباب الاضطراب الشخصى الشائعة. وبعض هذا القنوط يرجع الى سبب مادى ، ولكن حالات الكآبة التى يعانى منها الكثيرون ليست كلها من النوع الذى لا يمكن السيطرة عليه .

والاقتراح الاول لمعالجة هذه

المشكلة هو : خذ القنوط أمرا مسلما به ، فالذى يتوقع التخلص تماما من حالات الكآبة والهموم انما يطلب المستحيل ، ولكن مواجهة هذه الحالات بصورة جدية ، بدلا من تركها تمر ، يكسبها قوة مسيطرة يجب الا تكون لها .

أما الاقتراح الثانى ، فهو شىء له اهمية يومية ، فنحن لا يمكننا أن نتحقق من انفسنا فى حالات مزاجنا السيئة ، بل فى حالاتنا الطيبة . ان فى أعماقنا جميعا تلك القدرة المعروفة باسم « الذات » أو « أنا » .. فانا استطيع أن أختار هذه الحالة النفسية لا تلك ، لتمثل حقيقة النفس . وهى قادرة على التحقيق من نفسها بالامل اكثر منها بالانقباض ، وبالنية الطيبة لا بالحقد والضغينة .

وكل عبيد الكآبة والانقباض يشتركون فى أنهم اكتسبوا عادة التحقق من ذاتهم العقلية وهم فى حالات غير طيبة ، وهم لا يحتفظون فى بيوتهم العاطفية بأقبية فحسب — كما يفعل كل انسان — بل انهم يعيشون فيها .

ومع أن لكل منا ساعات يحس فيها بالانقباض ، فانه ليس هناك ما يدعو لان نصبح اشخاصا ذوى نفوس منقبضة دئما .

وهذا يقودنا الى اقتراح ثالث ، وهو : عندما تحس بالانقباض ، تمكن من نفسك ولا تكتنف بالقاء اللوم على الظروف وحدها ، فان الظروف كثيرا ما تكون فاجعة ساحقة بحيث تجعل الاكتئاب أمرا لامفر منه ، ولكن من الخطأ القاتل أن تتخذ من وجود المصيبة حقا فى أن تكون شخصا قانطا خائر العزيمة .

ان الحياة عملية امتصاص ، نحول فيها الى صفاتنا الخاصة كل مايدخل فينا .

اما الاقتراح الرابع ، فيمتد الى ما وراء التمكن من النفس ويقول لك : تذكر غيرك ، فالانفعالات معدية . ان الشخص المنقبض النفس يستطيع أن ينقل عدواه الى منزل كامل ، ويصبح آفة حتى بالنسبة للغرباء ، فلنتخذ لأنفسنا عبرة مما قاله أحد الحكماء ، عندما قال : « فلنكن عطوفين على بعضنا البعض ، اذ أن أغلبنا يكافح فى معركة شاقة » .. ولا شك أن الروح المرحة والشجاعة من أهم انواع اللطف التى نستطيع اظهارها .

ويتطلب الاقتراح الخامس موارد عميقة من السجايا : فلنتذكر أن هناك اعمالا هامة جدا يجب انجازها

سواء أكنا نشعر بالانقباض أم لا .. والشخصيات القوية تحل مشكلة الاكتئاب عادة لا بالتهرب منها ، بل بتحويلها الى طريق آخر ، اذ أن أمامهم أعمالا يجب أن يقوموا بها وأهدافا يحققونها ، وسواء أكانوا يشعرون بكآبة أم لا ، فان الخط الرئيسي لحياتهم يجب أن يستمر في طريقه .

منتهى القوة

ان تجميع الشخصية أمر يتطلب احتياطا داخليا من القوى .. قوى امتصت من وراء النفس ذاتها . وكما توجد الشجرة عن طريق الامتصاص الكيميائي للجذور والاوراق ، فان أجسامنا تحفظ نفسها بقوى مناسبة . فالسكون كله يكفل لنا الوسائل التى لاغنى عنها والتى نعيش عليها جميعا . اننا نعيش على طاقة كونية ، وقوانا لا تصنع فينا ، بل انها تطلق عن طريقنا .

وهذا المبدأ الخاص بالقوة التى نطلقها لا يتوقف عند أى خط وهمى يفصل جسم الانسان عن تجاربه الروحية . ان كل التجارب الدينية العميقة تثبت أن ارواحنا مستمرة بحياة روحية اكبر ، وحتى فى هذا الميدان ، نجد أن قوانا ليست من انتاج ذاتى ، بل انها نتيجة امتصاص ..

ولعل اكثر الحالات المثيرة للعواطف التى تواجه الناصح الشخصى ، هى حالات هؤلاء الذين لا يجدون وسيلة لعلاج مشكلاتهم غير الثقة فى قوة مشيئتهم ، اذ أنهم سيواجهون عاجلا أو آجلا مشاكل لا تصلح معها مثل هذه الوسيلة مطلقا ، فالحرمان مثلا يجلب معه أسى عميقا ، ويتطلب تقبلا كريما من الايمان .

قد يسأل الكثيرون : كيف يحصل الانسان على الايمان ؟

ان المرء لا يمكنه أن يرغب فى الحصول عليه ، فالايمان ليس شيئا نحصل عليه ، انه شيء لدينا ، بل ان لدينا فائضا منه ، يرتبط باشياء أغرب مما يستطيع اللسان أن ينطق به . فهناك الايمان بالديكتاتورية ، أو بالتنجيم ، أو دواء الطبيب الزائف الخ ..

أما أن لدينا من الايمان اكثر مما نعرف ماذا نفعل به ، فانه يبدو فى الطريقة التى نمنح بها هذا الايمان لكل ما يواجهنا من الاشياء المختلفة .

وهناك كلمات خادعة تزيد الامر غموضا ، مثل قولنا « الايمان ضد عدم الايمان » ، فليس هناك انسان يستطيع أن يصبح غير مؤمن حقا .

انه مضطر نفسيا الى الايمان بالله او بعدم وجود اله مثلا . وعندما تختفى نواحى الايمان الايجابية ، تحتل مكانها أنواع من الايمان السلبى فى المستحيلات اكثر منها فى الامكانيات فى الآراء التى تجعل منا ضحايا اكثر منها فى الآراء التى تجعلنا اسياد الحياة ، فى الفلسفات التى تغوص بنا فى أعماق بعيدة ، كماقال رابليز وهو على فراش الموت :

ـ انزلوا الستار .. لقد انتهت المهزلة !

كتب احد الاصدقاء يوما الى تورجنيف يقول : « يبدو لى ان وضع الانسان لنفسه فى المقام الثانى هو كل مغزى الحياة » فأجابه تورجنيف بقوله : « يبدو لى ان الكشف عن الشىء الذى يضعه الانسان قبل نفسه فى المقام الاول ، هو مشكلة الحياة بأسرها » .

ان الثقة بأن التمكن من النفس امر جدير بما يبذل فى سبيله، والتصميم على أن نفعل ذلك ، انما يتوقف على الايمان بصورة ما . والاشخاص الحائرون المحزونون يتساءلون غالبا : « ترى ما الفائدة من محاولة خلق شخصية متكاملة نافعة ؟ .. ما هى أهميتنا بعد ذلك كله ؟ »

هؤلاء التعساء لا يدركون أن هناك شيئا يستحق العيش من اجله ، والعلاج الوحيد لمسلكهم العقيم هو الايمان القاطع .

ان الدين هو اكثر انواع الايمان قوة فى التجارب البشرية ، انه يقول لكل فرد انك مهما فشلت فى عمل شىء فلا داعى لان تفشل فى أن تصبح شخصا حقيقيا .

ان صناعة الحياة الشخصية العظيمة تتضمن عقبيات وعيوبا ، ومتاعب وفشلا ، فالكون ليس مجرد ذرات لا هدف لها اجتمعت كيفما اتفق ، بل ان الكون منظم حول اهداف روحية .. كما أن الشخصيه ليست شيئا يتكون مصادفة ، بل انها أكمل واتم طريقة لكى تعيش ، وهى اكثر الرموز التى لدينا عن طبيعة الله ملاءمة ..

وهكذا نجد ان الدين هو اساس لمغامرة مليئة بالامل ، ومصدر لقوة ممكنة. فى محاولة استغلال ما منحتنا اياه الطبيعه لكى نصبح ما يجب أن نكون .

☆ ★ ☆ ★ ☆

ما اجمل الا تفعل شيئا .. ثم تستريح بعد ذلك ! **مثل اسبانى**

كتاب الشهر

هذا اليوم الطويل

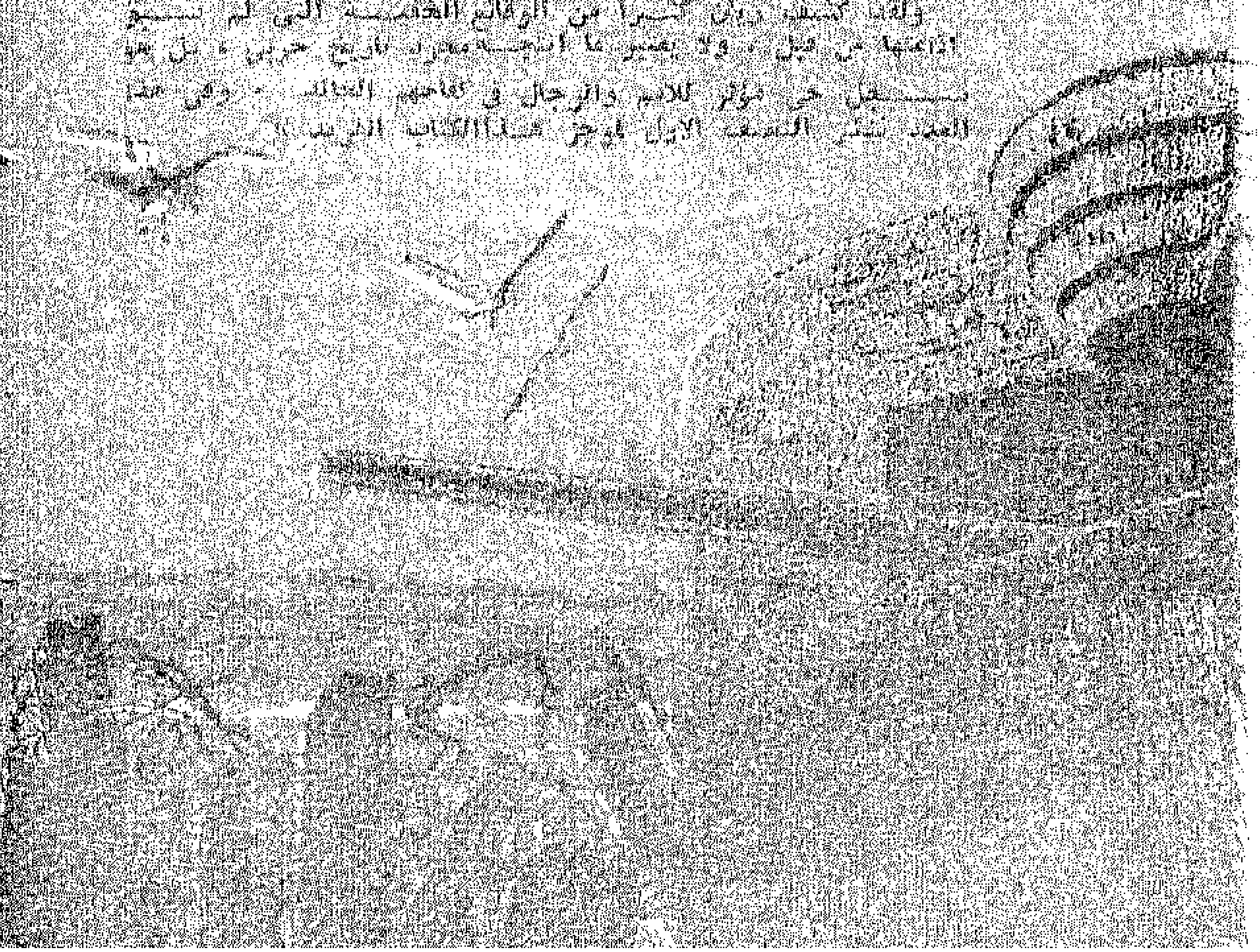
« اذا كنت قد قرأت كل ما كتب عن يوم الغزو أو لم تقرأ منه شيئا ... واذا كنت بين الذين ساهموا في القتال أو كانوا بعيدين عنه .. فسوف تؤخذ بروعة هـذا السرد العظيم لقصة هذه المأساة العجيبة . « جنرال جيمس جافين »

ان الجنرال جافين ـ الذي كان مساعد القائد الفرقة الثانية والثمانين لجنود المظلات التي هبطت بالباراشوت يوم الغزو ـ لبى الا واحدا من أكثر من ۷۰۰ شخص قصدهم المؤلف كورنيليوس ريان وهو يعد كتابه هذا .. وكان السؤال الذي وجهه ريان في أربع دول هو :

ـ ماذا كنت تفعل يوم ٦ يونيو ١٩٤٤ ؟

وقد وجه ريان هذا السؤال الى كبار القواد الامريكيين والانجليز والالمان .. ووجهه الى الجنود الامريكيين والبريطانيين والمشاة الالمان .. والى الفلاحين في نورماندي ، واعضاء المقاومة الفرنسية .. ومن اجاباتهم جميعا استطاع ريان تجميع حدث من أخطر أحداث العصور الحديثة .. هجوم الحلفاء الشامل على قلعة هتلر الاوربية .

ولقد كشف ريان كثيرا من الوقائع الخفية التي لم يسبق اذاعتها من قبل .. ولا يعتبر ما انجزه مجرد تاريخ حربي ، بل هو تسجيل حي مؤثر للأمم والرجال في تفاهم العالم .. وفي هذا العدد ننشر النصف الاول لموجز هذا الكتاب الرائع »



عن كتاب The Longest Day

بقلم كورنيليوس ريان

كانت القرية ساكنة في ذلك الصبح الرطيب من أيام يونية ..

لقد ظلت قرية «لاروش جويون» تقبع في هدوء لا يزعجها شيء منذ ١٢ قرنا في منعرج ضيق على ضفاف السين ، في منتصف الطريق بين باريس ونورماندي .. كانت مجرد مكان يمر به الناس في طريقهم الى مكان آخر ، كل ما يميزها هو تلك القلعة الاثرية التي كانت مقرا لدوقات أسرة روشفوكول ...

ولكن القرية اصبحت تتميز الآن بشيء آخر .. لقد اصبحت « لاروش جويون » سجنا كبيرا وراء مراتبها الامامية .. فقد كانت اكثر قرى فرنسا احتلالا ..

كان هناك اكثر من ثلاثة جنود المان مقابل كل ساكن من سكان القرية الصغيرة الذين يبلغ عددهم ٥٤٣ شخصا .. واحد هؤلاء الجنود هو المارشال اروين روميل القائد

في القلعة العسكرية .. كان روميل في تلك السنة الخامسة من سنوات الحرب العالمية الثانية للقتال في أكبر المعارك التي خاضها في حياته ..

ولم يكن روميل يعرف ان هذه المعركة سوف تبدأ في خلال ٤٨ ساعة .. فقد كان ذلك اليوم هو يوم الاحد ٤ يونيو ١٩٤٤ .

كان تحت قيادة روميل اكثر من نصف مليون جندي يقفون وراء خطوط الدفاع على طول خط ساحلي طويل يمتد حوالي ٨٠٠ ميل ، من جنوب هولندا الى شواطئ ... التي تداعبها مياه الاطلنطي ... وكانت القوة الرئيسية من هذه الجيوش ... هي الجيش الخامس عشر الذي ... كاليه ... الضيق ... البحر ... انجلترا ...

كانت قاذفات الحلفاء ...

الالغام المبثوثة على الشاطىء ...
بينما ظل بحر المانش بمياهه الزرقاء الداكنة خاليا من السفن دون أن يقع شىء ..

وفى صباح ذلك الاحد الهادىء لم يكن فى قرية « لاروش جويون » شيئا ينبىء عن اقتراب غزو الحلفاء ..

***

كان رومل وحيدا فى غرفة مكتبه بالطابق الاسفل من القلعة ، يعمل على ضوء مصباح صغير ، ومع انه كان يبدو اكبر سنا من عمره الحقيقى ـ ٥١ عاما ـ فقد كان قادرا على مواصلة العمل دون كلل أو تعب كعادته ..
وفى ذلك الصباح ، استيقظ قبل الرابعة صباحا كالمعتاد .. وهو الآن ينتظر قدوم الساعة السادسة بصبر نافد ، فقد كان ذلك هو موعد تناوله طعام الافطار مع اركان حربه قبل ان يسافر الى المانيا فى أول اجازة ينالها منذ شهور .

لقد كان يتطلع الى تلك الرحلة بلهفة ولكن قرار القيام بها لم يكن يسيرا ، فعلى عاتق رومل تقع مسئولية ضخمة لصد هجوم الحلفاء فى اللحظة التى يقع فيها .. كان الرايخ الثالث الذى انشأه هتلر يترنح وهو يتلقى نكبة بعد اخرى .. كانت قاذفات الحلفاء تواصل ضرب المانيا ليلا ونهارا ، وقوات روسيا الضخمة تكتسح بولندا بينما قوات الحلفاء تدق ابواب روما ... كانت الجيوش الالمانية العظيمة تتراجع وتدمر فى كل مكان ..

ومع ان المانيا كانت لاتزال بعيدة عن الهزيمة ، فان غزو الحلفاء سيكون المعركة الحاسمة .. وليس هناك من يعرف ذلك افضل من رومل نفسه ..!

وبرغم ذلك ، فقد كان رومل فى طريقه الى الوطن فى ذلك الصباح .. لقد ظل شهورا يأمل ان يقضى شهورا قلائل فى بلده فى النصف الاول من يونيو .. كان يريد ان يرى هتلر ، وكانت هناك اسباب كثيرة تجعله يعتقد انه يستطيع السفر الآن .. وفى طليعة هذه الاسباب انه كان فى حاجة ماسة للراحة ، ولو انه لم يعترف بذلك قط . كان هناك شخص واحد يعرف مدى الجهد الذى يعانيه رومل .. هو زوجته لويز ، فقد كان يصارحها بكل شىء ، وفى اقل من اربعة شهور كتب لها اكثر من ٤٠ خطابا ، يتنبأ فى كل واحد منها بتنبؤ جديد عن هجوم الحلفاء . وكان من الاسباب التى جعلت رومل يقرر الرحيل فى ذلك الوقت ، تقديراته الخاصة عن نوايا الحلفاء ، فقد كان امامه اصل الكتيب التقريرى

الاسبوعى لمجموعة الجيوش (ب) الذى سيرسل فى اليوم التالى الى مقر قيادة الفيلد مارشال فون رونشتدفى (سان جرمين) بضواحى باريس ، ومنها الى مقر قيادة الفوهرر

كان رومل يرى « ان الحلفاء قد وصلوا الى مرتبة عالية من الاستعداد ، وان هناك زيادة كبيرة فى الرسائل التى توجه الى قوات المقاومة الفرنسية ولكن هذا لايعد دلالة على ان الغزو اصبح وشيكا ، كما تدل التجارب السابقة »

لقد أخطأ رومل الحدس مرة أخرى

لقد انقضى شهر مايو — وكان الجو خلاله صالحا لقيام الحلفاء بهجومهم — ولهذا استنتج رومل أن الغزو لن يقع قبل بضعة اسابيع، وكان يعتقد — كما فعل هتلر والقيادة الالمانية العليا — ان الغزو سيحدث اما فى نفس الوقت الذى يقوم به الجيش الاحمر بهجوم الصيف ، أو بعده بفترة قصيرة ، وهم يدركون ان الهجوم الروسى لايمكن أن يبدأ قبل ان يذوب الجليد فى بولندا ، وهذا يحدث عادة فى النصف الاخير من يونيو •

ومنذ أيام والجو فى حالة سيئة فى الغرب والدلائل تبشر بأنه سيزداد سوءا ، فقد جاء فى تقرير التنبؤات الجوية الذى اعده البروفسور ولتر ستوب مدير الارصاد الجوية بسلاح الطيران الالمانى بباريس ان السحب سوف تزداد وستكون هناك رياح شديدة وامطار وكانت الرياح التى تهب فى بحر المانش تتراوح سرعتها بين ٥ و٣٠ ميلا فى الساعة ، ولهذا بدا لرومل انه ليس من المحتمل ان يغامر الحلفاء بشن هجومهم خلال الايام القليلة التالية •

وفتح رومل باب مكتبه ، وخرج لتناول طعام الافطار مع اركان حربه ••• وكان ناقوس كنيسة « لاروشر جويون » يدق ساعتئذ معلنا السادسة صباحا ••

***

كان رومل قد ظل فى فرنسا منذ نوفمبر ١٩٤٣ مما اثار اذلال كارل فون رونشتد القائد العام للجبهة الغربية ، ذلك الضابط الارستقراطى العجوز الذى يبلغ الثامنة والستين من عمره ، الذى كان مسئولا عن الدفاع عن كل أوروبا الغربية ، فقد جاء رومل وهو يحمل توجيهات مرنة بأن يقوم بالتفتيش على التحصينات الساحلية — أو جدار الاطلنطى — الذى كان هتلر يعلن عنه بكل وسيلة ، وكانت التعليمات تقضى بأن يقدم

رومل تقاريره الى مقر قيادة الفوهرر راسا ..

كان « جدار الاطلنطى » من الاشياء التى استولت تماما على رأس هتلر .. ... فبعد النصر الذى أحرزه فى عام ١٩٤١ ، بدا للفوهرر واعوانه من النازيين انه ليس هناك حاجة الى اقامة أية تحصينات ساحلية : اذ توقع هتلر ان يطلب الانجليز الصلح بعد انهيار فرنسا ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .. واخذ الموقف يتحول بسرعة مع مرور الوقت ، وراحت بريطانيا تستعيد قواها ببطء بمعونة الولايات المتحدة ، وتورط هتلر فى حربه مع روسيا التى هاجمها فى يونيو ١٩٤١ ، ولهذا بدأ يرى ان ساحل فرنسا لم يعد يصلح قاعدة للهجوم ، بل أصبح نقطة ضعيفة فى خطوط دفاعه ..

وفى ديسمبر ١٩٤١ بعد ان دخلت امريكا الحرب ، أخذ هتلر يتشدق بالحديث عن حزام التحصينات القوية الجبارة الذى يمتد من (كيركنس) على الحدود النرويجية الفنلندية ، الى جبال البرانس التى تقع على الحدود الاسبانية الفرنسية ، وقال انه قرر أن يجعل من هذه الجبهة سدا منيعا فى وجه أى عدو ..

وكان ذلك التشدق مستحيلا .. فقد كانت تلك السواحل تمتد حوالى ٣٠٠٠ ميل ! وفى عام ١٩٤٢ عندما بدأت كفة الحرب تميل ضد المانيا ، ثار هتلر فى وجه قواده ، قائلا ان « جدار الاطلنطى » يجب ان يتم بأقصى سرعة ، وانهم يجب ان يعجلوا باقامة هذه المنشآت بجنون •

وراح مئات الالوف من العمال المستعبدين يعملون ليلا ونهارا فى بناء التحصينات ، وملايين الاطنان من الاسمنت تتدفق عليها ، حتى اصبح العثور على الاسمنت لاى غرض آخر فى اوربا التى يحتلها هتلر أمرا مستحيلا .. واستخدمت كميات هائلة من الصلب ، حتى اضطر المهندسون الى اللجوء الى أجزاء من خطى ماجينو وسيجفريد ..

وفى اواخر عام ١٩٤٣ كان لايزال باقيا الكثير لانجاز الجدار على الرغم من أن نصف مليون رجل يعملون لانجازه •

كان هتلر يعلم ان الغزو شىء لامفر منه .. ولكنه يواجه الان مشكلة أخرى .. هى ايجاد فرقة تقف أمام خطوط دفاعه المترامية .. ففى روسيا كانت الحرب تلتهم فرقة بعد اخرى من جنوده ، وفى ايطاليا ـ التى خرجت من الحرب بعد غزو صقلية ـ آلوف من الجنود لايستطيعون الحركة ..

وهكذا اضطر هتلر فى عام ١٩٤٤ الى تعزيز حامياته فى الغـرب بأشـكال عجيبة .. عجـائز وفتيان صغـار ، وبقايا الفرق التى تحطمت فى الجبهة الروسية ، وبعض المتطوعين من البلاد المحتلة ..

وبرغم ذلك فقد كان هتلر لايزال يمتلك نواة متينة من القوات العظيمة والفرق المصفحة « البانزر » . وعندما حل يوم الغزو ، كانت قوة المانيا فى الغرب قد بلغ مجموعها حـوالى ٦٠ فرقة كبيرة ، وان لم تكن كلهـا فى كامل قوتها .. ولكن هتلر كان لايزال يعتمد على جدار الاطلنطى !

وقد روع رومل لما شاهده عنـدما قام بالتفتيش على الجدار فى نوفمبر ١٩٤٣ ، فقد كانت المناطق التى تمت فيها التحصينات قليلة ، بينما كانت هناك اماكن لم يبدأ فيها العمل بعد .

كان رومل يرى بعينه الفاحصة ان جـدار الاطلنطى ليس الا مهزلة ... وكان فون رونشتد يشاطر رومل هذا الرأى ـ ولعلها أول مرة يتفق فيها معه على أى شىء ـ فان رونشتد العجوز لم يكن يؤمن قط بخطوط الدفاع الثابتة وكان هو العقل الذى دبر الهجوم على خط ماجينو عام ١٩٤٠ مما أدى الى انهيار فرنسا .. ولهذا كان رونشتد يرى ان حائط الاطلنطى الذى يقيمـه هتلر هو خدعة كبرى للشعب الالمانى قبل ان يكون خـدعة للعدو .. وانه قد يكون مجرد عقبة مؤقته لهجـوم الحلفاء ولكنه لن يوقفه .. فقد كان الرجل مقتنعا بأنه لايمكن منع النزول الاول بنجاح ، وكانت خطته لاحبـاط الغزو ، هى ابقاء الجزء الاكبر من قواته بعيدا عن الشـواطىء ، على أن تقوم بالهجوم بعد نزول قوات الحلفاء

ولكن رومل كان يختلف معـه فى تلك النظرية اختلافا تماما ، فقد كان يؤمن بان هناك طريقة واحدة لسحق الغزو ، وهى مواجهته على الفور ، فلن يكون هناك وقت لجلب الامدادات التى لابد أن تدمرها غارات الحلفاء الجوية والبرية ومدفعيته ، ولهذا كان يرى آن كل الجنود والفرق يجب ان تكون على استعداد عند الشاطىء أو وراءه مباشرة

ويقول الكابتن هلمـوث لانج ياور رومل انه لخص له خطته الاستراتيجية اثناء وقوفهما ذات يوم فى بقعة خالية على الشـاطىء ، فقـال : « ان الحرب سوف تكسب أو تخسر عند الشاطىء . لن تكون آمامنا غير فرصـة واحـدة لوقف العدو ، وهى الفترة التى يكون هو فيها فى الماء يجاهـد للوصول الى

الشاطىء . ان الخط الرئيسي للمقاومة سيكون هنا . كل شيء لدينا يجب ان يكون على الساحل ، فالساعات الاربع والعشرون الاولى للغزو ستكون حاسمة ، بالنسبة لنا وللحلفاء على السواء .. انها ستكون اطول يوم في التاريخ !

وقد أقر هتلر خطة رومل بوجه عام . ومنذ ذلك الحين ، أصبح كارل فون رونشتد مجرد رمز للرياسة .. وفي خلال شهور قلائل ، أبدل روميل باندفاعه الصورة كلها ... فقد أمر بانشاء العقبات المضادة للغزو على كل شاطىء يراه صالحا للنزول ، وكانت هذه العقبات عبارة عن مثلثات من الصلب ذي الاطراف المدببة ، وبوابات من الحديد ذات اسنان كالمنشار ، وأوتاد خشبية ذات رؤوس معدنية ، وكتل مخروطية من الاسمنت زرعت تحت الماء ، وبين كل منها عدد من الالغام المميتة .. وكانت كلها من مبتكرات رومل نفسه ، تجمع بين البساطة والاثر المميت ،وهدفها عرقلة وتدمير سفن انزال الجنود ، او اعاقتها وقتا يكفي لبطاريات السواحل لكي تضربها بالقنابل ..

ولم يقنع رومل بوضع نصف مليون من هذه العراقيل القاتلة تحت الماء على طول الخط الساحلي ، بل أمر بوضع ألغام من كل نوع في الرمال والهضاب والاودية الصخرية والممرات المؤدية الى الشواطىء ، وكان بعض هذه الالغام ضخما يستطيع نسف دبابة ، وبعضها صغيرا يقفز في الهواء عند لمسه ثم ينفجر امام بطن الرجل .. وقد وزع أكثر من أربعة ملايين لغم منها على الشواطىء وكان يأمل أن يضع ستة ملايين أخرى قبل أن يحين موعد الغزو ..

ووراء الخط الساحلي ، تلك الغابة المليئة بالالغام والعراقيل ،كانت قوات رومل تقبع في أوكار من الاسمنت المسلح ، وفي فجوات وخنادق كلها محاطة بطبقات من الاسلاك الشائكة

لقد انتفع رومل بكل فن وابتكار جديد ، فحينما كان يجد نقصا في المدفعية ، كان يضع بطاريات من قاذفات الصواريخ أو عددا مضاعفا من مدافع المورتر ، وفي احد الامكنة وضع دبابات صغيرة تدعى (جولياث) تسير آليا وتستطيع أن تحمل أكثر من نصف طن من المفرقعات لتنفجر بين قوات العدو وسفن انزال جنوده..

لم يسبق قط في تاريخ الحروب أن أعدت خطوط للدفاع اكثر قتلا لقوة غازية من تلك الخطوط .. وبرغم

ذلك لم يكن روملى راضيـا ، فقد كان يطـالب بالمزيد من أوكار المـدافع وعراقيل الشـاطىء .. وبالمزيد من الالغام والقوات والمدفعية .. وقبل كل شيء ، كان يريد قوات « البانزر » المدرعـة الضخمـة ، التى كانت تقف كقوات احتياطية بعيدة عن الشواطىء .. وقد أصر هتلر على ابقائهـا تحت سلطانه الشخصى وكان روملى يحتاج الى خمس فرق منهـا على الاقل امام الساحل .. وكانت هنـاك طريقة واحدة للحصول عليها .. هى مقابلة هتلر .. !

لقد ذكر روملى كثيرا لياوره لانج: ان آخر رجـل يرى هتـلر ، يكسب اللعبة .

وفى ذلك الصباح كان روملى يستعد للسفر الى المانيا ليكسب اللعبة

وفى السابعة صباحا انطلقت سيارة الفيلد مارشال روملى عبر القـرية ، واتجهت شمـالا فى الطـريق الرئيسى الى باريس .. وقد جلس روملى خلف السـائق ، وعلى المقعد المجـاور له صندوق من الورق المقوى يحوى حذاء لزوجته ..

وكان هناك سبب انسـانى خاص يدفع روملى الى السفر ليكون الى جوار زوجته يوم ٦ يونيو .. لانه كان يوم عيد ميلادها !

***

فى مقر قيادة الجيش الخـامس عشر على مقربة من حدود بلجيكا ــ وعلى بعد ١٢٥ ميـلا من قرية (لاروش جويون) ، كان هناك رجل أسعده ان يرى مولد صبح ٤ يونيو ..

كان اللفتنانت كولونيـل هلموث ماير يجلس فى مكتبه شاحب الوجه ، وقد غمرت عينيه سحابة قاتمة .. فهو لم يستطيع أن ينام جيدا منذ أول يونيو ، ولكن الليلة السـابقة كانت أسوأ مما سبقها ... كانت ليـلة لن ينساها قط ..

كان ماير يرأس فريقـا لمكافحـة الجاسوسية فى جبهة الغزو يضم ٣٠ رجلا من الخبراء فى الاصغاء الى اذاعات اللاسلكى ، وفى خلال تلك الليلة ، التقط رجاله شيئا غريبا .... فبعد حلول الظلام بقليل ، التقطوا برقية صحفية عاجلة لوكالة أسوشيتد برس جاء فيها : « اذاع مركز قيادة الجنرال ايزنهاور ان الحلفاء نزلوا فى فرنسا »

واذهلت البرقية الكـولونيل ماير كان أول ما فكر فيه ، ان يسرع بتحذير القيادة العليا .. ولكنه عاد يفكر فى الامر بهدوء ، فقد كان يدرك ان الرسالة لابد أن تكون خاطئة ...

وكان هناك سببان لذلك :

الاول : انه لم يحدث اى نشاط على طول جبهة الغزو .. ولو حدث اى هجوم لعرف على الفور

والثانى : ان الاميرال ولهلم كناريس رئيس المخابرات الالمانية يومئذ ، اعطاه تفاصيل اشارة تتكون من جزئين سوف يستخدمها الحلفاء لاخطار قوات المقاومة السرية بموعد الغزو

وفى ليلة أول يونيو التقط رجال ماير الجزء الاول من رسالة الحلفاء . وكانت كما وصفها كناريس تماما .. وقد اذيعت من محطة الاذاعة البريطانية بعد نشرة الاخبار ، اذ قال المذيع باللغة الفرنسية : نرجوكم الان الاستماع الى بعض الرسائل الشخصية وبعد فترة توقف .. عاد الصوت يقول بالفرنسية : « الزفرات الطويلة لقيثارة الخريف »

وكانت تلك هى الرسالة التى طلب منه كناريس ان ينتظرها .. انها الشطر الاول من قصيدة « انشودة الخريف » للشاعر الفرنسى بول فيرلين من شعراء القرن التاسع عشر وقد ذكر كناريس ان هذا الشطر من القصيدة سيذاع فى اليوم الاول أو الخامس عشر من الشهر ، وآنه يمثل النصف الاول من الرسالة التى تعلن موعد الغزو البريطانى الامريكى .. أما النصف الثانى فسيكون الشطر الثانى من قصيدة فيرلين الذى يقول : « أصابت قلبى بجرح عميق .. » وعندما يذاع هذا الجزء من الرسالة ، فسيعنى ذلك ان الغزو سيبدأ فى خلال ٤٨ ساعة ، ويبدأ احصاء هذه الساعات من الساعة الاولى لليوم التالى للاذاعة .

***

ما كاد الكولونيل ماير يسمع اذاعة الشطر الاول من قصيدة فيرلين ، حتى اتصل بالجنرال ويلهلم هوفمان رئيس اركان حرب الجيش الخامس عشر وقال له :

ــ لقد جاءت الرسالة الاولى .. ان شيئا سيحدث الآن .

وعلى الفور أصدر هوفمان اشارة التأهب للجيش الخامس عشر . وفى نفس الوقت بعث ماير نص الرسالة بالآلة البرقية الكاتبة الى مقر قيادة هتلر ، ثم اتصل بمقر قيادة فون رونشتد ، ومقر قيادة رومل .

وقد سلمت الرسالة الى الجنرال الفريد جوديل رئيس العمليات بمقر قيادة هتلر .. ولكنها بقيت على مكتبه ، ولم يصدر أمرا بالتأهب ، فقد افترض



أن الفيلد مارشال فون رونشتد فعل ذلك • وهذا بدوره كان يعتقد أن قيادة روميل قد أصدرت هذا الامر •

وهكذا لم يتأهب على طول ساحل الغزو غير جيش ألمانى واحد ، هو الجيش الخامس عشر •

أما الجيش السابع الذى يسيطر على ساحل نورماندى فلم يسمع شيئا عن هذه الرسالة وبالتالى لم يقف فى حالة تأهب ! •

وفى ليلتى ٢ و٣ يونيو أعيد اذاعة الجزء الاول من الرسالة • وفى خلال الساعة التى تلت اذاعة الرسالة للمرة الثانية فى ليلة ٣ يونيو ، التقط رجال ماير برقية وكالة الاسوشيتد بريس ، عن نزول الحلفاء فى فرنسا •• فلو ان تحذير الاميرال كناريس كان صحيحا فان هذا النبأ لابد آن يكون خاطئا ••

وهكذا تخلص ماير من الذعر الذى انتابه لاول وهلة ، وزاده اقتناعا ان الفجر قد طلع ولايزال الهدوء مسيطرا على طول الجبهة ••

لاشىء يستطيع أن يعمله الآن الا ان ينتظر النصف الثانى من الانذار الخطير الذى قد يأتى فى اية لحظة !

***

كانت الساعة قد بلغت السادسة صباحا فى بريطانيا ــ اذ كان هناك فرق فى التوقيت الصيفى البريطانى والتوقيت الالمانى المركزى يبلغ ساعة ــ وفى عربة مقطورة فى غابة تغمرها الامطار على مقربة من (بورتسموث) •• كان الجنرال دوايت ايزنهاور القائد الاعلى لقوات الحلفاء نائما بعد ان ظل مستيقظا طوال الليل تقريبا •

وكانت العربة المقطورة التى يقيم فيها ايزنهاور ذات ثلاثة اجزاء مستقلة يستخدم احدها كغرفة للنوم ، والثانى

للجلوس والثالث للمكتب .. ومن هذه العربة كان ايزنهاور يتولى قيادة حوالى ثلاثة ملايين من جنود الحلفاء اكثر من نصفهم من الامريكيين ، والباقى من القوات البريطانية والكندية ومجموعهما حوالى مليون جندى ، بالاضافة الى بعض الفصائل الفرنسية الحرة والبولندية والبلجيكية والنرويجية والهولندية والتشيكية .

كانت هناك مشروعات عسكرية كبرى يجرى اعدادها للغزو خلال السنوات الثلاث الماضية ، وحتى قبل ان يعرف ان ايزنهاور سيعين قائدا لهذه العملية .. فقد كانت هناك جماعة صغيرة من الضباط الانجليز والامريكيين برياسة القائد البريطانى جنير فردريك مورجان تقوم بوضع خطط هذا الهجوم . وبعد توسيع هذه الخطة وتعديلها اطلق على المشروع الاخير اسم « السيد الاكبر » . وبعد ان عهد الى ايزنهاور بقيادة الحملة ، طالب بالمزيد من الرجال والسفن والطائرات والعتاد ، مما لم يسبق جمع مثله لاية عملية حربية واحدة من قبل .

وقبل ان تتخذ الخطة صورتها الاخيرة ، بدأ تدفق الرجال والامدادات على بريطانيا ، وسرعان ما امتلأت القرى والمدن الصغيرة بالامريكيين ، حتى ان بعضها أصبح فيه من الامريكيين اكثر مما فيه من الانجليز .. وفى شهر مايو ١٩٤٤ كان جنوب بريطانيا يبدو كترسانة حربية هائلة وقد اخفيت اكداس هائلة من الذخائر فى الغابات والاحراش ، وكان بينها صفوف لا نهاية لها من الدبابات والسيارات المصفحة وسيارات النقل والجيب ، وسيارات الاسعاف ، وفى الحقول كانت هناك طوابير طويلة من مدافع الهاوتزر والمدافع المضادة للطائرات ، وكميات هائلة من قطع المنشآت الجاهزة ، من الاكواخ الى المطارات الصغيرة ، وكانت الاودية مليئة بخطوط طويلة من العتاد الخاص بالسكك الحديدية ، فيها حوالى الف قاطرة جديدة ، و٢٠٠ الف عربة بضاعة وعربة لنقل البترول لتحل محل عتاد السكك الحديدية الفرنسية الذى تحطم .

ولعل أغربها كان هناك ميناءان عائمان لنقلهما بالسفن الى شواطئ نورماندى يتكونان من ١٤٥ كتلة من الاسمنت الضخم ، وعليها اماكن للملاحين ومدافع مضادة للطائرات تبدو أشبه بمنازل عائمة ذات خمسة طوابق ! .

.. وفى الاسبوع الاخير من مايو ،

بدأت القوات والامدادات تشحن على سفن النقل والانزال ..

لقد حان الوقت أخيرا ..

ان هذا السـلاح العظيم الذى تثير احصاءاته الذهول ، والذى جمع شباب العـالم الحر وموارده .. كان ينتظر قرار رجل واحد !

***

فعل ايزنهـاور وقواده كل شيء يضمن اتمام هذا الغزو بنجـاح بأقل ثمن من الارواح .. والآن .. وبعـد كل هذه السنوات من الاسـتعداد أصبحت العملية تحت رحمة عناصر الطبيعة . كان الجو رديئا ، وايزنهاور لاحول له ولا قوة ، كل مايمكنه عمله أن ينتظر ويأمل أن تتحسن الاحوال .. وقد حل يوم الاحد ٤ يونيـو ، وعليه أن يصدر القرار الخطير فى نهاية اليوم مهما حدث ، فاما أن يأمر ببدء الهجوم أو تأجيله ، وسيتوقف نجاح الغزو أو فشله على هذا القرار الذى يجب أن يصدره بنفسـه .. ان المسئولية مسئوليته هو وحده !

كان ايزنهاور يواجه ورطة مروعة ، ففى يوم ١٧ مايو قرر أن يكون يوم الغزو أحد أيام ثلاثة فى شهر يونيو ، هى ٥ و ٦ و ٧ بعد أن دلت دراسـة التنبؤات الجوية على أن هناك عاملين من العوامل الحيوية اللازمة للغزو يمكن توقعهما على شاطىء نورماندى خلال هذه الايام ، وهما تأخر بزوغ القمر ، وحدوث مد منخفض بعـد الفجر بقليل .. والعـامل الاول ضرورى لانزال قوات المظلات والمشـاة الذين تحملهم الطائرات الشراعية ، فى حين أن عمليات الانزال من البحر تتطلب أن يكون المد منخفضـا الى حـد يكفى للكشف عن العقبات التى وضـعها روميل عند الشاطىء ، كما أن القوات التى سترسل بعد ذلك تحتاج أيضـا الى مد منخفض قبل حلول الظلام .

ولم يكن هذا هو كل شيء .. بل كانت هنـاك عوامل أخرى ، فان كل الاسلحة تحتاج الى ساعات طويلة من ضوء النهار والرؤية الجيـدة لامكان التحقق من الشـواطىء ، وحتى يستطيع الاسطول والسـلاح الجوى رؤية أهدافهما ، فضـلا عن تقليـل خطر الاصطدام عندما تبدأ خمسـة آلاف سفينة التحرك من ناحية الى اخرى فى خليج السين ، كما كان من الضرورى أن يكون البحر هادئا حتى لايصيب دوار البحر الجنود فيجعلهم بلا حـول ولا قوة قبـل النزول الى الشاطىء .. ولابد من أن تكون هناك رياح غيرعالية تهب نحو الداخل حتى

تبعد الدخان عن الشواطىء لكيلا تختفى الاهداف عن الانظار .. وأخيرا فقد كان الحلفاء يريدون استمرار الهدوء ثلاثة أيام أخرى بعد الغزو ، حتى يمكنهم جلب ما يكفى من الرجال والامدادات بسرعة .

وقد اختار ايزنهاور يوم ٥ يونيو من بين الايام الثلاثة التى يمكن القيام بالغزو خلالها حتى اذا حدث أى تأجيل ، أمكن شن الهجوم يوم ٦ ، أما اذا أمر بالنزول فى يوم ٦ يونيو ثم اضطر لالغائه ، فان مشكلة اعادة تزويد القوافل العائدة بالوقود قد تمنعه من الهجوم يوم ٧ ، وعندئذ لن يكون أمامه غير تأجيل الغزو حتى الفترة التالية التى يكون المد فيها صالحا ـ أى يوم ١٩ يونيو ، وهو يوم ليس فيه قمر .. وستضطر الجيوش المنقولة بالطائرات الى الهجوم فى الظلام .. أو أن ينتظر حتى شهر يوليو ، وهو تأجيل بعيد .!

***

كان مركز العمليات الضخم بمقر قيادة الحلفاء البحرية فى «ساوثويك هاوس » بميناء بورتسموث مركزا لنشاط هائل .. كانت هناك خريطة هائلة تملأ حائطا بأسره تبين بحر المانش وقد ظهرت عليها مواقع مئات من السفن التى رحلت الى القارة فى عشرات من القوافل ، والتى استدعيت للعودة بعد أن تقرر تأجيل الغزو ، وقد وقف ضباط من كل الاسلحة التابعة للحلفاء يرقبون فى صمت كلما جاء نبأ جديد . ومع أنهم كانوا يبدون فى مظهر هادىء ، الا أنهم لم يستطيعوا اخفاء التوتر الذى كان يشعر به كل منهم .

وكأنما لم تكف أخطار ارسال كل هذه القوافل أمام العدو ، ووجوب عودتها الى بريطانيا فى مسالك محدودة رفعت ألغامها .. بل زادت الاخطار بهبوب عاصفة على المانش ، كانت الرياح خلالها تهب بسرعة ٤٥ كيلو مترا فى الساعة ، وثارت الامواج وكان المتوقع أن يزداد الجو سوءا .

وبينما كانت الساعات تنصرم ، والجو يزداد سوءا باطراد ، كانت أكبر قوة برمائية وجوية فى التاريخ تقف فى انتظار قرار الجنرال ايزنهاور .

ترى هل يقرر (ايك) أن يكون يوم ٦ هو يوم الغزو .. أو أنه سيضطر بسبب سوء حالة الجو أن يؤجل الغزو مرة أخرى ؟

وبينما كان ضوء النهار يخفت تدريجا ، كان القائد الاعلى يتجه أحيانا نحو باب عربة القيادة ،

ويرسل بصره من خلال قمم الاشجار التى تجتاحهـا الرياح ، والسحب البيضاء التى تغمر السماء ، وقددس يديه فى أعماق جيوبه ، وحنى كتفيه قليلا .. وقبل التاسـعة والنصف مساء بقليـل ، اجتمع كبـار قواد ايزنهاور ورؤساء أركان حربهـم فى قاعـة المكتبـة بمبنى (ساوثويك هاوس) ..

كانوا يتحدثون معا فى هدوء،وعلى مقربة من الموقد ، وقف الجنرال ولتر بيـدل سميث رئيس أركان حـرب ايزنهاور يتحدث مع المارشال الجوى سير آرثر تيدر نائب القائد الاعلى ، بينما جلس الى جواره سـير برترام رامساى القائد البحرى للحلفـاء .. وكان هناك ضـابط واحد فى غير ملابسه الرسـمية ، هـو برنارد مونتجومرى الذى سيتولى الاشراف على الهجوم يوم الغزو ، فقـد كان يرتدى بنطلونه المعتاد المصنوع من المخمل القطنى ، والسويتر المستدير العنق ..

كان هـؤلاء الرجال هـم الذين سيترجمون أمر الهجوم الى أعمـال بعد ان يصـدره ايزنهـاور ، وفى التاسعة والنصف تمـاما فتح الباب ودخل ايزنهاور فى ملابس الميدان ، وقد بدت على شفتيه بسمة شاحبة وهو يحيى أصدقاءه القدامى .. وما لبثت سحب القلق ان عادت تغمـر وجهه وهو يفتتح الاجتماع ..

لم تكن هناك حاجة الى مقدمات ، فقـد كان كل منهم يعـرف خطورة القرار الذى يجب اتخاذه .. ومالبث ان دخل القاعة خبراء الارصاد الجوية لعمليـة الغـزو برياسة الضـابط البريطانى كابتن سـتاج ، الذى راح يشرح الموقف وسـط الصمت الذى ساد المكان .. وبعد أن أوجز ستاج صورة سريعة للطقس خـلال الاربع والعشرين ساعة السابقة .. قال :

ـ سادتى . لقـد حـدثت بعض تطورات سريعـة غير متوقعـة فى الموقف .

واتجهت الانظار كلها اليه بعد ان قدم لهم بصيصا من الامل .. وقال ستاج ان جبهـة جوية جـديدة ستتحرك صـوب المـانش خـلال الساعات القليلة المقبلة ، وأنها سوف تشيع صفاء تدريجا فوق منـاطق الهجـوم ، وستبقى هـذه الاحوال الجوية الطيبة طوال اليوم التـالى وتستمر حتى صباح ٦ يونيـو ، ثم تبدا فى التـدهور مرة أخرى . وفى خلال تلك الفترة القصـيرة من صفاء

الجو سوف تهدأ الرياح وتصفو السماء الى حد يكفى القاذفات للعمل طوال ليلة ٥ يونيو وصباح ٦ يونيو على الاقل . وعند الظهر ستزداد طبقات السحب كثافة وتعود الغيوم الى السماء .

وفى خلال الدقائق الخمس عشرة التالية تداول ايزنهاور وقواده .. ثم بدأ ايزنهاور يأخذ رأى القواد واحدا بعد الآخر ، فقال سميث انه يعتقد أن الهجوم يجب أن يبدأ يوم ٦ برغم أن ذلك يعتبر مغامرة ، بينما كان من رأى تيدر ومالورى أن السحب المنتظرة ستعرقل عمل لسلاح الجوى ، وأن المسألة ستكون فى يد الظروف .. أما مونتجومرى فقد تمسك بالقرار الذى سبق اتخاذه فى الليلة السابقة قبل تأجيل الغزو .. وقال اننى أقول لكم ... هيا .

وساد صمت طويل بينما كان ايزنهاور يزن كل الاحتمالات ... وبعد دقائق رفع ايزنهاور وجهه المتوتر .. واعلن قراره بهدوء :

ـ انني واثق من أننا يجب ان تصدر الامر بالهجوم ، فليس أمامنا شىء آخر نستطيع عمله ..

وهكذا تقرر أن يكون يوم الثلاثاء ٦ يونيو هو يوم الغزو .

***

يوم الاثنين ٥ يونيو ١٩٤٤ ...

كانت شواطىء نورماندى يغمرها الضباب مع أضواء الصباح الاولى ، بينما أغرقت الامطار الغزيرة التى هطلت فى اليوم السابق كل شىء .. ووراء الشاطىء ترقد تلك الحقول القديمة التى دارت فوقها معارك لاحصر لها .. وستدور فوقهامعارك أخرى كثيرة ..

لقد ظل أهالى نورماندى يعيشون مع الالمان فوق أراضيهم أربع سنوات كاملة .. وكان الاحتلال فى المدن الكبرى الثلاث « الهافر » و « شربورج » و « كاين » واقعة مستمرة خشنة للحياة . فهنا كانت قيادة الجستابو وفرق العاصفة . هنا ذكريات الحرب والغارات الليلية التى يقوم بها الالمان للحصول على رهائن ، والضربات الانتقامية التى لاتنتهى من رجال المقاومة السرية ، وغارات الحلفاء المرعبة ..

ووراء المدن ـ ولا سيما بين كاين وشربورج ـ يرقد الريف بصنوف أشجاره الكثيفة ، وحقوله الصغيرةالتى تحدها المرتفعات والهضاب ، والتى تكتنفها الاشجار التى كانت تستخدم

كتحصينات طبيعية للمهاجمين والمدافعين منذ أيام الرومان .. وهنا وهناك تقف مدن وقرى اشبه بقلاع صغيرة ، وفى كل منها كنيسة مربعة الشكل ، تحيط بها بيوت بنيت منذ قرون ..

هنا فى الريف الذى تناثر سكانه ، كان للاحتلال معنى آخر غيره فى المدن الكبرى . فلم يكن فى مقدور الفلاح النورماندى أن يفعل شيئا ، الا أن يكيف نفسه مع الموقف ، فقد كان الالوف من الرجال والنساء يشحنون من المدن والقرى للعمل كعبيد ، أما الذين يبقون فقد كانوا يجبرونهم على العمل بعض الوقت فى كتائب العمل لاقامة التحصينات الساحلية . لقد كانوا جميعا يعيشون يوما بيوم .. يكنون فى قلوبهم حقدا على النازيين ، يرقبون بلا مبالاة ، ويتطلعون الى يوم التحرير بلهفة ..

***

كان اليوم هادئا خاليا من الاحداث بالنسبة للالمان الذين لايتوقعون حدوث شيء قريب .. فقد كان الجو رديئا الى حد أن البروفسور ستوب كبير خبراء الارصاد الجوية قال لضباط أركان الحرب بمقر قيادة السلاح الجوى بباريس ان فى استطاعتهم ان يستريحوا ، فانه يشك فى قدرة طائرات الحلفاء على العمل فى ذلك اليوم ..

واتصل ستوب تليفونيا بمقر قيادة فون رونشتد بسان جرمين . وكان رونشتد قد استيقظ حوالى الظهر ، وتداول مع أركان حربه، واقر وجهة نظر قيادة الجبهة الغربية عن نوايا الحلفاء تمهيدا لارسالها الى قيادة هتلر . وكان هذا التقدير خاطئا فقد جاء فيه :

« ان الزيادة المطردة للغارات الجوية تدل على أن العدو قد بلغ درجة عالية من الاستعداد . ولاتزال الجبهة المحتمل حدوث الغزو فيها هى القطاع الممتد من (شلد) بهولندا الى نورماندى بفرنسا ، وليس من المستبعد أن تشمل الجبهة الشمالية لبريتانى . وقد يعنى تركيز الغارات الجوية على الدفاع الساحلى بين دنكرك و«دييب» ان المجهود الرئيسى لغزو الحلفاء سيتم هناك . ولكن الغزو الوشيك غير متوقع الآن»

وبعد هذا التقرير المبهم .. الذى شمل حوالى ٨٠٠ ميل من سواحل الغزو ، توجه فون رونشتد وابنه الضابط الشاب الى المطعم المفضل للفيلد مارشال .. مطعم (لوكوك هاردى) بقرية بوجيفال القريبة ،

وكانت الساعة بعدالواحدة ظهرابقليل .. ولم يبق على موعد الغزو غير ١٢ ساعة !

لقد كان لاستمرار الجو السيىء فعل العقاقير المهدئة فى كل القيادات الالمانية التى كانت كلها واثقة من آنه لن يحدث هجوم فى المستقبل المباشر

وفى مقر قيادة المجموعة (ب) من الجيوش الالمانيةبقرية (لاروش‌جويون) ظل العمل مستمرا كأن روملُ لايزال موجــودا • وقد دعا الجنرال هانز شــبيدل رئيس اركان حرب روميل يومئذ عددا من الضـــيوف الى مأدبة عشاء صغيرة ، بينهم الفيلســـوف ، والكاتب ارنست جيونجر ليناقشه فى موضوعه المفضل : الادب الفرنسى.. وكان هناك موضوع سرىآخرسيبحثه الاثنـــان ، هو المشروع الذى وضعه جيونجر لابرام الصلح بعــد محاكمة هتلر أو اغتياله •

وفى ذلك اليوم ، دعى كبار القواد الالمان فى نورماندى للاشـــتراك فى تدريبات على خطة وهمية للغزوالمنتظر .. وشاء القدر يومئذ أن‌تنقل‌الاسراب المقاتلة الباقية من سلاح الطيران‌الالمانى فى فرنسا الى‌أماكن بعيدة عن شواطىء نورماندى بحجة أنها لازمة للدفاع عن الرايخ نفسه بعد ان ظل يعانى من الغارات العنيفــة ليلا ونهــارا بضعة شهور •

لقد وعد هتلر قواده بأن تكون‌هناك ألف طائرة فوق الشواطىء يوم الغزو ومع ذلك فلم يكن فى فرنسا كلها يوم ٤ يونيو غير ١٨٣ مقاتلة نهارية فقط .. ليس بينها غير ١٦٠ طائرةصالحة للعمل .. وبعد ظهر اليوم نفسه‌تقرر سحب الجناح الســـادس والعشرين للاسراب المقاتلة ويضم ١٢٤ طائرةالى الوراء بعيدا عن الشواطىء !

***

من بين الملايين الذين كانواينتظرون ويترقبون فى أنحاء فرنسا ، لم يكن هناك غير ١٢ رجلا وامرأة يعرفون آن الغزو وشـــيك الوقوع .. هؤلاء هم زعماء حركة المقاومة السرية ، الذين كانوايواصلون عملهم‌العادى فى‌هدوء.

كان أغلبهم فى باريس ، يقــودون منظمة سرية واسعة بالغــة التعقيد ، حتى ان‌الزعماء أنفسهم لايعرف‌أحدهم الآخر الا باسمه المستعار ، ولاتعرف جماعة ماتفعل الاخرى • لقــد قاتل هذا الجيش السرى من الرجال‌والنساء فى‌حرب صامتة أكثر من‌أربع‌سنوات ، وأعــدم منهم الآلاف ، ومات آلاف آخرون فى معســكرات الاعتقال .. والآن اقترب اليوم الذى يقاتلون من

أجله ••

لقد التقطت القيادة العليا لقوات المقاومة السرية فى الايام السابقة بعض الرسائل التى تذيعها الاذاعة البريطانية بالشفرة ، وبعض هذه الرسائل كان يطالب بالتأهب فى أية لحظة ••

وكانت احدى هذه الرسائل عبارة عن الشطر الاول من قصيدة الشاعر فيرلين المعروفة باسم «أنشودة الخريف» •• وهى نفس الانذار الذى التقطه رجال الكولونيل ماير بمقر قيادة الجيش الالمانى الخامس عشر يوم أول يونيو

كان زعماء المقاومة ينتظرون الشطر الثانى من القصيدة فى لهفة ، اذ أن قوات المقاومة سوف تبدأ عندئذ عملها فى التخريب • وكان المتفق عليه أن يذيع الحلفاء رسالتين لقوات المقاومة لبدء العمل ، احداهما تقول «**الجو حار فى السويس**» ويبدأ بعدها تنفيذ «المشروع الاخضر» ويقضى بتخريب خطوط السكك الحديدية وعتادها • أما الثانية فتقول : «**النرد على المائدة**» وبعدها يبدأ تنفيذ «المشروع الاحمر» ويقضى بقطع أسلاك وكابلات التليفون

وفى مساء الاثنين ـ عشية يوم الغزو ـ أذاعت محطة الاذاعة البريطانية الرسالة الاولى فى السادسة والنصف مساء •• وبعد دقائق أذيعت الرسالة الثانية •

وراح زعماء جماعات المقاومة السرية ينقلون النبأ الى زملائهم فى كل مكان وكان لكل وحدة خطتها التى تعرف بالضبط مايجب أن تفعله •

***

قبل التاسعة مساء بقليل ، ظهرت ١٢ سفينة صغيرة على مقربة من الساحل الفرنسى •• كانت تتحرك بهدوء على طول الافق ، وقد اقتربت كثيرا من الشاطىء ، حتى ان بحارتها استطاعوا رؤية منازل نورماندى بوضوح •• ومرت السفن دون أن يراها أحد ، وأتمت عملها ثم قفلت عائدة من حيث أتت ••

لقد كانت تلك السفن كاسحات الغام بريطانية •• طليعة أعظم أسطول تجمع فى التاريخ •• وانطلق بعد ذلك أسطول السفن الجبار الذى يحمل قوة العالم الحر وبأسه • واندفعت السفن فى صفوف متراصة واحدا بعد الآخر •• صفوفا بلغ عرضها ٢٠ ميلا !

كانت هناك ٢٧٢٧ سفينة من كل الانواع •• ناقلات جنود جديدة ، وسفن شحن قديمة بطيئة •• عابرات محيط صغيرة ، وسفن مستشفى ، وناقلات بترول عتيقة ، وسفن ساحلية وقاطرات كثيرة .. طوابير لانهاية لها

من سـفن الانزال ، وسـفن ضخمة بعضها يزيد طوله على ١٢٠ مترا ، وناقلات ثقيلة تحمل سفن انزال صغيرة للهجوم الساحلى .. وأمام كل قافلة مواكب من كاسحات الالغام وسفن السواحل والزوارق البخارية ، تحيط بهذا الموكب الخيالى ، صفوف هائلة تضم أكثر من ٧٠٠ سفينة حربية وفرقاطات وزوارق المدفعية والسفن المضادة للغواصات والمدمرات الصغيرة

كان هـذا الاسطول الهائل يعبر القناة ببطء وأناة ، ويتبع طريقة منتظمة للمرور .. كانت السفن تتدفق من الموانى البريطانيـة الى الشـواطىء الفرنسية فى طرق مرسومة .. ووراء رأس الحربة الذى تكونه كاسحات الالغام والبـوارج والطرادات ، خمس سفن للقيادة مزودة بالرادار واللاسلكى وهذه القيـادات العائمـة هى المراكز العصبية لحملة الغزو . وبرغم التوتر الذى كان يحس به الجميع ، فقد كان فى أعماقهم شـعور خفى بالراحة ، لانهم فى طريقهم أخيرا للغزو !

وسرى دوار البحر بين جنود القوافل كالوباء ، ولا سيما فى سـفن الانزال الخفيفة التى كانت تتأرجح فوق الماء وكان كل جنـدى قد زود بالاقراص الخاصـة بمقـاومة هذا الدوار ..

والعجيب أن بعضـهم حاول أن يقرأ بعض الكتب التى لا صلة بينها وبين هذا الموقف ، ولكنهم وجـدوا أن من الصعب تركيز أفكارهم فيما يقرأون .

***

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة والربع مساء عندما انطلق الكولونيل ماير من مكتبه وهو يحمل أهم رسالة التقطهـا الالمان طوال سنوات الحرب العالمية الثانية . لقد عرف ماير الآن أن الغزو سيحدث بعد ٤٨ ساعة . وكانت هـذه المعلومات تكفى لالقـاء الحلفاء فى البحر ...

وانطلق ماير الى قاعة الطعام حيث كان الجنرال هانز فون سالموث يلعب البريدج مع رئيس أركان حربه وضابطين آخرين . وصاح ماير وهو يلهث :

ـ جنرال ... هاهو الجزء الثانى من الرسالة

وبعد أن فكر «فون سالموث» قليلا أصدر أمره بالتأهب الكامل للجيش الخامس عشر .

وبينما كان ماير يغـادر الغرفة ، عاد فون سالموث يحـدق فى أوراق اللعب التى يمسكها بيده .. قال :

ـ حقا اننى أصبحت كأرنب عجوز ، حتى يؤثر فى مثل هذا النبأ !

***

وفي مقرقيادة فرقة جنود المظلات رقم ١٠١ في (نيوبرى) وقف الجنرال ايزنهاور مع مجموعة صغيرة من الضباط وأربعة من المراسلين الحربيين يرقبون طائرات نقل الجنود والطائرات الشراعية وهي تستعد للتحليق .. كان ايزنهاور يشعر بالقلق حول عمليـــات انزال الجنود من الجو أكثر من أية عمليـــة أخرى من عمليات الغزو ، ولا سيما أن بعـض قواده كانوا مقتنعـين بأن انزال الجنود من الجو قد يسـفر عن خسائر في الارواح تزيد على ٧٥٪

وراح ايزنهـاور يرقب الطائرات وهي تنطلق ببطء واحدة بعد أخرى وسط الظلام .. متجهة نحو فرنسا .. وبينما كان يحدق في سماء الليل ، كانت عيناه قد امتلأتا بالدموع ..

وبعد دقائق ، سمع رجال أسطول الغزو في بحر المانش زئير الطائرات فوقهم ... افواجا بعد افواج تمر فوق رؤوسهم ، واستغرق مرور التشكيل أكثر من ســاعة ، ثم بدأ زئير محركاتها يخفت ...

وفوق ظهور السـفن كان الرجال يحـدقون في الظلام دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ..

وما كادت نهـاية التشكيل تمر ، حتى ظهر بين السـحب ضوء يبرق كالكهرمان .. ثم بدت في الجو ثلاث نقط ، شرطة واحدة .. كانت عبارة عن حرف V بطريقــة مورس ... رمز الانتصار !

في عدد أغسطس من «المختار» ينشر الجـزء الثاني من هـذا الكتاب عن عملية الغزو ، والقتال الدموي الذي دار للاستيلاء على الشــواطيء . والقصة العجيبة للجنود الالمان الذين كانوا يقاتلون بشجاعة بينما رفضت قيادتهم العليا أن تعتقد أن النزول الى نورماندى هو الغزو الحقيقي !

زراعة في القمر

قال الاقتصادى المعروف بروكتر تومسون في شهادة ادلى بها امام احدى لجان الكونجرس الامريكي :

ـ ان المبالغ التي انفقناها لرفع سعر القمح ، كان من الممكن استخدامها لزراعة القمح في القمر !

كتاب الشهر ٢



هذا اليوم الطويل

عن كتاب
The Longest Day
بقلم كورنيليوس ريان

هذا اليوم الطويل

بعد منتصف ليل ٦ يونيو ١٩٤٤ بقليل ، استيقظ الميجور فيرنر بلوسكات الضابط بالفرقة رقم ٣٥٢ الالمانية على صوت مشئوم يملأ السماء .. كان بلوسكات ينام يومئذ بمقر قيادة الفرقة فى « اترهام » التى تقع على بعد ستة كيلو مترات من شاطىء نورماندى ، وعندما استيقظ كان أثر النوم لايزال باديا عليـه ، فأسرع يرفع سماعة التليفون ليتصل بالكولونيل أوكر قائد اللواء الذى يتبعه وصاح قائلا :

ـ ماذا حدث ؟

كان ضجيج الطائرات ودوى نيران المدفعية يزداد عنفا ، وأدرك بلوسكات بغريزته أن تلك ليست مجرد غارة عادية .. وبدا أن أوكر قد تضايق لاتصال بلوسكات به تليفونيا ، فقال له ببرود :

ـ اننا لم نعرف بعد ياعزيزى بلوسكات مايجرى الآن ..

وألقى السماعة بعنف .. ولكن هذا الرد لم يقنع بلوسكات ، فقد ظلت الطائرات تملأ السماء بطنينها خلال الدقائق العشرين الماضية ، وهى تضرب الشاطىء شرقا وغربا بقنابلها ، بينما كانت منطقة بلوسكات التى تقع فى الوسط هادئة الى حد يثير الشك فقد كان يتولى قيادة بطاريات ساحلية تضم ٢٠ مدفعا تغطى نصف المنطقة التى سرعان ماعرفت باسم شاطىء « أوماها » .

واتصل بلوسكات فى عصبية بالقيادة العامة للفرقة ، وتحدث الى الميجور بلوك ضابط مخابرات الفرقة ٣٥٢ فقال له أنه من المحتمل أن تكون تلك مجرد غارة جوية أخرى اذ لم يتضح الامر بعد ..

وأعاد بلوسكات السماعة الى مكانها وهو يشعر بخجل لما أبداه من حماقة وساءل نفسه عما اذا كان قد أبدى من التهور أكثر مما يجب .. فى حين أنه لم يصدر لهم أى انذار من الرياسة .. وتذكر بلوسكات أن تلك الليلة كانت من الليالى القليلة التى أمر فيها رجاله بالاستراحة بعد حالة التأهب التى ظلوا عليها منذ أسابيع ..

كان بلوسكات قد استيقظ الآن تماما ، فان قلقه منعه من النوم ... وجلس على حافة فراشه الصغير ،

بينما كان كلبه هارات يربض عند قدميه في هدوء .. كان لايزال يسمع أزيز الطائرات من بعيد ، وفجأة دق جرس تليفون الميدان ، فأسرع يرفع السماعة وعندئذ سمع صوت الكولونيل أوكر يقول في هدوء :

ـ قيل ان جنود المظلات هبطوا فوق شبه الجزيرة ، فأمر رجالك بالتأهب وانطلقوا فورا الى الشاطىء .

وبعد دقائق كان بلوسكات واثنان من ضباطه هما الكابتن لودز ويكلنج والملازم فريتز ثين يدخلون الموقع الامامي للقيادة ، وهو عبارة عن وكر للمراقبة بني فوق الصخور على مقربة من قرية « سانت أونورين » .

وأسرع بلوسكات يتطلع من خلال النظارات المكبرة الموضوعة على قاعدة أمام احدى الفتحتين الضيقتين داخل الوكر ..

كانت نقطة المراقبة في أفضل موقع فقد كانت ترتفع عن الشاطىء اكثر من ٣٠ مترا . فضلا عن أنها تقع في الوسط تماما من المنطقة التي سرعان ما أصبحت رأس الجسر الذي أقيم في نورماندي . ويستطيع الناظر من هذه البقعة في يوم صافي السماء أن يرى كل الطريق الذي يمتد من طرف شبه جزيرة شربورج يسارا ، حتى ميناء الهافر يمينا ..

وظل بلوسكات يحرك المنظار ببطء وهو يفحص الخليج بدقة ، فلم ير شيئا غير عادي ، وأخيرا نهض واقفا وقال للضابط ثين : لا شيء هناك

ثم اتصل بمقر قيادة اللواء تليفونيا ليبلغها هذه النتيجة ..

***

في ذلك الحين كانت هناك أنباء مبهمة متضاربة تتسلل الى مواقع قيادة الجيش الالماني السابع في أنحاء نورماندي ، والضباط في كل مكان يحاولون التأكد من صحتها ، ولكن لم يكن هناك شيء ثابت يستطيعون التحقق منه . . مجرد أشباح شوهدت هنا ، وطلقات سمعت هناك ، ومظلة وجدت معلقة في شجرة .. انها قد تكون أدلة على حدوث شيء ما .. ولكن ماهو ؟ .. كم عدد الرجال الذين هبطوا ؟ .. اثنان أم مائتان ؟ هل هم ملاحو قاذفة سقطت من الجو؟ أو انها سلسلة أخرى من هجمات من أعضاء المقاومة السرية الفرنسية .

لم يكن هناك من يستطيع تأكيد شيء من ذلك ، وعلى أساس المعلومات التي أمكن الحصول عليها حتى تلك اللحظة ، لم يكن هناك أحد في قيادة الجيشين السابع والخامس عشر في

منطقة (با ـ دى ـ كاليه) على استعداد لاصدار الانذار .. ذلك الانذار الذى قد يتضح فيما بعد أنه على غير أساس

وهكذا أخذت الدقائق تمر ..

والواقع أن ظهور جنود المظلات فى شبه جزيرة شربورج كان هو الدليل على أن يوم الغزو قد بدأ فعلا .. فهؤلا الجنود وعددهم ١٢٠ كانوا الطلائع الامريكية الذين كلفوا باستكشاف الطريق وتحديد مناطق اسقاط الجنود فى منطقة مساحتها ١٣٠ كيلو مترا مربعا من شبه الجزيرة وراء الشاطىء الذى أطلق عليه اسم شاطىء «يوتاه» تمهيدا للهجوم الواسع النطاق الذى ستقوم به قوات المظلات الامريكية والقوات التى تنقلها الطائرات الشراعية بعد ساعتين .

وقد واجهت هذه الطليعة متاعب جمة منذ البداية ، فقد كانت نيران المدافع الالمانية المضادة للطائرات عنيفة الى حد أن الطائرات اضطرت الى الابتعاد عن طريقها ، فلم يهبط من المائة والعشرين جنديا فوق أهدافهم المحددة غير ٣٨ فقط أما الباقون فقد نزلوا بعيدين عنها بعدة كيلو مترات

وحاول هؤلاء الرجال أن يقوموا بمهمتهم فى أنحاء المنطقة . كانوا يتحركون فى سكون من دغل الى دغل مسلحين بالمدافع والالغام والشعلات ، متجهين الى النقط المتفق عليها . كان أمامهم ساعة واحدة فقط لتحديد مناطق اسقاط الجنود للهجوم الامريكى الشامل .

وعلى بعد ٨٠ كيلو مترا من الطرف الشرقى لميدان القتال فى نورماندى ، اجتاحت الشاطىء ست طائرات تحمل جنود الاستطلاع البريطانيين ، وست قاذفات أخرى تجر وراءها الطائرات الشراعية التى تنقل الجنود ، وكانت السماء مليئة بطلقات المدافع المضادة والشعلات المضيئة معلقة فى الجو عندما بدأت عمليات القفز .

كان أسوأ عدو فى هذه الدقائق الاولى من يوم الغزو ليس الانسان ، بل ماصنعه الانسان .. ففى المنطقة البريطانية عند الطرف الشرقى لميدان القتال فى نورماندى ، نجحت العراقيل المضادة لجنود المظلات التى وضعها رومل فى أداء مهمتها ، وكان رومل قد أمر باغراق وادى ديفز ، فأصبحت المياه والمستنقعات شراكا قاتلة لعدد كبير من الرجال لم يعرف بالضبط ، ويقول الذين ظلوا أحياء أن المستنقعات كانت تشطرها خنادق عميقة يبلغ عمقها مترين واتساعها حوالى متر وربع متر ، وفى قاعها طمى لزج ، وكان الجندى

الذى يقع في أحد هذه الخنادق مثقلا بمدافعه وعتاده الثقيل يصبح بلا حول ولا قوة ، وقد غرق الكثيرون مع أن الارض الجافة كانت على بعد أمتار قليلة منهم !

وحلقت تشكيلات الطائرات فوق المنطقة فى موجات متتابعة ٠٠ كانت تلك الطائرات الاولى لاكبر عملية انزال من الجو فى التاريخ ، ٨٨٢ طائرة تحمل ١٣٠٠٠ جندى من جنود الفرقتين الجويتين الامريكيتين رقم ١٠١ ، ٨٢ وكلها تتجه الى ست مناطق للانزال محصورة فى مساحة لاتزيد على بضعة كيلو مترات من منطقة (سانت ميراجليز) ٠

وخرج الجنود يتعثرون من الطائرات واحدا وراء الآخر ، بينما كان الاسطول الجوى الكبير لايزال يزمجر فوق الرؤوس بلا انقطاع ، وألوف من الرجال يقفزون منه فوق مناطق الاسقاط فى الشمال الغربى بين « سانت مير اجليز » ومنطقة الغزو التى أطلق عليها اسم « يوتاه » ٠٠

وتناثرت الفرقتان الهابطتان بصورة خطيرة ، فان لواء واحدا فقط هو الذى نزل فى مكانه بالضبط ٠٠ وفقد ٦٠ فى المائة من العتاد وبينه أغلب أجهزة اللاسلكى ومدافع المورتار والذخائر ،

والاسوأ من ذلك أن كثيرين من الجنود لقوا حتفهم فى تلك العملية ، فقد كان الطريق الذى تسلكه الطائرات يعبر نتوء شبه الجزيرة من الغرب الى الشرق ويتطلب اجتياز شبه الجزيرة ١٢ دقيقة ولهذا قفز مئات من الرجال المثقلين بالعتاد قبل الموعد المحدد ، فسقطوا فى المستنقعات الغادرة وغرق بعضهم فى مناطق لايزيد عمق الماء فيها على ٦٠ سنتيمترا ٠٠ بينما قفز عدد آخر بعد الموعد ، فسقطوا فى بحر المانش !

كانت تلك لحظات محمومة بالنسبة للجميع ولا سيما للجنرالات الذين وجدوا أنفسهم بلا أركان حرب ولا وسائل اتصال ٠٠ ولا جنود !

***

كانت تلك مجرد البداية ٠٠

ان طليعة الغزاة فى يوم الغزو ـ وعددهم حوالى ١٨ ألف جندى أمريكى وبريطانى وكندى ـ كانوا يسيطرون على أطراف ميدان القتال فى نورماندى ، وبين هذه الاطراف تقع شواطىء الغزو الخمسة ٠٠ وعلى بعد ٢٠ كيلو مترا فقط تبدو طلائع أسطول الغزو العظيم وراء الافق ٠٠ أكثر من خمسة آلاف سفينة مختلفة الانواع ٠

وبرغم كل ذلك ، ظل الالمان فى غفلة تامة عما يدور حولهم ٠٠ وكانت هناك

أسباب كثيرة لذلك ، هى الجو ، وقلة عمليات الاستطلاع التى قامت بهـا الطائرات الالمانية لمناطق اقلاع أسطول الغزو خلال الاسابيع السابقة ، فضلا عن اعتقاد الالمان الثابت بأن الغزو لابد أن يأتى عن طريق (بادى كاليه) وهو أقرب جزء من الشـاطىء الفرنسى لبريطانيا .

وبعد مضى أكثر من سـاعتين على نزول أولى قوات المظلات .. بدأ القادة الالمان فى نورماندى يدركون أن هناك شيئا هاما يجرى فى المنطقة . وبدأت الانباء الاولى المتناثرة تصل اليهم ..

وكان أول نبأ رسـمى يصل الى قيادة ألمانية كبرى عن هجوم الحلفاء ، هو الحـديث التليفونى الذى دار بين الجنرال ويلهلم ريختر قائد الفرقة ٧١٦ التى تسيطر على المنطقة الساحلية فوق (كاين) وبين الجنرال اريخ ماركس قائد الفيلق الرابع والثمانين ، عندما أبلغ الاول الثـانى أن رجال المظلات نزلوا شرقى نهر « أورن » ، وعلى الفور اتصل ماركس تليفونيا بالجنرال ماكس بيمـزيل رئيس أركان حرب الجيش السابع ، الذى أيقظ الجنرال فردريك دولمان وقال له :

ــ أعتقد أن هذا هو الغزو يا جنرال .. أرجو أن تحضر على الفور ..

وبينما كان بيمزيل ينتظر حضور دولمان ، تلقى نبأ آخر من الفيلق الرابع والثمانين يقول ان جنود المظلات هبطوا أيضـا قرب مونتبـورج وماركوث ، وانهم اشتبكوا فى معارك مع الجنود الالمـان ، وعلى الفور أخطر بيمزيل الجنرال هانز شـبيدل رئيس أركان حرب المارشـال رومل قائد المجموعة (ب) من الجيوش الالمانية ، وهى أعظم قوة ألمانية فى الغرب ..

وكان رومل ساعتئذ يقضى اجازة فى ألمانيا !

***

كانت تلك لحظـات غريبة مليئـة بالارتباك فى مقر قيادة رومل ، فقد أخذت الانبـاء تتجمع من كل مكان ، أغلبها غير دقيق وغير مفهوم ومتضارب فقد أعلنت قيادة السلاح الجوى الالمانى فى باريس أن عددا يتراوح بين الخمسين والستين طائرة من ذات المحركين حلقت فوق شبه جزيرة شربورج ، وان جنود المظلات هبطوا قرب «كاين» ، بينما أكد مقر قيادة الاميرال تيودور كرانك قائد القوات البحـرية فى الغرب أن جنود المظـلات الانجليز قد هبطوا على الشـاطىء ، وقال ان بعض عمليات الانزال كانت تحوى دمى من القش ، وأذاعت قيادة السلاح الجوى أن جنود

المظلات هبطوا أيضا قرب (بايو) فى حين أن أحداً لم ينزل هناك ٠٠ وجاءت أنبـــاء أخرى تقــول ان القوات التى تحملها الطائرات لم تكن غير دمى فى ملابس جنود المظلات ٠٠ والواقع أن الحلفــاء أســــقطوا مئــات من الدمى المصنوعة من المطاط جنوب منطقة الغزو فى نورماندى ، وقد اتصل بكل منها بعض الالعـــاب النـارية التى تنفجر بمجرد النزول ممــــا يوحى أن هناك قتـــالا يدور بالاسلحة الصغيرة ٠ وقد خدعت بعض هــــذه الدمى الجنرال ماركس وجعلته يعتقد أنه هوجم من الخلف !

***

وفى الساعة الثانية صباحا اتصل بيمزيل بالجنرال شـــبيدل لابلاغه أن المحطة البحرية فى شربورج التقطت اشــــارات تنبىء عن اقتــراب بعض السفن من الشاطىء ، وكان ردشبيدل أن المسألة مازالت محصورة فى نطاق محلى ، وأنها لاتعتبر حتى الآن عملية كبرى •

ولعل أكثر الناس حيرة فى نورماندى تلك الليلة هم رجال الفرقة المدرعة الحادية والعشرين من فرق «البانزر» وعدد رجالها ١٦٢٠٠ رجل ، كانوا جـزءا من الفيلق الافريقى الذى قاده روميل فى حملته بشمال افريقيا ، فقد كانوا يمـــلأون كل قرية وغابة فى المنطقة التى تبلغ مساحتها ٤٠ كيلو مترا جنوب شرقى (كاين) وهى من الاهداف الكبرى للقوات البريطانية ،فقد كان جنود هذه الفرقة يجلسون على حافة ميدان القتال على أهبة الاستعداد الى جوار دباباتهم وسياراتهم التى تدور محركاتها على اســــتعداد لتلقى الامر بالتحرك ٠٠ ولـكنهم ظلوا ينتظرون فى قلق وصبر نافد ٠٠ دون أن يصل الامر !

وكانت الامدادات الاولى قد وصلت فعــــلا لقوات الغزو ٠٠ ففى المنطقـــة البريطانية هبطت ٦٩ طائرة شراعية ، نزلت ٤٩ منها فى المناطق المحددة لها قرب رانفيل ، وفى الناحية الاخرى من ميدان القتال على بعد ستة كيلومترات من (سانت مير أجليز) وصلت القاطرة الاولى من الطائرات الامريكية الشراعية وقد قتل فى هذه العملية من عمليات الانزال الجنرال (دون برات) مساعد قائد الفرقة رقم ١٠١ ، وهو أول جنرال يقتل من الجانبين فى يوم الغزو

***

كان الوقت قد قارب الفجر ٠٠ وفى أقل من خمس ســـاعات كان جنود المظلات قد حققوا أكثر مما كان يتوقعه

الجنرال ايزنهاور وأركان حربه ، فقد أثاروا الارتباك فى صفوف العدو وقطعوا خطوط مواصلاته ، وأصبحوا يسيطرون على طرفى منطقة الغزو بنورماندى ، وعرقلوا حركة وصول الامدادات الى العدو الى حد كبير .

وفى هذه المنطقةالبريطانية ، كانت القوات التى تقلها الطائرات الشراعية قد وطدت أقدامها فوق الجسورالحيوية بين كاين وأورن ، وكان جنود المظلات يحتلون مواقع فوق المرتفعات التى تشرف على كاين ..

وفى الطرف الآخر من شواطىء الغزو ، كان الامريكيون قد حققوا نجاحا مماثلا برغم وعورةالارض وكثرة المهام المختلفة التى كلفوا بها .. وهكذا غزت جيوش الحلفاء الهابطةمن الجو القارة الاوربية وضمنت لنفسها مواطىء الاقدام الاولى ، وجلست فى انتظار وصول القوات التى تحملها السفن لتشترك معها فىاكتساح أوربا التى تحتلها جيوش هتلر .

كان الجميع ينتظرون ذلك الفجر .. ولكن أحدا لم يكن ينتظره بمثل اللهفة التى تنتظره بها الالمان .. فقد ظهرت نذر جديدةتتسلل الى الرسائل التى تتدفق على مقر قيادتى روميل وفون رونشتد .. وعلى طول شاطىء الغزو كانت المحطات الالمانية تلتقط أصوات السفن المقتربة ، وهى ليست سفينة أو سفينتين كما كان الحال من قبل ، بل عشرات السفن .

ومنذ أكثر من ساعة ، أخذتالانباء تصل فى تزايد مستمر ، وقبلالخامسة بقليل ، اتصلالجنرال بيمزيلبالجنرال شبيدل تليفونيا وقال له ان السفن تتجمع بين مصب نهرى الفير والاورن وأن هجوم العدو الواسع النطاق على نورماندى أصبح وشيك الوقوع .

وكان الفيلد ماريشال فونرونشتد قد وصل هو الآخر الى نتيجة مماثلة فى مقر قيادته خارجباريس ، برغمأنه كان لايزال يعتقد أن الهجوم الوشيك على نورماندى هو مجرد عمليةلتحويل الانظار ، وليست الغزو الحقيقى .. وبرغم ذلكتحرك فون رونشتدللعمل بسرعة فأمر فرقتين من فرق البانزر الاحتياطية الموجودة قرب باريس بالتجمع والانطلاق صوبالشاطىء .. ولم يكن من المستطاع تحريك هاتين الفرقتين بدون الحصول على موافقة صريحة من هتلر نفسه ، ولكن فون رونشتد تحمل المسئولية ، لانه لميكن يعتقد أن هتلر سيعارض فى ذلك ، ولهذا بعث طلبا رسميا للحصول على هذه القوات الاحتياطية .

ووصل الطلب الى مكتب الجنرال الفريد جودل رئيس العمليات الحربية بمقر قيادة هتلر فى برختسجادن وكان جودل نائما فى ذلك الحين ، وظن ضباط أركان حربه أن الموقف لم يصل بعد الى الحد الذى يسمح بازعاجه من نومه ، ولهذا تركوا الرسالة تنتظر !

وعلى بعد خمسة كيلو مترات ، فى « وكر النسر » وهو مأوى هتلر الجبلى فى سالزبورج ، كان الفوهرر وعشيقته ايفا براون نائمين ، بعد أن أوى هتلر الى فراشه فى الرابعة صباحا كالعادة وكان طبيبه الخاص قد أعطاه الجرعة المنومة التى لايستطيع النوم بدونها .

وفى الخامسة صباحا استيقظ الاميرال كارل جيسكو الياور البحرى لهتلر على مكالمة تليفونية من قيادة الجنرال جودل ، وقال المتحدث انه حدثت بعض عمليات انزال لجنود الحلفاء فى فرنسا وان كانت الرسائل الاولى لاتزال غامضة .. وسأل جودل عما اذا كان الامر يستدعى ابلاغه للفوهرر .. وبعد أن تناقش الرجلان فى الامر ، قررا عدم ايقاظ هتلر نظرا لان الانباء التى وصلت لا تكفى لذلك كما أنهما خشيا اذا استيقظ فى تلك الساعة أن تنتابه نوبة عصبية كالمعتاد تنتهى بقرار متهور ولهذا قرر الاثنان أن الصباح هو أنسب وقت لابلاغ الانباء الى هتلر .

أما فى فرنسا ، فقد جلس القواد العسكريون فى مقر قيادة فون رونشتد وقيادة روميل ينتظرون .. لقد أعلنوا حالة التأهب بين جنودهم ، واستدعوا قوات البانزر الاحتياطية ، وجلسوا ينتظرون الحركة التالية للحلفاء !

ان أحدا منهم لم يقدر ضخامة الهجوم الساحق الذى دبره الحلفاء ، أو حجم الاسطول الذى أعدوه ..

ومع أن كل شىء كان يشير الى نورماندى ، فان أحدا لم يكن يعرف بالضبط أين سيقع الهجوم الرئيسى

***

ظل الميجور بلوسكات فى وكره المطل على شاطىء «أوماها» منذ الساعة الواحدة صباحا دون أن يتلقى شيئا من رؤسائه ، وقد بعث التليفون الصامت طول الليل الطمأنينة الى قلبه اذ أنه علامة على أنه لم يقع بعد شىء خطير ..

وراح بلوسكات يتطلع الى الافق مرة أخرى ببطء ..

كان كل شىء يبدو عاديا .. ووراءه كان زميلاه الضابطان ويلكنج وثين يتحدثان فى هدوء ..

وقرر بلوسكات قبل أن يترك موقعه أن يقوم بفحص آخر للخليج .. وراح يدير المنظار يمينا ويسارا وهو يفحص الافق بدقة حتى اذا بلغ منتصف الخليج تماما توقفت يداه عن الحركة ، وازداد توتره ، وأخذ يحملق أمامه في ذهول ..

فمن خلال الضباب غير الكثيف ، شاهد سفنا تملأ الافق .. سفنا من كل حجم وصنف ، تتحرك كلها جيئة وذهابا بلا اكتراث ، وكأنها تقف هناك منذ ساعات ... كان يبدو أن هناك ألفا منها ، كأنها أشباح ظهرت فجأة !

واستمر بلوسكات يحدق أمامه في صمت ...

لقد أدرك في تلك اللحظة تماما أن تلك هي نهاية ألمانيا !

والتفت بلوسكات الى زميليه .. ثم قال ببساطة وفي عينيه نظرة عجيبة

ـ انه الغزو .. أنظرا اليه بنفسيكما !

ثم التقط التليفون واتصل بضابط المخابرات في الفرقة ٣٥٢ وقال له : هناك عشرة آلاف سفينة تتجه نحوي مباشرة !

لم ير العالم قط فجرا كهذا الفجر .. لقد ألقى أسطول الحلفاء مراسيه وسط الظلام في خمسة شواطيء للغزو على ساحل نورماندي . كان البحر يعج بالسفن ، وأعلام القتال ترفرف في مهب الريح عبر الافق من أطراف منطقة (يوتاه) بشبه جزيرة شربورج حتى شاطيء (سورد) قرب مصب نهر الاورن .. بوارج ضخمة وطرادات رهيبة ، ومدمرات كثيرة تملأ الافق ، ووراءها تقبع سفن القيادة وقد ارتفعت منها أعمدة اللاسلكي وكأنها أشجار الغابات الكثيفة .. ومن بعدها تأتي سفن النقل المحملة بالجنود ، وسفن الانزال ، وكلها تنتظر الاشارة للانطلاق نحو الشاطيء ، وقد وقف على ظهورها الرجال الذين سينزلون الى الشاطيء في الموجة الاولى ...

هؤلاء الرجال الذين ابتلت ثيابهم، وأصابهم دوار البحر بدوخة ، هم الذين سيشقون طريقهم الى نورماندي ، وكانوا مثقلين بالعتاد الكثير الذي يجعلهم لايستطيعون حراكا ، فقد كانوا يحملون أسلحتهم وحقائب صغيرة مدلاة من أكتافهم لحمل الذخيرة والمؤونة وعتادهم الشخصي ، وأقنعة واقية ، وصناديق للاسعاف ، ومدى وطعاما ، وكميات اضافية من القنابل اليدوية ، ومفرقعات وذخائر تبلغ حوالي ٢٥٠ رصاصة ، بينما كانوا يقفون على ظهر السفن استعدادا للنزول

الى البر ..

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف صباحا .. وقد رسمت عمليات الانزال وفقا لجدول دقيق ، دقيقة بدقيقة .. ولم تستطع الموجة الاولى من قوات الهجوم أن ترى شاطىء نورماندى الذى غمره الضباب ، فقد كانوا لايزالون على بعد تسعة أميال من الشاطىء ، بينما بدأت بعض السفن الحربية الاشتباك فى معركة مع البطاريات الساحلية ..

وعلى ظهر سفينة القيادة «أوجستا» التى وقفت على مقربة من شواطىء الهدف الامريكى ، وقف الجنرال عمر برادلى وقد سد أذنيه بقطع من القطن وراح يرقب سفن الانزال التى تتجه نحو الشاطىء بسرعة من خلال منظاره المكبر ... وكان برادلى يشعر بقلق عظيم فى تلك اللحظة ، فقد عرف منذ بضع ساعات أن عناصر قوية من الفرقة الالمانية رقم ٣٥٢ التى خبرت القتال فى معارك كثيرة قد تحركت لتقف على طول شاطىء (أوماها) ، وقد جاءته هذه الانباء فى وقت متأخر بحيث لم يكن فى الامكان ابلاغها لقوات الهجوم

وفى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين ، كان الاسطول البريطانى يصب نيرانه على الشواطىء المحددة لرسوه منذ أكثر من ٢٠ دقيقة .. ثم بدأ الضرب فى المنطقة الامريكية ، وانطلقت النيران تدوى فى منطقة الغزو كلها ، بينما كانت السفن الكبرى تسير قدما نحو أهدافها المختارة ، والسماء تتوهج بأضواء قذائف المدفعية وسحب الدخان الاسود تغمر الشاطىء

وظهرت القاذفات والمقاتلات تحلق فوق الاسطول الضخم ، وقد كادت اجنحتها يلامس بعضها بعضا .. تشكيل وراء آخر .. يبلغ مجموعها أحد عشر ألفا من الطائرات المختلفة الطراز والحجم ، كانت طائرات « سبتفاير » و « موستانج » تئز فوق رءوس الجنود الذين تحملهم سفن الهجوم فى حين أخذت القاذفات المتوسطة من طراز ب ــ ٢٦ تحلق فوقها فى اتجاه متقاطع .. وبين طبقات السحب الكثيفة ، كان يدوى صوت القلاع الطائرة البريطانية وطائرات «لانكستر» و « ليبراتور » ، حتى بدا أن السماء لا يمكن أن تتسع لكل هذا العدد من الطائرات فى وقت واحد ..

***

لم يعد يفصل الصفوف الطويلة من سفن الهجوم الا أقل من ميل عن شاطئى أوماها ويوتاه وكانت قنابل الاسطول مازالت تزمجر فوق الرؤوس

وكأنهـا مظلة هائلة من الصلب ..
وفوق الشاطىء كانت القنابل التى
تسقطها طائرات الحلفاء تغمر
المنطقة كلها ..

والعجيب أن مدفعية جدار الاطلنطى
الالمانية ظلت صامتة ! .. كان جنود
الحلفاء يرون الخط الساحلى الممتد
أمامهم ، ويتساءلون عن السبب فى
اختفاء نيران العدو ، وظن كثيرون أن
النزول الى الشاطىء سيتم بسهولة..
ولكن هذا الظن كان خاطئا ، فقدغرق
الكثير من السفن والقوارب فى منطقتى
أوماها ويوتاه ، واستطاعت قوارب
النجاة أن تلتقط بعض الرجال ، بينما
ظل البعض الآخر عائما بضع ساعات
.. وغرق آخرون بسبب ثقل العتاد
الذى يحملونه .. غرقوا والشواطىء
أمامهم دون أن يطلقوا من بنادقهم طلقة
واحدة ..

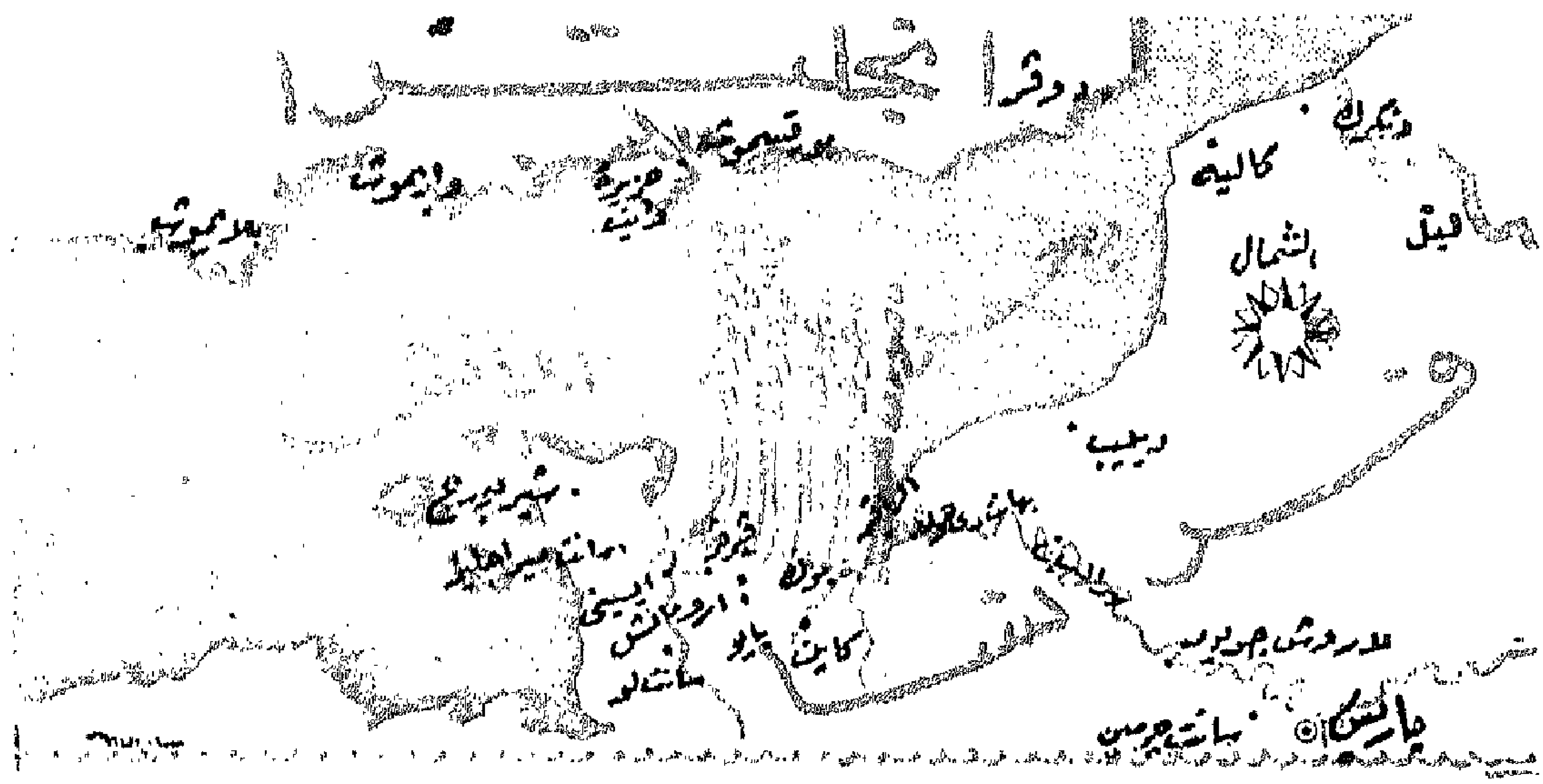
وازداد صوت موسيقى القنابل
القاتلة ، وزاد اقتراب السفن من
الشاطىء ، وغمر السماء دخان كثيف
.. وبرغم ذلك فان مدافع الالمان ظلت
ساكنة !

واستطاع الجنود على ظهر السفن
أن يروا الادغال القاتلة من الصلب
والاسمنت التى تناثرت فى كل مكان
عند الشاطىء ، وقد غطيت بالاسلاك
الشائكة ومن حولها الالغام المبثوثة.
ووراء هذه الخطوط الدفاعية كان
الشاطىء نفسه يبدو خاليا ..

وراحت السفن تقترب وتقترب ..
وتوقف الضرب على الشاطىء ، وتحولت
المدفعية توجه ضرباتها الى أهداف فى
الداخل ..

وبينما كانت السفن الاولى على
مسافة ٣٥٠ مترا من الشاطىء ..
بدأت مدافع الالمان تفتح أفواهها ..
وانهمرت رصاصات المدافع الرشاشة
تصطدم بمقدمة السفن ، وانهالت
قذائف المورتار من كل مكان ، وراحت
المدافع الالمانية تصلى سفن الهجوم
بنيرانها على طول شاطىء (أوماها)
الذى يبلغ امتداده ستة كيلو مترات
.. وقد ركز الالمان أقوى خطوط
دفاعهم للسيطرة على مخرجين رئيسيين
عند شاطىء فى فيرفى ، وكولفيل .

وأخذت بعض السفن تبحث عن
بقعة أقل نيرانا على طول الشاطىء ،
بينما راحت سفن أخرى تحاول جاهدة
أن تصل الى المناطق المحددة لها ،
فأصابتها نيران شديدة حتى اضطر
رجالها الى القفز فى مياه عميقة ، وهناك
تسلمتهم نيران المدافع الالمانية الرشاشة
كانت سفن الانزال تنسف وتمزق
أربا بمجرد وصولها الى الشاطىء ..



وعلى طول ساحل أوماها كان الرجال يسقطون عند حافة الماء ، بعضهم يقتل على الفور ، والبعض يصيح بأصوات تثير الشفقة منادين جنود القسم الطبى .. وفى خلال الدقائق الاولى أصيب رجال سرية كاملة اصابات شديدة ، واضطر أكثر الباقين من الاحياء الى السير فى الماء حتى الشاطىء ، بعد أن قتل ضباطهم ، وجرح وفقد الكثيرون من زملائهم .. كانوا يسيرون بلا سلاح وقد أذهلتهم النكبة !

وزاد الحال سوءا على شاطىء أوماها بعد أن اكتشف الجنود أنهم نزلوا فى قطاعات غير التى كانوا ينشدونها ، فالبعض نزل فى مناطق تبعد ثلاثة كيلومترات عن مناطق نزولهم ، وتناثر مهندسو الجيش والبحرية المكلفون بشق الطرق خلال العقبات الساحلية على مسافات بعيدة ، كما أنهم وصلوا بعد الوقت الذى كان يجب أن يصلوا فيه ...

وبرغم كل ذلك ، فقد بدأ هؤلاء الرجال عملهم حيثما وجدوا أنفسهم

ففى خلال الدقائق القليلة الباقية على نزول الامواج المتتابعة من الجنود لم يكن المهندسون قد طهروا أكثر من خمسة مسالك بدلا من ١٦ طريقا كما كان مقررا ، وكانت فرق التخريب تعمل فى سرعة يائسة ، تواجههم العراقيل فى كل مكان ، ويصطدمون بجنود المشاه .. وكان الجنود يختفون وراء العقبات التى يوشكون على نسفها

وعندما جاءت الموجة الثانية من الجنود لتواجه المجزرة الدائرة على

الشاطىء ، كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحا ٠٠ وتكررت معهم نفس القصة ، فقد تفرق الرجال على الشاطىء أمام نيران العدو المركزة ، وانضمت سفن الانزال الى مقبرة السفن المحطمة والمحترقة التى كانت فى ازدياد مستمر ٠٠

وتكدست على طول الشاطىء قطع العتاد والمهمات التى كانت مخصصة للغزو ٠٠ كانت المؤن والذخائر ترى متناثرة فى كل مكان ، وحطام السفن يبرز من الماء والدخان يتصاعد فى الجو من الدبابات المحترقة ٠٠

ووسط هذه الفوضى والموت الذى غمر الشاطىء ٠٠ جاءت الموجة الثالثة

وارتمى الرجال على الرمال والاحجار وقد التصق كل منهم بالآخر ، وراحوا يحاولون الاختباء وراء جثث الموتى . وقد تسمروا فى أماكنهم أمام نيران العدو التى كانوا يظنون انهم أسكتوها ٠٠ وزاد من اضطرابهم أنهم هبطوا فى أماكن غير المقررة لهم ، ولم يجدوا الحفر التى كانوا يأملون الاختباء فيها والتى أحدثتها قنابل سلاح الطيران ٠ وتجمد الجنود على الشاطىء بعد أن صدمتهم مشاهد الموت والدمار من حولهم ، وبدا أنهم أصيبوا بشلل عجيب ، حتى ظن بعضهم انهم خسروا المعركة الى الابد !

***

وعلى بعد ١٥ كيلو مترا ، كانت تجرى قصة مختلفة على شاطىء يوتاه فهناك كان جنود الجنرال رايموند بارتون قائد الفرقه الرابعة يتجمعون على الشاطىء ثم يندفعون الى الداخل بسرعه ، بينما كانت الموجه الثالثة لسفن الهجوم قادمة ، والمقاومه لاتزال ضئيلة ٠٠ وكانت الدبابات البرمائية من عوامل نجاح الانزال فى هذه المنطقة ٠٠

أما سبب هذه المقاومه الضئيلة التى لاقتها القوات التى نزلت فى شاطىء يوتاه ، فهو أنهم نزلوا لحسن الحظ فى منطقة غير المنطقة التى كانوا يريدونها ، اذ قادهم قارب الارشاد الى مكان يبعد أكثر من ميل جنوبى الشاطىء المقرر لهم ، بعد أن أربكه دخان القنابل البحرية ، والتيار البحرى القوى الذى وقع بين براثنه ٠

ولم يتردد الجنرال تيودور روزفلت - الذى هبط مع الموجه الاولى للجنود - فى العمل برغم ذلك ، حتى لايسقط الرجال الذين سيأتون بعد هذه الموجة فى الشرك ٠٠ ولهذا قرر أن تنطلق الفرقة الى الداخل [illegible] تحتل المواقع الالمانيه التى تجدها أمامها فان كل

شيء أصبح يتوقف على الحركة بأسرع ما يمكن ، وقبل أن يفيق العدو من أثر الصدمة الأولى للغزو .

وقال تيودور روزفلت يومهـا : سوف نبدأ الحرب من هنا !

***

بدأ الانجليز والكنديون ينزلون على الشواطئ التى أطلق عليها أسماء « سورد » و « جونو » و « جولد » .

وعلى بعد ٢٥ كيلو مترا من ويسترهام عند مصب الاورن ، حتى قرية ليهامل غربا ، غص الشاطئ بالسفن التى تنزل الجنود ، وأصبحت المياه القريبة من الساحل تعج بالسفن التى كادت تلتصق ببعضها البعض .

ولم تلق القوات الانجليزية والكندية فى هجومها الاول غير مقاومة أقل مما لاقاه الامريكيون فى (أوماها) ، اذ أتاحت الساعة المحددة لنزولهم مزيدا من الوقت لتعزيز خطوط دفاعهم الساحلية ، وسرعان ما تدفق الجنود على الشاطئ وتحركوا الى الداخل ، وان كانوا قد فشلوا فى تحقيق هدفهم الرئيسى ، وهو الاستيلاء على (كاين) اذ أن فرقة البانزر الالمانية الحادية والعشرين ظلت تصدهم عن الاستيلاء على هذه المدينة الهامة طوال الاسابيع الخمسة التالية ...

***

كانت منطقة « برختسجادن » ترقد فى هدوء وسلام فى ذلك الصباح الباكر ، والسكون يخيم على (عش النسر) الذى يأوى اليه هتلر ... بينما كان الجنرال الفريد جودل رئيس العمليات الحربية بمقر قيادة الفوهرر قد بدأ فى دراسة التقارير الاولى عن غزو نورماندى وان كان يعتقد أن الموقف لم يصبح خطيرا بعد ..

واتصل به نائبه الجنرال ولتر وارليمونت تليفونيا ليبلغه أن المارشال فون رونشتد يطلب الاذن باستخدام قوات البانزر الاحتياطية لنقلها الى مناطق الغزو بأسرع مايمكن ..

وساد الصمت فترة طويلة بينما كان جودل يفكر فى هذا الطلب .. ... ثم سأل نائبه :

ـ هل أنت واثق من أن هذا هو الغزو حقا ؟ اننى لا أعتقد ذلك ، ولا أظن أن الوقت قد حان لاستخدام هذه القوات .. يجب أن ننتظر حتى ينجلى الموقف .

وصعق وارليمونت لهذا الرد .. لقد كان استخدام قوات البانزر يعتمد على نزوة رجل واحد هو هتلر .. وفى ذلك اليوم الذى كانت فيه هزيمة الحلفاء واحباط غزوهم تعتمد على السرعة والقوة ، فان قرار استخدام

هذه القوات لم يصل الى رونشتد الا متأخرا .. بعد ثمانى ساعات ونصف ساعة !

وكان الرجل الذى توقع مثل هذا الموقف وكان يأمل أن يناقش فيه هتلر، يقيم على بعد أقل من مسيرة ساعة بالسيارة من برختسجان .. فقد كان الفيلد ماريشال أورين رومل فى تلك الساعة فى منزله ببلدة هيرلنجن، وكانت الساعة تدق السابعة والنصف صباحا ..

ولم يعثر فى سجلات يومية الحرب الخاصة بمجموعة الجيوش الالمانية الثانية على مايدل على أن رومل كان قد أخطر حتى تلك اللحظة بنزول الحلفاء فى نورماندى .

ومع أن الغزو كان يسير فى طريقه فعلا منذ سبع ساعات ونصف ساعة فان هيئة أركان الحرب الخاصة بالماريشال رونشتد ، والماريشال رومل لم تكن قد استطاعت أن تقدر مدى هجوم الحلفاء تماما ..

وكانت شبكة المواصلات الواسعة قد تحطمت فى كل مكان على طول الجبهة ، بعد أن أدى جنود المظلات المتحالفون عملهم جيدا، حتى ان الجنرال بيمزيل اتصل بمقر قيادة رومل وقال لهم : اننى أقاتل فى معركة من عهد وليم الفاتح ... معركة لا أستخدم فيها غير الاذن والعين فقط ... ان ضباطى يتصلون بى تليفونيا ليقولوا انهم يسمعون أصواتا ويرون سفننا ولكنهم لا يستطيعون رسم صورة حقيقية للموقف ..

وكان الضباط الالمان فى مقر قيادة الجيش السابع فى ليمسان يلتهبون حماسة وقد بدا أن الفرقة رقم ٣٥٢ التى تهاجم رأس الجسر فى منطقة فيرفى ـ كولفى قد حطمت عمليات الانزال ، وقد ارتفعت روحهم المعنوية الى حد انه عندما عرض عليهم الجيش الخامس عشر ارسال بعض الامدادات، رفضوها قائلين انهم ليسوا فى حاجة اليها !

وكان هناك جو من التفاؤل المماثل فى مقر قيادة رومل بقرية لاروش جويون ، اذ كان الجميع يعتقدون أن الالمان سوف يلقون بالحلفاء الى البحر قبل أن ينتهى اليوم !

***

كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف صباحا فى انجلترا بينما كان الجنرال أيزنهاور يذرع الارض طوال الليل فى غرفته ، منتظرا كل نبأ جديد ...

لم يعد هناك شك الآن فى أن

الحلفاء قد نجحوا فى الحصــول على موطىء قدم فى القارة الاوربية ، وبرغم أن السيطرة عليه ما زالت ضئيلة ، فانه لم تعد هناك حاجة لاذاعة الرسالة التى كتبها أيزنهاور قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة لتذاع فى حالة فشل محاولة الغزو ، وقد جاء فيها :

« فشلت عمليات نزولنا فى منطقة شربورج ـ الهافر ، وقد اضطررنا الى سحب القوات . وقد قررت الهجوم فى هذا الوقت وهذا المكان بناء على أفضل ما لدينا من معلومات . وقد أبدت القوات البرية والجوية والبحرية كل شجاعة واخلاص فى تنفيذ واجبها ، واذا كان هنــاك من يلام ، فاننى أنا وحدى المخطىء » .

ولكن أيزنهــاور بدلا من أن يذيع هــذه الرســالة ، أذاع فى الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة والثــلاثين رسالة أخرى على العالم جاء فيها :

« بدأت قوات الحلفاء البحرية تؤيدها القوات الجوية بقيادة الجنرال ايزنهاور ، عمليات انزال جيوش الحلفــاء على الشاطىء الشمالى لفرنسا هذا الصباح »

***

وفى الساعة العاشرة والربع صباحا ، دق جرس التليفون فى منــزل رومل ببلدة هيرلنجن ، وكان المتــكلم هو رئيس أركان حربه الجنــرال هانز شبيدل ، الذى أبلغه أول نبأ عن الغزو .

واستمع رومل الى الحديث وقد غاص قلبه بين ضلوعه ..

انه اليوم الذى كان ينتظره ...

اليوم الذى قال انه سيكون أطول يوم .

وادرك رومل الواقعى أن المبــاراة قد انتهت ، على الرغم من أن القتال قد يستمر شهورا أخرى .

لقد انتهى أطول يوم ، على الرغم من ان الوقت كان لا يزال فى الصباح ..

ان سخرية القدر هى التى جعلت أكبر قائد المانى بعيدا عن الميدان فى الوقت الذى بدأت فيه المعركة الحاسمة فى الحرب .

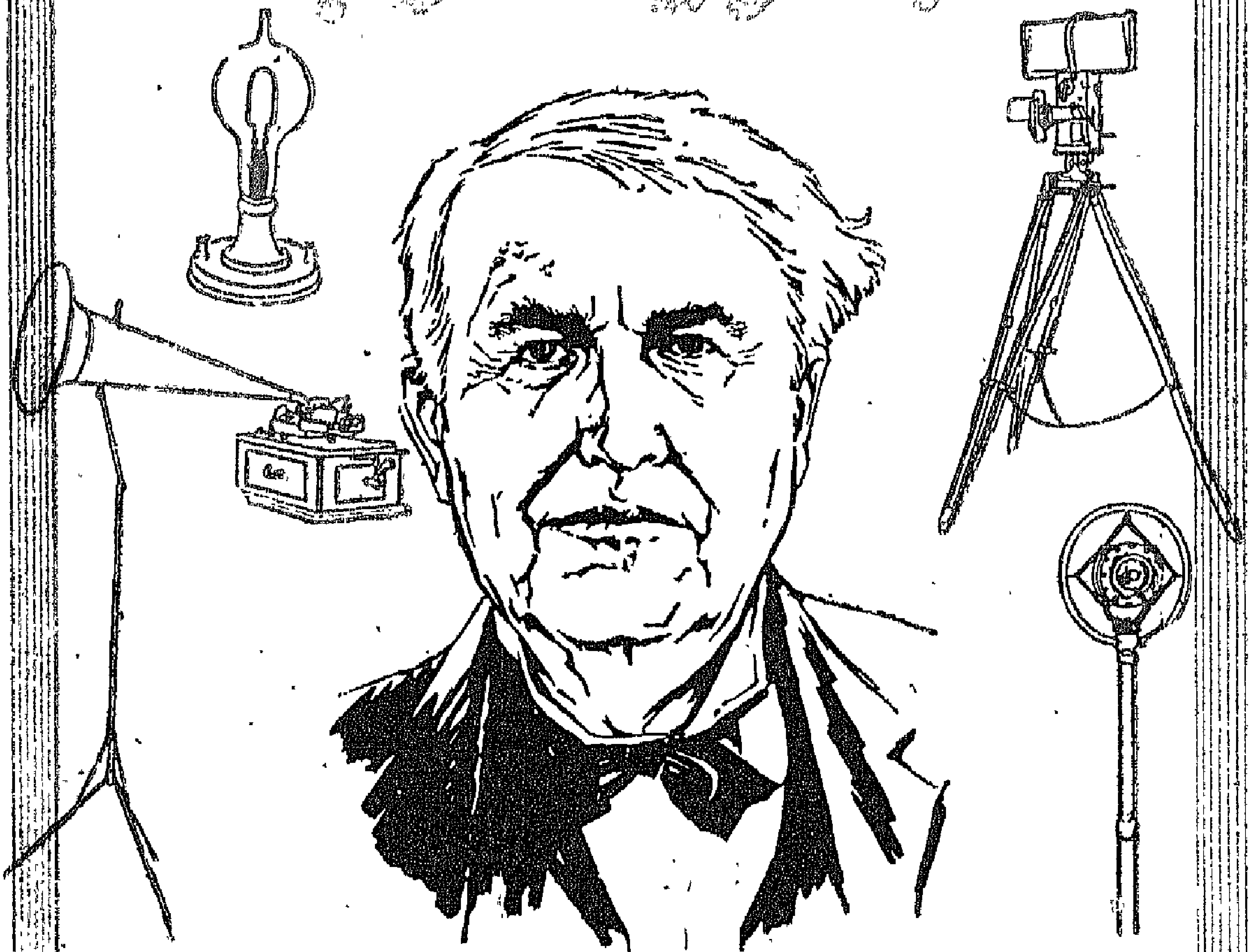
وكان كل ما قاله رومل بعــد أن انهى شبيدل حديثه .. هو :

ـ يا لى من غبى .. يا لى من غبى!

رصيد لا ينفذ !

لو أن شخصــا بدأ يمارس أعماله فى السنة الاولى من الميلاد برأس مال قدره الف مليون دولار واذا كانت ادارته للعمل سيئة الى حد انه يخسر الف دولار يوميــا .. فانه يستطيع برغم ذلك أن يواصل العمل برأس ماله ويخسر الف دولار يوميا حتى سنة ٢٧٣٩ ميلادية ! .

عبقرية متوهجة



عن كتاب **Incandescent Genius**

بقلم س . ب . وال

منذ أكثر من ٥٨ عاما ذاعت شهرةتوماس الفا اديسون فى كل أنحاء العالم باعتبـاره ألمع مخترع أمريكى ، ولـكن‌اديسون كان أكثر من ذلك بكثير .. ان القليلين هم الذين يدركون انه كان من‌أعجب المخلوقات البشرية التى أنتجتها امريكا ، وان حيـاته كانت أعظم روعةمن أى اختراع من اختراعاته الرائعة..

وقد جمع المؤلف مواد هذا الـكتاب‌الذى يفتن الألبـاب من أسرة اديسون وزملائه الذين ما زالوا على قيد الحياةوغيرهم من المصادر

عبقرية متوهجة

مات منذ أكثر من ٢٨ عاما ••• ومع ذلك فهو جزء من حياتنا بأكثر من ألف طريقة ، فكلمنا جلسنا نرقب التليفزيون أو نستمع الى الراديو أو أرسلنا برقية أو أعملنا أصابعنا فوق الآلة الكاتبة •• وكلما تحدثنا فى التليفون أو ذهبنا الى السينما أو أدرنا اسطوانة فوق الحاكى ، أو أضأنا مصباحا كهربائيا •• كلما فعلنا شيئا من ذلك، فنحن مدينون لهذا العبقرى!

اسمه : توماس ألفا اديسون •• وحتى فى عصر العمالقة ، يعتبر اديسون شخصية اسطورية ضخمة !

ولد توماس اديسون فى مدينة (ميلان) بولاية أوهايو عام ١٨٤٧ ، فكان الطفل السادس لصمويل اديسون صاحب أحد مصانع تقطيع الاخشاب ، ومنذ اللحظة التى بدأ يحبو فيها توماس ، أظهر أنه كان طفلا غير عادى •• حدث فى احدى أمسيات الربيع عندما كان فى الخامسة أن عثر عليه أبوه فى حظيرة أحد الجيران وقد جلس القرفصاء فوق عش يحوى بيض البط ، وكان قد أمضى هناك عشر ساعات فى صبر بالغ حتى ازرق جسمه من البرد ، ومع ذلك فقد احتج بشدة عندما عاد به أبوه الى الدار ، وهو يؤكد أن فى استطاعته أن يفقس البيض بنفسه !

وعند مشرق شمس اليوم التالى ، عاد مرة أخرى الى العش، فكشف فى هذه التجربة الاولى عن عناد وتشبث برأيه ظلا طابع حياته كلها ••

وعندما بلغ السابعة من عمره ، انتقلت الاسرة الى (بورت هاردن) بولاية ميتشجان ، حيث بدأ اديسون أقصر فترة فى التعليم الرسمى فى التاريخ ، فبعد شهرين ، قال مدرسه لأمه :

ــ يؤسفنى أن أخبرك أن ابنك متأخر تماما •• انه لا يريد أن يتعلم

وعندئذ انفجرت أمه نانسى أديسون قائلة :

ــ كلام فارغ •• ان توم ولد ذكى وسأعلمه بنفسى ••

وكانت نانسى سيدة غير عادية ، ولهذا تلقى ابنها تعليما غير عادى ، فبعد أن علمته القراءة والكتابة ، تركته يتابع كل مايثير اهتمامه •• وقبل أن يبلغ العاشرة ، كان توماس اديسون

يقرأ كتاب جيبون الشهير « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، و« قاموس العلوم » كما قرأ كتبا عن الفلسفة الطبيعية وعجائب الدنيا .

وشجعت هذه الكتب العقل الصغير على التجربة ، وراح قبو منزل الاسرة الريفية يمتلىء تدريجا بمئات من القناني والقدور .. وخلب لب اديسون الصغير بصفة خاصة وصف قرأه عن اختراع حديث لصمويل مورس ، فعكف على صناعة بطاريات سائلة ، وعمل خطوط تلغرافية ، ورسم الآلات والتدرب على طريقة مورس التلغرافية ..

وما كاد اديسون يبلغ الثانية عشرة حتى قرر أن يعمل من أجل الاستقلال المالي ، فقد كان معمله في حاجة الى مواد غالية ، كما كان يشترى كتب العلوم الجديدة بمجرد ظهورها .. فاستطاع اقناع سكك حديد (جراند ترانك) بمنحه امتياز بيع الصحف والحلوى في قطارها اليومي بين « بورت هاردن » و « ديترويت » .. وفي المدينة الاخيرة كان يمضي أوقات فراغه في غرف المطالعة بجمعية الشبان المسيحيين . كان قد تعلم كيف يقرأ بسرعة ، وأن يلتهم عدة مجلدات في أمسية واحدة ، محتفظا بأهم وقائعها في ذاكرة جبارة كأنها آلة تصوير سريعة .. وقد بدأ القراءة بالكتب التي تبدأ عناوينها بحرف (ا) وقرر أن يطالع كل كتاب تضمه المكتبة التي تحوى ١٦ ألف مجلد ..

ونجح اديسون في عمله بالسكك الحديدية .. وفي خلال ثلاث سنوات توسع في عمله فاستأجر غلمانا لبيع الصحف في قطارات أخرى ، وأنشأ تجارة للفاكهة والخضر الطازجة ، كما أصبح له عشرات من الاصدقاء بين عمال التلغراف ورجال محطات السكك الحديدية على امتداد الطريق بين بورت هاردن وديترويت الذى يبلغ طوله ١٠١ كيلو متر ، فكان يبيعهم الزبد الطازج والخضر بثمنها ، كما كان يعطيهم الحلوى لاطفالهم ، ويمنحهم الصحف والمجلات التي تتبقى بعد التوزيع .. وقد ساعدوه كثيرا مقابل ذلك ..

كانت الحرب الاهلية الامريكية في أوجها . وكان اديسون يبيع كثيرا من الصحف في ديترويت في أيام المعارك الكبرى ، وفي أحد أيام ابريل ١٨٦٢ نشرت صحيفة (فرى بريس) وصفا لمعركة كبرى تدور في « شيلوه » وعندئذ هرع اديسون الى مكتب التلغراف واقنع الموظف بارسال العناوين التي تحملها الصحيفة الى المحطات فقد كان يدرك أن أصدقاءه من

مستخدمى المحطات سوف يبرزون هذه العناوين فوق لوحات النشرات الخاصة بهم .. ثم طلب من ادارة توزيع صحيفة (فرى بريس) ألف نسخة ولم يصدق الموظف المسئول ماسمعه فقال مرددا: ألف نسخة !

وعندما أبلغه البائع الصغير أنه سيأخذ هذه النسخ بالاجل ، هز رأسه أسفا ، وذهب معه الى مدير التوزيع، الذى صحبه بدوره الى رئيس التحرير

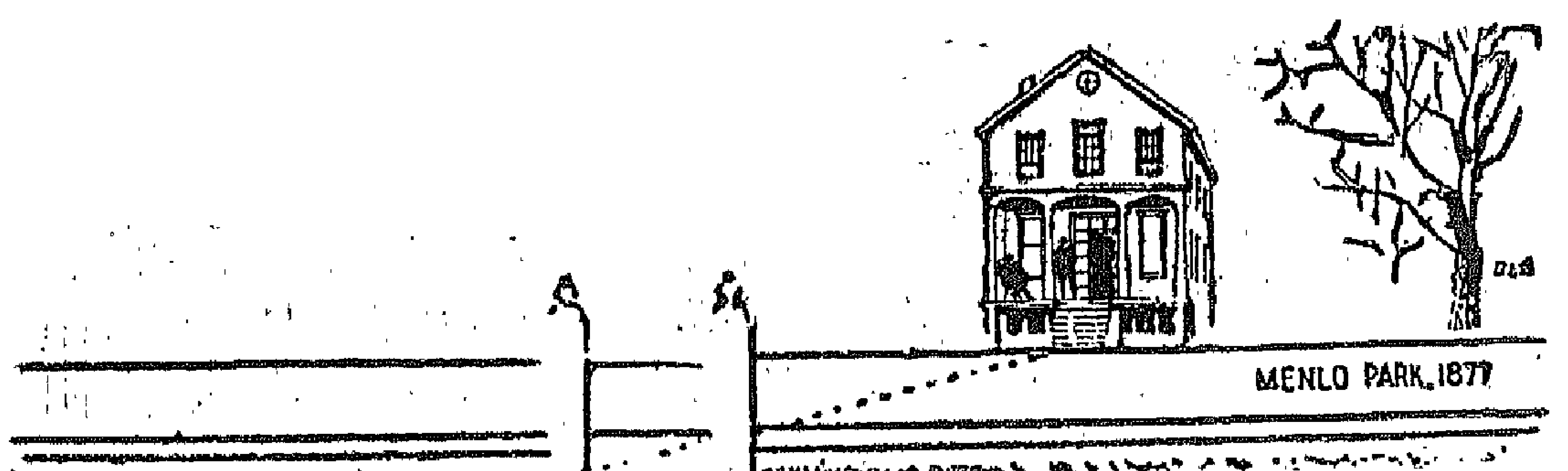
وأعجب رئيس التحرير بابتكار الفتى الصغير ، فأمر باعطائه كل مايريد من صحف ..

وانطلق اديسون بالالف نسخة .. وعند المحطة الاولى وجد فى انتظاره جمهورا كبيرا ابتاع ٤٠ نسخة ، وكان معدل توزيعه فيها لايزيد على نسختين وفى المحطة التالية رفع سعر النسخة من خمسة الى عشرة سنتات ، فاختطف الناس ١٥٠ نسخة .. ثم رفع السعر الى ٢٥ سنتا فباع الالف نسخة كلها قبل أن يصل الى بورت هاردن !

وبأرباحه من هذه العملية الناجحة، ابتاع اديسون مطبعة صحفية قديمة ، وضعها فى عربة نقل الاثاث بالقطار ، وراح يطبع عليها صحيفة صغيرة الحجم اطلق عليها اسم « ويكلى هيرالد » وفى هذه الصحيفة التى وصفتها صحيفة «التايمز» الانجليزية بأنها أول صحيفة فى العالم تصدر فى قطار متحرك ، كان اديسون ينشر الانباء المحلية الخاصة بالمحطات التى تقع على طول الطريق ، من زواج الى ولادة ووفيات وحوادث ومشاجرات .

وباعت صحيفته كثيرا ، حتى أنه بدأ يقبل بعض الاعلانات فيها ، ولكنه تمادى فى نشر بعض الفضائح ، والشائعات الخاصة ببعض أفراد المجتمع ، مما أحنق البعض عليه ، وأدى الى أن ألقى به أحد الناس فى نهر سانت كلير بملابسه .. وعندئذ قرر اديسون أن يهجر النشر والصحافة

ولم يكتف اديسون بصحافة القطار بل أقام أيضا معملا كيميائيا فى القطار



كان يقوم فيه بتجارب عما يقرأه في كتب العلوم ، وحدث في أحد الايام أن سقطت قنينة تحوي مادة سريعة الالتهاب أثناء سير القطار في منطقة وعرة ، فأحرقت الصحف وغيرها من المواد القابلة للاشتعال •• وانتهى الحادث بانزاله هو وأدواته عند أول تقاطع للطرق •• وكانت تلك هي نهاية عمله في سكك حديد « جراند ترانك »

***

كانت تلك أيضا بداية حياة جديدة له •• فقد حدث وهو يعمل في بيع الصحف أن غامر اديسون بحياته لانقاذ طفل في الثالثة كاد يدهسه قطار قرب محطة « مونت كليمنس » وكان والد الطفل هو عامل التلغراف بالمحطة ، فتطوع لتعليم اديسون فنون التلغراف مقابل هذا الجميل •

وأخذ الفتى الصغير يتدرب على التلغراف ١٨ ساعة يوميا !

كانت كل النسخ تكتب يومئذ باليد ، فبدأ اديسون تجاربه حتى استطاع أن يبتكر آلة للكتابة بحروف بارزة من الصلب تشبه حروف الصحف ، وقد استطاع بفضل تدريبه المستمر أن تصل سرعته في ارسال البرقيات الى ٥٥ كلمة في الدقيقة وهي أسرع مما يستطيع ان يرسله أي عامل آخر •••

وعمل اديسون كموظف للتلغراف ولكنه كان كثير التجوال ، وكان يواصل تجاربه الكيميائية والكهربائية في كل مكان ينتقل اليه ، حيث يقرأ طوال الليل ، ولا يكاد ينام الا اذا غلبه التعب والارهاق •

***

وفي سترانفورد بأونتاريو ، وجد عملا ليليا يتطلب منه أن يرسل اشارة الى المكتب الرئيسي كل ساعة ، ولما كان هذا العمل يعرقل حاجته الماسة لبعض غفوات قصيرة ، فقد ابتكر اديسون آلة جديدة تدل على عبقريته، عبارة عن عجلة صغيرة ذات أطراف مشرشرة ، تتصل بساعة متصلة بدورها بدائرة تلغرافية •• وتدور العجلة مرة كل ساعة ، فترسل الاشارة المطلوبة •• ونجحت الطريقة فترة من الزمن ، ثم حدث في منتصف احدى الليالي ان كان اديسون نائما عندما حاول رئيسه في تورنتو الاتصال به بعد وصول اشارته بفترة وجيزة •• وكانت تلك نهاية أيامه في ذلك العمل !

لم يكن العمل في تلك الايام مشكلة بالنسبة لعامل تلغراف ماهر مثله ، وسرعان ما بلغ أجره الشهري ١٢٥

دولارا ، وقد زادت براعته في العمل بسبب اصابته بالصمم قبل بلوغه الثامنة عشرة عندما جذبه أحد عمال القطار من أذنيه ليساعده على الصعود الى القطار بعد تحركه ، فتلفت أعصاب السمع لديه تلفا لا سبيل الى اصلاحه

***

كان يحمل فى جيبه دائما دفترا صغيرا يكتب فيه مذكرات عن تجاربه ويخطط رسوما عن أفكاره •• وكان يرتدى أحذية قديمة بالية ، وملابس رثة ملوثة بالحبر •• وفى أشد فصول الشتاء برودة كان يرفض أن يشترى لنفسه معطفا مفضلا انفاق كل ماله على شراء الكتب العلمية وأجهزة التجارب •

وكان بين المشروعات التى دونها فى مفكرته ، مشروع ارسال رسالتين برقيتين فى اتجاهين متضادين على سلك واحد فى نفس الوقت •• وبينما كان يعمل لحساب شركة (ويسترن يونيون) بممفيس ، حاول أن يشرح نظريته لرئيسه ويدعى جنرال كولمان ، ولكنه استاء من ذلك وزمجر فى وجهه قائلا:

ـ ان أى مجنون يعرف أن السلك لا يستطيع أن يعمل فى طريقين متضادين فى وقت واحد ••

وطرد اديسون من عمله لانه شخص لا يقدر المسئولية !

وفى حانوت لبيع الكتب فى بوسطون وجد اديسون أول مجموعة كاملة من مؤلفات العالم الانجليزى « مايكل فاراداى » •• وفى تلك الليلة لم يغمض له جفن •• وعندما بزغ نور الصباح كان لا يزال يقرأ كتب فاراداى •

وسأله زميله الذى يشاركه فى غرفته

ـ ألا تتناول الافطار ؟

فنظر اليه اديسون ، وقال بايجاز:

ـ ليس الآن •• ان أمامى عملا كثيرا والحياة قصيرة !

كان يقضى لياليه يعمل فى ارسال البرقيات الصحفية ، ويمضى بقية وقته فى ورشة صغيرة للآلات ببوسطن ، ينفذ تجاربه التى بدأت تملأ كراسات لا حصر لها ، وقد بلغت عند وفاته اكثر من ٢٥٠٠ كراسة ••

وسجل اديسون أول اختراعاته وهو فى الحادية والعشرين ، وهو جهاز عرف باسم « مسجل الأصوات الكهربائى » ويتيح لكل نائب أن يسجل صوته فى الاقتراع بالضغط على زر صغير مما يوفر الوقت الذى يضيع فى المناداة على الاسماء ، ولكن اللجنة التى عرض عليها فى الكونجرس هونت من شأنه لانه يحول دون المناورات البرلمانية •

وفى نفس العام ، نجح اديسون فى اختراع طريقة ارسال برقيتين فى وقت واحد على سـلك واحد ، ولـكنه لم يسجل اختراعه فى الوقت المناسب ، وسبقه مخترع آخر الى تسجيل اختراع ممـاثل ، فكانت تلك جرعة مريرة لاديسون الذى قرر أن يغادر بوسطن الى نيويورك .

***

وصل اديسـون الى نيويورك وهو لا يملك مليما واحدا ، بعد أن اقترض أجرة سفره ، وسـاعده الحظ بعد وصوله بأيام على اصلاح جهاز الارسال ببورصـة الذهب بعد أن عجز كل الفنيين عن ذلك ، فتعاقدوا معه فورا للعمل كملاحظ للآلات بمرتب قدره ٢٠٠ دولار فى الشهر ، ولكنه كعادته لم يكن راضيا تماما عن العمل كأجير مهما بلغ راتبه ، وسرعان ما استأجر مع اثنين من أصدقائه ورشة صغيرة فى «جيرسى سيتى» خصوصا لصناعة آلات التلغراف وصيانتها ..

واهتم الجنرال مارشـال ليفرتس مدير شركة « جولدن آندسـتوك » بأعمال اديسـون لتحسـين الآلات البرقيـة ، فدعاه للعمل فى مصنع الشركة بنيو آرك على أن يحاول تحسين وتبسيط الاجهزة المسـتخدمة لنقل البرقيات الى البورصات .. وفى خلال شهور قلائل تمكن المخترع الصغير من اختراع المبرقات الكاتبة التى لا تزال مستخدمة حتى الآن ، وقد نال مقابل هذا الاختراع ٤٠ ألف دولار .. وفى اليوم التالى فتح لنفسـه أول حساب فى البنوك ..

وفى خـلال الاشهر الاولى من عام ١٨٧٠ بدأ اديسون عمله لحسابه الخاص بفتح ورشة صناعية خاصة بنيو آرك استخدم فيها ١٨ رجلا ، وخصصها فى مبدأ الامر لصنع أجهزة تلقى الرسائل البرقية فى البورصـات وتحسينها واصـلاحها ، وسرعان ما تلقى طلبات لصناعة عدد من المبرقات الكاتبة التى ابتكرها وأسماها «يونيفرسال برينتر» قيمتهـا ٣٠ ألف دولار ، فاستخدم مجموعة من العمال المتخصصين الذين بقى بعضهم يعمل معه طوال حياته .

***

وبرغم أن أديسون كان يومئذ فى الثالثة والعشرين فقط ، فقـد اشتهر بين مستخدميه وعماله باسم « الرجل العجوز » فقد كان فيه نضوج عجيب وكان جسمه متين البنيـان ، أزرق العينين ، حاد النظرات ، له حاجبان كثيفان وجبهة عريضة بصورة غير عادية وكان يتنقل فى أرجاء الورشة بثياب

تغمرها التجاعيد ويلطخهـا الشحم ، وقد بدا أقرب الى المتشرد منه الى رجل الصناعة الطموح :

وكان اديسون رب عمل مثاليا ، فقد كان يدفع أعلى الاجور ، ولكنه يتطلب ممن يعمل معه أن يكرس نفسه لعمله ، ويحتقر الذين يرقبون الساعة كل لحظة ، حتى أنه وضع فى أنحاء مصنعه الصغير ست ساعات كل منها يشير الى وقت مختلف ..

وحتى فى تلك الايام الاولى ، كان اديسون مشغولا بالتفكير فى أكثر من ٤٥ اختراعا ، ومع أن مورس هوالذى اخترع التلغراف ، فلا شك فى أن اديسون قد أحدث فيه انقلابا تاما ، فلم يكتف باختراع طريقة ارسال برقيتين فى اتجاهين متضادين فى وقت واحد على سلك واحد ، وارسال برقيتين فى اتجاه واحد ، بل انه أنقذ حياة شركة « ويسترن يونيون » باختراعه طريقة للارسال لم تعرف من قبل بدلا من طريقة المغناطيس الكهربائى التى سجلها (جاى جولد) الذى كان يتقاضى مبلغا ضخما مقابل حق استخدامها اذ اخترع اديسون طريقة أخرى أسماها (موتوجراف) تستخدم محركا كهربائيا صغيرا ونال مقابل ذلك مائة ألف دولار .

***

وفى عيد الميلاد عام ١٨٧١ تزوج اديسون من فتاة حلوة فى الثامنة عشرة تدعى « مارى ستيلول » كانت تعمل مدرسة بمدرسة الاحد بنيو آرك ، وبعد عقد القران بساعات استأذن اديسون من المدعوين الى حفل الزفاف بضع دقائق ، وانطلق الى ورشته .. وحوالى منتصف الليل ، وجده صديقه الذى قام بدور الاشبين فى الزفاف ، غارقا فى تجاربه فطلب منه أن يعود للبيت .. فقال أديسون :

ـ لدى عمل كثير يجب أن أقوم به

ـ ولكنك تزوجت اليوم فقط .. ومارى فى انتظارك للسفر الى بوسطن لقضاء شهر العسل ..

وهنا فقط تذكر اديسون أنه تزوج فعلا فى ذلك اليوم !

وبرغم هذه البداية التى لاتشجع، فقد كان الزواج سعيدا مثمرا ..

***

شعر اديسون أن أجور المبانى مرتفعة جدا فى نيو آرك ، فاستأجر فى عام ١٨٧٦ أرضا فى (منلو بارك) بنيوجرسى لانشاء معمل جديد على بعد ٤٠ كيلو مترا من نيويورك وسرعان ما أصبح لهذا المعمل شهرة عالمية ، وقد وضع اديسون تصميم كل شىء فى هذا المعمل بنفسه .

وفى العام الذى بنى فيه المعمل ، ألحت عليه شركة (ويسترن يونيون) أن يعمل لتحسين التليفون الذى كان الكسندر جراهام بل قد سجل اختراعه حديثا .. وبعد عامين من تجارب معقدة مستمرة ، استطاع اديسون تحسين جهاز الارسال التليفونى فزادت المسافات التى يمكن استخدامه فيها ، ووضح صوته وارتفع أضعاف ماكان عليه تليفون بل ، وقد اشترت شركة (ويسترن يونيون) حقوق هذا الاختراع على الفور بمائة ألف دولار

وكتب أحد المراقبين يومئذ يقول : « قد يكون (بل) هو أول من اخترع التليفون حقا ، ولكن اديسون هو الذى جعل من المستطاع سماع شىء فيه »

ولكن اختراع الحاكى «الفونوغراف» هو الذى أبرز عبقرية اديسون ونقش اسمه فى عقول الجمهور الذى آمن بعبقريته .. ويعود الفضل فى اختراع أول آلة ناطقة فى العالم الى قوة الملاحظة ودقة الاستنتاج لدى اديسون أكثر مما يرجع الى التجارب العديدة التى أجراها فقد كان اديسون يقوم فى أحد أيام الصيف بلحام جهاز التلغراف الآلى المخصص لتسجيل الرسائل البرقية على ورق خاص عولج بطريقة كيميائية ، وكان لهذا الجهاز سن معدنية تمر فوق سلسلة من الحزات فوق قرص من الورق أثناء دورانه ، ووضع اديسون القرص لادارته بسرعة عالية وعندئذ لاحظ صوتا يتردد ، وقد بدا أنه يرتفع وينخفض وفقا للحزات العميقة فى القرص .. ووضع اديسون لوحة رقيقة صغيرة ثبت فيها دبوسا بدلا من السن المعدنية فزاد حجم الصوت الغريب ..

وعند منتصف الليل ، ذهب الى الى مكتبه وبدأ يخطط رسما كروكيا لاسطوانة معدنية ذات دوائر عميقة حلزونية مركبة على حامل طويل بطريقة تجعل فى الامكان ادارتها بوساطة ذراع خاصة فوق صندوق خشبى لجهاز الارسال التليفونى . وفى الصباح استدعى جون كروزى العامل السويسرى الماهر الذى يعمل معه ، وطلب منه أن يحول الرسم الى حقيقة ، فقام بذلك دون أن يعرف سر هذه الآلة الغريبة التى رسمها اديسون .. وأخيرا انتهى من اعدادها وذهب بها الى اديسون وطلب منه أن يذكر له الغرض الذى يريده منها ، فقال المخترع :

ـ هذه الآلة يجب أن تنطق !

وذهل كروزى ، بينما توقفت البسمة على شفاه بقية العمال الذين

تجمعوا حولهما ، وراح كل منهم يهز رأسه في دهشة ، وظن بعضهم أن اديسون أصيب بانهيار عقلي بسبب الارهاق في العمل •

وبدا الاشفاق على الوجوه وهى ترقب اديسون وهو يصنع لوحا رقيقا من الصفيح • وعند أول دورة للذراع مزقت الابرة الصفيحة بصوت حطم أعصاب المستمعين ، ولكن نظرة التصميم التي بدت على وجه اديسون أثارت الروعة في قلوبهم •

واستبدل اديسون بالصفيحة الممزقة لوحا آخر ، وثبت أطرافه بالصمغ ثم وضع طرف الابرة عند البداية وبدأ يدير الذراع ، وقال في فوهة طويلة

« ماری لديها حمل صغير »

« له فراء أبيض كالثلج »

وعندما انتهى من تلاوة هذه الكلمات أعاد اديسون الابرة عند البداية وبدأ يدير الذراع مرة أخرى • وفجأة انطلق صوته الغريب من الاسطوانة الدائرة يردد « ماری لديها حمل صغير •• » الخ ••

كان الصمت يملأ الغرفة ، والعرق يتصبب على الجباه التي أمسك أصحابها أنفاسهم ، ورسم بعضهم دون وعى علامة الصليب •• حتى اديسون نفسه تولاه بعض الرعب •• لقد تحققت معجزة ميلاد أول آلة ناطقة في العالم

وخلبت هذه الآلة العجيبة التي تختزن الصوت البشرى وتردده لب الناس في كل مكان وأصبح اسم توماس اديسون أشهر من أى اسم معاصر ••

كان يومئذ في الحادية والثلاثين ، وقد أطلقت عليه الصحف اسم ساحر (منلوبارك) وحفلت كلها بالاحاديث والقصص التي تروى وتنقل عنه • وقد ظل الفونوغراف من أحب الاختراعات الى قلب اديسون ، وظل يعمل على تحسينه طوال حياته ، حتى بلغ عدد براءات الاختراع التي سجلها عنه ٨٠ براءة وفى عام ١٩١٠ بلغت قيمة المبيعات السنوية من الفونوغرافات ، والاسطوانات أكثر من سبعة ملايين دولار •

***

وفي أوائل العقد الرابع ، كان اديسون قد سجل ١٥٧ اختراعا ، وهناك ٧٨ أخرى تنتظر التسجيل في واشنطون ، وكان المخترع الشاب يعمل دون كلل ، يقضى أحيانا ثلاثة أو أربعة أيام متواصلة قبل أن يسمح لنفسه بالذهاب الى الفراش ، وكان يكفيه أحيانا أن ينام ربع ساعة فقط ، يقوم بعدها رجلا جديدا متجدد القوى

والنشاط ؟

وفى عام ١٨٧٨ بدأ اديسون عمله لانتاج الضـــوء الكهربائى المتوهج ، بعد أن راجع بدقة مافعله الآخرون فى هذا الســـبيل ، وقرأ كل ماأمكنـه الحصول عليه ..

ومع أن الهندسة الكهربائية كانت يومئذ لاتزال فى المهد ، فقد استطاع اديســون أن يبنى نموذجا فريدا فى صناعة النورالكهربائى واعداده كمرفق عام . ولم يكتف باختراع الضـــوء الكهــربائى والمـــولدات الكهربائيـــة والدينـــامو ، والعـــدادات وطـــرق الانشاءات الكهربائيـــــة بل أتاح للكهـــرباء أول تجـــربة على نطـــاق واسع اذ مد أسلاكا لمسافة كيلومترين ونصف كيلو متر فى نيويورك ، وقد أحدث نجـــاحه فى اختراع الضـــوء الكهربائى انهيارا فى أســـعار أسهم شركات الغاز ، وخسرت أسهم شركة « شـــارترد جاس » الانجليزية بضعة ملايين من الدولارات .

وأقام اديسون عرضا أمام الجمهور ليلة رأس السنة فى عام ١٨٧٩ عندما أضـــاء كل معمله فى « منلو بارك » بالمصابيح الجديدة ذات الضوء الوهاج فكان منظرا رائعا أثر فى نفوس الالوف الذين احتشدوا لرؤيتـــه مما أدى الى هبوط أسهم شركات الغاز مرة أخرى

وعنـــدما أعلن عن مشروعه لمـــد الاسلاك الكهربائية تحت الارض فى أنابيب طويلة ، ظن الجميع أنه معتوه فقـــد كانت كل أســـــلاك التليفون والتلغراف تمتـــد فوق الرؤوس فى شوارع نيويورك ، وكان الاعتقاد أن مدها تحت الارض يصيبها بالرطوبة ويؤدى الى تسرب الكهرباء منها ..

ومضى اديسون فى تنفيذ مشروعه بهدوء ، وكان العمال الكهربائيون المهرة نادرين ، ومن ثم فقـــد افتتح مدرسة خاصة لتدريبهم ، وأعد كتابا موضحا بالصور المبسطة الطريقة المثلى لتوصيل الدينـــامو بالاســـــلاك ، ومختلف التوصيلات الكهربائية ، وبعد شهور قلائل كان هناك ١٥٠٠ رجل يعملون فى مد الاسلاك تحت الشـــوارع وفى المبـــانى المختلفة وأنشأ مصانع خاصة لاعداد أجزاء الدينامو وصناعة المصابيح الكهربائية ، ومفـــاتيح الاضـــاءة والعدادات وكل الاجهزة اللازمة لهذه الصناعة الوليدة .

وانقلبت كل الشكوك التى ساورت الجمهور والصـــحف الى ثقة تامة فى اديسون بعد نجـــاح مشروع الاضاءة بالمصابيح المتوهجة ، وأصـــبح مبنى شركة اديسون فى الشـــارع الخامس

والســـتين مركزا لاجتمـــاع كبار الشخصيات ورجال الاعمال فى نيويورك •• كانوا يجتمعون كلهم حول النور الكهربائى كما يحتشد الاطفـال حول متجر اللعب !

***

كان اديســـون يكره القاء الخطب والاستماع اليها •• وكان يترك مكان المأدبة دائمـا فى أسرع وقت ممكن ، ولكنه اضطر الى القاء الكثير من الخطب فى المآدب بناء على الحاح مديرى شركته حتى يفوز بثقة كبار الشخصيات الذين قد يصبحون من حملة الاسهم ، وفى احدى هذه المآدب أقنع المليونير المشهور (فاندربلت) اديســـون باقامة مولد كهربائى خاص فى قصره الجديد ، وفى أثناء اختبار الجهاز ، احترق سلك فى قاعة اللوحات الفنيـة بالقصر فأحرق بعض الزخارف الحريرية ، مما جعل فاندربلت يصاب بالهستيريا ويرفض أن يستخدم الـكهرباء فى قصره •• ومع أن فاندربلت أصـــبح من حملة الاسهم فى شركة اديسون ، فقد ظل يستخدم الغاز فى قصره سنوات طويلة

وباع اديسون بعد ذلك أسهمه فى شركة المصـابيح بحوالى مليون دولار لاحدى المؤسسات التى عرفت فيمابعد باسم شركة جنرال الكتريك ، ومع أن المخترع العبقرى كان رجل أعمـــال حاذقا ، فانه كان يكره مسك الدفاتر وروتين الحسابات ، ولا يكاد المشروع يسير فى طريقه بنجاح ، حتى يفقد اهتمامه به تدريجا ••

وبعد عامين من انشاء النظام الاول للاضاءة بالكهرباء ، توفيت مارى زوجة اديسون فجأة متأثرة بحمى التيفوئيد فحطمه الحزن وأغلق منزله ومعمله فى (منلو بارك) وأرسل أطفاله الثلاثة ليعيشوا مع جديهم لامهم فى نيويورك •• وراح يلقى بنفسه فى غمار العمل باحثا عن جهد يســتهلك كل تفكيره ، ليغرق فيه أحزانه ••

ولم تــكن به حاجـــة للبحث عن مشروعات جديدة ، فقد كانت عبقريته تعمل فى أكثر من عشرة اتجاهات فى وقت واحد •• وحتى فى خلال فترة كفاحه لتحقيق الضوء الكهربائى الاول كان يفكر فى اختراعات أخرى مختلفة ملأ بها صـــفحات مفكرته ، وبينها طريقة لحفظ الفاكهة وأخرى للاختراع الذى عرف بعد ذلك باسم الهليكوبتر الذى وصــفه اديســـون بأنه أسلم وسائل النقل الجوى فائدة وامنا ••

وكان قد شرع فى دراسة [illegible] قطار كهربائى ، كما وضـــع تصميما لآلة لحصـــاد القطن وأخرى للحياكة

بالكهرباء ، ومصعد كهربائى ، ونوع جديد من آلات ازالة الجليد .. وكان مديرو الشركة التى تحمل اسمه يتألمون أحيانا عندما يطالعون اعلانات عن مخترعات صغيرة تنسب لاديسون «كعروسة اديسون الناطقة » ، «وعلاج اديسون لآلام الظهر » ولكن اديسون كان لايستطيع مقاومة بنات أفكاره !

وقد دفعته جهوده التى لا تهدأ الى تخطى عالم المجهول ودخول عصر الالكترونات الذى يسود العالم اليوم .. ففى عام ١٨٧٥ اكتشف ظاهرة كهربائية فريدة أطلق عليها اسم « القوة الاثيرية » ، وهى التى عرف فيما بعد أنها ترجع الى موجات كهربائية فى الفضاء المطلق ، وقد ساعد اديسون ماركونى وهو فى سباقه مع منافسيه على اختراع اللاسلكى ، وقد ظل ماركونى حافظا لجميل اديسون حتى آخر يوم فى حياته ..

***

وبعد أن تغلب اديسون على الحزن الذى استولى عليه بعد موت زوجته ، بدأ يبحث عن وسائل اجتماعية للترفيه عن نفسه .. فقبل بعض الدعوات التى وجهت اليه لتناول العشاء ، كما حضر مع ابنته الصغيرة (دوت) بعض حفلات الاوبرا والموسيقى

.. وفى مساء أحد أيام عام ١٨٨٥ ، جلس بعد العشاء فى بيت صديق له يستمع الى فتاة حسناء فى العشرين من عمرها تعزف على البيانو وتغنى بعض الالحان . . وبرغم رداءة الغناء فقد أعجب بها اديسون ، ولا سيما الثقة التى كانت تبدو على وجهها الجميل

وهكذا أنهى لقاء العبقرى بالحسناء مينا ميللر فى تلك الليلة عزلته بعد وفاة زوجته الاولى .. فقد أحبها ، وظل مخلصا فى غرامها طيلة حياته

وتزوج اديسون من مينا ميللر فى عام ١٨٨٦ وهو فى التاسعة والثلاثين ومينا هى الابنة الوحيدة للويس ميللر المخترع ورجل الصناعة المعروف ، وقد كانت العنصر المكمل للمخترع الكبير ، ولكى يتغلب على صممه علمها طريقة (مورس) التلغرافية فكانت تحدثه بها فى المسرح لتنقل له الحوار على أطراف أصابعها ، وقد مر الاثنان بفترات سعيدة فى البيت الكبير الذى ابتاعه فى (اويلين بارك) بنيوجرسى وذلك برغم الفارق الكبير فى عمريهما فقد ظل بالنسبة للزوجة الشابة ، نفس الفتى الخالد الذى يهمل دائما فى مظهره وثيابه كطفل فى العاشرة من عمره ..

وبنى اديسون معملا جديدا وورشة

فى « وست أورانج » ، وظل يواصل توسيعهما على مر السنين ، فقد كان ينفق على أبحاثه بسخاء بالغ ، وقد اتفق مع أكبر المؤسسات الكيمياوية فى العالم أن تقدم له عينة من كل انتاج جديد لها ، كما أصبح لديه أكبر مجموعة من المواد والكتب العلمية فى أمريكا ••

وفى أمسية حالمة من عام ١٨٨٧ أحضر له أحد أصدقائه هدية غريبة عرفت باسم (عجلة الحياة) وهى عبارة عن لعبة ميكانيكية بسيطة ، بها ثقب صغير ينظر منه المرء ثم يدير عجلة صغيرة فيرى سلسلة من الصور التى توحى له أنها تتحرك ••

وقهقه اديسون وهو يدير العجلة ، ويرقب الصور الهزلية لدب يرقص • ثم ما لبثت ضحكته أن اختفت ، وراح ينظر الى الجهاز بعين فاحصة متمعنة وساءل نفسه :

ـ ما الذى يمنع الحصول على صور متحركة بنفس الطريقة وهى عبارة عن سلسلة من الصور الفوتوغرافية الصغيرة التى يعاد عرضها بسرعة ؟

وارتمى اديسون فى مقعده الكبير ، وسحب مفكرته وراح يرسم ••

وكانت تلك الرسومات هى أول عمل قام به فى سبيل اختراع آلة تصوير الصور المتحركة التى غيرت وجه دنيا الملاهى وخلقت صناعة تستثمر آلاف الملايين من الدولارات ••

وظل اديسون يعمل مدة أربع سنوات لاخراج « الكاميرا » التى يفكر فيها ، وساهم معه المهندس ايستمان كوداك صاحب شركة أدوات التصوير حتى استطاع أن يعرض فى معمله أول فيلم ناطق فى عام ١٨٨٩ ، جمع فيه بين الصورة والصوت المنبعث من الحاكى •• وقد بقيت صناعة السينما تدفع لاديسون مبالغ ضخمة عن حقوق اختراعه سنوات طويلة ••

وفى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى ، ساهم اديسون فى انتاج الافلام السينمائية فبنى لنفسه ستديو خاصا ، وكان يقوم بكل الاعمال بنفسه ، يكتب الاسكتشات الفكاهية ، ويخرج الفيلم ويصوره ، ويصلح الآلات عندما تتعطل •• وأنشأ بعد ذلك ستوديو زجاجيا فى برونكس بارك تكلف ١٠٠ ألف دولار لانتاج الافلام الطويلة •

وما ان استقرت صناعة السينما وتوطدت دعائمها ، حتى اتجه اديسون كعادته الى نواح أخرى ، فأجرى تجارب على أشعة (اكس) التى كان رونتجن قد كشف عنها حديثا ، واخترع

الفلوروسكوب ووهبه لمهنة الطب دون أن يسجل اختراعه له •

وكانت السنوات التالية لعام ١٨٩٠ كلها سنوات مرح وانتاج وعمل شاق لاديســـون ، الذى منحه زواجـه من مينا ميللرطاقة جديدة،كما رزق منها بثلاثة أطفـال آخرين ، وكانت أكثر أبحاثه الهامة تجرى فى غرفة الجلوس حيث يحتشد كل الاطفال حوله ، فقد كان يتمتع بقوة هائلة على التركيز •

ومع أن أديسون لم يخترع اختراعا فى روعة الفـونوغراف أو الصـــور المتحركة ، أو الضوء الكهربائى ، فان اختراعاته الهــامة ظلت تتدفق طوال حياته •• كان أكثر مخترعات اديسون بسـيطة مألوفة ، حتى أن الـكثيرين كانوا يتسـاءلون : لماذا لم يفكر فيها أحد من قبل ؟ وقد أجاب اللورد كلفين على هذا السؤال بقوله :

« ان الرد الوحيد الذى استطيع ان أتخيله ، هو أنه ليس هنـــاك أحد كأديسون » •

كانت السنوات تمر ، ولكن الرجل الهـرم كان يرفض الاعتراف بمرورها فقد ظل يواصل العمل ساعات طويلة برغم تجاوزه سن الستين ، وكان أكثر مايزعجه هو سؤال الصحفيين عن سنه فى مناسبة عيد ميلاده ، وكان يزمجر قائلا لهم : أليس من المؤلم أن تهنئوا رجلا على تقدمه فى السن ؟

وقد سئل اديسون عن سر نجاحه ، فقال : القدرة على المثابرة ••

وسئل عن العبقرية ، فقال : انها عبارة عن ٢ ٠/٠ وحى ، و٩٨ ٠/٠ عرق ••

وكان اديســون يكتب كل ليلة على قطعة من الورق الاعمال التى تنتظره فى اليوم التالى ، ثم يعمل على انجازها كلها ، وكان يعتقد أن السر الحقيقى للصحة وطول العمر هو العمل العقلى ولهذا كان لايمارس الرياضة الا قليلا ويقول أن الفائدة الوحيـدة للجسم ، هى أن يحمل العقل !

كان يقرأ بلا انقطاع ، وكان يتمتع بذاكرة فوتوغرافيــة ، وتقول ابنته مادلين أنه كان ينظر فترة قصيرة الى احدى صفحات القـاموس ، ثم يذكر كل محتوياتها عن ظهر قلب •

وعندما بلغ أديســون السـابعة والستين ، اجتـاحت النيران سبعة مبـان من مصنعه الكبير فى (وست أورانج) فدمرتهـا وقدرت الخسائر بخمسة ملايين دولار ، ولم يكف مبلغ التأمين لتغطية هذه الخسارة ، ولكن ذلك لم يحبط عزيمة اديسون ، الذى قرر أن يبدأ فورا فى اعادة بناء ماأتلفته

النيران •• وفي خلال أسبوعين ، أزيلت أنقاض الحريق وبدأت عملية التعمير ••

وعندما اشتركت أمريكا فى الحرب العالمية الاولى ، كان اديسون قد بلغ السبعين من عمره ، وقد عين رئيسا للمجلس الاستشارى لوزارة البحرية ، فاخترع جهازا للكشف عن الطوربيدات وأضواء كشافة للغواصات تحت الماء ، وقذائف وأجهزة لتثبيت الغواصات ، وقد فاز بأكبر أوسمة الخدمة الممتازة بعد أن قدم للمجهود الحربى أكثر من ٤٠ اختراعا •

وكان اديسون يمتاز بقدرته على الهام الآخرين واشعال نيران حماستهم ومن بين الذين والاهم بتشجيعه وأفكاره ، هنرى فورد الذى كان يصغر اديسون بحوالى ١٦ سنة ، ولكنه كان يحبه الى حد العبادة ، وقد أعاد بناء القرية التاريخية فى ديربورن مخلدا ذكرى حياة اديسون الاولى

وفى سن الخامسة والسبعين أنقص اديسون ساعات عمله اليومى الى ١٦ ساعة ، وفى الثمانين ، اخترع أول أسطوانة طويلة تستغرق ٤٠ دقيقة ، وكان يقول أن لديه من الافكار ما يكفى لشغل المعامل سنوات لا حصر لها •• وقد سجل اديسون خلال حياته ١٠٩٧ اختراعا ••

وقد ظل اديسون حتى يوم وفاته مواظبا على تعليم نفسه •• ذلك التعليم الذى بدأ يوم أخرجته أمه من المدرسة وهو فى السابعة •• وظل وهو على فراش موته يقرأ كتبا فى مختلف الموضوعات ، وكان قبل موته بثلاثة أيام يسجل ملاحظاته ومشروعاته عن تجاربه المستقبلة ••

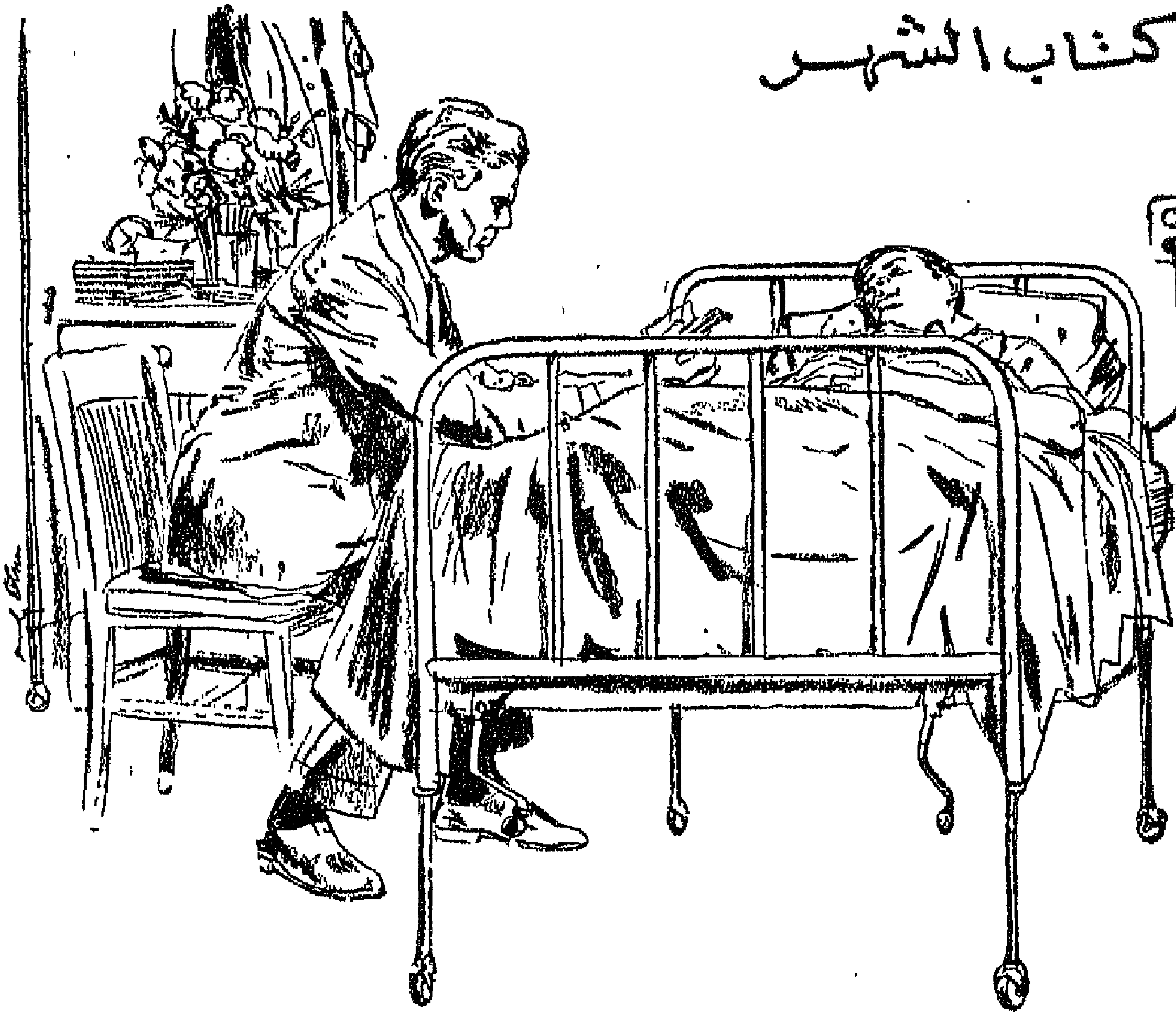
وفى ١٨ أكتوبر ١٩٣١ ودع اديسون الدنيا وهو فى الرابعة والثمانين من عمره ، وفى ليلة تشييع جنازته ، اقترح الرئيس الامريكى هوفر اطفاء كل الانوار فى أمريكا دقيقة كاملة ، تحية لذكرى الرجل الذى أضاءها منذ ٥٢ عاما •• وقد شاءت المصادفات العجيبة أن يوافق هذا التاريخ ذكرى اضاءة أول مصباح متوهج فى منلوبارك

طريقة ناجحة

قالت السيدة لصديقتها :

ـ لقد قال الطبيب لزوجى انه يجب أن يخفض وزنه بضعة كيلو جرامات .. وانا الآن أنهى قلقه باستمرار مطالبة بشراء معطف من الفراء حتى يقل وزنه بسرعة !

كتاب الشهر



علاج الروح
أقوى حليف للطب الحديث

بقلم كلارنس و. هول

عن كتاب : SPIRITUAL THERAPY

منذ ٢٤٠٠ عام ، كتب افلاطون يقول : « اذا كنت تريد سلامة الرأس والجسد ، فابدأ بعلاج الروح » .. وقد كشف الطب الحديث عن هذه الحقيقة الخالدة من جديد ، بعد ان اذهلته تلك الأدلة التى تتزايد يوما بعد يوم عن قوة الدين فى علاج البشر .. وبدأ الاطباء يرحبون برجال الدين فى المستشفيات واصبح فريق العلاج يضم اليوم الطبيب والعالم النفسانى ورجل الدين ..

وقصة ريتشارد يونج ، رجل الدين الشاب الذى يبذل جهوده فى احد مستشفيات « نورث كارولينا » قصة زاخرة بالكثير من آيات الكفاح وخدمة البشرية .. وهى قصة مثيرة ، لا من اجل اهميتها فى عالم الطب فحسب ، بل لانها تكشف بصورة عملية عن قوى الدين الفريدة التى تعمل لمساعدتنا جميعا على حل اكثر مشاكلنا صعوبة والحاحا .

علاج الروح

كانت حالة الام الصغيرة الراقدة فى عنبر الحالات الخطيرة بمستشفى « ونستون — سالم » بولاية نورث كارولينا تتدهور بسرعة. لقد راح طفلها ضحية حادث سيارة أصيبت فيه هى الاخرى ، ولكن جروحها لم تكن تبدو خطيرة الى حد مميت .. وبعد أن بذل الجراح كل ما فى وسعه، استدعى طبيبا نفسانيا وقال له :

— ليس هناك سبب طبى يحول دون شفائها .. ولكنها تريد أن تموت .. وستموت فعلا اذا لم تغير مسلكها هذا .

واستطاع التحليل الدقيق الذى قام به الطبيب النفسانى أن يكشف عن حقيقة مشكلة المرأة .. ان الطفل القتيل كان ثمرة علاقة غير مشروعة ، وكان فى استطاعة الام أن تعيش مع سرها ما بقى الطفل حيا .. أما الآن فقد فسر ضميرها المثقل بالوزر معنى الحادث تفسيرا هز كيانها بعنف .. كانت تقول كل لحظة :

— يجب أن أموت .. انه عقاب الله على خطيئتى .. اننى أستحق العقاب .

ودعا الطبيب النفسانى أحد رجال الدين وقال له :

— هذه الحالة تتطلب علاجا ليس من اختصاصى ..

وراح رجل الدين يتردد على المريضة بضع مرات ، لم يتحدث خلالها كثيرا ، بل تركها تعرب عن وخز الضمير الذى تحس به اعرابا

كاملا .. حتى اذا نال منها الارهاق، قال لها بهدوء :

ـ انك تقولين انك يجب أن تموتى .. ولكن ألا يعتبر هذا قتلا لنفسك ؟ ان ما تفعلينـه الآن ليس الا انانيـة ، فموتك لن يؤدى الا الى عذاب زوجك الرقيق وطفلك الآخر ، فهل ترين هذا عدلا ؟

وصمت رجـل الدين فترة طويلة ريثما استقر كلامه فى أعماقها .. ثم أردف يقول بصوت ناعم :

ـ ألا تحبين استغلال هذه المأساة لا فتداء زواجك وحياتك ؟

فهتفت المرأة وقد بدا أمامها بصيص من الامل والطمأنينة :

ـ بلى .. بلى ..

وفعلت ما أشار به عليها .. وما كادت تجد أمامها هدفا جـديدا فى الحياة ، حتى بدأت جروحهـا تلتئم بسرعة ، ومنذ ذلك الحين ، أصبحت زوجة وأما مثالية ..

ان الرجـل الدينى الذى نجح فى هذا العلاج الروحى ، عضو فى جماعة جندها ودربهـا ريتشـارد يونج ، القسيس بولاية نورث كارولينـا ، الذى يؤمن ايمـانا جازما بالقيمـة العلاجيـة للتطبيق العمـلى للدين ، وقد أدى نجاحه العظيم فى ارتيـاد هذا الميدان الى نشـوء فكرة تكوين فريق للعلاج بالمستشفى ، يحشد فيه كل من الطبيب والعالم النفسـانى ، ورجل الدين مواهبهم المتباينة لشن هجوم متناسق على المرض .

وبرنامج العـلاج الروحى الذى كرس له ريتشارد يونج حياته العملية ليس مقصورا عليه وحـده ، بل انه انتشر اليوم على نطاق واسـع حتى أسفر عن انقلاب هادىء فى العـلاقة بين الطب والدين ، وهناك اليوم حوالى ٧٠٠٠ من رجال الدين دربوا تدريبا طبيـا للكشف عن أمراض الروح وعلاجها بمهارة أسوة بعـلاج الاطباء وعلماء النفس لأمراض الجسم والعقل ، وهم يساعدون الاطبـاء على تحقيق نتائج مدهشة .

ويبذل هؤلاء المعالجون الروحيون المدربون نشاطا فى كل جزء من أجزاء الكرة الارضية ، ولعـل أكثر مكان تمارس فيه آراؤهم الجديدة بدقة ، هو مدرسـة الرعاية الدينيـة التى يشرف عليها يونج فى « ونستون ـ سالم » وهذه المدرسة التى تتخـذ مقرها بالدور الارضى بالمسـتشفى مزودة بستة من رجال الدين الدائمين ، و ١٢ نائبا و ٢٠ من الرجال المدربين تدريبا طبيا ، وأعضاء هذه المدرسة

ليســـوا مجرد رجال دين يزورون المرضى وينشرون عليهم بركاتهم ، بل هم يساهمون فى العلاج بمهارة ، ويطبقون العلاج الروحى على مشاكل الجسم والعقل ، وتسود الثقة فى قيمة هذا العلاج كل أنحاء المركز الطبى الذى يضم مستشفى نورث كارولينا ومعهد التدريس المتفرع منها ويعرف باسم مدرسة طب « بادمان جراى » وقد اعترف بها رسميا فى عام ١٩٤٨ .

***

وريتشارد يونج رجل متوسط الطول ، نحيل الجسم ، شاب شعره قبل أوانه ، وهو لايرتدى ثوب رجل الدين ، ولا يملأ أحاديثه بالعبارات الدينية ، ولكن سلوكه يكشف عن كفاءة وخبرة وادراك غير عادى لما يقوم به من عمل .

وولد يونج فى مزرعة للتبغ بولاية « نورث كارولينا » وقد تشبع بالمبادىء الدينية وهو فى سن مبكرة على يد أبيه ، واقتنع وهو فتى صغير بأنه يجب أن يصبح من رجال الدين ، وعندما اضطرته الازمة الاقتصادية الى هجر دراسته الجامعية بعد عام واحد أمضاه فى الكلية ، ثار على كل ما كان ينادى به أبوه ، وظل يتقلب من عمل الى آخر ، وأدمن الشراب ومصاحبة اخوان السوء .. ويقول أحد أصدقائه : لقد تعلم يونج كل نواحى الزلل البشرى عن خبرة .

وبعد أن اجتاز يونج هذه المرحلة بدأ يعمل فى متجر تعاونى بمقاطعة بيرسون ، وقد نجح فى عمله منذ البداية بفضل مهارته فى الادارة ومعاملة الجمهور .

كان يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، سعيدا فى زواجه ، يبدو انه على عتبة حياة تبشر بمستقبل باهر . ولكن هذه الحياة لم تكن الحياة التى تصلح له مع الاسف ، وقد تبين هذه الحقيقة بعد أن رأى قسيسا ريفيا واهن البنية ، يحبه الجميع لانه يحب كل انسان ، فلم يكن الاب تود يطلب شيئا أكثر من أن تتاح له الفرصة لمد يد المعونة للناس ليلا ونهارا ، وكان يونج يشاهده وهو منطلق بسيارته العتيقة على طول الطرق الريفية فى طريقه الى شخص يحتاج اليه .

وفى ذات يوم ، بينما كان يونج يملأ خزان سيارة الاب تود بالبنزين ، اذ شاهد على مقعدها الخلفى أحد جيرانه ممن أعجزهم داء التهاب المفاصل ، وكان الرجل يئن فى ألم ، بينما كان الاب تود يقوم بنقله الى مستشفى « ديرهام » الذى يقع على مسافة

بعيدة .

وعندما حاول رجل الدين أن يدفع ثمن البنزين ، رفض يونج أن يأخذه، وقال :

ــ دعنى أدفعه هذه المرة يا أبت .

ثم أردف فى دهشة :

ــ ولكن لماذا تفعل ذلك ؟. لماذا تتعب نفسك من أجل الغير ؟

فابتسم تود وقال :

ــ اغفر لرجل عجوز ايمانه بانه ليست هناك متعة فى الحياة كمتعة مساعدة الناس . وداعا يابنى .. وشكرا على البنزين .

وبينما كان يونج يرقب الرجل العجوز وهو ينطلق فى طريقه للقيام بمهمته الرحيمة ، أحس بدافع ملح يدفعه صوب الدين .

وبعد ليلة مريرة صارع فيهانفسه مرارا ، نجح فى التغلب عليها ..وكان من الممكن أن يقف الامر عند هذا الحد ، لولا أن مات الاب تود ، واستولى على يونج احساس غريب بانه يجب أن يحل محل رجل الدين الراحل .

ونشب صراع جديد بينه وبين نفسه ، انتهى بفوز نفسه هذه المرة ▪ وعاد يونج الى اتمام دراسته فى عام ١٩٤١ ، حيث تخصص فى الفلسفة وعلم النفس .. وعقب تخرجه ، التحق بمعهد اللاهوت فى (لويزفيل) بولاية كنتكى .

وبينما كان يونج يستمع الى المحاضرات الدينية ، كان يسائل نفسه دائما : كيف يمكن تطبيق هذه الحقائق القديمة على الناس فى محنتهم ؟ هل يمكن القيام بأى تطبيق عملى للدراسة الدينية على أمراض البشر ؟

ولكى يضع هذا السؤال موضع الاختبار ، كرس يونج عطلة الصيف للعمل بمستشفى « ألجين » للامراض العقلية بولاية ايلنوى .. وهو يقول : « لقد تعلمت من الانسانية فى تلك الشهور القلائل أكثر مما يمكن أن أتعلمه فى المعهد طوال حياتى » ▪

وعرف يونج أنك تستطيع أن تبدأ فى مساعدة الناس ، فى اللحظة التى تصغى فيها بعطف فعلى الى متاعبهم . ونصحه مرشده الذكى بالا يتحدث الى المرضى ، بل يصغى اليهم ..

وقرر يونج أن يرى ما سوف يحدث اذا اتبع هذه النصيحة بمعناها الحرفى الى النهاية ▪

كان بين نزلاء المستشفى عالم رياضى عبقرى أصيب بخلل عقلى ، ولكنه لم يكن مؤذيا ، بل كان منطويا على نفسه يعيش فى وحدة مؤلمة ، لايرد على أى

سؤال يوجه اليه مباشرة ولا يتحدث الا اذا تحدثت اليه .. وتوجه اليه يونج في غرفته ، والقى اليه بالتحية ، ولكنه لم يحاول أن يشغله بالحديث، بل أمضى في الغرفة ٤٥ دقيقة في صمت .. ثم نهض واقفاوغادرالغرفة وهو يقول بلهجة مرحة وكأنه يحادث صديقا :

ـ سأراك مرة أخرى يا بيت .

ولما كان هذا المريض مسموحا له بالتجول في حديقة المستشفى ، فقد كان معتادا أن يسير بعد ظهر كل يوم الى البوابة الرئيسية حيث يقابل أبويه . وبعد ظهر اليوم التالى لزيارة يونج له، جلس المريض الى جوار أمه ، وقال لها في حماسة :

ـ هل تعرفين يا أماه .. لقد احضروا قسيسا جديدا في المستشفى .. كل ما يعمله هو أن يأتى ويجلس الى جوارك .. لا يجبر أحدا على الحديث اليه .

ودهش الاب والام ، فقد كانت تلك أول عبارة نطقها ابنهما من تلقاء نفسه منذ عامين !

ان المريض لم يشف تماما خلال الفترة القصيرة التى أمضاها يونج في المستشفى ، ولكن الدور الذى لعبه بمهارة أسفر عن نتائج مباشرة فعلا ، فقد تأثرت أم المريض الى حد انها سمعت لزيارة يونج ، وراحت تسرد عليه قصة ابنها كاملة ..

وللمرة الاولى عرفت تفاصيل حياته منذ الحضانة الى الطفولة .. الى مشاكل المراهقة ، وكانت تلك معلومات ثمينة للمستشفى استطاع عن طريقها أن يوجه العلاج توجيهـا صائبا . وعرف يونج يومئذ أن رجل الدين يستطيع أن يقوم ببعض اعمال في المستشفى لايستطيع غيره ان ينجزها .

***

وفي عام ١٩٤٦ بدأ يونج يباشر عمله في المستشفى ، ولكنه وجد لخيبة أمله أن رجال المستشفى ينظرون الى دوره نظرة غير مشجعة، حتى انه ظل ثلاثة أشهر لايجدمكانا يضع فيه قبعته ومعطفه .. وعندما وجد في النهاية مكتبا مظلما رطبا في الدور الارضى كان المكان بعيدا ،حتى ان موظف الاستقبال في المستشفى كان يرفض ارشاد الناس اليه ، وكان على يونج ان يقابل القادمين اليه في ردهات المستشفى !

وبعدأن قضى بضعة أسابيع يقوم فيها بواجبات غير محددة ، اخذ يتجول بين العنابر متحدثا الى المرضى ، مصغيا

الى مشاكلهم فى هدوء ، محاولا تقديم مساعدته اليهم ..

كان الاطباء والممرضات ينظرون اليه فى فضول ، ينحونه جانبا بأدب عندما يزورون مرضاهم .. وبعد أن اعتادوا رؤيته حولهم ، كان بعضهم يمزح معه بقوله :

ـ كيف حال مرشد السماء ؟ . هل أنقذت بعض الارواح أخيرا ؟

وعلى الرغم مما أحس به يونج من تثبيط للعزيمة فقد كان يعذر الاطباء ، اذ أن رجال الدين الذين تطوعوا من قبل لتقديم خدمات روحية للمرضى كانوا فى الغالب يتركون الحماسة تطغى على الادراك السليم . وقال له أحد أطباء القلب ممن يعملون فى المستشفى منذ ٢٨ سنة : « ان قسيسا كان يزور رجلا مصابا بارتفاع خطير فى ضغط الدم ، فأخذ يحصى نبض المريض ، ثم قام يصلى فوقه وكأنه يعده للموت! وقد اضطررت الى نقل المريض الى خيمة الاوكسجين بسرعة لانقاذ حياته ، ومنذ ذلك الحين منعت أى رجل دين من رؤية أى مريض بالقلب فى مرحلة حرجة » .


ريتشارد يونج

ولكن طريقة يونج أصبحت تبدو للاطباء تدريجا انها من نوع مختلف ، وأنها تساعد على الشفاء بدلا من أن تعرقله . وقالت الممرضات ان المرضى بعد زيارات يونج لهم يصبحون أسلس قيادا ، وقال أطباء التخدير ان المرضى الذين كانت تجرى لهم عمليات جراحية أثناء زيارة يونج كانوا أكثر هدوءا ، لايحتاجون لكمية كبيرة من المخدر . . وبدأ الاطباء يقولون فيما بينهم : « هذا الرجل يتمتع بسحر عجيب .. لاندرى كنهه ! » .

وكانت هناك أشياء كثيرة نجح فيها يونج عندما فشل الاطباء .. حدث يوما أنه سمع طبيبا يحاول عبثا أن يقنع أسرة بالسماح له بتشريح جثة ميت من أقاربها .

واقترب يونج من الزوجة الملتاعة ، وسألها بعد أن حاول تهدئتها :

ـ لست أدرى .. ولا أحد يعرف ، ما السبب فى وفاة زوجك ؟ ، من المؤسف أن الاطباء لا يستطيعون

التحقق من هذا الامر دون تشريح الجثة ، وقد يصاب أطفالك بنفس المرض المجهول ، أليس كذلك ؟

ودهش الطبيب عندما جاءه يونج بعد قليل يخطره بأن الاسرة ليست راغبة فى اجراء التشريح فحسب ، بل انها تلح فى اجرائه !

وذاع الحديث عن مثل تلك الحوادث فى أرجاء المستشفى ، وسرعان ما أصبح يونج يستدعى فى الحالات العسيرة ، كما يدعى لحضور المؤتمرات التى يعقدها الاطباء لمناقشة شئون المرضى ، ويسالونه ابداء رأيه فى المرضى الذين تظهرعليهم أعراض عاطفية واضحة .. وفى خلال ستة شهور ، كان يونج قد أصبح يلقى دروسا على طلبة الطب عن عمل رجل الدين فى المساهمة فى شفاء المرضى ! .

***

يقول يونج ان العقبة الاولى فى هذه العملية هى اكتساب ثقة المريض التامة ، كما أن هناك فرقا بين أن يأتى الناس لرؤيتك طوعا ، وبين ذهابك لرؤيتهم دون أن يدعوك أحد .. ولو أنك حاولت أن تستخلص المعلومات من المريض فى تسرع ، فقد يميل المريض للافضاء بأسرار أكثر مما يريد الافضاء به ثم يندم بعد ذلك ، فاذا ذهبت اليه فى المرة التالية رفض أن يبوح بشىء . كما أن رجل الدين اذا نقل المعلومات التى سمعها للطبيب وعرف المريض ذلك ، فانه يشعر ان ثقته قد خدعت ، ولهذا اعتاد يونج أن يسال المريض قائلا :

ــ هل يضايقك أن يشاركنى الطبيب فى معرفة ما قلته لى الآن ؟

وفى مقدمة ما اكتشفه يونج من تجاربه ، أن الشخص قل أن يبوح بطبيعة مشكلته الحقيقية فى اللقاء الاول ، ولهذا فهو يخدع المستمع اليه دون قصد ، لان عقولنا الباطنة المليئة بالخوف والقلق والاحساس بالذنب تكفل لنا كل الاعذار التى تبرر التصرف الذى أقدمنا عليه .

وبعض المرضى لايعرف كيف يعالج مشكلته برغم أنه يدرك أساسها .. ولهذا يجب أن يقوم رجل الدين ببطء بمساعدتهم تدريجيا على أن يروا حقيقة المشكلة ، وأن يلجأوا الى مواردهم الداخلية والخارجية للتغلب عليها .

فمثلا هناك ذلك الرجل الذى أصيب بنوبة قلبية ، قال بعدها ان مشكلته هى خوفه البالغ من قيادة سيارته .. ومع ذلك فلابد له من

قيادتها لانه يعمل بائعا متجولا ، وقد كشف يونج أن مشكلة الرجل الحقيقية هى الخوف من أن يضطر الى تناول بعض الشراب مع العملاء الذين ينتظرون منه تلك المجاملة .. وعندما قيل له انه لابد له من الوقوف بشجاعة دفاعا عن معتقداته ، تبددت المشكلة وكسب احترام العملاء ، وأصبح من أنجح البائعين فى احدى المؤسسات الكبرى .

وهناك أيضا ذلك المريض الذى كان مصابا بآلام فى الصدر وخفقان فى القلب ، وكان يؤكد أن سببهما هو التوتر الذى يصيبه أثناء العمل .. ولكن الفحص الطبى دل على عدم وجود اى خلل فى قلبه ، وقد أشار الرجل أثناء حديثه مع يونج الى أنه يكره أقارب زوجته الذين يسكنون فى المنزل المجاور له لانهم يسخرون منه وينتقدونه دائما . وأدرك يونج أن هذا التوتر انما هو عرض ظاهرى ، أما المتاعب الحقيقية فتكمن فى عدم رغبته فى مواجهة عيوب شخصيته نفسها .. وعندما كشف الرجل عن حقيقة شعوره الكامن ، بدأ يرى لماذا يسلك اقارب زوجته هذا المسلك ، فعاد الى داره لينشىء علاقة اكثر نضوجا معهم ، ولم تعد أعراض خفقان القلب تظهر عليه مرة اخرى .

وقد توصل يونج أثناء تعمقه وراء المتاعب الى أن هناك ثلاثة عوامل على درجة كبرى من الاهمية .. هذه العوامل هى السرد ، والقبول ، والاصغاء .. « فالسرد » يتطلب من الناصح اقناع المريض بأن هناك شخصا يشاطره تجاربه .. شخصا يدرك ويعنى به ، وقد يرى موقفه من زاوية أكثر مما يستطيع أن يراها هو ، كما أنه يريد أن يساعده قدر استطاعته .. اما « القبول » فيتطلب الا يظهر الناصح اى دليل على أنه يستنكر ما يسمعه من اعترافات المريض مهما كانت مثيرة للاستنكار و « الاصغاء » يجب أن يكون من القلب ، نشيطا مطمئنا مفسرا .

وتبين ليونج أن أدق جزء فى عملية النصح يأتى عندما تنتهى القصة .. فالمريض بعد أن نفض العبء عن كاهله تماما ـ وهو امر قد يستغرق ساعات أو أسابيع كثيرة ـ يشعر باحساس شامل من الراحة ، ويصبح من الصعب أحيانا اقناعه بأن ماحدث ليس علاجا ، بل مجرد الخطوة الاولى فى طريق الشفاء .

***

وقد يكون مجرد احساس المريض

بادراكه مشكلته الحقيقية كافيا أحيانا ، ولكن هذا لم يكن يكفى غالبا للشفاء. فكان لابد للبعض من هـزة قوية من النوع الذى يطلق عليه يونج اسـم « علاج الصدمة » .

كان هناك رجل مشكلته عبارة عن علاقة سرية مع سكرتيرته ، ولكنه كان يتمهل فى قطع علاقته بهـا .. فقال يونج له بلهجة حادة :

ــ انك تضـيع وقتى .. فأنت تعرف ما يجب أن تفعله ، فعليك أن تتخذ قرارا مهما كان .. وتتمسك به .

وفعل الرجل ذلك .. فأنقذ صحته وزواجه معا .

ولم يكن يونج أقـل صراحة مع شخص متعب كان يخفى مخـاوفه عندما واجه جراحة خطـيرة بكبرياء مصطنعة كانت تثير ضيق الممرضات وبقية المرضى ، فضلا عن أنهـا كانت ترفع حرارته بدرجة خطـيرة .. اذ قال له يونج :

ــ لماذا تعتقد انك لابد أن تضايق من حـولك ؟ انك خائف فقط وانت تعرف ذلك .

ودهش الرجل الكبير ، وانحدرت العبرات من عينيه وقال :

ــ انك على حق ... فهل تصلى من أجلى وأنا فوق مائدة العمليات ؟

فوعـده يونج بذلك ... وأمضى الرجل خمس ساعات فوق المائدة.. ولكنه خرج منها سـليما وهو اليوم أفضل أصدقاء يونج ..

***

ان خط الهدنة بين الطب النفسانى والاستشارة الروحية خطر غير محدد نظريا أو عمليا ، ولـكن يونج يحدده لك تحديدا محكما بقوله : «اننا نلتقى عند منتصف انفعـالات الشخص » ولكن هذا الحد غير المحدود لم يتأثر قط بالتعاون الحمـاسى مع أطبـاء المستشفى النفسانيين وعندما يجـد يونج نفسـه فى حيرة أمام أعراض المريض ، يتجه الى مكتب الدكتـور انجوس راندولف الطبيب النفسـانى المقيم بالمستشفى ويصف له الحالة ، ثم يقول له بصراحة :

ــ اننى لا أعرف كنهها ... هل مرت بك حالة مماثلة لهذه الحالة ؟

وسرعان ما أثبتت علاقة العمـل الوثيقة التى نشأت بين الاثنين فائدتها، فقد كان المستشفى يزدحم بعـدد ضخم من المرضى ، فأتاح وجود يونج للاطباء تصفية من هم فى حاجة الى رجل دينى مدرب أكثر من حاجتهم الى علاج الاطباء المحترفين، وهكذا يستطيع

الاطباء تركيز اهتمامهم فى الحالات الاكثر خطورة ... كمايكشف يونج بدوره عن نزعات سيكوباثية متأصلة خلال قيامه بأعمال الاستشارة الروتينية للزواج ، وعندئذ يحيل الضحية فورا الى الطبيب النفسانى ، فيزيد بذلك فرحتهم للشفاء .

وهناك حالة تصور بصفة خاصة مدى ما اكتسبه يونج من ادراك نتيجة لمثل هذا التعاون ... بعد ظهر أحد الايام جاءت الى مكتبه تلميذة ممرضة حسناء فى حالة انقباض نفسى حاد ، وقالت له :

ـ كنت أسير فى عملى على مايرام حتى وقت قريب ، وفجأة أصبحت أبكى على أشياء صغيرة لم أكن ألاحظها من قبل ... وأصبحت غير قادرة على تركيز أفكارى .. ان درجاتى فى هبوط ، ولا أعرف ماذا حدث لى ..

وعرف يونج من الاسئلة التى وجهها لها انه ليست هناك أية مأساة غرامية أو صدام شخصى أو عائلى من النوع الذى يكمن عادة وراء المشاكل المماثلة ... وبدأ يشك فى أن هناك نزاعا أكثر عمقا يختفى وراء هذه الاعراض ... ولكى يبحث هذا الاحتمال ، بدأ يتجه بأسئلته الى ميادين أكثر اتساعا ..

انك لكى تصل الى جوهر المشكلة يجب أن توجه سيلا من الاسئلة المتصلة الى المريض دفعة واحدة ، اذ قد تكفل الطريقة التى يختار المريض الاجابة بها أدلة هامة للخبير المحنك ..

وقال لها يونج : حدثينى عن حياتك ألا يزال والداك على قيد الحياة ؟ كم طفل فى أسرتكم ؟ أيهم أقرب الى قلبك ؟

كانت الفتاة لا تكاد تبدأ الحديث عن حياتها العائلية حتى تتوقف لحظة ، وتعبر وجهها رعشة من الانفعال ... وأخيرا قالت بسرعة :

ـ لقد أنجب أبى أربعة أطفال .. وقد مات واحد منهم ، أما أمى فتعمل

وعندئذ قاطعها قائلا :

ـ دقيقة من فضلك ... انك تقولين أن طفلا من اخواتك قد مات .. فكيف حدث ذلك ؟

وأجفلت الفتاة برهة .. فأدرك يونج أن الجرح المختفى يكمن هنا .. ولكن ما الذى يمنع التئامه ؟

وبدأت الادلة تظهر تدريجا .. قالت الفتاة انها وهى لا تزال فى طور المراهقة كانت تحمل أغلب المسئولية فى رعاية شقيقها الطفل فى الوقت الذى كانت تعمل فيه أمها . . واستطردت تقول : كنت أعتبره كأنه

طفلى أنا ... وحدث ذات يوم من أيام الربيع ، أن شاهدت الفتاة شقيقها وهو ينحنى على ضفاف بركة ماء ليقتطف زهرة من زهور الماء ، ففزعت وأسرعت تبعده عن البركة ، وضربته على أردافه .. ثم قالت له :

« لو أنك سقطت فى الماء، لاعددنا لك حفرة سوداء عميقة ، ووضعنا فوقك القاذورات » وكانت تستهدف من هذه العبارة الحمقاء أن يدرك مدى الخطر الذى يكمن فى الماء ...

وبعد ثلاثة أيام ، كان الطفل يتبع أمه وهى تعبر الطريق عندما صدمته سيارة قضت عليه .. ورأت الفتاة هذه النهاية الرهيبة التى هددت بها شقيقها منذ أيام ، فأصيبت بصدمة عنيفة ، فلم تذكر شيئا مما قالته لاخيها ... وكانت الصدمة قوية على نفسها حتى انها لم تستطع البكاء .

وأدرك يونج انه لا بد أن يكون هناك شيء قد أثار ذلك الحزن الدفين، فسأل الفتاة برفق :

ـ هل كانت هناك أية صلة عاطفية تربط بينك وبين أى مريض توفى حديثا فى المستشفى ؟

وتبين من اجابة الفتاة انها كانت تعطف على سيدة عجوز من المرضى ماتت أخيرا .. وقد انتهزت حاجة عقلها الباطن الى التنفيس عن حزنها هذه الفرصة ، فانهالت عبراتها ..

وما ان ظهرت حقيقة العلاقة العجيبة بين بكاء الفتاة وعطفها على المريضة الراحلة ، حتى دفنت الفتاة رأسها بين ركبتيها وراحت تبكى بلا انقطاع تنفث الحزن الذى ظل دفينا فى أعماق قلبها منذ سنوات ..

***

فى عام ١٩٤٧ ، بعد أن نفذ يونج المشروع الذى كان يداعب خياله منذ البداية ، قرر أن الوقت قد حان لنقل ما تعلمه الى الآخرين، فبدأ فى انشاء مدرسة الرعاية الدينية، التى اكتسبت الآن شهرة كبرى ، وأيد المستشفى المشروع بحماسة ، وقد بدأت الدراسة بثمانية من الطلبة المختارين بعناية .. ثم أخذ عدد الطلبة يزداد سنة بعد أخرى .

ويتساوى من يتلقى تدريبنا فى هذا البرنامج مع أطباء الامتياز والجراحين فى المستشفى ويدرب اثنان منهما فى المستشفى كل عام فترة تستغرق عاما آخر . وهناك اليوم ٢٥٠ من رجال الدين الذين دربهم يونج فى المستشفى يقومون باستغلال خبرتهم فى خمس عشرة دوله أجنبية

بينها نيجيريا واليابان والهندوسيام ونيوزيلند • ويونج مقتنع تماما بأن رعاية المريض الدينية فن دقيق يجب أن يعمم فى الكليات الدينية ، حتى لا يتخرج أى شخص منها قبل أن يتعلمه •

ولا يستخدم يونج تعبيرات علم النفس المعقدة فى أحاديثه، وهو يقول دائما :

« اننى مقتنع بأنك لن تفهم شيئا فهما حقيقيا الا اذا استطعت أن تتحدث عنه الى كل انسان ! » وهو يقول لتلاميذه : « انكم لا تتدربون لتكونوا مساعدى أطباء نفسانيين ، بل لكى تستخدموا الدين فى شفاء الآلام» •

ولكى يختبر يونج قدرة رجاله على التشبع بآرائه ، فهو يطلب منهم تقارير كاملة مكتوبة عن مقابلاتهم مع المرضى، وتدرس هذه التقارير بوساطة الزملاء ، وتتعرض لتحليل دقيق •

***

ولعل المشكلة التى يواجهها يونج ورجاله هى مشكلة «الشعور بالذنب» وهى عبارة عن الاحساس بأن الشخص قد أخطأ فى حق نفسه ، أو فى حق شخص آخر أو أخطأ فى حق الله ••

ان نظرية طب النفس الحديث تقول: اذا أردت أن تتخلص من الشعور بالذنب ، فلا تخفه ، بل تحدث عنه دائما ، وانظر اليه فى وضح النهار •• وستجد انه قد اختفى •• ويقول أحد علماء التحليل النفسى ان المشكلة بالنسبة للكثيرين ، هى أن هذه الاحساسات لا ترحل قط •• وقد تبين أن الامر يتطلب أكثر من مجرد الكشف عن الذنب باعتباره العامل النفسانى فى المرض •• بل لابد أن يكون هناك ضمان للغفران ، ولمثل هؤلاء المرضى يجب الاستعانة بأحد رجال الدين ••

ولعل أروع مثل للشعور بالذنب ، حالة رجل أعمال يدعى توم ارنولد ، كان سببا فى حيرة كل القسم الخاص بأمراض المعدة فى المستشفى ••• فقد ظل توم الذى يبلغ الثالثة والاربعين يعالج فترة تزيد على السنة من نوبات متكررة لقرحة فى المصران الغليظ •• ثم يعود الى المستشفى وقد أصابته نوبة أكثر حدة تهدد بالموت أحيانا •

وأخيرا استدعى أخصائى الامراض المعدية والمعوية بالمستشفى يونج وقال له :

ـ هناك شىء يأكل معدة هذا الرجل •• وهو شىء لم أستطع أنا أو الطبيب النفسانى أن نكتشفه •• لقد اعترف الرجل بأنه واجه توترا عاطفيا وعقليا

بسبب طلاق وقع منذ عامين ، هذا فضلا عن العوامل التى تصيب رجل الاعمال عادة بالقلق .. وقد أتحت له أفضل مايقدمه الطب النفسى من علاج ولكنى أعتقد أننا كنا نعالج الاعراض فقط .. ولعلك تستطيع أن تنزع الغطاء عن السبب الحقيقى لمرضه ..

وظل يونج بضع ساعات وهو يجلس الى جوار توم ، يحثه بمهارة للحديث عن مشاكله .. وأخيرا هتف توم

ـ هناك شىء آخر لم أخبرك به .. يجب أن أزيحه عن صدرى .

وراح المريض يذكر تفاصيل علاقة غرامية بامرأة متزوجة .. ثم قال : « وأمس فقط اكتشف زوجها السر .. وقد أصبت بالنوبة فى المساء ، فلابد أن هناك علاقة مابين المسألتين .. فماذا أستطيع أن أفعل ؟ » .

فقال يونج : لقد استطعت أن تشخص حالتك بنفسك ، وتستطيع أن تكتب بنفسك الدواء .. ان المسألة ليست مجرد قطع علاقتك بهذه السيدة ، بل يجب أن تعترف بذنبك وأن تلتمس المغفرة من الشخصين اللذين أجرمت فى حقهما ومن الله الذى انتهكت حرمة قوانينه .. ولن تشفى الا اذا أخذت هذا الدواء ..

وكان ارنولد على استعداد للعمل بنصيحة يونج ... ومنذ خمس سنوات لم تعد اليه القرحة قط ...

والشعور بالذنب يمكن أن يتخذ صورا مختلفة ، وأن يؤدى الى كثير من التعقيدات ، ولو لم يكن هناك خطأ فعلى قد حدث ، فان مجرد مداعبة الاغراء بالعدوان على القواعد الاخلاقية يمكن أن يثير أعراضا مرضية .. وكانت حالة ايفريت بارتون العجيبة من هذا النوع .. فقد أصيب الرجل بشلل فى ذراعه اليمنى ، ولم يجد طبيب الاعصاب شيئا مختلا فى أعصابه .. فقال له :

ـ انك مصاب بما نسميه (شلل وظائفى) فهل لديك مايمنع من مقابلة أحد أطباء المستشفى النفسانيين ؟

ولكن الرجل رفض ذلك ، قائلا

ـ كلا .. لست مجنونا ، بل المرض فى ذراعى وأنت الطبيب المختص ، فعالج ذراعى ..

وهز طبيب الاعصاب كتفيه وقال: حسنا .. سنحاول !

وعاد الطبيب الى مكتبه حيث اتصل بيونج ، الذى جاء بعد ساعة ..

ومر الى جوار الفراش الذى يرقد فوقه بارتون كأنه كان يمر به عرضا ، ثم قدم نفسه للمريض الذى قال :

ـ انني سعيد لرؤيتك ، فأنا عضو

نشط في الكنيسة ، أقوم بسكرتيريتها المالية لانني أشتغل بمهنة المحاسبة.

واستطاع يونج أن يدير المناقشة بمهارة حول صعوبة التوفيق بين عقيدة الانسان والمطالب الفعلية لعمله .. وعندئذ قال له بارتون :

ـ هذا حق .. فانني أعمل في مؤسسة منذ ٢٠ عاما ... ومنذ بضعة أسابيع طلب مني صاحبها أن أدير الحسابات بطريقة خاصة لمواجهة ضريبة الدخل، وعندما حاولت الاعتراض ألمح بأنه يستطيع أن يعين شخصا آخر لامساك حساباته ، ولكن هذا الالم الذي أصاب ذراعي حدث قبل أن أعمل شيئا ..

فسأله يونج : هل تظن أن هناك علاقة بين المسألتين ؟

فقال بارتون : وكيف تكون هذه العلاقة ؟

قال يونج : ان ضمير الانسان شيء قوي ، ويجوز أن يكون ضميرك قد حل هذه المشكلة الاخلاقية بأن جعل من المستحيل عليك بصفة مادية أن تطيع مخدومك .. فحنى بارتون رأسه مفكرا وقال :

ـ ولكن .. ماذا أستطيع أن أفعل؟ .. انني أخشى ألا أجد عملا آخر .

ـ يجب على كل منا أن يتخذ القرار الخاص به .. ولكنني أعتقد أنك اذا ظللت متمسكا بضميرك فان شلل ذراعك سيختفي ..

وفي اليوم التالي عاد بارتون الى عمله ، وشرح لمخدومه السبب الذي يمنعه من الاشتراك في عمل غير شريف وعلى الفور استرد قدرته على تحريك ذراعه وبدلا من أن يطرد من عمله ، حصل على علاوة ..

وقال له صاحب المؤسسة : لقد ألقى علينا ضميرك نحن الاثنين درسا لا ينسى .

***

وكما أن التطبيق السليم للادراك الديني يمكن أن يستخدم في علاج المرضى ، فان الافكار الخاطئة والآراء المشوهة يمكن أن تؤدي الى المرض في كثير من الاحيان ، فتصوير الله بصورة المنتقم الجبار الذي يتجسس على الضعف البشري لكي ينزل بنا عقابه .. وهي صورة يثيرها الآباء أحيانا في حماقة لتأديب أطفالهم ـ هذه الصورة يكمن وراءها نموذج شائع من مرض الاحساس بالذنب ، وضحايا مثل هذه التعاليم الخاطئة اذا أصابهم شيء ، سارعوا الى القول . هذا عقاب الله على ذنب ارتكبته ..

وهناك حليف وثيق لذلك الشعور

هو الخوف السقيم من ارتكاب خطيئة لا تغتفر .. ومع أن تسعة أعشار الذين يستخدمون هذه العبارة ، لا يستطيعون تحديد ما يقصدونه منها فان الفكرة المسيطرة يمكن أن تكون انفعالا مدمرا • ومثل هؤلاء المرضى الذين تسلط عليه ذلك الاحساس البائس ، يتبنون عادة ما يسميه علماء النفس « رغبة في الموت » .. ومهمة اعادة الرغبة في الحياة الى قلب المريضة هي مهمة فريق العلاج الديني ، وقد تعني أحيانا الفرق بين الموت والحياة

ويقول الدكتور « ايبن الكسندر » الجراح الشهير وكبير أطباء المستشفى ان كل طبيب يعرف من التجارب المريرة انه اذا قال المريض : « سوف أموت » فانه سيموت حقا مهما كان مرضه ضئيلا وعلاجه ماهرا .. وفيما عدا الحالات التي يكون التأخير فيها قاتلا ، يرفض الدكتور الكسندر اجراء العملية حتى يغير المريض نظرته ... وينجح رجال الدين غالبا في تحقيق هذا التغيير أكثر مما يستطيع الطبيب العادي •

***


ان هناك قصصا كثيرة على مثل هذا النجاح ، ولكن يونج لا يزعم ان العلاج الروحي يشفي كل الناس من أمراضهم أو يعالج كل مشاكلهم، فقد استغرق العلاج سنوات قبل أن يشفي بعض الاشخاص • وهو يقول ان أهم شيء هو أن ندرك حقيقة متاعبنا ، ثم نعرف مواردنا التي تصلح لعلاجها •

ويقول يونج ان هذا التحالف الحديث بين الاطباء ورجال الدين ، في مكافحة المرض ليس أمرا جديدا ... فمنذ ٢٤٠٠ عام كتب الفيلسوف أفلاطون يقول : « اذا أردت أن يكون الجسم والرأس في حالة طيبة، فعليك أن تبدأ بعلاج الروح » •

جائزة ..

نشر أحد الاشخاص اعلانا في عمود الاعلانات المبوبة بصحيفة «شولت شور ميرور» كتب فيه :

« سوف أدفع لصاحب المحل الذي ذهبت اليه ابنتي لاصلاح جراموفونها مبلغ خمسة دولارات عن كل يوم يستطيع أن يبقى فيه بيتي هادئا ! » •


كتاب الشهر
انتصر
على
الجبار العنيد
عن كتاب
VICTORY
IN THE DUST BOWL
بقلم إيرا ولفيرت

انتصر على الجبار العنيد

كل من فى مقاطعة « تكساس » بولاية أوكلاهوما يعــــرف « ادتاكر » ٠٠ انهم جميعا يعرفون بيته الابيض الذى يقبع تحت أشجار الحور على بعد ٣٤ ميـلا غربى جايون ، ولا يبعد عن خط سكة حديد كلورادو أكثر من ١٨ ميلا ٠ ولقد عرف الجيران قصة «اد» منــــذ زمن بعيد ، وعرفوا مدى مافيها من عظمة حقيقية ٠

وتبــــدو مزرعة « تاكر » اليوم بمخازنها الضـــخمة وحقولها الممتدة ومشتملاتها الكثيرة، مثل أكثر مزارع القمح الاخرى الناجحة ، فى حين أنها تعد فى الواقع ميدان معركة أكثر مما هى مزرعة ٠٠ فقد كانت يوما حلبة قتال صارع فيها الرجال قوى جبارة ، حتى هـــزمت الارض آمالهم وثرواتهم ، وأرواحهم ٠٠ !

وكان العـــدو الذى هزم الالوف وطردهم هم وعائلاتهم بعيدا عن الارض هو الغبار ٠٠ !

ولكن الغبار لم يهزم (اد تاكر) وان كان قد أغرقه ٠ ولم يستطع أيضا أن يهزم زوجتـــه (بيرل) وان كادت تغرق فيه معه ٠ لقـــد بقى اد وبيرل فوق الارض وظلا يواصلان الكفاح حتى بدا أن استمرار الكفاح شىء لا يتفق مع العقل، ولكنهما استمرا فى الكفاح فترة أخرى حتى كتب لهما النصر ٠٠

وفى الصيف الماضى ، تكشفت عظمه انتصارهما على حقيقتها ٠٠ ففى خلال عام ١٩٥٨ ، أنتجت المنطقة التى عرفت باسم « كأس الغبار » أكثر من ٨ ملايين بوشل من القمح ، كان نصيب ادتاكر منها حوالى ٤٠ ألف بوشل أنتجتهـــا أرضه التى يزرعهـــا وتبلغ مساحتها ٣٠٠٠ فدان ٠ وهذا القمح كله ينبت لاول مرة فى الحقول نفســـها التى بذلت المستحيل قبل ذلك بعشر سنوات لكى تقتله !

واذا ســـألت اد تاكر : لماذا بقى وسط هذا الغبار الاعمى بينما تخلى كل من حوله من الجيران عن مواصلة الكفاح ، فانه يجيبك قائلا : أظن أن السبب هو تلك البرارى ، التى لاتكاد تعتاد المعيشة فيها حتى تجد نفسك قد فقدت المتعة فى كل مكان آخر ٠٠

وأرض تاكر جزء من منطقة السهول المرتفعة، وقد شاهد (اد) تلك الارض المنبسطة من مقاطعة تكساس لاول مرة

وهو فى السابعة من عمره ، اذ كان أبوه سكويلم تاكر يعمل مدرسا فى « جرينسبرج » بولاية كنتكى قبل أن يحس بالرغبة التى تجرى فى دمائه ، والتى دفعت الكثيرين من الامريكيين قبله للرحيل غربا •

كان هذا فى سنة ١٩٠٦ •• ففى تلك السنة غادرت ٣٤ أسرة تضم أكثر من ١٢٥ شخصا مدينة جرينسبرج ليتخذوا لانفسهم مقاما فى أوكلاهوما ولكن لم يمض وقت طويل حتى أحس كثيرون منهم بالحنين الى مسقط رأسهم وكان الحنين طاغيا الى حد أنهم اضطروا الى سن قانون يحرم غناء أنشودة «بيتى القديم فى كنتكى » فى اجتماعاتهم، اذ كان سماع هذه الانشودة يثير كثيرا من الاضطراب فى النفوس •

كانت المشكلة الاولى هى الارض ، فقد كانت جافة كالعظام ، لا معالم فيها ولا أخشاب ، مجرد أرض منبسطة الى مالا نهاية ، تنتظر رجلا جريئا يرسم فوقها علامة بارزة •• لم يكن هناك أشجار أو بيوت أو مخازن ، وكأنما أعدتها الطبيعة ليقيم فيها البدو الرحل

كان أهل كنتكى لايعرفون الا القليل جدا عن المنطقة التى هم ذاهبون اليها حتى أنهم أحضروا معهم أشجار الفاكهة وحفروا خندقا حول كل شجرة لصيانتها من الرطوبة وعاش عدد قليل من الاشجار فترة تكفى لازدهارها ، ولكن الرياح لم تلبث أن مزقت الزهور قبل أن تثمر شيئا من الفاكهة !

كانت الارض متوحشة ، أشبه بالاصقاع الاسترالية أو سهول المغول الجرداء ، أو أقاصى سيبريا الموحشة ، وقد حاول الكثيرون من قبل أن يروضوا هذه البلاد البرية العنيدة ، ولكنهم مالبثوا أن ارتدوا عنها وهم يلعقون جراحهم •• وجاء بعدهم فطاحل تربية الماشية ورعاة الابقار وكلهم أمل فى البقاء ، ولكنهم تراجعوا هم أيضا ، وأخيرا جاء أهل كنتكى ، ليجدوا أمامهم كفاحا مليئا بالدموع ، يتطلب من الرجال أكثر مما هم على استعداد للتضحية به ••

وفى عام ١٩١٦ تقلصت مستعمرة أهل كنتكى حتى أصبحت لاتضم أكثر من أسرتين فقط ، هما آل تاكر ، وآل برايس ، وقد ظلت الاسرة الثانية حتى طفحت الكأس بالغبار •• ثم انسحبت ولم يبق هناك غير آل تاكر ••

كان سكويلد تاكر يكن وفاء عميقا للتربة ، ويعرف أى نوع من القمح يستطيع احتمال حرارة الشمس الحارقة فى السهول ، وقد تعلم كيف يحرث الارض بحيث لا تستطيع الرياح أن

تنسف حقوله قبل أن يقوى نبات القمح على النهوض ، وقد ظل ثابتـــا خلال السنوات العجاف ، ينتج مايكفي لاطعام جماعته ، ولكنه كان يدرك فى أعماقه أنه لن يستطيع مواصلة هـــذا الجهد بمفرده • كان يعرف أنهم اذا كانوا يريدون البقاء ، فان الامر يتوقف على ارادة ابنـــه (اد) الذى كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره يومئذ ، وكان بارعا فى كل شئون الارض ، كل شيء يلمسه بيده يصبح أفضل من غيره الى حد ما •

وحدث عندئذ شيء بدا أنه أنهى مصير آل تاكر فى مقاطعة تكساس ، فقـــد أصيب الاب بالانفلونزا ممـــا ألزمه الفراش فترة طويلة ، وعندما شفى من مرضه ، بدا بوضوح أنه لم يعد يمتلك الصحة التى تمكنه من مصارعة هـــذه الارض مرة أخرى ، وهكذا أصبح الامر بين يدى (اد) •• فاما أن يثبت قدميه ويصارع هذا الجبـــار العاتى ، وأما انتصر الجبـــار وطرد آل تاكر من السهول ليعيدهم الى كنتكى ••

وفجأة ، بدا أن مصير المعركة قد تقرر ! •• فقد عاد جد (اد) لأمه الى جرينسبرج حيث كان يمتلك أرضــا يمكن أن تجعل منه مليونيرا ، عبارة عن ألفى فدان من منطقة مســـتوية •• وعرض الجد على حفيـــده (اد) مزرعة غنية على طبق من فضة !

كان اد يســـمع طوال حيـــاته عن عجائب الحياة فى كنتكى • وكيف أنها تحوى جبالا وأنهارا تفيض بالاسماك • وهناك أشجار وحشائش خضراء ، واذا أردت أن تمطر السماء فما عليك الا أن تصفر لها بشفتيك !

ولم ينتظر اد تاكر ، بل أسرع يستقل نفس القطار الذى بعث فيه رسالته الى جده •• ولم يقل أبوه شيئا ليمنعه عن الرحيل ، وان كان قد أخفى يأسه خلف سكونه وصمته •

وبينما كان القطار الذى حمل ابنه يرحل ، رأى الرجل أمله فى بناء مقام للاسرة يختفى مع القطار •

***

أحس « اد » أنه يعود الى مســقط رأسه بعد فترة طويلة فى المنفى ••• ولكن هذا الاحساس لم يستمر طويلا

لقد صحبه جده فى سيارته ليقوما بجولة فى ريف كنتكى ، وكان الرجل العجوز يوقف سيارته بين حين وآخر ليشـــير له الى المزارع الخصـــيبة ، والاماكن الصالحة للزراعة •• وأحس اد بنفسه وهو يوافق جده تأدبا فقط فقد كان هنـــاك شيء عجيب يدور فى أعماقه ••

انه لم يشعر أنه فى بيته وهو فى جرينسبرج !

كان الريف جميلا حقا ، فالاشجار فى كل مكان ، والتلال تحيط به من كل جانب ، ولكن هذه البلاد تمت فيها كل الاعمال الكبرى بأيدى رجال آخرين فلم يعد هنــاك ماتفعله لكى تحرك عضلاتك .

وفى خلال أيام قلائل .. كان (اد) قد استقل القطار ثانية مغادرا كنتكى فى طريقه الى الســهول المرتفعة مرة أخرى .. ولم يكن يعرف يومئذ أن أرضه ســوف تتحول الى « كأس من الغبار » ، وأنه سيواجه تجربة سنين طويلة لم يواجه مثلها الا القلائل !

***

لم تبد السهول فى نظر (اد) أجمل مما بدت فى صباح ذلك اليوم الذى قفز فيــه من القطار فى «جايون» .. وانطلق الى دار الاسرة حيث ارتدى لباس العمل ، كان الوقت يومئذ فى شهر سبتمبر ، وكان أبوه يجلس فى الخــارج الى جوار المخزن وهو يضع حبوب القمح فى الصناديق .

وترددت الانباء فى مقاطعة تكساس بأن أشخاصا آخرين جاءوا للاقامة فيها .. وكان القــادمون الجدد هم آل شاتويل من بلدة سبارطة بولاية تنيسى وقد اشتروا أرضا تتاخم أرض آل تاكر وكانت لهم ابنة حسناء تدعى ليليان بيرل ..

ويذكر (اد تاكر) مادار بخلده أول مرة شاهد فيها ليليان .. لقــد قال يومها لنفسه على الفور : هاهى زوجتى المقبلة ..

كانت ليليان بيرل فتاة حلوة ذات وجه مشرق ، وشيقة كالغزال ، وقد اســتطاع « اد » أن يفوز باهتمامها بسرعة .. وما لبث هذا الاهتمام أن أصبح حبا يربط بين قلبيهما ..

كان ذلك فى عام ١٩١٩ ، وقد بدأت السهول الجنوبية تزدحم بالناس مرة أخرى ، كما كان الحال منذ خمسين عاما ..

ان السنين العجــاف التى تشبه الاحوال فى الصحراء تطرد الناس من أراضيهم ، حتى اذا جاءت الســنوات الطيبــة ، وغمرت الامطار المنطقــة بسيول متدفقة من الماء ، تدفقت معها سيول القــادمين الذين يغمر الامل قلوبهم .

وفى تلك المرة ، أقبل كثيرون من الشباب ، بينهم عدد من جنود الحرب العظمى الاولى ومعهم عرائسهم يتطلعون لبدء حياة جديدة ، واحتل الارض التى تقع على بعد أميــال قليلة من الطريق

شخص من فيرجينيا يدعى « ادبريوارد » فأقام فيهـــا مخزنا ضـــخما سرعان ماأصبح مكانا لاقامة الحفلات الراقصة بصفة منتظمة ، وعلى بعد أميال قليلة فى الاتجاه الآخر ، كانت هناك مدرسة صغيرة تتكون من غرفة واحدة ، أصبحت تعقد فيها حفلات العشــاء الصغيرة ، والإجتمــاعات المرحـــة ، وزاد عدد السيارات فى المنطقة ٠

***

كان القادم الجديد الى تلك المنطقة يسأل وهو يرفع صوته ليسمع وسط هبات الريح العنيفة :

ـ هل تهب الرياح هكذا طول الوقت؟

فيقال له : كلا ٠٠ انها تهب هكذا أسبوعا أو عشرة أيام فقط ٠٠ ثم تعود لتهب كالجحيم فترة أخرى ٠٠

انها نكتة قديمة شائعة ٠٠ ولكن ليليــان بيرل عرفت أن الامر لم يكن مبالغا فيه كثيرا ، فالرياح تهب عبر السهول المرتفعة بنفس السرعة التى تهب بها طوال العام على شاطىء البحر ولم يكن فى تلك الارض المنبســطة العجيبة مايمكن أن يصد الرياح التى تكتسح الارض كلها ، فهى تضرب وترتد ثم تلتف وتقفز الى الخلف لتعود الى الهجوم من جديد ٠ وفى خلال فصل الصــيف ، عندما تغطى الحاصــلات الارض ، كان الخطر يأتى من الجليد الذى يعمى الابصار بوهجه ٠

وكان الملل العظيم فى هذه الارض المنبسطة الى ما لانهاية يثير ضيقا فى النفوس ، ويصيب النــاس بكل مافى العزلة من آلام وكروب ٠٠ ولـــكن البعض ـ وبيرل منهم ـ كان يرى فى هذا الانبساط فى الارض شيئا جديرا بالثناء ٠ وعلى الرغم من أن بيرل قد ولدت فى الجبال ، فقد كانت تدرك أن السماء هى التى تصنع السهول لا الارض ، وانك اذا وقفت فى مكان واحد ، تستطيع أن ترى منظرا لايعوقه عائق فى دائرة من الارض تبلغ مساحتها أكثر من ٣٠٠ ميل مربع ٠ لقد كان فى استطاعتها أن ترى عاصفة تبدأ وتنتهى ٠٠ ثم تبدأ من جديد ٠٠ وفى تلك الارض تســتطيع أن ترى قوس قزح فى مداه الكامل وقد نبضت ألوانه بالحياة ٠٠

انها عندما تقف فى العراء ، تشعر أنهــا أعلى من أى شىء آخر من أقصى الافق الى أقصاه ٠ كانت تحس أنهــا جزء من الهواء لا من الارض ٠٠ كانت تشعر بالحرية التى يشعر بها الطير الطليق ٠٠

ولكن هذا السكون كان ينم أيضا عن شـــعور بالموت والعدم ٠٠ وكان

للحقول ذلك الجو الهادىء العميق الذى يسود المقابر •

لقد اعتادت بيرل أن تفكر فى كل هذه الاشياء •• وكانت تسأل (اد) عما اذا كان يشاركها فى الاحساس نفسه ؟

ولكن السكون والفضاء الممتدين الى مالا نهاية كانا يعنيان شيئا آخر بالنسبة لاد تاكر •• فهنا ، حيث لا شىء الا الارض والسماء ، يشعر المرء بأنه عملاق أو قزم ، وفقا للطريقة التى اعتاد أن ينظر بها الى الاشياء ، فاذا تغلب عليك السكون وهزمتك الرياح ، أحسست أنك تصغر وتصغر •• وسرعان ماتتلاشى دون أن تترك أثرا •• أما اذا قررت أن تواجه الارض وتصارعها ، فسوف تستسلم لك الارض قبل فترة طويلة لتصبح جزءا منك وتكتسب بعض قوتها •• كان يقول لبيرل أن الارض كالمرأة المتقلبة • قد تتغلب عليك وتجعلك تحس أنك عدت صغيرا ، ولكنك تعلم دائما أن المجد قائم هناك اذا استطعت أن تجد طريقا للوصول اليه •

***

ومرت خمسة أعوام منذ لقائهما الاول ، قبل أن تحدد بيرل موعدا للزفاف •• وكان « اد » يعيش يومئذ بمفرده فى بيت الاسرة ، بعد أن تزوج شقيقه الاكبر وغادر السهول ، بينما ذهب شقيقه الاصغر الى الكلية ، وانتقل والداه للعيش فى هوكر على بعد ٢٥ ميلا •

وفى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤ حمل (اد) خطيبته بيرل فى سيارته الجديدة التى ابتاعها بمبلغ ١٢٠٠ دولار ، وانطلقا الى القسيس ليجعل منهما شريكين دائمين فى الحياة •

ولقد قال الجميع أن اد وبيرل قد اختارا سنة صالحة للزواج ، فقد كان الجو يومئذ يسير وفقا لدورة تستمر عشر سنوات فى السهول الجنوبية ، فتأتى عشر سنوات رخاء ، يتبعها عشر عجاف •• وقد كانت السنوات التى تبدأ من سنة ١٩٢٠ سنوات طيبة ، وكان أمام الزوجين ست سنوات أخرى بعد الزواج يؤسسان خلالها ماينفعهما خلال دورة السنوات العجاف التى يعلمان أنها ستبدأ من عام ١٩٣٠

ولكن فى السنة الاولى بعد الزواج ، أصيب المحصول ببرد قارس ، فلم يأت القمح المزروع بدولار واحد !

ان السنوات العجاف جاءت بأسرع مما كانا يتوقعان !

وسحب اد من مدخراته ٤٠٠ دولار وابتاع بعض الادوات القديمة ، وبدأ

يعمل فى درس محصولات جيرانه التى لم تتلفها الثلوج ، فكسب ربحا صافيا قدره ألف دولار .. فلمــا جاء العام التالى لم تترك الطبيعة محصولا لاحد .. كان هناك مطر كثير فى السماء ، ولــكن الرياح كانت تصــيب الزراعة بالجفاف الملعون قبل أن تهطل الامطار

وطيب اد خاطر بيرل ،وكانت بيرل تثق فى زوجها ثقة تامة ، بينما كان اد يثق فى الارض .. وعندما تبين له فى عام ١٩٢٥ أنه لن يكون هنــاك محصول فى أرضه مرة ثانية ، ابتاع محراثا قديمــا من طراز فوردسن ، يستطيع أن يحــرث به ٢٠ فدانا فى اليوم .

كانت هنــاك أراض كثيرة يمكن الحصول عليها فى تلك السنة ، ولاسيما أن العمال المتنقلين لا يأتون فى سنوات الجفاف ، وتستطيع أن تستأجر حقولهم بربع الثمن مهما ينتج فيها من محصول وقد استأجر (اد) ٨٠٠ فدان أخرى ، وكان أخوه « ألن » قــد انتهى من دراسته بالكلية ، وجاء ليعيش مع اد وزوجته وأمضى الاثنان أسابيع وشهورا يواجهان القحط .. كان المال الوحيد الذى يحصلان عليــه يأتى من الابقار التى تدر اللبن ، ومجموعة من الديوك الرومية التى يقومان بتربيتها .

وجاءت سنة أخرى نموذجية وسط السنوات العجاف ، ومع أن المحصول الذى زرع فى السنة السابقة هلك فى جزء كبير من الارض ، فــقد كدح الشابان فى زراعة جزء آخر وهما على ثقة بأنهمـا سيحصلان على شىء منها فى السنة التاليــة .. وهطلت أمطار طيبة فى سبتمبر ، وهو أنسب الاوقات للزراعة ، وسرعان ما أخرجت البذور والالات ، وهرع الرجال الى زراعة القمح بسرعة قبل أن تأتى الرياح والشمس فتقضيا على الماء .

ونما القمح خلال الربيع متينا قويا وكانت بيرل قد حملت خلال الشتاء ، وبدأ الجنين يتحرك فى أحشائها .. وظل الجو يبسم لاد وزوجتــه طوال الربيع وملأت البراعم حقولهما المترامية الاطراف ، وفى شــهر يوليو ، قبل الحصاد مباشرة ، جاء تاكر الابليرى مدى ارتفاع نبـات القمح ، وبعد أن ألقى نظرة سريعة ، استطاع أن يعرف مقدار غلة كل حقل ، وتبين أن الفدان الواحد قد أنتج ٦٤ «بوشل» أى أربعة أضعاف محصول الفدان فى أمريكا فى ذلك الحين ..

وصاح الرجل العجوز : لقد حققتم المعجزة يا أولادى ..

ونجحت المقـاطعة كلها فى تحقيق

المعجزة فى تلك السنة •• كان الرجال يذهبون الى السوق وهم يختالون زهوا بنجاحهم ، كما كان « اد تاكر » فخورا هو الآخر الى حد ما •

كان ذلك فى سنة ١٩٢٦ ، وقد تركت تلك السنة أثرا طيبا فى الذاكرة لقد باع آل تاكر ١٠٥٠٠ قنطار من القمح خلال الصيف بسعر يتراوح بين أربعة دولارات و٤ر٦٠ دولارا للقنطار ، وبعد انتهاء الصيف بأسبوع حصد (اد) محصولا آخر ، فقد وضعت بيرل طفلتها اليزابث ••

وازدادت ثقة (اد) وارتفعت روحه المعنوية الى السماء ، ولكنه كان حريصا على ألا يتمادى فى تفاؤله ، فقد كان خبيرا بالارض على الرغم من أنه لم يتجاوز الثامنة والعشرين •• وكان يعرف أنه اذا ظلت السنوات التالية سنوات رخاء ، فلابد أن تكون السنوات العشر التالية لعام ١٩٣٠ سنوات عجافا •

واشترى اد تاكر مزيدا من الارض وأقام بيتا جميلا لنفسه ولاسرته ، كما اشترى آلات أخرى أكبر مما عنده ، ولكنه كان يدفع ثمن كل هذا فورا وقد نصحه أبوه بأن يحتفظ دائما بقطيع من ماشية اللبن ، فاتبع نصيحته كانت آلاته كلها حديثة صالحة ، وماشيته فى المقدمة ، وبقره الذى يدر الالبان من أفضل السلالات ، ومع ذلك فعندما انتهت سنة ١٩٢٩ لم يكن مدينا لاحد بمليم واحد ؟

والآن بدأ العقد الرابع ، وكان اد يعرف ماينتظره •• لقد انقضت عشر سنوات خصيبة ، ستتلوها عشر عجاف

وراح اد يتطلع الى الافق وأنظاره تدور حول حقوله المترامية •• ثم تساءل : متى تبدأ المتاعب ؟

كانت الرياح تكتسح الحقول كل ربيع •• ان ريحا قوية كفيلة بأن تنشر الظلام فى المنطقة •• وكثيرا ما كان الناس يتساءلون : ماذا حدث للشمس كان الغبار شيئا لا مفر منه حيث تستطيع الرياح أن تنطلق بسرعة ١٥٠ كيلو مترا دون أن تصطدم بشيء مرتفع ولكن الغبار كان يغمر سطح الارض بطبقة جيدة للزراعة •

ولكن الغبار ما لبث أن ازداد بصورة مروعة ، حتى اضطر (اد) الى استخدام أنواره الكشافة فى وضح النهار ، وازدادت كثافة التراب خلال الربيع . وفى عام ١٩٣٢ هبت عواصف عنيفة أخذت تجلب معها كميات ضخمة من الغبار ، حتى غمر البيوت والاسوار •

وأحس (اد) بالقلق ، فبعض حقوله الجيدة أصبح مظهرها عجيبا بعد أن

تكدس الغبار في السهول العليا ، ثم بدأت أشياء غريبة تحدث .

ان ماسى كوليتس ــ وهو منجيران اد تاكر ــ فاجأته الرياح وهو بعيد عن بيته .. كان الرجل على مرمى البصر من منزله عندما جاء الغبار وابتلع كل شيء ، فاستبد به اليأس ، وجلس القرفصاء منتظرا هبة هواء تبعدالغبار أما « اد بريوار » فقدضل الطريق بين بيته ومخزنه !

وسرعان ماجاءت أيام كان الناس فيها يضطرون الى تلمس الطريق الى منازلهم وقد أصبح هواء الصباح الباكر المنعش ، خانقا مكتوما !

وأصيب ماسى كوليتس بمرض شديد قال الاطباء أنه التهاب رئوى بسبب الغبار ، ومات الرجل بعد أيام قلائل

لقد بدأت السنوات الرديئة !

***

لم تكن المتاعب وليدة يومها ، بل انها بدأت قبل ذلك بفترة طويلة ..

لقد انبعثت هذه المتاعب عن جهل بالارض واهمال لوسائل خدمتها ، فالفلاحون الرحل ــ أصحاب الاراضى الذين لا يقيمون فيها ــ كانوا يجيئون مع الامطار لانتاج محصول ، كما يأتى الشخص الى مائدة القمار ليراهن مرة ويرحل .. وكانوا اذ يرحلون بعدجنى المحصول ، يتركون الحقول جرداء بلا رعاية ، كما كانت الديون سببا آخر من أسباب المتاعب ، فالسهول تتطلب زراعة على نطاق واسع ، والآلات تقتضى أموالا كثيرة ، ولابد للشخص من المزيد من الاراضى لكى يحصل من هذه الآلات على فائدة محققة ، ومن ثم كان المزارعون يشترون آلات بالتقسيط لاستخدامها فى العمل على أن يدفعوا ثمنها بعد أن يحصلوا على انتاج طيب

ولعب الكساد دوره هو الآخر ، واذا كان رجل الاعمال يواجه هبوط الاسعار بتوفير العمال وتخفيض الانتاج والنفقات ، فان الطريقة الوحيدة التى يواجه بها المزارع هذا الهبوط هو زيادة الانتاج ! .. وكلما زاد الانتاج زاد هبوط الاسعار ، ويكون رد المزارع هو زيادة المحصول مرة أخرى .. !

ومن ثم بدأ المزارعون يقتحمون المزيد من الاراضى التى لم تكن تصلح للزراعة ، وكانت هذه الاراضى هى أول ماعانى من الجفاف الذى أصاب المنطقة

وفى الوقت الذى كانت فيه نصف الحقول جرداء ، كانت الرياح تكتسح النصف الباقى بسرعة . ورأى « اد » حاصلاته والريح تقتلعها أمام عينيه ، واستحالت أرضه الطيبة الى أرض جرداء

وأسرع اد باحضار محراثه المزدوج

وراح يشق به خطوطا عميقة عالية الجوانب ، لتحمى الارض من الرياح مؤقتا •• وراح يعمل بسرعة وقوة غير عابىء بسلامته مما أثار قلق بيرل عليه فكانت تأخذ ولديها الصغيرين معها فى العربة وتنطلق للعودة بزوجها من الحقول •

واستطاع (اد) بفضل هذه الطريقة من طرق الحرث أن يصون أرضه من نسف الرياح القاسية •

وعندما امتدت فترةالجفاف ، ازداد الغبار عمقا ، وكانت ذراته الدقيقة تغمر كل شيء من الارض أو النبات ، حتى استحال لون النباتات الىالاسود الداكن •

وبدا أنه ليس هناك مايستطيع ان يفعله(اد) لانقاذ أى جزء منحاصلاته، فالارض كلها ـ حتى الاجزاء التىرويت بالماء ـ كانت تطير فى الهواء بصورة عجيبة ، ولم يفلح حتى الشتاءبعواصفه وبرده القارس فى انقاذ شيء منها••

واستطاعت بعض الاسر بفضل استخدام كل ذرة من شجاعتهاوعزمها أن تتحمل هذه الظروف ، ولكن العواصف التى تحمل الغبار كانت تهب بمعدل ١٠٠ يوم كل عام على منطقة « كأس الغبار » لمدة ثمانى سنوات متتابعة ، من١٩٣٢ حتى١٩٣٩

وعندما خفت حدة العواصف ، استطاع الذين تحملوا وبقوا أن يروا أن جلدهم لم يجلب لهم الا المزيد من الخراب والدمار ، فبعد كل ربيع ، كان يأتى الصيف الذى يجفف العظام بشمسه الملتهبة الكاوية ، حتى جفت الحقول وأصبحت أشبه بالصحراء ولم تنتج الارض أى محصول •

ان مابقى لهؤلاء الذين تشبثوا بالبقاء لا يمكن أن يسمى حياة •• لقد كانوا رجالا ونساء فى يوم من الايام أما الآن فأصبحوا مجرد أشباحتتسكع فى كابوس مرعب !

وأخذ عدد سكان مقاطعة تكساس يتناقص عددهمحتىبلغ النصفتقريبا بالنسبة لما كان فيها فى عام ١٩٠٧، عندما أجرى الاحصاء الاول هناك • وبيعت المزارع بأى سعر عرض لها ، وكانتالاثمان قليلة الى حد يثيرالاشفاق ومع ذلك ، فان البائعين كانت تبدو عليهم الراحة للتخلص منها ، قائلين : كان الواجب أن نفعل ذلك منذ سنين بعيدة !

وقل عدد طلبة الكليتين الزراعية والميكانيكية فى (جودويل) المجاورة الى ٩٢ طالبا فقط ، وكان المدرسون يلقون محاضراتهم وحلوقهم تغص بالتراب ، أما المدارس الثانوية التى

كان يتخرج فيها حوالى ٤٠٠ طالب كل عام ، فقد أغلقت أبوابها بعد أن اقفرت من التلاميذ ، وأصبح أقرب جار الى بيرل تاكر يبعد عنها بضعة كيلومترات

وأخـذت الرسـائل تترى من كاليفورنيا وبعض الولايات الاخرى •• رسائل يتحدث أصحابها عن تحسن أحوالهم بعد أن ابتعـدوا عن الغبار وفروا بعيـدين عنه •• كانت هناك أعمال كثيرة في مصانع السفن والمصانع الاخرى ، والمزارع الخضراء الجـديدة بعيدا عن منطقة الغبار ، وبينما كان المقيمون يقرأون هذه الانباء في رسائل الراحلين ، كانوا يسـائلون أنفسهم كثيرا : لماذا بقوا ؟

***

كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الانسان أن يحصـل على نقود في منطقة « كأس الغبـار » هي أن يبيع شيئا حصل عليه قبل أن تبـدأ أيام الشـدة •• وقرر اد تاكر أن يبيع خنـازيره •• ولكي يفوز بأعلى ثمن مستطاع لها ، نقلها بالسـيارة حتى بلدة « بيـوبلو » بولاية كلورادو على بعد ٤٠٠ كيلو متر ، وهنـاك باعها بسعر ٤ر٥ دولار لكل مائة كيلوجرام

وكان ماى بيرتون العجـوز يعيش بمفرده في مزرعته بعد وفاة زوجته •

وحدث يوما أن شاهد البعض سيارته تقف أمام محطة السكك الحديدية وقد ترك مفاتيحها فيهـا ، وليس هناك مايشير الى المـكان الذى اختفى فيه صاحبها ••

واستدعى ابنه كاسل بيرتون من بلدة « بويز سيتى » التى تقع على بعد ٩٥ كيلو مترا وعندما وصل الى بيت أبيه ، وجد كل الانوار مضاءة ، ورأى طعاما فوق الموقد ، وعلى المائدة طبق ممتلىء وقطعة خبز وقدح مملوء بالقهوة

وتبين بعد ذلك أن العجوز قد انطلق فجأة الى كاليفورنيا ••

لقد عاد الرجل من عمله فى الحقل وجلس يتناول عشاءه الذى لم يتناول منه لقمة واحدة •• وفجأة أسرع الى سيارته وانطلق بها الى المحطة دون أن يأخذ معه غير ثيـابه التى يرتديها ، وهرب من تلك البقعة تاركا خلفه كل شىء •• حتى السيارة !

ويشعر اد وبيرل أن بقاء الآخرين الذين رفضوا التخلى عن هـذا العالم الصخرى العنيد هو الذى ساعدهما على تحمل السنوات التالية •• رجال مثل اد بريوار الذى شهد مخزنه كثيرا من الحفلات الراقصة المرحة ، والذى كان يقرأ لهم أنبـاء الخارج فى الصحف المحلية ، فيعرفون أن هناك فيضانات

فى أوهايو والمســيسبى ، وزلازل فى كاليفورنيا واليـسابان ، وصقيعا فى فلوريدا •• ويحسون أن النكبات يمكن ان توجد فى كل مكان •• وأن كوارث الطبيعة ليست مقصورة على منطقة دون غيرها ••

وكانت النســاء أيضا ثابتات فى موقفهن الى جوار الرجال •• ومع أن بيرل كانت تخاف الغبار الى حد رهيب فانها كانت تثق فى الحب ، وتشعر ان الاسرة ما دامت متماسكه فى حب فلابد أن يأتى الخير يوما •

ولكن الخير كان لايزال بعيدا جدا •• فقد ظلت الرياح تعوى وتزأر ، وتحيط الدار بمخالبها وكأنها وحش مفترس • كانوا يضعون أغطية مبتلة بالماء فوق النوافذ ليلا ، وحول مهد الطفلين حتى لا يختنقا بالغبــار •• كانت بيل تستيقظ يوما بعد آخر ، لتجد أن المكان الوحيد الذى بقى نظيفا فى المنزل هو الحدود البيضاء للاغطية التى ينامان عليها •

لم تكن هناك وسيلة يمكن أن تبعد هذا الغبار اللعين الذى يغمر الادراج ويتكدس فى الدواليب المغلقة •• حتى الحديقة الجميلة تكدست فيها كثبان الغبــار بعد أن بذلت بيرل مجهودا ضخما فى تنسيقها وزراعتها •

وخشى اد على مصير ماشيته التى تدر له اللبن •• كانت لديه ٢٠ بقرة ممتازة ثمن كل منها ٥٠٠ دولار •• وفى عام ١٩٣٤ لم يستطع أن ينتج الطعام اللازم لمأكلها ، ولم يستطع أن يتحمل ثمن شراء هذا الطعام • وهكذا نقل بقراته الثمينة الى بلدة هوكسر حيث استأجرها منه أحد منتجى الالبان •• وبعد عامين اضطر الى استرجاعها بعد أن فقد المســتأجر زبائنه الذين هلكت مزارعهم فرحلوا عنها ••

واضـطر اذ الى أن يبيع فخر السلالات بثمن بخس لايزيد على ٣٢ دولارا للواحدة !

كان كلما سار عبر حقوله الجرداء ، أحس انه وقع فى شرك لاحول له فيه ولا قوة ، حتى الحيوانات البرية التى كان يلقاها فى طريقه ، كانت تتعثر وسط الغبـار حتى يصيبها الارهاق ، فتسقط ولا تنهض •

وهكذا لم يبق سواه من بين ١٢٥ شخصا بدأوا رحلتهم من جرينسبرج والامل يعمر صدورهم منذ سنوات • حتى شقيقه الاصــغر ، سـافر الى كاليفورنيـا ، بينما هجر الكثيرون مزارعهم ، وانتقلوا الى مناطق أخرى فيها مزارع خضراء يانعة •

وبدأ اد يسائل نفسه : ترى هل

كان على صواب فى بقائه ليحاول أن ينهى مابدأ من العمل ؟ •• وهل كان هذا دليلا على بعد النظر أو على الغباء التام •• ؟

وبحث الامر مع بيرل بعد أن نام الاطفال •• فقالت له : كل ماتقرره هو الصواب ••

وسألها : اذا طلب منك أن تقررى بنفسك مايعود عليك بالفائدة فماذا يكون قرارك ؟

وكان السؤال رده يسير : كانت بيرل قد أصدرت قرارها فعلا منذأكثر من عشر سنوات ، عندما تزوجا ••

لقد قررت أن تبقى الى جواره مهما تكن الظروف •• وكان هذا قرارها الذى لا رجعة فيه •

***

كان الاطفال يبقون فى المدرسة طوال الليل عندما تهب العواصف الترابية بلا انقطاع ، فينامون على الارض ، ويأكلون طعاما باردا ••• وحدث ذات يوم أن كانت اليزابث فى المدرسة عندما هبت العاصفة اللعينة، فخشيت بيرل أن تمنعها العاصفة عن العودة أياما طويلة ، فانطلقت بالسيارة مع طفلها لويد حيث استدعت زوجها من الحقل ، وذهبا معا لاعادة الطفلة من المدرسة التى كانت تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات •

وفى طريق العودة ، ضل (اد) وسط زوبعة الغبار التى تحجب كل رؤية ، ولم يعرف أين توقفت بهم السيارة فقد كانت الخنادق التى تقع على جانبى الطريق كلها ممتلئة بالغبار

كانوا يعرفون أنهم لم يبتعدوا كثيرا عن المنزل •• ولكنهم لا يستطيعون الوصول اليه ، اذ لم تكن هناك معالم توضح الطريق فى هذا الجو الذى يغطيه الغبار •

ولم يكن أمامهم غير الانتظار الى أن تنقشع العاصفة •

وجلسوا داخل السيارة بعد أن أحكموا اغلاق نوافذها ، وأخذوا يستمعون الى جهاز الراديو •

وأغلق اد عينيه ، وراح يفكر ••

الى أين المسير ؟

ان والده يريد أن تذهب بيرل والأطفال الى « هوكسر » ليعيشوا فى بيت القسيس الذى سافر الى جهة أخرى • بينما كان (اد) يكره أن يبتعد عن زوجته وأطفاله طويلا •

ولكن الازمة الجديدة التى واجهها وسط العاصفة الترابية جعلته يتخذ قرارا آخر •• انه لايستطيع أن يطلب من أسرته أن تتحمل المزيد من المشاق بسبب الارض • ان بيرل لم تتزوج

رجلا ، بل تزوجت كارثة !

كان الليل قد حل عندما بدأت العاصفة تهدأ •• ولكن اد بدلا من أن يتجه بهم الى المنزل ، انطلق بالسيارة الى « هوكسر » •• حيث البيت الخالى وطلب اد الى زوجته أن تفحص المنزل ليحضر لها مايلزمها من أثاث ، ثم عاد بها الى منزلهما ، وطلب منها أن تجمع ماتريد من حوائج ولكن بيرل رفضت أن تتركه وحده ••

وعندما ألح عليها فى الرحيل بعيدا عن المتاعب ، صاحت قائلة :

ـ اذهب أنت •• سوف أبقى هنا مع أطفالى !

وهكذا ظلت الاسرة معا ••

***

وبدأت الغمة تنقشع تدريجا ••

ففى عام ١٩٣٨ سقطت بعض الامطار التى تكفى لتهدئة الغبار الثائر وانتاج محصول قليل •• كانت أسعار الارض قد انخفضت ، فراح اد يدخر كل مليم لدفع القسط الاول من ثمن ٤٨٠ فدانا أخرى اشتراها •

وفى عام ١٩٣٩ سقط مطر أقل ، ولكنه نزل فى الوقت المناسب ، فاستطاع أن يحصل على محصول لا بأس به • وفى عام ١٩٤٠ انتهى الجفاف ••

وعادت سنوات الرخاء !

لقد توقفت عواصف الغبار عن الهبوب •• وبدأ اد يعمل بحماسة •• انهم فى الطريق الى دورة رخاء تستمر عشرة أعوام أخرى ، وقد اختلفت الظروف الآن عما كانت عليه فى سنة ١٩٢٠ •• ان العلوم والفنون قد خطت خطوات كبرى لتحسين وسائل استغلال الارض ، وأنتجت بذور جديدة واستحدثت طرق جديدة لحرث الارض تحمى التربة من هبوب الرياح ، وأمكن ابتكار حواجز تتحطم عليها الرياح وهى تجتاح المزروعات ، كما ظهرت آلات جديدة تستطيع أن تؤدى أعمالا جديدة تهدف كلها لمعاونة الفلاح فى عمله

وعادت الامطار تهطل بغزارة •• وجاءت أجهزة جديدة لحفر الارض ومضخات ترفع الماء من باطن الصخور بسرعة ٣٠٠٠ جالون فى الدقيقة •• وفى عام ١٩٤٥ اكتشفت أغنى حقول الغاز الطبيعى فى المقاطعة مما هبط بتكاليف إدارة المضخات لحفر الآبار الى ربع دولار فى الساعة ، ومن ثم أصبح من اليسير رى كل قطعة فى السهول المنبسطة لزراعتها • ولم يعد الفلاح مضطرا للاعتماد على القمح وحده بل أمكنه أن يعدد حاصلاته •

كانت السنوات العشر التالية

سنوات رخاء حقا .. وعندما جاءت سنة ١٩٥٠ راح اد يتساءل : هل يعود الغبار والجفاف والرياح مرة أخرى ، أو أن الارض سوف تصمد فى وجه هذه الكوارث ؟

وعاد الجفاف ، وبدأت عناصر الطبيعة تزحف على حقول اد تاكر كما يزحف جيش الاعداء فى صفوف متراصة .. وجفت الارض ومات الزرع . وكانت سنة ١٩٥٢ أكثر السنوات جفافا ، فلم يهطل من المطر الا كمية ضئيلة جدا وتكرر ذلك فى عام ١٩٥٤ ، وتوقف الناس عن التطلع الى السماء فى انتظار المطر ، ولكنهم لم يتوقفوا عن التطلع الى الغبار ..

وفى يوم ١٩ فبـــراير ١٩٥٤ عاد الشبح الكريه يستيقظ من قبره مرة أخرى ..

لقد هبت أعنف عاصفة من الغبار ، عاصفة جبارة كعواصف ١٩٣٠ ، ولكن الغبار فى هذه المرة كان هو الذى يقاتل فى سبيل حياته .. لا الرجال !

لقد خرجوا جميعا بأجهزتهم وآلاتهم الحديثة القوية السريعة ، يدافعون عن أرضهم ويذودون عنها العدو اللدود .

واســتطاعوا أن يصمدوا فى وجه الغبار فى اليوم الاول ..

ولكن معركة واحدة لاتكسب الحرب

ان الغبار يأتى كل ربيع .. يحاول أن يرفع رأسه فى كل يوم .. ولكنه كان يهزم فى كل مرة .

لقد كفلت الآلات والوسائل الجديدة فى الزراعة والحرث سلاحا جديدا فى يد الانسان يقاتل به فى هذه الحرب التى لا هوادة فيها .

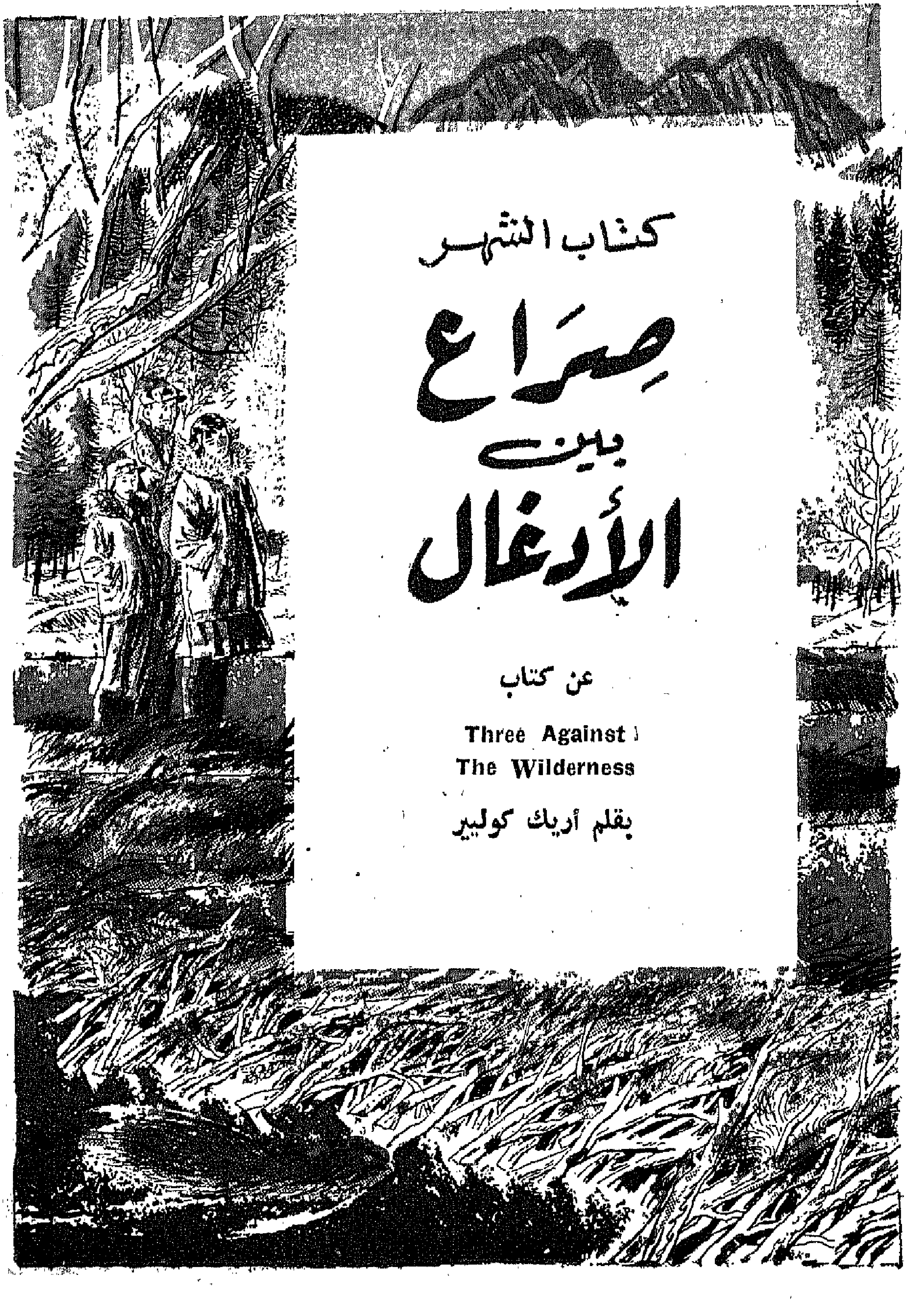
لم يعد الغبار هو السيد المسيطر فى « كأس الغبار » كما كان الحال فى السنوات الماضية ، بل نجح الانسان بعزيمته فى التغلب على هذا المارد الذى كان يحطم كل شىء فى طريقه .

وعندما تتحدث اليوم الى اد تاكر ، تحس كأنك تتحدث الى قائد بارع ، رسم خطته ، وحارب وانتصر فى سلسلة من المعارك فى حرب طويلة يائسة !

احتياط ..

قال الطبيب وهو يصف علاجا لاحد المدعوين معه الى حفلة الكوكتيل :

ـ اذا لم ينفع هذا العـلاج . فهاك اسم طبيب اخصائى سيكون مدعوا الى مأدبة آل فيرجوسن مساء الجمعة القادم !



كتاب الشهر

صراع بين الأدغال

عن كتاب

Three Against The Wilderness

بقلم أريك كولير

كانت الدببة تقف عند عتبة بيته .. والذئاب تطارد ابنه الصغير ، والحرارة تهبط ٤٥ درجة تحت الصفر ، لتجعل من الشتاء اختبارا عسيرا لا يتحمله احد .. ولكن اريك كولير ، الذى فضل العيش فى حدود كندا على حياة المحاماة التى اختارها له ابوه فى انجلترا ، لم يأسف قط على هذا القرار ..

لقد كان يجد فى كل يوم متعة فى تحدى الحياة ، التى تشاطره اياها زوجته التى تجرى فى عروقها دماء الهنود ، وسط ستين ألف فدان من أراضى البرارى فى كولومبيا البريطانية ..

واليوم ، وبعد ان أصبح كولير رئيسا لاتحاد صيادى الغابات فى كولومبيا البريطانية، نجده من أشد المتحمسين للمحافظة على الحيوانات من الانقراض ، وقد أمضى سنوات فى اعداد كتابه هذا عن حياة الخلاء .. وفى هذا الكتاب الضخم ، يتحدث اريك كولير عن المخاطرات الغريبة التى عاشها ، بأسلوب كله حياة ومرح ، وفى جلاء لا يمكن انكاره .!

صراع بين الأدغال

كانت العربة العتيقة التى اشتريتها من أحد الهنود بخمسة عشر دولارا وفراء ذئب مكسيكى تقف فى الانتظار أمام المركز التجارى الذى يقع على الحدود فى كولومبيا البريطانية، ورفعت طفلى فيزى الذى يبلغ العامين الى صندوق العربة ، ثم ساعدت زوجتى ليليان فى الصعود الى المقعد المرتفع ... وبعد أن صعدت الى جوارها ، قال صاحب المتجر الذى ظللت أعمل فيه طوال الاعوام التسعة الماضية بلهجة رقيقة :

ـ اذا أردت عملا ، فعد الى ..

فقلت له : سيكون هناك عمل كثير حيث نذهب .

فحنى رأسه وقال : ولكن من الذى سيدفع لك ؟

قلت : اننى لا أعرف شيئا عن ذلك ..

وأعملت سوطى فى الجياد ، فانطلقت عجلات العربة تسير ببطء فوق حصباء الطريق ، وهو الطريق الوحيد الذى تقوم الحكومة بصيانته لخدمة منطقة شيلكوتين الواسعة التى تتغلغل فى داخل كولومبيا البريطانية

كان ذلك يوم ٢٢ يونيو ١٩٣١ ، وسوف نصل بعد ظهر غد الى منزلنا الجديد فى خليج « ميلدزام » على بعد ٤٠ كيلومترا شمالا من أقرب متجر ، وأكثر من ١١٠ كيلومترات من أقرب

خط حديدى ••• ولو لم يكن هذا المنزل غير خيمة ممتدة تحت ظلال الاشجار أسبوعا أو أسبوعين ، فسيكون هو داري ما دمت أنا وليليان وفيزى معا •• وكانت العربة تشتمل على الادوات التى تكفل لنا مقصورة مريحة ، ومخزنا للجياد

كانت العربة تحمل فى الواقع كل ما نمتلك فى هذا العالم ، فضلا عن ٣٠ دولارا نقدا ••• كان فيها طعام وأغطية وخيمة وأوان للطعام ، ومطارق وفئوس ، ومناشير ومسامير، وبنادق وشباك للصيد ، وموقد للطهى ، وعشرات من الاشياء الاخرى ، ومع أن كل هذه الاشياء لا تساوى فى مجموعها أكثر من ٣٠٠ دولار ، الا انها ستكون ذات قيمة لا تقدر بمال فى البرارى التى نتجه اليها ، حيث لا جيران لنا غير مانلتقى به عرضا من وعول وغزلان ودببة •• وكانت البندقية هى جواز مرورنا الى ما سنحصل عليه من لحوم ••• وعندما فقدت المعاطف المصنوعة من فراء الذئاب المكسيكية ووبرها الكثيف ، ونزل الجليد فى نوفمبر ، كنا نعتمد على ما نصيده بشباكنا فى سد النقص فى تموينناً •

كنت قد حصلت وحدى على حقوق الصيد من ادارة شئون الصيد فى كولومبيا البريطانية فى منطقة تزيد مساحتها على ٦٠ ألف فدان من البرارى التى تحيط بمستنقعات خليج ميلدرام كلها تقريبا ••• ومع أن الامر كان يبدو مثيرا ، الا أننى كنت أعرف أنا وليليان انه لم يتبق من حيوانات الصيد ذات الفراء فى المنطقة غير عدد قليل ، وان ذئاب البرارى المكسيكية ذات الفراء الحريرى الاشهب هى وحدها التى استطاعت البقاء بعد النشاط الذى دب فى تجارة الفراء •••

ومع ذلك ، فلو أننا استطعنا ان نحقق ذلك الحلم الذى كان يتجه بنا الآن بعيدا عن الطريق الرئيسى ، نحو طريق غامض ملىء بالادغال ، صوب الشمال حيث برارى خليج ميلدرام ، لحصلنا على الكثير من كلاب الماء والقنادس ، وفراء المنيك وجرذان المسك ••• ولوجدت فى النهاية البقعة التى استطيع ان استقر فيها لاستوطنها ••• وهو ما كنت أبحث عنه عندما وصلت الى هذا الاقليم الكندى الموحش لاول مرة •

***

لو ان ابى فى انجلترا حقق غرضه ، لجعل منى محاميا ، ولكنى

كنت حتى وأنا صبى صـــغير فى المدرسة ، تجتذب السياجات الشائكة وجداول الماء من اهتمامى أكثر مما تجتذبه مسائل الجبر المملة ودروس اللاتينى ، وقد ظللت اثنى عشر شهرا أستنفد صبر اثنين من كبار المحامين اللذين أرسلنى أبى اليهما فى نورثمبتون حتى استدعانى ابى فى صباح أحد أيام مايو ١٩٢٠ وقال لى ان أحد المحاميين قال له ان مواصلة دراستى الثانوية ليست الا ضياعا للوقت ..

ومضى أبى يقول : تستطيع بالطبع أن تأتى للعمل معى ... ولكن لاتظن أننى سوف ارحب بك ..

وكان ابى يدير مصنعا لانتـاج آلات صناعة الاحذية ، وكنت أعرف تماما اننى لن ارضى بالعمل معه ... فظللت صامتا لا أتكلم ... وبعد لحظة ، قال ابى :

— أن ابن عمك هارى ماريوت يعيش فى كندا ، فقد ذهب الى هناك فى سنة ١٩١٢ وتعلم تربية الماشية ، وهو يمتلك الآن قطيعا كبيرا منها .

وفجأة دبت فى الحياة من جديد .. وقلت :

— أن هارى يقيم فى كولومبيـا البريطانية ... أليس كذلك ؟

— أجل ... إنه يقيم فى منطقة بحيرة « بيج بار » وهناك سوف تجد المجال للصيد بالشباك وصيد الاسماك .. هنـاك غزلان ودببة ، وسمك السالمون ، وسوف تتعلم ولاشـك تربية الماشية ، وقد أستطيع بعد أربع أو خمس سنوات شراء مزرعة وقطيع صغير من الماشية .

وهكذا ، ركبت السـفينة من ليفربول فى يونيو ١٩٢٠ ، لاذهب فى رحلة انتهت بى أخيرا .. الى منابع نهر ميلدرام ... وقد أمضيت عاما مع هارى ماريوت ، وكانت فترة كافية لكى اتعلم كيف أمسـك البلطة ، وأتدرب على تجهيز الجياد ، ومعرفة آثار الغزال عندما اراها ... كما كانت هذه الفترة كافية لكى ادرك انه ليس لى مكان فى بحيرة (بيج بار) للعمل فى تربية الماشية ، أكثر مما كان لى فى دراسة القانون ...

وفى عام ١٩٢١ ودعت ماريوت ، وانطلقت شمالا ... وبعد عام ، كنت أعمل لحساب رجل انجليزى يدعى بيتشر فى متجره الذى يقع بمنطقة نهر ريسك بمنطقة شيلكوتين على بعد أكثر من ٣٢٠ كيلومترا شمالى فانكوفر .

كنت أتجه نحو هـذه المناطق الخارجية البعيدة كما تتجه زهرة

عباد الشمس نحو ضوء الشمس ، ومع أننى كنت فى التاسعة عشرة يومئذ ، فقد كنت مكلفا بأعمال كثيرة فى هذا المركز التجارى من بيع وتخزين وامساك حسابات ٠٠٠ وفى هذا المكان تلقيت أول درس فى تجارة الفراء ٠

كان الهنود من أهالى القرى القريبة يقايضون فراء الذئاب المكسيكية التى يحضرونها فى أواخر الخريف والشتاء ، بالدقيق والشاى والتبغ والاقمشة وغيرها من السلع ٠ ولكننى عندما بدأت أمارس أول درس فى تجارة الفراء ، لم يكن قد بقى فى المستنقعات والبرك غير جرذان المسك ٠٠ بل ان المستنقعات كانت هى نفسها تبدو عليلة توشك على الموت ، وقد أخذت تجف واحدة بعد الاخرى ٠٠ ولم يكن الدافع وحده كافيا لتفسير انكماش الماء وجفافه الذى كان حديث الجميع ، وقد مرت اعوام كثيرة قبل ان أجد شخصا حكيما يستطيع ان يقدم لى تفسيرا لهذه الظاهرة ٠

عندما قررت مصيرى

كانتا معا يوم جاءتا الى المتجر لاول مرة ٠٠٠ فتاة حسناء تقود عجوزا هندية بلغت من العمر أرذله ، سرعان ما عرفت أنها لم تأت من القفار ٠٠ وقد رأيت الفتاة وحدها أول الامر ٠٠ كانت ترتدى ثوبا أزرق اللون ، يلتصق بجسدها كما يلتصق القفاز باليد ، وكان وجهها الساحر اشبه بعصفور صغير ، يحيط به شعر أسود ٠٠٠ ثم رأيت الهندية العجوز بجدائلها الطويلة ذات الشعر الاشيب ، وحذائها الخشن المصنوع من جلد الوعل ، وكان وجهها كثير التجاعيد اشبه ببرقوقة جافة ، ويكاد يماثلها لونا ٠٠٠ ولاشك انها أكبر من شاهدت فى حياتى سنا ٠٠

وقلت للفتاة فى دهشة :

ـ من هذه ؟

فتفرست فى وجهى لحظة ٠٠ ثم قالت :

ـ انها جدتى

ـ ولكنها هندية قحة ٠٠

وبدت بسمة شاحبة على وجهها دون أن ترفع عينيها عن عينى ٠٠ ثم قالت :

ـ أجل ٠٠٠ وأنا نفسى تجرى فى عروقى بعض الدماء الهندية

هكذا كان أول لقاء لى مع ليليان ٠٠ الفتاة التى قدر لها ان تشاطرنى حياة البرارى ، وقبل ان يغادر الاثنان المتجر ، علمت أن اسم الجدة هو

(لالا) وانها فى السابعة والتسعين من عمرها ... والاهم من ذلك كله، انهما لا تعارضان فى زيارتى لهما ذات مساء .

وفى خلال الشهور التالية ، أمضيت كثيرا من الامسيات ، اتحدث اليهما حول النيران المشتعلة أمام كوخ (لالا) الخشبى الصغير ... كانت العجوز لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وقد فقدت بصرها منذ اثنى عشر عاما ، ولكن عقلها الحكيم كان مستودعا حقيقيا للمعلومات لكل شيء عن البرارى .. فهى مازالت تذكر كيف كان شكل المنطقة فى طفولتها قبل ان يتسلل اليها البيض ... ومازالت تذكر كيف كانت منابع النهر ، كانت منطقة تتوارث أسرتها الصيد فيها ، قبل ان يأتى آنجليزى يدعى ميلدرام لكى يطلق عليها الاسم الذى تعرف به الآن ..

لقد شاهدت منطقة خليج ميلدرام، ولكن قطرات الماء التى رأيتها هناك لم تكن تشبه كثيرا وصف (لالا) للنهر أيام طفولتها .. انها لاتزال تذكر كيف كانت قطعان ضخمة من الوعول والظباء تأتى لتطفىء غليلها ، وكلاب الماء ترش ذيولها العريضة بالماء ، بينما تقفز أسماك السالمون لتصيد الحشرات ، وكانت حيوانات « المنيك » ذات الفراء الاسود ، والقنادس تمرح تحت اشعة الشمس، فوق مساكن كلاب البحر ، وصخور جرذان المسك التى تملأ ضفاف الماء ، وكانت اسراب البط والاوز البرية تأتى بالالوف لتغمر نفسها فى مياه البرك التى تزخر بالحشائش ..

وبينما كنت قابعا ذات مساء الى جوار العجوز حول النار المشتعلة ، قلت لها :

ـ لم يعد هناك اسماك السالمون الآن يا لالا ... ولم يعد الهنود يحضرون شيئا من فراء كلاب الماء ..

فهزت رأسها قائلة : كلا .. لم يعد هناك شيء الآن ..

ثم رفعت عينيها البيضاوان نحو وجهى واردفت :

ـ هل تعرف السبب ؟

وكنت قد فكرت فى الامر مليا من قبل ... فقلت ما كان يدور فى ذهنى :

ـ لان كلاب الماء لم تعد موجودة !

فقالت وهى تجذب نفسا عميقا من غليونها :

ـ أجل .. لقد كان النهر مليئا بكلاب البحر حتى جاء الرجل الابيض .. ان الهندى قد يقتل واحدا أو

اثنين منها بين حين وآخر ، عنـــدما يبغى لحما أو جلدا يصنع منـــه غطاء .. ولكن منذ ان اعطاه البيض التبغ والسكر والويسكى راح الهندى يقتل كلاب البحر طول الوقت ..

وتسللت يدها التى برزت عروقها حتى التقت بيدى .. ثم قالت :

ــ عندما تأخــذ كل كلاب الماء ، فان الماء كله يذهب أيضا شيئا فشيئا .. واذا ذهب الماء ، لم يعد هنــاك سمك السالمون ، ولا الفـــراء ولا الحشائش ولاشيء قط ومالبثت (لالا) أن عبرت بكلماتها عن الفكرة التى ظلت تداعب خيالى منذ أسابيع دون أن أصارح بها أحدا ...

فقد قالت العجوز : لماذا لا تذهب الى النهر وتعيد اليه كلاب الماء ؟ انك أيها الشاب تحب الصـــيد ونصب الشباك .. فاذا امتلأ النهر بكلاب الماءمرةأخرى ، فقد تمتلىء المستنقعات الكبيرة بجرذان المسك من جديد كما كان الحال وانا فتاةصغيرة .. وحيث توجدالجرذآن ، يأتىالمنيك والقنادس أيضــا ... أجل لماذا لا تذهب مع ليليان لتعيشا هنــاك طوال الوقت وتعيدا كلاب الماء الى المنطقة ؟

ومنذ تلك اللحظة ، تقرر مستقبلنا الى حد ما ، بعد ان وصلت (لالا) بالامور الى هذا الحد ... ولكن أشياء كثيرة حدثت قبــــل ان نتمكن أنا وليليان من تنفيذ نصيحة الجـــدة (لالا) . فبعد بضعة شهور ، ماتت العجوز فى هدوء ورزانة ، وفى العام التالى ــ١٩٢٨ــ تزوجت أنا وليليان فى حفل بسيط أقيم فى المتجر الذى أعمل به ، ولم يشهده غير بيتشر وزوجته .

فى ذلك الحين ، كنت قد حصلت على حق نصب الشباك فى منطقـــة نهر ميلدرام ، وكنا نأمل أن ندخر مبلغا كافيا من اجرى الشهرى وقدره ٤٠ دولارا ، لكى نعد العدة للمغامرة التى سنقوم بها فى خلال عامين ... وكنت قد توقفت منذ فترة طويلة عن التماس العون من أبى .. ومع انه كان قد عرض ان يمول مزرعة لتربية الماشية ، الا أننى كنت أعرف أنه ليس مستعدا قط لاستثمار نقوده فى هــذا المشروع الذى يبــدو مشروعا أرعن ...

وتأخر رحيلنا عاما آخر بعـــــد وصول طفلنا الوحيد فيزى اريك .. وعندما انطلقت فى النهاية نحو خليج ميلدرام ، كان قد انقضى أحد عشر عاما على اليوم الذى ابحرت فيه من انجلترا .

كوخ بين أشجار الصفصاف

كان كل ما نحتاج اليه لبناء بيتنا موجودا هنـاك ، فى تلك الغابة التى تحيط بنا من كل ناحية ، وقد أخذنا نقوم معا بقطع الاشجار واعدادهاالبناء الكوخ ، فوق الارض التى مهدناها لهذا الغرض .

وظللت أنا وليليان نواصل العمل دون كلل حتى نتتهى من اعداد الكوخ

وبعد عشرة أيام ، كنا قد أقمنـا أربعة جدران بيضاء ، وصنعنا لهـا سقفا متينا يكفل لنا البرودة صيفا والدفء شتاء ...

لقد أصـبح لنا بيت نعيش فيه ، ومع انه كان بيتا بدائيا صغيرا ، لا يضم غير غرفة واحدة ، ولكنه كان بيتنا نحن ، وهو صالح تماما لنا ..

وقمنا بعـد ذلك باقامة اسـوار تمرح الجياد خلفها ، وبعد أن انتهينا من ذلك ، وصدنا غزالا ، كفل لنـا أول تموين من اللحم الطازج يكفى لمدة أسبوعين ، اصبحنا على استعداد لاستكشاف أملاكنا الجديدة ، التى تبلغ مساحتها ١٥٠ ألف فدان !

بداية لا تشجع

امتطينا صهوة جوادينا ، ومضينا نجتاز أرض الغابة لنرى ما سـوف نملكه من هذه البرارى التى لنا حق الصيد فيها .. ولاول وهلة لم نر ما يشجعنا كثيرا .. كانت هنـاك بقايا السـدود التى أقامتها كلاب الماء ، ولكنها خالية من أصحابها ، وكانت هناك بضع مئات أو الوف من الافدنة من المستنقعات نصف الجافة، لعل بها بعض جرذان المسك هنـا وهناك ، ولكنها ليست بكميات تكفى للصيد ، فلم يكن هناك ماء يكفيها ، وكانت هناك بعض بحيرات مغلقة ، هبط مستوى الماء فيها هبوطا شديدا كانت يوما تحتوى على كلاب الماء وقد عن مستواه الاصلى وفيما عدا الغابة التى لا حد لها ... كان هذا هو كل ما أمامنا لنبنى عليه مستقبلنا ..

ولم يكن لمستنقعات خليج ميلدرام فى حالتها الجرداء الحالية أية قيمة اقتصـادية ، ولـكنها لو غمرت بالماء مرة أخرى ، فان النباتات المائيـة والدرنية سوف تنمو من جـديد لتكون طعاما لجرذان المسـك والطيور البرية والإسماك ، وسيأتى حيـوان المنيك والقنادس وغيرهما من الحيوانات آكلة اللحوم ، ذات الفراء ... واذا كان فراء جرذان المسك لا يسـاوى أكثر من ٨٠ سنتا ، فان فراء «المنيك» يتراوح ثمنه بين ١٥ و ٢٠ دولارا .. فالمسألة ببساطة عبارة عن خلق موطن

لشيء يكون طعاما لشيء آخر .

وكانت عقيدتي أنا وليليان ان الحل النهائي هو اعادة كلاب الماء التي لاتزال جحورها بادية في بحيراتنا ، على الرغم من أنها ظلت مهجورة أكثر من نصف قرن . فان هذه القوارض التي تزن الواحدة منها في كامل نضوجها ٢٧ كيلوجراما ، كانت مهارتها في العمل والبناء واضحة في بقايا السدود التي تراها في منبع كل بحيرة ، وكل قطعة من أراضي المستنقعات ... وكانت تبنيها لا لتوقف تدفق النهر وفقا لمشيئتها فحسب ، بل لكي تكفل لنفسها الماء العذب الذي تعيش عليه .

وقررنا ان نوفر لها الماء مرة أخرى في المستنقعات ، وان نجعل أراضي البراري تنتج ثمارها من جديد ، ولكن تطبيق هذه النظرية عمليا كان يتطلب الحصول فعلا على بعض كلاب الماء وهو أمر ليس باليسير ، وقد علمنا انه لم يبق كلب ماء واحد في منطقة شيلكوتين بأسرها ، بل انه ليس هناك الا عدد قليل جدا في كل كولومبيا البريطانية .. ومن ثم فقد تركنا مسألة كلاب الماء مؤقتا ... ولم يبق أمامنا آلا احتمال واحد .. هو ان نحاول اعادة الماء الى مستنقع أو مستنقعين ..

وقالت ليليان : علينا ان نبدأ اصلاح السدود القديمة بأنفسنا ..

ومر شتاء طويل شاق قبل ان نتمكن من تنفيذ هذا القرار ..

***

وبدت تباشير الربيع الاولى تظهر في الافق .. وجاءت اسراب الاوز تحلق من الشمال ، وفاض النهر ، وذابت ثلوج البحيرة ، وبدأنا نستعد للقيام بالخطوة الاولى . لاعادة اغراق المستنقعات بالماء .. على الا نسلب مصارف الري مافيها من ماء قليل ، وهو امر بدا مستحيلا أول الامر ، اذ كانت المستنقعات الجافة على جانبي النهر تمتص الامطار بمجرد سقوطها وكأنها ورق من النشاف !

وعندما بدأنا نعيد بناء السدود ، قلدنا كلاب الماء ، وقد دل فحصنا للسدود التي أقامتها هذه الحيوانات على أنها كانت تعتمد في الغالب على العصى وغيرها من سقط المتاع ، فأسقطنا فروع الاشجار وبعض النباتات الاخرى والاغصان بعد تشذيب أطرافها ، ورتبناها فوق سطح الماء في شبكة خاصة ، ثم أحضرنا ترابا من حفرة قريبة ورحنا نغمر بها الغصون ، وحرصنا على أن نضع طبقة من الغصون وأخرى من التراب وهكذا .. ورحنا نعمل

ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد آخر ، حتى بلغ طول السد الاول ١٠٥ أمتار وكانت مهمة بنسائه دون محراث أو مجرفة تبدو لا نهاية لها •• ولكنها تمت أخيرا •

ولا شك أن غمر أربعة فدادين فقط من المستنقعات بالماء الى عمق متر ونصف متر عملية بطيئةشاقة ، عندما يكون تدفق الماء القادم اليها أشبه بالرشح ، ولكن القاع الذى يمتص الماء كأوراق النشاف ، تشبع أخيرا ، وبدأت المياه ترتفع فوق سطح السد •• وبعد ثلاثة أسابيع ، بدأت المياه تنسكب من فوق السد ، وساعدنا الجو بأمطار ظلت تتساقط لمدة ٤٨ ساعة بلاانقطاع •• وبدأنا العمل فى انشاء سد آخر بعد الاول ، يبلغ طوله ٨٠٠ متر ، واستغرقت العملية أسبوعا كاملا ، وهكذا جعلنا بضعة فدادين أخرى من المستنقع بحيرة تفيض بالماء ••

وفى أواخر يوليو ، بدأت عشرات من الاعشاب والنباتات المختلفة تبرز فوق سطح الماء فى بركنا الجديدة ، وظهرت أسراب البط البرى تتقدم صغارها بين الحشائش المتماوجة ، وبدأت جرذان المسك تبنى مناطق لطعامها بين أشجار الصفصات التى غمرها الماء •

وفى مساء يوم فى أوائل أغسطس حلقت فوق كوخنا تسع أوزات كندية كانت تطير على ارتفاع منخفض •• وبعد ثوان سمعنا حفيف أجنحتها وهى تهبط فوق الماء •• وأسرعنا الى السد الذى بنيناه ، فشاهدناها وهى تنثر الماء حولها وتثير ضجيجا بأصواتها ••

لقد مرت خمسون عاما لم تستطع خلالها أية أوزة كندية أن تبلل صدرها بمياه هذا المستنقع ••

ان أرضنا القفراء بدأت انتاجها !!

أخطار البرارى

ومرت الاعوام •• وبلغ فيرزى السادسة من عمره ، وبات من الضرورى أن يتلقى بعض التعليم ، ولما كنا على بعد أميال كثيرة من أقرب مدرسة ، فقد أحضرنا الادوات والكتب اللازمة ، وعهدت الى ليليان بمهمة تعليمه بدلا من مساعدتى فى بناء السدود وتحول الكوخ الى قاعة للدراسة خمس ساعات كل يوم عدا السبت والاحد ••

وأنت فى البرارى لا تستطيع قط أن تتجاهل الاحساس بالخطر القائم من حولك •• فهو يكمن بين الاشجار المهتزة التى قد تسقط فجأة على الارض وقد يختفى تحت أسطح الانهار والبحيرات التى يغطيها الجليد بغطاء ابيض ، قد تتفتح فيه ثغرات خادعة

على استعداد لابتلاع كل من يتعثر فيها .. ويكمن فى رياح القطب التى تشيع برودتها الشديدة حتى تخدر القوى والارادة ، وتغرى كل من يتعرض لها بالنوم الذى لا يقظة منه ..

وقد حدث فى الشتاء السابق ، وكان فيزى أصغر من أن يسير وحده فوق الثلوج وينصب الشباك ، ولكنه ظل يلح فى السماح له بالخروج لنصب الشباك لصيد حيوان المنيك على مقربة من الكوخ ، حتى قبلنا ذلك فى النهاية على ألا يبتعد عن المكان حتى نستطيع أن ندركه اذا واجه خطرا ... وكنا نحذره دائما من الذئاب ، كما تقول الام لاطفالها من المدينة : لاتعبروا الطريق قبل اضاءةاشارة المرورالخضراء

وكانت الذئاب تترك آثار أقدامها على جليد البحيرة فى كثير من الاحيان ولكننا قل أن رأيناها لانها لم تكن تخرج الا فى الظلام ، ومن ثم لم يكن أمرها يقلقنا كثيرا .. وحدث فى مساء أحد أيام شهر يناير ، أننى كنت عائدا الى الكوخ لاداء بعض الاعمال المنزلية بعد أن مررت بالشباك ، وعندما بلغت البحيرة المجاورة للمنزل ، رأيت فى طرفها البعيد ابنى فيزى وهو قادم ينزلق فوق الثلوج فى طريقه الى البيت كان لايزال على بعد حوالى كيلو متر ، ومع ذلك فقد رأيت جثة « المنيك » التى تتدلى من يده اليمنى ، فجلست القرفصاء فى انتظاره وأنا أقول لنفسى لقد فزت بعشرين دولارا يافيزى .. ترى ماذا يستطيع طفل مثلك أن يفعل بهذا المبلغ ؟ وفجأة برزت خمسة ذئاب من بين الاشجار ، تسير معا فى طابور واحد دون صوت ، لا تبعد أكثر من مائة متر عن فيزى .. وراحت الوحوش تقتفى أثر الطفل ، وأصغرها يزن أكثر من ٤٥ كيلو جراما ، وان كان يستطيع أن يهزم بسهولة وعلا يزن ٦٣٥ كيلو جراما ..

وتولانى الفزع لرؤيتها ، وأسرعت أجذب بندقيتى بوحى الغريزة ، ولكننى لم ألبث أن أعدتها الى مكانها ببطء ، فقد كان فيزى لا يزال على بعد ٤٥٠ مترا من مكانى ، والذئاب تسير خلفه صامتة كالاشباح ، ولا فائدة من استخدام البندقية من هذا البعد ..

كنت أريد أن أصيح لافتا نظره الى الذئاب .. ولكننى لم أفعل ، فقد كان صياحى كفيلا باثارة الرعب فى قلبه ، وعندئذ يبدأ فى العدو نحوى ، واذا عرفت الذئاب أنه ذعر فسوف تناله بسهولة ..

ولم يكن أمامى الا أن أجلس وأنتظر وتناقصت المسافة بين فيزى والذئاب

حتى أصبحت على بعد ٩٠ مترا منه عندما توقف والتفت خلفه ، فرآها .. ووقف مسمرا فى مكانه !

وبدأت أحرك شفتى همسا .. لا تخف يابنى .. لا تحاول أن تعدو .. تذكر ماقلته لك عن الذئاب والوعول . استمر فى الحركة كأنك صاحب هذه البحيرة كلها .

وبدأت ساقاه الصغيرتان تتحركان مرة أخرى فوق الجليد ، وجثة المنيك تتأرجح من يده الصغيرة .. كان يقترب فى ثبات دون أن يلقى نظرة الى الوراء

وقلت فى همس : استمر فى التقدم فى ثبات .. لا تدعها تخدعك .. اثبت .. اثبت .. وكانت حبات العرق تتساقط على وجنتى وأنا أواصل صلاتى الصامتة ..

وأخيرا وصل فيزى ، بينما توقفت الذئاب على بعد ٢٠٠ متر وهى مازالت بعيدة عن مرمى بندقيتى ، واستولت عليها الخيبة ، فرفع أحدها أنفه للسماء وأطلق عواء حزينا يكشف عن خيبة الامل ، ثم انطلقت الى الغابة ..

ولم أقل شيئا عن الذئاب لزوجتى ليليان !

معونة غير متوقعة

فى أحد أيام يونيو ١٩٤١ امتطيت صهوة جوادى ، وأخذت معى جوادا آخر ، وانطلقت الى نهر ريسك لاعود بزائر . فعلى الرغم من بعد المكان الذى كنا نقيم فيه ، فقد بلغت مسامع مستر روبرتسون المفتش العام لشئون الصيد فى كولومبيا البريطانية أنباء الجهود التى نبذلها لاعادة الماء الى المستنقعات وكان روبرتسون قد كرس ٢١ عاما للنهوض بالحياة البرية ، ومن ثم فقد قرر أن يرى بنفسه مدى ماقمنا به من نشاط ..

لقد تغيرت أشياء كثيرة فى منطقة نهر مليدرام خلال السنوات العشر التى مرت منذ جئنا اليها لاول مرة ، فقد أصبح هناك حوالى ٢٥ سدا لكلاب الماء تحجز الماء ، وملأت جرذان المسك المستنقعات التى عاد اليها الماء ، والتى يتراوح اتساعها بين ٣٠ و٢٠٠ فدان ، وفى الوادى الذى يقع بعد منطقتنا ، أصبح ملاك الاراضى يجدون ماء مصارف الرى ، حتى فى أكثر فصول الصيف جفافا .. ولم يعد ينقص المنطقة غير شىء واحد .. هو كلاب الماء ، وهو شىء لم نكن نعرف كيف نعالجه .

وأمضى مستر روبرتسون أسبوعا وهو يتجول معى فى المنطقة على ظهر الجياد ، يرقب ويدرس ، ولم يكتف بتوجيه الاسئلة الى ، بل انهال أيضا بالاسئلة على صغيرنا فيزى الذى لم

يكن قد تجاوز الثانية عشرة ، لا عن الحيـوانات ذات الفراء فحسب ، بل وعن الحسـاب والجغرافيا والتـاريخ أيضا ٠٠٠

وفى آخر يوم قضاه روبرتسون معنا أخذ يحملق فى بعض المستنقعات وهو يفكر مليا ٠٠ ثم قال لى :

ـ يبدو لى أنك فى حاجة الى بعض المعونة فى العناية بكل هذه السدود ٠ ألم تفكر مرة فيما يحدث لو أن أحدها تحطم ؟ ٠٠ ان اندفاع الماء المفاجىء قد يجرف فى طريقه بعض السدود الاخرى

والواقع أن القلق كان قد خامرنى فعلا بسبب هذا الاحتمال ، والذى لم يتحقق بعد لحسن الحظ حتى الآن ، ولكن الاغصان التى صنعت منها السدود سوف تتآكل فى النهـاية ، وتنهار السدود ٠٠ ولو أن سدا كبيرا تداعى فان بقية السدود لن تتمكن من مقاومة الفيضان ٠٠

وسافر روبرتسون ٠٠ وفى سبتمبر التالى ، عرفنا نوع المعونة الذى كان يعنيه ٠٠ ففى ذات يوم سمعنا محرك سيارة تقترب ، فأسرعنا أنا وليليان لنرى تلك السيارة التى تسير فى طريق لم تقطعه سيارة من قبل ٠

وتوقفت السـيارة أمام الكوخ ، وهبط منها شخص غريب قدم لنـا نفسـه على أنه ماتيشر حارس الصيد التابع لادارة المصـايد بكولومبيـا البريطانية ، وبعد أن شكا من رداءة الطريق الذى أدى الى انفجار عجلتين وتحطيم أحد زنبركات السيارة ، أخرج صندوقا من السيارة وقال لزوجتى :

ـ أين تنوين وضعها ؟

فسألته فى دهشة :

ـ نضع ماذا ؟

فقدم لى رسالة مغلقة ، قائلا : قد يفسر لك ذلك ٠

ومزقت الغلاف وقرأت الرسالة :

« احرسـهما واعن بهما كأنهمـا أطفالك ، فهما يساويان ثقلهما ذهبا ، ولو حدث لهمـا شىء فلن تسـتطيع الحصول على شىء منهما بعد ذلك » ٠٠

وكانت الرسـالة موقعة بامضاء روبرتسون ٠

وقلت بسرعة : كلاب الماء !!

فقال حارس الصيد فى ايجاز :

ـ أجل ٠٠ زوج منها ، عمر أحدهما عامان والثانى ثلاثة ، وقد أمكن صيدهما حيـة بالشـباك فى بحيرة باورون ، ويستحسن وضعهما الآن فى الماء بسرعة

وحملنا الصـندوق الذى يضمهما بعناية تامة ، والقيناهما فى المسـاء ، فانطلقـا بسرعة فى البركة ، حتى اختفيا عن العيون ٠٠

والتقت عيناى بعينى ليليـــان ٠٠ ومنذ تلك اللحظة أدركنا معا أننا لم نضيع يوما واحدا من السنوات العشر الماضية عبثا ٠٠

لقد عادت كلاب الماء الى نهر ميلدرام!

***

وسرعان ما أخذت كلاب الماء تتكاثر ويتضاعف عددها ، حتى ملأت المنطقة وأحدثت هـــذه الحيوانات كثيرا من التغيرات حول بيتنا ، فقـــد ازدادت المنطقة بهاء وجمالا ، وبرزت الاشجار والـــكروم والتوت ، وعادت الدببـــة الســـوداء وجاءت الغزلان من الغابات ترعى طعامها الذى أخذ ينبت من جديد ثم أقبلت أسراب البط والاوز الكندى ترفرف فوق الماء لتلتهم قرون البازلاء المحملة بالثمار ٠

أثمـان الفراء ترتفع الى الذروة

وفى عام ١٩٤٦ اجتزنا مرحلة أخرى ٠٠ لقد ظل الكوخ الصـــغير بسقفه المصنوع من النباتات الخضراء ، وأرضه الخشبية الخشنة ، هو المكان الوحيد الذى نعرفه والذى نســـتطيع تحمل نفقاته ٠٠٠ أما الآن ، فقـــد بدأت الكتل الخشبية تتشـــقق وتتداعى من الاسقف ، وأخذت دعائم الكوخ الخشبية تتآكل ٠٠

لقد حان الوقت لبنـــاء منزل جديد صالح لاقامتنا ، يحوى غرفة للجلوس وغرفا للنوم ومطبخا ، يكون أساسه من الاسمنت ٠٠ ولما كانت أســـعار الفراء قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا خلال فترة الرواج التى ســـادت فى أعقـــاب الحرب الاخيرة ، فقد بدا لنا أننا لن نستطيع بناء هذا البيت فحسب ، بل ان فى اســـتطاعتنا أن نستأجر مقاولا لمساعدتنا فى البناء ٠

وهكذا مضينا نصـــيد ونصيد ٠٠ ونجمع جلودا وجلودا ٠٠ وبعد العشاء نجلس لنجهز الفراء على ضوء المصباح الغازى ٠٠ ومرت شهور لم نعرف فيها لذة النوم قبل منتصـــف الليـــل ، ثم نستيقظ فى الخامسة من صباح اليوم التالى !

كانت كلاب الماء تتـــكاثر بصـــورة أقرب للخيال ، وقد ارتفع ثمن القطعة من فرائها الى ٧٠ دولارا ٠ وقد كفلت لنا أرباحنا من موسم الصيد فى الشتاء سداد ثمن بيتنا الجديد نقدا ، وعندما انتهى اعداده فى منتصف يوليو ، بدا لنا أكبر وأكثر أهمية من قصر بكنجهام ٠٠ ثم اشترينا سيارة جيب صغيرة بدلا من عربتنا القديمة التى قررنا احالتها الى المعاش نزولا على الحاح فيزى ٠٠ وبعد كل ذلك ظل لنا رصيد محترم فى البنك !

البراري لاتزال لها زعانف !

في الشـــتاء التالي ، مرت ليليان بأقسى محنة واجهتها .. وقد بدأت في يوم من أيام الثلاثاء في منتصف سبتمبر عندما كنت عائدا الى المنزل بعـد أن واجهت عاصفة ثلجيـة عنيفة ، فقد أحسست بالضـعف والحمى تجتاح جسمي ، ولا أدري كيف عرفت طريقي الى البيت يومئذ ..

وساعدتني ليليان في الوصول الى فراشي ، ثم دثرتني بأغطية سميكة . وفي الصباح كانت العاصفة قد هدأت حدتها ، ولكني كنت ارتعش وأهذي وقد غمرني العرق . وتوقعت ليليان ان يعود فيزي الى البيت في المساء ، حيث يستطيع أن يذهب بالزحافة لاحضار الطبيب ، وكان فيزي يقوم بنصب شباكه في مكان بعيد ، وقد اتخـذ له مقرا في كوخ صغير يقع على بعد ٨ كيلو مترات من النهر ..

ومرت الساعات بطيئة وأنا غائب عن الوعي ، ومع ذلك فلم يبد أي أثر لفيزي ، وعنـدئذ بدأ القلق يزداد ضغطا على ليليان ، وذهبت بها الافكار كل مذهب .. كانت تخرج كل بضع دقائق لتقف أمام البيت ، تصـغي لعلها تسمع وقع حوافر الجواد الذي يمتطيه فيزي ..

وأخيرا ـ وكانت السـاعة بعـد العاشرة بدقائق ـ سمعت وقع الحوافر فتنهدت بارتياح ، ولكنها مالبثت بعد قليل ان سرت الرعشة في بدنهـا واطلقت من بين شـفتيها صرخة مروعة .

لقد كان الجواد بلا راكب ... ولا سرج ولا زمام ! ...

كنا قد علمنا فيزي منذ بدأ يخرج وحده بالجواد أنه اذا حدث له شيء ، فعليه ان ينزع السرج والزمام عن الجواد ويطلقه حرا ليعود الى المنزل ، وعندئذ نعرف نحن انه في مأزق .

وكان مجرد التفكير في ان فيزي مريض أو جريح وحده في الغـابة أكثر من ان تحتمله ليليان .. وحاولت أن تقنع نفسها بأنه لابد أن يكون في كوخ الصيد ، ولكنها لم تستطع البقـاء ثماني أو عشر سـاعات حتى يبزغ ضوء النهار للتأكد من ذلك ..

وقررت ان تنطلق فورا للبحث عنه .

وركبت الزحافة التي لم يسـبق لها قيادتها بنفسها ، وأسرعت بجنون نحـو كوخ فيزي ، وكان الجليد كثيفة ، والطريق مظلما لايضيئه غير المصباح الصغير الذي تحمله الزحافة وقد تصبب العرق من أجسام الجياد

المتعبة ، ولكن ليليان راحت تضربها بالسوط لتنطلق بأقصى سرعتها .

وعند الكوخ ، وجدت فيزى راقدا بكامل ملابسه فوق فراشه الصغير ، وقد بدا من وجهه الاحمـــر وعينيه التائهتين انه يعانى من الحمى ..

وبذلت مجهودا عنيفا حتى ساعدته فى الوصـــول الى الزحافة ، حيث دثرته تحت الاغطية التى أحضرتها معها ، ومع انها لم تكن قد نامت لحظة واحدة فى الليلة السابقة ولم تسترح طوال النهار .. فقد غالبت شعور الاغماء الذى كان يهددها وراحت تحث الخيل على العدو بسرعة ...

وحاولت ان تختصر الطـــريق بالزحافة فتعبر منطقـــة من البرك تغطيها الثلوج ، ولكن الجياد مالبثت ان تعثرت فى فجـــوة من الثلج فغاصت أقدامها فى الماء ..

واسرعت ليليان تقطع زمام الجياد وتســـاعدها فى الصعود فوق الثلج الصلب ، ثم وضعت فيزى على صهوة أحد الجوادين وامتطت هى الآخر ، حتى وصلا الى البيت فى حالة يرثى لها ..

***

فى مساء أحد أيام يونيو ١٩٥٦ ، بعد عامين من عودتنا الى الاحراش بعد أن تطوعنا فى الجيش الكندى المقاتل فى كوريا ، ذهبنا معا نحن الثلاثة الى ضفاف البحيرة ، حيث جلسنا فى هـدوء نحدق فى ضـــوء الشمس الذاهب ، وهو يختفى وراء أشجار الحور عبر الخليج ..

ان من الصعب أن يصـــدق المرء انه منذ ١٥ عاما فقط ، لم يكن فى كل منطقة شيلكوتين كلب ماء واحد حى ، فى حين أنهـا اليوم لاتكاد تخلو منها بحيرة أو مجرى ماء وأصبحت أسراب هائلة من الطيور تأتى فى خريف كل عام حتى تكاد تحجب وجه السماء ، كما أقبلت القنادس ذات الفراء الناعم الملمس ، وجاءت الوعول البرية الى البرك لترتوى تحت أشجار الصفصاف .. تمـــاما كما كان الحال فى أيام طفولة الجدة لالا ..

لقد تحققت نبوءة العجوز الطيبة .. ولكنها لم تنتظـر لترى المعجزة تتحقق !

تحت عنـوان « مطلوب » نشر صبى فى العاشرة من عمـره اعلانا فى احـدى صحف لنكشير البريطانية قال فيه :

« مطلوب الاتصال برجال كانوا فى السنة الخامسة الابتدائيـة فى عام ١٩٢٣ ، وكانوا يعرفون أبى فى ذلك الحين . والغـرض من ذلك ، معرفة ان كان تلميذا مجتهدا حقا كما يقول لى أم لا .. »

كتاب الشهر

نفوس لا تقهر

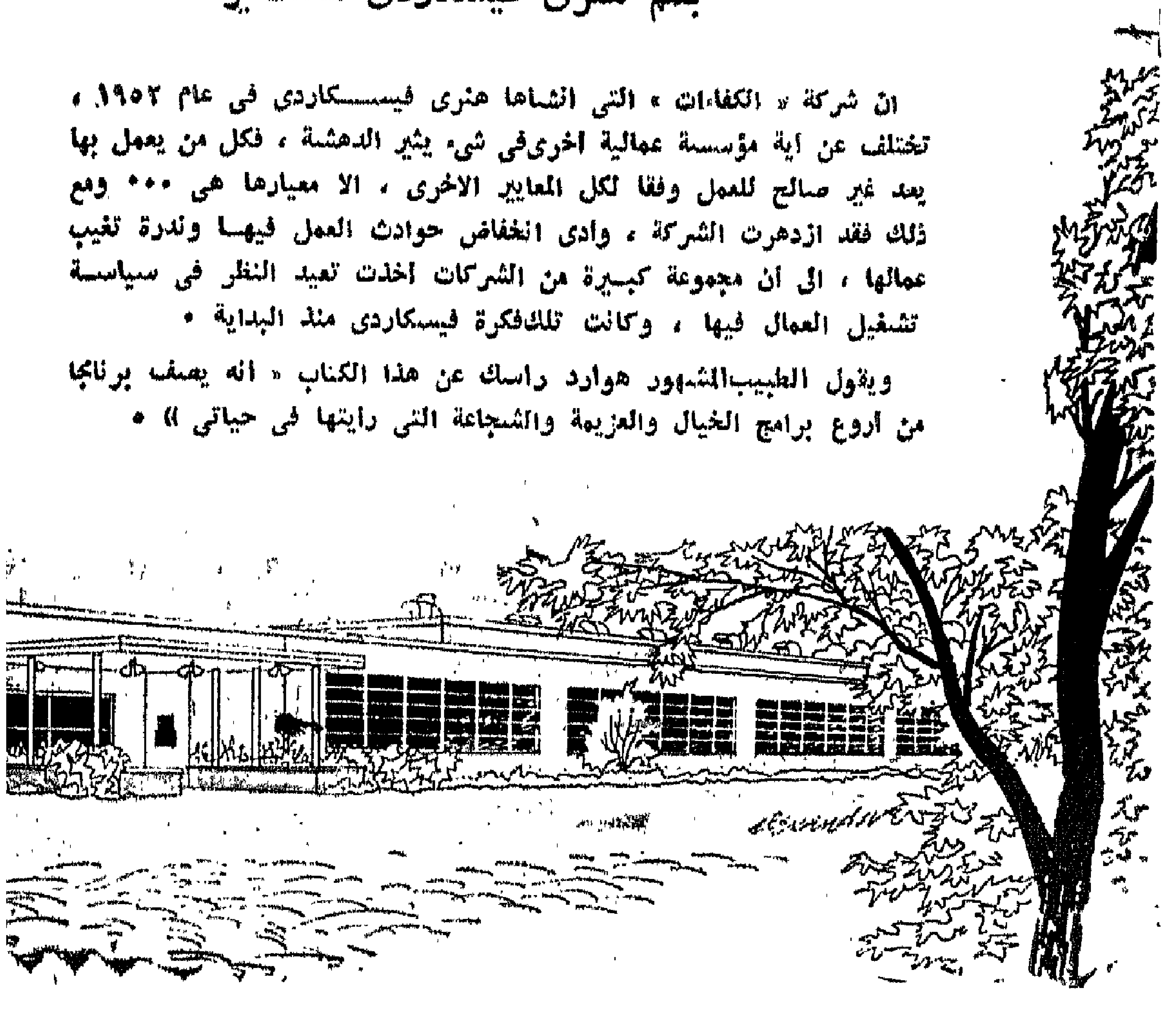
عن كتاب

GIVE US THE TOOLS

بقلم هنرى فيسكاردى الصغير

ان شركة « الكفاءات » التى انشاها هنرى فيسكاردى فى عام ١٩٥٢ ، تختلف عن أية مؤسسة عمالية اخرى فى شىء يثير الدهشة ، فكل من يعمل بها يعد غير صالح للعمل وفقا لكل المعايير الاخرى ، الا معيارها هى ... ومع ذلك فقد ازدهرت الشركة ، وادى انخفاض حوادث العمل فيها وندرة تغيب عمالها ، الى أن مجموعة كبيرة من الشركات اخذت تعيد النظر فى سياسة تشغيل العمال فيها ، وكانت تلك فكرة فيسكاردى منذ البداية .

ويقول الطبيب المشهور هوارد راسك عن هذا الكتاب « انه يصف برنامجا من أروع برامج الخيال والعزيمة والشجاعة التى رأيتها فى حياتى » .



نفوس لا تُقهر



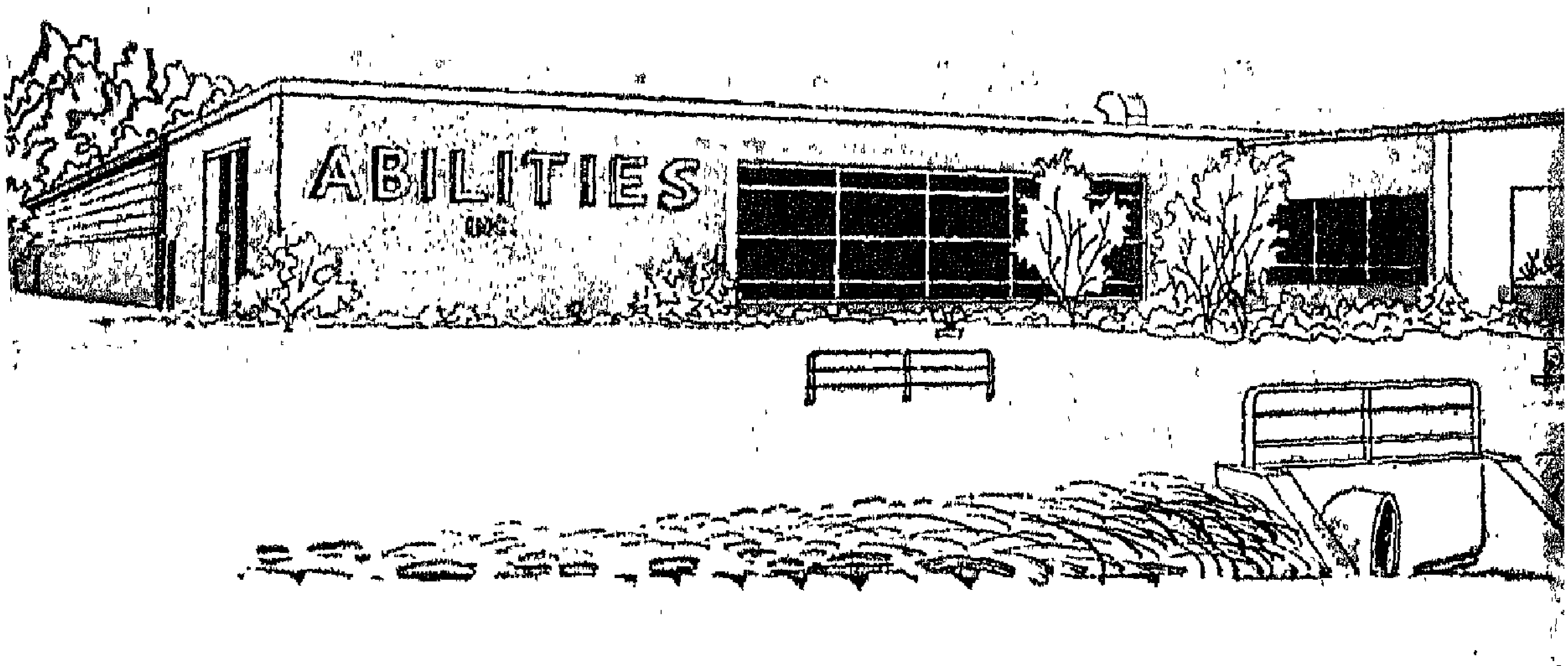
حتى الاعمى يستطيع أن يراها .. أنه يستطيع اذا وقف وسط الورشة الكبيرة بشركة « الكفاءات » أن يعرف على الفور ماذا يدور حوله ...

سوف يستمع الى دقات العصى والعكازات، وأصوات العجلات المطاطية للمقاعد المتحركة وهى تمر ذهابا وايابا ، وسيسمع أشياء أخرى أيضا .. آلات تدور ، ومطارق تدق المعادن ، وأصوات أناس يعملون ..

أجل ... ان الاعمى يستطيع أن يراها بسهولة ، ولن يدهشه أن يجد أناسا من ذوى الكروب وهم يعملون ، ولكن هناك أشخاص غير فاقدى البصر لا يستطيعون رؤية هذه الحقيقة للاسف ، انهم يسرفون فى الاشفاق على ذوى العاهات العاجزين ويغمرونهم بالاحسان ، ثم يديرون وجوههم فى ضيق اذا التمس العاجز عملا منهم .!

من أجل هذا أنشئت شركة « الكفاءات » .. انها مصنع يديره المصابون بالعاهات لصالحهم ، ليثبتوا للمجتمع أنهم قادرون على مساعدة أنفسهم اذا أتيحت لهم الفرصة لذلك

وقد بدأت الشركة فى عام ١٩٥٢ بعامل واحد مصاب بالشلل ، فى حظيرة سيارات كئيبة ، ليس بها شيء من المعدات الضرورية ، وفى خلال خمس سنوات فقط ، نمت الشركة حتى أصبحت تشتغل فى أعمال تبلغ قيمتها مليون دولار ، ويعمل فى مصنعها حوالى ٢٠٠ عامل ، وأتاحت الفرصة



لكلّ رجلٍ وامرأة أن يعيد بناء حياة انسانية كريمة من الانقاض التى بقيت له ، وأصبح كل منهم فخورا بما اكتسبه من مهارة فى عمله ، وأخشى أن أكون أنا أكثرهم فخرا بصفتى مديرا لشركة « الكفاءات »

ولقد قرر عمالنا يوما أن ينشئوا صندوقا خاصا للقروض، يستطيعون الاعتماد عليه وقت الطوارىء ، ولما كان هذا العمل يعد خدمة شبه مصرفية ، فقد أرسلت الينا الادارة الحكومية المختصة بتنظيم هذه المسائل مندوبا للاطلاع على مؤسستنا، وبعد أن شاهد المندوب الحكومى كل شىء ، قال انه يشك فى امكان ضمان القروض التى يمنحها الصندوق ، فسأله أحد أعضاء المؤسسة عن السبب ، فقال مندوب الحكومة :

ـ لان كل العاملين هنا من العجزة فقلت له عندئذ :

ـ سيدى .. هلّ تتكرم بالغناء قليلا بصوت مرتفع ؟

فقال فى دهشة : ماذا تعنى ؟ انى لا أعرف الغناء قط

قلت : تقولّ أنك لا تستطيع الغناء ، وهذا يجعلك عاجزا تماما عن العمل فى الاوبرا ، ولكنك تستطيع أن تمارس مهنتك ، وكذلك نحن .. أن لنا الحق فى أن نعمل وفقا لنفس القواعد التى تنطبق على كل انسان آخر .

واخيرا وافق مندوب الحكومة على أن قروضنا يمكن ضمانها ..

لقد عرفت العجز منذ مطلع حياتى .. فقد ولدت بأطراف مبتورة ، ملتوية شوهاء مكان السيقان ، وفى خلال اعوامى الستة الاولى كان المستشفى هو منزلى الوحيد ، واخذت بعد ذلك اجوب نيويورك بأحذية غريبة الشكل محشوة بالفلين، وكانت ساقاى قصيرتين ، الى حد أن ذراعى كانتا تتدليان حتى تكادا تلمسان الارض ، وقد أطلق على بعض أطفال الشارع الذى كنا نقيم فيه اسم « الرجل القرد » ..

وهكذا تعلمت كيف اكافح فى سبيلّ الحياة منذ طفولتى .. وعندما بلغت الخامسة والعشرين ، كان طول قامتى لا يزيد على ١١٢ سنتيمترا. ثم حدثت المعجزة ، فقد صحبنى طبيب رائع يدعى روبرت يانوفر الى صانع للاطراف الصناعية على درجة كبيرة من الذكاء يدعى جورج دروشر، وتعاون الاثنان معا حتى جعلانى اقف فوق رجلين من الالومنيوم صنعتهما

يد ماهرة .

وهـــكذا أصــبح طولى ١٧٣ سنتيمترا ، وعرف الجميع ما كنت أعرفه أنا منذ زمن بعيد .. وهــو اننى رجل .

ورفض الدكتور يانوفر أن يأخذ منى شيئا مقابل ما فعل ، وقال لى: « هانك » .. قد يأتى يوم تتـــاح لك فيه الفرصة لمســاعدة انسان آخر ، وهذا كل ما أطلبه منك .

واعتقد اننى ســددت كل فواتير الدكتور يانوفر منذ ذلــك الحــين بالطريقة التى ترضيه ..

كانت الدفعة الاولى التى سددتها خلال الحرب العالمية الثانية ، فقــد تطوعت يومئذ للعمل فى خدمة الذين شوهتهم الحرب بمستشفى « ولتر ريد » العسكرى ضمن رجال الصليب الاحمر ، وحاولت أن اثبت لهم أن الحياة بأرجل صناعية يمكن أن تظل شيئا مثيرا مليئا بالمعانى ..

وغادر كثيرون من هؤلاء الشبان المستشفى وقد رغبوا فى تجربة هذا الامر ، ولكن بعضهم كتب لى فيما بعد يقول : « لقد كذبت علينا يا «هانك»» فان أحدا لا يريد أن يستخدم رجلا بلا أطراف »

لقـــد رحبت أوطانهم بعودتهم ، ونظمت لهم الاســـتعراضات وألقيت الخطب وعرضت عليهم الركوب بلا مقابل فى الاتوبيس ، وأعطتهم نقــودا وخمرا ، ولكن أحدا لم يعرض عليهم عملا يقتاتون منه بعد ذلك .

وعندما انتهت الحرب، أحسست بخيبـــة أمل بالغة . وكنت عـلى استعداد لان أنسى مشــكلات غيرى مكتفيا بحل مشكلاتى الخاصــة ، ولاسيما بعد أن التحقت بعمل طيب باحدى شركات الاذاعة، وقد التقيت هناك بحسناء تدعى «لوســيل» كان من حسن حظى أن قبلتنى زوجا لها

وسرعان ما عينت مديرا لاحدى مؤسسات النسيج الكبرى بنيويورك، وأصبح لى مكتب فاخر فى احــدى ناطحات السحاب .. كنت يومئــذ شابا صغيرا ينتظره مستقبل لامع ، وبدا أننى خلفت ورائى المــاضى بكل ما فيه من سنوات المتاعب والاذلال

ثم دق جرس التليفون يوما ، وتلقيت فاتورة أخـرى من فواتير دكتـــور يانوفر !. وكانت الفاتورة فى تلك المرة فى صورة منظمة جديدة ذات أفكار جديدة عن مساعدة العجزة ، طلبت منى أن أعمل مديرا تنفيذيا لها .. وعرضـــوا على ثلث المرتب الــذى أتقاضاه ، مع عمل يزيد على عمــلى

ثلاث مرات

وفكرت فى عشرات الاسباب التى تدعونى لان اقول لهم .. لا ، ولكن زوجتى لوسيل قالت لى :

ـ « هانك » .. انك تريد هـذا العمل! .. اليس كذلك؟ .. فلاتتردد

***

كانت المنظمة التى قبلت العمـل معها تسمى منظمة « فرصـة واحدة لا غير » وهى تابعـة لمعهد التـأهيل الشهير الذى يديره الدكتور «هوارد راسك » بمستشـفى « بل فيو » بجامعـة نيـويورك ، حيث يعمل على تأهيل ذوى العاهات واعادتهم للحياة العادية ..

وبدأت عملى فى مكتب صغير فى (بل فيو) مع مستخدم واحـد ؛ وكانت أيامى ولياليّ زاخرة بالاحاديث والمكالمات التليفونية ، والمحـاضرات التى لا تنتهى فى النوادى وجماعات رجال الاعمـال .. وتدفقت علينـا طلبات الراغبين فى العمل من العاجزين بنسبة مثيرة ، بينما كانت عروض العمل ترد الينا فى بطء ..

وكنا نبتكر أحيانا فكرة استخدام نوع خاص من ذوى العاهات فى أعمال يمكن الاستفادة بهم فيها ، كـذلك البحار الشاب الذى فقد يده ، ولكنه نجح فى العمل فى مطبخ فندق كبير ، لانه كان يستطيع أن يدس يده ذات الخطاف الحديدى فى المياه الساخنة ليخرج الاطباق التى لا يستطيع بقية العمال مجرد لمسها .. كما ان العجز ليست له أهمية فى بعض الاعمال ، فالمحاسب الذى يجلس فوق مقعـد متحرك ، يمكن أن يظهر نفس الكفاءة التى يبديها زميله الذى يجلس فى مقعد مهتز ، والفتاة العمياء ليست اقل كفاءة فى الرد على التليفون من غيرها المبصرة ..

كانت المشكلة الكبرى ، هى مشكلة اعداد بحث ، فمقابل كل شخص كنا نجد له عملا ، كان هناك ١٢ شخصا يصيحون طالبين ادراجهم فى قوائمنا ، ومقابل كل شخص كنا ندرجه فى القوائم ، كان هناك مائة آخرون فى حاجة الى المساعدة .. ومع ذلـك فقد أستطعنا أن نجد عملا لاكثر من الف شخص من ذوى العاهات ..

كنا نحاول حل مشكلة ضـخمة متسعة النطاق ، من مكتب صـغير لا يحوى غير مكتبين وتليفون واحد!

كنت أعمل عملا شاقا ، وبسرعة بالغة حتى اننى لم أكن اجـد الوقت الكافى لابتلاع طعامى ، وقد توسلت الى زوجتى أن أستريح قليلا واتمهل

فى عملى ، ولكن كيف أستطيع أن أستريح وهناك كثيرون يلتمسون الحق فى أن يعملوا ؟

وبدأت أفكر فى انشاء ورشة خاصة ، يستطيع العاجزون أن يعرضوا فيها قدرتهم وكفاءاتهم على الراغبين فى رؤيتها .

وجاءنى يوما شاب تراوده الفكرة نفسها ، وكان اسمه «آرثر نيرنبرج»

كان يسير فى بطء معتمدا على عكازين ، وقد أمسك بيده دفترا ضخما . وبعد أن جلس على مقعد قريب قال لى :

ـ أريد عملا .. أى نوع من العمل .. اننى على استعداد للعمل بلا مقابل لمجرد أن أجد فرصة لاثبات وجودى .

كنت أعرف قصة « نيرنبرج »من قبل .. انه فى الرابعة والعشرين ، وقد أصيب بشلل الاطفال وهو فى منتصف العام الثالث من عمره، وظل يكافح منذ ذلك الحين بساقين مشلولتين وذراع مصابة بشلل جزئى .. وكنت أعرف أن سترته تخفى تحتها طوقا حديديا يسند عموده الفقرى ، ومع ذلك فقد استطاع أن يحصل على دبلوم المدارس الثانوية ، وأن يدرس عامين فى الجامعة . كان يحاول أن يعول زوجته وطفلا من عمل قليل الاجر يقوم به بعض الوقت .

ورأيت فى الدفتر الذى يحمله صورا له فى ورشة لصناعة الاثاث كان قد أنشأها من مال اقترضه من أبيه ، وشاهدت صورا للمقعد المتحرك الذى صنعه لنفسه وأجهزة أخرى ابتكرها لتعويضه عن شلله ..

وسألته عن سبب تخليه عن هذا العمل ، فقال :

ـ لقد أفلست ..

لم يحاول أن يعتذر عن محاولته وفشله ، وشعرت حياله بالحب والاعجاب ..

وقلت له :

ـ حسنا ... أنت تريد عملا اذا ؟

فتردد برهة .. ثم قال :

ـ الواقع اننى أريد أن أدير ورشة أخرى وأن أستأجر عددا آخر من العمال العجزة ...

قلت : قد نستطيع أن نسير معا .. اننى سأبدأ ورشة مثل هذه وأنا فى حاجة الى ملاحظ للعمال

لم يكن عندى مال أنشىء به تلك الورشة يوم قلت له هذا الكلام ، ومن ثم فقد حصلت له على عمل بقسم الانتاج فى مصنع للالكترونات ريثما أبدأ

المشروع ، وعدت أقوم بجـولتي مرة أخرى ، ألقى المحاضرات وأقيم مآدب الغـداء لرجال الاعمـال وأطوف بالمؤسسات والغرف التجارية ..

كنت أريد أن ندير مصنعا حقيقيا يستطيع الرجال والنسـاء فيه أن يكسبوا معيشتهم بالعمل النافع ، وأن يكفل المصنع نفقاته بنفسه ، بل ويدر أرباحا كذلك ..

ووجدت مكانا مثاليا للورشة المطلوبة فى حظيرة للسـيارات فى (وست هامبشير) بنيويورك ، وكنت أمر بهذا المكان كل بضعة أيام للتأكد من بقائه خاليا ، ولكن الايام والاسابيع كانت تمر ، الى أن اتصل بى صاحب الحظيرة يوما وقال لى أن شـخصا آخر يريد تأجيرها .. وعندئذ عرضت عليه أن أستأجرها بعقد قصير الاجل .. فتردد الرجل برهة ، ثم وافق ..

لم يكن لدى مايكفى يومئـذ لشراء العتاد اللازم للورشة أو دفع الاجور ، أو عمل أى شىء ضرورى لتحويل مبنى خال الى ورشة ..

واتصلت بمستر «برستون باسيت» مدير شركة (سيجرى جيروسكوب) التمس المساعدة فقدمنى الى آرثر روث مدير أحد البنـوك ، وكان مهتمـا بأفكارى . وبعد أن أستمع الى برهة ، سألنى :

ــ كم تريد كرأس مال للمشروع ؟

ــ حوالى خمسة آلاف دولار

فهز رأسه وقال : أشـك أنك تستطيع أن تنفذه بهذا المبلغ ، ولكنى سأضمنك لغاية ٤٠٠٠ دولار على شريطة أن تحصـل على ممولين آخرين بمبلغ آخر ..

وتواثب قلبى بين ضلوعى ، فقد عثرت أخيرا على رجل يريد أن يشترى أسهما فى حلمى !

وأسرعت بالاتصـال « بآرثر نيرنبرج » وقلت أننى وجـدت ممولا للمشروع ومكانا للعمل ..

شركة الكفاءات

فكرنا كثيرا فى اختيار اسم مناسب .. كنت مصرا على ألا يتضـمن هـذا الاسم شـيئا عن العجز أو أية كلمة مماثلة تستدر العطف ، وقلت : يجب أن ننسى عاهاتنا ونبدأ التفكير فيمـا يمكننا أن نفعله ، اننا سوف نستغل كفاءاتنا ..

وهكذا قررنا أن نسـمى الشركة ، «شركة الكفاءات» . وجعلنا منها هيئة لاتبغى الربح ، أى أن تنفق أرباحها على برامج لمساعدة العجزة ، وجعلنا «هنرى فيسكاردى » رئيسـا لها ، وشكلنا مجلسا استشاريا يضم كلا من «برستون

باسيتا » و « ارثر روث » وغيرهمـا ، واخترنا للادارة رجالا تغلبوا بنجـاح على المشكلات الخاصـــة بعجز ما فى حياتهم العملية •

وأصبح كل مانحتاج اليه بعد ذلك هو العمل ••

واتجهت أولا الى عملية تجميع أجزاء الاجهزة الالـــكترونية ، فقـد كانت أجورها مجزية ، ويستطيع القيام بها كل من كانت له أصابع ماهرة ، ولو كان أعمى أو فاقد الساقين ••

واستطعت الفوز بأول عقد لنا مع شركة « سـيرفو ميـكانيزم » للاجهزة الالكترونية وكان مطلوبا منا أن نعمل بسرعة بسبب كثرة الطلبات من الشركة خـلال حرب كوريا ، وبدأنا نستأجر عمالا جددا ، ولم نفكر فى الاعلان عن حاجتنا ، فان أصحاب العاهات بدأوا يتدفقون علينا بعد أن سـمعوا عنا ، وهكذا لم يكن يمر يوم دون أن نضيف جديدا الى موكبنا الصغير من العميان وذوى الاطراف المبتـورة ، والمصابين بالعرج ، ولم يكن الاختيار من بينهم سهلا ، ولا سيما أن المكان الذى كنا نعمل به كان لا يتسع لاكثر من ثلاثة!

كان أحد المتقدمين للعمل فتى يدعى « هوراس جونسون » من ضحايا شلل الاطفال ، أصابه الداء فى الثالثـة من عمره ، وأمضى أكثر من نصف حياته فى عنابر المستشفيات • كانت ساقاه مشلولتين تماما ، واحدى ذراعيه مشلولة شللا جزئيـا •• وقد جرب العمل فى مكانين مختلفين ، وفى كل مرة كانوا يطردونه فى خلال أسبوع ، ومع ذلك ظل « هوراس » شـــجاعا واســـتمر يواصل محاولاته •

وسألته : كيف تستطيع أن تستخدم هذين العكازين ؟

قال : أعتقد أننى أستطيع استخدامهما بطريقة ليست سيئة جدا ، ويمكننى أن أقطع بهما شوطا طيبا بسهولة

قلت : سيكون ذهابك للعمل مشكلة فســـوف تضطر الى ركوب سـيارتى أتوبيس والنزول منهمـــا كل يوم ، وتلك رحلة شاقة

فقال : لقد قمت بتلك الرحلة هذا الصباح •• أليس كذلك ؟

ولم أســـتطع أن أرد على حديثه ، وهكذا اضطررت الى منحه عملا ••

وكان هناك شاب آخر يدعى « بيل جراهام » ، مصاب بشلل نصفى نتيجة رصاصة فى الحرب الثانية ، وقد تعلم كيف يقود سيارته بأجهزة خاصـة ، وأتم بنجاح دراسة تجـارية ، وأصبح محاسبا ماهرا ، ولكنه ظل يحاول عبثا أن يجد عملا سنوات عديدة ••

وكان المستخدم الوحيد الذى يستطيع المسير بلامساعدة ، هو «جيم زيزو» ، الذى فقد ذراعا وساقا فى حادث أثناء البناء ، وقد عهدنا اليه بأعمال اضافية ، كتنظيف الورشة ليلا

وأتم « أرثر نيرنبرج » الذى يعمل مراقبا للعمال ، اعداد قائمة عمالنا •:• لقد أصبح لدينا أربعة رجال لهم جميعا خمس أذرع صالحة وساق واحدة سليمة !

لم يكن فى استطاعتنا أن نبدأ الانتاج على الفور ، ومن ثم فقد قمت أنا « ونيرنبرج » بدراسة شاملة سريعة لعملية تجميع الاجهزة الالكترونية على يد « أولى وابارما » الذى أصبح الآن نائبا لرئيس شركة (سبيرى جيروسكوب) ، وقد شرح لنا مع اثنين من مساعديه مايمكن أن تقوم به ورشة صغيرة فى الحقل الالكترونى ، وأعددنا المكان وفقا للرسم الذى وضعه لنا •:• وأصبحنا على استعداد لبدء العمل فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٢.

كان العمل فى بدايته معقدا صعبا يسير ببطء يخيب الآمال ، وكان علينا أن نتم ٢٠ مجموعة من الاطقم كل يوم فلم نتمكن من انجاز أكثر من عشرين فى الاسبوعين الاولين ! •• ولكن رجالنا سرعان ما اتقنوا عملهم وتغلبوا على مشكلاتهم ، واستطاعوا تعويض النقص البدنى بوسائل مبتكرة ، وقد أثبت « أرثر نيرنبرج » أنه انسان موهوب حقا ، فقد كان يبتكر فى كل يوم وسائل فنية جديدة وأجهزة آلية تساعد فى أداء العمل ، وبذلك استطعنا أن نزيد الانتاج وأن نتجاوز المعدل اليومى الضرورى ، واستخدمنا سبعة عمال آخرين •:•

وفى خلال ٨ أسابيع انجزنا العملية كلها ، وعندما سلمناها فى النهاية ، تبين أننا سجلنا رقما قياسيا فى الجودة وجاء عملنا كاملا ، لم يعترض عليه أحد وحصلنا من الشركة على عملية جديدة كبيرة •

كانت الحظيرة مكانا تغمره السعادة ويعج بالنشاط والعمل ، وحصلنا على عقود جديدة ، فاستأجرنا عمالا جددا واضطررنا الى فصل اثنين من عمالنا لانهما كانا كسولين لايحاولان بذل أى مجهود •:• ونشأت الصداقات بين العمال ، وكانت الضحكات والفكاهات تتردد فى أرجاء المصنع الصغير •:•

لمسة انسانية

وبفضل توجيهات « ارثر نيرنبرج » استطاعت أول سيدة عمياء ــ جين زامورا ــ التى تبلغ الخمسين أن تقوم بعملها فى الورشة بسهولة • وفى

خلال الاسابيع التالية ، أضفنا عددا آخر من فاقدى البصر الى مجموعة عمالنا ، وكانت بينهم سيدة تدعى « دينا كريك » ، استطاعت أن تبتكر وسيلة جديدة فى العمل

كنت أستغل قوة أحد العمال فى ناحية ، لاضيفها الى ضعف غيره ، لاحصل فى النهاية على النتيجة المطلوبة وكان كل من فى الورشة على جانب من القدرة ، فهناك رجل يرى ، وآخر يسمع ، وثالث لايزال لديه أصابع فى يده ..

وأصبح لدينا الآن ١٤ عاملا ، وكثير من الاعمال الجديدة ، وأصبحت الحظيرة القديمة تبدو كالمصنع تماما ، وقد طليت جدرانها الداخلية بلون أخضر يشبه مياه البحر ، ووضعت الستائر على النوافذ ، وكان لدينا مطعم صغير وثلاجة وموقد كهربائى ، كما كانت قوائم الاجور تنمو بسرعة أسوة بالانتاج ..

ولكن كان لايزال أمامنا الكثير لنتعلمه .. وكان بعض الدروس مشجعا ، والبعض الآخر مخيبا للامل

كان موقفنا باعتبارنا مؤسسة عاملة لايزال دقيقا ، وكنا فى حاجة الى سيل مطرد من الاعمال الجديدة حتى نستطيع أن نبقى . وكنا نحاول انتاج نوع من البلاستيك يتحمل ضغطا عاليا ، وأنفقنا فى سبيل ذلك كثيرا من الجهد والمال ، وبينما كنا على وشك بدء الانتاج ، ألغى عميلنا عقده معنا ! وأصابنا ذلك بضربة مالية عنيفة !

وفى أثناء الحرب الكورية ، خسرنا حوالى ١٢٠٠ دولار بسبب الغاء عملية خاصة بعتاد حربى ، فى اللحظة الاخيرة وبعد بضعة أسابيع ، أصابتنا صدمة مالية أخرى فى عمل خاص باحدى شركات الطائرات ، لان أحد ملاحظيها أعطانا تعليمات غير صحيحة ..

وعدنا الى العمل المألوف لنا ، وهو عمل الكابلات الالكترونية لشركة « وبرمان » لهندسة الطيران التى يتولى صديقى « دافيد ريتنهاوس » رياسة القسم الصناعى بها ، وقد منحنا عشرات العقود الصغيرة ، وكان يدفعنا الى أعمال أكثر أهمية !

وسار عمل الكابلات على ما يرام لمدة ستة أسابيع ، الى أن اتصل « ريتنهاوس » بى تليفونيا ذات ليلة وقال لى :

ـ تعال فورا يا « هانك » هناك متاعب جدية بسبب هذه الكابلات

وانطلقت سريعا الى الشركة ، وهناك وجدت « ريتنهاوس » وزملاءه وخبراء الشركة يحاولون اثبات ان الكابلات

التى قمنا بصناعتها أقل جودة من غيرها ، وختموا حديثهم قائلين : لن نستطيع الاستمرار فى ارسال هذه العملية الى شركة الكفاءات .

وهكذا تلاشت أمام عينى عملية استغرقت ٢٤٠٠ ساعة من العمل !

لم أستطع أن انطق بأى دفاع ، بل جلست ساكتا أتقبل النقد ... وعندما انتهى كبير المفتشين من نقده ، قلت له :

ـ لماذا لم تذكروا لنا منذ اليوم الاول ان هذه الكابلات ليست صالحة ، بدلا من ان تتركنا نشحن لكم مدة ستة أسابيع ...

ولم يستطع أحد أن يرد على ... وعندئذ قلت :

ـ أعيدوها الينا ، وابعثوا لنا بشخص يرينا بالضبط كيف تريدون صنعها وسوف نصلحها لكم .

كنا عازمين على انقاذ ما يمكن انقاذه من هذا الفشل الذى يعد أسوأ ما واجهنا ، ولذلك أحضرنا مدربا فنيا عظيما ، وأعدنا تنظيم كل العملية ، فقد أصبحت سمعتنا ورصيدنا فى البنك ... بل وكياننا كله معلقا فى الميزان ... وبذلنا جهدا لم تبذله من قبل . وفى النهاية فزنا بعملية أخرى من الكابلات ...

ولكنى كنت أعرف أننا مازلنا نرتكب الكثير من الاخطاء ، ولم يكن من الصعب معرفة السبب ... لقد توسعنا بطريقة ارتجالية سريعة ، ومن ثم فقد أعدنا تنظيم الورشة كلها على أسس سليمة ، وقررنا ألا نلحق عاملا الا بعد أن يمر باختبار دقيق .

والحقت المزيد من الاشخاص بهيئة المكتب ، وعهدت اليهم بمسئولية أكثر ... ولكننا لم ننس الدرس الذى تعلمناه من الاخطاء .

سخرية القائمة الطبية السوداء !

فى أحد الايام ، سلمنى الدكتور « سيدنى جلاسر » ، الطبيب الخاص لصنعنا ، نتيجة دراسة طبية لاخطار تشغيل العمال العجزة ، وجاء فى هذه الدراسة أن نصف أطباء المصانع فى أمريكا يرون انه لا أمان فى تشغيل مرضى القلب ، ويعارض ثلثاهم فى استخدام الاعمى ومبتور الاطراف ، بينما يرفض أربعة أخماسهم استخدام المصابين بالصرع والشلل النصفى والفالج ، وأكثر من الاطباء يستبعدون العامل الذى يعانى من التهابات مفصلية ... وكان لدينا أشخاص من كل هذه الفئات ، والبعض فى حالة أسوأ من ذلك !

وبعد أن طالعت التقرير ، قلت

للدكتور « جلاسر » فى حماســة أن « شركة الكفاءات » انما قامت لــكى تثبت أن هذه القائمة السوداء اللعينة على خطأ تام ...

لقد كنت مؤمنا بان مديرى الشركات يتبعون الوسائل التقليدية ، وأطبــاء الشركات يبالغون فى تقــدير اخطار الحوادث ، فالرجل العاجز أكثر حرصا من غيره أثناء العمل ، لانه يدرك تماما نتيجة الخطأ ، وقد اثبت معدل الامان فى مصنعنا أنه ضعف المتوسط العام فى المصانع الاخرى ...

وكنت فى الوقت نفسه على ثقــة من فائدة النشاط النـــافع فى علاج نفوس هؤلاء العــاجزين ... وكل الامثلة فى مصنعنا تدل على ان العمل يمكن ان يكون عقــارا سريا لامراض الجسم والعقل معا ...

ان كثيرين من عمالنا كانوا فى حالة نفسية يائسة بسبب عاهاتهم وعجزهم حتى كرهوا الدنيا ومافيها ، ولكنهم ما أن جاءوا الينا ، ووجدوا انفسهم قادرين على القيام بأعمال نافعة ، حتى عادت اليهم ثقتهم بأنفسهم ، وتغيرت نظرتهم الى الحياة والمجتمع ...

***

وقد لا يرى البعض فى حيــــاة استر كالدويل أى قصة نجاح ... فقد ولدت عمياء ، وكافحت بشــدة حتى تعلمت ونالت درجة أستاذ فى علم الاجتماع ، ثم أصيبت بالصمم ، ولم يعد فى استطاعتها مواصلة عملها ... وكان عليها أن تكافح مشــكلة ثالثة ، فقد كانت « استر » زنجية ، ومما يدعو للسخرية المريرة ، أنهـا كانت تمنع من دخول أماكن كثيرة ، بسبب التفرقة العنصرية التى لم ترها قط بعينيها .. وظلت بضع سنوات تعيش على الصدقات والاحســـان ، وقد انقطعت بها كل الاسباب التى تعطى للحياة اى معنى ... وأخــيرا كتبت رسالة يائســــة الى « مسز اليانور روزفلت » ، تلتمس منهـــا فرصة واحدة ... وبعثت مســز روزفلت بها الينا ، وكان أول ما يمكن أن نسنده اليها هو عمل فى قســم التعبئة ، وهو ليس أســعد حل لاستاذة جامعية ، ولكنه افضل من لا شىء على الاطلاق !

مشكلة مؤلمة

استطعنا أن نسجل نصرا كبيرا فى خلال عام واحد ... فقد أوجــدنا أعمالا لسبعة وخمسين رجلا وسيدة ، كلهم من النوع الذى لايرضى أحــد باســـتخدامه ، وبعنا سـلعا بمبلغ ١٩١٥٢٦ دولارا ، كان صافى أرباحنا

منهــا ٤٨٠٩٠ دولارا ، وســــددنا لمولينا أموالهــم كاملة ، واحتفظنــا باعتمادات اضــافية للاوقات العصيبة

ولكن نجاحنا خلق لنا مشــكلات مريرة ... ان المقــالات التى ملأت الصحف والمجــلات عن جهودنا ، أتاحت لنا ما كنا نسعى اليه ، وهــو تركيز الضوء على ما يمكن عمله لذوى العاهات والعجزة ... ولكن هــذا النشر جعل طلبات الراغبين فى العمل تنهال علينا بصورة لا قبل لنا بها ، وقد اخذنا نشرح لهم أن « شــركة الكفاءات » لا يمكن أن تكفل عملا لكل عاجز يريد أن يعمل ، فنحن مجــرد مشروع رائد ، يظهر ما يمكن عمله اذا اتبعت دور الاعمال كلها المثــل الذى ضربناه لها ، ولكن المســاكين الذين لجأوا الينا لم يقتنعوا بهذا الشرح ، واضطررت فى النهــاية الى أن أطلب رقما سريا لتليفونى ، حتى أستطيع أن أنام فى الليل .

كانت مديرة المستخدمين عندنا ، حسناء ذات قلب رحيم ، تدعى ايلين فوجان ، وقــد أصيبت بشلل فى نصفها الاسفل ، نتيجة شلل اطفال اصابها فى مطلع حياتها ، ولم يكن فى اســتطاعتها أن تقول « لا » لذوى الحاجات ... كانت تبكى أحيــانا خلال المقابلة ...

نجاح وفير

فى العام الثانى ، واجهت الشركة أزمة سكن حادة ، فقد امتلأت الورشة الصغيرة بأكثر من مائة عامل ، فقد كنا نلحق أناسا جددا بالعمــل كل أسبوع تقريبا حتى ضاق المكان الى حد أنه كان كلمــا التقى مقعــدان متحركان فى أحد الممرات ، توقفت الحركة ! .. وأصبحت اجتماعاتنــا تدور كلها حول الحاجة الملحــة الى مصنع أكبر .

كنا نفكر ونرسم مشروعات جزيئة ، حتى أننى ذهبت ابحث عن الارض والمبانى اللازمة ، فوجدت أن ما نريده يتطلب نفقات كثيرة جدا .. فالاماكن الصــالحة للصناعة باهظة الثمن الى حد خيالى ...

وفجأة تلقينا عرضين غير منتظرين لمساعدتنا ، فقد قرر جماعة من رجال الاعمال أن يمنحونا قطعة أرض كبيرة ، كما عرض علينا اتحــاد البنائين أن يقيم لنا بناء جديدا بلا مقابل ، اذا قدمنا له الخامات اللازمة .

ومع ما فى هذه العروض من اغراء عظيم ، فقد ظللت مترددا ، خوفا من أن نشعر دائمــا بأننا مدينون بشىء لاصحاب هذه العروض ، او أن تصبح

عادة فى الحصول على التبرعات ..

وأخيرا رفضنا العرضين شاكرين، وظللنا نواصل البحث عن مكان نملكه نحن ، حتى وجدنا الحل فى فنـــاء خلفى للورشة ، ووافق صـــاحب المبنى على أن نبنى ملحقا للمصنع القائم مقابل زيادة مناسبة فى الاجر.

وفى نهاية يوليو ، اغلقنا المصنع بمناسبة العطلة السنوية ، ثم عـدنا بعد أسبوعين ، لنجد ورشة أكبر من الاولى أربع مرات ، وقد رتبت فيها الاجهزة فى أماكن مناسبة .

كان المكان الجديد دليلا آخر على أن « شركة الكفاءات » عملية ناجحة .. وازدادت الشركة اتساعا ونظاما ، وتبدد اكثر الجو العائلى القديم الذى كان يسود الورشة الصغيرة .

وفى خلال عامنا الثالث ، كنت أفكر فى توسع جديد ... كنت أريد أن أجعـــل من شركة الـكفاءات مركزا لدراســـة مشـكلات العجـزة وذوى العـــاهات ، ودعوت مجلس الادارة لاجتماع خاص ، وعرضت عليهـــم الفكرة ، ولـكنهم استقبلوها ببرود تام ! ...

وقال أحدهم .

ـ هـــذه دعوة للتبرع .. وأظن أنك ضد هذا الاتجاه يا « هانك » .

فقلت له :

ـ أجـــل . اننى ضـــد التبرع « لشركة الكفاءات » ، فهى مؤسسة للعمل ، أما مركز الابحاث ، فسوف يصبح هيئة مستقلة ، وليس هناك ما يمنع من أن يحصل على هبــات ، كأية مؤسسة أخرى تقوم بخـــدمة عامة ... اننا سوف نحتاج قريبا الى مبنى جديد ، فلنعمـــل على أن يضم برنامجا حقيقيا للبحث والتعليم

وبعد مناقشات أخرى ، رفض المجلس فكرتى ..

وبينما كنت لا أزال احس بالالم لهذا القرار ، تلقيت فى الصباح التالى مكالمة تليفونية من « أولى دا بارما » عضـــو المجلس الذى قال لى اننى عرضت فكرتى على الاعضــاء دون تمهيد ، وأن على أولا أن اتصل بكل عضو على حدة ، لاعرض عليهـــم الوقائع والارقام والبرامج المحددة .

وكان « دا بارما » على حق فعلا ... ومرة أخرى تلقنت درســا فى الصبر والاقناع . ورحت أبحث كل التفاصيل ، ثم اتصلت بالاعضاء .. وبعد شهور وافق المجلس على الفكرة بالاجماع ..

وأطلقنا على المركز الجـديد اسم « اتحاد الموارد البشرية » ، وقد قام

بأموال مستقلة ، وهيئة منفصلة .. وهكذا أخذنا على عاتقنا عملا تعليميا ضخما ...

وحدث بعد احدى المحاضرات التى كنت ألقيها على الجماعات ورجال الاعمال ، أن جاءنى شخص رقيق الحاشية ، قال لى انه مهتم بأمر المركز ، وطلب تنفيذ برنامجنا فى الشركة التى يعمل بها ، وذكر أن اسمه « هاوسر » .. فقلت له :

ـ ما اسم الشركة :

ـ « سيرز روباك » وشركاه ..

وفى خلال أسابيع ، حررت الشركة عقدا للعمل معنا ، استبعدت منه النصوص التى تميز بين ذوى العاهات وغيرهم ، وبعث « هاوسر » كبار معاونيه لزيارة مصنعنا ، واتسعت الحلقة الدراسية بعد ذلك ، حتى أصبحت تضم مندوبين عن عشرات الشركات الكبرى .

سألنى مندوب احدى الشركات الكبرى فى اعجاب :

ـ من اين تحصلون على رجال كهؤلاء؟

فقلت مبتسما :

ـ من قائمة الاسماء التى ترفضونها ...

وانهالت الاسئلة على « ايلين فوجان » مديرة مستخدمينا ، وكان البعض يريد أن يعرف : ما هى الاختبارات التى نستخدمها للاختيار بين الراغبين فى العمل .

فقالت ايلين : اننا لانتبع فى ذلك طرقا علمية . فالذين يأتون الينا ، لا يستطيعون النجاح فى اى اختبار من الاختبارات التى تجرونها أنتم ... وكثيرون من عمالنا أصيبوا وهم أطفال ، واضطروا الى ترك المدرسة فى سن مبكرة ، كما انهم جميعا غير صالحين من الوجهة الجسمانية ، ولكننا نتجاوز عن كل ذلك ، اذا كانوا راغبين فى العمل حقا .

وفى نهاية العام الخامس لشركتنا ، كان العمل قد ازدهر الى حد أننا اصبحنا على استعداد لبناء مصنعنا الكبير .. وقد وجدت بعد بحث شاق المكان الذى اريده تماما ، مساحة كبيرة من الارض تصلح لكل غرض ، تقع وسط ضاحية هادئة ، والى جوارها جدول ماء يشق الغابة القريبة ، حيث يستطيع رجالنا أن يتمتعوا بنزهاتهم خلال فترة الظهيرة .

وسرعان ما بدا بناء املس حديث الطراز تبلغ نفقاته ٦٥٠ الف دولار ، فوق تلك الارض المتسعة ، وقد صنعت الابواب بطريقة خاصة تهيىء

لمتورى الايدى فتحها بسهولة ، كما أصبح لدينا جناح كامل من الغرف الطبية الحديثة التى تحسدنا عليها أكثر المستشفيات .

معمل حى للعاجزين

أصبحنا الآن على استعداد لاستخدام « شركة الكفاءات » كمعمل حى لخدمة الملايين من العاجزين فى أنحاء العالم ، وقد تعهد ستة من الممولين بتأييد « اتحاد الموارد البشرية » بأكثر من ٣٠٠ ألف دولار

كنا نريد أن نعرف الى أى مدى يستطيع العاجز أن يعمل فى أمان وسلام ، وقد اخترنا الدكتور « روبرت ياندوفر » رئيسا للجنة الاستشارية الطبية التى تقوم بهذه الابحاث ، كما عينا الدكتور « الفين سلبيان » مديرا للابحاث الطبية ، وقد اقترح أن نبحث أولا مشكلة المصابين بأمراض فى القلب ، اذ أنها من أكبر المشكلات التى تواجه الطب الصناعى اليوم .

وشمل الاختبار ١٩ رجلا وسيدة كانوا يعملون فى المصنع طوال الوقت، وكان عشرة منهم قد أصيبوا بنوبة قلبية خطيرة ، والباقون من المصابين بصور أخرى من الامراض القلبية ، ومتوسط أعمارهم ٥٠ عاما .. وقد ظل هؤلاء الناس موضع اختبار شهورا طويلة ، استخدمت خلالها كل أداة يعرفها علم الطب ، وسجلت كل التغييرات الطفيفة التى تبدو فى حالتهم ..

وأخيرا قدم الدكتور « سلبيان » تقريره الاول :

كان أحد الرجال قد توفى بسبب تعرضه لعاصفة ثلجية ، كما ازدادت حالة رجل آخر سوءا ، وان كان قد ظل يواصل العمل .. وبدا التحسن على درجات متفاوتة بين ستة آخرين ، بينما ظلت حالة ١١ منهم كما هى دون تحسن او تقهقر من وجهة النظر الطبية ، ولكنهم من الزوايا الاخرى كسبوا سنة ثمينة من الحياة النافعة ، ولم تقع بين هؤلاء العمال جميعا أية حادثة ، كما أن متوسط أجازاتهم المرضية طوال العام لم يزد على يوم ونصف يوم !

ووجد الدكتور « سلبيان » أن هذه النتيجة جديرة بالاعلان ، فنشرها فى مجلة الجمعية الطبية الامريكية ...

ومضينا نحلل عشرات من حالات العجز ، لنضع الترتيبات التى يستطيعون العمل بموجبها ، واختيار أفضل الاعمال لهم ، والآلات التى يمكن أن تعوض عجزهم ، وأسفرت

دراساتنا عن فيض من التقارير ، أوسل الى أكثر من ٥٠٠ شركة ، كما تضاعف عدد الذين يشتركون فى حلقاتنا الدراسية بضع مرات ، وفى خلال عشرة شهور ، زارنا أكثر من أربعة آلاف شخص يمثلون ٤٠ دولة

وفى أنحاء العالم ، راحت منظمات كثيرة تحذو حذونا أو تتأثر بطريقتنا .. فأنشئت ورش لذوى العاهات فى المكسيك وكندا وأستراليا وألمانيا وفرنسا والهند ونيوزيلندا ، وأصبح عشرات الالوف من ذوى العاهات يعملون اليوم دون أن يعرفوا الدور الذى لعبناه فى تغيير حياتهم .

الى أين ؟

دخل «ارثر نيرنبرج» يوما الى مكتبى ليجدنى منحنيا فوق بعض رسومات كروكية ، فسألنى : ماهذا ؟

قلت :

ـ شىء سرى جدا .. انها مشروعات للتوسع القادم .

قال وعيناه تبرقان فى دهشة :

ـ توسع ؟ .. ومتى ؟

ـ لا أدرى .. ولكنه سيتم فى وقت ما .. ربما فى وقت قريب جدا

وبعد أن ألقى نظرة على تفاصيل المشروع ، قال فى لهجة جادة :

ـ انه حلم جميل يا « هانك » .. متى تظن ان هذا الشىء سينتهى ؟

قلت له :

ـ يوم يستطيع كل رجل وسيدة من العاجزين أن يدخل أى مصنع فى أى مكان ، ويحصل على العمل الذى يريده ... عندئذ سوف تضع الشركة لافتة كتب عليها : « انتهت مهمتنا » .. ولكن الطريق لا يزال طويلا جدا ، وقد يتحقق ذلك فى الجيل القادم ..

اننا سنكافح طوال حياتنا .. وكل ما نطالب به ، هو الحق فى أن نكافح.

وطنى !

اتصل شخص بمكتب المباحث الجنائية بنيويورك وقال لهم انه سرق حقيبة من محطة (جراند سنترال) وقد وجدها مليئة بالرسومات والمعلومات العسكرية السرية .. ولهذا قرر اعادتها اليهم بالبريد ..

وختم الشخص المجهول حديثه بقوله :

ـ اننى لص حقا .. ولكننى لص امريكى مخلص !

كتاب الشهر

هاواى

عن كتاب
Some American From Hawaii
بقلم جيمس ا . ميتشنر

لم يثر كتاب من الكتب مثل تلك العاصفة من الحماسة التى آثارها كتاب جيمس ميتشنر الجديد الذى أطلق عليه اسم هاواى . وقد ضرب الكتاب أرقاما قياسية ، فقد بيع منه ١٠٠ الف نسخة وبيع للسينما بأعلى ثمن دفعته هوليوود لقصة من القصص ...

ان كتاب « هاواى » ملحمة عصرية تتحدث عن قصة هؤلاء الذين عبروا البحار الى جزر هاواى من اليابانيين والصينيين والأمريكيين وأبناء جزر الباسيفيك ، ليكونوا سكان الولاية الخمسين من الولايات المتحدة .

الوطن الجديد لأبناء الشمس المشرقة



كان كاميجيرو ساكاجاوا رجلا عريض المنكبين ، مقوس الساقين ، ضخم الوجه ، أسمر البشرة ذا شعر أسود كالليل •• وعندما رحل عن اليابان في عام ١٩٠٢ ليعمل في مزارع قصب السكر في هاواى ، كان ينوى العودة الى وطنه في أقرب فرصة ممكنة ••• كان يعتقد أنه ليس هناك غير الموت شيء يمكن أن يفرقه الى الأبد عن قريته الصغيرة التي يحبها ، وحقول هيروشيما التي تحيط بها الجبال ، وتداعبها أمواج البحر ••

وعندما هبط في ميناء هونولولو ضمن جماعة تضم ١٨٥٠ عاملا يابانيا . قال كاميجيرو للموظف الخاص بشئون الهجرة :

ــ سوف أبقى خمس سنوات فقط

كان كاميجيرو يعرف انه لو استطاع أن يعود الى هيروشيما ومعه ٤٠٠ دولار فقط ، فسوف يستطيع أن يحيا بعد ذلك حياة النبلاء ، وأن يختار لنفسه عروسا من القرية ، فقد كان العمال الذين جاءوا معه يؤكد كل منهم للآخر أن في استطاعة الانسان أن يشترى بأربعمائة دولار ثلاثة حقول جيدة من حقول الارز ، وأن يبنى منزلا كبيرا ، ويشترى كل الثياب التي يحتاج اليها ، وقد عزم كل منهم على أن يجمع هذا المبلغ ليعود به ••

وكان أغلب القادمين في شحنة اليوم سوف يذهبون للعمل في مزارع جزيرة «أواهو» التي تقع فيها هونولولو بينما ركب كاميجيرو وبعض عمال آخرين زورقا صغيرا سار بهم حول شواطيء جزيرة كواى ليلة كاملة أصيبوا فيها بدوار البحر ، حتى أنزلهم على رصيف الميناء ، حيث كان في انتظارهم فارس فارع الطول يبدو في وجهه أثر جرح قديم ، وكان هناك مترجم يابانى ضئيل الحجم يقف الى جواره •••

وقال المترجم اليابانى للقادمين الجدد :

ــ هذا الرجل الذى يمتطى الجواد ، هو مستر هوكسورث المعروف باسم « السوط المفترس » فاذا أديتم عملكم جيدا ، فسيكون طيبا معكم ، أما اذا لم تعملوا جيدا ، فسوف ينهال على رءوسكم ضربا •••

ومضى هوكسورث يختال بجواده بين الرجال ، حتى اذا ما اقترب من كاميجيرو ، رفع وجهه الى أعلى وقال في زئير مخيف :

ــ هل فهمت

فحنى كاميجيرو رأسه ، وعندئذ ربت هوكسورث كتفه بسوطه ،

ثم قاد الرجال الى مجموعة من عربات نقل قصب السكر وصاح فيهم :

ـ هيا اركبوا ...

وسار الموكب متجها صوب الشمال

الجزيرة الحديقة

ورأى الرجال جمال هاواى وبهاءها الكامل لأول مرة .. لقد كتب عليهم أن يعملوا فى جزيرة من أجمل جزر الباسيفيك ، حيث ترتفع الجبال الوعرة الى اليسار ، شامخة بأنوفها فى السماء وقد اكتست بثوب أخضر دائم ... بينما امتد الى اليمين شاطىء مهيب منبسط ، تقطعه خلجان صغيرة عميقة ، وتغمره أمواج تتحطم على الصخور السوداء والرمال البيضاء .

وكانت أكثر المناظر روعة ، هى تلك الارض الحمراء الخصيبة التى تمتد الى ما لا نهاية ... فمنذ ملايين السنين ، أفرغت البراكين طبقات من الحمم التى انبثقت من جوفها ، لتستقر فوق الارض وتصبح صخورا غنية بالحديد .

وما لبث هذا الحديد أن تحلل ببطء حتى أصبح أكواما هائلة من الصدأ المتوهج ، يبرق ويتألق فى مئات من الألوان المختلفة ، حتى اشتهرت أرض كاواى الحمراء باسم «الجزيرة الحديقة»

وفى وادى هاناكاى المطل على البحر عرجت عربات السكر الى طريق رائع الجمال ، تظلل جانبيه أشجار النخيل الباسقة ، وينتهى هذا الطريق الى قصر هوكسورث ذى الاعمدة اليونانية القديمة ، حيث تقيم عائلة « السوط المفترس » التى تنتمى الى أسرة من أعرق الأسر فى هاواى

وواصلت الجماعة سيرها بعد أن خلفت وراءها الحديقة الواسعة ، وبعد مسيرة حوالى نصف ميل ، قادهم ايشى سان المترجم الى مبنى خشبى طويل لا يضم غير غرفة واحدة ، ويحتوى على نوافذ قليلة ، وست موائد وبعض الاسرة الخشبية المتفرقة وكان فى الخارج دورتان قذرتان للمياه وبئر .. ثم حقول السكر الخضراء

وكان هذا هو « معسكر ايشى » الذى عرف باسم المترجم الذى يتولى ادارته ..

تذكر أنك يابانى

عندما ودع كاميجيرو والديه قبل سفره ، قالا له اينما ذهبت فتذكر أنك يابانى وكن فخورا بذلك ..

وسرعان ما أحس كاميجيرو أنه فى حاجة الى تلك القوة الكامنة التى يمنحها له الاحساس بهذا الفخر ..

كان عمال هوكسورث يستيقظون فى الرابعة صباحا ، وبعد أن يتناولوا إفطارهم ، ينطلقون الى الحقول البعيدة ،

حيث يعملون حتى السادسة مساء ، ثم يقفون عائدين ، وكانوا يتقاضون ٦٧ سنتا في اليوم الى جانب المأكل والمسكن ، وفي خلال موسم الحصاد كانوا يعملون ١٩ ساعة في اليوم دون أجر اضافي

وعاد كاميجيرو الى المعسكر عند الغسق بعد يومه الأول في العمل ، وبحث عن مكان يستحم فيه ، ولكن أمله خاب عندما تبين أنه ليس هناك مكان للاستحمام • وفي الليلة التالية شرع يبني مكانا لحمام ساخن •• واستخدم في سبيل ذلك ألواحا قديمة أحضرها من أطراف الحقول ، ولكنه فشل في العثور على قطعة من الحديد المثني لوضعها في القاع فوق النار •• فطلب من المترجم ابلاغ رغبته في هذه القطعة الى هوكسورث •• ولكن السيد الطويل القامة زمجر قائلا :

ـ لماذا تريد هذه القطعة ؟

فقال كاميجيرو :

ـ لكي أبني حماما ساخنا

فقال هوكسورث :

ـ استخدم الماء البارد كما أفعل أنا

ـ لا أستطيع

واعتدل هوكسورث فوق سرج جواده ، ليفحص هذا الرجل القصير الطويل الذراعين ، ثم قال بلهجة تنذر بالشر :

ـ لا تتحدث الي بهذه الطريقة

ولكن كاميجيرو أصر على موقفه قائلا :

ـ ينبغي أن نحرص على نظافتنا

وترجل هوكسورث عن ظهر جواده ، وألقى بزمامه الى أحد خدمه ، ثم صاح وهو يتجه نحو كاميجيرو :

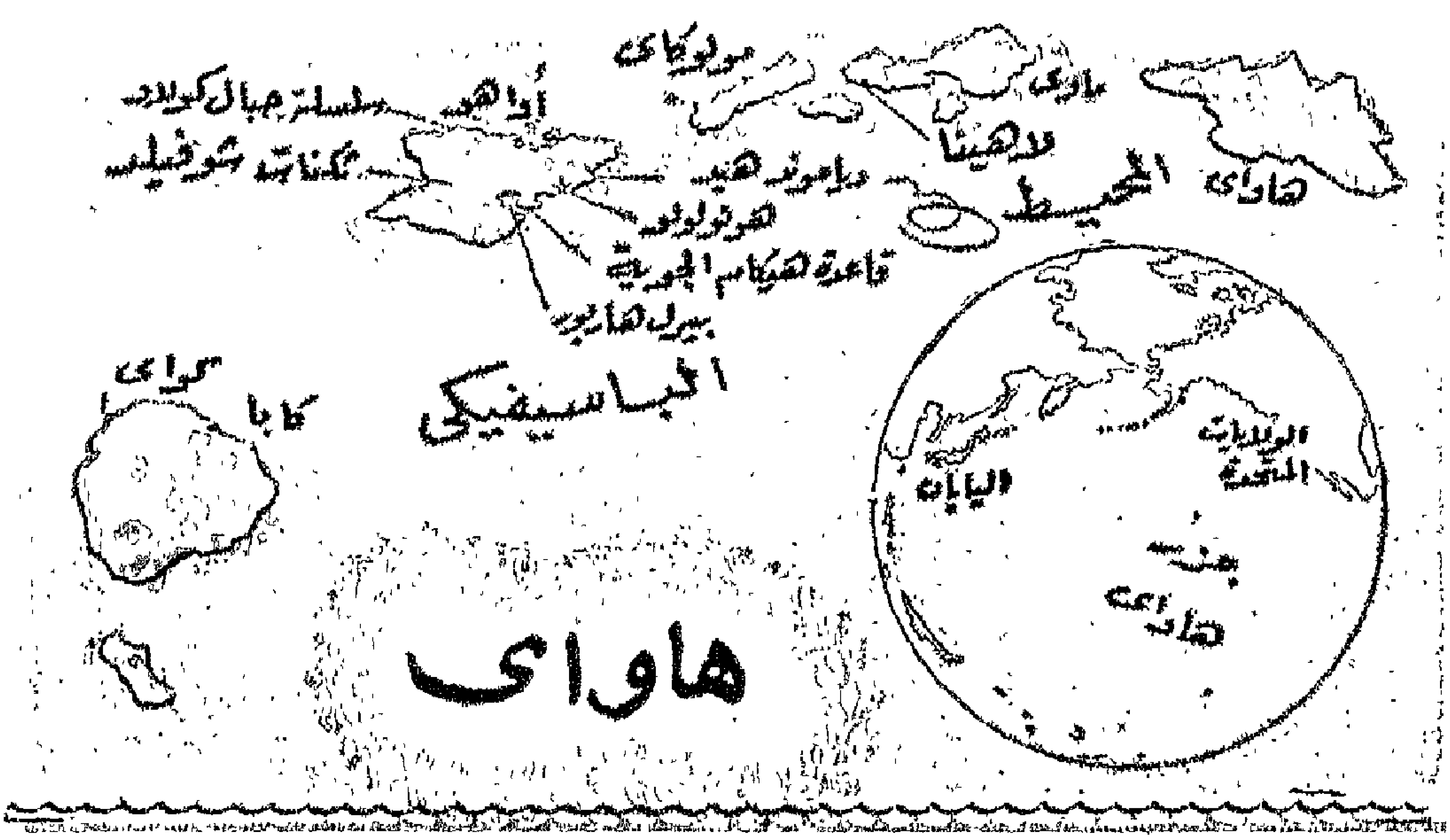
ـ هل تريد أن تثير معركة ؟

ولكنه ما كاد يجذب كتفي العامل القصير ، حتى شاهد العضلات الجبارة التي تبرز من ذراعيه ، وشاهد في عينيه أنه لا ينوي السماح لاحد بلمسه

وساد الرعب بقية اليابانيين خوفا من وقوع اضطرابات ، بينما وقف الرجلان يحدق كل منهما في الآخر •• ولكن التوتر ما لبث أن تبدد عندما تراجع هوكسورث وقال ضاحكا :

ـ حسنا •• سوف تحصل على الحديد الذي تريده !

وبعد أن انتهى بناء الحمام ، وكان عبارة عن حوض مربع يبلغ عمقه مترا و٢٠ سنتيمترا وقد وضع على أرجل خشبية ، قام كاميجيرو باعداد بعض قطع الخيزران لنقل الماء اليه من المضخة وبنى نارا تحت الحديد المثني ، حتى اذا ما سخن الماء ، راح يدق بقطعة من الحديد لاستدعاء عمال المعسكر للاستحمام



كان أول عشرة رجال يستخدمون حمام كاميجيرو يدفع كل منهم حوالى قرش ، ثم يدفع الباقون نصف قرش .. وبعد أن ينتهى الجميع من استحمامهم كان كاميجرو يخلع ثيابه ويستحم بما تبقى من الماء ..

وأتاح له الحمام دخلا اضافيا ، ولكن جمع النقود لم يكن أمرا يسيرا على كاميجيرو على الرغم مما يبذله من الجهد الشاق ... وفى عام ١٩٠٤ وقع حادث غير متوقع أتى على كل ماكان يدخره ، فقد اشتبكت اليابان مع روسيا فى حرب استمرت شهورا ، وجاء أحد الضباط اليابانيين ليجمع تبرعات للجيش الامبراطورى ... واجتاحت موجة الحماسة كاميجيرو ، فتبرع بكل ما ربحه من الحمام .. وكان ٧٧ دولارا

ظل كاميجيرو طوال الثلاثة عشر عاما التالية يستيقظ كل صباح فى الثالثة والنصف ليجمع الاحطاب اللازمة لحمامه .. كان يعمل بينما يأكل الآخرون ، ثم يمسك اناء من الارز وقطعة من السمك ليمضغها وهو يعود الى الحقول .. وفى الليل كان يسرع بالعودة قبل الآخرين ليشعل النار فى حمامه ...

كان يرقب النقود فى أمل ، حتى يجمع منها ٤٠٠ دولار مع أجر السفينة للعودة الى اليابان .. ولكن الطريقة التى كانت النقود تتسرب بها من بين أصابعه كانت تثير هلعه .. لم يكن

السبب في ذلك القمار أو النساء أو الخمر ، بل ان عواطف الصداقة والوطنية هي التى كانت تستنزف نقوده أولا فأولا ، فقد كان كل عامل اذا واجهته أزمة ، توجه الى كاميجيرو يلتمس العون •• ولم يكن كاميجيرو يتقاعس عن ذلك •

***

وكان أكثرانفاقه فىسبيل الوطنية فكلما جاء الى الجزيرة أحد من رجال الدين اليابانيين لجمع تبرعات لاقامة نصب تذكارى لضحايا الحرب أو بناء مدرسة أو معبد أو مستشفى ، كان كاميجيرو لايتوانى فى الدفع • • وهكذا كانت مدخراته تذوب أولا فأولا •••

وبدأ يخشى أحيانا ألا يتمكن من رؤية اليابان مرة أخرى ، وأنيعيش طوال حياته بلا زواج ! وأخيرا قرر فى ربيع ١٩١٥ أنينسى مؤقتا مسألة العودة الى اليابان ، وأن يستغل نقوده فى احضار عروس من أرض الوطن ••

لقد بلغ الثالثةوالثلاثين،والسنوات تمضى أمامه سراعا •••

عروس من هيروشيما

ومع أنه وجد أن زواجه سيكلفه ١٥٠ دولارا ، وسيؤخر جمعالاربعمائة دولار ثلاث أو أربع سنوات أخرى ، فانه ذهب الى ايشى سان وطلب منه أن يكتب له رسالة الى الوطن ليخبر أمه أنه قرر أن يتزوج

وقال ايشى أنه ينوى هو الآخر أن يفعل نفس الأمر •• وكتب له الخطابالمطلوب • وبعد تسعة أسابيع تلقى كاميجيرو ردا من أمه ، وكان فى الرسالة صورة لفتاة رائعة الجمال تدعى سوميكو •••

وسر كاميجيرو سرورا عظيما ،ودعا زملاءه لرؤيةصاحبةهذا الوجه الفاتن والعيون الرقيقه ••• وكان للصورة أثر كئيب فى نفس ايشى سان ، الذى تلقى فى نفس البريد صورة فتاة منالارياف تدعى مورى يوريكو ، بدينة القوام ، ذات وجه مربع ، ضيقة العينين ، فأحس بخيبة أمل شديدة •

وفى اليوم التالى استعار الرجلان الحلة السوداء الوحيدة التي يمتلكها المعسكر وذهبا معا الى«كابا» لالتقاط صورتيهما لارسالهما الى العروسين مع أجر السفر منطوكيو الىهونولولو

وفى أواخر ١٩١٥ تلقى الرجلان اخطارا بأن عروسيهما ستصلان الى هونولولو علىالسفينةاليابانية «كيوتو مارو » ••• وكان هذا النبأ مخيبا

للأمل ، فقد كان المأمول أن تأتي الفتاتان كل منهما على حدة ، حتى يستطيع كل من العريسين مقابلة عروسه مرتديا الحلة السوداء التى ظهر بها في الصورة التى أرسلت اليها • وهكذا تم الاتفاق على أن يرتدى ايشى البذلة ، لانه كما قال كاميجيرو يستطيع القراءة والكتابة !

وانطلق العاشقان بين متحمس وخائف الى هونولولو ، واستأجرا غرفة فى فندق يابانى قذر فى شارع الفندق ..

كانت الفتاة الثالثة التى نزلت من سطح السفينة هى مورى يووريكو ، عروس ايشى سان ، وكانت تبدو فلاحة حقا من هيروشيما ، ووجدها تنحنى أمامه وتقول فى تردد :

ـ اننى أحمل لك حب أمك يا مستر ايشى

أما آخر فتاة من الهابطات فهى سوميكو ، أجمل بنات المجموعة القادمة من اليابان ، ولكنها أحست صدمة عنيفة عندما شاهدت كاميجيرو ... الذى لم يكن يرتدى البذلة السوداء التى ظهر بها فى الصورة ، وكان شعر رأسه مضطربا ، وقد بدت ثيابه ثياب فلاح ، وكان مقطب الوجه ، يبدو أنه أكبر كثيرا مما كانت تتوقعه

وصاحت سوميكو فى اشمئزاز :

ـ كلا .. ليس هذا هو رجلى !

فقال كاميجيرو المسكين وقد بدا عليه ذهول عميق :

ـ اننى ساكاجاوا كاميجيرو ... وهاهى ذى صورتك معى ..

فأسرعت تختطفها من يده وألقتها على الارض ثم وطئتها بقدميها وهى تقول :

ـ لن أتزوج هذا الحيوان ... لقد خدعونى !

وعندئذ نظر ايشى ـ سان الى كاميجيرو وقال له بصراحة مذهلة :

ـ كاميجيرو .. انك أنت ويووريكو تصلحان تماما لبعضكما البعض ... دع لى سوميكو •

ونظرت الفتاة الجميلة الى ايشى ذى الحلة السوداء الذى يبدو عليه أنه انسان مثقف ثم صاحت فجأة :

ـ أجل ياكاميجيرو ... أرجوك ...

وفى حيرة بالغة ، وقف كاميجيرو مترددا برهة .. ثم أحس بيد فتاة أخرى على ذراعه وسمعها تقول له :

ـ لقد عشت مع يووريكو ثلاثة أسابيع على ظهر المركب ، وأؤكد لك أنها أفضل زوجة لك بين كل العرائس ... فخذها •

وانسابت عبرات الفلاحة الذليلة

التى تنكرلها عريسها المنتظر، وأرادت أن تهرع الى ركن الغرفة ، ولكنهـــا تماسكت قليلا ، وانحنت أمام كاميجيرو

وقالت وهى تكافح لتســـيطر على صوتها :

ـ سأكون زوجة طيبة لك •

وتطلع كاميجيرو الى الصورة الملقاة على الارض لآخر مرة •• ثم التقطها وسلمها لصديقه ايشى سان وقال :

ـ سيكون هذا أفضل ••

والتفت الى الفتـــاة الاخرى وقال برقة :

ـ انني أدعى ساكاجاوا كاميجيرو •• وأنا من هيروشيما •

فأجابت :

ـ وأنا اســـمى مورى يوريكو •• وأنا أيضا من هيروشيما •

ـ سوف نتزوج اذا ••

وظل الاثنان طوال السنوات التالية يكتشفان فى كل يوم كم كان كل منهما سعيدا لانه التقى بزميله مصادفة ••

كاميجيرو ناســف الديناميت

كان هنـــاك حلم عزيز يطوى عليه هوكسورث جوانحه منـــذ أمد بعيد ، فقـــد كان يريد أن يصـــلح ممتلكات أسرته من الاراضى الشـــاسعة فى (أواهو) حتى تصبح منتجة كأراضى (كواى) •• وكانت جبال « أواهو » تحجز الماء عن هذه الارض ، مما جعلها صحراء جرداء ، وخطر لهوكسورث أن يفجر نفقا خلال الجبال ، يتدفق منه الماء الى كواى • ولكن أعمال النسف كانت تتطلب رجلا كفئـــا •• وفكر هوكسورث فى كاميجـيرو ، العـــامل اليـــابانى الذى وقف يوما فى وجهــه بحزم وقوة ••

واستدعى هوكسورث اليـــابانى القصـــير الى بيته يوما وقال له وهو يشير الى جبال أواهو :

ـ انني أريد شق نفق طوله ٤٩٠٠ متر خلال هـــذه الجبال حتى نحصل على الماء الذى نريده لزراعة (أواهو) وأريد رجلا يقوم بعملية النسف معى، فهل ترغب فى تعلم هذا العمل ؟

فسأله كاميجيرو :

ـ كم ستدفع لى ؟

ـ دولارا فى اليوم

ـ هذا مبلغ لايكفى لقتل انسان

ـ حسنا •• دولارا ونصف دولار •

ـ انني على اســـتعداد لان أشتغل بعملية النسف

وأصبح هو وهوكسورث من أبرع الناسفين بالديناميت •• كان عمله هو أن يحدث حفرة فى الارض يحشوها بالبارود ، ثم يتراجع بعيدا ، ويفجر المفرقعـــات وكان العمل ســـهلا فى

الاراضى العادية. أماحيث توجدصخور البازلت ، فقد كان يواجه عمليةشاقة وكان الخطر يحـــدق به دائمـا ، اذ يحتمل أن تنهـــار آلاف الاطنان من الاحجـــار فوق رأسه فجـأة ، ولكن كاميجيرو اسـتطاع أن يبرع فى عمله وأن يصبح خبيرا فى هـذا النوع من العمل ..

منزل فى هونولولو

قضى كاميجيرو عامين فى حفر هذا النفق حتى نسـف الجزء الاخــير من صخور البازلت. وهكذا تدفقت سيول من الماء الى السهول المقفرة فى جزيرة أواهو ..

وعرض هوكسـورث على كاميجيرو قطعة أرض فى هونولولو ، ولـــكنه رفض قائلا :

ـ لا أريد أرضا.. لقد وجدت عملا آخر كناسف ديناميت ، وسوف أعود قريبا الى اليابان

فقال هوكسورث :

ـ اذا سأعطيك مائتى دولار بدلا من ذلك .. واذا رغبت فى العـودة مرة أخرى الى كواى فأخطرنى بذلك

وفى خلال السـنوات التالية عمل كاميجـيرو فى مزارع السـكر فى (مالاما) غربى هونولولو وكان يعمل ١٢ ساعة يوميـا مقابل ٧٧ سنتا ، بينما كانت زوجته يوريكو تعمل فى الحقول تاركة أطفالهـا مع الجيران ، حتى اذا ماغربت الشـمس ، اجتمـع شمل الزوجين مع صغارهما ..

ولكن الحيـاة فى (أواهو) كانت غاليـة ، فقـد ارتفعت أسـعار الارز والاسماك وأعشاب البحر ، وأصبحت هناك أربعة أفواه تريد الطعـام ... وبليت ثيابهما حتى أصبحت فى حالة رثة ..

وحدث فى عام ١٩٢١ أن ظهر ايشى سان فى مزارع مالاما وأخـذ يحرض العمال على الاضراب للمطالبـة بأجور محترمة . ووزعت منشورات فى أنحاء هونولولو تدعو الى الاضراب .. وبدأ الاضراب وصعق أصحاب مزارع السكر واتهموا العمال بأنهم من الشيوعيين.

ودام الاضراب سـتة شـــهور لم يكسب العمـــال خلالها غير المتـاعب والآلام .. وعادوا بعد ذلك الى مزارع السكر ، ولـكن كاميجيرو لم يستطع بعد ذلك الحصول على عمل فى المزارع التى كانت تحتفظ بقـوائم سـوداء لمثيرى الشـغب ، وقد وضعت اسمه فى هذه القوائم باعتباره من الخبراء فى نسـف الدينـاميت ، ومن أوثق أصـدقاء ايشى سـان المحـرض على الاضراب !

وعثر كاميجيرو أخيرا على كوخ صغير فى هونولولو تمرح فيه الفيران، وظل عشر سنوات يتنقل بين أعمال غريبة مختلفة ، أنجب خلالها ثلاثة أطفال آخرين ، وكانت زوجته تعمل في غسل الثياب لمساعدته ، بينما كان هو يقوم بتنظيف المنازل بعد منتصف الليل ..

وقرر كاميجيرو المعدم وزوجته (الغسالة) أن يتلقى أطفالهما الخمسة تعليما كاملا ، ويستغرق ١٢ سنة فى المدارس العامة وأربعة أعوام فى جامعة هاواى وثلاثة فى اليابان • ومع أن المبلغ اللازم لتنفيذ هذا البرنامج لم يكن يقل عن ٣٠ ألف دولار ، فان ساكاجاوا وزوجته عندما شرعا فى تنفيذه كانا لا يملكان قوت يومهما !

كان الاطفال الخمسة ينطلقون كل صباح الى مدرسة هاواى بوجوه نظيفة لامعة ورؤوس ذكية ، وقد أصبحت ريكو الاولى فى فصلها فى النحو والرسم والتاريخ ، وقد عزمت على أن تصبح مدرسة ، بينما كان أشقاؤها جورو وتادا ومينورو وشيجيو لا يقلون عنها مثابرة ولا ذكاء ..

وبعد انتهاء المدرسة ، كان أطفال ساكاجاوا الخمسة يسيرون الى معبد شسنتو الياباني ، حيث يجلسون القرفصاء ثلاث ساعات مؤلمة أمام كاهن يابانى يقوم بتلقينهم العلم على الطريقة اليابانية •

كان تعليم الاطفال الحقيقى يجرى فى البيت ، حيث كانت أمهم تعلمهم النظافة التامة فى ثيابهم وأجسامهم ، وكان أبوهم أكثر وضوحا ، فقد كان كاميجيرو لا يعرف فى حياته غير الاستقامة ••• كان يرى العلم منقسما الى طيب وردىء ، وكان شديد التمسك بالنظام ، ولكنه قل أن يضرب أطفاله، واذا كان الكوخ الصغير الحقير قد خلا أحيانا من الطعام ••• فانه لم يخل قط من الحب !

وحدث فى ليلة من ليالى يوليو ١٩٣٨ أن جاء الى منزل كاميجيرو ساكاجاوا الصغير ثلاثة رجال من رجال الاعمال وكلهم ينتمي الى أعرق الاسر فى هاواى •• وقال أولهم ويدعى هوكسورث هيل : اننا أعضاء لجنة جامعية من بوناهو ، ونحن نريد أن نضم لاعبين ممتازين فى كرة القدم الى فريقنا الجامعى ، وقد جئنا نعرض على تاداو منحة دراسية كاملة مقابل انضمامه الى فريقنا •

وقال زميله واسمه هيوليت جاندرز:
ـ اننا نريدك أيضا ياجورو ، ولكن يجب أن تنهى دراستك الثانوية أولا

في مدرسة ماكنيلى •

كان العرض الذى يحمله هؤلاء الرجال الثلاثة يتضمن تعليم تاداو مجانا ومنحه عملا فضلا عن ١٠٠ دولار مقدما لشراء الملابس اللازمة ••

وأخرج أحدهم ٢٠ دولارا وقدمها لتاداو وقال :

ـ لن يكون الامر سهلا بالنسبة لك يابنى ، فليس هناك كثير من اليابانيين في بوناهو ، وستشعر أنك وحيد ••

وجلس كاميجيرو بعد رحيلهم في حيرة غامرة ••

ان بوناهو هى جنة البيض ، وهى أرض محرمة على اليابانيين •• وأدرك كاميجيرو لاول مرة أن أطفاله قد لا يعودون قط الى اليابان •••

من أرض الشمس المشرقة

في عام ١٩٤١ بلغ أولاد ساكاجاوا جميعا سن التجنيد ، وعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها كهنة المعبد اليابانى ، فقد أصر الاولاد جميعا على اعتبار أنفسهم أمريكيين • كان جورو يومئذ في الجيش في ثكنات شوفيلد ، بينما كان تاداو ومينورو في فيلق تدريب ضباط الاحتياط بجامعة هاواى •• أما الاصغر شيجيو فقد تبع هو وشقيقه مينورو شقيقهما تاداو الى جامعة بوناهو بعد أن فازا هما أيضا بمنح رياضية ••

في صباح أحد أيام الاحد في أوائل ديسمبر ، نهض شيجيو في السادسة صباحا ، وامتطى دراجته الى شركة التلغراف واللاسلكى التى يعمل بها في أيام الاحاد لتوزيع البرقيات • وكانت هناك برقية مرسلة باسم هوكسورث هيل في أول دفعة تسلمها في السابعة والنصف ، وماكاد يصل الى منطقة وايكيكى حتى سمع سلسلة انفجارات تدوى في اتجاه بيرل هاربور ، فاعتقد انها بعض التمرينات التى يقوم بها الاسطول •• وارتفعت أعمدة من الدخان الاسود من القاعدة البحرية ، وتبعتها انفجارات أخرى ، ثم رأى طائرات تحلق في الجو في مسالك ملتوية ••

وأجاب هوكسورث هيل بنفسه على جرس الباب ، وتسلم منه البرقية ، ولاحظ شيجيو أن وجه الرجل كان شاحبا وارتعشت يداه وهو يتسلم البرقية •• وكان هناك صوت ينبعث من الراديو الموضوع في احدى الغرف ••

وماكاد هوكسورث يرى شيجيو حتى صاح قائلا :

ـ أنت •• لقد أعلنت بلادك الحرب

على بلادى ياشيجيو •• ان اليابان تضرب هونولولو الآن بقنابلها •

وذهل شيجيو وفغر فاه فىدهشة ويأس •• ولكنه قال :

ـ ان بلدينا واحد يامستر هيل• اننى أيضا أمريكى !

وفى بيت ساكاجاوا ، كان جورو يقضى عطلة نهايه الاسبوع مع أمه، وكانهو أول من أدركحقيقة مايحدث فصاح والقنابل تتساقط من حوله هذه ليست لعبة وأسرع ينهض من فراشه ليطفىء الراديو• ثم التفت الى أسرته وقال باليابانية :

ـ لقد أعلنت اليابان الحرب علينا!

وتجمعت الاسرة فى حديقةالبيت، وراحوا يتطلعون الى السماء ، نحو القاذفات التى كانت تمسرق فوق رؤوسهم ، ورأوا علامة الشمس المشرقة على الطائرات

وصاح جورو : من الافضل أن نسرع الى وحداتنا الآن •

وعند الظهر جاءت دورية من الجنود لتذيع بيانا قالتفيه ان كلاليابانيين معتقلون فى بيوتهم لايغادرونها ••

ان هاواى بعد أن شاهدت أنقاض بيرل هاربور، ظنت أن كل اليابانيين المقيمين فيهامنالجواسيس والمخبرين!

ونقل كاميجيرو معزملائهالىالمعتقل•

لاعلاقة بين اللون والوطنية

ذهب جورو للخدمة مع الفرقة الامريكية رقم ٢٩٨ مشاة ، وظل يعمل ثلاثة أيام بلا راحة فى قاعدة هيكام الجوية • لاعداد أرضها للعمليات الحربية •• ولكن حدث فى يوم ١٠ ديسمبر أن تلقى مقر القيادة برقية تتحدث عن الطريقة التى حاصرت بها ولايه كاليفورنيامن فيها من اليابانيين •• وفى صباح اليوم التالى، وجد الجنود اليابانيون خيامهم وقد أحاطت بها الاسلاك الشائكة ، وارتفع صوت من الميكروفون يقول فى عنف :

ـ أيها الجنود اليابانيون • ابقوا حيث أنتم • انكم محاصرون بالمدافع!

وظل اليابانيونثلاثة أيام يتطلعون الى أفواه المدافع المصوبة منحولهم، ثم قيللهم انه سيطلق سراحهمللعمل فى خدمة دورات المياه وتقشير البطاطس !

وفى الوقت نفسه ، نجا كاميجيرو وحوالى ٣٠٠ يابانى آخرمن المعتقلين من ارسالهم الى معسكر اعتقال فى الجزيرة الكبرى ،بعد أن تدخلبعض المواطنين البارزين للتوصية عليهم •

وخدم تاداو ومينورو عدة أسابيع فى فرقة تدريب ضباط الاحتياط ،

وسرعان ماوجدا نفسيهما موضع شبهة وطردا من الخدمة ، كما طلب من كل الجنود والضباط اليابانيين خلع ثيابهم العسكرية !

وبذل الشبان اليابانيون جهودا جبارة للسماح لهم بخدمة وطنهم الجديد دون جدوى • حتى التقوا بالكولونيل « مارك هويبل » الذى عين لمساعدة القيادة العليا فى شئون اليابانيين بجزر هاواى • وكانت واشنطون تعتقد أن هويبل سيأمر بوضعهم فى معسكر اعتقال فى نيفادا أو احدى الجزر البعيدة ، ولكن هويبل ماكاد يصل الى هاواى حتى خيب أمل الجميع •

كان أول من تحدث اليه فى هونولولو هو رئيس ادارة المباحث الجنائية الذى أكد له انه لم يقع حادث تجسس واحد من أى يابانى غير أعضاء القنصلية اليابانية ، ورأى هويبل ان الشبان اليابانيين يتلهفون على الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية فطلب مقابلة بعضهم ، وكانت نتيجة الاجتماع تكوين فرقة من المتطوعين اليابانيين ، كان فى طليعة أعضائها تاداو ومينورو •

وواجه هويبل انتقادات عنيفة من زملائه الضباط ، ولكن هذا لم يمنعه من اقتراح استخدام فرق المتطوعين اليابانيين فى مقاتلة الالمان •• وقد أثار ذلك دهشة بالغة فى هاواى وواشنطون • • وقال البعض • يابانيون فى الجيش الامريكى ! هذه سخرية بالغة ! •

ولكن رجلا واحدا لم يجد فى ذلك أية سخرية • • لقد قال الرئيس فرنكلين روزفلت بعد أن قرأ تقرير هويبل : ان الوطنية لاعلاقة لها بلون الجلد •• انها مسألة فى القلب •

وهكذا أنشئت الفرقة اليابانية بقيادة ضباط من البيض ، وأطلق عليها اسم الكتيبة رقم ٢٢٢ ، وبدأت تدريبها الاساسى فى معسكر بولوير بالمسيسبى • ولقى اليابانيون اهانات ومتاعب كثيرة من الجنود الامريكيين مما هدد بوقوع متاعب جمة ، ولكن هويبل جمعهم وقال لهم ان أهم عمل لهم هو أن يثبتوا أنهم مواطنون مخلصون وأفضل جنود فى الجيش الامريكى ، وطلب منهم ألا يجعلوا شيئا يحيد بهم عن هدفهم حتى لايعرضوا مستقبل ٣٠٠ ألف يابانى فى أمريكا للخطر

وفى خريف ١٩٤٣ هبطت الكتيبه ٢٢٢ فى ساليرنو بايطاليا ، وهناك واجهوا مقاومة عنيفة من الالمان ، بعد

أن أصدر هتلر أمرا لجنوده ببذل كل جهد لمحو هؤلاء اليابانيين الذين يستخدمهم الامريكيون للدعاية •

ولكن هؤلاء المقاتلين ذوى العيون السوداء المائلة ، والقامة القصيرة ، ضربوا رقما قياسيا في الشجاعة ، وصمدوا فى مواقع كان أشجع الجنود لايستطيعون الا الانسحاب منها •

وأشاد المراسلون الاوروبيون والامريكيون بشجاعة هؤلاء اليابانيين •

وزاد ذلك من حنق هتلر ، فبعث واحدا من أكثر قواده تعصبا للنازية، هو الجنرال سيب شيجل الى الجبهة الايطالية فأمره بالقضاء على الكتيبة اليابانية قضاء تاما •• ونقل شيجل أقدر الوحدات الالمانيه فى ايطاليا الى الضفة الغربية لنهر رابيدو وراء أسوار مونتكاسينو ، فى بقعة اختيرت بعناية تامة ، لتمثل الدفاع الاخير عن روما •

واستخدم شيجل كل وسيلة لتحصين خطوطه في هذه المنطقة ، حتى بدا من المستحيل على أى قوة من الجنود أن تخترقها دون أن تسقط صرعى برصاص الالمان• وبعد أن قام جورو بعمليات استكشاف جريئة وسط خطوط العدو بالاشتراك مع أخيه تاداو وأربعة جنود آخرين ، بدأت معركة رابيدو فى يوم ٢٤ يناير ١٩٤٤ •• حيث شنت الكتيبة ٢٢٢ هجومها فى الساعة الرابعة صباحا،وكان جورو وتاداو يتقدمانها لتطهير الالغام •• ولكن تاداو وطىء لغما مغناطيسيا ، فانفجر فيه ونسفه ومزقه اربا •••

وتكررت محاولات الهجوم على الخطوط الالمانية أربع مرات ، منيت خلالها الكتيبة اليابانية بخسائر فادحة ، حتى استطاع جورو ورجاله فى المرة الرابعة عبور النهر •وفى ٨ فبراير وصلوا الى مرتفعات مونتكاسينو وقضوا على ٢٠٠ وكر للمدافع الالمانية الرشاشة • ونجحوا فى اتخاذ موطىء قدم لهم على قمة الجبل بعد ساعات رهيبة من القتال •

وقد ذاعت شهرة الكتيبه ٢٢٢ فى كل مكان بعد ماأبدته فى مونتكاسينو من شجاعة منقطعة النظير، وفاز رجالها بأكبر عدد من أنواط الجدارة وأوسمة الشرف ورقي جورو الى رتبة ملازم أثناء المعركة ••

وأحس القواد العسكريون أن اليابانيين في حاجة الى فترة من الراحة ،أرسلوهم الى وادى الرون فى فرنسا للقيام بأعمال روتينية

وعمليات مسح الارض فى المرتفعات الثلجية •• واستسلم الالوف من الالمان وبدأت جيوشهم تنهار ولكن الوحدات الالمانية المتراجعةاستطاعت أن تحاصر فصيلة من جنود تكساس فى جيب جبلى رهيب ، حيث لاطعام ولاماء ولاذخائر•• واعتبرت الفصيلة فى حكم المفقودة ، وراح الامريكيون ـ ولاسيما أبناء ولاية تكساس ـ يتابعون أنباءهافى الصحف والاذاعة• وعندئذ طلب الكولونيل هويبل من الملازم جورو أن يعمل على انقاذ هؤلاء الرجال !

وأمضت الكتيبة اليابانية ثلاثة أيام وسط الجحيم ،وهى تشق طريقها خطوة خطوة وسط نيران الالمان وقناصتهم • وفى اليوم الثالث ، دهشت الخطوط الامامية وهى ترى الكولونيل هويبل نفسه يصل لمرافقة جنوده وقيادتهم بنفسه ضاربا بتقاليد الحرب عرض الحائط • وارتفعت روح الجنود المعنوية كثيرا •

وعند الفجر ، أطلق أحد القناصة الالمان النار على المعسكر اليابانى ، فقتل الجندى مينورو ساكاجاوا الشقيق الاصغر لجورو • • وما كاد جورو يرى شقيقه صريعا ، حتى بدأ يفقد عقله ويبكى • • ثم ارتعشت يده اليمنى ••

وانطلق جورو ومسدسة فى يده يتقدم رجاله بين الاشجار ، ونشب قتال يائس باليد خلال الثلاثمائة والخمسين مترا الاخيرة من حافة الهضبة••وقد أبدى شيجو ساكاجاوا شجاعة لانظير لها فى هذا الهجوم ، وقتل وحده ١١ جنديا ألمانيا فى آخر موقع ألمانى ، فرقاه هويبل الى رتبة الملازم •

وتم انقاذ الفرقة المفقودة من جنود تكساس • •

وزحف اليابانيون لتحية جنود تكساس الذين أنقذوهم من الهلاك ، فاستقبلهم هؤلاء أروع استقبال •• وقالوا لهم •• ان لديكم أيها الرجال الصغار شجاعة فائقة •

ولم يشترك الكابتن جورو فى الاحتفال ، فقد كان يعلم أن ثلثى الجنود الذين بدأ الهجوم بهم أصبحوا موتى أو مصابين بجروح خطيرة ••

لقد ضحى بأرواح ٨٠٠ يابانى لينقذ ٢٤١ من أبناء تكساس ! •• ورجاله الذين هبطوا معه شاطىء ساليرنو وكان عددهم ١٨٣ ، لم يبق منهم على قيد الحياة غير ٧ فقط

وصاح قائلا لاخيه :

ـ ماذا يريدون منا أكثر من ذلك

لاثبات ولائنا ؟

كان عقله ينتقل من صـــورة الى أخرى بسرعة،حتى أوشك أن يصاب بانهيار عقلى • • وأصـابته الصدمة الاخيرة بعد أن ســقطت قذيفتان ألمانيتان قـرب الـكولونيل هويبـل فقتل على الفور ••

وارتعشت يدا جـــورو وتاهت نظراته •• فصرخ فى وجوه الجنـود الامريكيين •

ـ لاتقـــولوا اننى يابانى أيهـــا التكساسيون ذوو الشعور الشقراء•

وراح يضرب الرجال الذين أنقذهم، فى وحشية وجنون عنيف ••

وهرع اليه شـيجيو فوجه اليـه ضربة قوية فى فـكه جعلته يترنح كطفل صغير، ثم ألقى عليه اثنان من رجاله غطاء من القماش ، وذهبوا به بعيدا •••

***

وفى عام ١٩٤٦ ،خلال الاستعراض الذى أقيم بميدان كابيولاني بهونولولو احتفـالا بالنصر ، ســار شـيجيو ساكاجاوا وراء حملة الاعلام، وعندما دوى صوت التصفيق فى أذنيـه ، ورأى بزاوية عينه أمه وقد انحنى ظهرها ، وأباه وقد أمســكا أعلاما أمريكية يلوحان بها فى حماسة،أدرك أن كفاحه لم يذهب سدى ••

لقد دفعت أسرة ساكاجاوا ثمنـا رهيبا لتثبت ولاءها لوطنها الجديد • ولكنه كان ثمنا جديرا بالتضحية •

معقــول !

قال القــاضى للسيدة التى تستعد لاداء الشهادة أمام المحكمة :

ـ ارفعى يدك اليمنى

وعلى الفور رفعت السيدة يدها اليسرى،.فقال القاضى :

ـ قلت ارفعى يدك اليمنى •

فقالت السيدة فى اصرار :

ـ هذه هى يدى اليمنى ياسيدى .. لاننى عسراء !

كتاب الشهر

عادوا .. من الموت

ملخص عن

The Big «Bump» at Springhill

بقلم جوزيف ب. بلانك

لن ينسى أحد ممن يعيشون في بلدة « سبرنجهيل » بنوفا سكوشيا ذلك اليوم المشئوم .. يوم الخميس ٢٣ اكتوبر ١٩٥٨ ..

كان الجو بعد ظهر ذلك اليوم جميلا معتدلا ، بينما كان الرجال



المقرر أن يعملوا فى نــوبة الساعة الثالثة .بعد الظهر حتى الحادية عشرة مساء فى المنجم رقم (٢) الذى يقع عند أطراف البـلدة يرتدون ملابس التعدين ، كان عددهم ١٧٤ رجـلا ، وكان أكثرهم يأسف لاضطراره الى الهبوط فى المنجم فى مثل هذا اليوم البديع •• وقد ذهبوا فى استرخاء الى غرفة المصابيح ، حيث تسلم كل منهم مصباح الامان الذى يحوى بطارية مشحونة تكفل له ضــوءا لمدة عشر ساعات ،وبعد أن ملأوا صفائح المياه الخاصة بكل منهم،ركبوا قطار المنجم الذى يتكون من بعض عربات الترولل الخشبية الصغيرة ••

كانوا يضحكون ويمزحون ويغنون وقد قبعوا فى العربات الصغيرة وهى تسير فــوق القضبان التى لايزيد اتساعها على نصف متر ،فوق المنحدر الرئيسى فى طريقها الى المنجم رقم (٢) الذى تستأجره شركة كمبرلاند للسكك الحديدية والفحم ، ويعتبر من أعمق مناجم الفحم فى العالم ، وهو يميل متابعا عروقا غنية من الفحم



الفيبرى الذى يستخدم فى انتاج الاسفلت ، تمتد مسافة ٤٤٨٠ مترا فى باطن الارض ، وتبلغ أعمق نقطة عمودية فيه ١٣٢٠ مترا تحت سطح الارض ..

وبينما كان القطار الصغير فى طريقه الى أسفل، كانت الحرارة ترتفع والجو يزداد رطوبة ،وعند المنحدر الرئيسى الذى يبلغ طوله ٢٣٨٠ مترا ،انتقل الرجال الى قطار ثان ، وخرجت جماعات من الرجال عند المناطق التى تقع على مستوى ٣٩٦٠ و ٤٠٨٠ و ٤٢٠٠ متر ــ حيث توجد طرق توصل من المنحدر الى مناطق الفحم ـ ثم ساروا حوالى ٣٠٠ متر نحو « الجدار » وهو المنطقة التى يجرى استخراج الفحم فيها من عروقه ..

وسرعان مابدأوا يقتطعون الفحم بآلات تعمل بالهواء المضغوط ، ثم يجرفونه فى أحواض معدنية مفرغة، حيث ينقل الى عربات نقل الفحم ..

وفى الساعة الثامنة مساء ، كان النشاط عاديا فى البلدة ــ أسوة بالعمل فى المنجم ـ فقد كان رالف جيلروى عمدة البلدة يفتتح اجتماعا للمجلس البلدى بينما تمارس جماعات الفرقة الاجتماعية التابعة للكنيسة عملها ، وكان هناك اجتماع لاشبال الكشافة ولكنه تأجل ، أما ربات البيوت فقد وضعن أطفالهن الصغار فى الفراش وجلسن لمشاهدة التليفزيون .

وبعد أربع دقائق بالضبط ، حدثت رجة عنيفة أشبه بزلزال تحت الارض فى أرجاء المنجم رقم (٢) وهذه الاهتزازات من الظواهر التى تحدث فى المناجم على أعماق بعيدة ، وتعزى بوجه عام الى الضغط المتغير تحت الارض بسبب أعمال الحفر .. ولكن هذه الرجة حطمت عروق الفحم التى يجرى العمل فيها فى المناطق التى تقع على مستوى يبدأ من ٣٨٤٠ مترا حتى ٤٢٠٠ متر ، وارتفعت الارصفة نحو قضبان السقف الحديدية التى بدت ملتويه وكأنها دبابيس الورق ، وتحطمت عربات نقل الفحم ، وتمزقت الاخشاب المتينة المستخدمة لدعم الاسقف ..

لقد هزت الرجة بقوتها الخارقة كل مبنى فى بلدة سبرنجهيل ، وسجلها جهاز رصد الزلازل بجامعه هاليفاكس على بعد ١١٠ كيلو مترات، وعندما توقفت الرجة ، كانت قد قتلت ٧٥ رجلا ، ودمرت منجما من أكبر مناجم الفحم فى كندا .

ولكن الرجة العنيفة لم تستحق

كل الارصفة فى المنجم ، بل تركت جيوبا ذات مساحات كبيرة تسبيا يمكن أن يظل فيها بعض الرجال أحياء ..

***

ماكادت سولانج ماديسون تحس بالهزة العنيفة وهى تجلس مع ابنتها فى بيتها ، حتى قفزت من مقعدها وهتفت قائلة : ياالهى .. انها الرجة .. وأبوك هناك فى المنجم

وأسرع العمدة جيلروى مع أعضاء المجلس البلدى الخمسة نحو الباب . وقال العمدة بعد ذلك : « لقد كنت أعرف أن ماحدث أسوأ من كل شىء خبرناه من قبل .. »

وفى أنحاء البلدة، تفتحت الابواب، وخرج الكبار والصغار بثياب النوم. ثم بدأ الجميع يعدون فى الشوارع متجهين نحو المنجم .

وعندما أحس جورج كالدر مدير المنجم بالرجة تهز منزله ، هرع الى تليفونه واتصل بالمنجم ، فقال له الملاحظ الذى يقف فى أعلاه : « اننا لانعرف ماذا حدث ، فقد تعطلت الخطوط التليفونية ابتداء من مستوى ٢٣٨٠ مترا حتى أسفل » . ولما كان كالدر نفسه من عمال المناجم القدماء ،فقد انطلق من منزله تسيطر عليه فكرة واحدة .. هى أن يصل الى المنجم ليخرج أكبر عدد ممكن من عماله أحياء .

لم تكن هذه أول كارثه أصابت « سبرنجهيل » .. ففى عام ١٨٩١ وقع انفجار قتل فيه ١٢٥ من عمال المناجم ،وفى عام ١٩٥٦ حدث انفجار آخر قتل فيه ٣٩ عاملا .. ومنذ عام ١٨٨١ حتى ذلك الحين ، قتل حوالى ١٨٠ رجلا فى حوادث انفجار صغيرة وانهيار صخور وهزات داخل المناجم.

ولم يكن هناك مايدعو يومئذ لتوقع حدوث رجة عنيفة فى ذلك الوقت من شهر اكتوبر .

لقد وقعت بعض هزات صغيرة حقا فى خلال الشهور الاخيرة فى باطن المنجم رقم (٢) . مرة كل بضعة أسابيع، كانت تسقط قطعا من الفحم من العروق ، ولكن المنجم كان قد أنشىء وفقا لاحدث فنون التعدين تقدما ، وكان خبراء الحكومة يقومون بفحصه فى فترات منتظمة

ومع ذلك فان كثيرين من العمال كانوا يشعرون بقلق .. وقد قال ميشيناك ـ وهو عامل مناجم مخضرم منذ عام ١٩١٩ ـ انه كان يشعر بالخوف فى كل مرة يهبط فيها ،لان هذا المنجم عميق جدا .. أما لارى

ليدبيتر - الذى لم يرخص له بالعمل فى المناجم الا منذ عام واحد - فكان كلما رأى الهزات المعتدلة تهز الفحم وتسقطه من عـــروقه ، كان حلقه يجف ، وتنفسه يزداد صعوبة ..

وفيما عدا هؤلاء ،فان بقية عمـال المناجم فى سبرنجهيل - وأغلبهم من أصل سكوتلندى وايرلندى وانجليزى وفرنسى - كانوا شـــديدى التعلق ببلدتهم وعملهم ،فهم كآبائهم الذين كانوا أيضا من عمال المناجم ، ولدوا وترعرعوا فى سبرنجهيل ، تلك البلدة التى تقع على سفح تل ،والتى نشأت فى عام ١٧٩٠ ، وكانوا يتوقعون البقاء فيها طوال حياتهم .. وسـبعة أعشار هؤلاء العمال يمتلكون بيوتهم، ولكل منهم سيارة تنتظره عند الباب الامامى لبيته ، وجهاز للتليفزيون فى غرفة الجلوس .. وعلى الرغم من أن عملهم كان قذرا وخطرا ، فانهـم يشعرون أنه يربطهم معا ..

وقد قال لى جورلى كمبت : «اننا على السطح نفتقد روح الزمالة التى نشعر بها فى المناجم ، حيث لاغيرة .. ولا رئيس ولا مرؤوس هناك. ان كلا منا يعتمد على الآخر .. وفى أوقات الازمات ، فان أول ماينبض به قلب الواحد منا ، أن يساعد صديقه ولو كانت فرصة اصابته هو بأذى تصل الى ٥٠ فى المائة »

وقبل أن تصيب المنجم رقم (٢) هذه الرجة الساحقة مباشرة ، كان جورلى كمبت يسير فوق « الجـدار » على مقربة من التقاطع الذى يقع على مستوى ٣٩٦٠ مترا ،ليصلح أحواض نقل الفحم .. وفجأة بدا الرصيف على وشك الانفجار .. وتطاير كل شىء من حوله بصوت رهيب وريح مروعة.

وفى نفس الوقت ونفس المنطقة ، كان جو مكدونالد- الذى شاب شعر رأســه مع أنه لم يتجاوز الثامنة والثلاثين - منحنيا يقتطع الفحـــم بمعوله .. وفجأة وجد عروق الفحم تتجه نحــوه ، وقفزت الارض التى يقف فوقها أكثر من مترين ، وهــوى على الارض وسقط فوق ساقية حوض من أحواض نقل الفحم .. وراح يبحث عن مصـــباحه ، ثم حاول أن ينهض ، ولكن ساقه كانت قد كسرت فى ثلاثة مواضع ، واشتبكت فيمـا سقط فوقها .. وراح يلوح بمصباحه، فشاهد أمامه حائطا صلبا من الفحم والصخر ، فى منطقة كان يعمل فيها سبعة من زملائه، فأطلق صرخة عالية.

وعلى ارتفاع ١٢ مترا من« الجدار» كان ألدريك لوثر على وشك أن يقول

شيئا لهارولد براين عندماوجد نفسه يطير فى الهواء ويصطدم بالسقف . ثم يندفع على الصخور بين غبار الفحم الخانق .. أما ميشيناك فقد كان منحنيا على جاروفه منتظرا وصول عربة الفحم ، فوجد نفسه يندفع الى الامام ويسقط على يديه وركبتيه ، وأصيب بجروح فى كتفه وجانبه الايسر .. وسمع صوتا يدوى فى أذنيه ، فوضع يديه فيهما ، فاذا بالدم يتدفق منهما !

وكان هيو جوئيرو قد أسند معوله فوق رأسه عندما دفعته الرجة العنيفة دفعة مروعة من خلفه ، وقذفت به تحت أحواض نقل الفحم .. أما فريد هنتر فلم يسمع شيئا قط ، بل وجد نفسه يبصق فحما ، ويحاول أن يدفع صخرة ضخمة بعيدا عن ساقيه ، ويتساءل كم من الرجال الذين حوله ظلوا أحياء ؟

***

كان أول عمل قام به جورج كالدر مدير المنجم عندما وصل الى مكانه ، أن يأمر باخلاء منحدرات المنجم ، وهذا يعنى أنه يجب رفع عربات نقل الفحم الى أعلى ، واستبدال عربات الترولى بها ليتمكن عمال الانقاذ من الهبوط فيها الى أسفل .. وفى نفس الوقت اختار كالدر عشرين رجلا من بين مئات المتطوعين ، ليكونوا فريق الانقاذ الاول ، وكان بين هؤلاء سبعة من موظفى المنجم ونقابة العمال ، وموظفى الحكومة ..

وأحيطت منطقة المنحدر بالحبال لمنع الجمهور من عرقلة أعمال الانقاذ .. ووراء الحبال مباشرة كان يقف حشد متزايد من أهالى البلدة ، بعضهم صامت ، والبعض يبكى فى هدوء ..

وتوهجت أضواء المصابيح الكاشفة التى أقيمت بسرعة ، فكشفت الآمال والمخاوف التى ارتسمت على كل وجه .. وفى مستشفى البلدة تمت كل الاستعدادات لحالة الطوارىء ، ووقف كل الاطباء على استعداد لاداء الواجب فورا ، بينما كان هارولد جوردون المدير العام لعمليات الفحم بشركة دومنيون للصلب والفحم ، التى تعد شركة كمبرلاند أحد فروعها ، ينهب الارض نهبا بسيارته قادما من مدينة سيدنى التى تقع على بعد ٤٢٥ كيلو مترا ، وكانت فرق من العمال المدربين على أعمال الانقاذ وسط تجمعات الغازات الثقيلة ، قادمة من مناجم نوفا سكوشيا الاخرى ..

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين مساء ، بدأ جورج كالدر

ورجاله الهبوط الى المنجم رقم (٢) ، واخذوا يتوقفون على طول الطريق لتبادل بعض الكلمات مع العمال الاحياء الذين كانوا يصعدون المنحدر على أقدامهم في ذهول .. وحاول كالدر وزملاؤه الوصول الى المناطق التى تقع على مستوى ٣٩٦٠ و ٤٠٨٠ مترا ولكنهم وجدوها مسدودة بغاز الميثين الذى ينبعث من الفحم ، وعند مستوى ٤٢٠٠ متر كان الغاز اقل كثافة ، فأخذوا يسيرون فى هذا الاتجاه حتى قطعوا حوالى ٢٠٠ متر بنجاح ، ولكنهم مالبثوا أن اصطدموا بجدار من الانقاض والارصفة والقضبان والآلات ، وقد تحطمت كلها ومزقتها الهزة اربا .. فأخذوا يستخدمون معاولهم وعتلاتهم وأيديهم لشق طريقهم بين الانقاض ، ومن ورائهم الدكتور ارنولد بيرون يقوم بفحص المصابين ورعايتهم ، وقد سبق أن اشتغل بيرون بالعمل فى المناجم للحصول على نفقات الدراسة بكلية الطب .

وحوالى الساعة العاشرة مساء كانت عربات الترولى التى تجرها الاسلاك قد نقلت الى سطح الارض كل من استطاع مغادرة المنجم من عمال نوبة الساعة الثالثة ، وأنزلت حوالى مائة من عمال المناجم الاخرى وعمال الانقاذ لبدء البحث المضنى عن العمال الاحياء الذين لايستطيعون الخروج من أماكنهم . !

وبعد ثلاث ساعات ونصف ساعة كان مونسون هاريسون رئيس نقابة عمال المناجم فى البلدة يقود أول فريق للانقاذ ، وقد استطاع أن ينقذ ١٢ رجلا كانوا محبوسين على عمق ٤٢٠٠ متر . وفى الساعة الاولى والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحا استطاع فريق آخر للانقاذ أن ينقذ ١١ عاملا آخرين على عمق ٤٠٨٠ مترا وحوالى الساعة الرابعة صباحا أمكن اطلاق سراح ثلاثة آخرين .

وقبل أن يشرق فجر يوم الجمعة الكئيب الممطر على سبرنجهيل ، كان ٨٠ رجلا قد أنقذوا ولايزال هناك ٩٤ بين قتيل ومفقود .

وبدأت جماعات العمال ورجال الانقاذ يعملون ساعة بعد أخرى بأقصى سرعة لشق الطريق فى الممرات التى سدتها الانقاض .. كان الاخوة يبحثون عن اخوتهم ، والآباء عن أبنائهم ، بينما كان العمال الذين أفلتوا من الموت يتوسلون للعودة الى المنجم للبحث عن زملائهم المفقودين .

كانت المهمة قاسية ، واستخدام

الاجهزة الكهربائية ممنوعا خوفا من حدوث انفجار غازى ، وكان الرجال يعملون وهم يزحفون على بطونهم وركبهم ، بمعاول وفؤوس محطمة، ليشقوا ممرا لايزيد ارتفاعه على متر واحد ،واتساعه على عرض الكتفين ، وعندما كانوا يحاولون اراحة عضلاتهم الموجعة ، كانت ظهورهم وأكتافهم تئن متوجعة من الاحجار والصخور التى تبرز نتوءاتها من حولهم •

وكان لابد من التخلى عن كل عتاد من الصلب فى المناطق التى توجد فيها جيوب من الغاز الكثيف خوفا من الشرارات التى قد تنبعث منه ، ومن ثم اضطر الرجال الى العمل بأيديهم وأيدى معاولهم الخشبية ، وكانوا كلما رفعوا قدرا من الفحم والصخور ، وضعوه فى دلاء الماء ، وسلمه كل رجل الى زميله حتى تخرج من الانفاق ، وفى بعض الاحيان كان عمال الانقاذ يبكون من فرط مانالهم من ارهاق •

كان التقدم بطيئا قاسيا ، لايزيد أحيانا على ثلاثة أمتار فى ثمانى ساعات، وعلى الرغم من احتمال حدوث رجة أخرى عنيفة ، او انهيار بعض الانفاق، أو تجمعات الغاز الكثيفة التى تهدد عمال الانقاذ تهديدا مستمرا ، فان أحدا لم يعبأ بذلك ، فالعمل يجب أن يتم ، وكل عامل مفقود يجب البحث عنه •

وعند ظهر الجمعة ، خرج هارولد جوردون المدير العام من المنجم،واعلن والدموع تنساب من مآقيه انه ليس هناك أمل كبير فى انقاذ العمال الذين لا يزالون مفقودين ، ولكن بعض من كانوا يقفون فى الانتظار تحت الامطار المنهمرة ، رفضوا الاستماع الى هذه الاشارة والعودة الى بيوتهم ، بل ظلوا واقفين فى صمت ••

وقال جيلروى العمدة ردا على نظرات الاستفسار التى توجهها اليه زوجات العمال :

ـ يجب أن نصلى لله ••

وفى يوم الاحد ـ أى بعد الكارثة بثلاثة أيام ـ اعترف المسئولون بينهم وبين انفسهم بوفاة كل العمال الباقين فى المنجم ، ولكن جونى كالدر كبير الميكانيكيين فى المنجم وشقيق مديره كان له رأى آخر ، فقد قال لأخيه :

ـ سوف نعثر عليهم أحياء •••

اننى واثق من ذلك •

وفى منازل العمال المفقودين كان الشعور يتأرجح بين اليأس الخالص والأمل المهتز •• ان مرجريت جوتيرو لم يكن فى استطاعتها أن تأكل أو

تنام ... كانت تنتقل فى قلق من جار الى جار ، وتذهب أحيانا الى المنجم لتقف مع بقية النساء .. وقد ذكرت فيما بعد : « فى يوم الاثنين كنت على ثقة من أن زوجى لن يخرج حيا .. وقلت لطفلينا أنه مات ، وقمت باعداد ترتيبات الجنازة ، ورفعت بعض أثاث غرفة الجلوس لأعد مكانا للتابوت » ..

أما مرجريت كمبث فقد كان يخامرها احساس دفين بأن زوجها جورلى لايزال حيا ، ولهذا كانت تترك أنوار البيت مضاءة كل ليلة ، وتقول لمن يسألها :

ـ ليس من اللائق أن تطفىء أنوارك وأنت تتوقع عودة شخص ما الى المنزل!

وكانت سولانج ماديسون تتأرجح بين اليأس والرجاء ، وقد راحت تذكر قصص الحوادث التى اعتاد أبوها أن يقصها عليها عن المناجم ، وكيف أن رجلا قتل فى حين أن زميله الذى يقف الى جواره لم يصبه أى خدش .. وعندئذ تتساءل : ترى أى الرجلين سيكون زوجها ؟

***

كان بوزى ماديسون قد دفن على عمق أكثر من ١٥٠٠ متر من سطح الارض ، وتحطم مصباحه الموضوع فى خوذة رأسه ، فجلس مذهولا حائرا فى أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن سمع صوت زميله الشاب لأرى ليد بيتر الذى حبس وسط مكعب من الصخور المنهارة وهو يصرخ قائلا : « ساعدنى يا الهى .. لا تتخل عنى » ... ثم شاهد جورلى كمبث وهو يزحف صوب ليدبيتر ويوجه اليه ضوء مصباحه من خلال ثغرة لا يزيد اتساعها على نصف متر .. ثم سأل ليدبيتر :

ـ هل أنت مصاب ؟

فقال الشاب : كلا ..

ـ وعندئذ طلب اليه كمبث أن يخرج . ولكن ليدبيتر كان قد تجمد فى مكانه من الرعب ، ولكى يضطره كمبث الى التغلب على هلعه ، قال له : « ابق مكانك اذن » ، وبدأ يزحف بعيدا عنه .. ونجحت الخدعة ، وبعد ثوان قليلة خرج ليد بيتر من المكان الذى قبع فيه!

واكتشف بوزى ماديسون بعد ذلك أن كاليب راستون وليفى ميللى على مقربة منه ، بينما كان جو مكدونلد على بعد ٢٠ مترا بعدهما يصرخ طالبا العون ، فزحفا اليه وهما يتحركان فى حذر قدر الامكان ، واستطاعا أن يسحباه مسافة تسعة أمتار ، فوق الانقاض الى بقعة أكثر أمانا ، وقد استغرق ذلك منهما ساعة ...

كان الألم الذي يحس به جو في ساقه يعذبه ، فقد كان صوت عظامه المكسورة أشبه بصوت الزجاج المحطم عندما يحرك ساقه بيده ، واستحال لونها حتى أصبحت سوداء بسبب النزيف الداخلي ، وعلى بعد أمتار قليلة منه ، كان ميشيناك يرقد وهو يئن من الألم الذي يحس به من كتفه المخلوعة وضلوعه المحطمة ..

وبعد بحث شاق مؤلم عن الموتى والاحياء ، اكتشف الرجال أن هناك ١٢ شخصا منهم لايزالون أحياء ، هم براين وجوتيرو وهولواي وهنتر وكمبث وليدبيتر ولوثر ومكدونلد وماديسون وميشنياك وميلي وراشتون .. ثم تباحثوا معا في الخطوة التالية التي يجب عملها ، فقال ميشيناك :

ـ سأبقى مع مكدونلد ، فهو لا يستطيع الحركة .. خذوا أنتم مصباحي وحاولوا أن تجدوا طريقا للخروج ، فاذا استطعتم ، فاستمروا في السير ثم ابعثوا لنا نجدة وتذكروا ان هناك غازات ، فاحرصوا على حني رءوسكم .

ـ وتفرق الرجال العشرة الى ثلاث جماعات للبحث عن منفذ للنجاة في أعلى « الجدار » وفي أسفله ، وفي المستوى الأفقي ... وتولى لوثر قيادة راشتون وبراين نحو أعلى الجدار وهم يزحفون فوق الانقاض فتتمزق جلود أيديهم وركبهم ، وبعد أن تقدموا ٤٢ مترا ، أصاب لوثر جيبا غازيا ، فتهاوى على الارض وكأن أحدا ضربه على رأسه ، وسحبه زميلاه بعيدا .. ثم حاول براين التقدم ، ولكنه مالبث أن سقط هو الآخر (*)

ولم تصب الجماعتان الاخريان نجاحا في بحثهما .. كانوا يزحفون على بطونهم وركبهم ، ولايكادون يشقون طريقا حول أجزاء المنجم المحطمة ، حتى يجدوا أمامهم جدارا من الصخور الهاوية لا يستطيعون النفاذ منه ..

وفي ساعة مبكرة من صباح الجمعة ، كان كمبث يحمل المصباح الوحيد الذي ظل يبعث نوره ... وقال لوثر : يجب أن نحصل على بطاريات من الموتى ..

ووجدوا جثة قريبة ، وكان لا بد من احتضان الميت للوصول الى صندوق البطارية المعلق في حزامه من الخلف ،

وظهرت بعد ذلك مشكلة الماء .. ففي خلال التوتر الذي تلا الرجة المشئومة ، استهلك الرجال أغلب الماء الباقي معهم دون وعي ، وراحوا ينقبون بين الانقاض باحثين عن صفائح المياه التي كان يحملها الموتى ... وفي

مساء الجمعة كانوا قد جمعوا حوالى لترين من الماء ، عهدوا الى كمبث بمهمة توزيعهما ، وكان كل رجل منهم يأخذ كل أربع ساعات حوالى ١.٥ سنتيمترا مكعبا من الماء .. وكانوا يتبادلون مهمة نقل كمية مماثلة من الماء الى زميليهما مكدونلد وميشيناك فى المكان الذى رقدا فيه ... وهى رحلة كانت تستغرق كل مرة خمس عشرة دقيقة فوق أنقاض مدينة الحواشى

وفى مساء السبت لفظ مصباح كمبث أنفاسه الاخيرة ، وغرق الرجال فى ظلام دامس ، فقبعوا جميعا فى سكون ، وقد سبح كل منهم فى أفكاره

كان لوثر يرقد ورأسه بين ذراعيه وقد استولى عليه اليأس والفزع ..

ورفع لوثر رأسه وأخذ يلح على رفاقه ليحاولوا الخروج قائلا لهم : اذا لم نفعل ذلك فانهم لن يعثروا علينا الا وهم يرفعون الانقاض ، بعد أن تضيع الفرصة ..

ولكن كمبث جادله قائلا : لافائدة من الحفر بعد ذلك .. فلم تبق غير كمية ضئيلة جدا من الماء ، وقد زاد ضعفنا ... اننا نعرف أنهم يحاولون الوصول الينا ، فعلينا أن ننتظر ..

وعندما سأله براير عما سيفعلون للحصول على الماء ، قال كمبث :

ـ علينا أن نشرب بولنا ..

وأثار هذا الرد ضحك الجميع .. ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا فجأة أن الأمر ليس مزاحا . واجتاحهم شعور شامل بالمحنة التى تحيط بهم .. انهم على بعد حوالى ١٥٠٠ متر من سطح الارض ، ليس معهم طعام ولا ماء الا مايكفى لبل شفاههم يوما أو بعض يوم ، والموت يرفرف من حولهم لايستطيعون الفرار من رائحة الجثث الرهيبة وهى تتحلل حيث رقدت .. وليس أمامهم الا احتمال موت بطىء ملىء بالعذاب ..

وبدأ كاليب راشتون يتمتم بتراتيل دينية .وقبل أن ينتهى من أنشودته، كانت الجماعة كلها تصلى فى صمت ،

واستمر لوثر يشكو من الجمود والخمول ، حتى وافق رفاقه على أن يتناوبوا فيما بينهم الدق على أحواض الفحم المحطمة بمعول مكسور حتى يعرف المنقذون مكانهم ... وبينما كان كمبث يتجول فيما حوله ، اذ كشف أنبوبة هواء قطرها حوالى ٥.٥ سنتيمترا ، كانت فوهتها المحطمة تبرز من بين الانقاض الى مسافة ستة أمتار ...

وراح الرجال يزحفون بين فترة وأخرى الى مكان الانبوبة للدق

عليها ثلاث عشرة مرة ، اشارة الى وجود احياء على مستوى ٣٩٦٠ مترا ... وكانت تلك مهمة كريهة ، اذ أن المنطقة الخالية حول الانبوبة كانت محدودة ، وأية حركة من الصخور أو الفحم يمكن أن تسحق رجلا أو تحبسه في مكانه .

وفي خلال فترات السكون ، كان الرجال يصغون الى أصوات النجدة وهي تقترب ، وفي بعض الاحيان كانوا يسمعون دقات أو حفرا في أعلى « الجدار » ، وكان كل صوت يتردد في آذانهم يجعل قلوبهم تتواثب بالأمل والرجاء ... ثم يسألون أنفسهم :

ـ ترى هل هذه اصوات حقيقية أم انها من وحي الخيال ؟

وخيل الى راشتون أنه سمع صوتا خافتا قادما من أعلى الجدار ، اشبه بنداء موجه لهم .. فراح يهز زميله براين ويقول له : هل سمعت ؟

وأخذ الرجلان يزحفان نحو الصوت حتى قطعا حوالى ٤٥ مترا ، ثم قبعا في سكون لمحاولة سماع الصوت مرة أخرى ... ثم صاح براين : النجدة !

وراح يكرر الصيحة مرة بعد أخرى .. حتى اذا نال منه الاجهاد تولى زميله راشتون مهمة الصياح حتى مزق الالم حلقيهما دون جدوى .

وفي صباح الاحد ، نظر راشتون الى ساعته المضيئة ، وقال :

ـ اننا نقترب من السابعة .. انهم يستعدون الآن للتوجه الى الكنيسة .

كان فريد هنتر هو أخطر الجميع جراحا ـ دون أن يعرف هو أو زملاؤه هذه الحقيقة ـ ولكن هزة أخرى معتدلة جعلته يسهو عن التلف الذى أحدثته تلك الصخرة التى حطمت فخذه ، وأدت الى حدوث جلطة دموية في عروقه ، ومالبث أن أصيب بغرغرينة أدت فيما بعد الى بتر ساقه ، وحاول رفاقه أن يخففوا آلامه بتدليك ساقه دون جدوى ، وكثيرا ماكان يطلق صرخة تثير الهلع في نفوس الآخرين .

ويبدو أن ليفى ميلى كان أكثر زملائه حساسية لغاز الميثين المنبعث من الفحم ، وفي صباح الثلاثاء كان يهز رأسه محاولا أن يمحو وهجا أصفر اللون يبدو أمام عينيه .. وسرعان مابدأ الآخرون يرون وهجا مماثلا .. وهتف هولواى :

ـ أنظروا .. انه هنا أكثر بريقا .

أما بوزى ماديسون ، فقد كان يساوره القلق بشأن بوليصه التامين على حياته ، فلم يكن واثقا ان كان

قد سدد القسط الاخير منها أم لا .. وكان يفكر فى زوجته ،وهل ستتمكن من الحصول علىقيمتها فىحالةوفاته؟. وكان العطش قد جعل لسانه يتورم، ولكى يتخلص من العذاب الذى حاق به ، راح يتحدث كيفمااتفق عن كل مايرد على ذهنه .. كان يتحدث عن صيد الغزال ، ولعب النرد ، وفريق الهوكى.. وسرعان ماأخذبقية الرجال يتحدثون مثله..ثم وقعت هزة أخرى تردد صوتها الاجـوف فى المناطق الخالية من الفحم ، فهمس ليدبيتر فى صوت أجش : اسمعوا .. اسمعوا.

فقال الباقون والرعبيكاد يقتلهم انها هزة طفيفة لاقيمة لها ..

وأخذ لوثر يفكر فى اسرته..وفى طفله بوبى الذى يلعب معه « البيس بول » .. انمواهب الطفـل تبشر بمستقبل باهر فى هذه اللعبة ، وهو يأمل أن تشجعه زوجته على التدريب على اللعبة .

والتفـت دون وعى الى كاليب راشتونوحدثه علىانه زوجتهجولدى! فهتف راشـتون قائلا : ماذا تريد منى . .. هل تريدنى أن أطوقك بذراعى ؟

فغمغم لوثر فى ارتباك.. ثم حاول أن يغفو قليلا ، ولـكن كلمـا زادت حرارة الجو أو ساد الهدوء لحظة ،كان القلق يستولى عليه ويفـكر فى الغاز الذى يمكن أن يقتل أى واحـد من زملائه دون أنيدرك الآخرون وسط الظلام .. ثم تذكـر أن براين الذى يرقد على مقربة منه لم يتحـرك منذ وقت طويل ، فزحف نحوه ، ولمسه بيده فقال براين !

ـ اننى مستيقظ .. لقد كنت أفـكر فى شريحه لذيذة من اللحم !

فقال لوثر محـذرا : لاتفكر فى ذلك .. بل دعنا نفـكر فى طريقـة للخروج من هنا .

ـ لقد حاولنا ذلك دون فائـدة .

ـ اننا لانستطيع أن نكتفىبالجلوس هنا لنموت كالجرذان . يجب أن يقوم بعضنا بالدق على أنبوبه الهواء .

وحاول لوثر أن ينهض ، ولـكن كمبث وبراين تطوعا للذهاب.وراحا يزحفان بين الانقاض ، ثم أدنيـا رأسيهما قرب الانبوبة ، وفجأةوضع كمبث أذنه عند فوهتها وقال :

ـ أظن اننى أسمع أصواتا تشبه تفكيك الانابيب ؟.

وجذب نفسا عميقا .. ثم صاح بكل قواه :

ـ هالو ..

وعندئذ سنمع صـوتا يرد قائلا :

هالو ؟ .. هالو .

وذهل كمبث .. وأحس بعبرات ساخنة تبلل شفتيه .. وبدأ براين يضحك ويبكي في وقت واحد .

ثم صاح :

ـ استيقظوا يارفاق .. استيقظوا انهم قادمون الينا .. !

***

كان فريق الانقاذ يتقدم ببطء خلال الانقاض المكدسة عند المنطقة التي تقع على مستوى ٣٩٦٠ مترا ، وأخيرا قرر جورج كالدر مدير المنجم أن يحفر نفقا موازيا خلال الفحم الصلب بدلا من مواصلة التقدم . وبينما كان العمال يشقون طريقا خلال الفحم ، كان لابد من وجود أنبوبة للهواء معهم . وعندما بلغ تقدمهم حوالى ٢١٠ أمتار أصاب معول أحدهم أنبوبة هواء محطمة . كان براين وكمبث يرقدان عند طرفها الآخر .

وعلى الفور استدعى كالدر مهندس التهوية بلير فيليبس ، وطلب منه أن يأخذ عينة من الهواء المنبعث من هذه الانبوبة حتى يستخدموه في الحصول على الهواء اللازم لهم ان كان صالحا للتنفس .

وبينما كان فيليبس في طريقه للخروج من المنجم لتحليل عينة الهواء التي حصل عليها ، اذ سمع صيحة كمبث فتوقف وراح يتبادل معه الهتاف .. وعندئذ زعق كمبث قائلا :

ـ هنا ١٢ رجلا .. تعالوا لانقاذنا بحق السماء !

وراح يعدد أسماء زملائه .. فقال له فيليبس :

ـ احتفظوا بشجاعتكم .. اننا في طريقنا اليكم .

ورجع كمبث الى الجماعة زحفا ، واحتضن راشتون الباكي ، ثم عاد الى الانبوبة ، وصيحات لوثر تتابعه قائلا :

ـ قل لهم اننا في حاجة الى ماء !

وحاول الدكتور بيرون الذي كان يحرر شهادات الوفاة أن يرسل لهم الماء من خلال الانبوبة ، بينما حاول فريق الانقاذ أن ينزل من خلالها خرطوما من البلاستيك ، ولكنه لم يصل ، فدفعوا أنبوبة من النحاس ، ولكنها كانت قصيرة فطلبوا أنبوبة أخرى .

وفي السادسة من مساء الاربعاء أي بعد ستة أيام ـ من وقوع الهزة الكبرى ، نفذت الانبوبة النحاسية من خلال أنبوبة الهواء حتى لمست يد كمبث .. ثم تدفق منها الماء ..

وملأ راشتون صفيحة مائه وقال:

ـ شكرا ياالهى على هـذه الانبوبة والماء المبارك الذى جاء منها .

وما لبثت القهوة أن جاءت اليهـم بعد الماء..ثم جلس الرجال ينتظرون الفرج الاكبر ..

وقال جوثيرو فيما بعد : لقد كانت كل دقيقة تمر علينا كأنهايوم كامل.

وقبل أن يغفو كمبت ، ردد صلاته الاخيرة قائلا :

ـ اننا نقترب من النجاة الآن .. فلا تسمح ياالهى بهزة أخرى !

وفى الساعة الرابعة والدقيقـة الخامسة والعشرين ، نجح المنقذون فى شق طريقهم خلال القدم الاخـيرة من الفحم ، حتى التقوا بالرجال .

وسرعان ماتولى الدكتـور بيرون فحص كل منهم ، وطلب اليهـم أن يحرصوا على وقاية عيونهم من الضوء على سطح الارض .. وراح عمـال الانقاذ ينقلونهم على محفات برفق خلال النفق الضيق الذى شقوه، ويضعونهم فى عربات الترولى..وعندما اقتربوا من السطح ، سأل أحدهم :

ـ ماهذا الصوت المدوى ؟

فقيـل له : انه صوت الجمهـور وهو يهتف لـكم .

فهز رأسـه وقال : لقد ظننت أنه صوت محصل الفواتير فى انتظارنا!

***

لم يكن هناك من يعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أحياء آخرون فى المجم الذى تحطم ، ولـكن أحد المراقبـين قال انه بعد العثور على هؤلاء الاثنى عشر رجلا، عرف انه من الممكن توقع أى شىء .. وشـعر جونى كالدر بشعور غامض بأنه من الممكن العثور على أشخاص آخرين ..

وهكذا شرع ٣٠ شخصا فى شق طريق آخر على مستوى ٣٨٤٠ مترا. وفى خلال ٤٨ ساعه كانوا قد شقوا نفقا طوله ٩٠ مترا تقريبا .. وفى الساعة الرابعة من صباح السبت عاد أحد زعماء فريق الانقـاذ ليقول فى لهفة انهم شاهدوا رجلا .. حيا !

وراح الرجال يحفرون بعنف لايجاد منفذ من خـلال الانقاض والاخشاب المحطمة ، ويدعمون الممـرات التى ينفذون من خلالهـا وهم فى طريقهم الى الرجل الذى كان قد فقد وعيـه وان كانت لاتزال انفاسـه تتردد ، وسرعان مانقلوه الى أعلى . وفى خلال نصف ساعه كانوا قد وصـلوا الى منطقة أقل تأثرا من غـيرها بالرجة العنيفة .

وبينما كانت أضـواء المصابيـح تكشف عن ستة وجوه نائمة ، صاح كالدر: !

ـ ألم أقل لكم ؟

وتمتم أحد الراقدين وهو يطرف بعينيه :

ـ هذه الاضواء .. انها أشبه بملائكه قادمين من السماء !

وفي الساعة التاسعه والربع من صباح السبت ، أي بعد ثمانية أيام ونصف يوم من الكارثة ، صعد الرجال السته الى سطح الارض ، ليواجهوا تحية المئات من الاهلين الذين ازدحموا حول مدخل المنجم .. ويقول العمدة انه بدا كأنما ينتمي هؤلاء الستة الى كل أسرة في البلدة .

والواقع أن العمدة كان يردد الشعور الذي فاض على العالم كله يومئذ .. فان فاجعة سبرنجهيل جلبت ٤٠ ألف برقيه ورسالة من أنحاء الدنيا ، وجمعت تبرعات للضحايا زادت على مليوني دولار ، كان بينها ملاليم قليلة تبرع بها بعض الاطفال ، وشيك بمائة ألف دولار من احدى الشركات ومنحة طيبة من البابا يوحنا الثالث والعشرين ، وأموال جمعت من طلبة الجامعات ونوادي الرقص ، وحفلات المصارعة والموسيقى ، والكنائس والصحف وحلبات السباق .

وقد أهدي وسام الجمعية الانسانية الكنديه لحوالي ٤٠٠ رجل غامروا بأرواحهم لانقاذ زملائهم ، وهي أول مرة يقدم فيها الوسام الى جماعة من الناس .. ومنح نفس الرجال مدالية ذهبية خاصة من لجنه صندوق البطولة التابع لمؤسسة كارنجي ، وهي ثاني جماعه تحصل على هذه المدالية ، بعد أبطال كارثة غرق الباخرة تيتانيك في عام ١٩١٢ .

***

لقد خلفت الكارثه ضررا بالغا في سبرنجهيل ، ولكنها تركت أيضا دروسا عظيمة .. فقد علمت أهالي البلدة أن الايمان والعزيمة يمكن أن يحولا رجالا ظن الجميع أنهم ماتوا ، الى مخلوقات حية ضاحكة ، وان العالم في أوقات المحن يمتلىء باخوان صادقين .

عجيبة .. !

كان الزوج يتطلع من النافذة ، عندما نادى زوجته قائلا :
ـ ها هي السيدة التي يحبها جارنا بيل جونس حبا جما
فاسرعت الزوجة لترى هذه السيدة . .وما كادت تراها حتى قالت لزوجها !
ـ يا لك من غبي .. انها زوجته .
فحني الزوج رأسه وقال :
ـ انني اعرف ذلك

لطائف شخصية

اعتادت ماريان أندرسون مغنيــة الاوبرا أن تستخدم كلمة (نحن) أوكلمة « المرء » عندماتتحدث عن نفسها •• وحدث أن سألها عالم بوذى عن سبب ذلك خلال رحلةقامت بها فى آسيا ••• فاجابته قائلة :

ـ يدرك (المرء) كلمــا امتدت به الحياة ، انه ليس هنـــاك شىء معين يستطيع (المرء) أن يقوم به وحده • ففى أثناء تنفيذ العمل الذى نؤديه ، يساهم معنا أشخاص كثيرون،كهؤلاء الذين كتبوا الموسيقى ، وأولئك الذين صنعوا البيانو ليعزف عليه الموسيقى الذى يصاحبنا ••• وهــذا الموسيقى الذى يعــاون بفنه فى العزف •• بل حتى الصــوت والنفس وكل شىء آخر ليستمن صنعك وحدك ،ومن ثم فان كلمة (أنا) تعتبر صغيرة جداحيالها !

***

كان نــور بــيرت فينر أســــتاذ الرياضيات بمعهـــد ماساشوستس التكنولوجى يعبر حدائق المعهـد بعد ظهر أحد الايام ، عنـــدما أوقفه أحد الطلبة ليناقش معه مسالة ما ، فأجابه الاستاذ علىسؤاله بلطف •• ثمسأله:

ـ أى طريق كنت أسير فيه عندما اوقفتنى ؟

فقال الطالب مشيرا الى الطريق :

ـ كنت تســـير فى هذا الاتجــاه ياسيدى .

فتمتم البروفســور فينر وهو يواصل سيره :

ـ لابد أننى تناولت غدائى اذا •••

***

استقل (توتس شور) من أشهر أصحاب المطاعم فى نيويورك ســيارة اجرة منذ شهور ، وقال للسائق :

ـ هل تعرف مطعما محترما؟ اننى غريب عن هذه المدينة •

فقال السائق على الفور :

ـ أجــل ياســـيدى •• ان مطعم (توتس شور) الذى يقع فى الشارع الحادى والخمســين يعتبر من أعظم المطاعم فى العالم كله •• وسأذهب بك الى هناك فورا

وفى نهـــاية الرحلة ، كان توتس سعيدا الى حد انه منح السائق عشرة دولارات

وقال له : احتفظ بالباقى

فقال السائق : شــكرا • • • شكرا جزيلا يامستر توتس •••